ممدوح عدوان

أعدائي

رواية

ممدوح عدوان

أعدائي

رواية

MY ENEMIES

(A NOVEL)

:BY

MAMDOUH ADWAN

٢٠٠٠ First Published in October

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication

Data available

٧ ٠٠٤ ٢١ ٣ ٩٩٥ ISBN

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠

إهداء:

في هذه الرواية رجلان مقصران، مثلي، نحو الأولاد والزوجة بسبب انشغالهما.

يقول الأول (العربي):

«حاولت دائماً أن أنجز شيئاً يعادل غيابي ويعوضه أو يبرره...

سأجعلكم تفخرون أن كان لكم هذا الأب».

ويقول الثاني (اليهودي):

«هناك ما سيعوضهم عن افتقادي. وهو الوطن الذي أساعد على بنائه».

ولكن....

أهو تبرير كاف؟

وماذا لو فشل كل منا، أنا وأبطالي، في تحقيق ذلك التعويض؟

سيكفينا أن نجد من يفهمنا.

فإلى الحبيبة إلهام..

وإلى ولديّ العزيزين زياد ومروان..

الذين جعلني استغراقي في عملي أقصر في واجباتي نحوهم.

ممدوح عدوان

تقديم

«إنني مستغرق في بناء رواياتي حتى أستطيع أن أكون قارئاً لها...

طوال أربعين عاماً أنت تكذب على الناس في كتابتك وتجهد نفسك لإقناعهم بأن هذه هي الحقيقة».

آلان سيليتو

الفصل الأول

— ١ —

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم

ونيران قلبي زايدات لهوب

مشيت وقلت أوصل للأهل غانم

سعيت وبس ما لقيت دروب

أريد ابكي وانا فحل الضراغي

—م أتنهد وأحكي..........

ملعون أبو هذه الدنيا. ملعون أبو هذا العمر الخراء. نظل طوال عمرنا في الذَّنَب. دائماً إلى الوراء. مثل بعر الجمال. مثل فلو الجحاش. يبدأ كركوراً مثل الغزال وينتهي حماراً بأذنين مرخيتين وعينين بليدتين.

أنا؟ أنا عارف الإبراهيم أصل إلى هذه المواصيل؟ أصير مضحكة؟

إذا كانوا هم يقبلون أن يصيروا مضحكة، فأنا لا أقبل. هم لا يحسون أن للأمر علاقة بالكرامة. ومعظمهم يتخلصون من الإحراج كله بأن يقولوا: هذا من اختصاص مصلحة مكافحة الجاسوسية. والجميع يكتفون بالقول: عسكرنا حمير.

عسكرنا حمير؟ ونحن ماذا؟ غزلان؟ لولانا لما صار عسكرنا هكذا. نحن الذين ربيناهم على أن يكونوا

حميراً، على أن لا يرفعوا أعينهم إلى عيوننا. لا يجرؤ واحد منهم أن يسأل ضابطاً عما يريده حتى لو كان يدخل إلى أخطر المواقع، أو كان يفعل أي شيء. يكفي أنه ضابط، أفندي. أما لو كان (بيك) أو باشا فيا رب العفو.

حتى نهال، المدموزيل نهال، ضحكت ساخرة حين قلت كيف يميز العسكري المسكين، حين يواجهه الذوات، بين ذات حقيقي وذات متنكر؟

ضحكت نهال وقالت: يظل عقلك في التنكر. هل تعتقد أن الناس لا همّ لهم إلا التنكر؟ الذوات يبين عليهم أنهم ذوات. مثلما زوجتك تعرف أنها زوجتك دون أن تطلب هويتها.

نهال تقول ذلك وهي التي تتنكر وتتسلل وتطارد المتنكرين.

إيه. أنتم أحرار. على هذا الأساس لماذا إذاً تلومون ذلك العسكري المسكين الذي لم يسأل الضابط ليتأكد من هويته؟ الضابط أيضاً يبين عليه أنه ضابط. من ملابسه ورتبته ومضرطته وخرينته. والذي جاء إلى الشاطئ – أقص يدي من الإبط إذا لم يكن جاسوساً، أو ألتر ليفي نفسه – تمضرط وعمل نفسه ضابطاً. فلم يجرؤ العسكري المسكين على أن يضع عينه في عينه.

العمى. العمى. وألف العمى.

إلى هذه الدرجة يستجحشوننا؟ إلى هذه الدرجة يستوطئون حيطنا؟ امتلأت الدنيا بالجواسيس. جواسيس للإنكليز والفرنساوية والألمان. الجواسيس الأغراب والمتجسسون من أولاد البلد لصالحهم.

هذه هي معركته الدائمة. لكنه يخسرها شيئا فشيئاً.

ولم تكن الجاسوسية ذلك الموضوع الجديد على عارف. فالبلد يعج بالجواسيس. ولديه انطباع شبه مؤكد أن الجاسوس مطلق الصلاحية في البلد أكثر من ابن الحكومة، هذا إذا لم يكن الجاسوس هو نفسه ابن حكومة. ولا كان اليهود جديدين عليه. فهو مغتاظ مسبقاً من الامتيازات التي يتمتعون بها. مما يجعله لا يعرف لهم أساساً من رأس. هم يهود يريدون حرية ممارسة طقوسهم وعباداتهم. وهم مزارعون يريدون استصلاح الأراضي. وهم مرابون يديّنون بالفائدة. وهم ذليلون يقبلون الإهانات ويقومون بأقذر الأعمال وأحطها. وهم صاغة وساعاتية وأصحاب خمارات وبارات. وهم قوادون وشراميط. وهم مستخدمون وتجار خردوات وعتقجية. وهم في أعلى مناصب الدولة. وهم محميون بامتيازات فرضتها علينا الدول العظمى. وهم جواسيس للدول كلها. لألمانيا وفرنسا وبريطانيا. وها هي أميركا تدخل على الخط. ماذا تريد منا أميركا أيضاً؟ يا عمي إذا كان اليهود يعجبونكم

فلماذا لا تبقونهم عندكم؟ لماذا ترسلونهم إلينا؟ صحيح أن الروس ذبحوهم؟ طيب. لماذا ندفع نحن ثمن ما فعله الروس أو غيرهم؟ إذهبوا وطالبوا القيصر بديّتهم بدل أن تأتوا إلينا وتقولوا: هؤلاء خائفون. لَفّوهم عندكم يلحقكم ثواب. يا عمي خذوا الثواب أنتم.

ليس السبب إذاً أن البلد مليئة بالجواسيس فقط. بل هو أن الحظ لم يعد يواتيه في مطاردتهم كما كان يواتيه في الماضي. لقد بذل جهوداً كبيرة لمطاردة فايمان بري مثلاً. ولكن فايمان كان الأذكى دائماً. يختفي من بيروت ليظهر في دمشق. ويختفي في دمشق فيظهر في قبيلة بني صخر. ويأتي شيوخ بني صخر لمقابلة جمال باشا، فيأتي معهم شيخاً من شيوخهم. ويتحدث أكثر منهم. ثم يعود محملاً بالهدايا التي يريد جمال باشا أن يتقرب بها من البدو. وهو كان موجوداً. كان هو وعدنان بيك. وكانا مشغولين بتأمين حراسة المقر. عنصر صغير كان أذكى منه ومن عدنان. هو الذي قال إن الشيخ طعان الذي كان يتحدث هو نفسه فايمان بري. يرجعان إلى الصور. فعلاً هو. العمى!!

ليس فقط أنه شجاع إذ يأتي لمقابلة جمال باشا بصفة شيخ بدوي. بل هذا يدل على ذكائه وشجاعته. كم هو أذكى منا. ثلاث مرات جاء مع شيوخ عشائر وراح. وبعد ذهابه يعرفون.

دهموا مضارب بني صخر فلم يجدوه. وتحدث شيخهم بحماس وبراءة: معاذ الله. عندي أنا جاسوس إنكليزي؟ هذا الشيخ عبد الله المنصور من شمَّر. كان ضيفنا.

– ولماذا يأتي معكم إلى لقاء الباشا؟

* لما طلبَنا الباشا ما شفناها زينة نتركه ونروح لحلب. قلنا له تعال معنا. قال: أجيء.

– وأين هو الآن؟

* قصد أهله.. عند شمَّر.

– لا يا شيخ. لا هو عند شمر ولا غيرها. الله أعلم أين صار.

وأمسك بهم الشيخ: لكن يا ابن الحلال لهجته لهجة شمر. وسوالفه سوالف شمر. والله هذا الكلام لا يدخل في الرأس. لا أقدر أن أصدق.

* صدق يا شيخ. صدق.

فايمان هذا كان يلعب بنا مثل الطابة. وفي النهاية استطاع عدنان بيك أن يطارده ويقتله. ومن يومها نال رضا الباشا. كان يجب أن أقتله أنا. ليس فقط لخدمة الدولة العلية بل انتقاماً من سخريته منا. كل مرة أتصوره خارجاً من عند جمال باشا ونحن منهمكون في عملنا. ولا بد أن ابتسامة ساخرة مليئة بالاحتقار كانت ترتسم على وجهه وهو ينظر إلينا.

مقابل هذه الابتسامة وحدها كان يجب أن أقتله.

سبقني عدنان. أما ألتر ليفي هذا، الذي لا يبدو أقل ذكاء أو شجاعة من فايمان بري، فلن يفلت من يدي. ابن الكلب. لا أكون غير من ظهر خالي إذا أفلت مني. لا أحد يقف في حلقي إلا هذا اليهودي اللعين جاسوس الإنكليز ألتر ليفي. ألتر صاموئيل ليفي. تبلغ به الجرأة – سأعترف أنها جرأة – أن يلبس لباس ضابط عثماني ويأتي ليقوم بجولة على السواحل وتفقدها. بدل أن يتجسس من تحت لتحت يأتي من فوق. يأتي ضابطاً فيركض عساكرنا ليقدموا له ما يريد من معلومات. يلف رجلاً على رجل وهو يدخن النرجيلة وهم يرتجفون أمامه كالفئران.

لولا أنه يعرف أنها سائبة ما تجرأ. لولا أنه يعرف أن هذا الجيش حارات؛ لكل باشا حارة، ولكل بيك زريبة، لما تجرأ وجاء إلى مخافرنا من فوق. يأتي ابن الحرام إلى الثكنة ويدخلها محروساً بعساكرها. لولا أننا غشم ودواب لما تجرأ على ذلك. أعطوني خللاً واحداً يجعل أحداً يشك فيه. تصرف مثلما يتصرف ضباطنا تماماً. تَخَزيَنَ وزعق وصرخ وخوَف. وصار الكل يُتكتكون بين يديه.

تعرفون ماذا تعني فعلته هذه؟ تعني أنه آكلنا وخارينا. حافظنا عن ظهر قلب. يعرف خزينة كل واحد منا على من هم دونه. وكيف يخرأ في سرواله، ولا تدخل المسلة

في طيزه، حين يكون أمام رئيسه. يتحول من جبار متسلط إلى فأر لقلوق لا يطلب إلا رضاء الآمر. والآمر يطلب رضاء من هو أعلى. وخذ على هذا المنوال إلى أن تصل إلى الحاشية القحبة التي تحيط بجمال باشا.

أي نعم. ألف قصة مثل هذه القصة.

— ٢ —

كان الدركي عند شاطئ البحر حيث يجب أن يكون. هو أحد رجال الدرك المكلفين بمراقبة السواحل مقابل صيدا. لا نعرف ماذا كان يفعل. ولكن العسكري دائماً حين يفاجئه رئيسه يرتبك ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه. يظن دائماً أنه ليس في الوضع الصحيح. وهذا ما حدث مع العسكري حين رأى أمامه ضابطاً. ولو كان لا يعرفه. لكنه ضابط. العسكري المسكين حين رأى الضابط أمامه خاف أن يكون أمام جمال باشا نفسه أو أمام أحد ضباطه. وهل يحتاج هذا المعتر إلى جمال باشا لكي يخاف؟ تكفيه أية رتبة، أية نظرة حازمة، أي صوت آمر.

* ماذا تعمل عندك ولاك؟

— يا سيدي. أنا. أنا. حارس. أنا من حرس السواحل.

* هنا تحرس السواحل؟ (شهد الله كان يحدثني بالتركية التي لا أعرفها جيداً).

— يا سيدي. أنا. أنا هنا. هم.. هم. قالوا لي أحرس هنا.

* ومن الحمار الذي قال لك؟ (تصوروا أنا سأجيب على

هذا السؤال!)
وقبل أن يجرؤ على تحديد الحمار الذي قال له، صرخ به الضابط: أسرع وانده لي هذا الخراء رئيس الحرس.
أراد أن ينطلق بأقصى سرعته لينفذ الأمر، وليختفي من وجه الضابط، وليجلب من يتحمل المسؤولية عنه أو معه. ولكنه أحس أنه يجب أن لا يترك موقعه. ماذا لو كان حضرة الأفندي يجربه؟ لن يذهب. وماذا إذا كان لا يجربه؟ إذا كان في جولة تفتيش حقيقية. يجرؤ أن يقول له: لا أقدر أن أترك محلي؟ يجب أن يظل محله. ويجب أن ينفذ الأمر. ويجب أن يغيب عن الوجه. بمحاكمة عقلانية مرتبكة سريعة وجد نفسه يترك بندقيته بديلاً عنه ويركض. حتى الضابط الأفندي ابتسم.
– تترك البارودة وتجيء؟ والله لألعن أجداد أجدادك يا إبن الصرماية. ماذا سيقول عنا حضرة الأفندي؟ حمير؟ دواب؟ بقر؟ انقلع من وجهي الله يخزيك.
وشد الرقيب جميل حزامه وألقى نظرة على وجهه فاكتشف أنه لم يحلق هذا الصباح، ولا الصباح الذي قبله. فبدأ يهيئ أعذاره وهو يركض: يا سيدي، والله لا نجد وقتاً نحك فيه رؤوسنا. على كلٌ منكم السماح. سيحوِّل الحديث إلى العسكري: لا تؤاخذنا على جحشنة العسكري. لم يعرف ماذا يفعل وهو يرى هيبتكم أمامه.

ارتبك، عدم المؤاخذة. وهو، حاشاك، حمار. شقفة عسكري. جحش.

حين وصل أمام الضابط لم يحتج إلى هذا الكلام كله.

بادره الضابط: أنت رئيس الحرس؟

قال وكأنه مضطر للاعتراف بتهمة: نعم سيدي.

* كم واحد أنتم هنا؟

– عشرة يا سيدي.

* عشرة فقط؟

– عشرة في هذا المخفر. نحن مسؤولون عن هذا الموقع فقط. معلومكم هناك غيرنا في مواقع أخرى سيدي.

* وأين الآخرون؟

– تابعون لكتيبة إسماعيل أفندي. تحب أن تذهب إليهم؟ شرف. أنا آخذك.

* لا. لا. لا داعي.

في هذه الأثناء أنقذه مرور سليم بك صاحي. كان يريّض حصانه على الشاطئ: خواجة جميل.

وكأنه يستجير به، اندفع الرقيب: أهلين سليم بيك. وشدّد على كلمة «بيك» ليلفت نظر الضابط: ما فيه شيء. الأفندي عندنا في تفتيش.

– أهلا وسهلا بالأفندي.

ونزل سليم بيك عن حصانه. فهمهم الرقيب هامساً

للضابط: هذا سليم بيك صاحي واحد من أهم ذوات صيدا.

وكان سليم بيك قد وصل، وهو يبتسم ببشاشة، ويمد يده مسلّماً على الضابط: أهلا وسهلا بالأفندي. يصير تشرفون المنطقة ولا نتشرف بزيارتكم؟

ومد الضابط يده بينما كان سليم يلتفت كأنه يستعرض عالمه أمام الضابط.

– أراك وحدك حضرة الأفندي؟ لا فيه ماكينة ولا حصان.

ثم يضحك كأنه يثني على مهارة الضابط ويضيف: لكل شيخ طريقته. هذه أول مرة أرى الضابط الأفندي يقوم بدورية على قدميه. برافو عليكم. باللّه جماعتنا يرفعون الرأس. والحمد للّه دائماً إلى قدّام. أسلوب جديد في الدوريات. ونحن ما لنا؟ قصدي ما دخلنا؟ شغلكم وتعرفونه. ونحن مسلّمون أمورنا لكم دنيا وآخرة. بس اسمعني يا أفندي. الإسم الكريم بلا زغرة؟

* الميجور عباس.

– والنّعم. صدقني يا عباس أفندي، والاّ بيك عدم المؤاخذة؟ كلنا أخوان. ولكن صدقني هؤلاء الشباب ما عليهم حكي. أللّه وكيلك ليلهم ونهارهم في الحراسة. تقول أنهم لا ينامون. أنا نفسي يوجعني قلبي عليهم. تشرفوننا نتغدى سوية يا سيدي؟

وأسرع الرقيب يؤكد: هنا سليم بيك مضافته خصوصي للضباط الأفندية والبكوات.

ودون أن يلتفت إلى أي منهما قال الضابط وهو ينظر بعيداً: إن شاء الله. يجب أن أكمل الجولة. سأصل إلى مخفر الناعمة.

– مثل ما تأمر يا بيك. نحن بانتظارك. حين تخلَص جولتك تشرّف. محلَكم. جميل أفندي يعرف الدار ويدلك عليها.

بمزيد من التظاهر بالانضباط قال الرقيب: الله يديمك يا بيك. طول عمرك صاحب فضل. لكن أنا لا أقدر أن أترك شغلي. تعرف. الواجب فوق كل شيء. على كلٍّ بيتكم لا يتوه عنه أحد.

ومشى الضابط مبتعداً عنهما.

همس سليم بيك: عرفت من هو؟

فقال الرقيب: وماذا يعرّفني؟ الله العليم ضابط من جماعة جمال باشا.

فقال سليم بيك: أركض. بلِّغ جماعة الناعمة. خلّيهم يستعدوا. أحسن من أن يفاجئهم. خطيِة. سيخرب بيوتهم.

وهمَ الرقيب بالركض في الوقت الذي جاء فيه العسكري، وكأنه كان مختبئاً، وهو يضحك ضحكة مرتبكة: إن شاء الله مرت على خير؟

ولم يجبه الرقيب.

وحوّل العسكري حديثه إلى البيك لكي يكون على قدم المساواة: أهلاً سليم بك. تصور لكثرة ما أربكني هذا الأفندي تركت البارودة. قصدي نسيتها.

وكأنما وجد الرقيب ما يفعله ليستعيد سلطته التي ذابت أمام الضابط. فوجه صفعة عنيفة للجندي وبصق عليه: من طيبه راح يخرب بيوتنا؟ تصور لو أنه جمال باشا.

مشى الرقيب نحو مخفره بينما تطلع العسكري إلى سليم بيك: هل تعرف شكل الباشا يا بيك؟

– ٣ –

في المخفر صاح جميل في الهاتف: ولك إي إي. ضابط من جماعة جمال باشا. كان عندنا. لا تقل غير صار عندكم. صار لي ساعة أحاول أن أحكي معكم. وسنترالكم الحمار لا يرد.

وقبل أن يعيد رئيس مخفر الناعمة سماعة الهاتف، وهو ينهض ليبدأ استعداداته، وجد الضابط يقف أمامه. فبدأ يقوم بمجموعة من الأفعال دفعة واحدة. راح يزرر سترته ويبحث عن قبعته ويحشر رجله في البوط. وفي الوقت نفسه يريد أن يقف باستعداد ويقدم التحية.

لم يمهله الضابط. قبل السلام عليكم فقعه كفّاً عمى خلقته.

– هذه هيئة رئيس مخفر ولاك؟

* يا سيدي...

وتطلع إلى الدرك الذين اختفوا.

ولم ينتظره الضابط. جلس على الطاولة: أقعد. أطلب لي مخفر السعديات. قل لهم إني ذاهب إليهم. لا أريد أن أفاجئهم وأشوفهم بهيئة كهذه. العمى. واللّه صرت أخجل. ولك أنتم ستراقبون السواحل؟ وتمنعون تسلل الجواسيس؟ وتبلغون عن بواخر إنكليزية وفرنساوية وألمانية؟ أنتم تحمون الدولة العلية؟ ماذا لو أن الباشا فاجأكم في هذه الحالة؟

وجد الرقيب من يرد عليه فلم يعرف إن كان سيتحدث همساً لكي لا يقطع كلام الضابط؛ أم يتحدث بلهجته المعروفة. فهو يعرف أن الذي يرد عليه أقل منه رتبة. خرج صوته متحشرجاً: آلو...

وقبل أن يرد عليه الطرف الآخر وجد أن من الأفضل والأسلم أن يقدم السماعة للأفندي: إحكوا مع سيدنا الأفندي.

وصرخ به الضابط: ولك حمار. لا تعرف تحكي كلمتين بالتلفون؟

* أعرف. أعرف يا سيدي. آلو. خذوا استعداداتكم. فيه جولة تفتيش.

– يكفي.

وأغلق الرقيب السماعة.

– كيف الأحوال عندكم؟

فوجئ باللهجة العادية التي تفتقد إلى الحزم والنهر حتى بدت له لطيفة.

* نعم سيدي؟

– الأحوال عندكم كيف هي؟

* الحمد لله. ماشي الحال. نشكر الله. مستورة.

وهب الديناميت: لا أسألك عن عائلتك يا حمار. أسألك عن الحالة هنا على الشاطئ.

* عفواً سيدي. الحالة هنا هادئة. الحمد لله.

– تشوفون بواخر فرنسية؟. إنكليزية؟

* لا سيدي.

– الأهالي معنا أم مع الفرنساوية والإنكليز؟

* معنا سيدي. معنا.

– سمعنا أن اللبنانيين ينتظرون الأسطول الفرنساوي.

* والله سيدي نحن عيوننا على البحر. ماذا يصير وراءنا؟ لا نعرف.

– كم واحد أنتم هنا؟

* مخفرنا؟ عشرة سيدي.

– ناقصكم شيء؟ لازمكم شيء؟

* ولا شيء سيدي. نشكر الله.

– قصدي ناقصكم شيء معدات للمراقبة؟ نواظير؟

لاسلكي؟ أم عندكم؟
* لا واللّه سيدي ما عندنا. يا ليت يكون عندنا. يعني عدم المؤاخذة نحن نتطلع إلى البحر. إذا كان فيه قليل من النّو أو غباشة لا نشوف الباخرة حتى تصير أمامنا.
نهض الضابط: سجل لي طلباتكم كلها.
* حاضر سيدي.
وخرج الرقيب يودعه. وحلف عليه أن يركب حصان أحد العناصر. وهم سيستعيدونه من السعديات: هذا حصان أصيل يليق بعظمتكم يا بيك. وعدم المؤاخذة الركوب أريح. وطالما أنهم عرفوا بمجيئكم لا داعي للمفاجأة والمشي.
ورضي البيك أن يأخذ الحصان فركبه وانطلق به.
ثلاثة أيام وهو يجول من مخفر إلى مخفر: الناعمة، السعديات، الدامور، خلدة. سجّل حاجات الجميع وطلباتهم ووعدهم بتأمينها. وأمر المخافر بمراجعة المخاتير لأن الحاجات غير العسكرية (غير الذخيرة والنواظير واللاسلكيات والبواريد)، يعني التخوت والفرش والبطانيات، تؤمن عن طريق الباشا حاكم الإيالة، أو أي بيك من بكواته. بعضهم أحس بالراحة وصار يتهيأ للترفيع. آخر بدأ يجمع أغراض بيته لأن حضرة الضابط وعده أن ينقله إلى المعرة لكي يكون قريباً من أهله.

انكشف الأمر حين بدأ رئيس مخفر الناعمة يضايق المختار ويطالبه بما وعد به الضابط. والمختار يحلف له كل يوم: وكيلك الله ما جاءني خبره. ورئيس المخفر يلح ويهدد. وأخيراً نفذ رئيس المخفر تهديده ورفع تقريره إلى قائد البلوك في صيدا. وفوجئ القائد بأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع: لا عن الزيارة ولا عن الضابط. عم يتحدث هؤلاء؟ بعث ببرقية إلى القيادة في بيروت. ولكن القيادة أيضاً استغربت الموضوع. القيادة خابرت الفرقة ٣٤. وقائد الفرقة استفهم من قيادة الفيلق الثامن. واضطرت قيادة الفيلق الثامن أن تسأل قيادة الجيش الرابع: أي مكتب جمال باشا.

لا أحد يعرف من أين جاء هذا الضابط ولا أين ذهب!

وجن جنون جمال باشا.

وصلت برقياته مثل النار تكاد تحرق من يمسها: أخلقوه من تحت الأرض.

– ٤ –

كان عدنان بيك، رئيس مصلحة مكافحة الجاسوسية، جالساً في مكتب علي رضا باشا، قائد الفرقة، حين وصلت برقية جمال باشا. وفيما هما يقرآنها دخل عارف بيك كما يمكن أن يدخل جمال باشا نفسه. عرف أنهم يقرؤون برقية عظمتلو جمال باشا فلم يترك لهم فرصة إكمال القراءة بل صاح بهم: طبعاً سيتمكن جاسوس

تافه، لا نعرف قرعة أبيه من أين، أن يخرق هذه البلاد من طرفها إلى طرفها طالما أن الفوضى ضاربة أطنابها. تعرفون ماذا حدث يا أفندية ويا بيكوات؟ جاسوس درس أوضاعنا على طول هذا الساحل من حيفا إلى بيروت. درسها على البارد المستريح. استجوب عناصرنا. وأكيد أنهم توقعوا أن يشيل لهم الزير من البير فما تركوا أمامه ستراً مغطى.

– هذا ألتر.. ألتر ليفي.

التفت عارف بيك إلى مصدر الكلام. ولولا أن قائله هو عدنان بيك لكان الجواب صفعة دوى لها المكان. ومع أنه لم يصفعه إلا أنه لم يستطع منع نفسه من التوجه إليه بكلام أقسى من الصفع:

* شاطر. حزرتها بنفسك؟ أم أحد قالها لك؟ ألتر ليفي أم غيره. ما الفارق؟ المهم أنه يستخمرنا. وإذا كان قد لعب على مكافحة الجاسوسية فأنا لا أسمح أن يستهزئ بشرطة العدلية.

– تريد أن تلقي بمسؤولية الموضوع على مكافحة الجاسوسية؟ أظن أن المسؤولية تقع على عاتق شرطة العدلية. فالرجل كان يتجول في البلاد بملابس مستعارة وهوية مزورة.

– والله إذا كنتم تريدون أن تحددوا المسؤولية بلَشوا من فوق.

* أين فوق؟ أين يعني؟

– من فوق الفوق. تظن أنك تخيفني؟ من فوق الفوق. من أعلى ما يصل إليه نظرك.

* ما قصدك؟

– قصدي العسكر مساكين. مكسورة ظهورهم. جاءهم ضابط يفتش عليهم.

* كان يجب أن يتأكدوا أنه ضابط أم لا.

– كيف؟ يطلبون هويته؟

* طبعاً يطلبون هويته.

– ويعطيها؟

* ولماذا لا يعطيها؟

– لو حضرتك رحت إلى السعديات وجاءك دركي يطلب هويتك ماذا تعمل به؟

بتردد قال: أعطيه إياها. هو يؤدي واجبه. واجبه أن يطلبها. وواجبي أن أعطيه إياها.

هز عارف رأسه ساخراً: إي على بعضنا عدنان بيك؟! أي والله كنت تجعل ألله ما خلقه.

* غلطان.

– يا سيدي غلطان. أنت لا تعملها غيرك يعملها. وضع جيشنا هكذا. وضع بلدنا هكذا. الآن سأطلع من هنا أركب على حصاني وأمشي به إلى صيدا. هل يقدر عسكري في الطريق أن يوقفني ويقول لي أين هويتك؟

يقدر يسألني ما الذي في خرجك؟ وإذا كان لا يسألني معناها لا يسأل غيري. ويجوز أن الخيّال الذي مر قبلي أو الذي سيمر بعدي أو أنا جاسوس.

* شوف يا عارف بيك. أنت طول عمرك مناقرجي ومشاكلجي وتحب الأخذ والرد. الله يخليك. يكفينا.

وقطع الحديث قرع على الباب. فالتفت قائد الفرقة مرتاحاً وقال: أدخل.

ووقف الحاجب بالباب: مطران الروم الأرثوذكس يريد أن يشوف حضرتك.

— المطران؟

ووقف المطران بالباب وألقى التحية.

وعلى الرغم من احتدام الموقف اضطر الجميع للنهوض والسلام عليه باحترام: أهلاً أبونا. أهلاً. تفضل. تفضل. شرِّف هنا.

فقال المطران بلهجته الودودة، وهو يجلس ويمسح ذقنه: لا أريد أن آخذ من وقتكم الكثير. لكن الحقيقة قلقت. قلت لحالي لا بد صار شيء حتى تخلفوا بوعودكم.

ونقل نظرته الباسمة بينهم، فيما كل منهم يتطلع إلى الآخر دون أن يفهم المقصود من الكلام. قال علي باشا: خيراً إن شاء الله أبونا؟ ما هو الموضوع؟

وشرح المطران الموضوع ببساطة: الضابط الذي جاءني

من طرفكم، محمد أفندي، أحب أن يطمئن على أوضاع الرعية. استقبلناه وأكرمناه ونيّمناه عندنا. وهو، بالصدق بالصدق، إبن حلال وقلبه لله وغيور على البلاد مثل ما نحن غيورون عليها. صار يسألني عن الرعية إذا لازمها شيء. نحن، والحمد للّه، لا يلزمنا شيء بفضل رعايتكم. لكن الحقيقة لفتنا نظره إلى أننا، نحن الأرثوذكس، نحن جنود الدولة العلية. والموارنة هم الذين طوال عمرهم رِجل هنا ورجل بفرنسا. يعني صحيح لازم ترضوهم وتشدوهم للبلاد. لكن ليس كل شيء لهم. يعني أنتم ترضونها أن مطران الموارنة يتبحبح ويجخّ على جماعته وما يظل فيهم جوعان، ونحن نعصر حالنا عصراً حتى نمشي الحال ونطعم الفقراء؟ الفقراء دون تمييز. ودون أن نسأل ما هي ديانتهم ألله الوكيل. تفضل حضرتك. شوف بعينك. في الكنيسة عندنا يأكل الدرزي والمتوالي والسني مثل كأنه ابن الكنيسة.

ورغم شدة غيظ عارف مما يسمع لم يستطع إلا أن يهدئ نفسه بمجاراة المطران بالحديث: وبماذا وعدكم الضابط الذي جاءكم من عندنا؟

— قال: بعد بكرة. يعني البارحة. تصل المؤونة. وها هي ستغيب شمس اليوم وما بيّن شيء. قلت يجوز أن المؤونة وقفت بالفرقة هنا لأن اليوزباشي محمد لا يمكن أن يكذب. باين عنه ابن حلال.

وسأله عدنان بيك: من هو اليوزباشي محمد؟

فقال المطران: الأفندي الضابط اللي جاء من طرفكم.

قال اللواء: محمد أم عباس؟

قال عدنان: محمد. يعني مسلم؟

فقال المطران: الله لا يفرّق بيننا. وما الفرق؟ مسلم أم نصراني؟ كلنا أولاد هذه البلاد.

نهض عارف مغتاظاً، وقال للمطران: شفت إذا متطهر؟

صعق المطران حتى خيل إليه أنه لم يسمع جيداً. ولم يلحق أن ينقل نظره إلى الجالسين حتى كان عارف قد خرج.

ونهض عدنان متفجراً ليخرج. نظر المطران إلى اللواء علي الذي ابتسم له: ما عليه شيء أبونا. لا بد من طول البال.

فقال المطران محتجاً بأدب: كان يجب أن يحفظ مقامك أنت يا باشا. أنت أعلى منه رتبة.

فقال اللواء علي رضا باشا: يا أبونا هؤلاء غير شيء. هؤلاء رجال الخفية ما فينا عليهم.

— ٥ —

فوجئ عارف وهو يخرج من السرايا بوصول نهال حامد. هذه المرأة لا يستطيع أن يفهم لها أساساً من رأس. تتصرف تصرف الضباط. تعطي الأوامر وتناقش وتضع الخطط. وتحمل السلاح وتقاتل أحياناً.

مسترجلة. ولكنها في الوقت نفسه تسهر وتسكر وترقص وتغني وترافق بعض الضباط الأجانب إلى غرفهم في الفنادق. وأقطع يدي إن كانت لا تنام معهم. شرموطة. بِريقها الحلو وقحبنتها توقع أذكى الجواسيس. تكشف أسرارهم وخططهم وتنكّرهم وتشارك في القبض عليهم. كيف لا تخجل من القبض على الرجل الذي باتت في فراشه؟ كيف تستطيع أن تتطلع إلى عينيه بعد أن فعل معها ما فعل؟ أعوذ بالله من كيد النساء.

– ما الأخبار عارف بك؟

ولم يكن يحب أن يتوقف ليبادلها الكلام. ماذا سيقول العساكر الواقفون أمام السرايا وهم يرونه يتحدث معها؟ وماذا يقولون عنهم كلهم وهم يرونها تدخل مجالسهم المغلقة وهي بكامل زينتها وأناقتها وتبقى الساعات الطويلة؟ هل سيصدقون أنها تناقش وتضع الخطط؟ أم أنهم لن يفكروا إلا بالشيء الوحيد الذي يجب أن يفكروا به؟ حتى هو لا يستطيع إبعاد فكرة العري والأفعال القبيحة من ذهنه كلما رآها تدخل أو تخرج من قاعة مغلقة. هو نفسه لم ير شيئاً. وهي لا تجرؤ على التمابع أمامه. لكنها تتحدث ببساطة عن أفعالها مع الآخرين الذين تتم ملاحقتهم أو القبض عليهم.

– صحيح أن الضابط الذي تجول على الساحل...؟

* صحيح. جاسوس.

– هذه كبيرة يا عارف بيك. كبيرة.

ولم يستطع أن يمنع نفسه من وخزها: ومنذ متى تهمك الكبائر؟

وفوجئ بلهجتها الحازمة: عارف. اضبط كلامك والزم حدودك أحسن لك هاه.

أعوذ بالله. إذا أردت أن تبهدل امرأة سلط عليها طفلاً. وإذا أردت أن تبهدل رجلاً سلط عليه امرأة. وامرأة كهذه تريه نجوم الظهر وتجعله فرجة لمن يتفرج. فاستدرك: لا أحد يهتم يا نهال خانم. لا أحد. الطاسة ضائعة.

قالت: يجب تعزيز التعاون بين أجهزة الأمن كلها. تعال نجتمع مع عدنان ونضع خطة.

– عندي شغل.

وحوّل وجهه لكي لا يواجه عينيها. ثم مشى حيث ينظر.

لا يستطيع احتمال أن تجلس امرأة في مجلسه. فكيف بامرأة كهذه؟ ولا تجلس فقط، بل تناقش وتحتج وترد وتعترض وتقترح. المسألة مسألة رجل ضحك علينا. ولن نستنجد بامرأة لتخلصنا منه. الرجّال يجب أن يجابهه رجّال. حين تكون هناك نساء أو شباب نواعم ومزحلطون شوفي شغلك. هذا الألتر ليفي أنا الذي سآكله بلا ملح. ولا أحب أن تري منظراً كهذا حين

يحدث.

– ٦ –

ولم يعرف أين يهرب بهواجسه. ولكنه حين تذكر ابنه القادم من دمشق في إجازة دراسية قرر الذهاب إلى البيت. سيسعده أن يرى إبراهيم. هذا الولد الذي صار رجلاً في غفلة. وأي رجل؟ أطول من أبيه. وأقوى حتماً. جسد مشدود وكتفان عريضتان وعزم ينفر من عروق الرقبة. رجل. ولكن هذا يعني أن المصاريف تزداد. لا شك أن إبراهيم يحتاج إلى خرجية. يجب أن يفكر منذ الآن بتأمين اللازم له. وهذا ما زاده غماً.

حين وصل إلى البيت لم يجرؤ أحد على توجيه الكلام إليه. من وجهه الذي يكب صحن اللبن عرفوا أنه قد يقلب البيت فوق رؤوسهم. زوجته صارت تحوص ولا تعرف ماذا تفعل. الأولاد قبعوا صامتين لا يجرؤون على استكمال لعبهم.

نقل نظره في البيت. أحس بنفسه ثقيلاً بلا مبرر. فخرج إلى أرض الدار. وقف. تطلع إلى السماء وتنهد بعمق. فأحس برطوبة الهواء. جلس على حافة صغيرة أقاموها ليزرعوا خلفها وروداً.

قالت الأم لابراهيم ابنها: إطلع شف ما به. ما أحد يجرؤ أن يحكي معه غيرك.

تطلع إبراهيم إليها بهدوء وقال: أتركيه.

– إفهم ما الذي جرى معه.
* أتركيه. فيما بعد.
وبرغبة من يريد أن يؤكد رجولته من خلال فهمه لرجولة الآخر أضاف: الرجل حين يكون متضايقاً لا يحب أن يحكي مع أحد. يحب أن يظل وحده.
– لو أراد أن يظل وحده لما جاء إلى البيت. أبوك جاء لأنه يريد من يحكي معه.
وأحس بالحرج. ليس من السهل الحكي مع هذا الأب: إحكي معه أنت.
– أنا لا أجرؤ. حرمة. إذا كلمته يضربني. الرجل إذا أراد أن يفش خلقه يضرب حرمة أو يحكي مع رجل. قم يا ابني. قم. الله يرضى عليك. أنت رجال مثله.
أعجبه اعتراف أمه برجولته. وأحس أن كلامها صحيح أيضاً. هذه المرأة الجاهلة تعرف الرجال أكثر مما يظن أو يظنون. خبرتها علمتها الكثير. لكنها تظل صامتة، وهي تعرف أكثر مما يتوقعون. وعلى الرغم من أنه يريد أن يفرض نفسه رجلاً في البيت، وعليها بالدرجة الأولى، وعلى الرغم من اعترافها بهذه الرجولة الآن، لكنه أحس أنها أكبر منه وأقوى. ولكي لا يعترف بأنها أكثر فهماً اعتبر أن حبها لأبيه هو الذي يجعلها حريصة عليه. وأن حياتها الدائمة معه تجعلها أكثر تفهماً له منه هو الابن المقيم في دمشق للدراسة، والذي لا يأتي إلى

بيروت إلا في الإجازات.

خرج إلى أرض الدار. رأى أباه جالساً على الجدار الصغير. اقترب وجلس إلى جانبه. وأحس عارف بابنه. وكأنه فهم أن الأم قد أرسلته. التفت إليه: كيفك بابا؟

– مليح. فيه أخبار جديدة؟

* من أين الجديد؟

– قال جمال باشا سيوقع قرار الإعدام.

* بمن؟

– بالوطنيين.

فاجأته الكلمة. تطلع إليه بحدة: يستأهلون.

– بابا؟

* ماذا تتوقع إذن؟ جواسيس. أناس يتآمرون على البلد. ونحن في حرب.

– بابا. أنت تصدق هذا الكلام؟ تصدق أنهم جواسيس؟ هؤلاء أولاد عرب مثلنا. ويريدون أن يحصلوا لنا حقوقنا.

* الآن وقتها؟

– متى وقتها إذن؟

* أيام الحرب؟

– ومن الذين يموتون في هذه الحرب؟ نحن. كم واحد من أولاد العرب مات في الكوت أو في جناق قلعة أو في اليمن أو حتى في حملة السويس الأخيرة؟

أراد أن يخفف من حدة ابنه لكي لا يظلا نذين. حنن صوته لكي يصبح أباً: يا ابني الحرب هكذا. الحرب فيها موت. كل شيء يهون من أجل الوطن والدين.

– هذا ما أقوله أنا.

تطلع إلى ابنه غير فاهم. فأكمل الشاب بحماس: لا شئ غال على الوطن. والذين سوف يعدمهم جمال باشا يضحون من أجل وطنهم.

– بدل أن يضحوا هكذا لماذا لا يحاربون؟ أليس أحسن من شغلهم في التجسس؟

شب الولد واقفاً: أنت لا يأخذ عقلك غير الجواسيس. كل شيء في الدنيا جواسيس. لم أعد أستبعد أن تتهمنا ذات يوم في هذا البيت أننا جواسيس.

وترك أباه وخرج من البيت.

لم يتحرك عارف. ولم يعتبر كلام ابنه قاسياً. شيء فيه أعجب بغضب الابن وبفهمه. فهو هكذا فعلاً. لا يشغله شيء في الدنيا إلا الجواسيس.

– ٧ –

ماذا لو أن ذلك الرجل لم يكن ألتر ليفي؟ ماذا لو كان جمال باشا نفسه؟ ألعن وألعن. جاسوس يضحك علينا ولا الباشا يكتشف فوضانا.

كانت البلد مليئة بالشائعات عن جمال باشا، وما فعله جمال باشا، وما سيفعله جمال باشا. كلها حكايات عن

حزمه وبطشه ورغبته في تحقيق العدل. كم مرة تناقلوا حكايات عن مواطن يدخل دائرة من دوائر الدولة، ويواجه التعقيدات وطلب الرشوة. ثم يكشف عن وجهه ليتبين أن هذا المراجع المسكين هو جمال باشا نفسه. والذي يحب النبي يخلي. الذي يتسرح. والذي ينسجن. والذي يتخوزق. كم مرة سمعوا عن المهرّب الذي كان معه حمولة خمسة بغال حنطة. وحين اعترضته الدورية عرض على عناصرها حمولة بغل وعشر مجيديات فقبلوا معه. ثم كشف لهم عن وجهه: جمال باشا.

جمال باشا موجود في كل مكان، وفي كل دائرة، وفي كل بيت. سيحرق الأخضر واليابس. ويجعل هذا البلد بلداً. ولكن بالله عليكم ماذا يفعل الرجل؟ يتشقّف؟ يصير ألف رجل؟ ألفين؟ هو وحده لا يستطيع أن ينفذ القانون. نحن يجب أن ننفذه. نساعده على تنفيذه. يصدر أمراً بمنع تهريب الحنطة. أقصد مصادرتها. والتجار يسرحون ويمرحون. ولا على بالهم. هناك دائماً فرصة للالتفاف على قوانين الدولة مادام هناك فقر ورواتب قليلة وتمييز بين الخيار والفقوس. بأية رشوة تبعص أكبر قانون. ولذلك فالذي يريد أن يبيع في السوق السوداء يبيع. والذي يريد أن يهرّب إلى لبنان يهرب. والذي يريد أن يبيع للألمان يبيع.

كله إلا هؤلاء الألمان أولاد الكلب.

ما كان ينقصنا إلا الألمان. بدل أن يساعدونا في الحرب يشترون القمح لجبهتهم في أوروبا. يدفعون ثمنه ما فتح ورزق. جعلوا الأسعار تصل عند الغيم. حتى تجارنا تضايقوا منهم. تجارنا المتعودون على التهريب، وعلى الشراء بأسعار زهيدة من الفلاحين الخائفين، تحولوا إلى سماسرة للألمان. يجمعون الحنطة على أساس أنها للجيش، أو للنقل إلى لبنان الذي يموت الناس فيه جوعاً أكثر من غيره. ثم يهربونها إلى الألمان. وابن آدم طماع. طيب كيف نصادر القمح؟ هذا يدفع رشوة فيمرر بضاعته. وهذا يحتمي بضابط يشاركه التجارة. والثالث يشتغل مع الألمان. وغيره معه كرت من جمال باشا ولا أحد يستطيع أن يقول له ما أحلى الكحل بعينك. والخامس مسيحي تحميه القناصل والامتيازات. والسادس يهودي. متى نخلص من هذه الامتيازات؟

كله إلا هؤلاء اليهود أولاد الميتة. موجودون في كل مكان. أروح وأرجع إلى اليهود.

اتخذ عارف قراره: سيدخل على الخط. مئة مرة قال لهم: هذا الرجل جاسوس. ولا فائدة. مرة يقولون له: هذا ألتر ليفي صاحب الباشا. هذا معه جنسية أميركية. ليس لدينا دليل. يا أخي ابحثوا عن دليل. أليست هذه شغلتكم؟ وتثور كبرياء عدنان: كن في شغلك ولا تعلمنا شغلنا.

طيب. إذن أنا أمسكه. وبالجرم المشهود. وعلى الرغم من أنه رئيس البوليس العدلي في بيروت إلا أنه سيقوم بعمل دائرة مكافحة الجاسوسية. ما الفرق بين البوليس العدلي ومكافحة الجاسوسية؟ أليس كله عدلاً؟ أليس كله دفاعاً عن أمن البلد ومحاربة للعابثين سواء كان هذا العبث لمصلحة أناس في الداخل أم في الخارج؟ لصالح الأعداء أم لصالح اللصوص؟ وما الفارق بين اللصوص والأعداء؟

يعني يا عدنان بيك لو رأيت لصاً أو قاتلاً ألا تلقي القبض عليه رغم أنك من مصلحة مكافحة الجاسوسية؟ وهل تظن أن أتلفان باشا، جواد رفعت أتلفان، يزعل منك لأنك اشتغلت غير شغلك؟ خذها مني. سيهنئك كما هنأني عزمي بك مدير شرطة اسطمبول حين شاركت في مطاردة فايمان بري. نحن في حالة حرب. وكل ما يضعف جبهتنا يجب وضع حد له: الفوضى واللصوصية والجاسوسية والهرب من الخدمة والاتصال بالأعداء. وإلا لماذا حملة الاعتقالات الأخيرة التي أمر بها جمال باشا؟ أنا أفهم كيف يفكر الباشا. وأنا سأريكم كيف يكون الشغل؟

ذهب إلى فندق دوتشرهوف الذي ينزل فيه ألتر ليفي وحجز غرفة لنفسه. وصار يقضي وقته في البار أكثر مما يقضيه في الغرفة. وكان البارمان عينه الساهرة في

غيابه. قال له عارف ضاحكاً: يا ميخائيل أنا لست قد المشروب. دبرني.

– تكرم عينك عارف بيك.

وعبأ زجاجة ويسكي فارغة بالزهورات وصار يسكب له منها كلما جاء ليجلس على البار. وفيما كان متمدداً في غرفته مساء قرع الباب. وفتحه أحد الخدم في الفندق: يطلبونك في البار.

نهض عارف مسرعاً. عرف أن ميخائيل قد عثر على شيء مهم. وحين دخل لم يجلس إلى مائدة بل على البار. وراح ميخائيل يصب له الكأس وهو يهمس: هذا الرجل الجالس هناك وطربوشه أمامه على الطاولة صراف من بيروت. يهودي اسمه بنيامين ساحور. كثير السفر. جاء يطلب ألتر.

* ماذا يريد منه؟

– نشتغل شغلنا وشغلكم يا بيك؟ هذا شغلكم أنتم.

* هل أرسلت في طلب ألتر؟

– أرسلت في طلبك أولاً. وبعدها ذهبوا لإبلاغ ألتر.

ودخل ألتر. اتجه فوراً إلى طاولة بنيامين وسلم عليه. ثم صفق يطلب النبيذ الفرنسي. وقبل أن يصل النبيذ كان ألتر يدس تحت طربوش بنيامين ورقة لمحها عارف. فأفرغ كأسه ونزل عن الكرسي وهو يتظاهر بأنه يبذل جهداً للمحافظة على توازنه.

وقال له ميخائيل بصوت مسموع: والقزازة يا بيك؟

قال له عارف: تحمم بها.

وأطلق ضحكة سكير محترف جعلت ميخائيل يبتسم وينقل نظره نحو طاولة ألتر وبنيامين اللذين سمعا ما جرى وراحا يضحكان.

قال ألتر: عرفته؟

هز بنيامين رأسه: طبعاً. هذا عارف بيك رئيس البوليس العدلي في بيروت.

قال ألتر: كن حذراً. إنه ينزل في الفندق منذ عدة أيام على الرغم من أن له بيتاً في البلد. كما أنه في العادة لا يشرب. لا بد أنه يسعى إلى شيء.

وحين صار عارف في الصالون أشار إلى أحد العناصر أن يتبعه إلى الخارج، حيث أعطاه تعليماته: تنتظرون بنيامين حتى يخرج. تلحقون به إلى أن يبتعد عن الفندق ثم تعتقلونه. وإذا لم يخرج وحده تلحقون به حتى يصبح وحيداً ولو في بيته. وبعدها تعتقلونه. معه ورقة أريدها. إحذروا أن يتلفها أو يبلعها. أريدها صاغ سليم. والحقوني به إلى مكتب عدنان بيك.

وركب عارف عربته الواقفة في الظلام وراح ينتظر.

رأى بنيامين يخرج من الفندق وحيداً وهو يعدل طربوشه ويتلفت كأنه يبحث عن عربة. سار مبتعداً، واثنان من العناصر يسيران أمامه، وهما يتحدثان

ويضحكان. فعرف أن بنيامين قد وقع.

أعطى أمره بمنع ألتر من مغادرة الفندق وبقطع الهاتف عنه. ثم انطلق إلى مكتب مكافحة الجاسوسية.

– هذه المرة لن يكون للباشا عذر.

* لا تبهدلنا يا عارف.. تعرف أنه صديق جمال باشا.

– رأيته بعيني يدس الورقة لبنيامين.

* أدخله وحقق معه أمامي.

– على طريقتي؟

* على طريقتك.

نهض عارف وفتح الباب وصاح: أدخلوا بنيامين. فتقدم عسكري مع بنيامين ويداه مقيدتان.

قال عارف: من قبض عليه؟

قال الجندي: أنا يا سيدي.

– فتشته؟

* نعم يا بك.

– ماذا وجدت معه؟

* لا شيء. لا يحمل سلاحاً. وجدنا هذه الورقة فقط.

– رح لشغلك.

تصفح عارف الورقة ثم وضعها أمام عدنان على الطاولة. وقبل أن يستطيع عدنان أن يلقي بنظره على الورقة كان عارف قد وجه صفعة عنيفة مفاجئة لبنيامين ألقته أرضاً والدم يسيل من جانبي فمه وأنفه.

وبسرعة البرق أخرج مسدسه ولقمه.

حتى عدنان فوجئ مثلما فوجئ بنيامين: عارف. جننت؟ ماذا تفعل؟

قال عارف: ألا ترى؟ جاسوس. يجب أن نعدمه.

واندفع بنيامين زاحفاً إلى قدمي عارف: دخيلك. والله ما لي علاقة. أنا واسطة. أنقل ورقاً وأجلب ورقاً لا أعرف ما فيه.

فهم عدنان بسرعة فقال لعارف: أتسمع؟ بنيامين واسطة فقط. إفهم منه. قد يكون مظلوماً.

ركله عارف برجله متابعاً قسوته: هذا مظلوم؟

وتذلل بنيامين أكثر: ألله وكيلك.

قال عدنان: ممن أخذت هذه الورقة؟

قال بنيامين: من ألتر. ألتر ليفي. في فندق.. واختصر الطريق موجهاً كلامه إلى عارف: أنت رأيتنا. كنت في البار. ثم تابع شرحه: كنت سأسافر غداً إلى اسطمبول ومنها سأذهب إلى أثينا. وهناك سأسلم هذه الورقة إلى القنصل البريطاني.

قال عدنان: ولم هذه السفرة الطويلة؟ الجواسيس لديهم وسائل أسرع.

قال بنيامين: يجوز يا بيك.. يجوز. لكن أنا لست جاسوساً. ألله وكيلك.

قال عارف: كم مرة قدمت لألتر خدمات من هذا النوع؟

قال بنيامين: مرة. مرة واحدة فقط. أرسلني إلى الشام لرؤية شخص في سوق الحميدية.

أسرع عارف إلى القول: المصور كامبياس.

– نعم يا بيك.

وتطلع عدنان إلى عارف مندهشاً: من هذا؟

ولم يفوت عارف الفرصة، فرد بتعال: هو صلة الوصل بين جواسيس الساحل والداخل.

ثم التفت إلى بنيامين: وماذا دار بينك وبين كامبياس؟

فقال بنيامين بحرج: لا شيء. ألله وكيلك. أوصلت له أمانة أعطاني إياها ألتر.

* وما هي هذه الأمانة؟

– وكيلك ألله لا أعرف. جهاز. آلة.

بتبجح قال عارف: أنا أعرف. لاسلكي.

ثم تطلع إلى عدنان بنصف ابتسامة تشفُّ: قبضت على كامبياس وحولته إليكم منذ شهر. ألم تحقق معه؟

فقال عدنان محرجاً: لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

وتجاهله عارف ملتفتاً إلى بنيامين: مستعد أن تقول هذا الكلام أمام ألتر؟

* مستعد يا سيدي. مستعد. إجلبه وسأحكي أمامه.

تطلع عارف إلى عدنان الذي نهض عن مكتبه قائلاً: يبقى في الحجز. سأعود بعد قليل.

وخرج.

قال عارف لبنيامين: قم. إجلس على هذه الطاولة واكتب لي كل ما تعرفه.

فهم عارف أن عدنان لا يستطيع التصرف. لن يستطيع جلب ألتر إلى التحقيق دون علم جمال باشا. وبما أنه، هو أيضاً، لا يستطيع أن يصل إلى جمال باشا فسيذهب الآن إلى علي فؤاد باشا رئيس أركان الجيش الرابع.

وحتى علي باشا لم يشأ أن يواجه جمال باشا قبل أن يكون متأكداً. فذهب بنفسه إلى فندق دوتشرهوف.

وحين دخل غرفة ألتر رآه واثقاً من نفسه أكثر مما كان يتوقع. بادره ألتر فور دخوله: الحمير. لم يتركوني أخرج، أو أستخدم الهاتف. تصور.

قال علي: أنا أمرت بذلك. أردت أن أراك على انفراد.

قال ألتر: على رأسي. أتشرف. ولكنهم عاملوني كأنني معتقل.

قال علي: هذا هو وضعك بالضبط.

وفوجئ ألتر فصاح: ماذا تقصد؟ أنا معتقل؟

قال علي بهدوء: أخفض صوتك. وتحدث بأدب.

قال ألتر: أنت يجب أن تعرف حدودك، وتعرف مع من تتعامل. سأتصل الآن بجمال باشا. وإلا فسيعرف أيضاً أنك أنت منعتني من الاتصال به.

قال علي: سأريحك من ذلك. أنا سأتصل به.

قال ألتر: إتصل به فوراً.

قال علي: هل توجه لي الأوامر؟

* لا. ولكنك تقول إنك ستتصل بالباشا. إتصل به.

– نتفاهم أولاً. بنيامين ساحور اعترف بأنك أعطيته رسالة ليوصلها إلى القنصل الإنكليزي في أثينا. وهي رسالة تحتوي على معلومات عن وضع البلد والجيش نعتبرها في غاية السرية والخطورة. وهذا يعني أنك تتجسس علينا.

وجلس ألتر على السرير. ولف رجلاً على رجل كأنه لم يسمع شيئاً.

قال له علي: تعترف يا ألتر؟ أم آخذك إلى خفر السواحل وأعرضك عليهم ليتعرفوا على الضابط الذي عمل عليهم كبسة التفتيش؟

قال ألتر: لن أتكلم كلمة واحدة إلا أمام الباشا نفسه.

مد علي يده إلى الهاتف وأدار القرص.

– ألو.. بهاء بك. مساء الخير. نعم. نعم. علي فؤاد. لدي مسألة مهمة أريد أن أحكي عنها مع الباشا. نعم. القضية مستعجلة وحساسة... طيب.. أنا قادم.

وأغلق السماعة فرأى ألتر يبتسم. وحين التقت عيناهما قال ألتر بشماتة: تظن أنك تستطيع أن تحكي مع الباشا على الهاتف؟ قلت لك اتركني أكلمه. لو عرف أنني أنا على الهاتف لكلمني.

كان كلام ألتر صحيحاً. فلم يجد علي ما يقوله. كما أنه

لم يعرف ماذا يصنع بألتر. يجب أن لا يأمر بتوقيفه ونقله كمعتقل قبل أن يعلم الباشا وإلا اعتبر ذلك تجاوزاً. نادى الحارس الواقف بالباب وأمره بمنع ألتر من مغادرة الغرفة وبقطع الهاتف من جديد.

— ٨ —

* من الحمار الذي كتب هذا التقرير؟

ارتبك علي فؤاد باشا. ماذا يقول؟ ولم ينتظره جمال باشا لكي يقول شيئاً. إذ لم يكن يسأل لكي يتلقى جواباً. كان يسأل لكي يبدأ سلسلة تفجراته.

* أين عدنان بيك؟

— عند بهاء الدين يا باشا.

وتقدم جمال باشا بعصبية وفتح الباب وهو ينادي بأعلى صوته: بهاء... يا بهاء.

وجاء بهاء الدين مسرعاً.

قال له جمال: أغلق هذا الباب.

فأغلقه.

* قل لعلي باشا من هو ألتر ليفي؟

تطلع بهاء الدين مرة أخرى إلى علي باشا وقال: ألتر ليفي يا باشا واحد من اليهود الأغنياء. لديه محل تجاري في القدس. مقيم في الكومبانية المسكوبية. وهو صاحب شركة ضمان وتأمين.

— طيب. طيب. حدث علي باشا عن علاقتنا به.

* حين ذهب مولانا إلى القدس رحب به ألتر باسم الرعايا الأجانب وتبرع لحملة مصر بكميات كبيرة من الأدوية.

وأضاف جمال باشا: ومنحته وزارة الحربية بناء على اقتراحنا وسام الحرب العالي. كما وجهت له أنا كتاب شكر بتوقيعي. يكفي يا بهاء. رح لشغلك.

وخرج بهاء وعلي باشا ساهم يكاد لا يفهم ما يقال أمامه مع أنه كان يعرفه.

ولكن جمال التفت إلى علي باشا وقال له: تعرف لماذا استدعيت بهاء؟ لأن اليهود صرعوا الدنيا باحتجاجاتهم على بهاء منذ أن كان حاكماً على يافا. الدنيا كلها تعرف أن بهاء الدين لا يطيق اليهود. لكن أنا أعرف كم أن بهاء الدين مخلص للدولة العلية.

قال علي: أعرف يا باشا. لذلك جلبته عظمتكم سكرتيراً وحميته. هو فعلاً يكره اليهود.

فقال جمال: ولكنك مع ذلك سمعت بأذنك ماذا قال عن ألتر ليفي. أقول لك أيضاً أن ألتر خدمني خدمة لا تقدر بثمن. بعد عودتنا من جبهة السويس تطوع بالذهاب إلى مصر. شغَل خيرة العائلات اليهودية في الإسكندرية لصالحنا: بيت دي منشه وأجبون وجوهر ورولو. جعل هؤلاء كلهم يستخدمون نفوذ اليهود هناك لوقف الحملة الصحفية التي كانت تشهَر بنا.

وألقى إليه بالتقرير: قل لعدنان خراء هذا أن لا يستسهل عمله. وقل له أن يشتغل جيداً ويشغَل جماعته جيداً وإلا...

قال علي: يا باشا. العناصر لاحقوا ألتر حتى...

وصرخ جمال: لماذا يلاحقونه أصلاً؟

قال علي باشا: يقول عدنان إنه رآه يصور العرض العسكري الذي تم أمام عظمتكم.

قال جمال: أنا طلبت منه أخذ بعض الصور التذكارية. أرأيت كم جماعتكم أذكياء؟ أنا طلبت منه فشكّوا به. وبدل أن يلاحقوا الجواسيس لاحقوا ألتر حتى رأوه يجتمع بآمر المدمرة الأميركية. ماذا جرى لكم؟ جننتم؟ تريدون أن تجعلوا الدنيا كلها أعداءنا؟ حتى أميركا؟

قال علي باشا معتذراً: الحقيقة إن لقاءه بضباط الدارعة الأميركية عزز شكوكنا. ماذا يفعل صاحب متجر وشركة تأمين مع ضباط دارعة حربية أميركية؟

قال جمال: أولاً يا ذكي الدارعة أميركية أي أنها ليست معادية. ثانياً أنا طلبت من ألتر أن يذهب ويكلمهم. أتعرف ما اسم الضابط الذي اجتمع به؟ حتى هذه لم يعرفوها ولم يذكروها في التقرير. اسمه آدمون. ينزل في فندق دوتشرهوف قرب الزيتونة.. صحيح؟

– صحيح يا باشا. الفندق ذاته الذي ينزل فيه ألتر الآن.

* أنا أرسلت ألتر ليكلمه. نريد من أميركا أن تتدخل لفك

الحصار عن شواطئنا أو على الأقل للسماح بدخول إرساليات المغتربين المالية إلى أهلهم. الناس يا علي لم يعد لديهم أكل ولا مصاري. وحتى الذي معه مصاري لا يجد أكلاً يشتريه. أنظر خارج النافذة. ألا ترى الناس يموتون جوعاً في الشوارع؟ تريد أن يقولوا إن جمال باشا جوّعهم؟

– أعذرني يا باشا. كان يجب أن توضحوا لنا هذا منذ البداية. عدنان بيك يشك أصلاً في وجود الدارعة الأميركية في بيروت.

* قل لعدنان بيك إن الدارعة ستذهب أيضا إلى حيفا. الأميركان قلقون على الأقليات. ويريدون أن يطمئنوا إلى أننا لن نذبح اليهود كما ذبحنا الأرمن. ونحن نريد أن نطمئنهم. باختصار تعرف ماذا فعل عدنان بيك وجماعته يا باشا؟ أنا أرسلت شخصاً في مهمة سرية وهم فضحوه.

– هدىء أعصابك يا باشا. وأرجو أن تكمل قراءة التقرير.

* لا. لن أكمله. أليس كله عن ألتر؟ ماذا جرى لكم؟ كيف تريدونني أن أشتغل؟ كلما جلبت واحداً ليعاونني ظللتم وراءه حتى تطفشوه. ألم تفلقوا رأسي بالنق عن آرون آرونسون: يهودي، يهودي؟ ماذا يعني أنه يهودي؟ من الذي تصدى لحملة الجراد والطاعون؟ أليس آرونسون؟

من الذي يسعى لتطوير الزراعة؟ آرونسون. ومع ذلك صار درجي مليئاً بالتقارير عنه. يرسلون إليه من أميركا ليستفيدوا من خبراته الزراعية، ونحن نشك فيه ونريد أن نطفّشه. لماذا؟ لأنه يهودي.

وقذف بالأوراق في حضن علي باشا: لا أريد أن يجلب لي أحد منكم بعد اليوم سيرة ألتر ليفي أو آرون آرونسون. مفهوم؟

قلب علي باشا الأوراق ثم انتزع الورقة الأخيرة. إقرأ هذه يا باشا. هذه هي الورقة التي أعطاها ألتر لبنيامين لكي يعطيها للقنصل الإنكليزي في أثينا.

صرخ جمال: علي !! أنت تزيدها هاه.

اضطر علي للكلام بحماس ممزوج بالخوف فخرج صوته أقرب إلى البكاء: يا سيدي رسالة فيها معلومات عن الجيش. وبنيامين كان سيأخذها للإنكليز.

* أعدموا بنيامين.

– ألا نحاكمه؟ ربما كانت لديه...

* حاكموه وأعدموه. هل قلت لكم لا تحاكموه؟

– وإذا قالت المحكمة إن ألتر أعطاه المعلومات.

* ألتر لا أحد يقترب منه الآن. مفهوم؟

استمد علي باشا شجاعة من يأسه وضيقه وقال: فإذن يا باشا اسمح لي أن أروح إلى بيتنا.

* إلى بيتكم؟ ماذا تفعل في بيتكم؟

– إعتبرني مستقيلاً يا باشا.

وصرخ جمال: علي !

فنظر إليه علي بشجاعة انتحارية: تريد أن تعدمني أعدمني يا باشا. لكنني لا أستطيع أن أقوم بعملي وأنا ضابط قائد ورئيس أركان جيشكم إذا كان الجواسيس...

أحس جمال بسرعة أنه لن يستطيع أن يخيف هذا الرجل اليائس: طيب. طيب. خلص. إعتقل ألتر وحقق معه. مبسوط؟

– يا سيدي لا مبسوط ولا زعلان. ما لي وله لولا أفعاله؟ وخاصة أنه صديق عظمتكم. لكننا في حالة حرب.

* قلت لك: خلص. إعتقله. إعتقله وحقق معه مثل غيره. لن تكون إلا راضياً. وإلا كيف ستتعاون؟ ألن نذهب سوية إلى القدس؟ أنت ستكون قائد حامية القدس. وأنت تعرف أنني لا أرحم أصدقائي. فكيف بالجواسيس؟ ولكن لم أكن أظن أنكم متأكدون من إدانته.

– تحت أمرك يا باشا.

وقبل أن ينصرف حدثه جمال بمودة: إذهب إلى شكري بيك. لديه قوائم بأسماء الذين يحاكَمون في عاليه. تدارسها معه.

– هل صحيح أنك ستعدمهم كلهم يا باشا؟

* الله أكبر يا علي. أريد أن أرحم الجواسيس لا تتركوني أرحمهم. أريد أن أقسو عليهم لا تتركوني أقسو. طبعاً سأعدمهم كلهم.

– سيكون هذا حادثاً تاريخياً يا باشا.

ضحك جمال: أنت أيضاً تتحدث عن التاريخ يا علي؟ صرعني شكري بيك وهو يحدثني عن التاريخ. ويقول لي كلما خرج أو دخل: فكر في التاريخ يا باشا. أخيراً قلت له: سأكسر التاريخ على قرعتك. التاريخ هو ما نفعله نحن يا علي. نحن رجال التاريخ. وسندخله على جثث الخونة. هؤلاء جرائمهم أخطر من جرائم ألتر. هؤلاء يعملون ضد وطنهم ودينهم ودولتهم. يريدون جلب فرنسا وفصل لبنان وسورية عن الدولة العلية.

– وألتر يا باشا، تظن أن اليهود يلعبون؟ اليهود أيضاً يعملون من أجل دولة في فلسطين.

* تظنني لا أعرف؟ ولكن لكل شيء أوانه يا علي. حين جاء الوقت المناسب كم ألفاً هجرت منهم؟ خمسين ألفاً. والله والله، لولا تدخل الأميركان لفعلت بهم ما فعلته بالأرمن. ولكن مهلكم علي. سأعرف كيف أربيهم.

– إن شاء الله خير يا باشا.

* أرسل لي بهاء ولا تنس شكري بك. أريد أن تنهوا لي الأمر اليوم.

– حاضر.

وخرج.

دخل بهاء بعد قليل فبادره جمال: أما يزال عدنان بيك عندك؟

– نعم. ينتظر علي باشا. هل صحيح أنهم سيعتقلون ألتر؟

* إسمع يا بهاء. أنت تعرف القصة كلها. إتصل بأوتيل دوتشرهوف بالزيتونة. إصرف الحرس ثم اطلب من ألتر أن يهرب.

تطلع بهاء مندهشاً. لكنه لم يستطع إلا أن يقول: أمرك.

* وقل له أن يروح ويختبئ في بيت بسنرس بعاليه. هؤلاء أصحابي. قل له أن ينتظرني عندهم حتى أرد له خبراً. وإذا حدث أي طارئ فلينتظرني في فندق شاهين.

ظل بهاء واقفاً...

* ما بك؟ مستغرب؟

– طبعا يا باشا. لا أفهم. تأمر باعتقاله وتطلب منه أن يهرب..

ابتسم جمال باشا: صاحبي.

– وماذا لو كان جاسوساً؟

* تظل تكره اليهود يا بهاء؟

– لأنني أعرف أن شغلهم ليس نظيفاً يا باشا.

* وأنا أيضاً لا أحبهم. والكلام بيننا: أنا صرت مقتنعاً أن ألتر جاسوس. ولا يمكن أن أجامل اليهود أو الجواسيس على حساب الدولة والنصر. ولكن خل تفكيرنا إلى البعيد. ماذا سيقولون في الأستانة إذا عرفوا أن واحداً من أعز أصحابي وأخلص جلسائي جاسوس؟ سيقولون إني غشيم. ويمكن أن ينضحك علي. وإنني لا أصلح للقيادة ولهذا لم تنجح حملة السويس. هل من المعقول أن أسلمهم سلاحاً ضدي؟

قال بهاء، وهو غير قادر على ضبط نفسه: ولكنك تقول إن هذا جاسوس يا باشا.

* كل شيء بالتأني يا بهاء. مسألة كهذه يجب تسويتها بهدوء وصمت. خطوة خطوة. أولاً يجب أن ينجو ألتر من مطاردة عدنان.

– تعرف أن الذي قبض عليه عارف بيك رئيس البوليس العدلي؟

وصرخ جمال: وما علاقة عارف بالجواسيس؟ يجب أن أعاقبه. سأنقله من لبنان كلها.

وطأطأ بهاء رأسه يريد أن يخرج. لكن جمال لا يريد أن يفقد ثقة بهاء: لم أكمل كلامي.

– تحت أمرك يا باشا.

* لم أقل لك ماذا سأفعل بألتر. بعد أن ينجو من عدنان بيك، أي ينجو من التحقيق وأخلص أنا من الفضيحة،

سأقتله.

تطلع بهاء إلى الباشا وكأنه لم يفهم الكلمة. فابتسم له الباشا: نعم. سأقتله. وفي هذه الليلة بالذات. حين يصل إلى بيت بسنرس أو إلى فندق شاهين سيكون هناك من ينتظره ليقتله. جاسوس مطارد يصطدم بالعسكر فيقتلونه. سأكافئ من يقتله. إطمئن. أنا لا يفوتني شيء.

– ٩ –

– بعد أن حبسوني في غرفة الفندق، وقلت لنفسي راحت عليك يا ألتر، يأتي من يخرجني سراً. ولكنه يريدني أن أذهب للقاء الباشا. يظنون أنفسهم أذكياء. ويظنونني ولداً صغيراً.

وضحك ألتر. فضحكت معه رفقة: ألا يتعبك التعامل مع أغبياء يا ألتر؟

ضحك مجدداً: وكيف أشتغل شغلي لولا أنهم أغبياء؟ تصوري أنني تبرعت لحملة السويس بكمية من الأدوية لكي أكسب ود الباشا وصداقته.

قالت: سمعت عن تبرعاتك واستغربت. أوَما كان أبناء ملتنا في حاجة لأدويتك أكثر من هؤلاء الأتراك؟ كم كان ثمنها؟

ضحك مجدداً: تعرفين ما هي هذه الأدوية؟ إنها مكومة عندي في المستودعات منذ سنوات. انتهت فاعليتها

وصلاحيتها. وبينها أدوية لأمراض نسائية. ومع ذلك كانوا ممنونين. وأرسلوها كلها إلى الجبهة. أدوية نسائية إلى الجبهة. تصوري.

لكنها أضافت بجدية: كان يجب أن لا تأتي إلى هنا.

– خائفة يا رفقة؟ بيتك مراقب؟

* أنا لا أخاف إلا من الغلط. أخاف أن نغلط غلطة تخرب شغلنا كله. مازلت حتى الآن أشتغل شغلي على أكمل وجه: طالبة في المدرسة الأميركية. ولي اتصالات مع القنصل الأميركي. ولكنني بدأت أخاف. لذلك قررت أن أتوقف ولا أخاطر. لا أريد أن أخاطر بنفسي وبغيري. أخاف أن أرتكب غلطة تجر البلاء على الآخرين.

– شغلنا بالأصل كله مخاطرة يا رفقة.

* أنا لا أحكي عن مخاطرة الواحد بحاله. ما أخاف منه هو أن يمسك الأتراك علينا أي شيء ويعتبروه حجة ليفعلوا بنا ما فعلوه بالأرمن. أنت تعرف ماذا فعلوا بالأرمن.

– سمعت.. مثلك.

* لا. أنا سمعت أكثر. جاءت سارة من اسطمبول ومرت عندي. حكت لي عما سمعته هناك. يا لطيف يا ألتر. الله يجيرنا. و...

ولم يعد يسمع ما تقول. إن ورود اسم سارة قد قذف به في دوامة. هذه الفتاة لم تبارح ذهنه منذ أن رآها ذات

مرة في مستوطنة زخرون ياغوف: شهية ومرحة وذكية. وكانت توحي له بأنها ممكنة حتى حاول التقرب منها فنفرت.

عادت إذن؟

وسأل رفقة: لماذا جاءت سارة من اسطمبول؟

* تركت اسطمبول.

– لماذا؟

* تركت اسطمبول. تركت زوجها ورجعت إلى المزرعة. قل لي أنت، لماذا لم تهرب إلى أورشليم بدل مجيئك إليّ هنا في بيروت؟

– ألا تقبلين الضيف؟

* إحكِ بجدية.

– لدي شغل سأكمله هنا. لم أنهِ ما جئت من أجله.

* هل ترى أننا جواسيس يا ألتر؟

– لا. قولي لي هل تركث زوجها نهائياً؟ هل سيطلقها؟

* ألتر.. عقلك ليس معي.

انتبه إلى رنة الحزن في صوتها: آسف. واضطر إلى الانتباه إليها: ماذا كنت تسألين؟

* لا شيء. وكتمت غصة أحس بها.

– سألتني إذا كنا جواسيس. تخافين من التسمية؟ لا. أنا لا أرى أننا جواسيس. نحن لا نشتغل لكي نقبض مالاً. بالعكس. نحن ندفع وننفق على مشاريعنا. ولو قبلوا

معنا لاشترينا فلسطين كلها منذ أيام عبد الحميد. فهمتِ؟ نحن نخدم قضية. لم السؤال؟

* حياتنا هنا صعبة. أنا سأهاجر إلى أميركا.

– رفقة. ما هذا الكلام؟ نحن لا نصدق كيف نجتذب مهاجراً وخاصة في سن الشباب مثلك لكي يسكن ويعمل ويمد جذوره في الأرض وأنت تريدين أن تقتلعي جذورك وتتركي كل شيء؟

* ما الذي سأتركه؟ الخوف الذي نتصبح به وننام عليه؟ مكانتنا؟ نحن اليهود.. أولاد الميتة.. البخلاء الدنيئون.. حتى نحن النساء لا يروننا إلا شراميط. ألا تعرف أنهم يرون اليهودية شرموطة؟

– لأجل هذا ستهاجرين؟

* أريد أن أهاجر قبل أن أصبح شرموطة وجاسوسة معاً. العمل الذي يريدون أن يشتغلوه لا أستطيع القيام به. لا أعرف كيف تجمع معلوماتك أنت. لكن المرأة لا تستطيع أن تحصل على المعلومات إلا إذا كانت شرموطة. أنا لا أستطيع. أنا أريد استقراراً وبيتاً واحتراماً.

– وهل تفكر سارة هكذا؟

* يظل عقلك عند سارة؟

– سارة...

كان يود لو يسترسل فيحكي مشاعره تجاه سارة.. لكنه

توقف. توقف لأنه أحس أن مشاعره معقدة بحيث لا يستطيع أن يحدث عنها أحداً. يحب أن يسترخي وحده في الظلام ويترك لخياله أن يرسم سارة ويحدثها ويرسم أطراً لقصص تضمه معها. ليته التقى بها هنا في بيروت مثلاً وساعدها على الوصول إلى زخرون ياغوف أو إلى عتليت. ولكنها ملعونة. قوية. تعتمد على نفسها دائماً. لا تحتاج إلى أحد حتى وهي أنثى يمكن أن تتعرض لنظرة استضعاف. فهي في النهاية أخت آرون آرونسون، الذي يجلس في مكتب مجاور لمكتب جمال باشا، والمزود بأوراق تحمل توقيع الباشا نفسه يعطيها لمن يشاء فتحميه من أي سؤال أو تدخل. هذه الأوراق منحت لآرون لكي تسهل عليه تحريك العناصر لمكافحة الجراد، ثم لإجراء الدراسات الزراعية التي شغف بها جمال باشا. وها هو يحركهم إلى أي مكان. يستطيع أن يرسل من يشاء إلى أي مكان يشاء. وبما أن الزرع في الأرض، والتربة في الأرض، فإن حامل الورقة يستطيع الدخول إلى المعسكرات، وينزل حتى في خنادق الجنود.

ألتر وحده لم يرض أن يحمل ورقة من تلك الأوراق. فضل أن يعتمد على نفسه إلى أن توصل إلى مكانة له بجانب الباشا لا تقل عن مكانة آرون. هو معجب بآرون لكنه كان يريد أن يظهر مستقلاً عنه وخاصة أمام سارة.

وإلا فستظل تراه كوكباً يدور في مدار أخيها.

لقد أحس بأنها تتحرك في ضوء ذلك الكوكب الذي يجعلها لا ترى من الآخرين إلا ظلالهم. لا تستطيع أن تراهم بشراً حقيقيين. أحس بذلك منذ أن ذهب إلى زيارتهم لطرح إمكانية التعاون. صارت هي في كفة والمشروع كله في كفة. ويا ليت السماء تتمتع بقليل من الحنان وتضع سارة والقضية في كفة واحدة.

ولكن كيف أحبت أفشالوم وهو من أتباع أخيها؟ يمكن لأنه شاعر. غير الله لا يفهم النسوان.

وتطلع إلى رفقة التي انشغلت بالتطريز لكي تغرق في أحزانها وتقبل عزله لها. وأحس أن عليه أن يفتعل حديثـاً: وتطرزين نجمة داوود؟

هزت رأسها دون كلام.

ضحك لكي يلين الجو: جماعتنا يرسمون دائماً نجمة داوود: بالتطريز، بالنجارة، بالنحاس، على الحجر، كأنهم يريدون أن يلفتوا النظر إليهم.

* بالنسبة لي تطريزها سهل. مثلث من هنا ومثلث من هنا.

– لكن أكيد أن جماعتنا لا يلحون عليها لمجرد أنها سهلة.

* ألا تعرف أن الفنان يوقع على لوحته؟ النجمة توقيع الشعب كله.

– لكن ليس شغلنا كله لوحات. ألا يلفت عملنا هذا الأنظار إلينا؟

* لا بد من المغامرة. اليهودي يجب أن يذكّر بنفسه في كل شيء يعمله. يا ليتنا نستطيع أن نجعل لدوستنا على الأرض شكل النجمة. ليتنا تركنا نجمتنا على الأهرامات التي بنيناها.

– واثقة أننا نحن الذين بنيناها؟

* نحن نقول كلمتنا وليتعب الآخرون أنفسهم في نفيها.

– من أين لك هذا كله؟

* هذا كله سمعته من آرون. وهو الذي يرى أنه يجب أن تكون نجمة داوود موجودة في كل ما نصنعه حتى الأحذية والقباقيب.

– لو سمعك رابي عجوز لعمل صرعة لك ولأخيك. تريدين أن تصير نجمة داوود في نعال أحذيتنا لكي ندوسها؟

وتلبس لهجة خطابية ونمطية: بدل أن نرفعها في الأعالي.

وضحك فلم تضحك.

* ألا يقول شاعركم هكذا؟

– من هو شاعرنا؟

* أفشالوم.

ولم تعد تحتمل. قذفت بالتطريز من يدها ووضعت

كفيها على عينيها وانفجرت بالبكاء.

لم يفهم أي جرح لمس في نفسها. ولم يعرف إنْ كان بكاؤها بسبب كلمة قالها، أم أن لديها متاعبها التي لا تبوح بها لأحد. أحس أنه أناني. لم يحاول أن يسألها عن ظروفها وعن سبب تركها المزرعة ومجيئها إلى بيروت. ولم يسمح لها بالاسترسال في الحديث عن رغبتها في الهجرة.

– في كلامي شيء غلط؟

ولم تجب.

ظل يتطلع إليها حائراً. وقرر أن يتركها قليلاً إلى أن تنهي بكاءها وتصبح قادرة على الكلام. قام إلى المطبخ وبدأ يعد الشاي...

وجاء صوتها: أنت تعرف أفشالوم؟

* قليلاً. أعرف أنه يبدو مثل العرب. يسمونه أبو سليم.

– لا. الشيخ سليم.

* شاعر جيد؟ أنا لم أقرأ شعره.

ودخل إليها بالشاي.

– أفشالوم كل شيء فيه جيد.

بدأ يسكب الشاي في الفنجانين وهي تسترسل في الحديث وكأنه غير موجود.

– شاب مثل الزهرة. متعلم وفهمان وحلو. ما عرفه أحد إلا أحبه. حتى العرب أحبوه. لأنه خيّال. ولأنه يحفظ

القرآن. ويحكي العربية. ويغني أغاني البدو. ولأنه يعرف كيف يكتشف الشعر في كل شيء. قال لي مرة إن أباه سخر منه عندما قال له: أنت شاعر يا أبي. ولكنه ظل مصراً على أن أباه شاعر. كان يقول: وهل يذهب إلى الخضيرة التي كلها مستنقعات ويعمل على تجفيفها ليستصلح الأرض فيها لولا أنه شاعر؟ قال له آرون: أبوك يحب الأرض لأنه صهيوني بدمه. ويدافع أفشالوم: لكنه يحبها محبة الشعراء. أتعرف يا آرون ماذا قال لي حين سألته لماذا يجيء ويتعذب في هذه المستنقعات؟ قال لي: إذا مرضت أمك تتركها أم تداويها؟ قلت له: أداويها. قال: وهذه الأرض مريضة بالمستنقعات، يجب أن نداويها. صار يعطيها دواء لا يخطر لأحد. يزرع أشجار الكينا ليجفف المستنقعات.

قاطعها ألتر: لا تعرفين كم أحب هذا الكلام مع أنني لا أحب أفشالومكم هذا. إنها المرة الأولى التي صرنا نسمع فيها عن اليهودي صفة غير الجشع والربا وحب المال وإذلال النفس. ها نحن الآن نصنع يهودياً يحب الأرض.

ولكنها تابعت وكأنها لم تسمعه: وأنا أسمع أفشالوم في الليالي المقمرة في عتليت وهو يحكي مع آرون وألكسي وليوفا ونعمان ويوسف صرت أحس أنه ليس هو وحده الشاعر. بل أبوه فعلاً شاعر. وهذا الكلام فيه شعر. أفشالوم عملنا كلنا شعراء. حتى أبوه صار يردد العبارة

التي حفظها منه: «فلتنسني يميني لو نسيتك يا أورشليم». وصار الأب يقولها كأنه يقرأ شعراً. تعرف أنه هو أول من اقترح على آرون أن نشتغل مع الإنكليز؟ اعتقلوه مرة واتهموه بالتعاون مع الإنكليز. ورغم أن آرون أخرجه من الحبس إلا أنه جاء ضاحكاً يقول: فعلاً لم لا نتعاون مع الإنكليز؟ وذهب إلى مصر فأقام العلاقة. وصرنا نشتغل ونرسل لهم المعلومات.

انتفض الحس الحذر عند ألتر: رفقة. يجب أن لا تقولي هذا الكلام.

* أقوله لك لأن الاتصال انقطع. لا أعرف لماذا لم تعد غواصتهم تمر. وأنا أحسست أن العمل كله بلا طعم. وحياتي في الأصل بلا طعم. ولهذا تركت كل شيء وجئت إلى بيروت. من هنا الهرب إلى أميركا أسهل.

— هربت بسبب أفشالوم؟

* آخ من أفشالوم.

كأنهما تواطآ بصمت على هذا الموضوع فاستسلمت واسترسلت: أفشالوم يركب الخيل وسارة تركب الخيل. سارة كانت تبدو نصف رجل رغم أنها حلوة. دائماً تلبس الجزمة والفرد على خصرها. عمري ما انتبهت إلى أنها تحب أفشالوم أو أن أفشالوم يحبها. بالعكس. كان يتركها تدرب الجواد ويدخل إلى المختبر حيث أشتغل مع آرون، ويقول إنه يريد أن يتعلم شغلنا. فأفهم أنه

يريد أن يظل إلى جانبي. الجميع صاروا يتصرفون على أساس أنني وأفشالوم مشروع قادم. صحيح أنه ما قال لي ولا مرة إنه يحبني. ولا أنا قلت له. لكنك تحس أحياناً أن الدنيا تسير بشكل طبيعي. والأمور لا تحتاج إلى من يسميها. نقضي النهار بطوله معاً وأمام الجميع. نتحدث ببساطة ودون اهتمام بأحد. لم نعد نحتاج إلا إلى ترتيب صغير لكي أروح معه إلى بيته. وحينما جاء حاييم من اسطمبول يطلب أختي سارة فهمت لماذا تحمس آرون. أنا سمعته وهو يقول لسارة: يجب أن تتزوجي لكي تتركي الفرصة لأختك الصغيرة.

صار قلبي قد الكمشة وهي تقول له: لكن أنا أحب أفشالوم. فقال لها: طيب. وهو يحب أختك رفقة. أنت أختي وهي أختي. ماذا نفعل؟ أعاد لي كبريائي. وحقدت عليها. هذه الطماعة التي تريد وحدها أن تلهط الدنيا كلها. حتى أفشالوم لا تريد أن تتركه لي. استأثرت بحب الأهل وآرون ويوسف ونعمان. ذهبت إلى أوروبا. عادت نجمة المزرعة. والآن تريد أفشالوم؟! آرون ليس مثله أحد. حسم الأمر. وهي تطيعه في كل شيء. وهكذا تأكد قرار زواجها من حاييم. وأنا رحت أركض غير مصدقة. فرحانة لأنني سأتخلص منها. والجو سيروق لي مع أفشالوم.

تزوجث وعملنا لها العرس. رقصث يومها وأنا أحس كأنه

عرسي. حتى أفشالوم لم يظهر عليه شيء. جاء هو وأهله ورقصوا وشربوا العرق وغنوا... وناموا عندنا.

الصبح حين تهيأت للذهاب مع حاييم وقفنا نودعها. راحت. التفتُّ حولي فرحانة. أريد أن أقول لأفشالوم: ها قد صرنا وحدنا. أريد أن أقول له: متى يجيء دورنا؟ ركضت إلى البستان فلقيته قاعداً على الأرض يبكي. وحين أحس بي رفع رأسه وقال لي: راحت؟ هززت له برأسي وأنا فرحانة ومستغربة لماذا يبكي. خطر لي أن أنكّت وأقول له: تبكي لأنه صار يجب أن تتزوج وما ظلت لك حجة؟ لا تخف يا حبيبي. أنا سأعلّمك. لكنه ما أعطاني المجال لأنكّت. رفع رأسه إلي، وعيناه مليئتان بالدموع، وحط الخنجر في قلبي.

قال لي: ما لي قلب ودعتها. ما لي قلب أراها وهي تروح مع واحد غيري.

نسي أني أحبه. ونسي أنه يحبني. قصدي المفروض أنه يحبني. وبدأ يحكي كأني رفيقه: أنا عتبان على آرون. وعتبان عليكم كلكم، كلكم. منذ أن جاء هذا الحاييم يطلبها، ركضتم ووافقتم. ما خطر لواحد منكم أن يسألني رأيي. عميان كلكم؟ ما أحد منكم انتبه أني أحبها؟

ما عدت قادرة على البقاء في زخرون ياغوف. ما عدت أطيق عتليت ولا المختبر ولا الخضيرة. ولا أقدر أن

أشوف أحداً. أهلي ظنوا أن توتري وكآبتي بسبب الخوف: الخوف من الجنود ومن العرب ومن الجرب ومن الطاعون. رأوا أن الأفضل لي أن آتي إلى بيروت لأدرس وأشتغل ما يطلبونه مني. وكنت مرتاحة هنا في بيروت. أشتغل شغلي. وآرون مبسوط مني كثيراً. وقلت لحالي: ماشي الحال. أفشالوم لا لي ولا لها. كل واحدة منا تدبر حالها في مكان. لكنها مرت منذ أيام، وقالت لي إنها راجعة له. نعم له. قالتها لي بصريح العبارة. راجعة له. ظلت طوال الليل تحكي لي عن حبها له وعن أحلامها عنه. وماذا سيفعلان معاً. ربما كانا الآن معاً. الله أعلم أنهما نائمان معاً الآن. بعثت رسالة لآرون. قلت له: أنا لن أبقى في هذه البلاد. ما عاد لي فيها مكان. لا أريد حلم صهيون ولا حلم إسرائيل. أريد أن أهاجر.

– لماذا لم تهاجري مع الذين هُجّروا من يافا إلى مصر؟

* ألا تعرف قرار جمال باشا؟ نحن يهود عثمانيون لا يحق لنا أن نهاجر. الذين هاجروا هم اليهود الأجانب فقط. اليهود الروس خاصة. الحفيانون. القبطان الأميركاني والحراس العثمانيون لم يسمحوا لأحد بالوصول إلى الباخرة إلا إذا كان جواز سفره يدل على أنه من دولة أجنبية.

تنهدت واتكأت ثم تابعت كلامها كأنما تقول لنفسها: ما الذي يبقيني في هذه البلاد؟

تمنى لو يستطيع أن يضعف مثلها. هو أيضاً موجوع. لا يريد أن يتصور أن سارة تركت زوجها وجاءت لتعيش مع أفشالوم. مع الشخص الآخر الذي ليس زوجها. لم لا يكون هو هذا الشخص؟ لماذا حظه سيئ إلى هذا الحد؟ تمنى لو أن أفكاره الموجعة هذه تجعله يقول مثل رفقة: ما الذي يبقيني في هذه البلاد؟ لكنه لا يستطيع. هو له شغل. ولم يبدأ شغله لينهيه أمام صدمة عاطفية. إنه يشتغل وينجز. وهو سعيد بإنجازه وبراعته. لو أن هذه السعادة اكتملت بسارة، لو أن سارة تتيح له الفرصة، لترك زوجته وأولاده وبيته وراح معها إلى حيث... إلى أين؟ لأشتغل معها. آخ يا سارة. ماذا يقول دافيد بلهجته العراقية؟ يا بعد الولْد والعين يا سارة.

استرخاؤهما مع الحديث ثم مع الأحلام والتداعيات جعلهما متمددين على الأرض، وكل منهما يسند رأسه إلى مرفقه. ولعل النعاس الذي لم ينتبها إليه قد جعلهما يذبلان فيميل رأسها عليه ويميل رأسه عليها.

قال لها: برأيك سارة تكون مع أفشالوم الآن؟

* كلكم تحبون سارة.

ولفّت يدها عليه.

– وكلكم تحبون أفشالوم.

ولف يده عليها.

والتحما بقوة، كأن كلاً منهما قد قرر في تلك اللحظة

اقتلاع خصمه من جسد الآخر: لا تفكرين إلا في أفشالوم؟ على الأقل أنت فكري في. قالتها يداه وهما تفتحان ثوبها عن جسدها العاري. لا تفكر إلا في سارة؟ فكر في أنت على الأقل. قالتها شهقة جسدها وهي تلتحم به.

حين غطاهما ضوء الصباح كانا يتمددان عاريين على الأرض. تطلع كل منهما إلى الآخر. ولم ينطق أحدهما بكلمة.

كأن ما حدث بالأمس كان قصة سمعاها عن شخصين آخرين. وحين نهض عارياً لم يحاول أن يستر جسده. ولم يخطر لها أن جسدها يحتاج إلى تغطية.

خرج من المرحاض وبدأ يجمع ملابسه ويتجه بها إلى حقيبته.

* هل نحن شراميط؟

وجد السؤال قبيحاً فلم يجب. فتح الحقيبة بعنف.

* تزعل إذا قلت لك إني البارحة كنت أحس أنني أنام مع أفشالوم؟

ولم يزعل. لأنه كان ينوي أن يقول لها إنه ليلة أمس كان ينام مع سارة.

وتابع لبس بذلة ضابط عثماني.

الفصل الثاني

ــ ١ ــ

حين وصلت سارة إلى زخرون ياغوف كانت الشمس تميل إلى الغروب. ومع خفوت الحرارة وهبوب النسمات العذبة من تل إبراهيم أحست بالانتعاش بعد رحلتها الطويلة. ها هي أخيراً حيث يجب أن تكون. حيث تنتمي إلى طفولتها ودفء أهلها. اللعنة على الزواج وعلى من درّج الزواج.

لكنها ما إن أطلت على القرية حتى أحست أن قلبها يقف في حلقها.

ماذا جرى؟

القرية تبدو مهجورة. الأسلاك الشائكة مقتلعة. الأشجار عارية عري يباس بأكثر مما يمكن أن يعريها الشتاء. الحيوانات متروكة لترعى حيث كان من المفروض أن تكون المزروعات. أرض سائبة. مهجورة. أحست كأنها تدخل مقبرة أو خرابة.

وتذكرت ما قاله ذلك المهاجر الروسي، دافيد بن غرين، حين وصل إلى زخرون ياغوف ورأى ما أنجزه أهلها من استصلاح للأراضي. قال: هذه هي الجنة. إن كانت هناك جنة يجب أن تكون هكذا لكي تستحق جهد المؤمن للوصول إليها.

أهذا ما تبقى من الجنة؟

في طريقها من اسطمبول إلى هنا كانت قد مرت في أمكنة ومدن عديدة: من حلب إلى اللاذقية فبيروت فدمشق فالقدس. وكانت قد رأت آلاف الجائعين والمشردين والموتى في الطرقات. لقد بكت لدى رؤيتها من يأكلون قشور الفاكهة أو يقضمون أعشاب البر. رأت قرى يهدمها الجنود وحين سألت عن السبب قيل لها إن الجيش في حاجة إلى الخشب في أسقف البيوت من أجل سكة الحديد. أسقف البيوت! بعد تلك الجبال التي خلقت أشجارها عنها وبعد البساتين التي قرضت، هل يمكن أن يحدث هذا لبيوت المستعمرة ولأشجارها أيضاً؟

لا. مستحيل.

إلى أن وصلت إلى مشارف القرية لم يكن قد خطر لها أن ما يحدث للناس في تلك البلاد، على اتساعها، يمكن أن يحدث لأهلها أو لقريتها. كانت قد سمعت بما فعلوه من أجل رفقة. في الرسائل قالوا لها إنهم يخافون عليها من الهمج الذين صاروا يملأون المنطقة منذ اندلاع الحرب. لكنها كانت تعرف أن هذا ليس صحيحاً. ليس الخوف من إمكانية تعرض رفقة للتحرش هو الذي جعلهم يرسلونها إلى بيروت. لا بد أن هناك هدفاً آخر. وقد صدق حدسها حين التقت رفقة في بيروت

وأخبرتها أختها أنها هنا لتقيم صلات مع القنصل الأميركي تحت ستار الدراسة. وحين كان أهلها يخبرونها أن الخوف يسيطر عليهم من الجنود، ومن إمكانية انتشار الجرب والطاعون بينهم، بسبب وجود الجنود قربهم وبينهم، كانت تقدر أن ألكسي أو آرون، أو حتى أباها يخططون لأمر ما.

كانت تحس أن قريتها مبنية بالجهد والعرق والأمل. مبنية يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة.

قال لها الضابط العثماني الذي شاركها مقصورة القطار من بيروت إلى دمشق وهو يشير إلى القرى العربية: وهل هذه القرى التي ترينها هنا نبتت من البرية؟ أم بنيت؟

أضحكها السؤال: صحيح أنها لم تنبت. لكنها لا تحسها مبنية. تحس بها شيئاً موجوداً؛ موجوداً أو متوارثاً. شخص ما ورثها عن أبيه، عن جده، عن ماض سحيق. مثل القلاع والمزارات. ربما كانت مبنية بنفسها أو... وتطلعت إليه ضاحكة: أو أنها نبتت كالفطر أو كالكمأ. ما أدرانا أنه في الماضي لم تكن البيوت تنبت؟ العلم يقدم لنا كل يوم اكتشافاً جديداً.

ضحك معها. وأعجبه أن يثير اهتمامها فاسترسل: تصوري أن هؤلاء يفكرون بالثورة.

— الثورة؟ وتطلعت إليه مستغربة.

وضحك: الثورة التي هي مؤنث ثور.

فاضطرت إلى الضحك.

وتابع بخبرة الضابط العارف: في الشام يتهيأون للمشاغبات. وفي القدس يعملون مشاكل كلما اشترى يهودي قطعة أرض.

تطلعت إليه بحذر لترى إن كان يعرف أنها يهودية.

وسألته: وهل أنت يهودي؟

قال: لا. ولكن اليهود يعجبونني. شاطرين بالزراعة. ومعهم مال وعلم. لا أفهم لماذا يحتج هؤلاء العرب البدو، ولماذا يثيرون المشاغبات. ولكن ما هي النتيجة؟ الموت. كل من يتحرك ويثير المشاغبات إلى الموت. سمعت بالمعتقلين الذي سيعدمهم جمال باشا؟

— سمعت.

* هذه هي النهاية. في سنجق القدس أعطيت أوامر بأنه لا رحمة مع من يثيرون المشاغبات.

— ولم المشاغبات؟

* قال العرب خائفون من أن اليهود يريدون بناء دولة هناك. ليتني أنتقل إلى القدس لأريهم كيف يكون العمل.

— ماذا كنت ستعمل؟

* أزيد عدد الموتى.

— ألا تشفق عليهم؟

* على هؤلاء العرب؟ هؤلاء يمكن أن تشفقي عليهم في

كل شيء إلا في مسألة الموت. العرب لا يعرفون أن يفعلوا شيئاً إلا أن يموتوا. يموتون وينشرون الموت حولهم.

* ولم هذا الموت كله؟

ضحك: هواية. لم الموت؟ من الجوع والفقر والوسخ والقمل والطاعون وجثث الجنود القتلى التي تترك في أرض المعركة، والأرمن الذين تركوا يموتون في الطرق. هل لاحظت كثرة العقبان والطيور الكواسر؟ هذه كلها تعيش على جثث العرب والأرمن. هذا غير الوحوش والضباع. لكثرة ما هناك من موتى لم يعودوا يهتمون بالدفن. الطيور والوحوش اعتادت على أكل لحوم البشر. يقولون إن من يتذوق لحم البشر لا يعود يستطيع الامتناع عنه. ولكن الطيور والوحوش أيضاً تموت من لحومهم. تأكل جثة مصابة بالطاعون فتموت هي الأخرى. وثمة بشر يمسكون ببعض هذه الطيور قبل أن تموت أو يعثرون على جثة وحش ويأكلونها فتنتقل إليهم العدوى من جديد. في دير الزور والجزيرة مات الناس من أكل السمك. الجثث التي ألقيت في الفرات كان بعضها مصاباً بالطاعون أيضاً. الريش والجثث في كل مكان. لذلك لا نعرف من مات قبل الآخر ومن أكل الآخر.

تطلعت إليه خائفة من الصورة التي رسمها، فضحك:

لذلك أقول لك إن ثورتهم مؤنث ثور.

ولم تستطع أن تحس أن الضحك يقرب بينهما. طوال عمرها وهي متعودة على أن ترى حاجزاً ما يفصلها عن هؤلاء الناس. الناس الذين يربون القمل أكثر من القطعان. ويأكلون الجراد أكثر من الفاكهة. وعلى الرغم من أن ضابطاً كهذا يبدو نظيفاً ومرتباً لكنه في أعماقه بهيمة. ولا يتعامل مع الناس أو مع الجنود إلا بصفتهم بهائم. وهذا الحديث المريع الذي يضحكه يؤكد أنه بهيمة. لا شك أن بيته زريبة. هو في النهاية منهم. ولا بد أنه جاء من قرية من تلك القرى الوسخة المليئة بالجثث التي كان يتحدث عنها. هي مختلفة. وقريتها مختلفة. نظيفة.

في ضاحية من ضواحي اسطمبول سمعت تعبيراً طبياً من زوجها، الذي يعرف كيف يحادث كل إنسان حسب ذوقه، فاستخدمته. سألها طبيب صديق: هل زخرون ياغوف كهذه القرى؟ فأجاب زوجها عنها: لا. زخرون ياغوف موجودة دائماً تحت العناية المشددة. نعم. أرض المستعمرات موضوعة تحت العناية المشددة. ليس لأنها مريضة. بل لأنها كانت مريضة. كانت قاحلة وقريبة من التصحر أو متصحرة. وهم جاؤوا فأحيوها. أبوها أحيا أرضاً ميتة أو على وشك الموت. كل جزء منها زُرع كما يجب أن يزرع. وكل شيء فيها مفيد. والجميع

يتصرفون بإحساس أن أقل انتكاسة فيها ستجعلها تعود إلى التصحر أو إلى ما يشبه القرى العربية.

كلام آرون يتردد في أعماق ذاكرتها ووعيها. بشخصيته القوية، وبامتلائه بالثقة العلمية، جعلها تحس أنها واليهوشا والدياسبورا لا يحلمون. آرون يجعلها تحس أن الحلم حقيقة. وأن انتظار تحققه مضمون مثل انتظار موسم القمح القادم في الصيف وولادة المرأة الحامل.

يقول لها وللآخرين: ليس المهم ذلك الحلم الكبير الذي يتحدث عنه العجائز التوراتيون. سواء كان الحلم يمتد من نهر مصر إلى نهر الفرات الكبير، أم يكتفي بالامتداد من وادي الفوز إلى نهر الأردن. المهم هو مد الجذور هنا. الاكتشاف الذي حققته في سفوح (حرمون) في الجليل الأعلى، والذي انصرع به الأميركان هو اكتشاف لحلمنا. القمح العدي، القمح البري، الذي كان العبرانيون الأوائل يزرعونه في هذه المنطقة التي تبدو صحراء ويشبع سكانها... هذا النوع من القمح هو الوحيد في الدنيا الذي يتلاءم مع طبيعة هذه الأرض بقلة مياهها وقلة أمطارها. وهو الذي سيكفي سكانها مهما بلغ عددهم. هذا القمح هو بذرة المستقبل الصهيوني. نحن نمد جذورنا هنا بالتين والعنب والزيتون. ولكن هذا القمح هو المن والسلوى الذي تنبته الصحراء. حين

ذهبتُ إلى أميركا، بعد أن أبلغهم الألمان بالاكتشاف، لم أذهب لكي أتثبت من اكتشافي العلمي. بل ذهبت لأتثبت من إمكانية تحقيق حلمنا. هذه الأرض الموعودة، أرض إسرائيل، تنبت ثلاثمئة نوع من النباتات أهمها هذا القمح والكينا. القرى العربية المبنية كيفما اتفق، والأرض المزروعة كيفما اتفق، والأولاد الذين يربون بين الوسخ والإهمال كيفما اتفق مثل نبات البرية... هذا هو البور الذي سنزرع فوقه قمحنا.

كانت ترى ظروفها وظروف قريتها أقرب إلى ظروف المسيحيين وقراهم. وبيت أهلها، مع استثناء بعض التفاصيل الدينية، أقرب إلى بيوتهم. الترتيب ذاته والنظافة ذاتها.

وحين رأت الجنود يهدمون القرى تذكرت ألكسي وخافت عليه.هو من أنصار (بار غيورا)، المنظمة التي أخذت على عاتقها مسؤولية حماية المستوطنات، ورفعت شعار اليهودي الذي يحمي نفسه. وهذه المنظمة أعجبت ألكسي لأنها استمدت اسمها من اسم المقاتل اليهودي ضد الرومان. ألكسي كتلة من الحماس. لا يعجبه شيء. ثم أراد أن يقيم تنظيمه بنفسه. (جيدوينم) بدلاً من (بار غيورا). وهو يتصرف مثلما كان يتصرف أبوها أفراييم فيشيل، الذي سهّل العرب على أنفسهم لفظ اسمه فحولوه إلى إبراهيم ميشيل.

إنه يريد الاستفادة من كل شبر من الأرض. هل سمي تل إبراهيم المجاور للقرية باسم أبيها؟ أم باسم النبي إبراهيم؟ أم لأن الاسم السري للمهاجرين كلهم هو أفراييم؟

وأخوها ألكسندر يريد أن يستفيد، أيضاً، من كل شيء: الشباب للقتال. العجائز للإنذار. والرعاة للمراقبة. ولا يمل من ترديد شعار: يهودا سقطت بالدم والنار. ولن تنهض إلا بالدم والنار. وتذكرت زوجها الذي كان يقول إن كل شيء حولك إذا أحسنت استخدامه يُدخل لك مالاً. ثلاثة شعارات كانت تحيط بها طوال حياتها: كل شبر يزرع. كل شيء للحماية. كل شيء يدر مالاً.

لكنها طردت صورة زوجها من ذهنها. لم تكن تجد له مكانا بين هذه الأسرة العظيمة. لا مكان لحاييم في هذه الجنة. كيف قبلوا أن يزوجوها له؟ كيف نجح في التسلل إلى جنتهم؟ الآن صارت تستطيع أن ترى الموضوع بطريقة مختلفة. هي أغوتْه لتخرجه معها من الجنة ثم تعود إليها وحدها.

أخوها ألكسي يريد أن يحول كل مستعمرة إلى قلعة: اليهودي لا أصدقاء له. ذُبحنا في كل مكان في الدنيا. لماذا؟ لأننا لسنا مسلحين. كان يجب أن لا نموت مجاناً في أي مكان من العالم. ولذا يجب أن تتحول زخرون ياغوف إلى قلعة. أجبر الأهالي على الدفع فاشترى

أسلاكاً شائكة أحاط بها القرية والبساتين والكروم وكل أرض مزروعة لحمايتها من الوحوش واللصوص والعرب والمسلّحين. وحيث لا يوجد شباب للحراسة نصح باستئجار الشركس. ولكن كل ما فعله ألكسي لم يعد له أثر الآن.

— ٢ —

مع اقتراب العربة من البيت توقعت أن ترى ألكسي. ولكن كان أبوها جالساً يتشرب بعظام شيخوخته آخر أشعة شمس الغروب. هذا الذي تعب في كل شيء هو الباقي وحده مع الخراب. لم تتوقع أن يكون الخراب بهذا الحجم. والأهم من هذا الخراب هو استكانة أبيها. كأنه راض بما جرى. كأنه مستسلم له. هذا الذي كان يبدي استعداده للقتل دفاعاً عن كل شتلة أو نبتة أو عشبة فيها لا يكلف نفسه الآن عناء النظر إلى الحيوانات التي تعيث فيها.

حين رآها ابتسم دون أن ينهض عن الكرسي ونادى وهو يلتفت إلى الوراء:

— ملكة. تعالي. جاءت سارة.

وخرجت أمها قبل أن تنزل من العربة.

خرج وراءها أخوها زيفي وزوجته توبة. وأحست بفرح مباغت كأنها لم تتوقع أن تراهما. وقفزت من العربة. عانقت أمها وأخاها وزوجته واندفعت إلى أبيها، الذي

كان قد وقف وراح يتقدم نحوها بقدر ما يستطيع من السرعة بسنيه الستين. عانقت أباها وهي تبكي. ولم تستطع أن تدخل إلى البيت فوراً على الرغم من أن أباها قال: فوتوا جوا.. بدأت النسمة تبرد.

التفتت إليهم تسأل: ماذا جرى؟

ولم يجيبوا.

* لم الدنيا كالخرابة؟

هز أفراييم رأسه: أدخلي. أدخلي. نظل أحسن من غيرنا.

* لِمَ الشجر هكذا؟

— نحن في الشتاء. هذا تشرين الثاني. نوفمبر.

* ولكن فيه شيء غير العري الشتوي.

— ألم تسمعي بالجراد؟

* يفعل هذا كله؟

كانت قد سمعت بالجراد لكنها نسيته الآن. عرفت أن أخاها آرون صار مستشاراً لجمال باشا من أجل حملة مكافحة الجراد. وسمعت أن الجراد يأكل الأخضر واليابس لكنها لم تره. وحين كانت ترى الطبيعة الجرداء في طريقها إلى هنا كانت تظن أنه الشتاء، أو أن الجوع المتفشي في كل مخلوق قد جعل الشجر نحيلاً وهزيلاً لكي يتلاءم مع الناس المحيطين به. ولكن زخرون ياغوف!!

— عينك ترى كيف كنا في الصيف. الآن نبت بعض العشب مع المطر.

يا ويلي عليك يا أبي. ألم تحس أن الجراد يرعى قلبك؟ وتطلعت إليه وهي تكاد تبكي. ثم تطلعت إلى أمها: لا أعرف. هناك شيء غريب. أحس أن الأراضي مثل البقجة المفلوشة.

ضحك زيفي لهذا التشبيه: يمكن لأن الأسلاك لم تعد موجودة.

فعلاً. غياب الأسلاك الشائكة جعلها تحس هذا الإحساس. كأن الأراضي قد اختلطت.

قال أفراييم: جاء الجيش واقتلع الأسلاك. يحتاجون إليها لأنهم في حرب.

— وما علاقتنا نحن إذا كانوا في حرب؟

قال زيفي: قد يأتون الآن. على أية حال لن تذهبي إلا بعد أن تريهم.

عقبت الأم: وحوش.

تطلعت سارة إليهم بحزن.

قال الأب: ادخلوا خلصونا. بردنا.

توجهت إلى الداخل وهي تسأل: لماذا تتوقعون مجيئهم؟ ما الذي يريدونه منكم بعد ذلك؟

* يجمعون السلاح. تصوري! نظل بلا سلاح.

— وماذا فعلتم؟

* صادروا قسماً وأخفينا قسماً. لا يصدقوننا. في أي وقت نحن معرضون للكبسة.

يا ألله كم تعذبوا في غيابها. كم تعذب أبوها وهو يرى أرضه يأكلها الجراد. وكم تعذب ألكسي وزيفي وهما يريان الأسلاك تزال والأسلحة تصادر. لو كان آرون معهم لما أحست بالقلق. آرون يستطيع أن يشيل الحمل ويتحمل المسؤولية ويعثر على الحلول. أما في غيابه فيجب أن تكون هي موجودة.

كيف تصرفوا في غيابها؟

شدها أبوها ليجلسها: اجلسي. يبدو أنكم في اسطمبول لا تعرفون شيئاً. كيف حال حاييم؟

— مليح. يسلَم.

ولم تحب أن تضيف شيئاً.

جلست: وأين ألكسي؟

ضحك زيفي: أما سمعت به أيضا؟ سحبوه إلى الجيش.

زعقت: وماذا يفعل ألكسي في الجيش؟

قال الأب: سحبوا الشباب كلهم. ألكسي ونعمان وأفشالوم.

قفز قلبها فتجاهلته.

أضافت أمها: لكن الله لطف بهم. آرون سحبهم كلهم عنده وريّحهم.

— يعني ألكسي عند آرون؟

قال زيفي: لا. طلبهم كلهم ليصبحوا في لجنة مكافحة الجراد أو ما أسموه لواء الجراد، فعادوا إلى هنا. أصلاً نحن والمسيحيون خدمتنا العسكرية بائخة. لا يريدون تركنا دون خدمة. ولا يثقون بنا لكي ندخل في القطعات العسكرية. ما من مسيحي أو يهودي يحق له تجاوز بئر السبع. يحولون شبابنا كلهم إلى طابور الفعالة. وخاصة بعد أن استغنوا عن الفعالة الأرمن.

— وأين ألكسي إذن؟

* سافر إلى بيروت.

— لا. ليس في بيروت. رأيت رفقة. لم تخبرني عنه.

* يا ابنتي ألكسي هنا وليس هنا.

أضاف زيفي ضاحكاً: مثلما أنه كان في الجيش وليس في الجيش.

— فهّموني.

* يعني.. ألكسي لم يعد يطيق البقاء في هذه البلاد. يقول إن المجزرة قادمة. سيفعلون بنا مثلما فعلوا بالأرمن. ولذلك يجب أن نهاجر إلى أوروبا وأميركا. ولما لم يقبل رأيه أحد قرر أن يهاجر وحده مع رفقة. ذهب ليأخذها من بيروت. قال يجب أن تقوم حملة إعلامية مضادة في أوروبا وأميركا لمنع المذبحة. أو لمنع حدوثها بصمت. وسيسعى هو من أجل ذلك.

— بعد تهجير اليهود الروس؟

* سمعت بهذا أيضا؟ نعم. بعد تهجير اليهود الروس. الجميع الآن أمام أحد خيارين: إما أن يكونوا مواطنين عثمانيين، وهذا يعني أن يلتحقوا بالجيش؛ وإما أنهم رعايا أجانب يجب أن يتركوا البلد ويهاجروا. نحن أخذنا هويات.

— ولكنهم لا يسمحون للمواطنين العثمانيين بالهجرة. حاييم زوجي عثماني من الطراز الأول، يتبرع للجيش. ومع ذلك لم يسمحوا له بالسفر من أجل تجارته.

* رأيت آرون؟

— مررت بمكتبه ولم أجده. تركت له ورقة مع ليوفا.

* جمال باشا لا يفارقه. يعلق عليه أهمية كبيرة بعد حملة الجراد. جمال باشا مهتم بالزراعة.

— الله يلعن أبو جمال باشا وأبو زراعته. هذا يعني أنه لا أحد في المختبر. ومن أين تأكلون؟

* جاءت معونة أميركية صار آرون مسؤولا عن توزيعها.

— هل ترون أفشالوم؟

وبذلت جهدها لكي يبدو سؤالها محايداً.

* سافر إلى مصر. الله يحميه.

تطلعت إليهم غير مصدقة. ماذا يفعل في مصر؟

قال لها زيفي: سأحكي لك كل شيء بعد العشاء.

— ٣ —

بعد العشاء، وفي الطريق إلى عتليت لتفقد المختبر،

حكى لها زيفي وهما في العربة أن أخويها والآخرين يحاولون تجديد الاتصال بالإنكليز. أفشالوم سافر منذ فترة ويبدو أنه نجح في إقامة اتصال. وكانت هناك سفينة إنكليزية تأتي إلى مقابل عتليت وينزل منها قارب إلى الشاطئ يأخذ ويعطي. يأخذون منه الإعانات والأوامر ويعطونه المعلومات التي استطاعوا جمعها. السفينة مرت آخر مرة وكانت المعلومات قد جمعت في كيس جلدي ثم في تنك ودفنت في عتليت. وعلّقوا مصباحاً على الشاطئ يعلَى ويوطأ كإشارة. ولكن السفينة تجاهلتهم. منذ شهرين لم تعد تظهر ولا يعرفون السبب. لذلك قرر ألكسي أن يمر بمصر إذا استطاع الخروج بجواز سفره المزور وبعدها سيكمل إلى أميركا. وأفشالوم لم يعد يستطيع انتظار محاولة ألكسي فقرر الذهاب إلى مصر عبر سيناء.

— عبر سيناء؟ مجنون؟ سيناء المليئة بالجيش التركي والألمان، وفي ظروف الحرب؟

* حاولوا أن يمنعوه فلم ينجحوا. قال إن البطاقة التي يحملها بصفته عنصراً من لواء الجراد، وعليها توقيع جمال باشا، سوف تفتح له الطريق وتحميه.

وقف زيفي فاضطرت إلى التوقف: هل ستبقين عندنا طويلا؟

— ربما. لماذا؟

* عقليهم. هؤلاء مجانين.

— تعني أنك لا تشتغل معهم؟

* أنا لست موافقاً على جنونهم كله. نحن،كما يقول العرب، نمشي الحيط الحيط ونقول يارب السترة. الأمور الآن مربحة وآمنة. بالأمس جاء جمال باشا إلى يافا. ثم تمشى في تل أبيب. جماعتنا استقبلوه. كان راضياً. ألقى خطاباً جميلاً قال فيه إنه صديق لليهود. وإنه يضمن سلامتهم. وإن من يطعن في وطنيتهم يتعرض للعقوبة. ماذا نريد أكثر من ذلك؟ حتى أنه أعطانا بعض التلال الرملية الموازية للشاطئ. ولم يهتم باحتجاجات العرب. لماذا نزيدها؟ إذا أمسكوا إثباتاً واحداً على يهودي منا أعطيناهم ذريعة لأن يفنونا عن بكرة أبينا. الجميع رأيهم هكذا. والجميع يفضلون الجلوس بهدوء وعدم القيام بأية حركة الآن. حتى شراء الأراضي توقف. يجب أن لا نستفز أحداً. هذه أيام حرب. الذي يموت يذهب مجاناً. لا أحد يسمع به. مليون أرمني من سمع بهم؟ لم نعتبر بما جرى معنا في مجازر روسيا. ألا نعتبر بما يجري مع غيرنا هنا؟ يسخرون مني ويسمونني الختيار. قال أنا مع العجائز الكسالى الخائفين. حتى هذه التنظيمات المسلحة التي عملوها بحجة الحراسة: البارغيورا والجيدونيم والهاشومير ماذا تبقى منها كلها؟ ماذا تعني المنظمة

المسلحة دون شباب ودون سلاح؟ لا يزال الوقت باكراً لحمل السلاح. لم يصل عددنا بعد إلى الحد الكافي. الهجرة إلى هنا لا تزال تواجه مصاعب كثيرة. وكثيرون يخرجون ولا يرجعون. حتى الحكومة بدأت بالتهجير. ولولا تدخل أميركا لحدث لنا ما حدث للأرمن. يجب أن نبقى مستكينين إلى أن تجيء فرصتنا. وفرصتنا لم تجئ بعد. نحن نبقى هنا فقط. وننفذ ما يطلبه منا روتشيلد. ولا أكتمك أنني مازلت منزعجاً من عدم استجابة آرون لرغبة روتشيلد في إكمال الدراسة. لا يزال الوقت مبكراً على الحديث عن مشاريعنا الخاصة. تصوري أن أفشالوم نفسه لا يتحدث إلا عن قيام ثورة مسلحة. وربك أعلم إن لم يكن قد حدّث الإنكليز عن هذه الثورة. تصوري: الشريف حسين الذي يتعهد بأن يثور العرب كلهم معه يتعامل الإنكليز معه بحذر. وشبابنا يريدون أن يقنعوا الإنكليز أننا نحن، بأعدادنا القليلة هنا، نستطيع أن نفعل شيئاً. لهذا لا ينظرون إليهم بجدية. ولهذا لن ينجح لا ألكسي ولا أفشالوم. ولكن هذه الحركات تثير الشبهة وتضعنا في موقع الخطر. الجيش يعتبر أنه فشل في الهجوم على القناة بسببنا وبسبب الألمان. نحن جواسيس والألمان مخادعون. هل نثبت التهمة على أنفسنا بأيدينا؟ الجيش سيبطش بنا. وحتى لو لم يفعل. انشغال

الجيش بالحرب سيتركنا تحت رحمة البدو والشركس والفلاحين العرب. تذكرين واحداً اسمه ألتر ليفي؟

هزت رأسها ودارت انتفاضة قلبها الوجلة: أذكر.

* منذ أن جاءنا لا أعرف ماذا جرى للشباب. كأنه سمم دماءهم.

— ولكنني أعرف أنهم لم يرضوا أن يشتغلوا معه.

* صحيح. ولكن فكرة الشغل مع الإنكليز ركبت رؤوسهم.

وفيما كان زيفي يسوق الموضوع باستنكار كانت سارة تتابعه بإعجابها. فاجأته بسؤال: ألا ترى أننا نستطيع أن نقوم بثورة؟

* طبعاً لا نستطيع. كم يبلغ عددنا؟

— هل تعرف كم كان عمر ديفيد حين صارع جوليات؟

تطلع إليها مستغرباً: ما المقلاع الذي سيستخدمه داوود الآن؟ بريطانيا العظمى؟

— العالم.

— ٤ —

المختبر. آرون. آرون والمختبر. المختبر الذي يجعل آرون موازياً في القيمة لروتشيلد. آرون يرفض وصاية الأغنياء الذين يوجهون حياة اليهود بأموالهم إلى حيث يشاؤون من البعثات والمشاريع. آرون يرفض رغبة روتشيلد في تعليمه. ويذهب إلى ألمانيا وأميركا ليتابع

مشروعه. يقتنعون به. وينشئون له هذا المختبر لاستكمال أبحاثه الزراعية. ومن يومها صار المختبر ثكنتهم، هي والشباب. إن المختبر رمز استقلالهم تحت قيادة آرون.

قررت أن تنام في المختبر. هنا تحس نفسها برعاية آرون حتى وهو غائب.

قال لها زيفي: قلتِ إن إقامتك هنا ستطول. هل سيأتي حاييم؟

— لا.

* هل هو مسافر؟

— لا.

ظل واقفاً يريد أن يفهم..

— حاييم ظل في اسطمبول. وأنا جئت إلى هنا. انتهينا.

* سيطلقك؟

— سيجبره آرون على ذلك.

لم يكن من السهل فتح النقاش معها. تعودت أن تبلغ قراراتها فقط. وخاصة بعد أن استقلت وتزوجت وصارت غنية تساعد أهلها.

وبمحاولة يائسة: هل ستقيمين في القدس؟ أم في بيروت؟

تطلعت إليه مستغربة سؤاله: سأقيم هنا. سأتابع عمل

آرون في المختبر. لماذا ذهبت رفقة إلى بيروت؟ كيف تترك المختبر؟ وكأنها كانت تريد أن تقول: كيف تترك أفشالوم؟

ثم رفعت صوتها كأنها تريد أن تقمع هاجسها: هذا مختبر يساوي ثقله ذهباً. ألكسي راح. وآرون مشغول. يظل المختبر هكذا؟ من ظل هنا؟

— راب يحرس المختبر ويعتني بما تبقى من الأشجار.

* ولا أحد يشتغل فيه؟

— ٥ —

في تلك الليلة جاء آرون يحمل أخباراً سيئة: أفشالوم قبض عليه الجيش في سيناء. أنا أعرف ما يعنيه لك أفشالوم. ولذلك جئت أخبرك. محاولته فشلت. اصطدم بعناصر ألمان فلم يهتموا لكونه من لواء الجراد. الحق عليه. هو يستغبي الأتراك ولكنه لا يستطيع أن يستغبي الألمان. جراد في الصحراء؟ حتى الجراد لا يأكل رملاً.

* المهم أين هو أفشالوم الآن؟

— مسجون في بئر السبع..

* سيعدمونه؟

— طبعاً. جمال لا يعرف من أحكام القضاء في الدنيا إلا الإعدام.

* آرون؟!

— سأبذل جهدي. جئت لأخبرك فقط. وسأذهب اليوم

إلى دمشق لرؤية جمال باشا.

— وهل هناك أمل؟

* أظن. إذا وصلت قبل أن يعدموه.

— قل لي ماذا ستفعل. أرجوك.

* جمال باشا قلق من المجاعة، ويريد أن يسترد ماء وجهه بعد بهدلته في حملة شباط في سيناء. يريد أن يؤمن التموين. وهو يعتمد علي. وسأبلغه أنني لا أستطيع أن أفعل شيئا لأن المعلومات كلها عند معاوني الذي يعتقله الألمان. هذا أقصى ما أستطيع فعله.

— وماذا تتوقع؟

* جمال باشا يكره الألمان ويحس أنهم ينازعونه سلطته. فور سماعه باعتقالهم لأفشالوم سيطلب إطلاق سراحه.

قالت: يجب أن تمر لتطمئن عليه أولاً. إضمن أنهم لن يعدموه قبل أن تصل إلى جمال باشا. ربما كانوا يعذبونه.

— لا أستطيع أن أضيع الكثير من الوقت. يجب أن أصل إلى دمشق بسرعة. ولكن لدي أصدقاء في بئر السبع وقد دفعت ما يكفي من المال. العلاقات والمال والقرب من الباشا. بهذه الأمور أكون أقوى حتى من أنور باشا. ولكن الأخبار حتى الآن جيدة. نعمان على اتصال مع أفشالوم.

— نعمان بلكند؟ أين هو الآن؟

* رجع إلى روشيون لوزيون. وابتسم: خبير زراعي. يمارس خبرته في صناعة الخمور.

أمسكت به ترجوه. لكنها لم تجد ما تقوله. شد على كتفها: أنا أثق بقوتك وقوة أعصابك.

* سأبقى هنا في عتليت.

— كما تشائين.

* آرون. نحن لا نساوي شيئاً من دونك.

ابتسم لها: فيك البركة.

قالت: كان على أبي أن يسميك موسى ويسمي واحداً آخر من أخوتي آرون.

— ٦ —

ظلت في المختبر. صرفت راب. قالت له: لا تعد قبل أن أطلبك. وبقيت وحدها. ولكنها لم تستطع أن تنام. أحست أنها ناقمة على نفسها لابتعادها بالزواج عن هذا الجو. ثم أحست بأنها ناقمة عليهم جميعاً لأنهم يخوضون تلك المغامرة وهي لا تشاركهم فيها. وغصت بالبكاء لأن آرون جاء وذهب فلم يذكر لها شيئاً عن الموضوع كله. اكتفى بأن حدثها عن أفشالوم. وهي رغم قلقها على أفشالوم وامتنانها لتفهم آرون لحقيقة عواطفها، إلا أنها كانت تتمنى لو فتح لها الموضوع. هي ليست امرأة عاشقة فقط. هي المرأة التي كانت دائماً

محط ثقة آرون وتقديره ويجب أن لا تفقد ذلك.

ولكي تشغل نفسها راحت تتفقد أدراج البذور والأحواض والنماذج الجيولوجية والنباتية. ثم دخلت غرفة المكتبة وبدأت بمسح الغبار عن الكتب التي تملأ رفوفها.

وفيما كانت تفعل ذلك تذكرت الحوارات والاستفزازات العديدة بين أفشالوم وآرون. أفشالوم الذي يبدي استغرابه من وجود كتب عن النباتات والتربة ويعتبرها مملة ويعتبر قراءتها تضييع وقت «وإذا كان لا بد من قراءتها تُقرأ وترمى. كتب زراعية يحتفظ بها؟ الكتب التي يحتفظ بها هي كتب الأدب والفلسفة والتاريخ. ليس فقط لكي يقرأها المرء مرة واحدة. بل لكي يستطيع، كلما أحس بالضجر أو الملل أو الحزن، أن يمد يده إلى واحد منها فيقرأ شعراً لا أشواكاً».

وتدريجياً بدأت كتب الشعر والرواية والمسرحية، وبلغات متعددة، تحتل أمكنتها في الرفوف. أفشالوم دائماً معه كتاب وحين ينتهي من قراءته يضعه على رف هنا لكي لا يحمله معه إلى البيت، ولكي يخفف من قبح هذه الكتب الزراعية، كما كان يقول ليستفز آرون.

وكان لهذه الكتب دورها، هي الأخرى، في تلوين حياتهم. صارت العادة المفضلة لديها أن تتمدد في الفراش وهي تمسك كتاباً من هذه الكتب الأدبية تتسلى

به قبل النوم.

ويقف آرون بباب الغرفة: كلكم صرتم عملاء لأفشالوم. أنا الآن أشكو من أقليتي.

— لا. لست أقلية. نحن نشتغل معك طوال النهار. هل تريدنا قبل النوم أن نقرأ عن العيرون أم الكينا؟

* بالمناسبة، أنتم وصاحبكم أفشالوم تسمونها الكينا. وهذا غلط. في مصر أيضاً يسمونها الكافور. وهذا غلط أيضاً. هي الإيكاليبتوس.

— طيب. لا نريد محاضرة أخرى عن الموضوع. سمها ما شئت. ودعني أستمتع بهذه القصة.

* هذه القراءة تضييع وقت. إذا شئتم أن تقرأوا شيئاً غير الأبحاث العلمية فاقرأوا التوراة أو التاريخ العبري. عيشوا أحلامكم. ولا تضيعوا أوقاتكم مع أحلام الآخرين.

وكانت حجة أفشالوم قوية دائماً: ماذا يساوي الإنسان لولا حلمه؟ أنت تشتغل في الأبحاث الزراعية لتحقيق حلم العثور على النباتات الصالحة لهذه المنطقة. حتى العودة إلى التوراة هي عودة إلى حلم. كلنا نشتغل لتحقيق حلم نحلم به منذ ألفي سنة وهو العودة إلى أرض الميعاد وبناء مملكة يهوذا من جديد لشعب الله المختار.

أخذت من الرف ديوان شعر لأفشالوم ثم ذهبت إلى

الغرفة التي كانت لها ولرفقة. ورأت الغرفة على حالها: كأنهم كانوا يعرفون أن غيبتي لن تطول وأنني سأرجع إليها.

واسترجعت طفولتها في القرية. حيث كانت وكأنها في جامعة. وفيما كان أخوها ألكسي منصرفاً إلى التدرب على السلاح، وإلى العمل في تنظيم (جيدونيم) السري ليشكل للمزارع حراساً؛ كانت هي منصرفة إلى تعلم اللغات من المستوطنين العجائز الذين جاء كل منهم من بلد. وإضافة إلى المدرسة في زخرون ياغوف تعلمت العبرية والفرنسية والألمانية واليديش. ثم سافرت إلى عدة دول أوروبية: ألمانيا وسويسرا وإيطاليا. لكنها لم تكن ترى لحياتها معنى إلا في زخرون ياغوف. الحياة في أوروبا مقيدة لا تتيح لفتاة تيقظت أحلامها أن تعيش هذه الأحلام. ولم تكن أحلامها أحلامَ مراهِقة حول الجنس والشباب واللهو والرقص. بل أحلام فتاة تريد أن تلعب دور الرجال. ألكسي علمها ركوب الخيل وإطلاق النار. فصارت تركب الفرس ومسدسها على خصرها وتنطلق فتتخيل نفسها تنطلق في التاريخ لتصبح فارساً يجول أرض فلسطين ويقتل الأعداء ويحمي الضعفاء.

القرية المستديرة، التي تلتحم لتشكل سوراً اسمه (موشافوت)، لم تكن توحي لها بالغيتو الذي ينغلق فيه

اليهود على أنفسهم بل المتراس الذي يستطيعون من خلاله صد اللصوص والأعداء والغزاة. وتدور بفرسها حول الموشافوت وكأنها تطمئن على أمنه.

كانت تتمدد أمام مختبر عتليت حيث ترفض النوم في الداخل خلال الصيف وتتطلع إلى القمر والنجوم وتحلم وهي تتلقى نسمات البحر. ساعدتها شاعرية أفشالوم على الاستمتاع بتحويل كلام آرون إلى قصص تلعب فيها أدوار البطولة.

قليلاً ما كان الشباب يدخلون في أحلامها. وحين كانوا يدخلونها فبلا ملامح. أشكال متحلقة حول آرون وبينهم ألكسي. ودورهم الوحيد في أحلامها أن يُبدوا إعجابهم بها وبآرون. وأن يشبّهوها بفرسان الحكايات ويحاولوا تقليدها.

إلى أن جاء أفشالوم.

كانت زخرون ياغوف متعودة على استقبال الكثيرين. مهاجرون جدد يأتون دائماً. ومعظمهم من روسيا (الحفيانون). ويقصدون المستوطنات المستقرة مثل مستوطنتهم ومكيفيف إسرائيل وبتاح تكفا وجديرة وخضيرة. بعضهم يعمل. وغيرهم يجلس بلا عمل، أو أنه يريد أن يتعلم لغة ما.

وكان بينهم من يثير استغرابها مثل ذلك الدافيد بن غرين (الذي سمى نفسه فيما بعد بن غوريون) والذي

يعلن لهم أنه جاء إلى المزرعة لكي يتعلم العربية ويحسّن فرنسيته. وهو مستعد أن يشتغل أي شيء.
لكنه لم يكن مجرد عامل باحث عن عمل، ولا مجرد طالب باحث عن العلم. كان يتصرف دائماً وكأن كل خطوة يخطوها يجب أن تؤدي إلى استقلال أرض إسرائيل. ولقد قال إنه يتمنى لو يستطيع قضاء عمره كله في زخرون ياغوف. لكنه أثار شغباً حقيقياً — ظل في حدود المناقشات الحامية — وهو يحتج على أنهم يتحدثون في حياتهم اليومية باليديش بدلاً من أن يستخدموا العبرية الأصيلة لإحيائها: كيف نتفاهم فيما بيننا؟ نحن مهاجرون من دول ومناطق متعددة. ولكل لغته. كيف نتفاهم إذاً؟ اليهود المقيمون هنا منذ زمن يتكلمون العربية وكذلك اليهود القادمون من اليمن أو العراق والمناطق العربية الأخرى. اليهود الشرقيون يتكلمون الفارسية. والسفارديم يستخدمون لغة لادينو أو أسبانول. وهي مزيج من العبرية والإسبانية. ويهود أوروبا يتكلمون اليديش. حتى يهود المغرب يتكلمون الفرنسية. هذه اللغات تفرقنا. والعبرية وحدها هي التي تستطيع أن توحدنا إضافة إلى الدين. بل هي أهم من الدين. فقد يكون بيننا من هم غير مهتمين بالدين. أنا مستعد أن أعلّم العبرية لكل من يرغب. وسأبدأ من اليوم. ثم لماذا هؤلاء العمال العرب؟ كيف ستكون

مستوطناتنا يهودية إذا كان عمالها عرباً وحراسها شركسيين؟

— لا تقل لي إنه استغلال للطبقة العاملة كما يقول أصحابك الحفيانون الهاربون من روسيا.

* بل أقول لك إنه استهتار بالشباب اليهودي المتحمس الذي يأتيك مهاجراً وفي حلمه أنه سيقيم دولته اليهودية على أرض إسرائيل. تعرف ما هي مشكلتك يا آرون؟ أنت ذكي ومتفوق في ميدانك الزراعي كما سمعت عنك. لكنك لا تهتم لهذه المسألة لأنك لا تعمل بيديك. يجب أن نشغِّل الشباب اليهود المهاجرين لكي نحيي قيم العمل. يجب أن نصبح أمة عاملة. نحن لسنا طبقة عاملة. نحن أمة عاملة (آم أوفيد).

هذا أول إنسان ينتقد آرون ويتعامل معه بندية.

ولكن يا دافيد من أين نجد يداً عاملة يهودية رخيصة بهذا المقدار؟

* سنعمل على ترحيل يهود اليمن. كبّروا أحلامكم يا جماعة. هرتزل فاوض البريطانيين على أن يعطونا العريش كنقطة انطلاق. ومرحافيا بنيت في الفولة على أنها أول مستعمرة رائدة للاستيطان اليهودي التعاوني. أنتم لا تعرفون أن بريطانيا ستساعدنا على تحقيق حلمنا من أجل أن تحقق حلمها هي. بريطانيا تريد أن تقيم بنا جداراً عازلاً بين عرب أفريقيا وعرب آسيا. منذ

١٩٠٥ وبريطانيا العظمى تطمح إلى إقامة حاجز بشري قريب من قناة السويس يكون صديقاً لها ومعادياً لأهل المنطقة.

— يعني أن نعمل على تحقيق الحلم الإنكليزي.

* بل هو حلمنا. سوكولوف هو الذي قدم إلى الخارجية البريطانية مذكرة حول قيام كومونولث يهودي في مصر. وجاء هذا منسجماً مع الطموح الإنكليزي.

وينقسم الجو في هذه الحواريات فينضم ألكسي إلى ديفيد مضيفاً حماساً إلى حماس. ويحاول دافيد أن يكسب أباها إلى جانبه. لكن العجوز لا يرى ضرورة للمبالغة في الموضوع. ويقف أفشالوم إلى جانب الأب ويقول: أنا معه. نحن الحزب الثالث.

ولكن بن غورين، حتى بعد أن ترك المزرعة، ظل محور أحاديثها. إذ تحول إلى مثل أعلى للعديد من الشباب. فهو لا يلقي خطاباته إلا بالعبرية. ولا يجلس دون عمل. صحيح أنه يحتاج إلى العمل. فهو حين جاء إلى فلسطين لم يكن يملك إلا القميص الذي يرتديه. ولكنه لا يعمل لكي يأكل فقط. بل يعمل لبناء دولة. وقد بدأ بتشكيل النقابات منذ أن وصوله. وكانت نقابته الأولى من أربعة عمال في معمل أحذية. ثم نقابة في مجمع خياطة يحتوي على عشرة عمال. وينقل لهم نعمان إعجابه بالرجل وبقدرته على التفاوض في الاجتماعات

التي كان يعقدها في روشيون لوزيون حيث توصل إلى جمع النقابات في حزب بوعَلي زيون. وحين دعاه اسحق بن زفي لحضور مؤتمر الحزب في يافا مشى لمدة يومين على قدميه من زخرون ياغوف حتى وصل إليها.

إثنان فقط هزا قناعات المزرعة.

— ٧ —

كان الجميع سعداء بأنهم قد جعلوا مزرعتهم أفضل مزرعة في أرض إسرائيل، وصارت مضرب مثل عند روتشيلد ومثار فخره. وكانت عائلة آرونسون تحس أنها هي القرية وهي سر نجاحها وتفوقها. إثنان فقط: دافيد بن غورين الذي جاءها عاملاً وبدأ ينتقد حياتها الجوانية فيظهر عيوبها. وألتر. ألتر ليفي الذي جاء من فوق. يحمل مهمات للشباب لكي يصبح لحياتهم معنى: العالم كله في حالة حرب. لا تظنوا أننا نستطيع أن نعيش في معزل عن هذه الحرب. إما أن تدمرنا وإما أن نستفيد منها. الأتراك لا خير فيهم. جربناهم أكثر من مرة. لم يبق مظهر من مظاهر التأييد المادي والمعنوي إلا قدمناه للدولة في أزماتها: في حرب ليبيا وفي حرب البلقان. تطوعنا بأموالنا وخبراتنا. خيرة شبابنا تطوعوا للذهاب مع الجيوش. والآن ما الفائدة من هذا كله؟ ها هي الحرب الأكثر أهمية. والأتراك لا يثقون بنا. حلوا

اللواء الذي شكلناه بموافقة حاكم القدس. يجمعون منا السلاح. والعرب لن يظلوا نائمين إلى الأبد. الحرب أيقظتهم وأيقظت الجميع. انتبهوا جيداً. الاتحاديون يستطيعون أن يذبحوا الأرمن لكنهم لا يستطيعون أن يذبحوا العرب. يستطيعون أن يقمعوهم فقط. العرب شعب كبير. إذا فكر الاتحاديون بذبح العرب فهذا يعني أنهم يفكرون بحكم بلاد خاوية. من طوروس إلى اليمن عرب مسلمون. بينهم قليل من المسيحيين هنا، وقليل من جماعتنا اليهود هناك. هذه الأقليات هي المعرضة للذبح. وهي التي يجب أن تبحث عن مصلحتها في هذه الحرب. الموارنة وجماعة جبل لبنان كلهم يتصلون بفرنسا. يجب أن نتصل بالموارنة وبكل من له مصلحة مختلفة عن مصلحة أهل هذه البلاد. وفي الوقت ذاته لا تظنوا أن العرب نائمون. العرب يتحركون. ألف جمعية وجمعية. والشريف حسين بدأ يتحرك. والكل يتصلون بالإنكليز. إذا نجح العرب في تشكيل دولتهم على أكتاف الإنكليز رحنا معساً بين الأرجل. الآن يجب أن نشتغل ونكون مفيدين.

ويسأله آرون: لماذا تجيء إلينا نحن بالذات؟

* لأن شغلكم عال العال. لديكم مختبر ومزرعة. غطاء عظيم. وأنتم قريبون من البحر. نستطيع أن نقيم اتصالاً دائماً مع الإنكليز من هنا. لا تظنوا أنني لا أشتغل

إذا لم تشتغلوا معي. أنا أشتغل قبل أن أجيء إليكم. ولكن أريد أن يعرف الإنكليز أنني لا أشتغل معهم بصفتي جاسوساً رخيصاً ولا أميركياً يكره العثمانيين. أريدهم أن يعرفوا أنني أشتغل باسم ملتي كلها. هذا سيجعلهم يحسبون حسابنا بعد أن تستوي الطبخة. أما إذا ظللنا هكذا فسنظل تحت رحمة العثمانيين والعرب ثم الإنكليز. ونطلع من المولد بلا حمص.

ويقول آرون: يبدو أنك لا تعرف أن جماعتنا في مصر يتعاونون مع الإنكليز. وقد شكلوا لواء البغّالة لدعم الحملة على الدردنيل.

— عال العال. ونحن نتعاون معهم من هنا.

إستبقاه أبوها تلك الليلة. ودعاه بحماس.

وحين سأله آرون: هل اقتنعت بما يقول؟ قال أفراييم: أنا ختيرت. لم أعد نافعاً هنا أو هناك. أنتم الذين يجب أن أسألكم إذا كنتم قد اقتنعتم أم لا. بالنسبة لي أعجبتني غيرته على أبناء ملته.

ألتر فظيع! كتلة من المشاريع. صراف وصاحب متجر وصاحب شركة تأمين وجاسوس ومستشار لجمال باشا. وها هو قادم إليهم بمشروع شبكة التجسس وضحكته تملأ فمه: نحن أول جواسيس في الدنيا يدفعون بدل أن يقبضوا. ويعرض قرضاً أو منحة للمختبر.

مخلص وحيوي ومندفع.

مندفع. لأول مرة يجرؤ شاب على أن يعاملها بهذه الطريقة. تبعها في البستان إلى حيث صارا وحدهما. وبسرعة شديدة طرح عليها مشروعه: هو يحبها منذ زمن وهي لا تعرف: صبية مثلك أجعلها ملكة. تذهبين معي إلى أورشليم. بيتي قصر. زوجتي أرسلها إلى أهلها في النبي صاموئيل. هناك لديها بيت ومزرعة. لا. لست زوجة ثانية. أنت الأولى وأنت في العين. اسمعي يا بنت. قبولك معي بالزواج أهم من قبولهم بالشغل مع الإنكليز.

— ولماذا لا أشتغل أنا معكم إذا اشتغلتم مع الإنكليز؟

* كله يصير. ستكونين ملكة علينا جميعاً. ونحن خدامك وعبيدك وتحت أمرك.

وأمسك يدها. ظنت أنه يريد أن يرجوها لكنه، وقبل أن تنتبه لما يجري، شدها بقوة فصارت في حضنه. وقبل أن تتمكن من تحرير يدها، لكي تحرر بقية جسمها، كانت ذراعاه تحيطان بخصرها وفمه يقترب منها.

دفعته عنها بعنف: جريء ووقح فعلاً.

— معك حق. لكن أنا أكشف نفسي أمامك. أحبك وأحب هاتين العينين وهذا الخصر وهذا الصدر.

ومد يده إلى صدرها فضربته بعنف على يده.

* تذهب من هنا أم أصرخ وأجلب أخوتي؟

ومع أنه انصرف، إلا أنه ترك في نفسها هواجس. لأول

مرة يحدثها رجل بهذه الطريقة. يحكي عن عينيها ووجها وصدرها. ويمد يده؟! إبن الكلب. هو الوحيد في الدنيا الذي تجرأ على ذلك. هو الوحيد الذي جعلها تفكر، ولأول مرة، بضعفها وبحاجتها للاستنجاد بأخوتها. ولم يبد عليه أنه يهتم. هل من المعقول أنه لا يخاف من آرون؟ ولكن لم احتاجت إلى آرون؟ طوال عمرها تحل مشاكلها بنفسها. ورجعت وقد قررت أن تثأر لهذا الضعف العابر. ولكن ابن الحرام، حين دخلت، كان غارقاً في حديثه، وكأن شيئا لم يحدث قبل دقائق في البستان. وينقل نظره بين الجميع وهي بينهم وكأنها لا تختلف عنهم. وكأنه لم يحاول أن يقبلها ويمد يده إلى صدرها قبل قليل.

هل يمكن أن يتصرف معها يوسف أو نعمان أو أفشالوم بهذه الطريقة؟ كانت تشيل عيونهم. يستحيل أن يفكروا بها من هذه الناحية. الوحيد الذي يصلح لأن يفكر في هذا هو أفشالوم. ولن يكون قليل أدب مثل هذا الألتر زفت. بل قد يفكر في كتابة قصيدة لها. هذا هو الحد الأقصى. بل إنها تظن أن بعض قصائده موجهة إليها أو إلى أختها رفقة.

لا.

أفشالوم شيء آخر غير هذا الوقح.

يومها فكرت بأفشالوم. وليتها انتبهت إلى نفسها بعد أن ذكرها ألتر بجسدها وأنوثتها. ليتها أعطت المجال لأفشالوم لأن يحس بهذه الأنوثة منذ ذلك الحين. لو فعلت لما حصل هذا كله.

أفشالوم كانت تعرفه منذ الصغر. وكانت تعتبره دائما عربياً. وعلى الرغم من أنهم شرحوا لها أن أباه إسرائيل فينبرغ، الذي يقيم في الخضيرة، له علاقة حسنة بالعرب. وقد تربى أفشالوم مع أولادهم. بل إن والده سلمه إلى شيخ عربي في طفولته فعلمه القرآن والعربية، إلا أنها ظلت تراه عربياً. ولكن مع فارق: العرب وسخون وأجلاف. وهذا نظيف ووسيم وأنيق ومحب للغناء البدوي.

اعتبرت نفسها قد تعرفت على شخص جديد حين عاد أفشالوم من دراسته في فرنسا، وقد صار شاباً طويلاً، وازداد وسامة حتى شبهته بالبنات. وكان يفاجئها حين كان يقرأ أشعاراً عنيفة: «سأحرق الأتراك كالشمعة وأطلقهم مع اللهب إن كان هذا يحقق هدفنا». واستغربت أن يصدر هذا العنف عن شاب رقيق مثله.

وعلى الرغم من صداقته العميقة مع آرون، وموقفه منه موقف التلميذ من أستاذه، إلا أنه كان يعارضه في بعض أفعاله. وكان آرون يحترمه. فأفشالوم من أنصار الثورة اليهودية المباشرة. وكان يقول: إما أننا نواجه نهايتنا أو

بعثنا. إن كانت النهاية فلنمت أبطالاً. وإن كان البعث فلن يتحقق بالتعاون مع العثمانيين بل يتحقق في مقاومتهم.

ويعلق آرون: إنها شطحات شاعر. أنتم لا تعيشون في الواقع. هذا لا يريد أن يتعاون مع العثمانيين. وهذا لا يريد أن يشغَل العرب. كلكم شعراء؟

ولم لا؟ هذه القرى الجميلة، التي لا وقت لأحد للاستمتاع بجمالها، حيث الكل مشغولون بالزراعة والخوف والتسلح، تحتاج إلى شاعر يذكّر بجمال الدنيا ويتعامل مع الأحلام. دافيد أحس بهذا الجمال لكنه وجد فيه دافعاً لأن يصنع مثله. أما أفشالوم فأحب أن يتأمله. أفشالوم شبَهته ملكة، أمها، بنثرة الملح التي تضاف للطبخة فتحسن طعمها. ويضحكها تشبيه أمها لكنها تقبله.

وجود أفشالوم غيّر إيقاع الحياة. أو جعل إيقاعها مسموعاً. مشغول بكل شيء ينشغل به الآخرون. مشغول بالزراعة مع آرون، وبالسلاح مع ألكسي، وبصناعة الخمر مع ابن خاله نعمان. ومعها بالحديث عن الخيول. ولكن شطحة الشاعر كانت تجعل لهذا كله طعماً مختلفاً.

كان موجوداً بينهم دائماً. وحين كان أفراييم، والدها، يسأله عن أبيه كان يضيف دائما بلهجة فيها تأنيب:

متى ستجعل إسرائيل يرتاح؟ تعب حتى صرتم شباباً. لماذا لا يرتاح مثلي؟

* يا ليت يا عم أفراييم. يا ليت. إسرائيل لا يريد أن يرتاح. ولا يثق بشغلنا. كل ما اشتغله عبر حياته يريد أن يكمله بنفسه. ويحس دائما أنه ما من أحد يستطيع إكماله غيره. تماماً مثل ما أحس أنا نحو قصيدتي التي يجب أن أكملها بنفسي. ولا أحد في الدنيا يستطيع أن يكملها نيابة عني. ولذلك أجد نفسي في الخضيرة بلا شغل. هنا على الأقل أشتغل مع ألكسي وآرون والصبايا. الصبايا. كلمة تمر دون تحديد. الصبايا كأنه يقول: الشباب أو الأشجار أو الموسم.

ربما كان الخطأ خطأها منذ البداية. كانت تحس به، وبحاجتها إلى وجوده. وتشتاق إلى مجيئه. صار جزءاً من المزرعة والمختبر. لكنها لم تكن تسمح لنفسها بأن تفكر في الحب. بل كانت تعتبره ضعفاً. حين يكون أفشالوم موجوداً تحس بحيوية أكبر. تضحك أكثر. تتكلم بشكل أسرع. وتجد نفسها مدفوعة إلى ركوب الجواد والانطلاق به كأنها تطير معه. وحين تعود تجده جالساً مع رفقة. وكانت كبرياؤها تمنعها من أن تبدي اهتماماً. تفترض أنهما يتحدثان عنها. ولعلهما يبديان إعجابهما بفروسيتها أو رشاقتها. رفقة لا يمكن أن تكون منافسة. لا تصلح. ولذلك لم تكن تحس أن هناك شيئاً

غير عادي. ها هو موجود. وضمن الأسرة. لعل هذا ما جعله يحب رفقة. ولا شك أن رفقة قد أحبته. ما المانع؟ هي نفسها لم تعرف أنها كانت تحبه إلا حين جاء حاييم يطلبها للزواج. استغربت يومها. هي تتزوج؟ إن كانت ستفعل ذلك فليكن أفشالوم. هذا ما جعلها تقول لآرون إنها تحب أفشالوم. ولكن آرون يريد أن يحمي رفقة. الآن، وفي صمت هذا الليل وبعد أن مرت بتجربة الزواج، تود لو تصفي الحساب مع أفشالوم.

طبعاً الحق عليك أنت. أنت كان يجب أن تبادر. أن تقول كلمة. لو قلت لي يومها إنك تحبني لوفرت علي هذا المشوار إلى اسطمبول. وتضحك وكأنه موجود. طبعاً مشوار. ومشوار سخيف. لأن المشوار زينته بالرفقة. ونعود إلى رفقة. هل أوهمتها أنك تحبها؟ أم أن المسكينة الجالسة تساعد آرون وجدتك بوسامتك وشاعريتك إلى جانبها فاعتقدت أنك تحبها؟

مسكينة رفقة!!

بل الحقيقة مسكين أنت يا أفشالوم. صحيح أننا كلنا نعمل من أجل حلم. لكن هذا الحلم يتحقق عبر غبار وتعب وهجرة وخوف ولا يتحقق بالشعر. وأنت مصر على الشعر.

نعم. كل ما تفعله شعر. حتى رحلتك المجنونة هذه عبر الصحراء إلى مصر. أليست شعراً؟

وقفز ذهنها إلى الصورة المناقضة لعذوبة الشعر وجمالياته. تذكرت أنه معتقل. فرأت رجالاً أجلافاً يجرونه من شعره الجميل، ويضربونه على وجهه الجميل، فيخرج صوته الجميل بصراخ مجروح معذب سمعته موالاً بدوياً باكياً من المواويل التي كان يحبها ويغنيها.

أخرجت ديوان أفشالوم وبدأت تقرأ فيه:

الساعات مثقلة بشؤونها الوضيعة

والريح تعول بأغنيتها الرهيبة

ودقات الساعة تدفن عمري

لكنها لم تستطع التركيز. شدتها العبارة نحو خيالات أخرى: هل ستدفن عمرها هنا؟ وحدها؟ تطلعت إلى الديوان من جديد وقرأت:

إننا نمر مثل غيمة

مثل بخار يتبدد

وأغنيتنا تتلاشى دون صدى.

الفصل الثالث

– ١ –

حين سمعت نهال بهرب ألتر أحست أنها طعنت في كبريائها. ها هي مرة أخرى تجبر على ترك الأمر للرجال. وها هم، كالعادة، يفشلون. لا يفشلون فقط. بل لا يحسون بخطورة الفشل. هم دائماً يملكون زمام المبادرة. ويضعونها، لأنها امرأة، في الصف الثاني. يظلون يرونها، كما يرى كل منهم أية امرأة، ضلعاً قاصراً وجسداً شهياً. ثم يتخبطون برجولتهم الفضفاضة مثل من يتلفع بعباءة واسعة، والريح تتناوشها فتعوق سيره. وعلى الرغم مما يطرون به مهارتها وإنجازاتها في استدراج الجواسيس والإيقاع بهم، ثم القبض عليهم، فقد ظل كل منهم يتعامل معها باستعلاء أخلاقي ذكوري.

دخلت مكتب علي باشا لتستفسر عن الأمر، وترى إن كانت هناك خطة ما للإيقاع بألتر. ولكنها لم تكد تدخل حتى دخل وراءها عارف ليأخذ أمر مهمة إلى طرابلس. وفوجئ أن نهال موجودة. كانت جلافة عارف وصداماتهما السابقة قد تركت آثارها الواضحة عليها. ولذلك فقد نهضت لتخرج حين دخل عارف. ولكن علي باشا ضحك قائلاً: ولو نهال خانم. المصارين بالبطن

تتقاتل. نحن أخوة وأهل وزملاء. ويجب أن يحتمل كل منا الآخر.

ثم التفت إلى عارف: متى ستسافر؟

أجابه عارف: حين تأمرونني.

ابتسم له علي باشا: لا نريد مشاكل في طرابلس.

فقال عارف: والله يا باشا، لا أحد يبحث عن المشاكل. ولكن شغلنا هكذا. كله مشاكل.

– أكيد. ولكن أنت زودتها. يعني. مسدسات ومطاردات. نحن لدينا أسلوب آخر.

* والله يا باشا أنا أعرف طريقة واحدة. القوة والقانون. غيري يلجأ إلى الشراميط. ولكل ضابط طريقته.

بشيء من الحدة قال علي باشا: نحن نستخدم النساء في شغلنا، ولا نفتح كرخانات. أضبط كلامك يا عارف. النساء يشتغلن أكثر من كثير من الرجال.

ولكن عارف لم يشأ أن يحطها واطئة الآن، وأمام نهال ذاتها. فقال بنبرته العالية المألوفة عنه: صرعونا بأن المرأة أخت رجال. على عيني. ولكن ألا تستطيع أن تكون أخت رجال إلا إذا نيّكت؟ ما هذا الشغل الذي من ضروراته التنييك؟ لو أننا نقوم بواجبنا لما احتجنا للشراميط.

وهبت نهال كالملسوعة: إسمع يا عارف أفندي. أنا لا أطمح إلى أن يأخذني أحدكم زوجة له أو كنة. بصراحة

أنا نفسي لا أقبل. لأنني أراكم أغبياء وضيقي الأفق.
أكثر من ذلك أنا نفسي أشمئز مما أراكم تفعلونه بحكم مهماتكم أو تحت ستار مراتبكم ورتبكم، بينما يضحك عليكم أي جاسوس صغير. يكفيكم ألتر ليفي الذي يزمط من بين أصابعكم كالسمك.

لم يلتفت عارف إليها، بل نهض: تأمرني بشيء يا باشا؟

كان علي باشا متضايقاً من كلام عارف، ولكنه لن يسمح بحدوث صدام في مكتبه. ولم يكن واثقاً من أن عارف سيتقبل منه انتهاراً أو توبيخاً وخاصة أمام نهال.

بعبوس قال له: مر إلى الديوان وخذ مهمتك.

ومرة أخرى دون أن يلتفت عارف إليها قال لعلي باشا: أرجو أن تفهَم الست أنني أنا الذي قبضت على ألتر ليفي.

والتفت إليها: لعنة الله على الخوينيقة التي جعلتنا نحتاج خراء الكلاب.

وخرج.

صرخت نهال وهي تقاوم بكاءها: فهمت ماذا قال يا باشا؟

تطلع إليها الباشا مستفسراً، فتابعت: هؤلاء الهمج يداوون الخناق بخراء الكلاب. وصار عندهم مثلاً على أرذل الخيارات. يعني هو يعنيني أنا. أنا خراء الكلاب.

وهدأها الباشا: طولي بالك. أنت قلت إنهم همج.

مضطرون أن نحتملهم. يظلون في هذه المرحلة مهمين بإخلاصهم لأشياء في رؤوسهم. ولكنها تعود بالنفع على الدولة العلية.

أخرجت نهال لفافة من حقيبتها الصغيرة وأشعلتها وأصابعها ترتجف. تطلع إليها علي باسماً ليلطف الجو: لماذا انفعلت؟

– ألا تعرف أنه يقصدني؟

* أنت لا يستطيع أحد أن يمس طرفك.

– بل يستطيع. أنا أعرف ما هي نظرتكم كلكم إلى هذه الأمور. مهما كان ما أفعله لصالح البلد لن تروني إلا كما قال عني عارف قبل قليل. ولكن أريدك أن تعرف يا باشا أنني لا أفعل ما أفعله حباً بالرجال أو طلباً للمال. أنت تعرف أنني بنت عائلة ميسورة، وأنني متعلمة وأحكي أربع لغات. يعني لست محتاجة. أستطيع أن أتوظف أية وظيفة أريدها. وأستطيع أن أهاجر أيضاً. أستطيع أن أقيم علاقاتي على مزاجي، أو أن أتزوج واحداً من هؤلاء الطواويس الذين يفرضون هيبتهم واحترامهم على الجميع. وربما أن أفعل ما أشاء من خلف ظهره كما تفعل نساؤهم جميعاً.

بهدوء قال لها: إهدئي. أريد أن أسمعك. ولكن بهدوء. وطلب لها فنجان قهوة. وأمر الحاجب بإغلاق الباب.

بالهدوء الذي فرضه صوته المتفهم تابعت: أنا متأكدة أن

اليهود يريدون فلسطين. الدولة العلية لا تحس بخطرهم إلا حين يكون هناك جواسيس لصالح الإنكليز. اليهود يستخدمون نساءهم وأموالهم لتحقيق أغراضهم. لماذا يقف هذا الأمر عائقاً أمامنا؟ نستطيع أن نستخدم الأسلحة ذاتها. ولكن لو استخدمتم الشراميط التي تعبئ رأس عارف لما وصلتم إلى شيء. مثلما يتظاهر الجاسوس أو اليهودي أنه سائح أو حاجّ أو خبير، يجب أن توجد امرأة وجدية ومخلصة تتظاهر أنها شرموطة. الشرموطة الحقيقية لا تفيد في هذا الشغل. قد تضعف أمام المال. قد تخاف. يعني باختصار ليس لها قضية. أنا لدي قضية. وأريد أن أستخدم أسلحتي فيها.

توقفت لترى تأثير كلامها عليه. وحين رأت استغراقه معها بتفهم، تابعت باسمة وهادئة بعد أن أخذت رشفة من فنجانها: حين تحس بالخطر وتريد أن تدافع عن نفسك، أو حين تريد أن تهاجم، ألا تهيئ سلاحك؟ أنتم لديكم أسلحة كثيرة. بينها المسدسات. أنا لدي جسدي. وأنا أقضي الساعات أهيئ جسدي كي يصبح سلاحاً فعالاً. وبجسدي هذا الذي يشتهونه ويحتقرونه كنت أحقق أكثر مما يحققون بمسدساتهم وشواربهم. بل إن جسدي، أكثر من مرة، كان هو الذي يكشف لهم الهدف ويصوب لهم مسدساتهم. ويقول لهم: الآن تستطيعون أن تطلقوا النار. هل كان في وسعكم أن تقبضوا على

الجاسوس الفرنسي وبالجرم الملموس لولا أنني سهرت معه وشربت معه؟ نعم. لقد ذهبت معه إلى كابينته في الباخرة، وجلبت لكم الوثائق التي تريدونها. ما شأنكم أنتم إذا كنت قد نمت معه أم لا؟ ولماذا يدخل هذا في قواميس شرفكم؟ لم يكن من الممكن له أن ينام ذلك النوم الثقيل إلا بعد الشرب الكثير. ولن يفعل ذلك إلا بصحبة امرأة، وبعد أن ينام مع امرأة، التي هي أنا. ما شأنكم أنتم بجسدي؟ الشرف؟ هل سألت أحدكم لماذا يكذب وينافق ويسرق ويرتشي وهو يؤدي مهمته؟ أليس هذا كله متنافياً مع الشرف؟ ولكن الواجب يدعوكم إلى أن تتغاضوا عن هذا الحيز الضيق من الشرف من أجل استمرار الشغل. حسن. وأنا أرى أن الواجب يدعوني إلى التخلي عن ذلك الجانب من الشرف من أجل الهدف المنشود. نعم إنه الحيز الضيق ذاته الذي ترونه أنتم أكثر اتساعاً مما ينبغي.

— ٢ —

عند الفجر استيقظ أفراييم وركب العربة متوجهاً إلى عتليت. لم يرتح لبقاء سارة وحدها.

وعندما وصل رآها تجلس في مواجهة البحر. نهضت إليه: مليح أنك جئت. سآخذ العربة وأذهب إلى روشيون لوزيون. يجب أن أرى نعمان.

— نعمان بلكند؟ لماذا؟

* هو ابن خال أفشالوم. أكيد لديه أخبار عنه. ألم تعرف أنهم قبضوا على أفشالوم؟

تركت أباها في المختبر وتوجهت إلى روشيون لوزيون.

نعمان يتاجر بالخمور. ولديه خمارة تشبه المطعم. شارباه الكبيران المعقوفان لا يسمحان بالنظر إليه على أنه ابن الست والعشرين ورفيق أخيها. بل إن عينيه الحمراوين دائماً تجعلانه يبدو شرّيب عرق فقط ونسونجي وبلا عمر محدد.

كان يحدثها وهو يشغل نفسه مع أجيره في إعادة ترتيب المحل من سهرة الأمس. لقد كان حريصاً على أن لا يجعلها تحس بأنه يمكن أن يشتهيها أو يعاملها كامرأة. ولاحظت أنه يحاول أن يهرب بعينيه منها. تعرفه جيداً. هي ونعمان وأفشالوم ويوسف ليشانسكي وألكسي وليوفا. جيل واحد متقارب. ومجموعة متفاهمة متقاربة.

– ما أخبار أفشالوم؟

* سمعت؟

– أنا قادمة من اسطمبول لكي أراه.

على الرغم من أنها حاولت بذلك أن تضغط عليه وتمنعه من اللف والدوران؛ إلا أنها أحست أنها بالغت في الكشف عن نفسها أمامه. ولدهشتها اكتشفت أيضا أنها تعني ما قالت. هي قادمة، فعلاً، لكي ترى أفشالوم وحده، ومن

أجل ذلك فقط، خاصة أن رفقة لم تعد موجودة.

تطلع إليها نعمان: لم تنقطع أخباره.

وجلس على كرسي: الضباط الذين يأتون ليشربوا هنا. وألمان وأتراك. ساعدوني من أجل أفشالوم. نستطيع أن نرسل له طعاماً كل يوم. يوسف في بئر السبع. يوصل له الرسائل في الخبز.

قالت: آرون ذهب إلى الشام لكي يساعده. يجب أن يظل في بئر السبع.

* هذه مضمونة.

– بالمال؟

* ليس المال نافعاً دائماً. الألمان لا ينفع معهم المال.

– لا يحبونه؟

* يحبونه. لكنه متوافر معهم. وغير محتاجين. أنت لا تعرفين مَن يجيئون إلى هذه البلاد. أبناء كبار الضباط والعائلات الغنية يتم إرسالهم إلى هنا لكي لا يذهبوا إلى الجبهة في أوروبا.

– والأتراك؟

ضحك نعمان: ألا تعرفين أنني خدمت عسكرية أنا وألكسي وأفشالوم ويوسف؟ جندوا الشباب اليهود والمسيحيين كلهم على أنهم عثمانيون. يجب أن يقوموا بواجبهم مثل غيرهم. انضربت مواسم المستوطنات وانفرطت التنظيمات المسلحة بعد أخذ الشباب.

والشباب يعيشون في الجيش مثل الجنود العثمانيين. يعني: جوع وقلة نظافة وإهانات. ولكن آرون جلب إعانات للمجندين لكي يحسّنوا طعامهم ويقدموا الرشاوي للضباط، فيتساهلوا معهم. كل حسب شطارته. حين أخذونا إلى يافا كان يجب أن ننام أنا وألكسي في بزاكة واحدة مع العرب. تعرفين: وسخ وروائح وقمل. ذهب ألكسي إلى الضابط المسؤول عنا وأعطاه باكيت دخان. وخلال دقائق صار ألكسي يظهر العطف على الضابط. مخصصاته سيئة. راتبه قليل. باختصار جلب له ألكسي بطانية فصار يسمح لنا أن ننام في الفندق على حسابنا، على أن نأتي كل صباح من أجل التفقد. تصوري. مجندون ننام في الفندق. إطمئني يا عزيزتي كل إنسان له مفتاحه. والنسوان مفتاح الجميع. العربيات شهوة الأجانب. واليهوديات شهوة الأتراك. وإضافة إلى ذلك للألمان نزيد بيرة. وللأتراك نزيد العملة. أستطيع أن أبقي أفشالوم في بئر السبع سنتين إذا أردنا.

– أما استطعتم أن تمنعوه من هذه المغامرة؟

تطلع إليها وكأنه يتطلع إلى أفشالوم ويريد أن يبهدله: يا ستي تفلسف وقرأ علينا شعراً: «لقد ألقي النرد وصار مصيرنا أكثر ارتباطاً مع قضية الحلفاء».

* وأنت ماذا تقول لي غير هذا الشعر؟

– تقريباً كان معه حق. قال إنه لا يريد للإنكليز أن يظنوا أننا أخطأنا. حسب قوله: لا يجوز أن يحسوا أن أول يهودي تعاونوا معه قد غدر بهم.

– ٣ –

وحين أرادت التوجه إلى بئر السبع قال لها نعمان: لا تستعجلي. يوسف قادم إلى هنا.

– أليس من الممكن أن أرى أفشالوم في السجن؟

* أظن أن ذلك صعب. على أية حال تسألين يوسف حين يأتي.

وأرسلها إلى بيت أهله لتنتظر. وحاولت أن تتسلى مع أبيه، شمشون العجوز، لكن هذا لم يعد لديه موضوع في الدنيا إلا صغيره مائير البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وهي التي لم تنجب ولداً لا تحب أن تواجه نفسها في موضوع الأطفال. لا تعرف إن كانت تستطيع أن تنجب أم لا. لعل المسؤول عن عدم الإنجاب هو حاييم. ولكنها لا تحب التفكير في الموضوع أو مواجهة المسألة من أساسها. ولذلك ادعت أنها تعبة وتريد أن تستلقي قليلاً.

وعلى الرغم من أن يوسف واحد من الجو والمجموعة، إلا أنها لم تكن تحب أن تلتقي به. ولولا مسألة أفشالوم ربما كانت قد قضت فترة طويلة دون أن تفكر بلقائه.

يوسف قاسٍ. أموره محسوبة وواضحة. يخطر لها أن شخصاً كهذا لا يشرد لأنه لا يفكر كثيراً. يعرف دائماً ماذا

يجب أن يفعل وينفذ دون تردد. كان يجب أن ينفع مع تنظيم الهاشومير (الحارس) المستعدين لإطلاق النار على أي شبح متحرك في الليل قبل السؤال: من أنت؟ وهي لا تذكر أنه شارك في مزحة من مزحات الشباب. ولا تتذكر أنها سمعت منه يوماً كلمة طريفة. ولذلك قدرت أن عليها أن تكون واضحة في طلباتها منه دون أن تكشف عن عواطفها. هذا شخص لا علاقة له بالعواطف ولا يقدرها لدى الآخرين. بل إنها تخشى أن يقول لها: أهذا وقتك؟

وجاء يوسف فسلم دون أن يمده يده: كيفك مدام سارة؟

وأبلغها باختصار ووضوح أنه يرى أفشالوم كل يوم ويأخذ له طعاماً. وهذا أمر مألوف في السجون. فالجميع يعرفون أن الطعام غير جيد حتى للجنود فكيف طعام المساجين: أدفع للحرس وأعطيهم بعض الطعام وأدخل بعضه إلى أفشالوم. وفي كل رغيف رسالة. وقد استطعت أن أصل إلى مدير السجن. وفي كل زيارة هدية معقولة. لذلك صار من مصلحة المدير تأجيل نقل أفشالوم.

— ألا أستطيع أن أراه؟

* من؟ مدير السجن أم أفشالوم؟

— أفشالوم. مالي ولمدير السجن؟

فاجأها بأنه يضحك: لو زرت مدير السجن لاختلف الأمر تماماً. قد لا يرضى بإطلاق سراحه بعد أن يراك حتى لو جاءه الأمر بذلك لكي يضمن رؤيتك كثيراً.

وقطع محاولتها بأن تتظارف معه إذ سألها بلهجته الجافة: لماذا تريدين أن تري أفشالوم؟

أربكها السؤال. كيف تجيبه؟ لم تجد إلا: لأطمئن عليه.

قال لها: ألا أطمئنك عليه أنا؟ أم أنك لا تصدقينني؟

ولا فائدة من متابعة الحوار معه أكثر من ذلك.

ولكنها لاحظت أن هناك تغييراً قد طرأ على يوسف. شيء فيه قد التوى. لم يعد قاسياً تماماً.

ولم يعد تيار جامح يجتاح الدنيا أمامه.

سألت نعمان. فقال لها: صحيح. والسبب واضح: تزوج.

* تزوج؟ ما علاقة هذا بذاك؟

– يوسف من النوع الذي يغيره الزواج.

* لا أظن. أنت تقسو على يوسف.

– يوسف هذا فجيعتي أكثر مما هو أفشالوم فجيعتي. أنت لا تنظرين إليه جيداً. أو أنك لا تعرفينه من قبل. أنا الذي أعرف يوسف. كان زهرة الشباب. عينه في قحفة رأسه. عينه كانت تقتحمك. ألم تحسي ذات يوم أن يوسف يقتحمك بعينيه؟

– كنت أحس ذلك وأنا صغيرة. وكنت أخاف منه.

* أنظري إلى عينيه الآن. صار غنمة. شيء ما انكسر

فيه. أنا لا أفهم ما هو. سابقاً كنت أراه أزعر محترماً يعبئ العين. الآن لا أدري. ألأنه تزوج؟ يعني عدم المؤاخذة لأنه شبع من النسوان. شبعت عينه، فشبعت كبرياؤه؟ معقول أن الإنسان لا يريد من عمره إلا هذه الشغلة؟ لماذا اضمحل هذا الرجل بعد أن تزوج؟ لماذا يظل غيره محنترين حتى لو ناموا مع ألف امرأة؟

الفصل الرابع

— ١ —

دياب يا أمير زغبي اليوم يومك

إرعى لنا المال واحميه من الديب

وادي الغبا والغباين أقصده غدأ

في ست آلاف عوج كالعراقيب

فلما فرغ الأمير حسن من كلامه ودياب يسمع نظامه، عرف أنها مكيدة من الجازية. ولكنه أخفى الكمد وأظهر الجلد.

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم

ولي عزم أمضى من حسام شظاه

قلتم دياب الخيل يرعى جمالنا

ونحن نُكاوِن للزيناتي بلاه

ملّكتكم الشرق والغرب كلها

وما بان لي معكم جميل تراه

— ٢ —

نعم إلى القدس.

صدر أمر جمال باشا بنقل عارف إبراهيم إلى القدس.

إنبسط يا نوري. ها هو المكان قد أصبح خالياً دون فُروغ. تفضل اذهب إلى متصرف جبل لبنان إسماعيل حقي بك وادفع له ما تشاء، لكي يعيّنك مكاني. لم تعد

في حاجة إلى أن تقيم الدنيا على رأسي، ومعها أختك أم إبراهيم، لأنني حمار لا أعرف كيف أدبر رأسي في هذا الموقع الممتاز: رئيس البوليس العدلي في بيروت. إي واللّه العظيم لو أنني محله لصرت فوق الغيم. شوفيني يا أختي. ما أنا؟ شقفة ملازم لا رحت ولا جئت. ومع ذلك يأتي زوجك الميجور ليستدين مني. أنا لا أرد عنه. أولاد أختي مثل أولادي. أضعهم في عيني. وإبراهيم الذي يكمل دراسته فخر للعائلة كلها. ولكن لماذا يستشرف عليَ زوجك؟ لا يريد أن يأكل البراني مثلي، ويأتي ليستدين مني. يعني مطلوب مني أن أسرق له لكي يظل هو محافظاً على شرفه. في موقع مثل موقعه يستطيع أن يغرف المصاري بالمغرفة.

الجميع ينظرون إلى نوري معجبين بشطارته. ومع إعجابهم به نظرة شفقة لي واستخفاف بي. يا جماعة الخير. أنا شغلي أن أمنع حدوث ما يحكى عنه: أن أمنع التهريب والتسلل والخوة. أن أنفّذ الأوامر بلمّ السلاح من اليهود، ومنع شرائهم للأراضي. ولهذا أنا صاحب رتبة ومعاش. وإلا كان معاشي حراماً.

ويهتف نوري: طبعاً. هذا بيت القصيد. لأنك أنت المسؤول فأنت الذي يستطيع أن يسترزق. هل سيدفع المهرب أو اليهودي الذي يخفي السلاح لعمك يحيى؟ أم لخالتك أم ياسين؟ أبداً. يدفع لك أنت. لأنك أنت

تستطيع أن تخرب بيته.

– وأنا يجب أن أخرب بيته وبيت كل من يحيد عن الطريق.

* والنتيجة لا تخرب إلا بيت حالك. ميجور قد الدنيا، ورئيس بوليس، وأضرب وإطرح، ومع ذلك تستدين. والذي يلهط من ورائك إما ميجور مثلك أو ربما أقل منك بكثير. العسكري نفسه ربما. حتى العساكر الضراطة الذين يمسحون جزاميكم، وترفعونهم بالفلق، تصبح أحوالهم فوق الغيم. أنظر إلى ابن الجليلاتي. صار عنده عمارة وتجارة. وما هي رتبته ومكانته؟ هذا لا يلقط غبرة حصانك. ولكنه كلما خرج في دورية إلى قرية أو مستوطنة أو كبسة على اليهود عاد بالمبلغ المرقوم. هذا غير النسوان والمشروب والضيافات. وأنت تضع القرش فوق القرش وتجد أن خَرج الراح، الذي يعطونك إياه بسبب انتقالك، لا يكفي. والله العظيم شيء يخجل. السبارش الذي يعطونك إياه تعويضاً عائلياً هل يكفي ثمن الشاي الذي يشربه الأولاد؟ استح يا أخي. إذا لم يكن من أجلك فمن أجل هؤلاء الأولاد. من أجل ابنك إبراهيم الذي تعلمه في دمشق. تريده أن يحتاج إلى الناس؟

– يا عمي أنا هيك.

* هيك. هيك. اصطفل. ستين عمرك. أصلاً لولا أنك

هيك ما نقلوك من موقع يدفع الأفندي الذهب بالكيلو لكي يبقى فيه. رح يا عمي. رح. انتقل واترك المحل لغيرك يسترزق منه. لا ترحم ولا تترك رحمة ربك تنزل... بحياة والدك لماذا نقلوك؟

– لأنني أشتغل غير شغلي. طاردت جاسوساً وقبضت عليه. ويظهر أن ظهره قوي.

* طبعاً. المنحوس حتى لو ركب على الجمل يعضه الكلب. ما لك وللجواسيس المدعومين؟ من خلال موقعك كنت تستطيع أن تعرف الجاسوس المدعوم من غيره. ولو كان برأسك عقل كنت تستفيد من الجاسوس، كما يفعل غيرك، بدلاً من مطاردته التي لم تعد عليك إلا بخربان البيت.

بعد تنشيف الريق والتسبيح بالعرق لا يبخل نوري. يعطيه مباشرة أو يتكفل بالعائلة في غيابه، مقابل أن يدفع عارف، حين يستطيع، لأهل نوري في رام الله إذا كانوا محتاجين.

ولكن فعلاً كيف صدر قرار النقل هذا؟ ولماذا؟ هل تضايقوا منه لأنه طارد ألتر ليفي؟ لأنه كان يشتغل غير شغله؟ إي والله العظيم حيرتم الذي خلقنا. يعني لأنني لست من شرطة مكافحة الجاسوسية أرى جاسوساً فأتركه يسرح ويمرح؟ يا أخي أول مبادئ العسكرية المؤازرة. وأنا أؤازركم في القبض على الجواسيس.

فيكون جزائي النقل إلى القدس؟

قال له إسماعيل حقي بك: لماذا تعتبرها عقوبة؟ بالعكس. أنت تعود إلى القدس حيث تكون قريباً من أهلك في نابلس. ثم إن رئيس شرطة القدس هو رئيس شرطة العاصمة. طبعاً العاصمة. حتى الشام لم تعد هي العاصمة. حين ينتقل جمال باشا نفسه، وينقل مقر قيادته وأركانه وغرفة عملياته إلى القدس، فهذا يعني أن القدس ستكون هي العاصمة. ثم لا تنس الثواب. الذهاب إلى القدس مثل الحج. ألا تعرف أن الأمبراطور غليوم حين وصل إلى القدس اعتبر حاجاً؟ صحيح الشام شريف. لكن القدس شيء آخر. نسيت الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى؟ يا الله. يا الله. توكل على الله وأسمعنا أخبارك الطيبة. الشغل الحقيقي الآن في القدس.

– صار لكم زمان وأنتم تقولون إن الشغل هنا في لبنان لأن الأهالي موالون لفرنسا. والفرنسيون يمكن أن يعملوا إنزالاً. والجاسوسية ناشطة على السواحل. من أجل هذا نقلوني من أضنة إلى الشام ثم إلى بيروت.

* الآن تغيرت الأمور. احتشاد الجيوش في فلسطين سيخلق مشاكل لا حصر لها. حتى الجاسوسية ستنشط هناك. ولا تنس أن في سنجق القدس سواحل أيضاً.

– يا بيك. عائلتي صارت هنا في بيروت. وابني في

الشام يدرس. وأنا أذهب إلى القدس. والأهل في نابلس. والله العظيم ثقيلة. أنا لا أستطيع أن أفتح أربعة بيوت.

ساد صمت قصير لأن إسماعيل بيك كان يسخر في أعماقه من هذا الكلام. إن كان عارف لا يستطيع أن يفتح أربعة بيوت فهذه مشكلته هو. إسماعيل بيك يعرف أن شخصاً في موقع عارف ورتبته يستطيع أن يفتح مضافة دائمة لمدينة بأكملها.

تنهد عارف وأضاف: ولكن تعرف يا إسماعيل بيك؟ رغم كل شيء. أنا مرتاح لنقلي. من جهة أنا آمل أن أجبر ألتر ليفي على الذهاب إلى فلسطين بدلاً من تبغدده هنا في بيروت. ومن جهة ثانية أريد أن أبعد عن هذا الفساد هنا. الرائحة هنا صارت لا تطاق.

ضحك إسماعيل بيك: توكل بالله. وادعُ أن تكون الحالة في القدس أحسن.

ثم سار معه أمام المكتب في الممر. وقال، وهو يتأبط ذراعه ضاحكاً: بحياة أبيك إحكِ لي ماذا فعلت أمس في الكاباريه.

تطلع إليه عارف مستغرباً: وسمعتم بهذه؟

– نحن لا يغيب عنا شيء.

* إلا ما يفعله الجواسيس.

– عيفك من الجواسيس الآن، وقل لي ماذا حدث.

* ماذا حدث؟ إبن شرموطة يكب المصاري على الرقاصات والتاترجيات كأنه يذرّي التبن في بيدر الذين خلفوه. ترى المنظر وأنت تعرف أن الناس خارج الملهى يموتون جوعاً فيفور دمك.

– معك حق. من هو؟

* لا أعرف. ومع ذلك قلت لحالي: ما علاقتي؟ ستين جهنم تحرقه. مصريات لم يتعب بها يعطيها لمن لا يستحقها. ولكن وصل الأمر إلى حيث لم أعد أستطيع الاحتمال. تصور أنه بعد أن سكر من المشروب ورقص الرقاصة، صف ليرات الذهب على الأرض من طاولته إلى مكانها على المرسح. ثم راح يحاول أن يمشي فوق المصاري لكي يصل إليها. لحظتها أحسست أنه يدوس على قلبي. يدوس عليّ أنا، عليّ وعلى شاربي. فمنعته.

ضحك إسماعيل بك: صحيح أنك سحبت عليه الفرد؟

هز عارف رأسه وكأنه يقدم اعترافاً في تحقيق: قلت له إذا دست على واحدة من هذه الليرات سأدوس على رقبتك. ووجد من يعرفني. فقالوا له: هذا عارف بيك. لا تعلق.

* ولكن أنت لم تجد من يعرفه، ويقول لك: لا تعلق.

– تعني أنني أنتقل إلى القدس بسبب ذلك؟

* ربما. الرجل صهر جمال باشا، زوج أخته عائشة أم حسن. صاحبة المزارع.

– هذا مقبل بيك؟

– أي نعم يا سيدي. وهو متعهد أحذية العسكر. ألا ترى نصف عسكرنا حفيانين؟ ثمن الأحذية العسكرية هو الذي كان يرميه على الرقّاصات.

– لهذا نقلوني إذاً...

* أسبابك كثيرة لأن مشاكلك كثيرة. ألست طوال عمرك مشاكلجي؟ موفّق.

تنهد وهو يخرج من السرايا: الله يعين.

ولكن هل نقلوه من أجل حادثة الكباريه فعلاً؟ أم من أجل ألتر ليفي؟ أم لأنه اصطدم بعلي باشا من أجل نهال خانم؟ هو لم يكن يريد الاصطدام. لكنه كان يريد أن يقول رأيه في مسألة استخدام النساء في العمل.

هل يعقل أنني أنتقل من أجل ذلك؟

– ٣ –

هذه المرة أيضاً تساهل عارف مع إبراهيم وتركه يحكي أمامه. وقد استغرب ذلك من نفسه. هو طبعاً يحب إبراهيم، ابنه البكر. لكن هذا الحب لم يجعله يلغي الحاجز الذي يقيمه مع الآخرين، حتى مع أبنائه. ربما تساهل معه لأنه مضطرب بسبب النقل. أو بسبب الضائقة التي رأى نفسه فيها وهو يتهيأ للانتقال. وربما لأنه تساهل مع نوري. أو لأنه لم يكمل شجاره مع علي باشا ونهال. أو ربما لأن إبراهيم غائب دائماً عن البيت.

وقد اعتاد كلما جاء إبراهيم إلى بيروت أو ذهب، هو، لزيارته في دمشق أن يأخذه إلى مطعم ليُطعمه الكباب. فالولد، دون شك، لا يستطيع أن يأكل في المطاعم بالخرجية البسيطة التي يؤمنها له. وهو، عارف، يحب الكباب. ولكن الوضع المادي لا يساعده على إشباع هذه المحبة كما يشاء. ولذلك يجد الفرصة، حين يلتقي بابنه، لأن يأكل الكباب دون إحساس أنه يغافل أولاده الآخرين وزوجته. وفي كل مرة بعد أن يعلن إبراهيم شبعه، كان عارف يصر عليه أن يأكل أكثر من سيخ كباب دون خبز. وفي المطعم كان هذه المرة يأكل دون شهية مستمتعاً فقط بأن ابنه يأكل. ولكن الولد مشغول البال ينتظر فرصة ليقول ما يشغله. وأخيراً قال: دمشق تغلي بسبب المعتقلين. الجميع يخافون أن يعدمهم جمال باشا.

* يستحقون.

انتفض إبراهيم لكنه لم يقل شيئاً. وأحب عارف أن يوضح موقفه الذي بدا للولد قاسياً: دولة في حرب. أهذا وقت المشاغبات؟ أليس من العيب أن يتصلوا بفرنسا؟

— ليسوا كلهم ممن اتصل بفرنسا.

* الذي لم يتصل لن يُعدم. أما الآخرون فيجب أن يُعدموا. أنا كنت هنا رئيس شرطة العدلية. وأعرف أن معظم مسيحيي لبنان مع فرنسا ويتمنونها أن تأتي

اليوم قبل بكرة.
قال إبراهيم: مع من نحن؟
استغرب عارف هذا السؤال. واستغرب أن يستمر الولد في المجادلة. لكنه أجاب وبقوة تمنع الاستمرار: نحن؟ ألا تعرف مع من نحن؟ نحنِ مع الدولة العلية.
* الأتراك؟
– لا. الإسلام.
* إذا كنا نرى مصلحتنا مع الأتراك لأنهم إسلام، فمن حق غير المسلم أن يرى مصلحته مع طرف آخر غير مسلم. لماذا نستغرب أن يفكر المسيحيون الخائفون منا بفرنسا أو غيرها؟
– وما الحل في رأيك؟
قالها عارف باستخفاف. لكن إبراهيم أجاب بجدية: الحل يقدمه الأتراك. يتصرفون على أنهم أتراك وليس على أنهم إسلام. وهذا هو الحل. نحن يجب أن نتصرف بصفتنا عرباً. وليعبد كلٌ ربه كما يشاء؛ المسيحي والمسلم واليهودي.
فتح عارف عينيه على اتساعهما. لقد ساءه أن يسترسل الولد أمامه بهذه العصبية واعتبر ذلك خرقاً لهيبته. لكنه في أعماقه أحس بشيء من الارتياح: هذا ابن أبيه الذي لا يقدّر أحداً حين يريد أن يقول ما في رأسه. طلعت صحيحة. إذا كبر ابنك آخِهِ، وإلا سبقك وراحت عليك.

لقد صار رجلاً دون أن أعرف أو أعترف. صار أخي فعلاً.
ابتسم عارف مستوعباً حماس ابنه، وقال له بهدوء:
إسمع يا إبني يا إبراهيم، أنت تتعلم في المدارس. لكن أنا الدنيا علمتني.
وعرف إبراهيم أن هذه اللهجة التي يتحدث بها أبوه تعني إنهاء النقاش. الحوار معه إما أن ينتهي بصراخ وضرب وطرد؛ وإما أن ينتهي باستطراد فيه استمتاع باستعراض الإنجازات التي حققها الأب في حياته بالكد والتعب والشقاء، واستعراض الدروس التي تعلمها من مدرسة الحياة. وهذا يعني أن مقاطعته تدخل في باب خرق الدرس وإقلال الأدب. فصمت تاركاً أباه يتكلم كما يشاء: أنا يا إبني ما وصلت إلى هذه الرتبة إلا بتعبي وعرقي. بخدمتي التي كلها سجل أبيض مليء بالأعمال العظيمة المشرفة. تعرف كم جاسوساً وفرارياً قبضت عليهم حتى الآن؟ عمري لم أضع رأسي برأس واحد منهم إلا أخرجته من وكره. البلد كلها لا حديث لها إلا المطاردات التي أقوم بها. أنا والجنرال جواد رفعت أتلخان يضربون بنا المثل. هذا أيضاً لا ينام على زائحة. ولا يكل من مطاردة الجواسيس. الآن مثلاً أنا ذاهب إلى القدس وراء واحد منهم. صحيح أنني لست من قسم مكافحة الجاسوسية. ولكن هذا لا يمنعني من القيام بواجبي. وإذا كان الله يحبني سيجعلهم ينقلون أتلخان

أيضاً إلى القدس. وهناك سترى الشغل. خلال يومين سأجلب الجاسوس الذي أنا وراءه.

تطلع إبراهيم إلى أبيه بخوف وحزن. ولم يكن خوفاً على نفسه، بل خوفاً على ذلك المسكين الذي يلاحقه أبوه. ولم يستطع أن يمنع نفسه من القول: واحد آخر تضيفه إلى قائمة الذين سيعدمهم جمال باشا؟

– لا. هذا يستحق فعلاً. هذا يهودي أميركاني يتجسس للإنكليز. شف. جماعتنا لا يحسون بخطر اليهود الآن. ولكن أنا أعرف خطرهم. ولذلك يجب أن نحاربهم بسلاح الدولة العلية.

* معقول يا أبي هذه البلاد كلها جواسيس؟ الأرمن للروس؟ واليهود للإنكليز؟ ونحن لفرنسا؟

– نحن لسنا جواسيس لأحد. نحن نقوم بواجبنا ونأكل لقمتنا حلالاً. بالأمس فقط فقعني خالك نوري خطاباً لأنني لا أسرق وأستغني مثل غيري. أبوك شريف ولن يترك في هذه البلاد واحداً من أبناء الحرام يسرح ويمرح.

* لماذا لا تلاحقون الحرامية الذين كسروا ظهور الناس بالسرقة والرشوة عينك بنت عينك؟

– يا إبني. يا إبراهيم هذه دولة كبيرة. اللصوص الذين تتكلم عنهم يلاحقهم آخرون. المهم أن نشتغل نحن من قلب ورب. ونأكل لقمتنا بالحلال.

قلب ورب. ونأكل لقمتنا بالحلال.

* والجوع؟

ضحك عارف: لا تغفل عن شيء؟ أتشتغل بالسياسة يا ولد؟

— تعرف أن هناك من يموتون جوعاً؟

قال عارف: أعرف. كل صباح يجمع العمال الجثث من الشوارع. ولكن ليسوا كلهم بسبب الجوع. هناك الهواء الأصفر.

قال إبراهيم: وهذا أيضاً لا يصيب إلا الفقراء والجائعين. ومع ذلك هناك من يصرف في ليلة واحدة ما يكفي لإطعام بلد بأكمله.

— تقول لي أنا هذا الكلام؟ إنهم ينقلونني لهذا السبب. أنت لا تعرف ماذا فعلت قبل يومين في الكاباريه مع واحد من هؤلاء. كنت سأقتله. كُلْ. كُلْ.

راح إبراهيم يلهي نفسه بالأكل وعارف يتأمله. ابنه يقفز فوق عمره ليتحمل مسؤوليات أمة وبلاد، ويأخذ دوراً في حرب عالمية؟ ألله الله. يا عقل بن هولا. لا يرضى السلطان حسن أن يأخذك معه في جيشه مع الفرسان الكبار عياض ودياب بن غانم وأبو زيد الهلالي لأنك صغير لا يدخل المشط في ذقنك، فتمسك بالمشط وتغرزه في لحم خدك، لكي تقنعه أنك كبرت.

ولم يرض إبراهيم أن ينتظر انتهاء إجراءات نقل والده لكي يسافرا معاً. هو مضطر للسفر الآن فلديه شغل في دمشق. كان المبلغ الذي أخذه من أبيه قليلاً. ولكن هذا الأمر لم يكن يشغله بقدر ما كان يشغل أباه. هو يعرف أن أباه لا يبخل عليه بشيء. ولكن الأحوال، كما أوضح له أبوه ليست على ما يرام. يظل، بالنسبة لغيره، يعيش فوق الريح. فالذين يتعلمون قلة نادرة ومتميزة أمام حالة الفقر الخانق التي يعيش فيها عامة الناس، والمجاعة التي تنهك عقولهم وأجسادهم وتحط من مطامحهم وأحلامهم. وهؤلاء الذين يتعلمون قد أنعم الله عليهم بظروف حسنة، وبأهل يفكرون في الإنفاق على العلم بدل تبديد الثروات على اللهو والملذات. والأهم من هذا كله أنهم قادرون على الاستمرار على العلم، والاستمرار في الإيمان به، مثل أبيه الذي نقله من الأليانس في القدس حين كان أبوه قريباً من الأعمام والأقارب في نابلس، إلى مدرسة الترقي في سوق ساروجة بدمشق، وكان سينقله إلى اليسوعية في بيروت يوم انتقل الأب إلى هناك بعد دمشق، لولا تدخل خاله نوري: يظل الأولاد عتلة تنقلهم أينما انتقلت؟ دع الولد يستقر في مدرسة ليعرف كيف يدرس.

هناك من يعلمون أولادهم لكي يزدادوا تميزاً وتعالياً على الركام البشري المحيط بهم. هؤلاء يريدون أن

يصبحوا خواجات وفرنساوية، وأن يذهبوا إلى أوروبا ليستقروا فيها، ويتعاملوا مع هذه البلاد كما يتعاملون مع المزارع والإقطاعات التي يملكونها. بعضهم لا يعرف أين هي تلك الأراضي. وبعضهم يذهب إليها في النزهات والولائم والدعوات، وأحياناً التعربصات. حيث يذهبون إلى قصورهم ليولموا ويسكروا ويضاجعوا العشيقات أو المومسات اللواتي بصحبتهم، أو ليتطاولوا على بنات الفلاحين، وينالوا منهن ما يسمح به إذلال الفقر والجوع وجبروت الملاكين وزلمهم. هناك مرابعون وخدم ووقّافون ووكلاء يؤمنون الخدمات التي من هذا النوع، مثلما يؤمنون المواسم، ويطاردون الفلاحين من أجل آخر لقمة مسروقة أو مخبأة، ومثلما يؤمنون الذبائح والطبخ والنفخ والنسوان والزلم لكل أنواع الخدمات. وبعدها يعود أبناء هؤلاء الأغنياء ليتابعوا حياتهم في المدينة أو في الخارج ومعهم قصص مضحكة عن دناءة الفلاحين الذين يسمحون بأعراضهم، أعراض بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم، لقاء وجبة تافهة.

ولكن الظروف القاسية التي تمر بها البلاد جعلت الكثيرين لا يكملون تعليمهم. إما لأنهم اكتفوا بالقليل الذي حققوه، وصار لديهم ما يساعدهم على تأمين وظيفة في الدولة، أو لأنهم لم يستطيعوا إكمال تعليمهم، فتركوا المدرسة بعد سنة أو سنتين. بعضهم

التحق بالجيش متطوعاً، وبعضهم هاجر خارج البلاد.

وهناك من يريدون أن يعلموا أولادهم لكي ينتقموا من ماضيهم، ينتقموا من الفقر والمذلة والمهانة، كما هو حال أبيه. كان عارف يريد من عمره وعلمه أكثر مما حصَل. ولكن الظروف لم تساعده على أن يتعلم أكثر مما تعلم. فعوَض عن ذلك بالدخول في الكلية العسكرية. ولذلك فإبراهيم مستمر في الدراسة حتى الآن وبمكابرة مجروحة من أبيه. فكلما اعتذر الأب عن ضيق ذات اليد، اقترح إبراهيم على أبيه أن يترك المدرسة، ويجد عملاً يجعله قادراً على أن يساعد في تعليم بقية الأخوة: إسمعني قليلاً يا أبي. أنا تعلمت ما يكفي. ليس على قدر طموحنا. ولكنه يكفيني لتأمين وظيفة. أنت بوساطتك عندهم، وأنا بما تعلمته، نستطيع تأمين وظيفة لا بأس بها. ثم أنا وأنت نتعاون على تعليم أخوتي. فيحققون ما لم أحققه أنا، وما لم تحققه أنت.

وأكثر من مرة طرح الابن مسألة التطوع في الكلية العسكرية. ولكن الأب كان يمانع لسببين. أولهما مبهم لا يعرف ما هو. كأن في وجود عارف نفسه في الجيش ما لا يرضيه، وما لا يريد لابنه أن يواجهه. والثاني أنه كان يحلم دائماً أن يرى ابنه البكر أستاذاً كبيراً ومحترماً مثل أولئك الأساتذة الكبار الذين يصبحون سادة

قومهم. وينتهي الأمر بهم إلى الباشوية أو عضوية مجلس المبعوثان.

ولذلك كان عارف محرجاً، وشبه خجل، وهو يناول ابنه ذلك المبلغ الضئيل: دبر رأسك بهذا المبلغ. وقريباً أكون عندك إن شاء الله، أو أرسل لك ما تحتاجه مع أي مسافر. لا تهتم للمال. ولا تنقِّص عن نفسك شيئاً. وإذا احتجت إلى شيء اذهب إلى فهمي أفندي. قلت لك أين تجده. إنه في قيادة شرطة دمشق. صاحبي الروح للروح. أحسن من أخ. أطلب منه كأنك تطلب مني. وهناك الملازم عبد السلام أيضاً. تعرفه. هذا شاب مثلك. لا تنحرج منه. تعرف علاقتنا بأهله. أنا ساعدته كثيراً حين كان في الكلية.

وظل الأب محرجاً وهو يسير مع ابنه إلى المحطة. وحين تحرك القطار أحس بالاختناق، فلم يستطع أن يتابع ابنه وهو يطل من النافذة. بل تظاهر بالتماسك. عدّل طربوشه وشد كتفيه وسار خارجاً من المحطة قبل أن يكمل القطار خروجه منها.

وكأنما كان هذا ما يتوقعه إبراهيم من أبيه. فعاد إلى مقعده واسترخى مع نفسه. لقد أراحه تصرف أبيه إلى حد ما. فذلك أفضل من العواطف والنصائح. تكفيه أمه التي تغرقه بعواطفها ودموعها كلما سافر أو رجع. وفي كل مرة يتمنى أن لا تكون أمه موجودة، عند الوداع

بشكل خاص، لكي لا يضطر إلى مواجهة الحنان والعطف والبكاء والوصايا المبهمة: «در بالك على حالك يا ابني»، والدعاء: «ألله يبعد عنك أولاد الحرام. ألله يعمي عيونهم عنك».

— ٥ —

لم تصدق سارة ما تسمعه في البداية: أفشالوم خرج من السجن وذهب إلى الخضيرة.

* وماذا يفعل في الخضيرة؟

ابتسم يوسف وقال لها بسذاجة: أهله هناك.

ومن هذه السذاجة أدركت مدى تعجلها ولهفتها. فسيطرت على نفسها: طبيعي. طبيعي. ولكن أما كان يجب أن ينزل ليرى آرون؟

— ولو يا مدام سارة. لو كان آرون يريده لطلب منه أن يأتي.

* والمحطة الزراعية؟ تظل متروكة هكذا؟ أم أن كل شيء يجب أن يفعله آرون بنفسه.

— سارة. ماذا جرى؟ المحطة بإشراف آرون. نحن مساعدون ولسنا مختصين. إذا لم يكن آرون موجوداً فنحن لا نعرف ماذا يجب أن نشتغل في المحطة. على أية حال أنا ذاهب إلى دمشق. هل تريدين شيئا من آرون؟

* لا. سلم عليه. أنت رأيته؟

— من؟ أفشالوم؟ رأيته طبعاً. سهرنا عند نعمان في روشيون لوزيون يوم خرج.

* وشربتم العرق وغنيتم. ماذا على بالكم؟

يوسف من المجموعة ذاتها. لكنه يختلف عنهم. هو وحده ليس له أهل في أرض الميعاد. جُلِب يتيماً من كييف منذ أن كان في السادسة من عمره. وتربى عند أقاربه في المطلة. أكثر الشباب تعجلاً لفعل شيء ما. وربما بسبب تعجله كان يفشل دائماً. انضم إلى حزب (بوغلي زيون). وظل ثلاث سنوات يشتغل مع حراس (هاشومير) دون أن يقبلوه في المنظمة رغم شجاعته وتفانيه وقوته الجسدية. وكان ألكسي يسخر منه دائماً. ويلومه لأنه منصرف إلى هؤلاء، ولا يقبل أن يكتفي بتنظيم (جيدونيم) الذي شكله ألكسي ونعمان. يوسف يرى دائماً أن هذا التنظيم غير كاف: من يسمع بكم؟ من يعترف بكم؟

— المهم الاعتراف أم الشغل؟ المهم أن نكون مسلحين وقادرين على حماية المستوطنات.

* هكذا؟ وحدنا؟ ماذا يعني الشغل إذا لم يعترف به الآخرون؟

— أنت تحس بالحاجة إلى اعتراف الآخرين لأنك يتيم.

* بدأنا بالثقافة والفلسفة؟

سألته سارة: لماذا كان أفشالوم يريد الذهاب إلى مصر؟

* إسأليه. ألن تريه؟

أحب أن يتملص ويذهب. وقوفه معها يربكه. صحيح أنه متعود عليها؛ ولكنها الآن قوية. وهي تحاصره بأسئلة لا يريد أن يجيب عليها؟ لا يريد أن يكون هو الذي يقول لها أي شيء عما يفعلونه. فليقل لها أفشالوم، أو أخوها آرون.

وأحست هي أنها لم تكن لطيفة معه. أخضعته للاستجواب، ولم تحسن استقباله. وأحبت أن تظهر له شيئاً من اللطف: ذاهب وحدك إلى الشام؟

* معي إيتان بلكند شقيق نعمان.

— مع السلامة. سلِّم.

أدار ظهره ففاجأته: ومتى ستذهب أنت إلى مصر؟

* أنا؟

والتفت إليها مستغرباً: لماذا أذهب إلى مصر؟

— مثل ألكسي وأفشالوم. لماذا يذهبون كلهم إلى مصر؟ ماذا في مصر يجعلكم تركضون إليها؟

إبتسم لها بخبث: مصر أمّ الدنيا.

ظلت جادة: مشتاق لأمك؟

لمست في أعماقه وجعاً لا يحب الاقتراب منه. لكنه كابر على نفسه: لا. ولكن نريد أن تطمئن على الأهرامات. أخوك آرون يريدنا أن نقول إننا نحن قد

بنيناها؟ نريد أن نطمئن إلى أن الإنكليز والمصريين لم يخربوها.

* بايخة.

تركها وهو يعرف أنها بايخة. لكن بداهته لم تسعفه بأحسن من ذلك ليختم حواره معها. وحين ابتعد ولم تعلق بشيء آخر، أحس بالارتياح كأنه خارج من ورطة.

— ٦ —

وظلت سارة متوترة: يخرج أفشالوم من السجن منذ أيام وهي هنا منتظرة؟

ظلت جالسة لا تدري ماذا تفعل حتى جاء أخوها زيفي. وصل بعد الظهر على حصان. قال: أبوك يريد العربة. والجميع يريدونك أن تكوني معهم. لماذا تظلين وحدك هنا؟

— خائفون علي؟

* طبعاً. امرأة وحدك.

— دع الوالد يخاف. ولا تخف علي أنت. ما رأيك بمشوار إلى الخضيرة؟

* الخضيرة؟ ما الذي يجعلنا نذهب إلى الخضيرة؟

— ألم تسمع أن أفشالوم خرج من السجن؟ يجب أن نراه ونسلم عليه.

* لا تستعجلي. غداً أو بعد غد لا ترينه إلا في زخرون ياغوف.

غداً أو بعد غد؟ زيفي يطبخ على نار هادئة. وهي مستعجلة.
* لا. لا. يجب. يجب أن نسلم عليه ونهنئه بالسلامة. نذهب ونرجع. لن نبقى طويلاً.
وأخضعت نفسها للشرط الأنثوي الذي يحمله: أنا امرأة. لا أستطيع أن أذهب وحدي.
داعبت رجولته بهذا الكلام، وهي التي لم تكن تقيم اعتباراً لأخ أو أب إلا آرون. فوافق. وحين اقتربت العربة من الخضيرة كان إسرائيل عائداً نحو البيت. سلم وقفز إلى العربة بخفة الشباب.
— ما أخبار أفشالوم؟
* يكتب شعراً. تقولين كأنهم سجنوه ليعملوا له دورة في كتابة الشعر. منذ أن خرج وهو في البيت يقرأ ويكتب. أريد أن أسألك. هل من وراء هذا الشعر أي خير؟ أليس كله صف كلام؟
ضحكت سارة وزيفي: لا يعجبك شعره؟
* لا أعرف ماذا يكتب. ولد. أتركه يتسلى.
سأله زيفي: ألم تقلق عليه وهو في السجن؟
* طبعاً قلقت عليه. لكن الحمد لله خرج. إسمع يا ابني. أنا عندي مبدأ. بالنسبة لكم وبخصوص تصرفاتكم أنتم الشباب، نحن الأهل يجب أن لا نقلق عليكم كثيراً. كل شيء يحدث معكم يفيدكم ما لم يكن فيه موت. لا

تموتوا وافعلوا ما تريدون.

حين وصلت العربة قرب البيت قفز منها الأب وصاح:

حاج سليم. جاءتك قصيدة جديدة.

إبتسمت سارة سعيدة بهذا الإطراء. أخيراً هي في حاجة إلى من يعاملها كأنثى. هي هنا بالتحديد في حاجة إلى هذا الإطراء لأنوثتها. الأنوثة ذاتها التي ضاقت بها قبل قليل، حين نبهها زيفي إلى أنها امرأة ووحيدة.

خرج أفشالوم فيما هي تنزل عن العربة. وحين رأته بباب البيت عرفت كم هي مشتاقة إليه. بدا لها وكأن جسمه قد هزل في السجن. هذا جعل شوقها يمتزج بعطف أمومي. ولذلك لم تستطع تمالك نفسها. ركضت إليه واحتضنته وقبلته على خده حتى أنه أحس بالحرج.

وصل زيفي وعانقه أيضاً.

— ٧ —

— من كل عقلكم تذهبون؟ ودون أن تتعشوا؟ ماذا يقول عنا الناس؟ بخل يهود؟ لا. لا يمكن. هذا يحدث عند أبيك أفراييم وليس عندي أنا.

* لا نستطيع أن نتأخر. سيقلق أبي علينا.

— أبوك خرَف. سيقلق وأنتم عنده.

بهيمنة أبوية، مع نخوة كرم فلاحي، فرض عليهما

إسرائيل أن يناما تلك الليلة هناك.

بعد العشاء خرجت مع أفشالوم وتمشيا. وعلى الرغم من الجو الشتائي البارد إلا أن السماء كانت صافية مليئة بالنجوم. ودون قمر.

* سمعت إذاً أنني جئت من اسطمبول؟

— أخبرني نعمان وأنا في السجن.

* لماذا لم تأت لنراك بعد خروجك من السجن؟

— كنت سأذهب. ولكن يجب طمأنة الأهل أولاً. سأنزل إلى دمشق أيضاً.

لم تحب أن تسأله عما يفعلون. كانت تخشى أن يخفي عنها شيئاً فيجرحها. كما أنها لا تريد لهذه اللحظة الجميلة أن تُهدر في أي شيء خارج نطاقهما.

* قبل أن تذهب إلى دمشق يجب أن تقضي عدة أيام في عتليت. المختبر متروك منذ فترة. ويحتاج إلى إعادة ترتيب. حاولت ولكنني لم أستطع وحدي. أنا أحتاج إلى مساعدتك.

— إذا كنت أنت لم تستطيعي تتصورين أنني سأستطيع؟

* لا تريد الذهاب؟

— أريد. ولكن أعتقد أن رفقة كان يجب أن تبقى. رفقة كانت مع آرون دائماً. وهي التي تستطيع أن تعيد الترتيب. تفهم ما الذي يجب فعله في غياب آرون.

* ما الذي حدث بينك وبين رفقة؟

أعجبها أنها استطاعت أن تقتحم الموضوع من هذه الزاوية.

— لا شيء.

* لماذا لم يحدث شيء؟

تطلع إليها بنظرة منكسرة. ثم حول نظره عنها خائفاً أن تكون قد عرفت بمكنوناته: لا أعرف إذا كنت مذنباً أم مخطئاً. أحس بالخجل من أهلك كلهم. وخاصة من آرون. أنا لم أخدع رفقة. لم أخدع أحداً. كنا أهلاً. نعيش ونشتغل. الجميع توهموا أن هناك حباً بيني وبين رفقة. حتى أنا كنت أظن أن ارتياحي معها حب. ولكنني اكتشفت أن ما أحسه نحوها ليس حباً. لم أخدعها في شيء. ولم أحب أن أخدعها أكثر بأن نتزوج دون حب. هل تفهمينني؟

* أفهمك. هذا من حقك. متى اكتشفت أنك لا تحبها؟

— حين....

وتوقف عن الكلام. تطلع إليها: حدثيني عن ظروفك أنت.

* صار معي مثلك. ولكن اكتشافي كان متأخراً. اكتشفت أن ما أريده ليس حاييم ولا الزواج ولا اسطمبول. أريد زخرون ياغوف وعتليت. بدأت أضيق بالحياة في اسطمبول. عرفت هناك أنني مخلوقة لشيء

آخر غير حياة الزوجة، ولشخص آخر غير حاييم.

خاف أن يتطور الحديث أكثر من ذلك. التفت حوله: الدنيا برد. دعينا ندخل.

سارا باتجاه البيت.

— هل ستذهب معنا إلى عتليت؟

* ضروري؟

— ألا تريد أن تسلم على أبي؟

* هو في عتليت؟

— لا.

وابتسمت.. فارتبك. لكنه غالب ارتباكه. آن الأوان للإفصاح عن كل شيء.

توقف وتطلع إليها: لا أنكر عليك أنني مرتبك. لكنني الآن أحس أنني يجب أن أتحدى ارتباكي وأغلبه. سألتِني متى اكتشفت أنني لا أحب رفقة.

* ولم تجبني.

— اكتشفت ذلك يوم ذهبتِ عروساً. أحسست يومها أن المزرعة صارت خالية ومعتمة.كأن القمر قد غاب عنها. لم يعد فيها إلا الظلام والخواء. يومها بكيت. بكيت نقمة على نفسي لأنني لم أصارحك بحبي من قبل. ولأنني تركتك تتزوجين وتذهبين أمام عيني دون أن أفعل شيئاً. أحسست أنني لو قضيت عمري كله أبكي ندماً لما كفاني. ولكن شكراً للّه أنك رجعت.

أمسكت بذراعه وتطلعت إليه: المهم أننا رجعنا.

* سأحتاج إلى وقت طويل لكي أغفر لنفسي.

— ألا يكفي أنني أغفر لك؟

* كنت تعرفين؟

— لا يحتاج الأمر إلى عبقرية. أنت بيني وبين رفقة. لم يكن هناك شك في أنك تحب واحدة منا. وطالما أنك لم تتزوج رفقة فهذا يعني...

— ليست مسألة الزواج من رفقة. كنت سعيداً بينكما. وكنت أظن أن وجودكما معاً هو المريح لي. كأنني أحس بالدفء من جانبين. وحين انكشفت من ذلك الجانب، لم يعد الجانب الآخر دافئاً. برد الجسد كله.

* لا تقل لي إنك تريدنا معاً.

— لا أريد أحداً في الدنيا معك.

باعترافه هذا أحس أنه قد ألقى بعبء كبير عن نفسه. حتى أنه لم يعد يجد ما يفعله. ولم يعد يجد مبرراً للبقاء معها خارج المنزل: ما رأيك لو ندخل؟ الدنيا برد.

الفصل الخامس

— ١ —

أنا إبراهيم إبراهيم ولست إبراهيم عارف إبراهيم.

كان يكررها لزملائه دائماً. ويبرر بأنه لا يخجل من انتمائه لأبيه الضابط المتميز في الشرطة العثمانية، والذي يرأس شرطة عدلية بيروت. لكنه يريد أن يواجه الحياة معتمداً على نفسه.

ويضيف: وقد أجد نفسي في مواجهة مع أبي. هو يخدم الدولة وأنا أحاربها. أحاربها على قدي. لكل إنسان جبهته على قده.

وتبدأ جبهة إبراهيم من المدرسة. يحدثهم الأستاذ بالتركية عن منة جمال باشا عليهم لأنه أغلق مدارس الإرساليات وفتح لهم مدرسة عربية، فيتصدى له إبراهيم بالعربية: وهل جئنا إلى المدرسة العربية لكي نصير أتراكاً؟

وليس هناك مجال لتوسيع الجبهة داخل الصف. لكن الخنادق تلتقي في ساحة المدرسة. يتعرف شاب بآخر. ويلتقي همٌّ بهمٍّ، وتطلعٌ بتطلعٍ. فيصبح إبراهيم ونادر وسميح أصدقاء يلتفُّون بوعي سياسي مبكر، دون أن يعرفوا كيف يصوغونه.

وحين جاء نادر ذات يوم بقصيدة جديدة لمعروف

الرصافي أحسوا أنهم قد عثروا على كنز. وراحوا يرددون أمام زملائهم:

عجبت لقوم يخضعون لدولة

يسوسهمُ بالموبقات عبيدها

وأعجب من ذا أنهم يرهبونها

وأموالها منهم ومنهم جنودها

وأبدى الملازم الاحتياط عبد السلام العبداني إعجابه الشديد بها. وأوحى لهم أنه يفهمها أكثر منهم لأنه ضابط في الجيش ومقرب من جمال باشا. قال: طبعاً. من هم جنود الباشا الذين يخيفون الناس؟ نحن. ونحن الذين نخاف منه ومنهم. ومن أين له المال الذي يجخ به؟ أليس مما يجمعونه له من هؤلاء الأهالي المساكين؟ ولكن بأشعار كهذه بدأ الوعي يتفتح على مكافحة الظلم والإرهاب. وبدأ الاستمتاع باللغة العربية التي صارت رمزاً لتأكيد الهوية وإعلان العصيان. والعصيان يبدأ بالشعر.

ومع الشعر يبدأ البحث الذي يقود خطوات الشباب إلى بعض المجالس في المنازيل والجوامع والتكية والمقاهي، ليلتقطوا نبض الاحتجاج لدى الناس. ثم يذهبون إلى بيوتهم ليضخّموه وليعطيهم الإحساس بالراحة: الناس غير مستكينين. والثورة قادمة. ونحن على صلة بها.

مع الشعر تم تلقط الشعارات التحررية: شعارات الثورة الفرنسية، شعارات الماسونية، شعارات الاتحاديين أنفسهم قبل أن تظهر أنيابهم الطورانية. ويمزجون هذا كله بما تردده الصحف عن العروبة والإسلام واللامركزية والعربية الفتاة، وكل ما يميز أبناء الشعب عن الطغمة الحاكمة.

هذه المشاعر والأفكار كانت تعطي إبراهيم وزميليه إحساساً بأنهم أكبر من أعمارهم. وكان ترديد بيت من الشعر، أو جملة عنيفة لرجل ثوري، يجعلهم يحسون بتعويض عن تأجيل الثورة. وكانوا يتحينون الفرص لمناقشة الذين يتظاهرون ويهتفون:

عيشة بذلة مامنحبا

منتظاهر ما منتخبا

يا منال الاستقلال

يامنرحل ع أوروبا

لا. لن نرحل. هذه بلدنا. وسنبقى فيها. هم الذين يجب أن يرحلوا.

وإذا أتيح لهم من يؤمن سهرة مع كأس في مكان بعيد عن الناس سهروا وسكروا. وكان عبد السلام هو الذي يؤمن سهرات من هذا النوع، لأنه الوحيد بينهم الذي يتقاضى راتباً. وكان سميح ينهي السكرة دائماً بالغناء. إذا استيقظت الفروسية والبداوة غنى من قصيد أحمد

العلي:

وسحبتها من بين عشرا تليت

تشبه سفينة ببحر وافق هواها

حطّيت سرجاً ع الظهر شدّيت

حتى التصق بالعون ظهرا بحشاها

وسمّيت باسم الله، بظهرا تعلّيت

نفرت نفير الظبي تطلب رباها

وإذا استخفهم الطرب قام سميح إلى الرقص وهو يردد قرَادية الشيخ كامل يوسف الخطيب:

شو بيدريني وشو بيدريك

منرجع لسفر برليك

منرجع للجوع وللقلّ

وأكل الهوا والتحريك

منرجع لأكل القرّه

والهندوبة هالمره

مابتعرف أكلن ع الحل

شو لوحده بيغذّيك.

وكان الجميع يشاركونه الغناء والرقص. ولكن حرقة تبدأ بالتصاعد في النفوس. فيحسون وكأنهم يسرقون هذه الفرحة الصغيرة. ويقفزون في القرادية فوراً إلى:

لا تقول ظلموني وظلموك

وما علموني ولا علموك

الما بيظلم حاله بيضل

مقنبر عرفه متل الديك

بكره بيجي عزرائيل

بيشوفك مع إسرائيل

بيقول لك من هوني فل

يا صباح الشحار تطليك

وينك عن أهل كتابك

لأهل التلمود شو جابك

ويلك ما شبعت من الذل

اللّه يفجع أمك فيك

فتهمد النفوس من جديد. ويبدأ الحوار السياسي منطلقاً من الدهشة الدائمة لدى الجميع لوجود هذا الوعي السياسي بخطر اليهود عند فلاح في الجبال قرب اللاذقية، بينما المثقفون والمناضلون تمر عليهم لعبة الماسونية التي يتخفى وراءها اليهود.

قال لهم أحد الشباب إنه قد قرأ مقالاً من مجلة فرنسية جاء فيه أن غاية الماسونية قد انبثقت من اليهودية. وإن أكثر عادات الماسونيين مقتبسة من معبد سليمان. كما أن أكثر الإشارات والرموز عبرانية. واليهود اجتذبوا الاتحاديين إلى الماسونية ليعمل الطرفان على محاربة السلطان عبد الحميد الذي عارض المشاريع اليهودية.

— يعني انضحك علينا بالأفكار الماسونية التحررية.

* انضحك على الاتحاديين قبلنا.

— لا. الاتحاديون ماسونيون ويهود أصلاً.

* هل تصدقون أن اليهود يشكلون خطراً؟

— هؤلاء يشكلون خطراً؟ الخطر الحقيقي هو الاتحاديون الذين يريدون تتريكنا.

* واليهود ماذا يريدون؟

— ماذا يريدون يعني؟ أن يحجوا إلى القدس؟ شرفوا حجّوا.

* يقال إنهم يريدون إقامة دولة.

— حكي فاضي يريد الاتحاديون إلهاءنا به. الخطر الحقيقي هم العثمانيون.

* أنا لا أرى اليهود أقل خطراً. يا جماعة، منذ أيام نابليون وهم يطرحون مسألة العودة إلى القدس. وحتى نابليون كان مؤمناً أن فلسطين هي أرض إسرائيل.

— تعرف ما معنى كلمة إسرائيل؟ تعني عبد الله أو أسير الله.

* بلا فلسفة. من أين تعرفون أن نابليون أيد اليهود؟

— نداؤه الذي وجهه إليهم وهو عند أسوار عكا. سماهم ورثة فلسطين الشرعيين.

— إبن الشرموطة. ألم يعلن إسلامه وهو في مصر؟

— يضحك علينا. يأخذنا على قد عقولنا.

* حتى الشاعر بايرون يتعاطف معهم ويكتب عنهم.

اسمعوا:

لليمامة عشها

وللثعلب كهفه

ولكل شعب أرضه

إلا اليهودي فليس عنده غير قبره.

كان هذا إبراهيم الذي يستمتع باستعراض ما لديه من معلومات مأخوذة من الأدب تحديداً، واستعراض قدرته الفائقة على الحفظ. فيستظهر لهم من شعر بايرون:

إطلع أيها الإله العظيم ودع قدرتك تتجلى

وأرسل أشعتها مضيئة ودافئة على أبناء يعقوب

وأعد فلولهم التائهة إلى أرضهم الموعودة هناك

وإهدهم لكي يذهبوا إلى فلسطين فهي وطنهم.

ويقفز سميح مستفزاً: العمى. ما هؤلاء اليهود؟ مع السلطان سليم موجودون. مع الاتحاديين موجودون. مع الماسونية موجودون. مع الإنكليز موجودون. حتى مع نابليون موجودون.

ويأتيهم عبد السلام دائماً، ليس فقط بالدعوة إلى العشاء والكأس، بل بالمعلومات أيضاً. ومع أن سميح ونادر كانا حذرين من كونه ضابطاً، إلا أن إبراهيم كان يطمئنهم بالقول إن الرابطة معه قديمة ومن خلال الأهل: «والدي صديق أهله في الخليل». ولكنهم أصروا أنه حتى لو اشترك معهم في الجلسات والمناقشات،

يجب أن لا يشركوه في تحركاتهم الأخرى ونشاطاتهم.
— تتحدثون عن التحركات والنشاطات كأنكم تقومون بثورات.
إبراهيم يرى أن عبد السلام ضروري جداً للجماعة. فلديه دائماً أخبار لا يمكنهم الحصول عليها. فمنه عرفوا حين رجع الأمير فيصل من اسطمبول.
* وماذا كان يفعل في اسطمبول؟
* يريد إطلاع الصدر الأعظم على مجموعة الوثائق السرية التي عثر عليها أخوه الأمير علي بن الحسين، والذي كان يقود حملة من المتطوعين العرب، بالاشتراك مع وهيب باشا قائد الحجاز، لتعزيز حملة جمال باشا على قناة السويس. وهذه الوثائق تدل على وجود مراسلات كانت تدور بين الصدر الأعظم وقائد الحجاز وهيب باشا لاغتيال الشريف حسين وأنجاله والقضاء على الاستقلال في الحجاز. وقد لفلف الصدر الأعظم الموضوع. نقل وهيب باشا، وعين الجنرال غالب باشا مكانه.كما ترون. الجميع يتآمرون على العرب. ولذلك قبل أن يذهب فيصل إلى اسطمبول التقى بأحمد قدري، معتمد جمعية الفتاة، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر ومحمد الشريقي وياسين الهاشمي، رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر، والفريق علي رضا الركابي. الجميع مستعدون للثورة بقيادته. بعضهم اشترط أن لا تكون

هناك علاقة مع بريطانيا. ومنح فيصل جمعية الفتاة ألف ليرة ذهبية. فبدأت تتصل بمشايخ القبائل ودخل فيها نواف بن نوري الشعلان، شيخ الرولة، ونسيب الأطرش وفرحان الميدا، شيخ مداين صالح، وأبو سليم فرحان المغوش، شيخ قرية خلخلة، وغيرهم. وأبلغ فيصل والده أن الوضع جيد في سورية وأن فيها ثلاث فرق مستعدة لإعلان الثورة. وفي حلب فرقتان فيهما الكثير من الوطنيين.

* يعني الباشا يعرف بذلك كله.

— يعرف. ولكنه الآن لا يستطيع أن يفعل شيئاً. هو محاصر بهزيمته في سيناء. وخصومه في اسطمبول يريدون أن يستغلوها ضده للتخلص منه. وهو لا يثق بالألمان. ويعرف أنهم لا يثقون به. وأنهم يعارضون مخططاته. ولكنهم الحلفاء الوحيدون في هذه الأزمة. لذلك فهو يشتغل على أكثر من جبهة لكسب مؤيدين له في اسطمبول، ولإعادة الكرّة في سيناء.

* ومن أين لك هذه المعلومات؟

— أنا أطّلع على التقارير التي تُرفع إلى الباشا. وأنا ابن هذه الأمة. وحياة عينك إذا قامت هذه الثورة لن يسبقني إليها أحد.

ويزداد إبراهيم حباً وثقة بعبد السلام.

وعبد السلام شاب مثلهم. لا تقف أحاديثه عند الثورة

والباشوات. جاء ذلك اليوم منتشياً. قال لهم: إذا تطلع الله في وجهي ستزبط معي زبطة عظيمة. سأنام مع المرأة التي ينام معها جمال باشا. وحكى لهم: البعثة الألمانية «اشنو تزنجن» جاءت لتقيم محطة إذاعة في المدينة المنورة. أنور باشا لم يوافق على المحطة. والبعثة لا تزال الآن في الشام. لم يُحسم أمرها بعد. وهذا الأحمق جمال باشا، الذي لا يفكر إلا بقضيبه، أعجبته واحدة من البعثة. وهي بصراحة تأخذ العقل. اسمها آنا ليستر وينادونها الليدي دكتور. ذاب فيها الباشا. وهي أحست بضعفه فقررت أن لا تستعجل الذهاب. كيف الباشا. كل يوم سهرة وسكرة معها.

— وأنت، ما علاقتك بهذا كله؟

* أنا؟ أنا مرافق الليدي دكتور. أطلب منها دائماً أن تعرف لي نوايا الباشا حول المعتقلين. وأعرف منها كل قرارات الباشا بشأن العرب. وأبلغ ذلك كله إلى الأمير فيصل. وأهم شيء الآن أن أعرف إن كان فعلاً سينفذ الحكم قبل أن تأتي الموافقة من اسطمبول.

* يعني تشغلها لصالحك؟

— هذه تشغل بلداً بأكمله. ولكن أحس أنها راغبة في تقديم الخدمات لي. سأستفيد منها قدر ما أستطيع. ولكن يجب أن نكشف أمرهم كلهم.

* كيف؟

* مثلما يستخدمون امرأة لتمرير أغراضهم عرض فهمي أفندي أن نزج امرأة تساعد على كشف حقيقتهم. فأرسل يطلب واحدة اسمها نهال حامد. يبدو أنها متخصصة في مسائل من هذا النوع. وستكشف هؤلاء الألمان.

— أليس الألمان حلفاءنا؟

* مرحبا حلفاء. هؤلاء أوروبيون يا عمي. يريدون مصلحتهم. بصراحة هم حلفاء. لكنهم ليسوا مطمئنين إلى الباشا.

— لماذا؟

* الشغلة داخلة ببعضها. أحكي لكم في ما بعد.

— إحكي لنا على الأقل كيف ستنام معها.

* أنا مرافقها. وهي تثق بي. ولا تطمئن أن تذهب في أي مشوار إلا إذا كنت معها. ولكن هذه طبختها على نار هادئة. ستنضج الأمور على مهل. وليس كما تفكرون: ضربتك قتلتك. هذه واحدة حضارية. أوروبية.

ويعود إبراهيم ليلاً إلى غرفته المستأجرة ليتمدد على فراشه ويسترسل مع أحلامه. وكانت أحلاماً يختلط فيها الشعر بالثورة وبالجنس وبالحب.

كان يعود في موعد محدد دائماً. فبينه وبينها موعد. يتمدد على فراشه قرب النافذة. ويراقب ظلها المرتمي على الجدار المقابل في الشارع، والذي يسقطه الضوء

من غرفة الطابق العلوي لبيتهم المجاور حيث تدرس وهي تتمشى. ومن ظلها يقدر أنه يعرف حالتها. هل هي مرتاحة أم لا؟ متمكنة من درسها؟ متشاجرة مع أهلها؟ شاردة وغير قادرة على التركيز؟ وحين تتكئ على النافذة مستفيدة من خلو الشارع من المارة، بحيث يسمح لها بالوقوف والإطلال، كان الضوء الساقط عليها من الخلف يقدم له شعرها وردة جورية كبيرة أو قرصاً من عباد الشمس. يسرح مع الظل فإذا هبت نسمة وحركت الشعر يقفز قلبه وكأن شعرها أحس بأشواقه وبرغبته في لمسه، وبأنه قد مد يده في الظلام إلى هذا الشعر وأن الشعر قد تحرك تحت يده.

لا يمكن أن تكون منشغلة بأحد. وعلى الرغم من أنها لا تعرفه، وليس متيقناً من أنها تعرف بوجوده، إلا أنه لم يفسح المجال لاحتمال وجود شيء آخر في عالمها إلا قصته الجميلة معها. يقصد مع ظلها. يتطلع إلى الظل المرتمي على الجدار ويتخيل نفسه واقفاً وراءها وهو يحدثها: نحن جبهة واحدة. صحيح أنت لا تستطيعين أن تفعلي ما نفعله. والمجتمع لم يسمح لك بالحركة الحرة مثلنا. لكن قرارك بأن تدرسي هو وحده ثورة. إقرئي قاسم أمين. إقرئي أفكاراً لا يسمح بها أهلك. واحضنيها خفية عنهم إلى أن تفقس ذات يوم وتفاجئهم. هذه الأفكار كالحمل بالسر. سيفاجئهم الوليد

ذات يوم. ويومها سنكون معاً. أنا وأنت. يجمعنا الحب والوطن.

يسترسل مع تذويب أفكار الثورة في الحديث العاطفي إلى أن تتحرك من جديد. لا ييأس. يظل ينتظر إلى أن تقف وقفة ما يظهر فيها انتفاخ صدرها في ظلها. فتستيقظ فيه هواجس الجنس مع خيال النهد. يمد يده إلى رأس النهد ويشده، فيخلع الظل عنه وعنها. يخرجها من ظلها إلى خياله عارية مشتهاة إلى أن يدركه الاحتلام في النوم أو الاحتلام القصدي في حلم يكمله مع نفسه.

في كل صباح يحس أنه باستمناءاته خائب. وأن حياته ينقصها شيء. وأنه يرتكب خيانة يومية لأحلامه الشعرية عن الحب والثورة. كيف يسمح لنفسه بالتفكير في الجنس بهذه الطريقة؟ ومعها هي؟ مع هذه الرؤية المخملية الظليلية؟ ماذا لو عرفت؟ ماذا سيكون رأيها فيه عندها؟ لا شك أنها حين تراه ستعرف أية قذارة كان يجرها إليها كل يوم. ومع هذا الإحساس يراجع حياته فيجدها خاوية بلا معنى لأنه لا يفعل شيئاً ذا قيمة. ويظل يسيطر عليه هذا الإحساس حتى يجيء نادر وسميح فيرمم كل منهم خيبة الآخر بوجوده. كل منهم يعرف أن الآخر مثله. إنه، مثل أصدقائه الآخرين، يعيش أوهاماً وكبتاً وأحلاماً سرية وعشقاً لصبايا

خياليات، مما يجعلهم، كلهم، يرددون أشعار الغزل بحجة الإعراب. بينما لا يحتاج ترديد أشعار الثورة إلى أية حجة. ويجدون من هذه الحالة منفذاً سرياً نحو حالة أخرى من حالات الاعتداد بالنفس: حياتنا بائسة وخاوية ولكننا لم نتعود عليها. الإحساس بالحرمان أول خطوة للرد عليه والتصدي له. ويردد أحدهم بيت الرصافي:

تعوّدَ كلّ بؤسها ونعيمها

وعشنا على بؤس ولم نتعودِ.

— ٢ —

كانت نهال في العربة التي تتجه بها من بيروت إلى دمشق غارقة في أفكارها وأشجانها. والسائق الذي فرزه لها علي باشا لا يجرؤ على اقتحام صمتها.

ها هم مرة أخرى يلجأون إليها في مهمة جديدة. علي باشا يقول لها إن الألمان يلعبون بأذيالهم. وقد جاؤوا بجماعة تريد أن تقيم محطة إذاعة في المدينة المنورة. إنها بعثة اشنو تزنجن. يجب أن نفهم ما وراء ذلك. الألمان لا وجود لهم في الحجاز. فبماذا تفيدهم محطة الإذاعة؟

طوال الفترة التي قضتها مع القيادات كانت أكثر استعداداً لأداء المهمات مما هي عليه الآن. ليس فقط بسبب عارف، بل لأنها تعرف أن الجميع ينظرون إليها

بمنظار عارف ذاته. الفارق بينهم وبينه أن عارف يريد إبعادها والتخلص منها، بينما هم يعرفون أنهم في حاجة لخدماتها. كما أنهم يريدونها قريبة منهم دائماً، أملاً في فرصة تتاح لأحدهم معها في الفراش. وقد صارحها المتصرف إسماعيل بيك ذات مرة حين رفضت دعوته لها إلى البيت. استغرب رفضها، وقال: كنت أظنك لا تخافين. فأجابته دون لف أو دوران: تقصد لا تمانعين في النوم معي. ولم يرتبك. كان هذا ما يقصده فعلاً. فقال: أستغرب أن ترفضيني، وأنا أعرف أنك نمت مع أكثر من رجل.

ردت عليه: أنام مع رجل حين أؤدي مهمة خاصة تقتضي ذلك. أفعلها بتكليف منكم.

— إي طيب. ونحن؟ طبّاخ السم يذوقه.

* قد يموت منه، فلا يعود قادراً على دسه لغيره.

— يعني أنت لا تفعلينها إلا للشغل؟ ألا تشتهين الرجال؟

* من قال لك ذلك؟ طبعاً أشتهيهم.

— ألست في نظرك رجلاً؟

* وفخر الرجال. لكنني لا أشتهي إلا من أحب.

— ألا تحبين إلا الأجانب؟ هل لديهم غير ما لدينا؟ ألأنهم غير مختونين؟

نقاش كهذا يجعلها تحس كلامها وكلام الآخر مثل علك الصوف. ومع ذلك كانت مرتاحة لأن الموضوع قد فُتح

معه وخسم. ولكن المشكلة هي أن مهمتها هذه المرة ستكون بمرافقة إسماعيل بيك نفسه. لو أن الموضوع لم يكن مطروحاً لظلت الأمور كما كانت عليه. هو يتظارف ويلمّح. وهي تفهم تلميحاته مثل تلميحات غيره، وتتجاهل أو تضحك. أما الآن فلم يعد هناك مجال للمواربة والتلميح. ظرح الموضوع بوضوح. ورفضته هي بوضوح. وظل يقنع نفسه أن الرفض مؤقت. وأن امرأة كهذه قد تكون مزاجية، ولكنها ليست مستعصية. غير أنها لا تريد أن تضيع الكثير من الوقت في مناقشات وصد محاولات من هذا النوع. ولذلك قالت لعلي باشا: لا مانع لدي من العمل مع إسماعيل بيك. لكن أفهمْهُ أن على كل منا أن يقوم بشغله على طريقته، ودون أن يزعجه الآخر. فاستنفر علي باشا: يزعجك؟ من يزعجك؟ إسماعيل بيك؟

— لا يا باشا. لا أحد يزعجني. ولكنني أريد أن أكون واضحة.

* إذا أزعجك أي إنسان أو أعاق عملك أعلميني فقط.

— حاضر يا باشا. ولكن هل من الضروري تشغيل شخص كالمتصرف في أمر كهذا؟

* إسماعيل بيك شغّيل وقلبه قوي. وأنت اقترحت أن تكون السهرة أنت وخطيبك أو زوجك ومعه أبوه. هذا كله مؤمن الآن. وإسماعيل بيك شكله محترم. لن يثير

الشبهات. وسيشرفك أن يكون والد خطيبك أو زوجك.

اضطرت إلى الضحك: الحمد للّه أنكم لم تختاروه ليكون هو الزوج أو الخطيب.

وضحك علي باشا بدوره. فسألته: والعريس. من سيكون؟

قال لها: شاب ضابط من الخليل. موجود هناك في الشام ومتعود على هذه الأجواء. وهو شاب جميل يفتح النفس.

علّقت ساخرة: نفسي أم نفسك يا باشا؟ وأطلقا ضحكتين عاليتين. ثم قالت بجدية: بقيت مسألة أخيرة. السفر. أريد أن أسافر إلى دمشق وحدي. فليسبقني إسماعيل بيك، أو فليلحق بي. لا أريد أن أسافر معه في عربة واحدة.

* وهو كذلك.

ولكنها عرفت أن الباشا لم يكتف بذلك. أرسل يطلب إسماعيل بيك وكلمه بقسوة. أفهمه أنه، أي الباشا، ينظر باحترام إلى نهال. ولا يقبل أن يزعجها أحد. وهذه المهمة معها في الشام امتحان لك ولقبولك لكلامي.

وجاءها إسماعيل يزورها في بيتها، وهو مكتس بأدب واحترام مفاجئين. وبعد أن أبدى دهشته من مظاهر الترف والذوق والترتيب في البيت، أكد لها أنه لن يزعجها بعد اليوم. وتستطيع أن تمتحنه بمرافقته في

هذه السفرة إلى الشام.
ولكنها أصرت على السفر وحدها.
كيف يمكن أن يفهموها؟ هي تريد أن تشتغل بكل ما فيها. ثم تعيش ما تبقى على هواها الذي تحترم فيه نفسها. واحترامها لنفسها ينبع من نجاحها في عملها بالدرجة الأولى. ثم أن تتصرف بما تبقى من وقتها بمعزل عنهم، وعلى حريتها. ولكن هؤلاء المنافيخ الذين حولها لا يرونها إلا جسداً عارياً متنقلاً من فراش إلى فراش.
هذه المرة أيضاً يجب أن تنجح. قد تؤدي هذه المهمة وتعتزل. حتى أن تتزوج مرة أخرى، مع أنها شبه واثقة أنها لن تلتقي بمن يوازي حسام زوجها السابق.
لقد التقت به في حمص حين كان في مهمة لنقل المجندين. هو ضابط في الجيش. شاب من دمشق يتزوج صبية من حلب. ماذا يعني؟ أبوها قال: على بركة الله. الشاب مقبول وكلنا إسلام. وأبوها لم يكن يريد إلا سعادتها ونجاحها. تجارته علمته المرونة في كل شيء. وهو إذ يتنقل بين حلب واسطمبول وديار بكر والموصل، ثم إلى أوروبا، يرى أن الدنيا أوسع بكثير من الأخلاق التي ورثها. لذلك أرسلها إلى المدرسة. ثم أرسلها، بعد أن كبرت، إلى باريس لدراسة القانون. وهي استغلت الفرصة وسافرت إلى برلين ولندن. فأضافت

اللغات والموسيقى والأدب إلى ما تعلمته. وتعودت على التصرف بمفردها دون الاعتماد على أحد. وصارت، كما أراد أبوها، «متمدنة». قال لها: عيشي حياتك، وكوني أكثر من حرمة. ويهمس لها ضاحكاً: ولا تكوني مثل أمك. نشفت ريقي. وحتى لو شئت أن تشتغلي محامية لا مانع لدي. ولكن شغل المحاماة لم يكن وارداً في بالها. وربما لا تسمح به الظروف. فاحتفظت بمعلوماتها التي تفيدها الآن للاستشارات مع الجهات العليا. ثم، خلال حياتها مع زوجها الضابط، طورت معرفتها بالأسلحة والمعدات والأدوات التقنية وأجهزة الاتصالات. ومع حسام أيضاً زارت أهله في دمشق، كما زارت اسطمبول. وحين انتقل إلى حيفا اصطدم باليهود الذين كانوا يسعون إلى شراء الأراضي على البحر. وأبلغ الأهالي أن بيع الأرض ممنوع باسم القانون. وأنه هو ذاته يعتبر نفسه مسؤولاً شخصياً عن هذا الأمر. وقد ألغى أكثر من عملية بيع. وزج بالبائعين والشراة في السجن.

وسمعت من يحذره من أن أولاد الميتة لا يمكن أن يسكتوا عليه. ولكنه لم يبال. قدم كل مساعدة استطاعها للشباب اليافاويين والحيفاويين الذين أبدوا استعدادهم لمقاومة هذا التوسع اليهودي في الأراضي حتى بالقوة. كانوا يغلون غضباً وحقداً. لكنهم كانوا في

حاجة إلى سند في الدولة. وجند حسام المزيد من الشباب بحجة العسكرية. وأوكل إليهم مهمة ملاحقة عمليات البيع. ولكنه كان كمن يمنع سيلاً بكفيه. صار حتى بعض الأهالي العرب يشتكون منه أيضاً: يا عمي الأحوال واقفة. وضرائب الأرض أكثر من مواسمها. إن كنتم تريدوننا أن لا نبيع خففوا هذه الضرائب. أتركوا لنا الشباب ليشتغلوا فيها على الأقل. ولا تجرجروهم إلى جناق قلعة وحرب اليمن. ثم ألا تحس بهذا الجفاف؟ نحن لا نرى قطرة المطر إلا بطلوع الروح. أمَنوا لنا موتورات نسقي بها مثلما يفعل اليهود. ساعدونا في حفر الآبار. وبدل أن تتمرجل علينا نحن، أوقف عمليات بيع البكوات الذين في الشام أو بيروت لآلاف الدونمات. رح تمرجل على بيت سرسق وبيت تويني وبيت بطرس.

ولكنه لم يكن يهتم بكلامهم: هذا من شؤون الدولة العلية. أنا أقوم بواجبي على قدي. لا تظنوا أني أشيل الزير من البير. أنا مثلكم. أحب هذه البلاد. ولن يأخذ اليهود هذه الأراضي وأنا على قيد الحياة. سأؤمن لكم قروضاً. سأعثر لكم على عرب يشترون الأراضي منكم عند الضرورة. سأفرض على اليهود أن يسقوا لكم بموتوراتهم.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. لا القروض كانت ممكنة.

ولا هو استطاع أن يفرض على اليهود أن يسقوا للعرب بموتوراتهم. ولا الأثرياء العرب يشتهون الشراء. وحتى الذين اقتنعوا معه بالشراء اصطدموا بعراقيل قانونية وإدارية لم يعرفوا، ولم يعرف، من أين نبعت لهم. عمليات البيع تتوقف. والمطالبة بالضرائب تزداد شراسة. وهو يعود كل يوم إليها مختنقاً موشكاً على البكاء: يجب أن نفعل شيئاً. يجب أن لا يوقفنا شيء في الدنيا عن مقاومة هؤلاء. اليوم اختنقت. فطلبت من المجندين الذين معي أن يلبسوا ملابس مدنية ويتوجهوا في مظاهرة لإحراق دار السرايا في بئر السبع. هناك أكثر من عشر معاملات شراء أراض من قبل اليهود لم أستطع منعها. جعلتهم يحرقون كل شيء. وكانت الضربة الأعنف له حين يجيء مسؤول كبير فيقيم له اليهود احتفالاً ضخماً، ويقدمون له الهدايا الثمينة، ويقيمون له سهرة عامرة بالمشروبات وصدور النساء. فيمنحهم مناطق واسعة دون مقابل. بل إن أحد هؤلاء المسؤولين قد وجه إليه كلاماً واضحاً: لا أريدك أن تزعج أولاد عمنا.

وكان تعويضه الوحيد حين تأتيه مهمة واضحة تتعلق باليهود. في كل كبسة كان يعود بكميات كبيرة من الأسلحة المخبأة، وبمزيد من الثقة بالنفس لأنه قاوم إغراء المال والنساء اللواتي عرضن عليه. لكنه أيضاً بعد

كل كبسة تزداد همومه. إذ يتدخل القنصل البريطاني والفرنسي والأميركي وحتى الروسي. ويستدعيه رؤساؤه فيوصونه بعدم المبالغة في التشدد، ويطلقون سراح من اعتقلهم.

ويزداد اقتناعاً بأن اليهود يخططون لشيء أكبر مما يعرف هو أو يعرف أحد. وفي الكبسة الأخيرة حدّثها عن اكتشاف إيصالات مالية عائدة للصندوق القومي اليهودي وطوابع تحمل اسم دولة يهودية إضافة إلى الأسلحة المخبأة: هذا يعني أنهم يفعلون ما أتوقعه. يحلمون بأخذ هذه البلاد وإنشاء دولة عليها. ألله يرحمك يا سلطان عبد الحميد قبل أن تموت. أقص يدي إن لم يكن هذا سبب إزاحته. وتحذره نهال هامسة من أن يقول هذا الكلام أمام أحد. فالاتحاديون لا يرحمون. وذات يوم جلبوا لها جثته. وهو في دورية على الشاطئ جاءته طلقة من مجهول.

— ٣ —

حين توقف سائق العربة في ميسلون ليسقي الجوادين خرجت من ذكرياتها لتفكر في مهمتها الجديدة. وكأن ذكرى زوجها وتصميمه قد خلصاها من متاعبها الأخلاقية مع الباشوات. فهي تريد متابعة طريق حسام بأسلوبها وحسب إمكاناتها.

لقد شاركت في ملاحقة فايمان بري. وكادت أن توقع به

لولا أنه تشكك بها حين تمنعت عليه بعد حفلة إغراء ومجالسة مع الشراب. وكانت في تمنعها ساذجة كما اكتشفت في ما بعد. فحين تتبسط امرأة مع رجل وتمازحه وتشرب معه وتراقصه ولا ترفض لمساته خلال الرقص والمجالسة، ثم ترفض الوصول إلى النهاية فإنها تدعوه إلى التساؤل: ما الذي تريده المرأة منه إذن؟ وشخص في حرص فايمان بري لا بد أن يتشكك في أنها مستخدمة للإيقاع به. يومها قالت لنفسها: لو سمحت له بالتمادي قليلاً، أما كنت استطعت التمكن منه. ماذا يعني لو أنه كان قد قبلني؟ وماذا يعني لو أنه داعب جسدي، وحتى لو أنه فعلها؟ ما الذي كان سينقص مني؟

قررت أن استخدام جسدها في المهمات لا يقل خطورة عن أسلحة الآخرين، بل لعله الأكثر خطورة، لأنه يُدخلها إلى حيث لا يستطيعون، ويجعلها تقترب من الخصم إلى حد لا يستطيعونه.

وأول مرة استخدمت جسدها فيها بشكل علني كانت حين أوقعت بشيمون ساري. كان قد نزل في فندق في بيروت، لينتظر وصول الباخرة الإنكليزية التي تحمل موتورات سقاية. وكان بينها أسلحة مهربة. أنزل البضاعة سراً، وسيّرها ليلاً مع المهربين إلى الشواطئ الجنوبية. ولكن قافلة التهريب وقعت في أيدي الألمان

قبل أن تتجاوز صور. هم يريدونه حياً. وهو أحس أنه ربما كان قد انكشف. إنه مسلح وخطير. يومها سكنت غرفة مقابلة له. وفي ساعة المداهمة تظاهرت أنها تستحم. وسمحت لجسدها العاري أن يظهر له وهو في غرفته. انجذب إلى النافذة وتسمر عليها. وهكذا استطاعوا أن يقتحموا الغرفة وينقضوا عليه قبل أن يستطيع الوصول إلى سلاحه.

قدر الجميع لها عملها هذا. وقدرت هي لجسدها هذه المساهمة في الأعمال الخطيرة. فتابعت استخدامه.

هل هي تخون حسام بهذا الأسلوب؟ لا تريد أن تزج بذكرى زوجها في هذا الأمر. في النهاية هو لم يعد موجوداً. وليس حولها من يفرض عليها ما لا تريد أو من يحاسبها على ما تفعل. فقررت الاستمرار والمتابعة. وهي مقتنعة أنها لا تفعل ما تفعله لأنها تشتهي الرجال، بل إنها تحس أنها تضحي. نعم. تضحي. وبشيء ثمين. إن النوم مع رجل لا تحبه ولا تشتهيه تضحية لا يفهمها هؤلاء البكوات والباشوات الذين يشتهونها ويحتقرونها، ويرون الفراش ميداناً لشهوات الرجل وحده. كانت تتمنى لو أنها لم تضطر إلى ذلك. لو أنها لم تنم مع أحد بعد حسام. لو رجعت إلى أهلها. وحتى لو تزوجت مرة ثانية، وانسترت في بيت وأسرة، كما تفكر نساء الدنيا كلها. ولكن كيف يمكن أن تفعل ذلك والخطر الذي نبهها

إليه حسام لا يزال قائماً، ولا تزال تحس به يوماً بعد يوم؟ طز في السمعة والاحترام والاستقرار إذا كانت البلاد ستضيع. هو قاتل بسلاحه ورتبته. وهي ستقاتل بجسدها وعلاقاتها بكبار رجال الدولة.

وعادت بتفكيرها إلى المهمة الجديدة. ماذا يريد هؤلاء الألمان الآن؟ أليس من المفروض أنهم حلفاء؟ أم أنهم مثل غيرهم: أوروبيون يتعاملون مع هذه البلاد وكأنها مرتع لهم. أحست من خلال تجاربها مع هؤلاء الأوروبيين أنهم يرون رجال البلاد كالدواب، ونساءها كقطيع الخنازير. المرأة النظيفة الجميلة فقط، والتي تعرف أصول تعاملهم وتتقن تفاصيل لهوهم من رقص وسماع موسيقى وحديث عن الأدب، هي شهرزاد التي تسكن أحلامهم. وكل أوربي يأتي إلى هذه البلاد، وأياً كان ما يفعله، يحلم بأن يلتقي بهذه الشهرزاد، وإلا كانت مهمته ناقصة. ولن يعود بقصة مثيرة تشبع غروره وفضول من هم حوله هناك. وهنا كان الفخ الذي يتضمن أشهى طعم.

هي شهرزاد من بين تلك الشهرزادات. جميلة وحسنة الحديث والتصرف. وتجيد اللغات. وتعرف ماذا عليها أن تفعل. فتترك لجسدها في الفراش أن يحكي لشهريار الأوروبي قصة مسلية حتى ينام، ويتوقف عن القتل أو الشغل أو الحذر. هي شهرزاد التي تريد أن تحقق غرضاً

من خلال فضول ذلك الغريب لتجريب سحر الشرق الشهي.

والآن ما الذي ينتظرها في هذه المهمة الجديدة في دمشق؟

حين وصلت إلى فندق خوام وجدت الملازم الشاب بانتظارها: الملازم الاحتياط عبد السلام العبداني، كما قدم نفسه لها.

بدا لها الشاب خجولاً ومهذباً وجاداً منذ اللحظة الأولى. ولكن فيه فتنة وجاذبية لا تخطئها العين. وكان هو متحفزاً لا يعرف كيف سيتعامل مع امرأة من هذا النوع. النوع الذي يأتي ليقوم بمهمة النوم مع رجل. ولذلك كان يتجنب النظر إلى عينيها. قال لنفسه إن الأفضل هو أن يوحي لها بأنه لا يعرف نوع مهمتها. وقال لها إن الباشا يعول كثيراً على نجاحها في مهمتها.

* المهم. كيف سألتقي بالبعثة الألمانية؟ وهل تستطيع أن تعطيني فكرة عنهم؟

* ذهبت البعثة كلها إلى حلب. الموجودون اليوم في دمشق سيدة اسمها آنا ليستر وشخص آخر هو الرئيس. اسمه غونتر. الاثنان يتحدثان ويقرآن بالعربية. غونتر شاب في الثالثة والثلاثين من عمره. وهو يحب الشرب. العرق خاصة. بعد أن جرب العرق لم يعد يذوق البيرة. حجز في فندق الأوريان غرفتين متجاورتين، بينهما

باب مشترك. سفر باب الأولى من الداخل. وغيّر قفل الباب الثاني بقفل جديد كان قد جلبه معه. وهو يحمل المفتاح معه دائماً. ويقول إنه يخشى أن يلعب الخدم بأجهزته الغالية والدقيقة. وهو غير مهتم بزميلته آنا التي يسمونها الليدي دكتور. أقصد من ناحية كونها امرأة. ولكنه كل يوم ينهي سهرته مع امرأة جديدة يأخذها إلى غرفته في الفندق. وقد طلب الباشا من جماعة الفندق عدم إزعاجه من هذه الناحية. لا أحد يعرف متى يستيقظ. يظل في غرفته طوال النهار إن لم يكن هناك شغل خارج المدينة. وفي المساء ينصرف إلى الشرب واللهو.

— وما هو الشغل الذي يشتغله خارج المدينة؟

* يقولون إنهم يستطلعون إمكانية إقامة محطة الإذاعة هنا حول دمشق، طالما أنه لم يوافق لهم على إقامتها في المدينة المنورة. هذا أفضل من إعادة الأجهزة إلى ألمانيا مرة أخرى. يمكن أن تكون محطة للألمان فقط. تريدين خدمة أخرى؟

— مستعجل؟

* أنا في خدمتك. مهمتي هي أن أسهّل لك عملك وأوفر لك طلباتك. هل تريدين شيئاً؟

— كيف ستؤمن اللقاء معهم؟ يجب أن يبدو طبيعياً وغير مفتعل.

* ماذا تقترحين؟

— أنت تلتقي بهم؟

* أنا المكلف بمرافقتهم لأنني أتقن اللغة الألمانية.

— وأين تعلمتها؟

* في ألمانيا. أرسلت دورة لمدة سنة. أستطيع التفاهم معهم.

تطلعت إليه باسمة: ما رأيك أن أكون زوجتك؟

فوجئ: زوجتي؟

— أقصد أن تقدمني لهم على أنني زوجتك. هل يعرفون أنك متزوج؟ ليست مشكلة. هم يعرفون أن رجالنا يتزوجون أكثر من امرأة.

* لا يا سيدتي. أنا غير متزوج أصلاً. وهم يعرفون ذلك.

— خطيبتك إذن.

* ولماذا الإيحاء بالارتباط؟ خطيبة أو زوجة؟

— ألم يبلغوك أننا سنلتقي بهم بهذه الصيغة؟

* لا. ولا أرى ضرورة لهذه الصيغة. إفعلي ما جئت تفعلينه دون أن تزجي بي في الأمر.

— دعني أشرح لك الأمر. قد تكون المرأة التي هي ملك للآخر مثيرة للشهية أكثر من المرأة غير المرتبطة. وإذا أحس الرجل أنه قد تغلب عليك، وأنت الشاب الوسيم، وانتزع منك خطيبتك، أو جرّها إلى خيانتك فإنه سيشعر بانتصار كبير. ستكون بالنسبة له مغامرة مثيرة.

إذن هي تريدني أن أعرف لم هي هنا.
* آسف.
— ماذا؟
* حتى لو كان ارتباطي بك ادعاء وتظاهراً لن أسمح له بذلك. لا أريد أن ألعب دور الزوج أو الخطيب المخدوع. آسف. لا أحب أن أبدو مخدوعاً ولو في الظاهر.
— لا تيبّس رأسك. ماذا قلت لي اسمك؟
* عبد السلام. الملازم عبد السلام.
— وماذا لو كان ذلك أمراً من القيادة لضرورة العمل يا ملازم عبد السلام؟
* أرجوك. إفهميني. هؤلاء الألمان أصلاً لا يروننا بشراً. لا أريد أن يحسوا أنهم قادرون حتى على انتزاع نسائنا منا. لماذا لا تلتقين بهم بصفة أخرى؟
— مثلاً؟
* لا أعرف. خبيرة. خبيرة إذاعة. تكونين زميلة. ويكون هناك مبرر للإلفة بينكما دون أن تركّبا لي قرنين.
— وماذا لو حدثني في شؤون فنية لا أفهم بها؟
* إسمحي لي أن أنصرف الآن. أنا محرج جداً. لم أكن أتصور أنني سأضطر لشيء من هذا. قد لا يكون ضرورياً أن أكون في السهرة أصلاً. مهمتي هي أن أؤمن لك طلباتك. وليست مرافقتك.
— ألا تحب أن ترافقني؟

وابتسمت له مشجعة.

اضطرب مرة أخرى. وبنوع من المكابرة التي تساعده على التماسك قال: لا.

— لا؟ لا تحب أن ترافقني؟

* لا. لا أحب.

— لماذا؟

* لا أعرف. لا أحب. وكفى. هل لو قلت لك أحب، كنت ستسأليني لماذا أيضاً؟

— هذه لا تحتاج إلى سؤال. جوابها معروف. لأنني جميلة. ظريفة. جذابة. شهية. يعني. أشياء من هذا القبيل. أما «لا» فتعني عكس ذلك تماماً. هل أنا عكس ذلك؟

* أرجوك. أوقفي هذا الحديث.

— كما تشاء. سأنتظرك في المساء.

وخرج.

— ٤ —

يجب أن يعود إليها في المساء. ولكنه الآن مبلبل. مبلبل إلى درجة أنه لم يهتم أن يراها جذابة وجميلة كما وصفت نفسها.

توجه إلى إبراهيم. إنتزعه من بين كتبه وذهب به إلى الغوطة.

— بين الشجر أحس أنني أستطيع التفكير بشكل

أوضح.

* ألا تقول لي ما الذي يشغلك؟

وحكى له. واسترسل كأنه يحكي لنفسه: ما لي وللشغل مع النساء؟ أنا شاب. وضابط. مهمتي القتال. وإذا كانت المرافقة فلحماية الباشا أو أي ضابط كبير. هذا مثل القتال. أما أن يزجوا بي بين هؤلاء النساء فهذا ما لم أكن أتوقعه.

* ألا ترافق الليدي دكتور؟

— هذه مهمة لا تمس شرفي. كما أنني قد أصل إلى شيء معها. النساء لمتعتي ولهوي. ولسن لتوجيه الأوامر إلي، أو لتسهيل علاقاتهن بغيري. أتظاهر بأني زوج أو خطيب مخدوع؟ هذه كبيرة. يجب أن يشغلوا قوادين بدل الضباط.

ابتسم له إبراهيم مهدئاً: أنا لا أرى في الأمر ما يهين.

— إذهب بدلاً عني إذن.

* يا ليت. ولكنني لا أعرف الألمانية. وسيشكّون في دخول شاب غريب مع امرأة غريبة إلى أماكن تواجدهم. أظن أن هذه المرأة ذكية وتعرف ماذا تفعل.

* تعرف ماذا تفعل؟ يا رجل. هذه ستنام معه.

— وماذا يعني؟ شغلها.

* شغلها؟ يعني شرموطة؟

— لا. أنا أعرف أن الشرموطة هي التي تنام مع رجل

لقاء المال. هذه تؤدي خدمة وطنية.

تطلع إليه عبد السلام بحدة: وطنية؟ وطنية وتعريص؟

* لماذا تستخدم هذه الأسماء؟ إسمع. أنا لا أفهم كثيراً في المسائل العسكرية. ولكن لدي بعض التعابير من قراءاتي. حين تكون في المعركة وأنت على المدفع هل تتدخل في شغل من يحمل الرشاش أو من يطبخ الطعام للعسكر؟ لكل شغله. ولكن الشغل كله متداخل. والآن فكر في الأمر على هذا النحو. أنت تشتغل شغلك. وهي تشتغل شغلها. والمهم التوصل إلى النتيجة. إذا استطعتما أن تكشفا أن هؤلاء الألمان يعملون ضدنا فعلاً تكونان قد انتصرتما في المعركة. ولو أنك دعوتني إلى كأس عرق لخرجت بأفكار عظيمة تفيدك أكثر.

— ليس هذا وقت العرق. إنني أتصبب عرقاً منذ الآن. ويجب أن أكون بكامل قواي العقلية لهذه المهمة.

* هل نهال حلوة؟

— حلوة؟

* يعني. إذا كانت حلوة تهون المسألة. ربما نالك المرق إن فاتك اللحم. هذا أفضل من أن تخرج من المولد بلا حمص.

— أنت مثل الباشوات. عقلك بين رجليك. ألا تستطيع أن تفكر في شيء آخر؟

* ولماذا أفكر في شيء آخر؟ الأمر من أوله إلى آخره

في هذا الشيء.

— وهذا ما يخنقني.

* فإذن بخاطرك. سأتركك تفكر، وتتهيأ.

— أتهيأ لماذا؟

ضحك إبراهيم وهو يبتعد: للبس القرون.

وهمّ عبد السلام بقذفه بحجر: يلعن أبوك عرص ابن عرص.

وركض إبراهيم ضاحكاً.

ولكن كان في كلامه ما يقنع. غير أن الأمر الذي كان يعذبه هو كيف سيلتقي مع غونتر بعد أن يتظاهر أنه تغافل عن خطيبته التي ستذهب معه إلى غرفته.

ولم تكن نهال أقل منه انشغالاً وبلبلة. بعد الغداء تمددت في فراشها وراحت تفكر. وحين استيقظت بعد قيلولتها كان لا يزال يشغل أفكارها. هذا الشاب جميل. وذو كبرياء. ليته يتفهم الأمر ويتعاون. إنه مناسب جداً. مناسب لأنه لا يضعف أمام النساء مثل غيره. وطوال الوقت الذي قضاه في محادثتها لم تبدر عنه نظرة توحي أنه منشغل بكونه إلى جانب امرأة جميلة. وليتها تجد وسيلة لدخول غرفة ذلك الغونتر لا تسيء إليها في نظر عبد السلام.

ليست مراهقة صغيرة، أو غرة لكي تقع في الحب من النظرة الأولى. ولكنها تريد أن تكسب احترام هذا

الشاب.

ورن جرس الهاتف. رفعت السماعة فجاءها صوته: مدام نهال، أنا الملازم...

وقاطعته بحماس: أهلاً عبد السلام. أنا نازلة.

وأسرعت بارتداء ملابسها والنزول إلى صالون الفندق. وكانوا قد هيأوا لها ركناً خاصاً تجلس فيه، وخدمة ممتازة بناء على توصيات القيادات العليا.

اقتربت من عبد السلام باسمة وهي تمد يدها له: خفت أن لا ترجع.

— لدي أوامري. ولا أستطيع إلا أن أعود.

جلست وأشارت له أن يجلس إلى جانبها: إسمع يا عبد السلام. ربما كان من الممكن تنفيذ المهمة دون أن أذهب وحدي معه إلى غرفته. هل نستطيع أن نجعله يدعونا كلنا إلى غرفته لنشرب كأساً. حين أصير في الغرفة قد أستطيع أن أتصرف.

— لا أظن. لا يسمح لأحد بدخول غرفته إلا المرأة التي يصطحبها معه في آخر الليل. ولا يخرج من الغرفة إلا بعد أن يُخرجها.

* دعنا نذهب وسنرى ما يمكن فعله.

نهضا، فالتفتت إليه: ماذا قررت؟ خطيبتك أم زوجتك؟

لم يجب.

* طيب. ما رأيك أن أكون أختك؟

صرخ: لا. أختي لا. أجلب له أختي؟ كيف سيفهمها؟ لا. خطيبتي. خطيبتي وتحب أن تلتقي بالألمان طالما أنها في زيارة لدمشق. سيسألونك كثيراً عن بيروت.

* لماذا لا تخطب من حلب؟

وضحكا: طيب. من حلب.

وخرجا معاً فتأبطت ذراعه: يجب أن تتعود على إلفة خطيبتك.

* ولكن كيف تأتي خطيبتي من حلب إلى الشام وحدها؟

* من قال لك إنني وحدي. معي أبي. إسماعيل بيك. إنه هنا منذ الأمس. وقد حدثني بالهاتف. سينتظرنا في الخارج بعربته. وسينسحب من السهرة ويتركنا، على أن تعيدني أنت.

— ٥ —

دخلوا البار وجلسوا على طاولة. كان غونتر وآنا على البار. وانتبهت إليهم آنا فلكزت غونتر: أنظر. هذا عبد السلام ومعه ضيوف.

تطلع غونتر ففوجئ بالصبية الجميلة: من هذه الصبية؟

— أعجبتك؟

* رائعة.

— لا أعرف من هي. لم أرها من قبل. تصرف. واستخدم براعاتك.

* تعالي نتعرف.
ولم تلتفت نهال حين همس لها عبد السلام بأنهما يقتربان.
وأطلق غونتر صيحة دهشة مفتعلة: عبد السلام. أنت هنا؟ لماذا لا تشاركنا؟
ونهض إسماعيل وعبد السلام، الذي قام بالسلام والتعريف. ولم ينس لقب الليدي دكتور لآنا ليستر، و«خطيبتي» لنهال.
— خطيبتك؟ ذوقك رائع. خطيبتك جميلة.
ولكزه عبد السلام محذراً بهمس: معها أبوها.
ورد غونتر بصوت عال وضاحك: وماذا يعني أنه أبوها؟ ألا يعرف أن ابنته جميلة؟
فتدخل إسماعيل بوقار: أهلاً هير غونتر. نحن لم نتعود هذا الكلام العلني.
وتطلع بتمثيل متقن إلى عبد السلام: أصحابك سكرانون يا عبد السلام.
وهمّ بالنهوض.
فأمسكت به آنا: لا تغضب مسيو إسماعيل. غونتر يحب المزاح.
فأصر إسماعيل: أنا لا أحب مزاح السكرانين. هيا بنا.
وهمت نهال بالوقوف طائعة لأمر أبيها. ولكن غونتر، الذي أحس بالحرج، أمسك به: معذرة مسيو إسماعيل.

لم أقصد إزعاجكم. إذا أحببت نحن نترك الطاولة. أنا لست سكراناً. ولم أشرب إلا كأساً واحداً. ولكنني اعتدت على ممازحة عبد السلام. ونحن معتادون على تقديم المجاملات للسيدات بهذه الطريقة. معذرة.

وقامت آنا: نحن سننسحب.

وتطلع عبد السلام إلى إسماعيل راجياً: عمي. الجماعة لم يقصدوا الإساءة. هؤلاء أصحابي. إنهم بعثة اشنو تزنجن الإذاعية. الجماعة الذين أشتغل معهم. وهم ضيوفنا في البلد.

وبنخوة بدوية قال إسماعيل: وضيوفنا على الطاولة أيضاً. لا يجوز أن ينسحب أحد عن طاولتنا بعد أن جاء. ولكن مع المحافظة على الأدب. تفضلوا. تفضلي يا ليدي دكتور.

ولم تكن هناك حاجة إلى الإلحاح. جلس الجميع. وجاء الشراب. وراح إسماعيل يتصرف على أنه المضيف.

ومع الاحتفاظ بالأدب في الحديث لم تضيّع نهال الكثير من الوقت. فراحت ترسل نظرات خاصة إلى غونتر، متظاهرة أنها تهرّب هذه النظرات خفية عن خطيبها وأبيها. ولم تفت غونتر الخبير بالنساء هذه النظرات. وكان سعيداً أن الشرب قد خفف من مراقبة الخطيب والأب اللذين صارا منشغلين بآنا، والتي كان ممتناً لها أن تبسطت معهما بشكل مقصود، لكي تتيح له الفرصة

مع هذه الحسناء. لقد كان اتفاقاً دون كلام بينهما أن لا يتدخل أحدهما في شغل الآخر أو في علاقاته. وبعد الأيام التي قضياها في دمشق صارا متفاهمين أكثر. وصارت تنظر إلى مغامراته النسائية على أنها ترويح ضروري عن النفس لشخص يقوم بمهمة صعبة في بلاد غريبة. وهما متفاهمان بصمت أنها هي أيضاً قد تكون لها علاقاتها الشخصية أو علاقات أخرى اتفقا على تسميتها ضرورات الشغل.

قبيل منتصف الليل اتضح أثر الشراب على غونتر. وصارت ضحكات نهال أكثر حرية وعلواً. وهي ضحكات منسجمة ومتجاوبة مع كل ما يقوله غونتر، وخاصة كلماته العربية غير المتقنة. وساعد الضحك على تبرير الإلفة. وتظاهر إسماعيل بالتعب والسكر أيضاً.

وبغتة ظهر رجل بانت عليه آثار الشرب. تلفت حوله وفوجئ بإسماعيل الذي نهض لاستقباله: أهلاً حازم بيك.

والتفت إلى الآخرين: جاءني رجل في مثل سني أستطيع أن أتفاهم معه وأنهي السهرة بصحبته.

ونادى النادل ليجلب له الحساب. وتطلع إلى عبد السلام: أنتم شباب لا أستطيع مجاراتكم. وبشيء من الحرج قال عبد لسلام: تذهب كلنا.

فرد إسماعيل: لا. خلكم مبسوطين. تستطيعون البقاء.

ولكن لا تتأخروا. أوصل نهال إلى الفندق يا عبد السلام.

— حاضر عمي.

وتأبط إسماعيل ذراع حازم وخرج به.

ولم يفت غونتر وآنا الارتباك الذي ساد. سأل غونتر: من هذا الحازم؟ فأجابته نهال: أحد أقارب أبي. رجل غليظ. الحمد لله أن أبي أخذه. وإلا لنزع علينا السهرة.

وضحك عبد السلام باسترخاء أعجب نهال: نهال لا تحبه. أما أنا فأحبه. رجل يعجبني.

تطلعت إليه نهال بما يشبه اللوم أو العتاب: رح أكمل السهرة معه إذن.

إبتسم عبد السلام: وهل هناك من يترك خطيبته ليسهر مع أي رجل مهما كان ظريفاً؟

وضحكت آنا موافقة. ولكن غونتر خشي أن يعني كلام عبد السلام أنه لن يتهاون أو يتيح له الفرصة مع نهال. وتطلع إلى آنا يطلب مساعدتها، فاقترحت تغيير المكان. ووافقت نهال مدعية أنها تخاف أن يعود والدها ومعه ذلك الرجل الغليظ. وأضاف غونتر مقترحاً: حبذا لو كان الانتقال إلى مكان للرقص. ما رأيكم بفندق الأوريان؟ فيه صالة للرقص.

واعترضت نهال: أنا لا أعرف الرقص.

قال غونتر ضاحكاً: معقول؟ بهذا الجمال وهذا الانشراح في شخصيتك ولا تعرفين الرقص؟ الحق عليك يا عبد

السلام. كان يجب أن تعلمها. قوموا. أنا سأعلمك.

فقال عبد السلام: وأنا لا أعرف الرقص أيضاً.

فرد غونتر: تعلمك آنا. أليس كذلك يا آنا؟

— طبعاً.

وخرج الجميع.

وما كادوا يدخلون إلى صالة الرقص حتى جاء نادل يطلب الملازم عبد السلام للرد على مكالمة هاتفية.

— مكالمة في هذا الوقت من الليل؟

أجابها عبد السلام: ألله يستر.

وخرج.

واغتنمها غونتر فرصة فوضع يده على خصر نهال وشدها متحسساً: نبدأ تعليم الرقص.

— ألا ننتظر عبد السلام؟

* تنتظره آنا. كل يتفرغ لتلميذه.

وسحبها فسارت معه مطواعة. وجلست آنا على المائدة. وراحت تراقب مداعبات غونتر لظهر نهال، وشدّ جسمها إليه بحجة الرقص.

وعاد عبد السلام فانفلتت نهال من يدي غونتر. وجاءا إليه.

قالت نهال: خير؟

أجاب عبد السلام مهموماً: الباشا يريدني الآن. قلبوا الدنيا بحثاً عني. قال لي عصمت بيك إنهم لم يتركوا

مكاناً إلا وبحثوا عني فيه.

— وماذا يريد منك الباشا الآن؟

* من يعرف؟ يجب أن أذهب فوراً.

ثم تطلع إلى آنا: ستوصلون نهال إلى فندق خوام. أليس كذلك؟

رد غونتر بحماس: طبعاً. أنا أوصلها.

قالت نهال بحرج: أوصلني أنت الآن.

فقال لها معتذراً: آسف يا حبيبتي. لا أستطيع إيصالك. لا أستطيع أن أتأخر على الباشا. لا أعرف ما الذي يريده بهذا الإلحاح والاستعجال. والباشا لا يرحم كما تعرفون.

وخرج عبد السلام بسرعة.

وشدها غونتر.

ومع أن كل ما جرى قد تم الاتفاق عليه مع عبد السلام، إلا أن كلمة يا حبيبتي التي قالها لها، ومع أنها يُفترض أن تكون تمثيلاً، قد لمست شيئاً مبهماً فيها جعلها تحس بالحرج. فلم تنظر إليه مودعة بأسف وحرج، كما كان يُفترض أن تمثل. تمنت لو أنها تنسحب الآن من هذه اللعبة. وأن لا يعرف عبد السلام أنه قد تركها لتنام مع هذا الرجل.

ولكن فات أوان الانسحاب.

بقية القصة صارت واضحة. كل طرف أكمل تمثيله. ادعت آنا أنها متعبة. وأوصت غونتر بالعناية بنهال

وإيصالها إلى فندقها. ثم انسحبت. واقترح غونتر أن يأخذا كأساً أخيراً في غرفته. فهو يحتفظ فيها بليتر من عرق ينئي التركي اللذيذ. وادعت نهال أنها لا تستطيع التأخر كثيراً. فأمر غونتر بحجز عربة وإيقافها بباب الفندق بالانتظار. وذهبا إلى الغرفة.

أصرت نهال على المزيد من الشرب قبل أن تسمح له بالتمادي في مداعبتها. وتمنعت قليلاً لأنها شرقية وغير معتادة على هذه الأمور، مما زاد في تلهفه. وادعت أيضاً أنها تخاف أن يشك أبوها أو خطيبها بالأمر. فطمأنها إلى أن أباها يغط الآن في نومه. وخطيبها مشغول مع الباشا. وهو يحبها ويشتهيها أكثر من أية امرأة شرقية صادفها في رحلته هذه. وغافلته فسكبت قليلاً من الملح في كأس العرق. واقترحت أن يشربا نخباً فكان نخب جمالها هو الأول. وشرب الكأس دفعة واحدة. فتطوعت لإعداد الكأس الثاني. وسكبت الملح أيضاً. وتغاضت عن يديه وهما تحيطان بها وتمسكان بصدرها فيما كانت تهيئ الكأس. وناولته العرق فشرب نصف الكأس دفعة واحدة. وأبقى الكأس في يده ليسحبها بيده الثانية نحو الفراش. فجلست على حافة السرير. وجلس قربها، وهو يزداد سكراً بتأثير الملح في العرق. وسمحت له، مع قليل من التمنع، أن يجردها من ثيابها بالتدريج، وأن يبدي إعجابه الشبق بصدرها

وتفاصيل جسدها. وهي تقول له إنه سكران. وإنه قد لا يستطيع إيصالها إذا تأخرا. وحذرته أنها لا بد أن تكون في فندقها صباحاً، كي لا يشك أبوها أو خطيبها. ولكنها استسلمت له وتمددت عارية على الفراش وهي ترد اللحاف متظاهرة بالخجل.

وبعد انتهاء العناق المسعور غمغم، وهو يرتخي لينام: لست عذراء كما خفت أن تكوني. ولم تردّ تظاهراً بالنوم أو بمزيد من الخجل. بعد قليل قامت وارتدت ملابسها، وهزته بلطف: غونتر. ألن توصلني إلى الفندق؟

ولكنه كان يغط في نوم عميق.

وحين تأكدت من أنه قد غفا نهضت ودخلت الغرفة الجانبية. ثم خرجت بعد نصف ساعة إلى العربة التي أمر غونتر بحجزها. وتوجهت إلى فندق خوام.

وكان عبد السلام وإسماعيل ينتظرانها: لم تناما حتى الآن؟ كان يمكن أن أبقى حتى الصباح.

قال إسماعيل: لم نستطع أن ننام. ماذا كانت النتيجة؟

وقال عبد السلام باندفاع: ماذا فعل؟ أقصد ماذا فعلت؟

ولم تستطع أن تنظر إليه. ردت على إسماعيل: عنده جهاز تنصت. جربته بنفسي وهو نائم. الجهاز يلتقط مكالمات الباشا كلها. هؤلاء يتجسسون عليه شخصياً.

نهض إسماعيل: يجب أن ندهم الغرفة قبل أن يصحو من النوم.

فقالت نهال: لا. ليس الآن. يجب أن لا يعرف أنني وعبد السلام قد خدعناه.

فرد عبد السلام بحدة: خائفة على مشاعره؟

ومرة أخرى لم تتطلع إليه. أكملت كلامها مع إسماعيل: سينكشف عبد السلام. وأنكشف أنا أيضاً. قد تكون لدينا مهمات أخرى مع الألمان. سيعرفون أنني وعبد السلام نشتغل معكم. الأفضل أن تدهموا الغرفة فيما بعد.

— ٦ —

وبالفعل ذهمت الغرفة مساء اليوم الثاني. وصودرت الأجهزة. كما دُهمت غرف الآخرين وبينها غرفة آنا ليستر ذاتها. وتم استدعاء غونتر ورفاقه. واعتبروا موقوفين. واحتجت القنصلية الألمانية على ذلك. وقالت إن هناك سوء فهم. ولكن جمال باشا أصدر أمره بإخراجهم من البلاد. وعاندت القيادة الألمانية. وأصرت على إكمال مهمة البعثة. وتم التوصل إلى حل وسط. البعثة تذهب إلى اليمن حيث القيادة الألمانية في حاجة إليها هناك. واستطاعت آنا أن تثبت أن لا علاقة لها بما يفعله غونتر، وأنها قد جاءت مترجمة فقط. وقبلت حجتها لأنه لم يُعثر على شيء في غرفتها. واستأذنت أن تبقى فترة وجيزة قبل أن تعود إلى بلدها. فهي لا تستطيع تحمل مشقات السفر إلى اليمن. وبعد مقابلة مع جمال باشا شخصياً استطاعت إقناعه

بالأمر. ولم تحتج إلى بذل الكثير من الجهود لتحقيق ذلك. لقد اكتفت بالقول: لم أعد أطيق فراقك يا باشا. عمري لم أعرف رجلاً ممتعاً مثلك. أرجوك دعني إلى جانبك أطول فترة ممكنة.

وأوصى عبد السلام بأن يظل مرافقاً لها وأن يكون حذراً ويقظاً.

وحين سألت عبد السلام عن خطيبته، قال لها إنها سافرت مع أبيها. فأبوها تاجر كبير. وهو مصر على حسم الأمر معه. إن كان يريد الزواج فليحدد موعداً محدداً. ولكنه استطاع التملص. وامتدحتها له آنا راجية له السعادة، الأمر الذي لم يقبله بارتياح. كان يتساءل كيف تنظر آنا إلى شخص اجتذبت منه خطيبته. ولعلها إذ تعتبره ملتزماً بأخرى لن تتيح المجال له، وتقضي على كل أمل بتحقق اللقاء الذي يتمناه معها. فقال لها إنه لا يفكر في الزواج الآن. وإنه يفضل الحرية. كما أنه يكتشف أن هذه البنت ليست من النوع الذي يلائمه.

وصار على نهال أن تعود إلى بيروت. سبقها إسماعيل بيك. وأجلت سفرها يوماً ثانياً على أمل أن يأتي عبد السلام لوداعها. ولكنه لم يظهر. ذهبت إلى مقر الباشا، الذي استقبلها بحفاوة مؤكداً على وجوب قدومها في زيارة خاصة إلى دمشق لا علاقة لها بالشغل: لقد أرسلت دعوة لكاتبتنا خالدة أديب لزيارة دمشق.

سأعرفك بها. وستجلبك معها من بيروت وهي قادمة من اسطمبول.

فأجابت: أنا دائماً تحت أمرك يا باشا.

— لقد قمت بعمل عظيم إذ كشفت هؤلاء الكلاب الألمان. والله لا يختلفون عن الإنكليز والفرنساوية في شيء. بل هم أرذل. تصوري أنهم لم يرسلوا طائراتهم لمساندتنا وقت الحملة على السويس في شباط. وخطر لي أن طيرانهم مشغول بالحرب في أوروبا. ولكن بعد شهرين من انتهاء الحملة تأتي طائراتهم وتقصف بور سعيد والقاهرة. وفي أول نيسان تصل فرقة الطيران الألمانية إلى بئر السبع. لماذا لم يرسلوها من قبل؟ لأنهم يريدون تفشيلي. لو كانت هناك طيارتان تحومان فوق السفن البريطانية التي تقصفنا من البحر لتمكنا من عبور القناة.

* أتمنى أن يغنينا الله عنهم بفضل قيادتك الحكيمة يا باشا. أستأذن.

— هل تريدين شيئاً من هنا؟

* نعم. أريد أن أرى الملازم عبد السلام.

— الذي رافقك في المهمة؟ وما الذي تريدينه منه؟

وفوجئت بنفسها تكذب بلا مبرر: تركت معه بعض الأغراض. أريد استعادتها.

* موجود. وسيظل برفقة الليدي دكتور إلى حين

سفرها.

ونادى نصرت. وأمره بالبحث عن عبد السلام. وتأمين لقائه بنهال خانم. فخرجت بعد أن ودعها الباشا مصافحاً وشاداً على يدها بحرارة.

— ٧ —

حين خرجت من السرايا برفقة عبد السلام التفت إليها قائلاً: لم أشأ أن أحرجك أمام نصرت بيك. ما هي الأغراض التي تركتها معي؟

توقفت وسط الطريق وتطلعت إليه: نسيت عندك احترامي لنفسي.

حول نظره عنها لكي لا يظل مواجهاً عينيها. ومشى فتبعته. بعد قليل من الصمت قال لها دون أن يتطلع إليها: ولكنها ليست المرة الأولى التي تفعلينها.

— صحيح.

وصدمته صراحتها. فتحصن بصمته من جديد. وسارت معه كالطفلة المذنبة.

— ألا تقول شيئاً؟

تنهد: لماذا هذه المرة تتفقدين احترامك لنفسك؟

— بسبب وجودك أنت.

كيف يتعامل مع هذه الصراحة المربكة؟

— تعال نجلس في بهو الفندق ونأخذ فنجان قهوة. نسيت أننا خطيبان؟

* أليس المفروض أن لا يكتشف الألمان أننا وراء كشف الشبكة؟

— ألم يصدر الأمر بترحيلهم؟

* ظلت الليدي دكتور. وسأبقى مرافقاً لها.

— تخاف منها؟

* لا. ولكن يجب أن لا تكشفني؟

— تحبها؟

* لا. أليس في ذهنك إلا هذه المسائل؟

— لا تكن قاسياً علي. في ذهني مليون مسألة. ولن يكون غريباً حتى عليهم أن يروا الخطيبين يشربان القهوة.

* ولكنني قلت لها إنك قد سافرت.

ووقف. لم يكن مرتاحاً لمتابعة الحديث. ليته لم يضطر لهذه المواجهة. المهمة انتهت. ماذا تريد منه هذه المرأة؟ لماذا لا تذهب إلى بيروت وتتركه لنفسه؟

— ما بك؟

* لا أعرف. أتمنى لو أنني الآن وحدي.

— أزعجك؟ تريد أن تتخلص مني؟

* أريد أن أكون وحدي... الحقيقة أن لي صديقاً هنا أريد أن أراه.

— كما تشاء. أودعك هنا.

ومدت يدها: على أن لا نكون أعداء.

* كما تشائين.

وشد على يدها دون أن ينظر إليها. وفوجئت أنها تريد أن تبكي: عبد السلام.

وتهدج صوتها. فتطلع إليها مستغرباً. تابعت، وعيناها مليئتان بالدموع دون رغبة منها في التوقف عن البكاء أمامه: أنا لست كما تظن. أنا لست رخيصة. لماذا لا تفهموني؟ أنا...

ولم تعرف كيف تكمل كلامها. توقفت وتنهدت. مسحت دموعها. ثم أشاحت بوجهها عنه: كنت أتمنى أن أنال احترامك.

وقفلت عائدة. ولم يحاول أن يلحق بها. هو فعلاً لا يفهمها. ولكنه لا يفهم نفسه أيضاً. لقد سأل نفسه إن كان يحتقرها، فكان الجواب بالنفي. فيها شيء يستحق التقدير. وهي جميلة. ولكنه لم يستطع أن يحترمها. وفي النهاية ما الذي يربطه بها؟ هل يتمنى أن تسافر؟ لا. ليتها تبقى. هل يريد أن يلتقي بها مرة أخرى؟ ليس واثقاً. إنه لا يستطيع تقبل ما فعلته. لكنه لا يستطيع أن يدينها. كيف يقبل رفقة آنا ليستر حتى وهو يعرف أن الباشا ينام معها؟ هذه غريبة. أجنبية. بينما نهال بنت عرب. وماذا يعني؟ بنات العرب كلهن شريفات؟ ولكن نهال شيء آخر. كأنها عرضه.

العمى. من أين نبقت هذه الكلمة؟ عرضه؟ ألأنه لعب

معها لعبة الخطيب والخطيبة؟ لا. قبل الاقتراح، ومنذ أن كلف بمرافقة سيدة عربية قادمة من بيروت بمهمة وهو يحس أنه مسؤول عنها. مسؤول عنها؟ عن إيصالها إلى فراش غونتر؟ ما هذه الدوّامة؟

لم يكن راغباً في رؤية أحد. ذهب إلى الغوطة وظل يتمشى فيها حتى المساء. ولم يستطع العودة إلى غرفته. قرر أن يذهب لشرب كأس.

الفصل السادس

— ١ —

كان أفشالوم وسارة وزيفي وراب يمسحون زجاج المختبر من الخارج. لقد اشتغلوا طوال النهار. وبدأت الشمس تميل إلى الغروب. وبغتة التفتت سارة من فوق السلم الذي ترتقيه للمسح إلى زيفي وقالت له: اسبقنا إلى البيت. وهيئوا لنا العشاء. سننهي شغلنا ونلحق بك على العربة الثانية.

ألقى بالممسحة من يده، وركب الجواد سعيداً بالتخلص من هذا الشغل الذي زجته فيه. وكان أفشالوم في الجانب الآخر حين رأى زيفي يرمح على الجواد. تطلع إليه دون أن يفهم شيئاً. ثم تحدث بصوت عال لكي تسمعه سارة: إلى أين يذهب زيفي؟

— سبقنا لكي يهيئوا لنا العشاء. أليس على بيت آرونسون أن يطعموا عمالهم؟

اقترب منها، والممسحة في يده: أنا انتهيت.

— ساعدني من عندك. إمسح القسم السفلي لكي ننتهي بسرعة.

وقف يشتغل. نظرت إليه باسمة من أعلى السلم: أين تعلمت المسح والتنظيف؟

* وهل يحتاج الأمر إلى تعليم؟

— طبعاً. أنتم ترون ذلك شغل نساء.

* وما هو شغل الرجال إذن؟

— المغامرات. وضحكت: حدثني عن رحلتك الأولى إلى مصر.

* ذهبت بجواز سفر روسي مزور على السفينة دي موان. وكان معي عنوان شاب مسيحي في مصر اسمه شارل بوتاغي. كان والده مساعد القنصل الإنكليزي في حيفا. وشارل الآن مترجم في مخابرات البحرية الإنكليزية. جمعني بالملازم شارل ليونار. يسمونه وولي. فاقترحت عليه الثورة والتجسس على الأتراك. وقبل وولي فكرة التجسس ولم تعجبه فكرة الثورة. وتم الاتفاق على أن نعطي المعلومات لسفينة فرنسية تقوم برحلات بين بور سعيد وصور. ورتب الأمر بحيث تمر بشاطئنا لكي نعطيها المعلومات التي لدينا. واستدعى ضابطاً شاباً اسمه ولدون. كلفه بمرافقة كل رحلة تقوم بها السفينة لكي يتسلم رسائلنا.

ولماذا توقفت هذه السفينة عن المرور؟

هذا ما أردت معرفته. لذلك ذهبت في مغامرتي الثانية التي انتهت بي إلى السجن.

ألقت بالممسحة من يدها: أكمل هنا بينما أستحم.

ونزلت، ثم التفتت إلى راب: تستطيع أن تذهب أنت أيضاً.

ترك راب العمل. وذهب يغسل يديه من ماء البئر، بينما هز أفشالوم رأسه واستأنف العمل.

وقبل أن تدخل قالت لأفشالوم: حين تنتهي أدخل واستحم أيضاً.

لم يرد. أحس بشيء من عدم الارتياح وذهنه يقفز إلى الحمام والعري. تابع عمله بصمت. وحين انتهى كان الظلام قد بدأ يخيم. وغيوم سوداء تجتاح الأفق الغربي.

ألقى بالممسحة وتقدم نحو المختبر. وعند الباب تردد. هي في الداخل تستحم. يفضِّل أن ينتظر في الخارج. ربما كانت قد تركت باب الحمام مفتوحاً لأنها وحدها. وربما كانت لم ترتد ملابسها بعد. ربما كانت تتزين.

جلس على الدرج وأسند رأسه إلى تمثال الأسد الصخري الذي يزين المدخل.

أفشالوم !

جاءه صوتها من الداخل.

هل انتهيتِ؟

* انتهيت. لماذا لم تدخل؟

نهض وفتح الباب: لماذا لم تشعلي الضوء؟

الرؤية لا تزال ممكنة. رآها واقفة قريباً من النافذة وعليها رداء رقيق يكشف خيال جسدها.

تردد وأراد أن يرجع.

— لم تنهي ارتداء ملابسك بعد؟

تطلعت إليه: خجلان؟ أدخل.

واقتربت منه.

كان جسدها الآن واضحاً. والغلالة الرقيقة تزيد في وهج شهوانيته.

أخيراً نحن وحدنا.

ظل ينظر إليها عاجزاً عن الكلام وهي تقترب منه. أحس بقواه تخونه. وود لو أنه كان في مكان آخر. وضعت يدها على كتفه، فعبأته رائحة الجسد الخارج لتوه من الحمام. فهم بسرعة لماذا أرسلت زيفي. ولماذا أصرت على المجيء إلى عتليت أولاً. فأحس أنه يقع في مصيدة. مصيدة ساحرة شهية. لكنه مع ذلك أحس بالضيق. شدته من كتفه إليها قليلاً. ووقفت على أطراف أصابعها لكي تصل إلى شفتيه. حين لامست شفتاها شفتيه أجفل.

— ما بك؟

انتبه إلى أن أصابعه ترتجف وكذلك ركبتاه.

فتحت زر قميصه. هل ستستحم أولاً؟

دعينا نذهب.

ابتسمت وهي تمنع نفسها من الضحك. وألقت بالغلالة عن جسدها. فأشاح بوجهه كأن ضوءاً ساطعاً فاجأ عينيه.

* سارة. أرجوك.

ما بك؟

وأدار ظهره يريد الخروج. فانتفضت غاضبة: أفشالوم !

* سارة. أنت لا تفهمين موقفي.

ألا تحبني؟

* هناك شيء غير الحب. سارة. أرجوك.

وخرج راكضاً معبأً بالنقمة على نفسه.

ولم يبتعد عن المنزل كثيراً. وقف قرب أول شجرة واستند إليها: لماذا؟ لماذا وصل الأمر إلى هذا الحد؟ لماذا عرضت نفسها عليه؟ لماذا اضطر إلى الرفض؟ إنه يريدها. ويريد أية امرأة تتاح. ولكن هذه الـ.. سارة كان يريد أن تسير الأمور معها على غير هذا النحو. كيف؟ لا يعرف. ربما كان يجب أن يستنفد معها الجو الشاعري أولاً. هذه امرأة تركض في الواقع الواضح الصريح. وهو يقبع في الحلم. كان يريد أن يحدث هذا بالتدريج. بشيء من الرومانسية. ببعض الجهد من قِبله. أن يبدأ بقبلة فقط، وفي الخارج. ثم بعد تجربتين من هذا النوع يمكن أن يحدث ما عرضته. وليس بهذه السرعة التي تجعله يحس الأمر مبتذلاً وبذيئاً.

خرجت وقد ارتدت ملابسها. لم تتجه إليه. بل نحو العربة: نمضي؟

تطلع إليها، وكان سعيداً أن الظلمة لا تسمح لها برؤية

وجهه: اسبقيني.

— أفشالوم !

صرخ مستنجداً: أرجوك يا سارة. إذهبي. أريد أن أظل وحدي هنا اليوم.

نزلت عن العربة واتجهت إليه: ما بك؟ لماذا أنت هكذا؟

اضطر أن يقول لها: أنت أخت آرون.

— أنا أخته ولست زوجته. لم أنت....

وأحست أن استمرار الكلام يحمل لها مزيداً من الإهانة فركبت العربة.

ووقف حائراً: يجب أن لا يتركها تذهب وحدها في هذا الليل. صبية والمنطقة مليئة بالجيش والوحوش والبدو وأولاد الحرام من كل نوع. هي مسؤولة عن نفسها وأخت رِجال وتستطيع أن تدافع عن نفسها — فمازالت تحمل المسدس على خصرها — ولكن لو حدث شيء كيف سيقول لآرون إنه تركها تذهب وحدها.

ولكن كيف يذهب معها الآن وقد حدث ما حدث؟ كيف سيقضيان هذه المسافة وحدهما؟ كم يحس أنها أكبر منه الآن. أكبر في سطوتها عليه، وأكبر لتحكمها في اللحظة، ولقدرتها على المبادرة. حتى ليحس أنها هي الرجل وهو المرأة. لو أنها أجّلت الموضوع. لو أن زيفي بقي. لو أن الله يرسل ثالثاً يشاركهما رحلة الليل. ولم يعد يستطيع الاحتمال. ركض وراء العربة منادياً: سارة.

سمعته فتوقفت. وركض إلى العربة.

— غيرت رأيك؟

دون كلام قفز إلى القسم الخلفي من العربة وجلس صامتاً.

وضربت البغل فمشى بهما.

بعد أن سارت العربة بهما مسافة من الصمت الليلي التفتت إليه: تسمعني؟

* أسمعك.

— أنا لا أخاف من الجنس. ولا أخاف من الحديث عنه.

* ألا نستطيع أن نتحدث عن شيء آخر؟

— لا. بما أن الموضوع قد طرح يجب أن نتحدث فيه لكي نقفله نهائياً أو نترك بابه مفتوحاً. أنت توحي لي بأنك محرج من آرون لأنني أخته. أما كان من المحتمل أن نتزوج؟

* الزواج شيء آخر.

— أعرف. أعرف. ولكنك لست مضطراً للزواج من كل فتاة تقبَلها أو تنام معها.

يا إلهي كم هي كبيرة . هل الزواج هو الذي كبّرها هكذا؟

* سارة أرجوك. لا تشرحي لي ذلك. أنا ذهبت إلى باريس وعاشرت نساء دون أن أتزوجهن.

— أتوقع ذلك. ولكن أنا أتحدث عني وعنك بالتحديد.

لم تحس بالمطر الخفيف الذي بدأ يهطل. وحين أرعدت الدنيا في الأفق الغامض ساعدها إجفالها من الرعد على الدخول في نفسها أكثر. ولم تستطع أن تكبح تلك الرغبة الجامحة في أن تشرح نفسها. صارت المسألة مختلفة عن اللقاء مع الجنس. لقد أرخصت نفسها بلا مبرر. وهي ليست نادمة. ولا تحس بنفسها رخيصة. لكن هو يجب أن يفهم.

اختلطت دموعها بقطرات المطر المتمهلة من شعرها إلى وجهها واختلط الرعد بغضبها. فتابعت متحدية: حين تزوجت حاييم فعلت ذلك لسببين: الأول لأن نهاية المرأة هي الزواج. والثاني لأنني كنت أريد أن أخرج من طريقك أنت ورفقة. على الأقل هكذا ظننت. وفي كافة الأحوال كان على الكبيرة أن تتزوج لكي تنزاح من طريق الصغيرة.

وأحست أن صوتها متهدج فلم تحب أن تظهر انفعالها. صمتت وهي ناقمة على نفسها. ولكنها تابعت قصتها في سرها: تزوجت وأجبرت نفسي على التأقلم والنسيان. وشغلت نفسي باكتشاف عالم الرجل الذي كان جديداً علي. في الأيام الأولى كان الجنس اكتشافاً. وكان اكتشافاً ممتعاً. كنت أكتشف جسدي وأتعرف عليه قطعة قطعة، ورغبة رغبة. تبين لي أن حياتي في المزرعة، وما كنت أفعله من ركوب الخيل والبنطلون

وحمل المسدس والكرباج، ليس إلا تغطية لهذا الجسد الذي لم أكن قادرة على قبوله والاعتراف به أو التعامل معه. وعرفت أنني كنت أكره ألتر ليفي لأنه يجبرني على الانتباه إلى جسدي. هناك في اسطمبول وداخل جدران البيت كنت وحيدة مع هذا الجسد. فاعترفت به. صرت أشتهي الجنس وأنتظر عودة حاييم إلى البيت، لكي نصل إلى لحظة العناق في الفراش. ولكن لم يطل الوقت مع هذه الرغبات.

رفعت صوتها لتُسمعه وكأنه كان يتابع تداعياتها: الساعات التي كنت أقضيها وحدي في البيت جعلتني أشتاق إلى أهلي وأخي والمزرعة. ثم صرت أشتاق إليك أنت. نعم. أنا وأنت جزء من جمال هذا الجو. أنا أحبك. وصرت أتذكر وجهك وغرتك وعينيك وصوتك وقصائدك. عرفت، أو قررت أن أعترف: هذا هو ما أحب وليس حاييم.

كان السعي إلى الانسجام الجنسي بيني وبين حاييم هو نقطة فراقنا الأولى. في البدء كان الانسجام يحدث تلقائياً. أو أنه لم يكن يحدث، ولم أكن أنتبه أو أعرف. فيما بعد بدأت أنتبه حين لا يحدث. ولم يكن الأمر يعنيني كثيراً. ثم حين بدأ يهتم للمسألة صرت أحس أن لي حقاً مهدوراً. صار يحدث أن لا ننتهي معاً. وصرت أجعله يحس بذلك. فيحاول تعويضي بطريقة أو

بأخرى. وكنت أحس بذلك يحدث بعيداً عنه. هو يكمل متعته عن طريق. وأنا عن طريق.

بعدها صرت أحس الجنس معه واجباً. لم يكن من الممكن مصارحته بالأمر. صرت أتمدد وأفتح ساقيَ: هو يفعل ما يشاء، وأنا أفكر بما أشاء. وبدأ جدار ينتصب بيننا. وشيء مثل المشمع يدخل بين جسدي وجسده. لم أعد أحس به. مرة سألني: ما بك؟ كأنك تغيرت. قلت: أبداً. لا شيء. رطوبة اسطمبول تزعجني. وأنا أشتغل طوال النهار. أصل إلى الفراش منهكة. عرض أن يجلب لي خادمة أو عبدة فرفضت. لكنني تابعت استلقائي المحايد تحته في الفراش. وبدأت أحس أنه يزداد بعداً عني كلما كان مهتاجاً أكثر، ومنهمكاً في فعله الجنسي أكثر. أحياناً كان يبدو لي مضحكاً وهو يتحرك ويلهث فوقي. وأحياناً أحس أنه غبي. وأحياناً أخرى حيوان. وخطر لي كم تحس النساء اللواتي نسميهن مومسات بالقوة والتفوق على الرجال الذين ينبطحون فوقهن، طالما أنه ليس هناك أي إحساس مشترك ولا رابطة بينهما. هل تسمعني؟ كنت أتوهم في البداية أن الرجل يقتحم المرأة بفعله الجنسي مثلما يقتحم الجيش قلعة محاصرة. الرجل يقتحمها لأنه يدخل فيها، ثم يهيمن عليها لأنه فوقها. في تلك التجربة ولعدة أشهر اكتشفت العكس تماماً. اكتشفت كيف تقوم المرأة

بتحويل الرجل في حالة كهذه إلى دابة. بعد أن ينتهي كنت أذهب إلى الحمام دائماً. ليس فقط لكي أتخلص من إحساسي بالاتساخ، بل لكي أتخلص من الأثر الوحيد الذي تركته العملية. أغتسل وأتبول. بيني وبين نفسي كنت أعتبر حاييم يمارس عادة سرية من خلالي. وهذا لا يجعله هو وحده حيواناً بل يحولني أنا أيضاً إلى دابة مسخَرة قابلة للاستخدام دون الاهتمام لأحاسيسها.

لا أستطيع أن أحدث أحداً غيرك بهذا الكلام. لأنك شاعر. ولأنني حين عريت جسدي أمامك لم يعد من المفيد أن أستر شيئاً في داخلي. يجب أن أعري أمامك كل شيء.

صرت ألعب مع حاييم لعبة أزداد منها قرفاً يوماً بعد يوم. صرت أنتظر أن ينتهي من فعلته مثلما تنتظر شخصاً سبقك إلى المرحاض. ومثلما تنتظر نفسك لكي تنهي فعلك في المرحاض، ثم تخرج إلى حياتك العادية. لا أعرف. التشبيهات غير ملائمة ولكنها كلها، كما تلاحظ، من جو المرحاض. لأن تلك الفترة ملأتني بالقرف. وصارت للأعضاء الجنسية عندي وظيفة واحدة هي إخراج الفضلات ولا ترتبط إلا بهذه القذارة. حتى ما ينقذف مع الفعل الجنسي كان بالنسبة لي نوعاً من الفضلات.

ولكن ذات يوم حدث معي شيء عجيب. كنت متمددة تحته وهو منهمك في فعله. ورحت أسرح إلى جو المزرعة والأهل والأصدقاء وكأنه غير موجود. ومررت ببالي. قلت لنفسي بحزن: لماذا لم يكن حظي أن أتزوج أفشالوم؟ كم كان هذا الذي يحدث الآن مع حاييم سيكون جميلاً لو أن أفشالوم هو الذي معي في الفراش. وبسرعة حللت محله.
يومها قال لي حاييم وهو متمدد إلى جانبي: بدأت تتحسنين. ولم أجب. ثم نبهني إلى أنني لم أخرج إلى الحمام، كما أفعل عادة. أدرت ظهري. ظن أنني خجلة من تعاطفي الجسدي معه. فربّت على كتفي وقال: على كل حال بدأت ترجعين إلى طبيعتك.
يومها لم أنم طوال الليل. يجب أن أعود إلى طبيعتي فعلاً. وطبيعتي الحقيقية هي أن أكون معك. ولماذا لا نحقق ذلك طالما أنك لا تحب رفقة، ولم تتزوجها؟ أنت من حقي طالما أنني أحبك وأنت تحبني. بقائي مع حاييم خيانة لك وخيانة لنفسي. وخيانة للقيم التي تجعل للحياة جمالاً ومعنى. وهذه الخيانات كلها باسم الزواج. طز. صرت أمارس خيانتي له، وهو معي في الفراش. وأعيش معك كلما خلوت لنفسي في المنزل.
هل تفهمني يا أفشالوم؟ صرت أحس أنني مركبة من مجموعة من الخيانات. أخونك معه بتسليمه جسدي،

وأخون نفسي أيضاً. ثم أخونه معك حين أستحضرك في مخيلتي، لتحل محله هو المنهمك في فعله الجنسي. صار السرير عذاباً. وصار بالنسبة لي مثل مرآة أرى فيها كيف أحول حاييم إلى حيوان. وفي الوقت نفسه أحول نفسي إلى حيوانة. لولا أنني حيوانة معدومة الأحاسيس والأخلاق والضمير لما قبلت بالاستمرار في هذه اللعبة.

لهذا هربت.

هربت لكي أتخلص من ذلك الجو الحيواني المرحاضي. ولكي أخلص نفسي من ركام الخيانات التي صارت تملأ وجداني. وهربت لكي ألتقي بنفسي قبل أن ألتقي بك. أريد أن أستعيد إنسانيتي وأن أفعل شيئا له معنى. فهمتني؟

لم يجب. بدا عليه كأنه لم يسمع. لكنه كان يغوص في نفسه. كم يجعله كلامها يشعر بضآلته. كم هي قادرة على الغوص إلى أعماق النفس. وكم تستطيع أن تخرج بنتائج مذهلة، كان المفروض أنه هو الذي يكتشفها ويتعامل معها. هو الشاعر.

«أفهمك ولا أفهم نفسي». ظل صامتاً، وهو يحس أن صوته سيخرج نشازاً في هذا الجو الذي ملأته سارة باعترافاتها. فغرق في نفسه دون أن يرفع نظره أو صوته إليها.

أفهمك ولا أفهم نفسي. أنا أحبك. وقد حلمت بك ليالي وأياماً طويلة. كنت أظن أنني سأكون أسعد إنسان في الدنيا حين ألتقي بك، أو تجمعنا خلوة. لكن لا أعرف ما الذي حدث لي يا سارة. لا أعرف لماذا، بشكل مفاجئ، أحسست أنني بعيد عنك. كأنما كان هناك نابض يبعدني.

لا أعرف. ربما كان السبب بعض الكبرياء. أحسست أنك رتبت هذا الجو كله. فأعطيتِني دور المرأة، وأخذت دور الرجل الذي يهيئ الجو، ويستلم زمام المبادرة. ربما ليس هذا. ربما أنك جعلتني أحس بشيء من الرخص وأنت ترتبين هذا كله. وتعرضين نفسك علي بهذه الطريقة. ما الذي تركته لي؟ أن أخلع ملابسي فقط. حتى أنك فككت زر قميصي. وكأنك كنت ستفعلين هذا نيابة عني. لم لا؟ الحقيقة أن هذا يعجبني. يعجبني اللقاء بجسدك وبأية صيغة تتاح. أنا كذاب. لا الكبرياء ولا الرخص. هناك شيء آخر. الإخلاص. أنا مخلص لآرون. أعرف أنك أخته ولست زوجته. ولكن لا بأس. سأسميه باسمه الحقيقي: الجبن. لا أعرف كيف يمكن أن ينظر آرون إلى المسألة حين يعرف أنني أفعلها من وراء ظهره. لا أعرف يا سارة. آرون يسكنني ويشل قدرتي على التوجه إليك. إليك أنت بالذات.

— ٢ —

آنا ليستر بكامل أناقتها تخرج من فندق دامسكو بالاس، وعبد السلام ينتظرها بالعربة التي يقودها بنفسه. ولم تستطع أن تنتظر لتجلس جيداً: هل سنرى الأمير؟

— أظن. إنه يذهب كل يوم إلى القنوات لحضور لعبة السيف والترس.

* وإذا لم يأت اليوم؟

— ترين سهرة أراكيل ومواويل.

* وهل يسمحون للنساء بحضور سهرات كهذه؟

— لا. ولكن أنت مع الملازم عبد السلام. وإذا كان الجو ملائماً سننضم إلى السهرة.

ابتسمت له.

قال: لم أعرف لماذا أنت حريصة على اللقاء بالأمير فيصل.

فردت بابتسامة عذبة: وهل تحتاج صبية في عمري إلى أعذار لكي تلتقي بأمير؟

لم يعلق. بل ضرب الجواد الذي يجر العربة واتجه إلى القنوات.

وحين اقتربت العربة من أحد البساتين سمعت الموال ينطلق في سكون الليل:

دار الفلك، والصفا ولى، وظني خاب

بِ سفر برلك جرى حرباً دِماه خاب

صار البعض يختبي ضمن الخلايا وخاب

لا عاده الله لا ذاك الزمان وبرك

وبكيت حتى استفاضت من عيوني برك

يا صاحب الشال ضيمك يوم حملك برك

هذا هو الجيد لا يوم الشدايد خاب.

وفضل عبد السلام أن يظلا في العربة. كانت تريد أن تنزل لتسلم على الأمير. ولكن الملازم أبلغها أن الموجودين اليوم ليسوا من النوع الذي يرحب بدخول امرأة.

— ولكنهم جلساء الأمير.

* الأمير يرى الناس كلهم.

* لماذا جئنا إذن؟

* توقعت أن يكون معه بعض الباشوات. وجودك في تلك الحالة مبرر أكثر. ألا تذهبين مع جمال باشا إلى سهراته؟ أطلبي منه أن يدعو الأمير إلى إحدى تلك السهرات.

تطلعت إليه بحدة: قل لي إذن لماذا جلبتني؟

* سأقول لك إذا قلت لي لماذا تريدين رؤية الأمير. مسألة الصبية التي تريد رؤية أمير لم تدخل في رأسي.

لم تكن آنا بالساذجة التي تفوتها حركات شاب مثل عبد السلام. كانت تعرف أنه يود الاختلاء بها. لكنها، بخبرتها، تعرف أيضاً أنه ليس بالخطر عليها حتى وهما وحدهما في الليل. فهو لن يحاول اغتنام أية فرصة إلا إذا هيأتها

له هي بنفسها، ودعته إليها.

تأملته بابتسامتها الخبيرة. وأحس أنها تعري نواياه كلها فارتبك. ولكنها تابعت ابتسامتها المطمئنة التي أعادت إليه الثقة في نفسه. ثم هزت رأسها، وكأنها تقول له: موافقة.

— إسمع يا عبد السلام. أنت شاب ظريف. يعجبني فيك حماسك لجماعتك.

* من هم جماعتي؟

— العرب. أنت لا تشتغل لصالح الأتراك. أنت تشتغل لصالح العرب. أليس كذلك؟

* كيف عرفت؟

— عمرك لم تسألني عن شيء يتعلق بالباشا إلا في ما يتعلق بموقفه من المعتقلين. ألا يعني هذا شيئاً حتى لشخص محايد مثلي؟

* وهل أنت محايدة؟

— أنا ألمانية.

وقبل أن يستطيع التعليق أكملت: كنت تظن أنك ستشغلني لصالحك دون أن أدري. ولكن يجب أن تعرف يا عبد السلام أننا نحن الألمان حلفاء للعرب. ولسنا حلفاء للأتراك. فهمت؟ أنا أستغرب لماذا يتجه الشريف حسين إلى الإنكليز ولا يتجه إلينا. نحن نفيده أكثر.

* لهذا تريدين رؤية الأمير؟

— نعم. أريد أن أكسب ثقته.

* وتعتمدين علي في ذلك؟

— لا. أعتمد على المعلومات التي عندي. أنت تعرف أنني قريبة من الباشا.

* قريبة فقط؟

— لا تكن ولداً. إسمع المعلومات التي لدي. بالأمس دعاني الباشا إلى حفلة شاي. وقال لي إنه قد صادق على الإعدام. وينوي اعتقال فيصل. وربما جميع من التقى بهم الأمير في دمشق.

* لماذا تقولين لي ذلك؟

— كنت أريد أن أحذر الأمير. ولكن إذا شئت تستطيع أنت أن تحذره.

* نحذره معاً.

تخلى عن حذره أمام التوتر الذي انتابه من الخبر. فضرب الجواد وانطلق.

— إلى أين؟

* من كل عقلك نبلغه خبراً كهذا أمام هؤلاء الناس كلهم؟

— لا. نتعرف إليه. وسأجد فرصة أبلغه بها بالموضوع.

* إذا كنت مصرة على أن تتحالفي معنا فلن يفيدك أن يرى الجميع سعيك للقاء الأمير.

— ولكنك كنت موافقاً.

إبتسم لها: كنت أظن أنها مجرد صبية تريد أن تلتقي بأمير.

— إلى أين الآن؟

* نذهب إلى القابون. وننتظر عودته إلى بيت البكري. وهناك نبلغه.

— أرجعني إلى الفندق إذن.

* لماذا؟

— لأسبابك التي قلتها. ليس من الضروري أن يراني الناس ساعية إلى القابون للقاء الأمير. أبلغه أنت. أنا سأعود إلى الفندق.

أوصلها إلى فندق داماسكوس بالاس. وحين نزلت من العربة نظرت إليه باسمة: لم تقل لي لماذا أخذتني إذا كنت غير متأكد من أننا سنرى الأمير.

رد بشيء من الجرأة: بصراحة؟ أعجبني أن أتنزه معك في الليل.

— هذا فقط؟

* فقط. ولكن الآن اختلف الأمر. الخبر الذي جلبته لي غير كل شيء.

— هل صرنا حلفاء؟

* أرجو ذلك.

تطلعت إليه باسمة: ماذا كان يريد منك الباشا في تلك الليلة؟

— أية ليلة؟

* يوم سهرت معنا أنت وخطيبتك، واستدعاك؟

أحس بالحرج: شغل.

* إسمع يا عبد السلام. أنت لم تذهب إلى الباشا في تلك الليلة. وهو لم يطلبك. عرفت أن الباشا يومها كان مصاباً بالزكام. ولم يغادر بيته. ولم يطلب أحداً. زوجة الباشا قالت لي ذلك.

ظل صامتاً لأنه لم يجد ما يقوله.

تابعت: أرأيت؟ أنت تشتغل لصالح جماعتكم. ولكن شغلك صار لصالح الأتراك والباشا الذي سيعدم قياداتكم. إذهب الآن وقابل الأمير.

ثم توجهت إلى مدخل الفندق بهدوء. وكانت واثقة من أنه سيفعل ما تنتظره منه.

وذهب إلى القابون. انتظر الأمير حتى وصل، وأبلغه بالأمر. فلم يظهر على الأمير أنه قد فوجئ. أو أنه تظاهر أمامه بعدم الاكتراث. فقفل عائداً ليمر بغرفة إبراهيم. أيقظه وأخبره بالأمر.

— ٣ –

ولم ينم إبراهيم تلك الليلة. راح يحمل النبأ لزملائه متوتراً: جمال باشا وقع قرار الإعدام. والتنفيذ صار وشيكاً. ولكي لا تحدث حوادث شغب هناك حملة اعتقالات ستشمل مرافق البلاد وشبابها كلهم.

ماذا نفعل نحن؟ ولو. نحن ندور على بيوت الوطنيين وننقل لهم النبأ لكي يهرب من يستطيع الهرب منهم.

الخطوة الأولى بعد أن جاء سميح. جلسوا في غرفة نادر ومعهم أوراق بيضاء وأوراق كربون. كلّ يكتب على النسخ التي يستطيعها، مستعيناً بالكربون: «جمال سيعدم أبطالنا الأحرار. حملة اعتقالات جديدة. لا تستسلموا. الشعب معكم». ثم حملوا أوراقهم في جيوبهم وذهبوا إلى الحميدية. نادر يبدأ من القيمرية قرب الجامع الأموي. وسميح من المدخل الغربي للسوق. وإبراهيم من العصرونية. خلال دقائق يجب توزيع الأوراق على المتاجر. توضع الورقة أمام البائع. وقبل أن يعرف ما الذي وُضع أمامه يجب الاختفاء والذوبان في الزحام. بعد ذلك يتم التوزّع على الجوامع. توضع الأوراق بين أحذية المصلين. وبعدها الركض عبر المارستان حتى النوفرة. يجب تمشيط سوق مدحت باشا بالطريقة ذاتها.

الخروج من مدحت باشا نحو الدرويشية، نحو ورشة العمل التي تشق الطريق بين محطة الحجاز والحميدية، والتجول بين العمال كأننا منهم. وإذا حدث طارئ فالهرب نحو القنوات.

في المساء لم يحسوا بالامتنان من أنفسهم لأنهم نفذوا هذا كله فقط؛ بل أحسوا بالاعتزاز ببلدهم لأن شباباً

آخرين، ودون تنسيق معهم، كانوا يطوفون على البيوت، ويقدمون إنذارات مشابهة وبطرق مختلفة تمكّن مطلوبين من الهرب.

ولكن الإنذار الأخير جاء إليهم من عبد السلام: الشرطة عرفت أن الطلاب هم الذين قاموا بهذا النشاط. ولذلك فحملة الاعتقالات ستشمل الطلاب بالدرجة الأولى. لا تناموا في بيوتكم.

أين إذن؟

قال نادر: في الغوطة. لي صديق له أصحاب في الغوطة، يستطيع أن يأخذنا إلى قرية هناك.

— ٤ —

في تلك البساتين كان يجب أن يحس بالأمان، وخاصة أن شاباً من فلاحي الغوطة هو الذي يقودهم. لكن كثافة الأشجار أحياناً، بدل أن توحي له بالاختفاء، كانت توحي بالكمين. ما الذي يضمن أن الجنود لا يكمنون وراءها؟

أخيراً وصلوا إلى كوخ في بستان. وشرح لهم الدليل: هنا تلبسون لباس فلاحين فيكون وضعكم طبيعياً. إذا حدث شيء تنزلون في هذا النهر. لا تنغرّوا بصغره. يضيّع جيشاً.

أراد أن يشكر الدليل: ممنونك يا أخ.

قال الدليل: على أي شيء؟ كلنا إسلام وأخوة.

قال إبراهيم بحماسه الشاب: لا. كلنا عرب.
ابتسم له الدليل: ماذا أفعل معكم إذاً؟ أنا لست عربياً.
تطلع إليه إبراهيم غير مصدق. فأكمل الدليل ابتسامته: أنا كردي.
قال إبراهيم: يعني مصرّ أننا إسلام؟
قال الدليل: ولكن الذي سلّمكم إلي مسيحي. والذين سيعدمون بينهم أكثر من مسيحي.
ليس هناك أمل بإيجاد صيغة نهائية وملائمة للحالة التي هم فيها. يتحدث عن الإسلام فيفاجئه مسيحي متحمس أكثر منه. يخرج من الإسلام إلى العروبة فيطلع له كردي كهذا.
وبعد أن استردوا وعيهم بدأ الدليل، الذي رفض حتى الآن أن يعطيهم اسمه، بالتعليق على الأوضاع: ظن العثمانيون أنهم يسوقون البلد كلها بكم واحد من الزعماء. جلبوا عبد الرحمن اليوسف ليضمنوا الأكراد وأرسلان ليضمنوا الدروز. ولكن على من؟ ها هي حوران كلها ضدهم. و...
— والأكراد؟
* ها أنا معكم.
وقبل أن يذهب قال لهم: لا تخافوا من كل من يأتي. هناك فلاحون يشتغلون. وهم يعرفون بوجودكم، ويتسترون عليكم ويساعدونكم. بعضهم سيجلب لكم

طعاماً. وقد يأتي فرارية آخرون. هاربون من الدولة. مطلوبون أو هاربون من الجيش.

الفصل السابع

— ١ —

ألا ياذياب الخيل أسرع نحونا

واقتل خليفة يا أمير غصيب

دعوك الأمارة ياذياب جميعهم

دعوك العذارى ياذيابي جيب

وإن كان ما تقتل خليفة برمحك

ترى البيض تلفظ كلام معيب

وتبقى الهلاليات جميعا مع العدا

يروحوا سبايا لكل ندل ورهيب

— ٢ —

دياب بن غانم لحساسية تافهة يرسله الأمير حسن إلى وادي الغبا والغباين مع السحت والمواشي. يخافون أن يأخذ منهم مجد الحرب. وأبو زيد يريد أن يحقق بدهائه نصر بني هلال، لكي لا يحققه دياب بضرب السيف والقنا. لكن ما حزرتم. والقدس ليست وادي الغبا والغباين. والحرب هناك مثل الحرب هنا. أصلاً دياب بن غانم، حتى وهو في الوادي، لم يكن راعي غنم وإبل، كما أردتم أن توحوا وتهينوا. بل كان يخوض معارك عظيمة ومجيدة وأكثر ضراوة من حربكم مع الزيناتي خليفة.

وعارف إبراهيم لن يتحول إلى راعي جمال بل سيخوض حربه مع الجواسيس، وعلى رأسهم ألتر ليفي. أليس لدى ألتر ليفي متجر وشركة تأمين في القدس؟ بسيطة. أنا أعرف كيف أجلبك يا ألتر وأجبرك على منازلة دياب بن غانم. أنا سأخرج الزيناتي خليفة من وراء أسواره.

منذ أن جاء إلى دمشق، وهو مشغول بالبحث عن ابنه. بعد تقديم نفسه إلى القيادة وقضاء يومين في إجراء ترتيبات إيصاله إلى القدس، ذهب إلى البيت الذي يستأجر إبراهيم فيه فلم يجد أحداً. دق باب أصحاب البيت فرحبوا به. ولكنهم أبلغوه أن إبراهيم لم يعد ينام في غرفته.

— أما عرفتم أين يمكن أن يكون؟

* لا نسأله يا بيك. شاب عدم المؤاخذة. أصحابه ينامون عنده وهو ينام عندهم.

— ومن هم أصحابه؟

* نحن لا نتدخل. طلاب مثله.

لكن أهل البيت أصروا على عارف أن يدخل ويشرب القهوة. ثم أعطوه مفتاحاً لكي يستطيع أن يدخل غرفة ابنه فينتظره فيها أو ينام إذا شاء.

آخر ما كان يمكن أن يخطر له هو أن ابنه يشتغل في السياسة. لكن غيابه الدائم عن غرفته بعد مجيئه من

بيروت بيومين أو ثلاثة، يعني أن في الأمر شيئاً. ليس من الضروري أن يشتغل في السياسة. ربما كان محبوساً لأي سبب آخر. وقد لا يحتاج المرء لأسباب. وأنا أول من يعرف ذلك.

وهو يسير في شوارع دمشق مساء استعاد كلام ابنه وحماسه فأحس بألم يعتصر قلبه: السياسة.

سياسة والبلد مليئة بالاعتقالات والإعدامات؟

توجه إلى مكتب صديقه الميجور فهمي. لا بد أنه يستطيع أن يبحث له عن ابنه.

أكد له فهمي أنه لم يسمع باسم إبراهيم عارف إبراهيم بين المعتقلين. ولمزيد من التأكد راح يتصل. اتصل بأقسام الشرطة والخفية ومكافحة الجاسوسية والسجون. وخلال ذلك حكى له أنهم بالفعل اعتقلوا بعض الطلاب الذين شاغبوا، والذين وزعوا منشورات. بعضها مضحك ولا يدل إلا على الولدنة. لكن المسألة انتهت الآن. حتى المعتقلون لم يبقوا إلا عدة أيام. أولاد. ولكن حتماً ابنه لم يكن بينهم. وإلا لعرّف عن نفسه. ولكان فهمي سمع به. الآن هم مشغولون باعتقالات على مستوى أعلى: جميع رموز الإصلاحيين واللامركزيين إلى السجن. وسمعت طبعاً بقرار نفي العائلات الكبيرة إلى الأناضول. طمئن بالك وشرف معي لنتعشى. لا بد أن ابنك مسافر مع بعض أصحابه إلى

حمص أو حماة، وربما عند أقاربه في سنجق القدس. وسيعود. وإذا اضطررت إلى السفر إلى القدس سافر ولا تهتم. وأنا سأبحث عنه وأتابع أخباره وكأنه ابني. شرف. شرف. نتعشى في الأوريان.

— سألحق بك.

— ٣ —

كان عارف يريد أن يلتقي بالملازم عبد السلام ليسأله عن ابنه. وهو يحب هذا الشاب. ولذلك يسمح له، رغم فارق الرتبة بينهما، أن يناديه: يا عمي. وبما أن عارف سيذهب إلى القدس فلا بد أن يمر بالشاب وينقل أخباره إلى أهله.

أنكر عبد السلام أنه يعرف شيئاً عن إبراهيم. هذا الأب لن يوافق لى تورط ابنه في أمور من هذا النوع. فهو في النهاية ضابط. ولكن هناك ضباط يتعاونون مع الإصلاحيين. وقرر أن يجس النبض: أظن يا عمي أبو إبراهيم أن الثورة صارت قريبة.

انتفض عارف: ما هذا الذي تقوله؟ أية ثورة تتحدث عنها؟

* أين تعيش يا عم عارف؟ إسمع. سأجمعك اليوم بالأمير فيصل.

— لا أريد أمراء ولا ثورات.

* إسمع مني.

حدق عارف إلى وجه عبد السلام كأنه يراه لأول مرة. لم يره أكبر من ابنه بكثير. ابنه أيضاً قد يكون متورطاً في شيء مثل هذا.

— إسمع يا عبد السلام. أنت مثل ابني. ولكنك تنسى أنك تتحدث مع ضابط في الشرطة.

* جميعنا ضباط. لكن هذه بلادنا. أنسيت أننا عرب؟

هذا الولد يريد أن يذكرني أنني عربي؟

— قسماً بالله العظيم لولا معزة أهلك لأخذتك معي إلى القشلة الآن.

* نسيت أنني من حرس الباشا؟

— هذه هي مشكلتنا. دود الخل... نحن نبذل أرواحنا من أجل المحافظة على الدولة العلية وأنتم تتآمرون عليها.

* ليست مؤامرة يا عمي أبو إبراهيم. نحن نريد من الأتراك أن يعاملونا على أننا بشر.

وساد الصمت الثقيل بينهما. وأراد عبد السلام أن يكسره بتغيير الموضوع. قال له: هل التقيت في بيروت بواحدة اسمها نهال حامد؟

— ومن أين تعرف واحدة مثل نهال حامد؟

* هذه امرأة عظيمة. من أين تعرفها؟

— أنا لم أكن أعرفها. لكنني تعاونت معها في موضوع.

* أي موضوع؟

وحدثه عن المغامرة مع الشبكة الألمانية، وكيف نجحت نهال في الإيقاع بأحدهم.

— هذا كله فعلته نهال؟

* نهال ينشرب كأسها. امرأة أحسن من ألف رجّال.

— شرموطة. وأنتم كلكم شراميط أولاد شراميط.

لم تؤذه الشتيمة. آذاه أن أمله قد خاب. كان يأمل أن يحدثه عارف بشيء عنها. وآذاه أن رأي عارف بها هو هكذا. ليت عارف لم يكن يعرفها. ليت عبد السلام لم يتطرق إلى حديثها. هو نفسه ليس راضياً عن فعلتها، رغم اعتزازه بنجاح العملية. ولكنه لم يكن يتمنى أن يسمع الرأي ذاته من شخص آخر. وأخرجه من شروده كلام عارف: زعلت من شتيمتي؟ لا تزعل. أنت مثل ابني. كنت أقصد أن أشتم نهال وحدها. ولكن إذا قبلت نصيحتي ابتعد عن هذا الجو.

* ألا يرضيك أن نكشف مؤامرات الألمان؟

— لكي تخدموا الإنكليز والفرنساوية؟ الألمان حلفاؤنا. هل خطر لكم أن تلاحقوا الجواسيس اليهود؟ ألا ترون ماذا يفعل اليهود؟

* يا أبو إبراهيم. نحن لا نخدم لا الإنكليز ولا غيرهم. الشباب كلهم قالوا لفيصل إننا سنشتغل معك ومع أبيك بشرط أن لا يتدخل الإنكليز. نحن نتابع كل شيء.

— إلا أفعال اليهود.

* هل أنت خائف حقاً من اليهود؟

— ما يخيفني منهم أكثر هو أن أحداً لا يحس بخطرهم.

* وأي خطر يمثل اليهود؟

— يريدون أن يقيموا دولة في فلسطين.

وضحك عبد السلام: ألا ترى أنك تضخم الأمور؟

* بل أنتم تصغرونها حتى تخفى عن عيونكم.

— يا عمي. نحن أمة عربية قوية. وأمة الإسلام قوية. إذا أعطانا العثمانيون حقوقنا، أو إذا قمنا بثورة عربية، ونلنا استقلالنا، لن يكون لهؤلاء اليهود خطر أو قيمة. في ليلة ما فيها ضوء قمر ننتهي منهم. من هم هؤلاء اليهود الذين تحمل همهم؟ أنظر إليهم. أورطة خمرجية على عرصات على شراميط. وبعض المديّنين بالفائدة. المهم الآن الأوروبيون. الإنكليز والفرنسيون والألمان. هؤلاء آتون إلينا، أحدهم باسم العلم، وآخر باسم الدين، والثالث باسم التحالف. وكلهم يريدون استعبادنا واستغلالنا. هذه مشكلتنا اليوم وليست في هؤلاء الكم يهودي الذين تخوفنا بهم. مشكلتنا الأساسية مع الأتراك. ألم تسمع ماذا قال الشاعر؟

أقداركم في عيون الترك نازلة

وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

* كفى. كفى. لم أعد أريد أن أسمع المزيد.

— ألا تريد أخباراً عن ابنك؟ ابنك مختبئ في الغوطة.
وانتفض عارف: ولماذا يختبئ؟
* لأن ابنك طالب. والطلاب خافوا من الاعتقالات. إطمئن. إبنك مرتاح ولا ينقصه شيء.
— هل تستطيع أن تأخذني إليه؟
* لا. أنا لا أعرف مكانه تماماً. ولكنني مطمئن عليه. هناك من يذهب إليه وإلى رفاقه يومياً ويؤمن طلباتهم. لا تقلق. كم يوم ويعود الجميع إلى مدارسهم.
وضع عارف رأسه بين يديه. أولاد مثل ابنه يتمكنون من إقامة شبكات سرية تؤمن مخابئ واتصالات؟ قبل قليل حدثته نفسه بإلقاء القبض على هذا الشاب رغم الرابطة التي تربطه بأهله. الواجب قبل كل شيء. ولكن الآن تغير الأمر. مفتاح ابنه عند هذا الشاب. والابن ضعفه الوحيد. يجب أن يبقى هذا الشاب في أمان، لكي يظل هو مطمئناً على ابنه.
رفع رأسه وتطلع إلى الشاب: وماذا تفعل الآن؟
ضحك الشاب بثقة. «ملعون أبو هؤلاء الشباب. من أين تأتيهم هذه الثقة كلها؟». قال عبد السلام: المضحك في الأمر أن آنا ليستر أعجبت بي. وطلبت من الباشا أن أظل مرافقاً لها. وهي همست لي أنها كانت تريد أن تلتقي بالأمير فيصل لتبلغه بمسألة الإعدامات.
— وستجمعها به؟

* تستطيع أن تلتقي به من دوني. تعرف. هي صاحبة الباشا. والأمير يحضر بعض سهراته.

— والأمير فيصل نسونجي أيضاً؟

* لا أظن. لا أعرف. لم يحك أحد عنه شيئاً بهذا الخصوص. طوال وقته مع الباشا في القصر أو في القنوات لسماع المواويل. وإلا فهو في بيت البكري في القابون.

نهض عارف فقام عبد السلام لوداعه. وعند باب المقهى قال للشاب: أنتم أولاد.

* نحن؟ من نحن؟

— الذين تعملون أنفسكم ثواراً.

* لماذا؟

— كيف تبوح بهذه الأسرار أمام ضابط شرطة؟

* أنت منا وفينا عارف بيك. ولو. كلنا أولاد عرب.

— ٤ —

لخبط هذا الشاب كيانه. هل هو ابن عرب فعلاً؟ كان ينتمي إلى مدينة ولغة وشعب. وبالتدريج بدأ يدرك أن تلك الانتماءات دخلت في مطاوي الذاكرة. إنه ينتمي الآن إلى الدولة العلية... إلى وظيفته وراتبه وبذلته. بتدقيق أكبر اكتشف أنه لا ينتمي إلا إلى بذلته الرسمية. إنه لا يتعرف إلى نفسه إلا وهو يرتديها. ولا يتصرف إلا بما يمليه عليه واجب كونه يلبس هذه البذلة. ليس من

اللائق أن أفعل هذا وأنا بالبذلة. كان هذا شعاره الدائم. وكان يحس أنها تحميه من الزلل.

في البدء كان هناك شيء واضح في العالم. هو عارف الإبراهيم القادم من نابلس، ابن أحد المشايخ المتنفذين الذي استطاع بنفوذه تعليم ابنه ثم إدخاله الكلية في الأستانة ثم ضمان ترفيعاته حتى صار ما هو عليه الآن.

وحتى حين أحس بتخلي الدعم عنه بعد وفاة أبيه، وبعد انخراطه في مواقف يجب أن يتحمل مسؤوليتها بنفسه، ظل هناك شيء واضح في ذهنه. رتب أعلى ورواتب أدنى. جيش ومدنيون. إسلام وكفار. إنكليز وفرنسيون وألمان... وكل من هب ودب. ولكن هو الضابط ابن البلد الذي يستطيع، لو شاء، أن يطمع وأن يجمع الضرائب والمحاصيل وأن يتحرك بأبهة. ولكن هذا كله لا يليق بمن يلبس البذلة. البذلة التي لا توقظ في نفسه إلا الاستعداد الحقيقي للقتال والواجب. ليس للقتال فقط؛ بل وللتضحية أيضاً.

لكن الآن يختلف الأمر. هناك شيء غير واضح. هو عثماني مسلم لأنه ضابط في الجيش العثماني المسلم. وهو مدعو لمحاربة العرب المسلمين الذين يشاغبون على الدولة العلية. وهذا ليس بالشغب السطحي العابر. بل هو الشغب الذي قد يودي بسلامة الدولة. صار هناك إنكليز غير التجار والمنقبين عن الآثار. وفرنسيون غير

الإرساليات التبشيرية وتجار الحرير والمشرفين على السكك الحديدية. وألمان غير المستشارين في الجيش. البلد يعج بالألمان والفرنسيين والروس والإنكليز والأميركان وحتى اليهود. وهو حين يتذكر ذلك كله يتذكر تلك العجوز التي تجاوزت المائة من عمرها في قرية قرب نابلس. تمددت على فراش الموت. وحين انتشر خبر نزعها اندفع الجميع إلى بيتها للسرقة. وفيما الكل منشغلون بالنهب فتحت العجوز عينيها. بعضهم أحس بالخجل. لكن آخرين استمروا في عملهم وكأنهم يقولون: ميتة أم حية. هي بحكم الميتة. إنها الميتة الحية، أو الحية الميتة. وهكذا هي الدولة العلية.

ولكنه لن يشارك في هذا النهب الحقير.

وتوجه إلى فندق الأوريان ليقابل فهمي.

في بداية الجلسة شكا عارف لصديقه الظلم الواقع عليه: ليس لأنني أعتبر الخدمة في القدس بطالة. لا سمح الله. أصلاً هناك بلدي. ولكنهم يعتبرون أنفسهم قد عاقبوني. تعرف لماذا؟ يحسون أنني أتدخل في أمور لا تعنيني وأتعدى على صلاحياتهم. صلاحياتهم. إي يلحسوا ما تيسر. بربك أليس عيباً أن نتعامل بهذه الحساسية فيما بيننا؟ يا رجل. نحن كلنا مكلفون بعمل واحد هو الحفاظ على الأمن. ما الفارق بين أن أفعل ذلك أنا؟ أو تفعله أنت؟ لكنني تعبت من الشنططة.

ضحك فهمي: تعرف ما معنى هذه الكلمة؟ تعني أن تظل أغراضك من شنطة إلى شنطة.

لم يضحك عارف. بغتة ارتجفت أذناه كما ترتجف أذنا الفرس. أحس أنه يعرف ذلك الصوت الذي صدر عن النادل. هب عن الطاولة واندفع وراء الشاب الذي يرتدي ملابس الخدم. وكان ذلك قد دخل باتجاه المطبخ. وفهمي يتطلع إليه ولا يفهم ما يجري.

دفع الباب برجله ففاجأته رائحة الطبخ ودخان القلي والشواء.

صاح: ألتر ليفي .

وعلى الرغم من صوته الجهوري لم يسمعه أو ينتبه إليه إلا القلة. قلب نظره بسرعة في أرجاء المطبخ فلم ير أحداً يلفت النظر. هجم على الرجل الطويل الذي يشوي ويمزمز بكأس عرق، وشده من كتفه. فالتفت هذا إليه مندهشاً.

— أين ألتر؟

* من هو ألتر؟

— أينكم كلكم؟

سؤال اعتباطي سخيف بلا معنى أطلقه لكي لا يظل جامداً أو واقفاً كالأبله. واندفع نحو الباب الجانبي. فوجده يؤدي إلى خارج المطعم؛ إلى حيث الحفر وبقايا الأشجار.

وقفز ذهنه فوراً إلى حارة اليهود. فركض باتجاه شارع مدحت باشا. ولكنه لم يستطع أن يركض بالسرعة التي يريدها. فالمنطقة عبارة عن بساتين محفَرة لفتح طريق من محطة الحجاز إلى الحميدية.

كان الوقت قبيل منتصف الليل ودمشق خالية.

— قف .

واعترضته دورية. بسرعة عرّفهم بنفسه وبما يسعى إليه.

* تريدنا أن نأتي معك؟

— لا. ستلفتون النظر. سأدبره بنفسي. وتابع جريه.

كان ألتر قد دخل سوق الحميدية الموازي لسوق مدحت باشا. وعند منعطف محدد يعرفه دخل في الحارة التي ستوصله إلى النوفرة حيث يتجه منها إلى حارة اليهود. لقد سمع نداء الدورية، وشيئاً من حوار عارف مع عناصرها. فقدر أن تأخيرهم له سيعطيه فرصة للسبق. إذا دخل قبله حارة اليهود نفد بجلده.

وحين وصل إلى شارع مدحت باشا توقف وأنصت. وهمّ بالقفز عبر السوق. لكنه سمع خطوات عارف الراكضة فلبد مكانه.

ليست هناك ضمانة أن عارف لن يراه وهو يعبر الشارع. فإذا أحس به قد دخل حارة اليهود سيأتي بالدوريات. ولن يترك الحي ينام حتى الصباح.

الأفضل أن يتمهل.
واقتربت خطوات عارف المسرعة ولكنها بدأت تتباطأ. وسمع لهاثه وهو يتلفت حوله، فيما ألتر لاطىء لصق الجدار المعتم تحت القنطرة الواطئة.
تقدم عارف حتى وصل إلى المدخل الشمالي للحي. ألقى نظرة سريعة إلى الداخل فلم ير أحداً. وصرخ بصوت مدوٍّ: مَن هنا؟
فجاء الجواب: مَن هذا؟
واقترب من أعماق الزقاق المظلم مصباح فتيلي في يد حارس. وقدر الحارس بسرعة أنه أمام أحد الوجهاء أو الضباط: نعم سيدي.
* هل دخل الحي أحد؟
— لا، سيدي. منذ صلاة العشاء لم يدخل أحد.
قال عارف: إرجع. وكل من تجده خارج بيته منذ الآن حتى صلاة الصبح تعتقله. هذا أمر. فهمت؟ أنا الميجور عارف إبراهيم.
— أمرك سيدي.
وقف عارف يقلب عينيه في الظلمة مثل هر متربص. وألتر يراه: ذكي. ابن الكلب. التفت وراءه. فقرر أن يحتمي بهذه الأحياء المعتمة المتداخلة الملتفة. هي فرصته أيضاً أن يحوّل الانتباه عن حارة اليهود. وأن يجر عارف بعيداً عنها.

تراجع بهدوء ساعدته عليه الظلمة. وعارف ينصت ويلتقط الصوت الذي لم يتأكد منه. وعندما وجد ألتر أنه قد صار في مأمن أطلق ساقيه راكضاً ليلتفَّ عند أول منعطف.

وانتبه عارف إلى صوت الخطوات الراكضة فصاح: ألتر. قف عندك.

ثم أشهر مسدسه وركض في الزقاق ذاته.

خفّت حدة خوف ألتر وهو يركض. هنا يضيع ويُضيع معه عارف. لكنه خشي أن يستسلم لالتفافات أحد هذه الأزقة فتوصله إلى عارف من جديد. كما خاف أن يصل به الزقاق إلى باب حارة مغلق أو محروس أو إلى حارة مسدودة. ولذلك فإنه ارتقى أول جدار قدّر أنه يستطيع ارتقاءه ثم ألقى بنفسه إلى الداخل.

وصرخت امرأة استيقظت على صوت سقوطه، فهمس لها: دخيلك.

وخرج رجل بشرواله وصدارته صائحا: مين هون؟

بهمس المستجير قال له ألتر: دخيلك.

أجاب الرجل: وصلت. ودون سؤال تقدم إلى وسط الدار، واتجه إلى باب صغير وهو يشير لألتر: عجل.

زحف ألتر لاهثاً حتى دخل الباب: يكتر خيرك.

وقدّر عارف أنه سيظل يركض حتى الصباح في هذه الأزقة. فتوقف. يعرف تماماً أن هذه الحارات مغلقة

على رجال الدولة وأنها ملجأ لكل هارب: كرة الدولة يجعل الناس يتضامنون دون أن يعرف أحدهم الآخر. واللاجئ في هذا الليل سيجد الكثيرين من أصحاب النخوة الذين يخبئونه. بسيطة يا ألتر ليفي. نلتقي في القدس.

وعاد إلى غرفة ابنه.

في الصباح مر عارف بمكتب فهمي ليودعه. فعاتبه هذا على تركه السهرة بتلك الطريقة: ظننت أنك رأيت ابنك. وحين حكى له عارف ما حدث ابتسم فهمي بصبر: إي من طيبهم ينقلونك؟ تريد أن تعلّم علينا يا عارف بك؟ ألا نستطيع نحن أن نطارده؟ أصلاً أنت ضيعته بهذه المغامرة وحدك وراءه. لماذا تحب أن تقوم بعمل غيرك ودون مساعدة أحد؟

دائماً يجد نفسه ملاماً ومحرجاً. لا أحد يفهم عليه. وأخرجه من نفسه سؤال فهمي: أنا أعرف أنك من أوائل من تشككوا في ألتر ليفي. ألا تقول لي كيف بدأت شكوكك تحوم حوله؟

— ذات يوم حين كنت في القدس كان الجنود قد احتشدوا قرب رام الله. وهم في طريقهم إلى بئر السبع. أعطى جمال الأمر سراً بتحركهم وتجمعهم. ولم يكن أحد يعلم إلا القيادة وألتر ليفي بحكم صلته بالباشا. وقبل التحرك جاءت الطائرات الإنكليزية

وقصفت التجمع. مئة وعشرون قتيلاً مع تخريب السكة وتدمير القطار الذي جاء لنقلهم.

الفصل الثامن

— ١ —

— سنذهب إلى دمشق. وهناك سأستصدر لك قراراً من آرون يسمح لك أن تحبني.

لم يكن أفشالوم متحمساً لذهابها معهم. ليس فقط لأنه يخشى الإحراج الذي قد تسببه جرأتها في طرح الأمور. بل لأنه ذاهب في شغل ذي أهمية مع آرون. ولا يريد أن يبدو وكأنه هو المتسبب في إقحامها على الجو. إن كان آرون يريد أن يشغُلها فليتخذ القرار بنفسه.

سافر معهما نعمان بلكند ويوسف ليشانسكي.

وكان آرون قد شجع جمال باشا على اعتقال الشخصيات السورية، ثم على التوقيع والاستعجال بتنفيذ الإعدام. قال له: بصريح العبارة يا باشا، ليس في اسطمبول فقط من يرون أن ما وقع في سيناء هزيمة. السوريون أيضاً يرون ذلك. وإحساسهم بحاكم مهزوم قد يشجعهم على التمادي في هذه الجمعيات. إنهم يرون لأنفسهم قيمة تعادل قيمتكم. ومقابل جمعيتكم تركيا الفتاة، سمّوا إحدى جمعياتهم العربية الفتاة. هذا يعني أنهم يفكرون في أشياء أخرى تعود بالخطر على الدولة العلية كلها. ولذا أعتقد أن عليك أن تظهر لهم العين الحمراء.

وكيف تكون العين أكثر احمراراً من هذه الإعدامات لصفوة المجتمع السوري من متعلمين ومتنورين ومسيسين؟ وأضاف آرون: ولماذا تنتظر التصديق على الأحكام من اسطمبول؟ أتعتقد أنهم سيعملون هناك على تعزيز سلطتك وتقدير شخصيتك؟ بالعكس. هم يتربصون بك. ويريدون حجة لكي ينقضّوا عليك. يريدون أن يفشلوك. سيقولون لك أفرج عنهم. وماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني بعد أن بدأت أرجل السوريين ترتجف ذعراً؟ الإفراج عن المساجين. يعني الباشا لا شوكة ولا ذباحة. يعني أن تضيع الهيبة.

وفي صباح هذا اليوم الذي سمع فيه بأن الباشا قد وقع على الإعدام دون انتظار الرد من اسطمبول، قرر أن يتقدم بمفاجأته الجديدة التي ستزيد في تعزيز مكانته. دخل إلى الباشا في مكتبة ضاحكاً: إقرأ يا باشا.

تطلع إليه جمال باشا مستغرباً: ماذا أقرأ؟

— الشريف حسين يكاتب الإنكليز. ويظهر أن الجماعة يعرفون كيف يستغفلونه. هذه نسخة عن إحدى رسائل مكماهون إليه. سأقرأ لك: إلى السيد الحسيب النسيب، سلالة الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين،

سيد الجميع أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين.

ولم يستطع أن يكمل بسبب انفجار الباشا بالضحك.

سأله: أنت تعرف الإنكليزية. هل هناك كلمات مقابلة لهذه الأوصاف كلها في الإنكليزية؟

ضحك آرون بدوره: مستحيل.

— يعني يضحكون عليه بهذه الألقاب.

* طبعاً.

وأخرج الباشا من أحد المصنفات التي في المكتبة ورقة مد يده بها ضاحكاً: إقرأ هذه. يبدو أنهم كلهم من طينة واحدة. الشريف حسين لا يقل عن السلطان عبد الحميد اهتماماً بالألقاب. هذه رسالة سبق أن أرسلها أبو الهدى الصيداوي للسلطان عبد الحميد. إسمع. واستعاد الورقة قبل إيصالها إلى يد آرون ليستمتع هو بقراءتها بصوت عال: الخليفة المعظم، ظل الله في العالم، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا وسيدنا محمد (ص)، ناصر الشريعة الغراء، وناشر ألوية الطريقة السمحاء، خادم الحرمين الشريفين، إمام المشرقين والمغربين.

فعقب آرون ضاحكاً: حتى في المساجد كانوا يسمونه الخليفة المعظم ظل الله في العالم إمام المشرقين والمغربين وخادم الحرمين الشريفين.

وغرقا في الضحك. ولكن جمال توقف عن الضحك

وسأل آرون:

— ولماذا يتراسل الشريف حسين مع مكماهون؟

* أعتقد أن الإنكليز يريدون تشجيعه على التمرد ضد الدولة العلية يا باشا. ولكن المعلومات لم تتأكد بعد. ابنه عبد الله يذهب إلى القاهرة ويقيم اتصالات معهم.

— ماذا في الرسالة بعد الألقاب؟

* ليس فيها شيء آخر.

— معقول؟

* الذي جلبها لم يستطع أن ينقل إلا المقدمة.

نهض الباشا ضاحكاً: والمقدمة أطول من الرسالة. معه حق أن يمل. ولكن الأجدب الذي ترضيه ألقاب كهذه لا يخيفني. وفي النهاية سيظل فيصل رهينة عندي حتى تصل إلي جيوش أبيه.

ونهض يريد الخروج.

— ٢ —

واجه الشباب إحراجاً كبيراً حين وصلوا إلى باب السرايا. ومع أن الحرس كان يعرف معظمهم، ويعرف أنهم قادمون لزيارة آرون أفندي إلا أنهم أوقفوهم جانباً. فجمال باشا على وشك الخروج.

ولكن الباشا حين وصل إلى الباب انتبه إليهم. ربما كان وجود الفتاة الجميلة هو الذي لفت نظره. تطلع إلى مرافقه نصرت بيك وسأله: من هؤلاء؟ ونصرت سأل

رئيس الحرس. فقال له: هؤلاء اللجنة الزراعية. جماعة آرون أفندي.

— ها. هز جمال رأسه وسألهم: من منكم الذي كان مسجوناً عند الألمان؟

اقترب أفشالوم منه وقال: أنا يا باشا.

— ولماذا سجنوك؟

* كلفني آرون أفندي أن أذهب إلى بئر السبع لدراسة احتمالات تجدد الجراد فأمسكوا بي.

— ومن هذه التي معكم؟ زراعية أيضاً؟

* هذه المدام سارة. أخت آرون أفندي يا باشا.

ولم تتردد سارة. بل تقدمت: شرف كبير أن نتعرف على جمال باشا. اسمحوا لي أن لا أضيع هذه الفرصة التاريخية.

ملأ عينيه منها وهو يسمع كلماتها.

— حسناء مثلك هي التي يجب أن تتلقى كلمات المجاملة والإطراء. أهلاً بك.

* تشرفنا يا باشا.

هز رأسه وخرج. فدخل الجميع.

هذه المواجهة السريعة مع جمال باشا وضعت الجميع في جو الشغل الذي لم يترك مجالاً لأي شيء آخر. حتى أفشالوم نسي احتمالات إحراج سارة له. بل إنه كان سعيداً بمبادرتها التي شغلت الباشا عن المزيد من

الأسئلة له أو للبقية. أدخلهم ليوفا وبقي معهم.

* رأينا الباشا خارجاً.

— أعرف أنه خرج. هل رآكم؟

* رآنا وحدثنا.

— ماذا قال لكم؟

قال أفشالوم: سألني لماذا اعتقلني الألمان. ثم سلمت عليه سارة فلم يسأل عن شيء آخر.

قالت سارة باسمة: لا يبدو عليه أنه مهزوم في حرب.

ضحك ليوفا: وهل تترك الهزائم ندباتها على الوجوه؟

— إجلسوا واسمعوا. هناك أمور هامة يجب أن تعرفوها بسرعة. بن زفي وبن غورين معتقلان في القدس. والباشا مصر على ترحيلهما خارج البلاد. أبرق بذلك إلى اسطمبول. ورفض وساطة القنصل الأميركي وتدخلات الرابي باشا.

قال يوسف: أليس غريباً أن يُعتقل بن غورين بعد مقالاته الحماسية في صحيفة ها أشدوت ودعواته لليهود لأخذ الجنسية العثمانية؟

قال آرون: بعد حملة التفتيش التي قام بها الجيش في تل أبيب وعثوره على إيصالات الصندوق القومي اليهودي وشيكات البنك الأنكلوفلسطيني والطوابع التي عثروا عليها، صار الباشا أكثر تشككاً في ما يسعى إليه اليهود. البعض من جماعتنا مستعجلون جداً. وأنا لا

أستطيع تغطية كل ما ينكشف من أعمالهم. لا أريد أن أضع نفسي موضع شبهة. كيف أستطيع الدفاع عن روبين؟ هل أقول إنه كاتب ويجب أن يُراعى؟ هذا لا يكفي حين يجدون معه طوابع كُتب عليها: «كيرين — كيامة — إسرائيل». باختصار، العين علينا هذه الأيام. وأمامنا الآن رأيان: الأول رأي بن غورين. إنه يلوم أليشوف. ويعتبر سلبيتهم هي سبب غضب جمال باشا. ورأيه أن هزيمة العثمانيين لن يستفيد منها إلا العرب. ولذلك يجب أن نتعاون مع الدولة. مازال مصراً على رأيه هذا. ولذلك رفع التماساً بالبريد المسجل إلى جمال باشا أكد فيه أن هناك التباساً. وأن اليهود لا يريدون أكثر من أن يكونوا مواطنين عثمانيين وآمنين قرب أماكنهم المقدسة.

* عظيم.

— لا عظيم. ولا شيء. الالتماس على طاولته منذ عدة أيام ولم يقرأه بعد.

* هذا يعني أن العرب سيستفردون بنا.

— لا. العرب وقعتهم أشد سوءاً. جمال باشا سيعدم المعتقلين منهم. وقد شجعناه على أن لا ينتظر تصديق الباب العالي على الأحكام. كما أن هناك اعتقالات جديدة من خيرة العائلات السورية وتهجير للعائلات ذاتها إلى الأناضول. لديه أخبار عن احتمالات ثورة في

الحجاز يقودها الشريف حسين. ولذلك بدأ يضرب في كل اتجاه. العرب الآن مذعورون.

قال نعمان: ولكن الأمير فيصل في دمشق.

— نعم. وهو يسعى للتوسط من أجل المحكومين. لكن وساطته على ما يبدو غير مجدية. جمال باشا الآن لا هم له إلا نحن والعرب.

* ومتى تتوقع تنفيذ الإعدامات؟

— كما يقول العرب: بين عشية وضحاها. كما أن عمليات الاعتقالات الجديدة والتهجير قد بدأت. حتى الفرقة (٥٢) التي كانت قوة الهجوم الأولى في معركة السويس، وجنودها كلهم من أبناء العرب، أرسلت إلى جبهة غاليبولي. إنه يقتلع أظافر العرب.

لم تستطع سارة احتمال مزيد من التفاصيل. فسألت: ماذا نفعل نحن الآن؟

قال آرون: جمال سيذهب بعد أيام إلى القدس. سأسبقه. بن زيفي وبن غورين مصران على ضرورة مقابلة الباشا. وهي مقابلة حساسة. إما أن تنتهي بالعفو عنهما أو بإعدامهما. سأذهب لأهيئ الجو. وأعرف كيف أؤمن مقابلة أحدهما للباشا وهما سجينان.

— ونحن؟

قالها أفشالوم وكأن آرون سيذهب ويتخلى عنهم.

وقبل أن يجيب آرون قالت سارة: لم تقل لنا ما هو

الخيار الثاني؟

* ألتر ليفي.

أضطرت أن ترف بعينيها من المفاجأة: ما علاقة ألتر ليفي بهذا كله؟

قال آرون: ألتر ليفي هو صاحب الرأي الثاني: التعاون مع الإنكليز.

قال أفشالوم: ولماذا ألتر ليفي؟ ألا نحاول نحن تجديد الاتصال مع الإنكليز؟ أليس من أجل هذا ذهب ألكسي إلى مصر؟ أليس من أجل هذا كنت سأجتاز الصحراء وتعرضت للاعتقال؟

قال آرون: نعم. وألتر ليفي يعرف هذا كله. وهو من أخبرني أن ألكسي صار الآن في جبل طارق. وأن جهوده مع الإنكليز لم تثمر. كما أنه عرف بمحاولتك العبور.

قالت سارة: ومن أين يعرف؟

قال آرون: لديه مصادره. المهم الآن، ما رأيكم بفكرة التعاون معه؟

نهض نعمان وقال: أنا أرى أن نتعاون مع الإنكليز مباشرة. وأن نتابع محاولاتنا للاتصال. ولكن ليس عن طريق ألتر ليفي. أنا لا أثق بهذا الرجل.

أصرت سارة: لماذا يلاحقنا ألتر ليفي؟

قال آرون: هناك شيء مشترك بيننا وبين ألتر.

اعترض أفشالوم بسؤال استنكاري: وما المشترك؟ أننا كلنا يهود؟

رد آرون بهدوء: لا. المشترك هو أننا نعرف مثلما يعرف هو حقيقة ضعف الجيش العثماني. كل ما في الأمر الآن هو أن يعرف الإنكليز ما نعرفه. لو كان الإنكليز يعرفون أي جيش جمع جمال باشا خلال أشهر من استلامه شؤون سورية لما اكتفوا بما أوقعوه به من خسائر في القناة بل لطاردوه حتى اسطمبول. لو كانوا يعرفون ما عرفه شبابنا خلال خدمتهم العسكرية من أن كل خمسة جنود لديهم بندقية واحدة لهجموا اليوم قبل الغد.

ازداد توتر سارة: ما علاقة ألتر ليفي؟

— يريد أن يستفيد من امتيازاتنا. امتيازاتي هنا. والتغطية التي تحققها وظيفتي. وبالتحديد يريد أن يشغَل محطة عتليت لهذا الغرض.

نهض نعمان متوتراً وقال: أنا لا أتعاون مع هذا الرجل. ولست أرى أننا في حاجة إليه. خاصة أنه مكشوف وملاحق. نحن لدينا كل ما نريده. خمارتي وعمل آرون ومحطة عتليت، وسهولة حركتنا بالبطاقات التي نحملها. هذا كله يجعلنا في غنى عنه. فلنجدد نحن اتصالنا بالإنكليز.

— كما ترون. ولكن يجب أن نستأنف جهودنا للاتصال بالإنكليز. من منكم مستعد للسفر؟

تطلعوا إليه متسائلين. شرح لهم أنه سيرسل شخصاً منهم عبر اسطمبول إلى اليونان. ومن هناك يتم الاتصال بالقنصلية البريطانية لتحديد تفاصيل العمل من جديد ولفهم سر انقطاع الاتصال.

قال أفشالوم: أنا أذهب.

قال يوسف: هل كان هناك أي إشكال في المعلومات التي كنا نرسلها إليهم؟

قال آرون: لا أعرف. المعلومات قيّمة. ولكن ربما عوملت باستهتار، فلم تصل إلى حيث يجب أن تصل.

قال نعمان: أنا أرى أن تذهب أنت يا آرون. أنت تستطيع أن تقنع الإنكليز.

صاح أفشالوم بحدة: بل أنا سأذهب. أنا اتصلت بهم أول مرة. وأنا سأتصل هذه المرة. وكما أقنعتهم في المرة الأولى، أستطيع إقناعهم هذه المرة أيضاً.

حسم آرون الأمر: أنا سأذهب غداً إلى القدس من أجل مشكلة بن غورين. وقد أخبرت الباشا بأني ذاهب لمسألة متعلقة بالزراعة. وأفشالوم يذهب غداً إلى اسطمبول. قوموا نتغدى.

على الغداء كانت سارة مكفهرة. ورغم خروجهم من الجو ومحاولة إشاعة المرح إلا أن التوتر لم يفارقها.

سألها آرون: ما بك؟

قالت: لا شيء. وكانت عيناها لا تفارقان أفشالوم. لماذا

يتطوع للذهاب؟ هل يريد أن يهرب منها؟ أم أنه يريد أن يستعيد اعتباره بعد فشليه السابقين؟

— ٣ —

ما كادت سارة تدخل غرفتها في فندق خوام على ضفة بردى حتى رن الهاتف. رفعت السماعة مستغربة، فجاءها صوت آرون: سارة. إسمعي. لدينا دعوة رسمية للعشاء مع جمال باشا. لم أكد أدخل مكتبي حتى أبلغني سكرتيره بالدعوة.

قالت سارة: وما علاقتي أنا؟

قال: الدعوة لي ولشقيقتي ومن أشاء من أصحابي. سنذهب أنا وأنت فقط.

قالت مستغربة: ولماذا يدعوني الباشا إلى العشاء؟

قال آرون: ولو يا سارة. ألا تفهمين هذه الحركات؟ يبدو أنك أعجبته. وهو يظن نفسه دون جوان زمانه. وسيستغرب كثيراً إن لم تكوني قد مث في غرامه بعد. لا نستطيع أن نرفض دعوته. لا بأس من تعزيز علاقتك به. قد نحتاج إلى تمرير شيء عن طريقك. خاصة أنني مسافر إلى القدس.

خلعت ملابسها ولبست قميص النوم. وكان من الطبيعي أن تحس ببعض الارتياح. الباشا معجب بها. وازداد ارتياحها وهي تلقي نظرة على جسدها في المرآة.

وما كادت تتمدد على السرير حتى قرع الباب.

استغربت: هل هو أفشالوم؟

نهضت حتى الباب: من؟

— روم سيرفس.

فتحت الباب نصف فتحة فوجدت خادماً وأمامه عربة عليها عدة الشاي.

قالت: لم أطلب شيئاً.

قال لها وهو يدفع العربة لكي تفتح الباب أكثر: كومبليمنت من الفندق.

أسرعت تضع المعطف على جسدها مستغربة أن تكون مجاملة الفندق عبارة عن شاي، وأن يدخل النادل قبل أن تأذن له. لكنه بغتة خلع قبعته وتطلع إليها مبتسماً.

* ألتر!!

— كيف حالك يا سارة؟

* ألتر.. إطلع بره.

— إنتظري. لدينا حديث.

* لا أحاديث.

— إسمعيني قليلاً. سأختصر. أولاً قولي لآرون أن لا يكثر من الأحاديث على التلفون. ثانياً: بما أنك ستسهرين اليوم مع جمال باشا فمن المؤكد أن الأمير فيصل سيكون موجوداً. الباشا يحب استعراض نجاحاته النسائية أمام الآخرين. ولن تعدمي وسيلة تجعلك تعطين الأمير هذه الورقة دون أن ينتبه إليك

استغربت: هل هو أفشالوم؟
نهضت حتى الباب: من؟
- روم سيرفس.
فتحت الباب نصف فتحة فوجدت خادماً وأمامه عربة عليها عدة الشاي.
قالت: لم أطلب شيئاً.
قال لها وهو يدفع العربة لكي تفتح الباب أكثر: كومبليمنت من الفندق.
أسرعت تضع المعطف على جسدها مستغربة أن تكون مجاملة الفندق عبارة عن شاي، وأن يدخل النادل قبل أن تأذن له. لكنه بغتة خلع قبعته وتطلع إليها مبتسماً.
* ألتر!!
- كيف حالك يا سارة؟
* ألتر.. إطلع بره.
- إنتظري. لدينا حديث.
* لا أحاديث.
- إسمعيني قليلاً. سأختصر. أولاً قولي لآرون أن لا يكثر من الأحاديث على التلفون. ثانياً: بما أنك ستسهرين اليوم مع جمال باشا فمن المؤكد أن الأمير فيصل سيكون موجوداً. الباشا يحب استعراض نجاحاته النسائية أمام الآخرين. ولن تعدمي وسيلة تجعلك تعطين الأمير هذه الورقة دون أن ينتبه إليك

أحد. الأمر هام وخطير.

ترك الورقة على الطاولة واتجه إلى الباب، وهو يقول باسماً: لنا لقاء آخر خارج الشغل. فمازلت جميلة وتسحرينني. أنا لا أنسى أهدافي.

وخرج.

أمسكت بالورقة بعصبية وهي تنوي أن تمزقها. أنا لست مراسلة عند الذين خلفوك. ولكن خطر لها أن تفتحها فوجدت عليها الرسالة التالية: جمال يحتفظ بك رهينة. إنتبه. أخبرنا ماذا تنوي أن تفعل. نستطيع أن نساعدك.

ظلت الورقة في يدها وهي تفكر. المسألة هامة. هل تمزق الورقة؟ تستطيع أن تقول هذه الكلمات لفيصل إذا التقت به، دون أن تلفت انتباه أحد. ودون أن تضطر لتمرير الورقة بالسر.

ورن الهاتف مرة أخرى. رفعت السماعة بسرعة فجاءها صوت ألتر: إحذري أن تمزقي الورقة. إذا لم ير الخط الذي يعرفه لن يعتبر التحذير جدياً.

قالت بعصبية: وكيف سيعطيني الجواب الذي تطلبه؟

قال لها بهدوء: الجواب فيما بعد. وأنت ستجلبينه.

وأغلق السماعة.

إبن الكلب. يشغلني. يصدر لي الأوامر. لكنها في أعماقها كانت راضية. ها هي الآن مُعتمدَة وموثوقة. شخص ما، وإن يكن قليل الحياء، يوكل إليها مهمة خطيرة، ومع

أمير. ومن وراء ظهر جمال باشا، أخطر رجل يمكن أن يلتقي به الإنسان. ولكن هذه الخطورة ليست مقلقة. فالدعوة إلى العشاء مخصصة للتقرب منها. ليست في حاجة إلى تشغيل حسها الأنثوي كثيراً. فالأمر واضح. وجمال باشا في النهاية رجل مثل غيره من الرجال. ولكن أي رجل هو جمال هذا؟ هل هو واثق من أن شبابه آسر للنساء؟ أم أن سلطته الرهيبة، التي تجعل الناس يرتعدون، هي التي يزيحها قليلا ليتحدث بلطف مع سيدة، فتحس بامتنان وترتخي لترتمي عند قدميه؟ أم أنه يظل متعالياً منتظراً أن تتقرب منه النساء عارضات أجسادهن لإيقاظ شهواته، من أجل نيل رضاه، أو الشعور بالأمان لوجودهن ضمن حلقته؟ أو تحقيق مصلحة؟

أي رجل هو؟

أياً كان فإنها ستكون عصية. ستتعامل مع هذه الاحتمالات كلها. وستكون لطيفة وجذابة. ولكنها لن تعطيه شيئاً. وقرار كهذا يجعلها الآن تحس بالقوة.

رسالة سرية خطرة إلى الأمير، ومغافلة ذكية للحاكم البطاش، ودخول إلى عالم رجال السياسة والجيش!!!

ياي!!

شكراً يا ألتر.

ولماذا تشكر ابن الكلب هذا؟ ألأنه واثق بها؟ بالعكس.

لقد تصرف بما يدل على ثقته بنفسه أكثر من ثقته بها. تسلل ودخل وأعطى الأمر وذهب. ولم ينس شيئاً. حتى أنه لم ينس الإشارة إلى جمالها ليذكّرها بأنه مازال تواقاً إليها. ويذكّرها بمحاولته القديمة.

ولم تخبر آرون برسالة ألتر. لقد أرادت أن تخوض وحدها تجربة تثبت من خلالها ما الذي تستطيع أن تفعله، وكم يمكن أن تكون مفيدة.

— ٤ —

دخلت مع آرون وسلمت على الباشا، الذي بادرها ببشاشة وهو يقبل يدها: أهلاً. أهلاً لم أكن أظن أن اليهود بخيلون إلى هذا الحد.

تطلعت إلى آرون مستغربة هذه المجاملة الفظة. فأضاف الباشا موضحاً: آرون يبخل علينا حتى بأن نعرف أن لديه أختاً ساحرة مثلك.

إبتسمت مضطرة. وأجاب آرون: هذا شرف كبير لنا يا باشا.

— أهلا بالمدموزيل.

* مدام يا باشا.

— فإذن ليدي. أهلاً بالليدي.

وأرادت أن تحرجه: أين زوجتك يا باشا؟ إني متلهفة للتعرف بها.

قال دون أن يبدو عليه أنه قد أُحرج: الحقيقة أنني

أبلغتها عن السهرة في وقت متأخر. وكانت لديها التزامات مع العائلة. مرة أخرى إن شاء الله. ولكن لدينا ليدي أخرى سنعرفك عليها. الليدي دكتور آنا ليستر. ألمانية.

وسلمت عليها دون اهتمام شديد. فقد وقع نظرها على الأمير فيصل وعرفته فوراً. لباسه العربي وعباءته المقصبة. ثم وجهه السمح الذي لا تخطئه العين. هذا رجل يغري بالمغامرة. وليس ذلك الباشا بعينيه الجرذيتين.

حين اقتربت منه مع أخيها كانت قد هيأت الورقة. سلم آرون على الأمير ثم قدمها له. فمدت يدها بالورقة وأبقت يدها في يده. فقال آرون ممازحاً: لا تتوقعي أن يقبل الأمير يدك. فعاداتهم مختلفة.

إبتسم الأمير بلطف وعاد إلى الجلوس، دون أن يبدو عليه إحراج من ملاحظة أخيها، أو ارتباك من الورقة التي دستها سارة في يده.

وحاولت خلال السهرة أن تلاحقه بنظراتها لعله يعطيها إشارة، أو يتقرب منها ليهمس بكلمة. لكنه تجاهلها تماماً. هذا لا يعني فقط أن رسالة ألتر لم تعن له شيئاً. بل أن الأمير من النوع الموزون الذي لا يدلق نفسه على النساء.

وعلى المائدة تطلعت إليه وسألته: أين يقيم سمو

الأمير؟

فأجاب: في القابون. عند أصدقائي آل البكري.

وشغلت نفسها. ثم التفتت إليه ثانية، وبإمعان مقصود: ألا يريد الأمير أن يعطيني الجواب؟

بثقة وبلهجة طبيعية قال لها: أليس جوابي كافياً؟ أم أنك لم تسمعيه جيداً؟ أنا مقيم في القابون عند أصدقائي من آل البكري.

وضحك جمال باشا وقال معقباً: تظل بدوياً قاسياً يا أمير. حين تسأل حسناء مثل الليدي سارة سؤالاً يجب أن يغتنم الرجل الفرصة لفتح حديث طويل معها. النساء لا تعجبهن الأجوبة المختصرة.

ثم التفت إليها وقال ضاحكاً: أنا أنتظر أن تطرح علي الليدي سؤالاً.

وبسرعة سألته: كيف الحال يا باشا؟

فضج الجميع ضاحكين.

ومع أن الباشا ضحك معهم معجباً ببداهتها، إلا أنه لم يرض أن يسلِّم بهذه السهولة. فسألها: عن أية حال تسأل الليدي؟ حالة البلد؟ أم حالة الحرب؟ أم حالتي الشخصية؟

فأجابت مرة أخرى: حالة الطقس.

وضحكوا من جديد.

وأحست الليدي دكتور أنها قد أزيحت إلى الدرجة

الثانية فراحت تنتظر الفرصة المواتية للانسحاب من السهرة.

- ٥ -

سهرات كهذه تجعل فهمي بك على وشك الانفجار دائماً. جمال باشا وضيوفه يسهرون ويتبسطون وينشرحون. وعليه، هو، أن يؤمن حماية دقيقة لمكان السهرة.
كل شخص يدخل إلى المكان يجب أن يعرفه دون أن يثير انتباهه. حراسة دون إزعاج. والمهمة الأكثر صعوبة هي أن عناصره يجب أن يتولوا هذه الحماية دون أن يعنيهم ما يحدث بين الساهرين. هم موجودون وغير موجودين. يجب أن لا يحس بهم أحد لئلا يفسد جو السهرة. ويجب أن يكونوا متواجدين في كل مكان. ما يرونه لا يعنيهم. لا يعنيهم إن شاهدوا رقصاً أو تبسطاً أو تبذلاً أو غزلاً أو تماجناً. لا يعنيهم أن يتطوح أحد الذوات سكراً أو يتقيأ أو يتباذأ.
موجودون وغير موجودين. كيف سيتم هذا؟ إنهم، في النهاية، بشر. ولكن عليهم أن ينسوا ذلك الآن. فهمي نفسه يجب أن ينسى أنه بشر، وأنه بيك، وأنه ضابط كبير في شرطة دمشق. عليه أن ينسى ذلك. لأن ما يحدث في الداخل لا يعنيه. وفي الوقت ذاته عليه أن لا ينسى ذلك ولو للحظة. فأي خطأ يمكن أن ينجم عنه إفساد السهرة، أو إزعاج أحد فيها، أو وصول شخص

غير مرغوب فيه، سيكون ثمنه رأسه.

العيون عشرة على عشرة. والآذان عشرة على عشرة. وفي الوقت ذاته صمٌ بكمٌ عميٌ....

كان ذلك يجعل فهمي كتلة من الأعصاب. وبقدر ما يكون منتبهاً ويقظاً فإن الخوف من وقوع أي خطأ كان يجعله مستعداً للانفجار والضرب والشتم حين تصدر أية هفوة من أحد عناصره. وأحياناً دون هفوة. لمجرد أنه خائف ومتوتر الأعصاب.

ولهذا فإنه حين رأى عارف في المكان أحس برجفة تجتاح جسده. وتمنى لو يطلق عليه النار.

– ماذا تفعل هنا؟

* أتمشى.

– تمشَّ في غير هذا المكان يا أخي.

* ولو يا فهمي بيك.

– عارف. أرجوك. لا تضايقني. ولا تحرجني. غادر هذا المكان فوراً.

* يا أخي دعنا نتفرج على سهرات معلمينا.

– عارف. المفروض أنك سافرت إلى القدس. ما الذي أبقاك؟

* شغلي.

– وما هو شغلك؟

* سهرة كهذه لن يفوّتها ألتر ليفي. سأقبض عليه هنا.

– ألم تقل إنك ستستدرجه إلى القدس؟

* لكنه الآن لا يزال هنا في دمشق.

– إن كان في دمشق فهذه مسؤوليتي أنا.

* تستطيع أن تقبض عليه؟

– تريد أن تهينني يا عارف؟ والله لم يقصروا فيك. أنت فعلاً تحشر نفسك حيث لا متسع لك.

* شامت؟

– عارف. لا وقت لدي للأخذ والرد معك. إذهب قبل أن أطلب إلى العناصر أن يعتقلوك.

لأول وهلة ظن عارف أن فهمي يمزح. لكن رجفة في وجه فهمي واحمراراً في عينيه وتهدجاً في صوته، هذا كله جعله متأكداً من أن بقاءه سيورطه مع صديقه. ولكنه طرح سؤاله الأخير: قل لي فقط هل هذه السيدة هي آنا ليستر؟

بنفاد صبر قال له فهمي: لا. هذه سارة آرونسون. آنا ليستر هي التي تراها خارجة الآن.

وأنقذ الاثنين من المزيد من الحرج أو الشجار ظهور عبد السلام.

سلم على عارف بسرعة، واعتذر أنه سيرافق الليدي إلى فندقها. فمشى معه عارف نحو الليدي وهو يقول له: ألديك أخبار عن إبراهيم؟

أجاب عبد السلام بسرعة: قلت لك إبراهيم بخير. تريد

أن أمر عليك فيما بعد؟ أين تنزل؟
ولم يجب عارف. أدار ظهره وذهب دون أن يتطلع جيداً إلى الليدي. لكن خلية من النحل كانت تجيش في رأسه. صحيح أنه مشغول على ابنه، وصحيح أنه جاء ترقباً لإمكانية ظهور ألتر؛ ولكن هذه المرأة، سارة آرونسون، التي ظهرت بغتة في السهرة شغلته حتى عن ألتر ليفي.
وركبت الليدي في العربة. سألها عبد السلام: لماذا اختصرت سهرتك؟
فأجابت ببرود: الباشا وجد ما يشغله عني.
– سارة آرونسون؟
* سارة. أنا لا أحب الدخول في مباريات نسوية للفوز برجل. هذا يجعلني أحس بالسخف.
– ألا يشعرك بالرغبة في الانتقام؟
تطلعت إليه باستخفاف: أنتقم؟ كيف؟ بأن أمنح نفسي لآخر؟
أجاب بجدية مقصودة: مثلاً.
فربتت كتفه كما يمكن أن تفعل مع طفل: مازال ينقصك الكثير حتى تفهم النساء. وخاصة الأوروبيات.
– يعني ولد؟
فردت مهدئة: بل رجل. بدليل أن عندك خطيبة. ولكنك رجل غير ناضج تماماً. غداً نستطيع أن نكمل حديثنا.

وانتهت السهرة دون أن تتمكن سارة من أن تلتقط عيني الأمير. فخمنت أنه أجّل المسألة.

وعند الوداع أصر جمال باشا على الغداء في اليوم التالي ببيته: لنعزّف الليدي على المدام. فقبلت بسرور، على الرغم من أن آرون قال للباشا: أنا سأسافر إلى القدس لعمل ضروري يا باشا. ولذلك أخشى عليك من وجودك وحدك مع سارة.

فقال الباشا ضاحكاً: نسيت ما قاله أندريه جيد؟ عمري لم أنتصر على امرأة إلا عند التسليم بأنها انتصرت علي.

وخرجا.

في الطريق لم يعلق آرون على السهرة. بل سألها: ماذا قررت من أجل حاييم؟

قالت له: لن أعود. مكاني معكم هنا.

– هل يعرف بقرارك هذا؟

* سيفهمه بنفسه.

– تخاصمتما؟

* لا. ولكنني لم أعد أطيق البقاء.

وتطلعت إليه بقوة: أريد أن أشتغل معكم.

الشغل ليس مشكلة. أنت تشتغلين منذ الآن. ولكن الأفضل أن تبلغي حاييم بقرارك في البقاء هنا. سنكتب له رسالة مشتركة.

يعني أنك موافق؟

* إفعلي ما يريحك. سنرسل له الرسالة غداً مع أفشالوم.
توقفت وتطلعت إليه: تترك لي حرية القرار لأنك تثق بي؟
طبعاً. هل لديك شك في ذلك؟
* هناك فرق بين أن تترك الحرية لشخص، وبين أن تهمله.
سارة، نحن في وضع خاص. الأطفال يجب أن يتم فطامهم بسرعة. يجب أن ينضج الجميع بسرعة. وأن يصبحوا قادرين على التصرف والاعتماد على أنفسهم. رفقة هشة. أزمة عاطفية تهزها وتبلبلها. لم تعد قادرة على التوازن. تريد أن تهاجر. فلتهاجر. لا فائدة من بقاء أي إنسان هنا إلا إذا كان قادماً برغبته ومنخرطاً في العمل بحماس وفدائية.
كانت راغبة في استجرار الحديث نحو الأزمة العاطفية التي تعرضت لها رفقة لكي تسمع منه أي كلام عن أفشالوم. لكنه ربّت كتفيها مختصراً الحديث: أدخلي ونامي.
وتركها عند باب الفندق.
توقعت أن تجد ألتر بانتظارها. وكانت تود لو تراه. على الأقل ستسأله عن هذه الليدي دكتور الألمانية التي كانت في السهرة. ولم تستطع أن تخمن أين ستلتقي به: بالباب؟ عند الاستقبال وهي تأخذ المفتاح؟ في الطريق

إلى غرفتها؟ في الغرفة؟

في الغرفة؟ معقول؟

لكنه لم يكن في أي مكان. لم يظهر ولم يتصل.

وأين أفشالوم؟ كيف نسيت أن تسأل آرون عن المكان الذي سينام فيه الشباب؟ هل من المعقول أن يسافر أفشالوم قبل أن تراه؟ لا. آرون قال إنه سيرسل رسالتها إلى حاييم معه. إذن يجب أن تكتب الرسالة.

وجلست تكتب.

– ٧ –

ؤوعارف لم يستطع النوم. بعد منتصف الليل خرج يتمشى. ووجد نفسه، دون تفكير، يتجه إلى مكان السهرة. لكن الهدوء سائد. والمكان خاو من الداخل والخارج. لقد انفضت السهرة. ووجد نفسه يتجه إلى بيت فهمي. وحين فتح فهمي الباب كان قد بدأ يخلع ملابسه.

ابتسم عارف ابتسامة عرف أنها وقحة: لم أستطع أن أنام قبل أن نصفي القلوب.

– أدخل. أدخل. قسماً بالله ليس في رأسك عقل.

ودخلا. فتابع فهمي بلهجة لم يستطع الود أن يخفي القسوة منها: تظن حماية الباشا لعبة؟ حتى ضابط مثلك طالما أنه غير مدعو فإن وجوده يثير الشبهة. ألا تعرف ذلك؟ ألا تعرف أن أي عربي يثير الشبهة؟

* وهل تلك المرأة عربية؟ قالها عارف، وهو يجلس غير مهتم بعصبية زميله.

تطلع إليه فهمي وكأنه لم يسمع جيداً: أية امرأة؟

* التي كانت تجلس قرب الباشا.

سارة؟ كانت تجلس مع أخيها. أخوها آرون آرونسون المهندس الزراعي. واحد من المقربين من الباشا.

* ليس في حاجة إلى أخته إذاً لكي يتقرب من الباشا.

ماذا تريد أن تقول؟

نهض عارف: إسمع يا فهمي. أنا أستطيع أن أقبل أي شيء. ولكن لا أسمح لأحد أن يتعامل معي على أنني حمار.

ولم يستطع فهمي أن يمنع نفسه من الضحك: إذاً لا تبح بسرك هذا لأحد.

ولم يضحك عارف، ولم يغضب. بل تابع: فايمان بري استجحشنا كلنا. وبعده ألتر ليفي. هذا لن تكون نهايته إلا على يدي بإذن الله. تعرف؟ لا أحد يستطيع استجحاشنا إلا القريب من الباشا. وهذا اليهودي آرون الجالس في حضن الباشا لا يعجبني. فما الذي سنفعله مع واحدة مثل أخته؟

يبدو أن الأخت أعجبتك.حلوة. أليس كذلك؟

* وهنا المصيبة.

واتجه نحو الباب: لاتؤاخذني على ما جرى اليوم. أعدك

أن أسافر غداً. أقصد اليوم.

قالها حين فاجأه الفجر وهو يفتح الباب.

– ٨ –

في الصباح نزلت سارة إلى المطعم لتناول إفطارها فوجدت أفشالوم وحده. لقد أفطر وجلس ينتظرها. ولم يحب أن يتصل بغرفتها لكي لا يزعجها. الشباب سيأتون بعد قليل. وسيسافر هو إلى اسطمبول. والشباب كلٌّ إلى شغله.

– أين سهرتم أمس؟

* أنا ظللت في غرفتي أقرأ. ونعمان وليوفا ويوسف ذهبوا يسكرون.

– ولماذا لم تشاركهم؟

* شربت كأساً وأنا أقرأ. لا أحب سهراتهم. بعد السكر يذهبون إلى المبغى. وأنا لا أحب الأجواء الرخيصة.

– أفهمني ما الذي تحبه أنت؟

* أحب أن أنجح في عملي. إسمعي. قررت أن نسمي منظمتنا «نيلي».

– ما معناها؟

* الأحرف الأولى من عبارة التوراة: «نتساح يسرائيل لو يشاكر»: خلود إسرائيل لا يخيب. ما رأيك؟

– خلود؟ هل أنت مؤمن بالخلود؟

* إذا كان يعني بقاء عزة الشعب اليهودي التي وعدنا

الله بها فإنني مؤمن. ألا تؤمنين؟
لا أعرف. لست بحاجة إلى هذا كله. أنا أعرف أن شعبي يجب أن يعيش آمناً. وأعرف كيف أخدم هذه القضية البسيطة المؤلفة من كلمتين: «يعيش» و« آمناً». وأعتقد أننا نسير في الطريق الصحيح دون أن نجلب الله إليه.
* ولكن الموضوع يصبح أكثر عمقاً حين يعود هذا الحق بالعيش الآمن إلى الماضي السحيق حيث أعطى الله وعده. تعرفين؟ هذا يعطيني الإحساس بأننا أبطال أساطير. يعني يصبح بيننا أخيل وأغاممنون وهكتور وأوليس و... هيلين.
ضحكت سارة: هيلين!!
لكن الفكرة أعجبتها فأضافت: كان يجب أن تذكر باريس. أتعرف؟ على الرغم من أن باريس كان جريئاً، فعشق هيلين وخطفها من زوجها وتسبب في هذه الحرب الفظيعة لكن يبدو لي أنه شاعر.
بأي معنى؟
* بمعنى أن دوره الوحيد هو أن يحب، وأن يترك الحرب لغيره.
هل ترين الشعراء هكذا؟
* بصراحة: أحس أنك تشتغل ما لا يلائمك. حتى سفرتك هذه لولا جانب المغامرة فيها أراها لا تليق

بشاعر. دع نعمان يسافر. نعمان، بشاربيه المعقوفين ووجنته المحمرة من الدعارة والشرب، يصلح لمغامرة خطرة كهذه أكثر منك.

أحس بالإهانة لكنه كتمها: تربنني غير لائق؟

أنت باريس. تليق بالحب فقط.

* وأترك حتى هيلين تقاتل؟

ضحكت: لو أن باريس يتفرغ لحب هيلين لما احتاجت لأن تقاتل.

كذابة. أنا واثق لو أن اليهود جمعوا مليون مقاتل ليحاربوا لما أحسست أن عددهم كاف دون تدخلك. أنت لا تصلحين لدور هيلين يا عزيزتي. أنت لا تنتظرين عاشقاً يخطفك من زوجك. أنت تتركين الزوج وتبحثين عمن تحبين. لذلك أنت لست هيلين. أنت دليلة. وربما كان الأفضل أن أسميك نيلي. الآن أكتشف أن الاسم جميل. فهو يصلح لأن نطلقه على فتاة. جميل أن نتحدث عن نيلي، المنظمة، والآخرون يظنون أننا نتحدث عن امرأة. ما رأيك؟

أعادها كلامه إلى الواقع بعد أن شطحت في خيالها مع هيلين.

* جميل. حكيتم لآرون عن نيلي؟

سيخبره نعمان ويوسف وليوفا. قادمون بعد قليل.

* متى ستسافر؟

الآن. بعد أن يصلوا.

* ستأخذ هذه الرسالة معك. وقدمت له الرسالة التي كتبتها في الليل.

لمن؟

* لحاييم أبراهام. زوجي. تعطيه إياها حين تصل إلى اسطمبول.

تطلع إليها مضطرباً: أنا آخذ رسالة إلى زوجك؟

ابتسمت له بعذوبة: طرف آخر تستأذنه لكي تحبني.

هل جننت؟

وضحكت: تحب أن تقرأ الرسالة؟

قال محتداً: لن أقرأها. ولن آخذها.

* أنت حرٌّ في أن لا تقرأها. ولكن يجب أن تأخذها. تعرف لماذا؟ هذه رسالة ستعطيني حريتي. لم أغلق المغلف لأن آرون سيكتب له شيئاً ما.

هل تعتذرين لعدم العودة؟

* لم أقدم له أي عذر.قلت له فقط إن حياتنا معاً صارت مستحيلة. وأنا سأبقى عند أهلي.

هل سيطلقك؟

* إن لم يطلقني لن يستطيع أن يجبرني على العودة. وإذا احتاج الأمر فإن آرون سيطلب من الحاخام باشي في اسطمبول أن يتدخل، ولو أدى الأمر إلى سجنه لكي يطلقني.

ومدت يدها برقة ولمست يده: هل تتوقع أن يطول غيابك؟

لا أعرف.

سأكون بانتظارك.

لا تعرف كيف تصف حبها لهذا الشاعر. إنه مثل الريح. يطوِّح بها هنا وهناك. يلقيها تارة على الأرض. ويقذف بها تارة أخرى إلى الغيوم. يجعلها ترغب في أن تكون حورية أحلام تارة، ومقاتلة ببندقية تارة أخرى. أما هو فيظل هادئاً وغامضاً مثل البحر الذي يتجاهل أنه دمر مدناً وأغرق سفناً.

الفصل التاسع

— ١ —

توجه عارف إلى السرايا في القدس ليقابل المتصرف. وبعد أن وصل إلى الباب اكتشف أنه مبكر، وأن الآخرين من البكوات والباشوات لن يأتوا قبل ساعتين على الأقل.

نزل إلى القبو ففوجئ به العناصر الذين كانوا يستيقظون من نومهم على مهلهم. فهذا لا يزال بملابسه الداخلية. وذاك يغني وهو يحلق ذقنه. وثالث لا يزال متمدداً في سريره. وغيره يخرج من المرحاض وهو يقفل سرواله.

دب الذعر والارتباك بين العناصر. حتى عارف تمنى لو أنه لم يأت في وقت كهذا. ولكي يخفف من إحراجهم دخل غرفة رئيس حرس السجن الذي كان مستيقظاً. فسلم عليه بيده، مما أربك رئيس الحرس الذي لم يتعود مصافحة الرتب العالية. ثم جلس وراء الطاولة. فظل رئيس الحرس واقفاً باستعداد.

قال له عارف بتبسط: إجلس. إجلس. خبرني. كيف أحوالكم؟

نشكر الله يا سيدي.

في هذه اللحظة لمع في ذهنه ألتر ليفي. ماذا لو دخل

ألتر ليفي عليهم وهم في هذه الحالة مدعياً أنه ضابط؟

ألا يستطيع أن يفعل ما يشاء؟

تطلع إلى وجه رئيس الحرس وقال له: عرفتني؟

قال رئيس الحرس: لا باللّه. بلا زغرة ما عرفتكم.

قال عارف: أقعد يا ابني. أقعد. أنا البنباشي عارف بك إبراهيم.

أنعِمْ وأكرِمْ. أهلا وسهلا. تشرفنا يا سيدي. تفتيش سيدي؟

* لا. أنا كنت رئيس شرطة العدلية في بيروت. و نُقلت إلى هنا لأستلم رئاسة الشرطة.

أنعِمْ وأكرِمْ يا سيدي. حلت البركات.

حتى الآن كله كلام بكلام. هذا بالضبط ما فعله ألتر ليفي.

* ما اسمك؟

الرقيب نور الدين حفار يا سيدي.

* كم عدد العسكر هنا؟

ثمانية وأربعون في المقر هنا يا سيدي.

* من عندكم من المساجين؟

المساجين كثر يا سيدي. أنت تعرف الأحوال.

* معك حق. في هذه الأيام ليس هناك أكثر من المساجين والجائعين؟

ارتاح رئيس المخفر لتحويل الحديث من الاستجواب

إلى المحادثة فابتسم: هناك من يتطوعون إلى الحبس لأنهم يعرفون أنهم في الحبس سيأكلون.

* وكيف الأكل في الحبس؟ يغري بالتطوع؟

لا تشد يدك بقوة يا بيك. حتى نحن، العسكر، طعامنا ليس كما ينبغي. ولكن أحسن من بره. بره الناس تموت من الجوع.

ولاحظ عارف أن عين رئيس المخفر تنخطف من النافذة إلى الخارج. ألقى بنظرة طبيعية، فرأى في البناء المقابل واحداً من العناصر واقفاً أمام نافذة مفتوحة تحدثه منها امرأة عجوز.

* هل هناك مساجين عليهم قيمة؟

كان عندنا يا سيدي. ولكن الذين عليهم القيمة ترحلوا كلهم. لم يبق إلا زعماء العشائر واليهود.

مَن مِن اليهود؟

* اثنان يبدو أنهما من الزعماء.

وقرع الباب فدخل شرطي يحمل باقة من الورد: يصبحكم بالخير يا بيك.

ووضع باقة الورد أمام عارف على الطاولة وهو يقول: من عند الخضرة.

تذكر عارف أنه العنصر ذاته الذي كان يتحدث مع العجوز. كما قدر أن هذا العسكري قد فهم من زملائه أن رتبة كبيرة قد نزلت بهم فأحب أن يتملقها بباقة الورد.

شم الورد وصلى على النبي. ثم تطلع إلى رئيس المخفر: من هي الخضرة؟

أجاب مرتبكاً محاولاً إخفاء ابتسامته: الخضرة يا سيدي هي فرس دياب بن غانم في تغريبة بني هلال. الشباب يتسلون بها في الليل، ويحفظون الأسماء، ويتمازحون بها في النهار.

* أين تسمعون التغريبة؟

التغريبة سمعناها في هذا البيت. وأشار إلى البيت الذي فيه العجوز. ولكننا الآن نسمع قصة عنتر في المقهى.

* حين تسمعون التغريبة مرة ثانية أخبرني. ثم نقل نظره إلى النافذة: وما هو هذا البيت؟

هذا مسكن خليل بك السكاكيني. واحد من الإصلاحيين. جاء الأمر بتهجيره إلى الأناضول. وظل بيته خالياً. هذه العجوز من أصحابهم القدامى. يهودية من النبي صاموئيل. يبدو أنهم أعطوها المفتاح. تأتي كل يوم. تفتح الشبابيك لكي تهوّي البيت وتدخل الشمس إليه. وتطعم الحمامات. وتسقي الوردات. إلى أن يرى المسؤولون حلاً للبيت. والبيت مثله كثير. ولكن الشباب ملاعين. لأنها عجوز على حافة قبرها بطيئة الحركة كثيرة التدخين والسعال سمّوها خضرة دياب ليسخروا منها. بعضهم على صحبة معها، كما ترى. يجلبون الورد من عندها ويتهامسون لسرقة الحمامات

التي عندها. وهي طيبة. سمحت لهم أن يجلبوا الحكواتي إلى البيت، لكي يسمعوا التغريبة وهم قريبون من السرايا.
* والدار غير مسكونة الآن؟
أظن أن الأوامر تقضي بأن يسكنها بيكوات. ربما أعطوك البيت يا سيدي طالما أنك جديد.
نهض عارف: سنلقي نظرة على المساجين.
لم يكن وضع المساجين مختلفاً كثيراً عن وضع الدرك. لكن قوة الروائح أجبرته على اختصار جولته. قال له نور الدين: ألا ترى الغرفة الخاصة؟
* غرفة خاصة؟
هذه يوضع فيها المساجين الذين عليهم العين. ويكونون على الأغلب من الزناكيل. يدفعون ثمن عزلهم عن المساجين الآخرين. وثمن طعامهم.
* يعني مساجين على حسابهم.
شيء من هذا.
* ومن يسمح بهذه المعاملة الخاصة؟
طوال عمرنا هكذا يا بيك. رؤساؤنا يقبلون. ونحن ننفذ.
* تعال أرني.
لم يكن في الغرفة الخاصة إلا أربعة أشخاص اثنان منهما يلبسان البيجامات واثنان كان واضحاً من لباسهما أنهما من البدو. شرح له نور الدين: البدويان من عشيرة

رفادة محتجزان بسبب الوشاية بأن سليمان باشا رفادة، زعيم العشيرة، كان يدبر مؤامرة لاغتيال أنور باشا حين جاء في زيارته الأخيرة. يبدو أن الأمر دسيسة. ولذلك نتوقع إطلاق سراحهما قريباً.

* والاثنان الآخران؟

هذان هما اليهوديان اللذان سيتم ترحيلهما خارج البلاد. بن زيفي وبن غورين.

تطلع إليهما عارف بإمعان فلم يرفعا نظريهما. يبدو أنهما اعتادا على تلك النظرات الفضولية.

وخرج عارف من السرايا ليتناول إفطاره في مكان قريب، ريثما يحين موعد مجيء البكوات أصحاب المراتب العالية.

– ٢ –

لم تكن سارة مهتمة باللقاء بالأمير فيصل، لكي تجلب جواباً ينتظره ألتر. فهي، مرة أخرى، تقول لنفسها وكأنها تقول لألتر: أنا لست موظفة عندك. ولن أشتغل إلا مع آرون. وقد ندمت الآن لأنها أخفت عن أخيها مسألة الرسالة إلى فيصل. كان يجب أن تخبره لكي يقول لها ماذا تتصرف.

فات الأوان على الندم. آرون في القدس وهي هنا في دمشق. ولم تكن أيضاً مدفوعة بالفضول لمعرفة الفصل التالي في القصة المثيرة التي تحدث أمامها: أمير يأتي

من الجزيرة العربية على رأس خمسين فارساً. ينزل في القابون عند آل البكري. ثم يستضيفه جمال باشا. ويعطيه مكتباً في السرايا. ويحاول الأمير التدخل لصالح مجموعة من الناس يريد الباشا أن يعدمهم. وبدل أن تنجح الوساطة أو تفشل يصبح الأمير نفسه رهينة. بل لقد تسرب إلى مسامعها أن لقاء غير ودي قد تم مؤخراً بين الأمير والباشا بحضور علي فؤاد باشا. وأن صوت جمال قد سُمع خارج القاعة وهو يهدد ويتوعد بسبب تصرفات الأمير علي، شقيق الأمير فيصل، والتي يشكو منها حاكم المدينة المنورة.

من المثير تتبع قصة كهذه ومعرفة تطوراتها.

ولكن ما كان يعني سارة بالدرجة الأولى، كما اكتشفت بينها وبين نفسها، هو أن الأمير لم يهتم بها، لا كامرأة، ولا كمراسلة تحمل إنذاراً خطيراً ووعداً بالمساعدة.

هل هو مهتم بالليدي دكتور؟ تذكرت أنهما كانا يتهامسان في السهرة. من هي هذه الليدي؟

ليس لديها أي شك في أنها تنام مع الباشا. طريقة تصرفها في السهرة، وإن تكن قد أبعدت فيها إلى الظل، تشي بأن لها دالة خاصة على جمال شبيهة بدالة المرأة على زوجها. الطريقة التي انسحبت بها. طريقة تعامل جمال معها. حتى غبطته بذهابها ليتفرغ لسارة هي غبطة رجل يتهيأ لخيانة.

ليس هذا مهماً. يجب أن تعرف ما الذي تفعله بالضبط في هذه البلاد. ربما كان ألتر قادراً على الإجابة، ولكنها لن تعتمد عليه في كل شيء. ولم تستطع أن تقاوم الرغبة في القيام بزيارتها.

كانت آنا وعبد السلام يشربان القهوة في صالون الفندق حين فوجئا بدخول سارة. وفوجئت سارة بذلك الشاب الوسيم الذي يجالس الليدي. وحين اتجهت إليهما نهضت آنا لاستقبالها.

جلس الثلاثة معاً. وبعد المجاملات الأولية قالت سارة: أنا آسفة بشأن سهرة الباشا. الحقيقة أنني كنت مأخوذة بالجو، ففاتني أن أتعرف بك جيداً. وبإشارة واضحة نحو عبد السلام أضافت: ويسرني أن أرى أنك لا تضيعين وقتك.

بكثير من الاتزان والهدوء قالت آنا: هذا الملازم عبد السلام. مكلف بمرافقتي.

نظرت إليه سارة نظرة إعجاب واضحة: ونعم المرافق. ووجد نفسها تهمل فضولها الذي جاءت من أجله وتهتم بعبد السلام. صار الحديث موجهاً كله إليه. ورأى أن عليه مجاراتها من باب الأدب. وصارت آنا مرة أخرى على الهامش. وذكرت سارة متعمدة أنها تنزل في فندق خوام. وأنها لأول مرة في دمشق. وهي وحيدة. فأخوها قد سافر إلى القدس بعد أن تورطت في المجيء إليه

هنا.

وأحست آنا بما تلمح إليه سارة فقالت لها: ولماذا لا ترجعين إلى أهلك؟

ضحكت سارة: الحقيقة أنني أرى الجو هنا مسلياً. وبغمزة مقصودة أضافت: ولكن الباشا مشغول جداً. ولا أعرف ماذا أفعل بوقتي الطويل في النهار.

ونهضت وهي تطيل إبقاء يدها في يد عبد السلام وتسأله إن كانت تستطيع أن تعتمد عليه في بعض الأمور «بعد أن ينهي شغله مع الليدي» لأنها لا تعرف دمشق جيداً. ثم انصرفت.

وفي طريق العودة لم تستطع أن تفسر سبب تصرفها من أساسه. لماذا جاءت إلى الليدي؟ ولماذا رغبت أن تنتزع منها هذا الشاب؟ هو جميل يلفت النظر فعلاً. قالت لنفسها: لا بأس بالقليل من اللهو. ولكنها لم تكن تعني ذلك جدياً. فاللهو الحقيقي الذي تحس بمتعته هو التغلب على امرأة جميلة مسلحة بإغراء أوروبيتها. واعترفت لنفسها أن ما يسيرها الآن هو رغبة شريرة خالصة.

ولم تكن الليدي أقل منها تشوشاً: ماذا تريد سارة من هذه الزيارة؟

قال لها عبد السلام، بعد أن خرجت سارة: زيارة مجاملة لك.

قالت: ولكنها بعد جلوسها لم تتحدث معي. كان حديثها كله معك.

ضحك عبد السلام: صدقيني لا أعرفها. أول مرة رأيتها فيها كانت في تلك السهرة مع الباشا.

قلت لك إنني لا أحب الدخول في مباريات للفوز برجل. ولكنني أحذرك من هذه المرأة. إنها يهودية. واليهود يتصلون بالإنكليز. وربما كانوا يريدون توريط الباشا في مسألة ما.

ولكن عبد السلام حين خرج من فندق داماسكو بالاس كان منشغل الذهن بسارة. وكان قد داخله بعض الغرور لقوة تأثيره على امرأة جميلة مثلها، وفي هذا الوقت القصير. وقرر أن لا يفوت هذه الفرصة. فهو يكاد يطلع من المولد بلا حمص. نهال ضيعت عليه الليدي دكتور. والليدي تضيع عليه سارة. وقرر أن يذهب إلى سارة في فندق خوام.

وحين وصل إلى باب الفندق وجد رجلاً بلباس الخدم يعترضه: إلى أين؟

قال بثقة الضابط المتنفذ: إبتعد عن طريقي.

ولكن الرجل كان مصراً بعناد: ألا تقول لي إلى أين؟

ورد عبد السلام مستغرباً هذه المعاملة لضابط مثله: ألا ترى مع من تتحدث؟

أري. ملازم.

* ملازم من حرس الباشا. أريد نزيلة هنا اسمها سارة. سارة آرونسون.

ممنوع.

* ممنوع؟ ومن أنت حتى تمنعني؟

إسمع يا حضرة الملازم. هذا فندق محترم. وليس مسموحاً زيارة السيدات الساكنات فيه.

وأحرج عبد السلام الذي لا يحب أن يكشف عن نواياه تجاه النساء. فاضطر إلى الكذب: أنا قادم من طرف الباشا شخصياً.

رد عليه الرجل: قل رسالتك ونحن نوصلها للسيدة.

واسترجع عبد السلام ما يحتاج إليه من الثقة التي تمنحه إياها رتبته: ألا ترى أنك قليل أدب؟

فرد الرجل بهدوء: أرى. نعم. أنا قليل أدب. ولكنها أوامر الباشا نفسه.

أوامره لك؟

* نعم. وأرجو أن تبلغ الباشا أن ألتر ليفي وبناء على أوامره هو قد منعك من دخول الفندق.

ولم يشأ عبد السلام أن يخوض مشاجرة في موقف كهذا سينتهي في كافة الأحوال إلى عدم قدرته على الالتقاء بسارة.

فقفل راجعاً وهو يهز رأسه مهدداً: سترى يا ألتر. أياً كنت.

ودخل ألتر إلى سارة يبلغها بما فعل. فانتفضت غاضبة:
وما شأنك أنت؟ رجل قادم لزيارتي كيف تمنعه؟
قال: لا يعجبني أن يزورك أشخاص مثله. ثم ما الذي أخذك إلى داماسكو بالاس أصلاً؟
لا شأن لك بي. أنت لست رقيباً علي. لا تجبرني على أن أفشي سرك الآن.
وضحك ألتر: أنت لا تعرفين أسلوبي يا عزيزتي. أنا أريد أن أكشف سري. تعرفين لماذا؟ أريد أن يحسّوا أنني موجود في كل مكان. سأجعلهم يفقدون أعصابهم. أنا قلت اسمي لعبد السلام لكي ينقله. ويبدو أنه لم يكن قد سمع بي. وحين يبلغ عن هذا الاسم سأكون قد غادرت هذا الفندق. سأكون وراء الليدي دكتور التي تثير فضولك.
وما الذي تتوقع أن تحصل عليه منها؟
* لا بد أنها تسعى إلى شيء. استطاع عبد السلام ونهال أن يكشفا تجسس البعثة. وتم ترحيل عناصرها كلهم. ما الذي بقيت تفعله الليدي دكتور؟ هل تصدقين أنها بقيت لكي تنام مع الباشا فقط؟ اتركي هذا الأمر لي. ولكنني أحذرك ولمصلحتك هذه المرة. أنت تستطيعين أن تهزمي الملكات في التنافس على الرجال. ولكن لا ترخصي نفسك. أقصد لا تخوضي معارك صغيرة. أنت للمعارك الأهم.

قالت سارة لألتر، الذي جاءها بعد عدة أيام ليسألها عما تم بينها وبين الأمير: من تجاربي أحسست أنني أشع جاذبية جنسية. وأعرف أن جزءاً من جاذبيتي مرده إلى الإيحاء باستعدادي لقبول العرض الذي قد يعرضه الرجل. وهذا الاستعداد يحسه الرجل فتزداد غرائزه يقظة وهجومية.

إبتسم لها ألتر وعيناه تبرقان: أنا خير شاهد على هذا.

تابعت بجدية: لكن الأمير يتصرف كأنه خارج هذه الدنيا. ليس خارجها دائماً. بل الحقيقة إنه ليس خارجها أبداً. لا تفوته صغيرة ولا كبيرة. لكنه لم يهتم بي ولا برسالتك. امرأة مثلي وحدها، وتتصرف بحرية، وتتقبل دعوات. أنت تعرف أن الرجال يصيرون حولها أكثر من الذباب. خلال أيام قليلة لم يبق مسؤول في هذه الدولة إلا تعرفت به، وتلقيت منه دعوة. خاصة وأنا مقربة من الباشا.

هل نمت معه؟

* مع من؟ الباشا؟ لا. تعرف لماذا؟ لأنني عندها سأصنف عشيقة أخرى له. هو سيحاصرني. وهم سيخافون منه فيبتعدون عني. كما أن زوجته ستصبح متحفظة معي. شاطرة. المهم أن وجودك قريبة منه مفيد جداً، وخاصة بعد الثقة التي أولتك إياها زوجته. أنت لا تعرفين أي

امتياز تتمتعين به إذ تدخلين بيته.

* المهم، بعد سهرة الباشا دعانا عبد الرحمن اليوسف إلى سهرة. وكان الأمير موجوداً. تعمدت السلام عليه والجلوس قربه. فقضى السهرة ولم يحدثني إلا كلمات مقتضبة عن حاجة هذه البلاد للزراعة على أسس علمية لأن الصحارى فيها واسعة جداً. بعدها حضرت عدة سهرات وكلها سهرات غناء ورقص وسكر ولكن الأمير لم يحضرها. منذ يومين سهرنا عند علي فؤاد باشا. وكان هناك عدد كبير من الضباط الألمان والأتراك. وأنا طلبت من علي باشا أن يدعو الأمير ففعل. واقتربت من فيصل وسألته بشكل مباشر إن كان يريد الأمير أن يعطي جواباً على الرسالة؟ أتعرف ماذا فعل؟ تطلع إلي من عليائه، وابتسم ابتسامة بلهاء، كأني كنت أحدثه بلغة لا يعرفها، أو عن أمر لم يفهمه. ثم اقترح علي أن ننضم إلى الآخرين، لأنه من غير اللائق أن ننفرد عن المجموعة. هذا رجل يثير أعصابي لأنه يحولني إلى طفلة. يجعلني أضحوكة. أنا واثقة أنه يسخر مني.

ربما كان يخاف منك.

* تظن ذلك؟

ربما. هذا الرجل لديه سره. يتصل بزعماء الحركة الوطنية العربية. والآن معظمهم في السجون أو في المنفى. واحتمالات تنفيذ الإعدام صارت قوية جداً.

هذه، كلها، مبررات لجعل الأمير شديد الحذر. وخاصة من واحدة مثلك.

* ماذا تعني «مثلك» هذه؟

– حسناء متحررة ومنطلقة. تتعرف بمسؤولي الدولة كلهم خلال أيام قليلة. تحضر كافة السهرات. أنا نفسي لو كنت أراقب من بعيد لقلت: هذه المرأة وراءها سر.

* وماذا تنصح؟

أن تخففي من قبول الدعوات. خلي اهتمامك بهؤلاء الكبار. ودعك من الصغار أمثال عبد السلام. ولكن حتى مع الكبار دعيهم يركضون وراءك.

* بالمناسبة لم يعد عبد السلام يظهر. ويبدو أنه وجد من يقول له من هو ألتر ليفي. الباشا نفسه حدثني بالأمر. لقد فهم لعبتك. عرف أنك تصديت لعبد السلام لكي توصل له الرسالة التي تريدها. قال لي: هذا العرص يريدني أن أفقد أعصابي.

ضحك ألتر ولم يعلق: المهم. ما هي برامجك الآن؟

* برامجي الآن كلها منسقة مع زوجة الباشا.

هذا أفضل.

* لكنني لم أفهم لماذا تريد تقديم هذه الخدمة للأمير فيصل؟

أولاً لأنه الآن عدو لجمال باشا. وعدو عدوي صديقي...

* صديقك؟

وهو ووالده الآن تربطهم صداقة مع الإنكليز. وصديق صديقي صديقي.

كررت سؤالها مرة أخرى باستغراب أكبر: صديقك؟

ضحك: ليس تماماً. المهم أن يراني هو صديقاً له. يجب أن أكسب ثقته. في هذه الظروف نستطيع أن نكسب ثقة الأطراف المتنازعة كلها. وأياً كان المنتصر بينهم ستكون لنا قناة معه تفيدنا في المستقبل.

* أسلوبك غير أسلوب آرون.

وهل يجب مقارنة كل شيء بما يفعله آرون؟

* ألا يعجبك آرون؟

يعجبني.

* وهو يتحدث عنك بشكل جيد.

يعرف إمكاناتي.

* هل ستعرفني بها؟

مع الأيام ستعرفين. ولكن يجب أن تقدري أنني كنت مقرباً من الباشا. وكنت قادراً على التأثير على قراراته.

* آرون يؤثر على قراراته أيضاً. هو الذي شجعه على التعجيل بتنفيذ الإعدامات بالسوريين.

ذات يوم شجعته على ما هو أهم.

* مثلاً؟

الأرمن.

* ماذا عن الأرمن؟ لا تقل لي إنك أنت الذي كنت وراء

حملة الإبادة.

لست وحدي. تعرفين أن هناك عدداً لا بأس به من اليهود في الوزارات والدوائر. نحن وكثيرون غيرنا اشتغلنا على الموضوع. لا أستغرب أن يكون زوجك حاييم أحد الذين اشتغلوا عليه.

* فظيع. نحن وراء تلك المجزرة؟

لسنا السبب الوحيد. ساعدتنا ظروف عديدة. لكن كما قلنا قبل قليل. شجعنا أكثر من طرف على اتخاذ القرار. كانت لنا مصلحة فيه.

* وما مصلحتنا في مجزرة كهذه؟

– لأن مجزرة كهذه تفقد الاتحاديين كل سمعة طيبة وتحولهم إلى غيلان. حتى الغرب المسيحي سيزداد حقداً على الأتراك. وهذا من مصلحتنا.

* ولماذا الأرمن بالذات؟

لأنهم مسيحيون محتقرون مثلنا. ولذلك فإن قرار تقتيلهم لا يحتمل الكثير من التردد.

* وتقولها بهذه البساطة؟

إسمعي يا عزيزتي. هي مسألة تنافس. والتنافس على المصالح لا يرحم. حتى اليهود الذين كانوا يقطنون هنا، أقصد في الدولة العثمانية تضايقوا من مجيء يهود الأندلس.

* لا ترجع لي إلى التاريخ البعيد. حدثني عن الأرمن.

أين هي المصالح؟

أليست شعوب هذه المنطقة إسلامية في غالبيتها؟ والمسلمون يحرّمون على أنفسهم الاتجار بالمحرمات: نساء، خمور، مخدرات، ربا، قمار. هذا كله حرام عندهم. وهناك صناعات يترفعون عنها ولا يقبلون القيام بها، فيتركونها لغيرهم. لمن يرونهم بشراً من الدرجة الثانية. هم يستهلكونها كجزء من مظاهرهم المترفة أو لهوهم أو تحررهم. لكن تظل الوصمة عند التاجر والنظرة الفوقية نحو الصانع. هل تستطيعين تقدير المرابح التي تعود بها تجارات وصناعات من هذا النوع؟ الأرمن، أقصد المسيحيين إجمالاً، لا مانع لديهم من تصنيع الخمور، والاتجار بها، وفتح الخمارات، ونوادي القمار.. وهذا يقود إلى تجارات أخرى كثيرة. أنظري في دمشق كلها. من هم أصحاب الخمارات؟ اليهود والمسيحيون. أضيفي إلى ذلك أن الأرمن مهرة في أعمالهم وصناعاتهم. فهمت الآن؟ منافسون لا يستهان بهم. لذلك يجب أن يزاحوا من الطريق. يجب أن تبقى هذه التجارة وقفاً علينا.

وضحك: نحن نزيحهم لكي نظل وحدنا المحتقرين. ولكن هذا يعني أننا وحدنا الذين نجني المرابح. نحن وحدنا لدينا الخمارات والمباغي ونوادي القمار واللهو. ونحن الذي يصبح المال لدينا فنشغله في الربا ليعود

بالمزيد من المال.

وضحك ضحكة عالية أخرى: ربما لهذا نسمي رجل الدين عندنا رابي. نضارب على المرابين الآخرين بتخفيض الفوائد.

وتقدم منها مغتنماً فرصة انشداهها بما يقول ولف يده على خصرها. فانتفضت كالملسوعة. ووجهت له صفعة قاسية، رد عليها بضحكة رنانة أخرى.

وخرج.

– ٤ –

ولم تستطع نهال أيضاً أن تتابع حياتها بالطريقة التي اعتادتها بعد عودتها من دمشق. لقد شرخها ذلك الشاب. بلقائه عرفت ما هو الإحساس بالكرامة المشتركة. هذا ما عبر عنه عند مناقشته معها للصيغة التي سيتقدمان بها إلى الألمان. كرامة مشتركة تُهدر. وخزي في مواجهتها دون محاولة للاستغلال، حتى والمغامرة تتضمن لقاء جنسياً مع الفريسة، الأمر الذي يجب أن يحرك أية مخيلة نحو الاستفادة من الفرصة، كما اعتادت أن يعاملها كبار الضباط والباشوات والبكوات. إلا أن هذا الشاب وحده هو الذي مس الأمر كرامته. هو أمر تفعله هي بملء إرادتها، وهو يحس به طاعناً لكرامته. تذكرت أنه لم يتطلع إلى عينيها. حتى سؤاله الأول لها بعد عودتها من غرفة غونتر كان: «ماذا فعل؟

ماذا فعلت؟». منذ زمن لم تحس بأحد يغار عليها، ويريد أن يحمي كرامتها.

كم يختلف هذا عن موقف عارف منها. عارف لا يعترض على أفعالها إلا لكي يهينها. عبد السلام يراها من خصوصياته التي يجب أن لا تبتذل.

هذا رجل يجب أن تراه ثانية.

فكرت بالطلب إلى علي باشا أن يستدعي عبد السلام إلى بيروت. لكنها لم تجد عذراً مقنعاً. خاصة وأن عبد السلام يعتبر من الحرس الخاص لجمال باشا، الذي يكلفه بمرافقة الليدي دكتور. وأحست بغصة وهي تتذكر الليدي. لقد كان من عناصر اللعبة الأساسية أن يهتم عبد السلام وإسماعيل بيك بالليدي. ولكن عبد السلام يرافقها دائماً. أليس من الممكن أن تجتذبه إليها، حتى وهي عشيقة الباشا؟ ألا يمكن أن ينجذب هو نفسه إلى الليدي، كما ينجذب جميع الشرقيين إلى الأوروبيات؟

يجب أن تذهب إلى دمشق.

حين وصلت وجدت نفسها تتوجه إلى فندق داماسكو بالاس. كأنها، دون تفكير طويل، أحست أنها يجب أن تكون قريبة من غريمتها الليدي دكتور. وداخَلَها شيء من العناد. إن كان بين عبد السلام وبين الليدي أية علاقة ستدافع عن عبد السلام بوصفه خطيبها. هل سيكشف أمام الليدي أن الخطبة لعبة؟ فليكشف. إن من

حقها على نفسها أن تغتنم فرصتها. وليكن ما يكون. لقد أنجزت المهمة السابقة. ولم يعد أمراً ذا أهمية أن تعرف الليدي أنهما قد لعبا عليها لعبة.

حجزت غرفتها، وجلست تنتظر في الصالون. وفيما هي تشرب فنجان القهوة وتدخن لفافتها، رأت الليدي تدخل وحدها. فهبت واقفة لتتطلع من النافذة وترى إن كان عبد السلام هو الذي قد أوصلها. ولكنها لم تجد أحداً في الخارج.

ورأتها الليدي فاتجهت نحوها محيية: أهلاً مدام نهال.

واضطربت نهال قليلاً: مدام؟ نسيت أنني مخطوبة؟

ضحكت الليدي وهي تجلس: إجلسي. إجلسي. انتهت اللعبة وانكشفت.

— أية لعبة؟

* عرفت أنك لست خطيبة عبد السلام. ماذا تشربين؟ قهوة؟ أنا فعلاً في حاجة إلى فنجان قهوة. جميل أن أشربه بصحبتك.

وأشارت للنادل أن يجلب لها القهوة. وتابعت حديثها ببساطة شديدة: تعرفين؟ أفضل ما استفدته من هذه الزيارة إلى دمشق هو هذه القهوة التركية.

وجلست نهال لا تعرف كيف تتصرف أمام هذه المفاجأة. أشعلت لفافة جديدة، مع أن اللفافة الأخرى كانت لا تزال مشتعلة في المنفضة. وتطلعت إلى الليدي التي

كانت تبتسم لها.

قالت نهال: هل عبد السلام هو الذي قال لك ذلك؟

* دون أن يقول لي. عبد السلام عربي. ومشبع بالتقاليد العربية. لا يمكن أن يتغاضى عن مغامرة تقوم بها خطيبته. بالمناسبة يجب أن تكوني قد عرفت أن غونتر تم ترحيله.

وراحت نهال تعب من لفافتها بيد مرتعشة. وانتظرت الليدي إلى أن انصرف النادل بعد وضع فنجان القهوة أمامها. ثم أضافت: من جهتي تفاهمت مع عبد السلام.

— على ماذا؟

* على أنني قبلت اللعبة. أنتم تخدمون بلدكم. ولكن يجب أن تميزوا بين خدمة الأتراك وخدمة العرب. عبد السلام يخدم العرب. وأنت؟ من تخدمين؟

— أنا أحارب اليهود.

* ولكنني لست يهودية. وغونتر لم يكن يهودياً. المهم.

— المهم أين عبد السلام؟ ولماذا لم يوصلك هو؟ أليس المفروض أنه مرافقك؟

* عبد السلام اليوم مضطرب جداً. أنا قدمت اعتذاره للباشا بحجة المرض.

* ولماذا هو مضطرب؟

* لأن الإعدام قد تقرر. إعدام السجناء العرب. ألم تسمعي بذلك؟ أرسل جمال يطلب إرسال قسم منهم إلى

هنا.

سمعت.

* لقد بكى عبد السلام. إنه يحب أبناء ملته كثيراً.

نهضت نهال مستثارة: يجب أن أراه. هل تعرفين بيته؟

وببرود، ودون أن تتحرك آنا، قالت لها باسمة: مهمة جديدة؟ عبد السلام ليس جاهزاً.

وبحدة غير لائقة ردت نهال: لا تقرري نيابة عنه.

ابتسمت الليدي: لقاء غرامي؟

فردت نهال بالحدة ذاتها: هذا ليس من شأنك.

شربت الليدي رشفة من قهوتها: ليس من شأني فعلاً. ولكن يحدث أن يولد الحب بين اثنين يعملان معاً. وأنتما شابان جميلان متلائمان.

* هل ستدلينني على بيته؟

طبعاً. وأظن أن عبد السلام سيقول لك إنني لست ممن يخض معارك لكسب رجل.

وصفت لها آنا العنوان، والطريق إلى البيت. فأسرعت نهال خارجة، وهي تطلب تجهيز عربة.

– ٥ –

وفي الطريق فقدت إثارة توقع اللقاء بعبد السلام. كانت مشغولة بانكشاف لعبتهما. كيف عرفت الليدي هذا الأمر؟ هل أخبرها عبد السلام نفسه؟ أيعقل أن يكون قد ضعف أمامها؟ أو معها؟ ومرت في ذهنها لوهلة مسألة

أن الليدي تعرف بيته. هل تراها تأتيه إلى بيته. ولكن تساؤلها هذا لم يعد يشغلها الآن، كما شغلها قبل قليل. لو أنها كانت في ظرف آخر لتوقفت عند هذا الموضوع طويلاً. ولكنها الآن، وهي تستعيد كلمات الليدي عن بكاء عبد السلام، لم تعد تحس إلا بالخزي. هي منشغلة بشاب جميل، وتأتي لأجله من بيروت إلى دمشق. وهو يبكي على أبناء بلده الذين يواجهون تنفيذ الإعدام. هي مشغولة بالغيرة عليه من امرأة أخرى. وهو في غيرة على البلد كلها.

وحين وصلت إلى البيت، لم تكن العاشقة التي ستلتقي بمن تعشق، أو التي تريد الفوز بمن يعجبها، بل كانت الأم التي ستواسي ابنها الباكي.

كان عبد السلام يبكي فعلاً. وكان يحس أنه عاجز وعديم القيمة والفاعلية. ماذا عليه أن يفعل؟ هل يقوم باغتيال جمال باشا؟ هل يقوم بعمل انتحاري فيتصدى للحراس في محطة الحجاز وينقذ المجلوبين إلى دمشق لتنفيذ الأحكام فيهم؟ يهجم على السجن لإطلاق سراحهم قبل تنفيذ الحكم؟

وسمع قرع الباب.

نهض متثاقلاً وكأنه يود أن لا يفتح. وفوجئ بنهال تقف مضطربة كطفل صغير. دون أن ينظر إليها جيداً ترك الباب مفتوحاً وعاد إلى الداخل: كيف عرفت البيت؟

دخلت. وردت الباب وراءها. وكان قد جلس على السرير في غرفته الضيقة.

قالت: دلتني عليه الليدي.

أجاب دون اهتمام: أين رأيتها؟

قالت: في الفندق. وجلست على الأريكة. ثم أضافت: هي تعرف أننا لسنا مخطوبين.

* أعرف.

تعرف؟ أنت قلت لها؟

* لا. ولكنها أخبرتني أنها عرفت بلعبتنا.

كيف عرفت؟

لا أعرف. أرجوك. ليست لدي رغبة في الحديث عن الموضوع. أنا غير قادر على الكلام.

ولاحظ جيرانه، أصحاب البيت، دخول امرأة غريبة إلى غرفته. إلا أن سلوك عبد السلام طوال السنتين اللتين قضاهما عندهم، جعلهم لا يعلقون أهمية كبيرة على دخول هذه المرأة. بل إن صاحب البيت جاء وقرع الباب، ليسأله إن كان يريد أية خدمة خاصة بشأن ضيفته. وكانت تلك البادرة تعبيراً عن رغبتهم في تقديم خدمة لجار عزيز. وفي الوقت ذاته هي إشعار له أنهم قد رأوا السيدة التي دخلت.

وصرف عبد السلام الجار شاكراً. ثم عاد إلى جلسته على السرير. ولكنه هذه المرة تطلع إلى نهال: لماذا عدت

إلى دمشق؟

– لكي أراك.

قالتها ببساطة شديدة. ولكنه لم يكن في وضع يؤهله لالتقاط مبادرة من هذا النوع. نهض وراح يتمشى في الغرفة دون كلام. راقبته قليلاً، وأضافت: قالت لي الليدي إنك منعزل في غرفتك.

ولم يبد عليه أنه يسمعها. وقف قرب النافذة يتطلع إلى الخارج بصمت. فتابعت: قالت لي إنك في حالة سيئة. خفت في البداية أن يكون الأمر متعلقاً بمرض.

ونهضت تقف بجانبه: عبد السلام. لماذا لا تنظر إلي؟ أنا مثلك. خبر الإعدامات هدني. وأحسست أننا يجب أن نكون معاً لمواجهة موقف عصيب كهذا. أنا هنا لمساعدتك.

ووضعت يدها على كتفه. فانتفض صارخاً كأنه لم يحس بيدها: لا أريد مساعدة أحد. أنا لا يستطيع أحد أن يساعدني.

وعاد إلى جلسته على السرير. وانفجر في البكاء.

حبيبي.

واندفعت نحوه بأمومة حانية. جلست قربه على السرير ولفت كتفه بذراعها. وشدته إليها حتى صار رأسه على صدرها. وكان في حاجة إلى ذلك. دفن رأسه في صدرها وأكمل نشيجه. وهي تحتويه بذراعيها: حبيبي.

وضمها بذراعيه وهو يبكي.

بعد قليل انتبه إلى نفسه. رأسه بين تكور النهدين. يحس بدفئهما. ويداها تلفانه. وهو يحتضنها. وأحس بجسده.

توقف عن البكاء. ورفع رأسه إليها. كان وجهاهما متلاصقين. والدموع تغطي وجنتيه. نزلت بشفتيها على قمة وجنته تلم دموعه. فمال برأسه. وصار فمه على عنقها. فوجد نفسه يقبل العنق. هدهدته. ومسدت له شعره. مال برأسه عن العنق وارتفع فمه إلى أسفل ذقنها. ونزل بشفتيه إلى فتحة القميص. واستيقظ جسده. ودون تفكير مال بها على السرير فصارت تحته. وبغتة انتفضت. دفعته عنها ونهضت.

ظل حيث هو على السرير ووجهه إلى الأسفل. ولكنه توقف عن البكاء بإحساس طفل ضبط متلبساً. غمغم وهو في هذه الوضعية: أنا آسف.

عادت إلى الجلوس قربه. ووضعت يدها على رأسه. وراحت تتحدث دون أن تهتم إن كان يسمعها أم لا: ليس لدي ما أبخل به عليك. أنت تمتلكني روحاً وجسداً. ولكن لا يا عبد السلام.

التفت إليها: أنت كنت تقولين لي حبيبي.

— وأنت حبيبي. ونور عيني. ولكن لا. معك أنت لا.

* لماذا؟

– لا أعرف. أنت شيء آخر. جئت خصيصاً من بيروت لكي أراك. ولم يكن لدي ما أتخوف منه، أو ما أحجبه عنك أو أضن به عليك. لا الروح ولا الجسد. ولكنني الآن أعرف أن شيئاً من هذا لا يمكن أن يتم بيننا. لا أستطيع. لا أستطيع.

* لماذا؟

لا أعرف. لا أعرف. أعرف فقط أنك شيء آخر.

* شيء آخر لا يفعلها؟

وجاء دورها في البكاء. ودون أن تحاول كبح دموعها، قامت وخرجت من الغرفة: رجال الدنيا كلهم إلا أنت.

ورآها الجار تخرج باكية فاندفع إليها: ما بك؟

ولم تجب.

– هل حدث شيء لعبد السلام؟

ولم تردَ. اندفع الجار إلى الغرفة وفتحها. فرأى عبد السلام لا يزال جالساً كالمخدر.

– هل هناك شيء يا جار؟

ولم تكن قادرة على رؤيته ثانية وهي في هذه الحالة. كيف يكون حاله غداً إذا تم تنفيذ الإعدامات؟ لم تكن، في الحقيقة، قادرة على رؤية أحد. وخافت أن تعود إلى الفندق فتلتقي بآنا ليستر. كانت خائفة من أن تتحدث إلى أي إنسان، خائفة حتى من سماع صوت نفسها.

كانت قد سقطت في هاوية غامضة لا تعرف نفسها فيها.

وسافرت في اليوم ذاته إلى بيروت.

– ٧ –

على الرغم من صعوبة الاتصالات فقد كان عارف يتصل يومياً بفهمي بيك في دمشق ويسأله عن أخبار ابنه، دون أن يستطيع الحصول على جواب يريح باله. إتصل بنوري في لبنان واستفسر منه عن الأسرة فلم يفده نوري في شيء. وسأله بشكل مباشر: هل يأتي إبراهيم لزيارة أمه؟ فأجاب بالنفي. وعبد السلام لا يستقر في مكتب أو مكان ليتصل به. أين هو ابنه إذن؟ هل جندوه في الجيش؟ ليس هذا مستبعداً. والدرك لا يدققون كثيراً حين يخرجون للمّ العسكر. كان يرى بعينه كيف يمد الدرك الحبل لحصر الناس في أية منطقة يباغتونها. ولا يفيد الناس كثيراً نداءات التحذير: حبلة. حبلة. كل من تحيط به الحبلة ليس إلا فرخ سمك وقع في الشبكة. ولا يعنيهم كثيراً أن يكون طالباً أو موظفاً أو فلاحاً. المهم تبييض الوجه وتقديم أكبر عدد. وبعدها يتصرف الضباط. فيطلقون من كان يتمتع بالإعفاء أو من يدفع الرشوة. ولكن لو أنهم جنّدوا ابنه لاستطاع أن يخبر أي ضابط بأنه ابن عارف إبراهيم وأنه طالب مدرسة. وعندها إما أن يسألوا الأب، وإما أن يطلقوا

الولد.

ولكنه على الرغم من انشغاله بابنه لم ينس عمله.

نزل إلى محل ألتر ليفي وأقفله ووضع حارساً عليه. ثم أصدر أمراً بإغلاق شركة التأمين ومصادرة محتوياتها. وسأل عن بيت ألتر في الكومبانية النمسوية ووضع حراسة عليه. وعرف أن زوجته عند أهلها في قرية النبي صاموئيل. فأرسل دورية تقيم في القرية وتراقب بيت الأهل، ومعها أوصاف ألتر ليفي.

وانصرف إلى عمله منتظراً النتائج.

أول شيء طُلب منه أن يفعله بعد تسلم منصبه الجديد قائداً لشرطة القدس هو أن يعرف الأجواء التي يتردد إليها الضباط في إجازاتهم وسهراتهم من أجل تأمين حمايتهم. هناك الفنادق مثل فندق القدس. يبدو الجو فيه راقياً. سهرات الضباط فيه عادية. والباشا ينزل في أحياناً. وهناك النُزُل مثل نزل أستر حاييم، وبانسيون العشاق. وهي نواد تجمع بين الغناء والرقص والتسلية والمقامرة والتعريص. يأتي إليها ضباط كبار من جنسيات مختلفة: نمسويون وألمان وأتراك وعرب. الأجواء كلها متشابهة. ولا يحتاج الأمر إلا إلى وضع عدد من العناصر حول المكان للحماية الشكلية ودس عنصر أو أكثر بين الخدم أو بين الطباخين أو عمال التنظيف.

وليس من الممكن زيادة الحضور الأمني في المكان لأن الضباط يشتكون من أن هذه الرقابة تجعلهم لا يعرفون كيف يأخذون راحتهم. وليس من الضروري أن يراهم صغار العساكر والجنود والمخبرين وهم يتسلّون ويتبسّطون.

المشكلة التي واجهت عارف هي المشكلة القديمة ذاتها: تشغيل العناصر النسائية. إن من الممكن، بالنسبة له، تشغيل بعضهن في الطبخ أو تنظيف الغرف. مهنة شريفة ونظيفة ولا تمس سمعة المرأة التي تشتغلها. لكن العمل الآن لا يتطلب امرأة شريفة تخاف على سمعتها. بالعكس يجب أن تكون مستعدة للتساهل إلى أي حد يتطلبه الشغل.

* يعني باختصار شرموطة!

فقال مساعده: شيء من هذا.

قال عارف: أنا لا أتعامل مع شراميط.

يا بيك. شغلنا يتطلب ذلك.

* أنا شغلي لا يتطلب ذلك.

كيف نراقب الكارخانات إذأ؟ القدس مليئة بالخمارات والكارخانات. وكلها يديرها يهود.

* ليس شغلي مراقبة الكارخانات. وأنا مسؤول عن حماية الضباط أينما كانوا ومهما فعلوا. لكنني لست مسؤولاً عنهم وهم يعرّصون.

إضافة إلى هذه المهمة هناك المهمة الأصعب وهي منع الاحتكاك بين العرب واليهود. فالجو يزداد توتراً يوماً بعد يوم بسبب إحساس العرب أن الدولة تتهاون في مسألة هجرة اليهود والسماح لهم بالبقاء في فلسطين. وتتهاون في مسألة السماح لهم بشراء الأراضي.

وعلى الرغم من أن القوانين واضحة بعدم السماح لليهود بالشراء، إلا أن هناك ثغرتين يستحيل سدهما. الأولى أن كبار الملاك، ومعظمهم غير مقيمين في فلسطين ذاتها، يبيعون أراضيهم وهم في بيروت أو دمشق ولا يحس الفلاحون إلا بتبدل المالك وهو أمر لا يثيرهم كثيراً، ولا يلفت نظرهم إلا بعد حين. والثغرة الثانية أن خمس ليرات ذهبية تمشي أية معاملة عقارية في دوائر الدولة ودون النظر إلى أسماء البائعين أو الشارين ولا إلى ديانتهم أو محل إقامتهم. هذا عدا الرشاوي بالمبالغ الكبيرة إلى مديري الدوائر وكبار الموظفين، الأمر الذي يضع هذه الدوائر كلها في خدمة السماسرة. ويضاف إلى ذلك الضرائب التي تتراكم على أصحاب الأراضي المهاجرين والتعقيدات التي تنبع من تحت الأرض أمام وكلائهم. وفي النهاية يرسل أصحابها إلى الوكلاء أمراً بالبيع. واليهود دائماً جاهزون للشراء.

الصحف تكتب بعصبية عن هذا الموضوع الذي اهتم به عارف جدياً. فالبلاد تتسرب إلى أيدي اليهود قطعة

قطعة. والشباب يتحمسون. فتحدث اشتباكات بينهم وبين اليهود متعددة الأسباب، متعددة الميادين. ليس فقط أن بعض المسلحين يغيرون على مزارع اليهود. وهذه يدافع عنها أصحابها بالسلاح أيضاً. بل إن الانفجارات قد تحدث في شوارع القدس ذاتها، وفي دوائر الدولة أيضاً. وتساعد الصحف بلهجتها الاستفزازية على هذه الانفجارات الأمنية. وبالتالي لا بد من الضغط على هذه الصحف.

ولكن فوق هذا التوتر المنذر بالانفجار هناك علاقات طيّبة بين كبار أثرياء اليهود وملاكيهم وبين زعماء الحمولات والعشائر والقبائل وكبار موظفي الدولة.

وفي فندق القدس سمع عارف ما دله على نوعية العلاقة وكيفية تكونها.

كان أبراهام أفندي شابيرا من مستوطنة بتاح تكفا قد دعا عدداً من زعماء العشائر وكبار المسؤولين لزيارته في بيارته. وبعد الجولة الاستطلاعية والغداء وكؤوس المشروب وجلسة الأنس والطرب مع حسناوات عادوا إلى القدس فعاد معهم. ودخلوا إلى الفندق لشرب القهوة قبل الوداع.

وكان أحدهم يعبر عن رأيه في أن أبراهام أفندي يبالغ. فمساحة بيارته لا تزيد على خمسمئة دونم وهو يعيش مثل ملك. ويدعي أن بيارته تقدم له كل سنة عشرة

آلاف ليرة عصملية.

وقال الشيخ رفيفان: لا تسمع هذا الحكي. عندي ١٥ألف دونم لا تقدم في السنة ٣٠٠ ليرة.

فقال أبراهام: لأنك لا تعرف كيف تشغَل أرضك. أتركني أشغّلها لك، وستعطي مثل أرضي.

وقال الشيخ رفيفان: شرّف. أرضي في الكرك. من بكرة الأرض تحت تصرفك. ومن الخمسة عشر ألف دونم أنا أرضى منك بالسنة ألف ليرة.

وتراجع أبراهام. فضحك الشيخ رفيفان وضحك معه الجميع. ولكن أبراهام أوضح أنه لا يتراجع لأن الأمر غير ممكن. بالعكس هو مستعد أن يعطي الشيخ رفيفان ألفين بدلاً من الألف وسيضمن لنفسه أكثر من عشرة آلاف: ولكن يا حبيبي، القوانين لا تسمح لنا بالشغل عندكم.

فاحتد الشيخ رفيفان، وقال باحتقار: القوانين؟ وما القوانين؟ نحن وضعناها ونحن نغيرها.

وتفلسف أحدهم وهو يدخن النارجيلة: القانون لخدمة الإنسان وليس الإنسان لخدمة القانون.

ولم يرض أبراهام أن ينتهي الحديث فأضاف: وما الذي يضمن لي أن يتعاون فلاحوك معي؟

وقهقه رفيفان: اسمعوا هذا الكلام. الفلاحون مشكلة؟ أهجّرهم وأجلب بدلاً منهم. أصلاً الفلاحون عندي

يتبدلون أسرع من تبديل كنادري. الفلاحون يا صاحبي ليسوا مشكلة. تعال اشتغل. وإذا لم يعجبوك أبدلهم لك. وإذا أحببت هات فلاحين من عندك.

وانتهت الجلسة بدعوة وجهها الشيخ رفيفان للجميع لتناول العشاء في موعد قريب في مقهى غراند بالكرك بعد جولة في أملاكه.

ما الذي يضمن لعارف ماذا سيحدث في تلك السهرة؟ وأي التفاف على القانون سيتم؟ هو لن يعرف، وربما لن يعرف أحد من الدولة، إذا لم تصدر احتجاجات أو تقع حوادث شغب بين الفلاحين في الخمسة عشر ألف دونم التي يملكها الشيخ رفيفان.

والمشكلة الأخرى التي يثيرها وجود اليهود هي أماكن اللهو المتوافرة في مستوطناتهم. إن لدى اليهود عاداتهم وأجواءهم المنفتحة فيما بينهم. ولديهم في عدد من المستوطنات فنادق وبارات وخمارات. وبعضها على النمط الأوربي. ولم يكن أحد ليثير هذا الموضوع. فالعمال الزراعيون العرب الموجودون في تلك المستوطنات لا يثيرون المشكلة أصلاً، لأن معظمهم مسلمون. ولن تكون حجتهم قوية إذا طالبوا بالحق في دخول الخمارات. كما أنهم، حتى لو سمح لهم اليهود بالدخول، لا يملكون المال الكافي لاستهلاك المشروب والمازة ومتطلبات اللهو.

ولكن جو الحرب فرض وجود كثافة عسكرية في كل مكان. وانتشرت القطعات العسكرية حول المستوطنات وعلى الشواطئ. ومن يستطيع أن يمنع ضباط هذه القطعات من دخول نوادي المستوطنات وخماراتها؟ لا الشرطة تجرؤ. ولا اليهود أصحاب الحانات يمانعون. بل من الواضح أنهم يشجعون الضباط على المجيء إليهم. إنما حدث العكس.

لم تعد العائلات اليهودية المحترمة تسهر في النوادي. واقتصرت سهراتهم مع نسائهم وبناتهم على البيوت. بينما تدفقت نساء عربيات ويهوديات وأجنبيات من فرنسا وروسيا وألمانيا ومصر وإيطاليا للعمل في هذه الأماكن. والعمل، الذي يبدو في ظاهره تقديم المشروب أو الغناء أو الرقص، هو في حقيقته بغاء مستتر مستنزف للمال أكثر من الكارخانات.

كيف يمكن حماية الضباط في هذه الأجواء؟ وكيف يمكن ضمان عدم وجود جواسيس بين هؤلاء الخمارين والزمارين والرقاصات والتاترجيات؟ وأين هو الحد الذي يعتبر الضابط أن تجاوزه يصبح تدخلاً في خصوصياته وحياته الشخصية؟ ويأتي الرد القمعي متسلسلاً من: هل أنت ربي لتحاسبني؟ إلى: من أنت حتى تسألني؟ انقلع من هنا فوراً.

سيتجنب وجع الرأس هذا كله. هو هنا لأنهم أرادوا

إبعاده. وهو معني بألتر ليفي وحده. ما اتخذه من إجراءات حتى الآن سيجبر ألتر على المجيء إلى القدس. وعندها، سواء أمام أبواب تونس الخضراء أم في وادي الغبا والغبايب، سيعرف كيف يتمكن من الزيناتي خليفة. ويقلع عينه.

وأين ستطير مني يا ألتر ليفي؟

وعلى الرغم من همومه ومشاغله كان عارف لا يفوت جلسة المقهى مع الحكواتي وهو يقرأ لمستمعيه في التغريبة. ولم يقبل أن يشارك العناصر سماع قصة عنترة. فاختار حكواتياً في مقهى آخر. ولكنه قَبل دعوتهم للحفلة التي أقاموها بمناسبة انتهاء قصة عنترة، والعرس الذي أقاموه لزواج عنترة من عبلة. ومجاملة له جلبوا في العرس حكواتياً ذا صوت جميل غنى له بضعة أبيات من التغريبة. وقد انتقاها عن دياب بن غانم الذي عرف أن عارف بيك يحبه:

ألا يا دياب الخيل أسرع نحونا

واقتل خليفة يا أمير غصيب

دعوك الأمارة يا دياب جميعهم

دعوك العذارى يا ديابي جيب

واقتلعه من الجلسة مجيء أحد العساكر ومعه برقية من جمال باشا: أقصى درجات الاستنفار والاحتراس. ستنفذ الإعدامات بالخونة غداً صباحاً. إحذروا من

المشاغبات.

وغص قلبه على ابنه.

الفصل العاشر

– ١ –

لم تستطع سارة أن تنام تلك الليلة. وقدرت أن كثيرين مثلها لم يستطيعوا النوم، على اختلاف مواقفهم وأسبابهم ودوافعهم. فإعدام أكثر من عشرين شخصاً من وجوه المجتمع السوري وأعلامه ليس أمراً عادياً.

وليس من السهل عليها أن تنام وهي تعرف أنه بعد ساعة أو ساعتين سوف يتم تعليق سبعة شبان على أعواد المشانق في المرجة، وعلى بعد عشرات الأمتار منها.

لو أنها لم تعرف لكان الأمر أقل صعوبة. كانت ستستيقظ في الصباح وتسمع بالنبأ. ووقعه سيكون أخف. كل يوم يموت كثيرون. وهي نفسها رأت موتى مرميين على جوانب الطرق، حتى لم يعد الأمر يلفت نظرها. وما حدثها به ذلك الضابط العثماني وهي في طريق عودتها من اسطمبول عن موت الناس ثم موت الوحوش التي تأكل جثثهم، ثم موت الناس الذين يأكلون من جثث الوحوش يكفي لجعلها تألف سماع الكلام عن الموت.

لكن هذه مسألة مختلفة.

ولعل المجاملة السمجة التي قدمها لها جمال باشا هي

التي تمنعها من النوم. قال لها: هل تحبين أن تتفرجي على الإعدام؟

ظن أنه يقدم لها استثناء. لكنه لا يعرف أنه شرخها. هي الآن لا تعرف فقط أن سبعة سوف يعلقون على أعواد المشانق على مقربة منها؛ بل تعرف أن هناك من يقفون ليتفرجوا عليهم. وهؤلاء ليسوا من الحرس والجلادين والفضوليين. وليسوا من أبناء الشعب المتعاطفين. بل هم أناس يريدون أن يتفرجوا لكي يشفوا غليلهم ويحسوا بالانتصار.

منذ أيام وهي تحس بخوف مبهم على الرغم من أنها تعتبر نفسها محمية جيداً، إذ هي في ضيافة الباشا. ولكن التوتر المحيط بها، نتيجة الأخبار التي يتم تداولها عن الأسر المهجرة، وأهالي المحكومين بالإعدام، والقصص الفاجعة عن أولئك الذي يجبرون على مغادرة بيوتهم ومعهم عائلاتهم، هذا كله يجعلها تحس أنها، هي والذين يحيطون بها، جميعهم معرضون لأحداث انتقامية أو انفجارية. ما الذي يمنع واحداً من هؤلاء العرب اليائسين من الاندفاع في تصرف أهوج يودي بحياة أي إنسان آخر؟ إذ إلى أي حد يمكن أن يصل صبر الإنسان؟ أو يصل خوفه من تبعة أعماله؟ وما الذي يمكن أن يخاف عليه بعد حُكم أهله بالإعدام والتهجير معاً؟

هل هي راضية فعلاً عما يجري؟ أليس الذين تتم بحقهم هذه الإجراءات هم الذين ستصطدم بهم في المستقبل؟ أليست إزاحة النشطاء والمندفعين منهم لمصلحتها ومصلحة مشروعها؟

كانت تعرف أن أخاها آرون أحد الذين شجعوا جمال باشا على الإسراع بتنفيذ الأحكام. ولكن الآن يأتيها السؤال الممض: أليس الذين تتم بحقهم هذه الإجراءات بشراً؟ لقد سبق لها أن سمعت عن مجازر الأرمن. لكن تلك كانت أخباراً تصل إليها وهي في اسطمبول. وكان هناك ما يخفف من وقعها بتكذيبها. رسمياً لم يتم الاعتراف بوقوع مجازر. ويفاجئها ألتر بأن لطائفتها ضلعاً في المجازر، أو اتخاذ القرار بها.

ولكن هنا تتم الأحداث على بعد أمتار منها. ومن نافذة غرفتها في الفندق رأت مواكب المهجرين الباكين وزحام الناس المندفعين إلى محطة الحجاز لتوديعهم، ثم المندفعين لاستقبال المحكومين بالإعدام. ولماذا يصر جمال على جلبهم لإعدامهم في دمشق؟ لماذا لم ينفذ الإعدام في بيروت بدلاً من هذا النقل الاستعراضي الفاجعي إلى هنا؟

أجابها جمال: لكي يخاف الناس هنا أيضاً.

طوال النهار وهي تحس بارتجاج كالذي يتسبب به الرعد. ولكنه رعد في الظلام. الظلام الخاص في النهار.

الظلام الذي يخفي حركة شعب بأكمله. شعب كان يبدو عليه أنه خائف أو غير مبالٍ أو منصرف لشؤونه اليومية.

طوال النهار وهي مع الباشا تستمع إلى التقارير التي تتوافد عليه، والحكايات التي تروى له.

أهالي دمشق وضواحيها، وبعض أبناء المدن الأخرى كلهم توافدوا إلى محطة الحجاز لتوديع المهجرين. وبعضهم ذهب للتوديع في محطة رياق.

وهناك كان المشهد المثير.

وقف القطار القادم من دمشق، والذي كان يقل المهجَرين. وانسكب الناس إلى المحطة. كأنهم كانوا في كمين وخرجوا منه. كمين من المحبة والتقدير لأبناء بلدهم الذين ينفذ فيهم أمر السلطة الغاشمة بالهجرة من بلدهم.

هجم الناس على القطار قبل أن يتوقف. كانوا فرساناً وراجلين. رجالاً ونساء. أولاداً وعجائز. كانوا يحملون أعلاماً ورايات قماشية وأغصان أشجار. وكانوا يزغردون ويبكون، ويهللون ويغنون.

ولم يُسمح لأحد بالنزول من القطار. ولم يسمح للأهالي بالاقتراب أكثر من مسافة محددة.

ومن النوافذ أطل المهجرون ليروا أهل بلدهم. وليكتشفوا أن أوامر السلطة لم تستطع أن تحجب حب

الناس واحترامهم وتضامنهم. وحين اكتشفوا ذلك وجدت النساء، على الأقل، أسباباً أخرى للبكاء. فيما كان الآباء يلحون في التوصيات للأصدقاء والأقارب بأصوات عالية لتزويدهم بأخبار أبنائهم المعتقلين في سجون السلطات.

وبذل الجنود جهوداً قصوى لردع الناس وإبعادهم دون جدوى.

وأطلق بعضهم عدة عيارات نارية في الجو.

ولكن...

حين بدا أن الجنود على وشك أن يسيطروا على الموقف ظهر القطار القادم من بيروت.

ومن الحراسة المشددة عليه، ومن نثار الكلام المتطاير هنا وهناك، عرف الجميع أن هذا القطار يقل الذين سينفذ حكم الإعدام فيهم في دمشق.

أطل المحكومون من نوافذهم. وأطل المهجرون من نوافذهم.

وعرف بعض هؤلاء وجوه أولئك.

الأهل يُهجّرون في هذا القطار. والشباب، أبناؤهم، يساقون إلى الإعدام في القطار الثاني.

لم يحدث العويل المتوقع.

وتوقفت حتى الهتافات التي كان يطلقها المحتشدون تضامناً أو فضولاً.

هبط صمت رصاصي كالح.

واتسعت العيون تتشبع من الوجوه الأخرى.

ومزق الصمتَ صراخُ امرأة تريد أن تنزل من قطار المهجرين: اتركوني. أريد أبي.

وكان الجنود يقفون في وجهها ويكررون أوامر المنع.

وأطل رجل من نافذة قطار المحكومين بالإعدام وصاح: ندية. إرجعي يا بنتي.

وانتقل اسم المرأة بين الجموع. إنها ندية. ندية ابنة رشدي الشمعة. وكان رشدي مستمراً في صراخه: طولي بالك يا ندية. طولي بالك يابنتي.

وحين رأى الجندي يقسو عليها لمنعها من النزول صاح به: ألا تراها مريضة يا ابن الكلب؟

إبن الكلب؟ تقال له؟ للجندي الذي يخيف...

والتفت كأنه سيطلق النار. سيخيف كعادته...

ولكن ماذا سيخيف؟ هذا الذي يشتمه يعرف أنه محكوم بالإعدام.

ولم يجد الجندي ما ينتقم به للشتيمة إلا بدفع البنت بقوة أكبر.

ولم يجد الأب ما يفعله إلا الاستمرار في تشجيع ابنته: طولي بالك يا بنتي. ألله كبير.

ولم يجد المتجمهرون ما يسمعونه ليفرّج عنهم أفضل من هذه العبارة. وكأنما كانت العبارة إيذاناً بانتهاء

الصمت المطبق والموحي بحيادية خادعة.
إنطلقت الحناجر: ألله كبير. ألله أكبر.
من نوافذ المهجرين أطلت أصوات: ألله أكبر.
ومن نوافذ المحكومين: ألله أكبر.
ومن الأرصفة والنوافذ والعربات الواقفة: ألله أكبر.
ألله أكبر عليكم يا أولاد الكلب.
وهجم الناس على قطار المحكومين.
وأخرج الضابط مسدسه وسدده إلى رأس السائق: إنطلق الآن.
وكان هذا بعيداً عن الحمى السائدة. فقال له: نكمل تزودنا بالـ...
ولم يتركه الضابط يكمل: لن نتزود حتى بالوقود. ستمشي ولو اضطررت لدفع القطار بكتفك.
وأطلق السائق صافرة القطار.
وانشلعت قلوب الأهالي الواقفين مثلما انشلعت قلوب الذين في القطار الآخر.
وانطلقت الولاويل. وتفجر العويل. كأن الناس قد تذكروا أن هناك شيئاً اسمه البكاء.
وتحرك القطار الآخر بدوره. وكأن الضابط قد أعطى الأمر للقطارين في وقت واحد. وكانت ندية لا تزال عند الباب. ولا يزال الجندي يمنعها.
وبغتة تحول البكاء والصراخ والعويل والهتاف والندب

إلى أغاريد.
كأن عروساً تخرج من بيت أهلها.
كأن ألف عروس تخرج في موكب واحد.
ولكن القطارين راحا يبتعدان.
وحار الأهالي الواقفون في ما يفعلون.
حتى أن بعض الزغردات قطعت من منتصفها.
وحين ركض بعض الأولاد وراء أحد القطارين اكتشف الواقفون ماذا يجب عليهم أن يفعلوا. أو ماذا يستطيعون أن يفعلوا بدلاً من أن يظلوا واقفين. ركض بعضهم وراء هذا القطار. وركض آخرون وراء القطار الآخر. ثم اكتشف كل منهم أنه كان عليه أن يركض في الاتجاه الآخر. وحين غيروا اتجاهاتهم وبدأوا يتصادمون ويتدافعون كان القطاران قد بدآ يزيدان من سرعتيهما. فلم يعد من الممكن اللحاق بأي منهما.
ولم تهدأ المحطة كما كان متوقعاً. بغتة بدأ الناس يتراكضون: إلى الشام. إلى الشام.
وأدركوا استحالة اللحاق بالقطار الآخر حيث المهجرون سينتهون في الأناضول. وستكون محطتهم القادمة في حلب. ولكن القطار الآخر ذاهب إلى الشام. والشام يمكن الوصول إليها.
من حيث لا يدري أحد ظهرت خيول وبغال وحمير وعربات. وراح كل يركب وراء الآخر. وراحت كل عربة

تقل أكثر من حمولتها.

ولم يحاول إلا بعض الخيالة السير وراء القطار. ولكن حتى هؤلاء تركوا القطار يذهب على سكته وانطلقوا على الطريق الآخر ليصلوا إلى دمشق قبله.

— ٢ —

قال فهمي لجمال باشا: كانت ندية مريضة. وربما ماتت في الطريق.

ابتسم الباشا بلؤم: فكرة عظيمة. أبلغوا أباها بموتها حتى لو لم تكن قد ماتت.

وضحك متطلعاً إلى سارة: جميل أن تكتمل قصته بمعرفته بموت ابنته.

قال فهمي: ولكنها ربما كانت لم تمت يا باشا.

قال جمال: وما علاقتك أنت؟ دع أحد عساكرك يذكر اليوم أمام رشدي الشمعة أن ابنته التي رآها في رياق قد ماتت قبل أن تصل إلى حلب. هو يعرف أنها كانت مريضة. وسيصدق.

أطرق فهمي بصمت.

وتقدم منه الباشا وعينه تتابع حركة الناس من النافذة: وما قصة هذا الزحام؟

قال فهمي: صار في الشام ضعف عدد سكانها يا باشا. كلهم ذاهبون إلى محطة الحجاز لاستقبال المحكومين.

وظل واقفاً متوتراً ينتظر الأوامر.

وتطلعت إليه سارة فأحست بتوتره وخوفه. نقلت نظرها إلى الباشا متوقعة أن ترى خوفه هو الآخر. ولكنه لم يبد خائفاً على الرغم من الصفرة المتوترة التي اعترت وجهه.

تنحنح الباشا لكي لا يخرج صوته مهتزاً: ماذا تنتظر؟

أوامرك يا باشا.

* أوامري معروفة. تأخذون المساجين إلى القشلة. وعند الفجر تجلبونهم إلى المرجة.

والناس؟

* هل تتسع القشلة لهم كلهم؟

ولم يفهم الضابط ما المقصود بسؤال كهذا. فظل ساكتاً.

وأدرك الباشا أن عليه أن يكون أكثر وضوحاً: أنتم لا علاقة لكم بالناس. علاقتكم بالمحكومين فقط. تأخذونهم من البرامكة إلى القشلة. وإذا حدث أي شغب أطلقوا النار. أريد حماية للمحكومين مثل الحماية التي تؤمن لي. فهمت؟ إذا تجمع الناس للفرجة لا مانع. ولكن أريد أن يحيط الجنود بالمحطة. وكل الذين يأتون للفرجة ستسوقونهم إلى الجيش.

وأراد الضابط أن يخرج. ولكن الباشا أكمل: وليكن بعلمك. كل واحد من المحكومين برؤوس خمسة ضباط من رتبتك على الأقل. لا أريد أن أسمع أعذاراً. إذا هرب أحد منهم يا ويلكم.

وخرج الضابط.

ولم تستطع سارة أن تمنع نفسها إذ سمعت الضجيج خارجاً. فاندفعت نحو النافذة.

كان الناس يتراكضون. وكأن الحارات تنشق عنهم. لم تكن تتصور أن دمشق تحتوي على هذا العدد الكبير من الناس. وحاولت أن تصطاد الوجوه فلم تستطع. كانت الوجوه مكمدة وكأنها تتعمد إخفاء مشاعرها. ولكن الحركات ذاتها كانت تدل على حجم التوتر الذي يعتمل في نفوسهم.

التفتت إلى الباشا فرأته يبتسم فخوراً، وكأنه كان يتفرج على مزرعة خدم أشجارها بنفسه.

تنحنحت هي هذه المرة: تريد الصراحة يا باشا؟ أنا خائفة.

لا تخافي. أنت معي.

* خائفة من أن ينفجر الناس.

– هذه الإعدامات لمنعهم من الانفجار.

* وماذا لو نفذت الإعدامات ولم يصادقوا على الأحكام في اسطمبول؟

ابتسم: نعتذر.

* ولكن...

– هل تحبين أن تتفرجي على الإعدام؟

* أرسل معي من يوصلني إلى الفندق. أرجوك.

ويبدو أن وصولها إلى الفندق قد تزامن مع وصول القطار. فاجأتها الزغاريد القادمة من جهة المحطة. أهكذا يستقبلونهم؟ تمنت لو كانت موجودة. ولكنها في الوقت ذاته خافت من الاحتمال ذاته. فقالت للسائق: أسرع.

وحين وصلت إلى غرفتها استسلمت لأفكارها: ماذا لو كانوا يهوداً؟ لا شك أنها كانت ستتأزم أكثر. ولكن لو كانوا يهوداً لما تمَ الأمر بهذا الهدوء. اليهود في الخارج كانوا يهزون العالم كله.

مستحيل أن يكونوا يهوداً. إن سجن أحد اليهود يستدعي أحيانا تدخل سفراء الدول. وحين اتخذ جمال باشا قراره بترحيل اليهود غير العثمانيين جرت اتصالات ورجاءات وتهديدات. وجاءت سفن أميركية أمنت النقل إلى مصر. وضمنت عدم وقوع تعديات. ورأى بعض المهجرين أن الهجرة لصالحهم. فهنا المجاعة مستفحلة والأمن غير مستتب. وقد يكون من الأفضل لهم أن يهاجروا رغم تعارض هجرتهم مع حلمهم بالإقامة في الأراضي المقدسة.

إذا كان هؤلاء الذين سيعلّقون على أعواد المشانق فاعلين حقيقيين ضد الدولة العثمانية، ومعنيين فعلاً بقضية شعبهم، وبمعزل عن تهم الجاسوسية والعمالة التي يلقيها جمال باشا وأعوانه، فقد كان من واجبهم أن

يعملوا على إيجاد بعد عالمي لقضيتهم. هل كانوا يستطيعون ذلك؟ وهل كان العالم سيتعاطف مع هؤلاء العرب والمسلمين مثلما يتعاطف مع اليهود والأرثوذكس والكاثوليك والموارنة والأرمن؟

هي تعرف أن بعض الاتصالات قد جرت. وهي اتصالات غير هامة، طالما أن أميركا محايدة وبريطانيا وفرنسا معاديتان أصلاً. والمحكومون متهمون بالتعامل مع فرنسا تحديداً.

وتعرف أن الأمير فيصل كان يتوسط من أجلهم. وأن الشريف حسين تدخل وأرسل رسائل. ولكن تنفيذ الأحكام اليوم يعني أن الوساطة قد فشلت. ويعني أن جمال باشا لا يقيم وزناً للشريف ولا لأبنائه. هو يعتبرهم من رعاياه. وبالتالي فهو الذي يقرر متى تكون لهم قيمة عنده ومتى لا تكون.

ماذا سيفعل فيصل الآن؟ وماذا سيفعل السوريون اليوم؟ هل تنفجر أحداث طائفية بين المسلمين والمسيحيين؟ الاحتمال بعيد. فبين المعدومين مسيحيون. هل يفجر الجميع أحقادهم باتجاه اليهود؟ محتمل. هل يتغير موقف القيادة في اسطمبول من جمال باشا لأنه لم ينتظر تصديق الباب العالي على الأحكام؟ كيف تكون أعصاب جمال باشا الآن؟ وكيف ستكون غداً؟ تمنت الآن لو أنها قبلت دعوته. ليس من

أجل أن تتفرج على مشاهد الإعدام. بل لكي تتفرج على جمال باشا، وترى هذا الإنسان العجيب في تلك اللحظات النادرة.

كأنها سمعت همهمة غريبة تنبثق من مجاهيل الليل. التفتت فرأت وهجاً يتصاعد من جهة المرجة. من أين الضوء في هذه الساعة؟

تقدمت بحذر من النافذة فسمعت نداء: ألله أكبر.

وانتظرت متوترة فلم تسمع شيئاً آخر. إذن ليس هو أذان الفجر. لقد بدأ تنفيذ الأحكام.

– ألله أكبر.

سمعتها مرة أخرى. فتقدمت بحذر وأغلقت النافذة وأسدلت الستارة كأنها كانت تخشى أن يراها هذا الصوت، أو يضبطها متلبسة بالشهادة على ما يجري.

هل سمع هذه الصرخة أهل دمشق كلهم؟

هل سمعها حسن حماد؟

وتذكرت تلك القصة التي حكاها لها ألتر عن حسن حماد.

تمددت في سريرها محاولة أن تستعيد القصة المثيرة.

هذا الرجل موظف، رئيس دائرة تسجيل الأراضي. كان في نابلس حين جاءه التبليغ بالذهاب إلى عاليه. قطع مهمته وذهب. وصل ليلاً فنزل في فندق شاهين. ونام حتى الصباح. في الصباح هيأ نفسه للذهاب إلى المحكمة العرفية لكي يقدم نفسه. ونزل إلى صالون

الفندق ليشرب فنجان قهوة. فسمع بصدور أحكام الإعدام. جلس يشرب القهوة ويقرأ الأسماء. وبغتة قذف بالجريدة. وخرج يركض من باب الفندق. لم يكمل القهوة. ولم يأخذ حقيبته. ولم يسدد حسابه. ثم تبين أن اسمه كان منشورا بين الذين صدر بحقهم حكم بالإعدام. آخر ما شوهد كان يتسلل في حواري دمشق. وهناك اختفى...

* وما الذي كنت تفعله في عاليه أنت يا ألتر؟

لدي أصحاب هناك.

مسكين حسن حماد.. لحظة رعب حقيقية. أو محظوظ حسن حماد. نفذ بجلده أو بريشه. اليوم سيسمع بتنفيذ الأحكام. هل يسمع هذا الصوت الآن؟ لا شك أنه هو الآخر لم يستطع النوم. ولا شك أنه يحس، أينما كان مختبئاً، أنه يعيش حياته من جديد. أو أنه يولد اليوم من جديد.

ولم يطل الأمر.

رن جرس الهاتف وكان المتحدث جمال باشا. قال ممازحاً قبل صباح الخير: هل تحبين الحصرم؟ فأجابته ضاحكة: أحب الحصرم في حلب والعنب في الشام. وضحك بدوره مبدياً إعجابه الذي لا ينقطع بذكائها الدائم وبديهتها الحاضرة. قال لها: اليوم سنشرب العرق في الغوطة والمازة حصرم. ما رأيك؟ الحصرم مازة

عظيمة. وله نتائج مدهشة. ولهذا تحبه النساء.

ضحكت: يقولون إن الذي يشرب العرق ومازته عنب يكون عاشقاً للبنت وأمها. فماذا سنسمي من تكون مازته الحصرم؟

قال لها: هل أمك لا تزال قادرة على العشق؟

قالت: صرت أنا المعنية؟

فأجاب: لا. أنت مازلت حصرماً. المهم. ستذهبين معنا إلى الغوطة. إسمعي. لا تقولي شيئاً قبل أن تسمعيني. اليوم البلد قائمة قاعدة. انتهيت الآن من تنفيذ الإعدامات بالخونة. سيكون الناس منشغلين. نذهب إلى الغوطة. ولاحظي أن زوجتي وأولادي سيكونون معنا. ومعنا مطربة رائعة، بنت نشأت بك، وراقصة تخلع عقول النساء فكيف بالرجال. قولي نعم فوراً. آه؟ ماذا قلت؟

قالت له: الباشا يأمرني بعد أن أصدر حكمه بإعدام سبعين شخصاً دفعة واحدة، ونفذ الحكم بواحد وعشرين شخصاً في ليلة واحدة. ماذا تريدني أن أفعل؟ أخالف أوامره؟

لا تعقديها. هذه ليست أوامر. هذه دعوة من القلب. وإذا جاءت لهجتي آمرة، فلأنها تفضح رغبتي الحارة في مجيئك معنا.

* ولكن الحصرم لم يتشكل بعد. نحن في مطالع أيار.

— إن لم نجد عنباً نأكل الحصرم. وإن لم نجد الحصرم

نأكل الخس. الخس في الغوطة الآن يجنن. ومن أجل الحموضة في المازة نأكل ورق الدوالي. الورق أيضاً حامض وطيب. هل جربته؟

* جربته.

طيب. أليس كذلك؟

* طيب فعلاً. أنا أحبه.

وأنا أدعوك.

* يحصل لنا الشرف يا باشا. متى الذهاب؟

هيئي نفسك وسيمر من يأخذك.

* أمرك.

رجعنا؟

* ماذا أقول؟ طيب. حاضر..

أغلقت السماعة غير مصدقة. هذا رجل تفرج قبل قليل على إعدام سبعة رجال؟

ولكن اقتراحه مقبول. يجب أن لا تبقى وحدها في يوم كهذا. والخروج إلى الغوطة قد يساعد في إبعاد شبح ما جرى عن ذهنها.

قال لها في الطريق إلى الغوطة: هذه عملية جراحية كانت ضرورية لسورية. العمل الجراحي قد يكون قاسياً ولكنه يضمن حياة المريض.

* هل هناك غيرهم؟

هناك آخرون. ولكنهم هاربون. وبعضهم خارج البلاد.

ولكن نهايتهم عندي.

ولاحظ رفة ابتسامة في عينيها: كأنك تريدين أن تقولي شيئاً.

* تعرف شخصا اسمه حسن حماد؟

لا.

* لا تعرفه؟

– لا. لماذا أعرفه؟

* هو أحد الذين حكمت عليهم بالإعدام.

وهل تظنين أنني لا أعدم إلا أصحابي وأصدقائي؟

وضحك: إعترفي أنها حلوة.

ضحكت مجاملة.

* المهم. ما به هذا الحسن حماد؟

حكت له ولزوجته قصة الرجل الذي كان ذاهباً بنفسه إلى عاليه، وكيف رأى اسمه في الجريدة ففر هارباً. كانت قد توهمت أن الباشا سيغضب أو يتوتر، لأن أحدهم أفلت من قبضته. أو يعطي أوامر بالتحقيق مع العاملين في الفندق. ولكن الذي حدث كان عكس ما تصورته تماماً. قبل أن تنهي قصتها، ومنذ أن وصلت إلى حيث قرأ الرجل اسمه، انفجر جمال بالضحك. وظل يضحك ويستعيد التفاصيل حتى اضطرت هي الأخرى إلى الضحك. وضحكت معها زوجة جمال.

استيقظ إبراهيم على خطوات سميح الذي كان يركض وكأن النار قد شبت في ثيابه.كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً عن الأفق وبدأت تتسرب عبر عيدان الكوخ الذي يختبئ فيه.

إرتمى سميح على الأرض وانفجر بالبكاء. ظل إبراهيم يتطلع إليه باستغراب. إلى أن رفع رأسه: أعدمهم يا إبراهيم. أعدمهم. واحد وعشرون شخصاً غلقوا اليوم.

ظل إبراهيم يتطلع إلى سميح كأنه لم يسمع شيئاً. لم تستطع عواطفه أو جسده استيعاب ما سمع. مد يده يهز نادر: قم إسمع.

– ٤ –

وكان عبد السلام يشرب منذ الصباح. لم يجد ما يساعده على تحمل النبأ إلا بأن يشرب، ووحده في غرفته. ظل يشرب دون طعام حتى الظهر. وأحس بالجوع والاختناق معاً. خرج من غرفته يترنح. وبدل أن يذهب إلى مكان يأكل فيه، ذهب إلى حيث يكمل الشرب. دخل الخمارة ففوجئ أنها خالية. قال لطوني: يظهر اليوم ليس عندك زبائن. فأجاب طوني: ألم تسمع؟ أعدمهم.

ولكي لا يبكي عبد السلام قال: لا. لم أسمع. لا أريد أن أسمع. أعطني عرقاً.

وجاءه طوني بالعرق، وهمَ أن يجلس معه وهو يقول:

ما كنت أريد أن أفتح اليوم. ولكن خفت أن يظنوا أننا مضربون.
تطلع إليه عبد السلام بعينين حمراوين: قم من هنا.
نعم؟
* أريد أن أجلس وحدي.
أمرك.
* ولا أريد أن أتحدث إلى أحد.
ولم يعلق طوني. وراح عبد السلام يشرب. ولكن طوني الذي لاحظ حالته جلب له بعض الموالح، ثم خرج وجلب له خسة. نظفها ووضعها أمامه دون أن يتكلم.
واستمر عبد السلام يشرب دون أن يهتم لما وضع أمامه. وطوني جالس يراقبه دون كلام.
بعد قليل نهض عبد السلام مترنحاً وقال لطوني: عندك تلفون؟
فأجاب طوني: عندي. الحقيقة أنني أخفيه عادة. ولكن اليوم على حسابك.
وأخذ الهاتف وقدمه له. وأدار عبد السلام الجهاز وطلب فندق داماسكو بالاس. وجاءه صوت آنا قلقاً: عبد السلام. أين أنت؟ خفت عليك. ذهبت إليك في البيت فلم أجدك. أين أنت؟ وماذا تفعل الآن؟
إحتاج إلى جهد لكي يستجمع صوته وكلامه: أنا هنا. أشرب.

أين؟

* لا أعرف. لا أريد أن أعرف.

تعال عندي. نشرب معاً. أريد أن أراك.

* لم أعد أريد أن أشرب. أريد أن أبكي.

بشفقة حقيقية وتعاطف محب قالت له: تعال عندي وسأسند رأسك على صدري لتبكي.

وكان في ذلك إشارة واضحة لاستعدادها لأي شيء لمواساته.

ولكنه تنهد متعباً ليقول: أريد أن أبكي. سأسند رأسي إلى جدار وأبكي.

أقول لك تعال إبك على صدري.

أرخى السماعة من يده وهو يهذي: أريد أن أبكي على جدار.

وتلقف طوني السماعة منه. بينما كان عبد السلام يخرج مترنحاً وهو يبكي. ولم يحس طوني أن من المهم أن يطلب الحساب منه.

— ٥ —

كان فهمي بيك ونصرت بيك حائرين في أمرهما. عليهما تأمين حماية الباشا في سيرانه. وكان الواجب يقضي بأن يرسلا مجموعة من الجنود تخلي المنطقة التي سيمر فيها مع أصحابه. لكنه لم يحدد المكان. ولم يترك فرصة لأحد أن يسأله أو يناقشه. وجميع الذين يرافقونه

لا يعرفون.
إن فهمي ونصرت يعرفان حالة البلد اليوم. وهما قلقان منها إلى أبعد الحدود. وحالة البلد هذه تستوجب منهما عدم الاكتفاء بحراسة الموقع الذي سيتوقف فيه الباشا مع ضيوفه، بل وتأمين حراسة طريق العودة كله منذ الآن وحتى العودة التي لا يعرفان متى ستكون.
ولذلك فكلما تابعت عربة الباشا تقدمها في الغوطة كان قلقهما يتزايد. أخيراً قال نصرت لفهمي: أرى أن ترجع أنت وتتصل بعلي باشا أو ببهاء بيك. أطلب منه أن يضع تحت تصرفك كتيبة من الجيش. يبدو أننا سنضطر لتغطية الغوطة كلها. وسأترك لك عناصر يدلونك أين سنكون.
أدار فهمي عنق جواده وقفل راجعاً.
تابع نصرت على رأس قوة الخيالة التي تمشي وراء موكب عربات جمال باشا وضيوفه. وكلما مر بمفرق طرق أشار إلى أحد العناصر بالتوقف والمرابطة فيه إلى أن تصله التعزيزات. وظل الموكب في سيره حتى قرب قرية الخيارة.
توقفت العربات ونزل الباشا وهو يشير إلى المنظر الجميل حوله بانتشاء واعتزاز، وكأنه هو الذي زرع أشجاره: أنظروا. أنظروا. هل في الدنيا مكان أجمل من هذا؟ أنا ذهبت إلى فرنسا. صدقوني بلادنا أجمل. كل

شيء هنا. أنظر. شجر التفاح والخوخ والدراق والمشمش وإضافة إلى هذا كله الورد.. يا ألله. إجلسوا.. أين المشروب؟

سارع الخدم المتواجدون في عربة المؤونة بفتح العلب التي تحتوي على الكؤوس والزجاجات وبدأوا يقدمون المشروب.

أمسك الباشا بالكأس الذي قدموه له، وقال للآخرين: إجلسوا. إجلسوا. واسمعوا القصة الجميلة التي ستحكيها لنا الليدي سارة. إحكي لهم يا سارة عن حسن. حسن ماذا؟. وبدأت سارة تعيد حكاية حسن حماد. فيما كان الخدم قد أفرغوا عربة المؤونة وأرسلوا سائقها لملئها من جديد. فالجلسة على ما يبدو ستطول. وسيتم استهلاك الكثير. وبدأ القصاب بذبح الذبائح التي جلبها.

ولم يكن ضحك الباشا عند الإعادة بأقل منه حين سمع القصة أول مرة. وشاركه الجميع الضحك. وكان نصرت قد نشر من تبقى من خيالته حول المكان وراحوا يجوبون المنطقة ويطردون منها كل من وما يصادفونه حتى الطيور.

وحين وصلت التعزيزات انتشر الجنود إلى القرى المجاورة وأخلوها وصادروا منها كل ما يمكن أن يلزم لجلسة الباشا.

وفيما كانوا يجزّون عجلاً من إحدى الزرائب صاحت صاحبته الفلاحة: دخيلكم. والله ما حيلتنا غيره. وكان نصرت قريباً فنهرها دون قسوة: قد لا نحتاجه. هذه وليمة جمال باشا. بعد أن نذهب تأتين وتلملمين من ورائنا. ستجدين طعاماً يكفيك إلى آخر السنة.

– وإلى أين تأخذوننا الآن؟

* لا نأخذكم إلى أي مكان. روحي إلى أي أقارب لك في أية قربة وابقي عندهم.

وكان إبراهيم مع سميح ونادر متمددين في الكوخ بصمت حين سمعوا الأصوات. تطلعوا من شقوق الكوخ فوجدوا الدنيا مليئة بالعساكر.

* ما العمل؟

ويبّس الخوفُ الكلامَ في حلوقهم. حتى عيونهم تجمدت كل منها حيث تنظر. ولم يعد أحد منهم يجرؤ حتى على النظر إلى الآخر خشية أن يكون عليه تقديم الإجابة. وظلوا متجمدين على حالتهم تلك وقد استسلموا إلى يأس محبط، وهم ينتظرون ما تقودهم إليه المصادفات، إلى أن رفس أحد الجنود باب الكوخ: اطلعوا بره. وارفعوا أيديكم ولاك!

وخرجوا يرفعون أيديهم.وانضموا إلى مجموعة أخرى من الفلاحين الذين يرفعون أيديهم.

ومن بعيد تطلع نصرت ورأى التجمع المشكل من بعض

الجنود وهؤلاء الشباب. فاقترب متوتراً والعرق يتصبب منه. فقال أحدهم: يا بيك، نحن فلاحون من هنا. ولم يتركه نصرت يكمل: انقلع من وجهي أنت وإياه. لا أريد أن يقترب أحد منكم من هذه المنطقة حتى الغد. مفهوم؟

إنطلقوا يركضون: إن شاء الله عمرك لا تشوف خلقتنا ولا نشوف خلقتك.

وفيما هم يركضون بهذه الطريقة أوقفتهم صرخة جمدت الدماء في عروقهم: أطلق عليهم. فارتموا على الأرض مذعورين.

كان فهمي يوزع العناصر. ورآهم عسكري وهم يركضون، فأشار لرئيسه نحوهم. وكان رد فعله الأول ذلك الأمر.

لقم الجندي بندقيته. وحين هم بالتصويب رأى فهمي يخرج مسدسه من حزامه ويتقدم من الشبان فتبعه. وتبعهما عناصر آخرون.

وصل فهمي إليهم ثم قرفص قربهم. وأمسك شعر نادر وشده ليتطلع إلى وجهه.

قال نادر وشفتاه ترتجفان: يا بيك. البيك الذي هناك طردنا. هو قال.

إنهض. إنهضوا كلكم.

نهضوا. وفتشهم فلم يعثر معهم على شيء ذي قيمة.

خذهم.

فنحرهم الجندي بفوهة بندقيته ليتقدموا رافعين أيديهم دون أن يفهموا إن كانوا قد وقعوا فعلاً، أم أن المسألة عارضة وسيطلق سراحهم بعد إبعادهم عن المكان.

لكن الجندي، الذي لم يسمع إلا كلمة «خذهم» ، راح يتقدم دون أن يسأل إلى أين يأخذهم. سار بهم حتى التقى رتبة.

من هؤلاء؟

* البيك قال أن نأخذهم.

ضعهم في العربة.

ووضعوا في العربة.

لكزه نادر: قل له إنك ابن عارف بك.

ولم يرد إبراهيم.

وتابعت السيارة طريقها بهم إلى دمشق.

احتاج الأمر إلى قبيل الظهر من التمشيط والترحيل حتى استطاع فهمي بيك ونصرت أن يحسا بالاطمئنان بعد أن أشرفا على كل شيء بشخصيهما.

تطلع كل منهما إلى الآخر: الآن صرنا نستحق كأساً ولقمة. واقتربا من المجموعة المحتفلة.

كان الباشا في قمة سكره ولهوه وسعادته وهو يغني مع الآخرين:

بدك تسكر وتغني

اشرب من عرق يني

ثم مال إلى حيث سارة مع زوجته: هذا عرق تركي من عنب تركيا. أحسن عرق في الدنيا.

سألته: هل ذقت عرق مزارعنا؟

قال: لا. أنتم بخلاء بحكم العادة. ولا تتخلون عن عاداتكم أبداً. هل قدمت لنا هدية ورفضناها؟ وضحك معه من يسمعونه. وقال أحدهم: لم تبق لكِ حجة.

قالت: صديق لأخوتي يعمل في خمارة في ريشون لوزيون يقول إن العرق المسحوب من عنب الجديرة رائع. سنجلب لك منه لكي تمنحه بركتك.

أو أحكم عليه بالإعدام.

وأطلق ضحكته المدوية فشاركه الجميع بالضحك.

وهمست لها زوجة الباشا: لا تنغزي بهذا الضحك. أعصابه متوترة.

تطلعت إليها سارة مستفهمة فأكملت: سهر طوال الليل حتى تفرج على تنفيذ الأحكام من نافذة بيت العابد المصادر. يبدو أن المحكومين كانت أعصابهم قوية وقد قالوا كلاماً مؤثراً جعله يفقد أعصابه. تعرفين ماذا قال فور دخوله إلى البيت؟ قال: ماذا أفعل بهم؟ أكثر من الإعدام؟ أأعدمهم مرة أخرى؟ مجانين. أكيد مجانين. هل هناك عاقل يقرأ الشعر وهو تحت حبل المشنقة؟ هل هناك إنسان يعدم ولا يطلق كلمة رجاء؟

قالت سارة: إذن يجب أن نراعيه.

وانطوت على نفسها تستعيد المشهد: شباب يتقدمون إلى حبل المشنقة وهم يقرأون الشعر. يجب أن يسمع بهذا أفشالوم. ليس فقط لأنه شاعر. بل لأن المشهد شعري. هذا لا يحدث إلا في الروايات. ولو سمعته من غير زوجة الباشا لما صدقت.

استمرت الحفلة حتى المساء. كان السكر واضحاً على جمال. فقد بدأ يترنح ويحكي دون أن يهتم بأن يسمعه أحد. ثم يضحك وينهض ليشارك الراقصين رقصهم. وحاول أكثر من مرة أن يجتذب سارة للرقص. ولكنها ظلت تقول له ممازحة: أنا محتمية بالمدام. فيتركها ويذهب إلى الأخريات.

عند المساء تهيأ الجميع للعودة. وبغتة قال جمال: نسيتم أن في دمشق اليوم سبع جنازات وأربع عشرة في بيروت؟ لن نستطيع الذهاب إلى بيروت للأسف. ولكننا سنشارك الشوام في التشييع.

والتفت إلى الخدم الواقفين، وأمرهم بأن يقطفوا الورد، ويصنعوا باقات للموجودين كلهم.

وركبوا العربات، وعربة جمال باشا في المقدمة، وهو يغني بصوته المرتفع وهم يغنون وراءه.

مرت العربات في الشوارع دون أن تخفت أصوات

المغنين. وحين مرت عربة الباشا قرب مجموعة من الناس ألقى عليهم الورد وهو يهتف: خذوا هذه للمقابر. هذه هدية من الباشا. ففعل الآخرون مثله.

كان موكباً غنائياً سكراناً ومعربداً يتناثر الورد منه في كل اتجاه، وبما لا يتلاءم مع المدينة الصامتة الحزينة التي بدأ الغروب يلفها بوشاحه الأسود ليخفي أحزانها وخوفها.

وكان فندق (خوام) في الطريق فاستأذنت سارة في أن تنزل.

قال لها: إنزلي وارتاحي. سنرسل في طلبك لنكمل سهرتنا. اليوم السهرة عند علي فؤاد.

وأحبت سارة أن تعتذر. فهي لا تريد الاستمرار في هذا الرقص الوحشي فوق الجثث. قالت: أتمنى أن يعذرني الباشا. فعندي شغل.

تطلع إليها مندهشا: شغل! أي شغل؟

قالت: هناك امرأة أسعى للتعرف بها منذ زمن، لأنها حاولت تأسيس أول جمعية نسائية عربية في دمشق. أريد أن أراها وأعرف إلى أين انتهت محاولتها. أخشى أن تكون الحرب قد قضت على مشاريعها. وإن كنت أظن بعد مجيئكم يا باشا أنه سيسهل شغلها. فأنا أعرف أنكم من أنصار المرأة.

ضحك الباشا باعتزاز: طبعاً. طبعاً. من هي هذه المرأة؟

قالت: اسمها نازك العابد.

وأطلق الباشا ضحكة أعلى من السابقة: لا تتعبي نفسك. آل العابد كلهم منفيون إلى أزمير. وبيوتهم مصادرة. أصلاً أنا كنت اليوم أتفرج على إعدام الخونة من بناية فارغة لآل العابد.

– حتى نازك منفية؟

* كلهم. أعرف نازك هذه.

– رغم أنها تحمل أفكارك نفسها يا باشا.

* لا تعلقي أهمية على الأفكار. الأفكار يحملها أي إنسان. أنا سأخدم حركة المرأة أكثر من آل العابد كلهم. استتباب الأمن أهم من محاولات نازك الصبيانية.

وضحك مرة أخرى: قد تشتاق إلى أهلها ولذا نفيتها معهم. المهم، صاحبتك غير موجودة. لم تبق لك حجة. سننتظرك في السهرة.

– ٧ –

لم يسألهم أحد شيئا. دُفعوا إلى قبو كان فيه عدد كبير من الرجال والشباب. ونال كل منهم أكثر من رفسة وضربة سوط ولطمة بالحذاء أو بكعب البندقية.

وقبل أن يتطلعوا إلى وجوه من حولهم قال سميح: معقولة هذه الصدفة؟ نعتقل هكذا؟

لم يرد أحد على كلامه. وذاب الثلاثة في الجمع المكتظ المتوتر.

وماذا يعني؟ يخلصون علينا كلنا؟ يعدمون الشعب السوري كله؟

* أولاد الكلب.

قال إسلام. قال.

يا أخي بلا إسلام بلا علاك مصدي. نحن عرب وهم أتراك. هم يرون ذلك. لماذا نتردد نحن أن نرى ذلك؟

* والله العظيم لولا المخافة من الله لقلت إنني شامت بالذين كانوا يطالبون باللامركزية. خلص يا أخي. أعلنوها: عربية عربية.

كانوا يتحدثون دون أن يوجه أحد منهم الكلام لأحد. تطفح الجملة من قلب أحدهم محمولة على غيظه أو خوفه أو وعيه فيطلقها.

وكانوا متنوعين في كل شيء: كوفيات وطرابيش وشراويل وجلابيات وقنابيز وبناطلين. زكرتية وقبضايات وأفندية وطلاب. وبين حين وآخر يفتح الباب وتندفع منه مجموعة أخرى. كان أحد العجائز يتحدث بهدوء: يا غافل لك ألله. كنت ذاهباً لصلاة الفجر فرأيت الناس مجموعين. ورأيت المرجة كأنها في النهار. كان مقهى زهرة دمشق مضاء. قال لي صاحب المقهى إنه أضاء مصابيح المقهى طوال الليل بناء على أوامر عليا.

اقتربت – وغلبه البكاء – ورأيتهم. والله العظيم

يرفعون الرأس. شباب يا حسرتي مثل أعواد الحبق. لكن والله أقسى من السنديان والله. ولم أصدق أن حبل المشنقة يمكن أن يقضي على ذلك العزم الذي كان ينبض في عروقهم. الختيار المسكين عبد الحميد الزهراوي انقطع حبل المشنقة فيه فأمسكوا برجليه وثبتوه حتى سَلَّم الأمانة. واحد منهم ظل يشتم ويسب حتى طلعت روحه. قالوا لي هذا عبد الوهاب الإنكليزي. تركتهم وأردت أن أمشي. واحد من المناجيس رآني أبتعد وأنا أبكي. قال لي: ما رأيك يا شيخنا؟ الخونة يذهبون إلى الجنة أم إلى النار؟ ماذا أقول له؟ هو كان يسخر مني. لكنني وجدتها فرصة أن أقول كلمة أفش بها قلبي. قلت له: يا إبني. هؤلاء إن لم تكن عليهم ذنوب إلا الذنوب التي شنقوا من أجلها فهم شهداء. نعم شهداء. أحياء عند ربهم يرزقون. ما أدراني أن الباشا يسمعني. كان يطل من شباك بيت العابد. تعرف بيتهم. هؤلاء الذين هجروهم إلى الأناضول. يظهر أنه سمعني. إبن الصرماية كان يتفرج. فاجأني صوته من الأعلى: خذه. خذه. خذ هذا الختيار النحس. واعمل له فلقة تجعله يتشهّد بالعبراني. رفعت رأسي إليه. ولكن الجندي شدني بقوة جعلتني أسقط على الأرض. قلت له: ألا تخاف من ربك؟ قال: والله لأخليك تشوف ربك كردي. مجانين يا ابني. مجانين. صدقني: نصفهم لا

يعرف ماذا يفعل. ذلك العسكري الحيوان جرني وضربني مرتين أو ثلاث مرات قبل أن أصل إلى العربة. ثم نسيني. حتى الآن أنا منسي. ولكن لو أن أحداً يبلغ الأولاد لكي لا يبحثوا عني. أنا لست من أهل المشاكل.

قال له أحد الرجال المشبعين بالثقة بأنفسهم: طول بالك شيخنا. يجوز أن يجلبوا أولادك عندك هنا. طول بالك. هؤلاء ما عندهم ذقن ممشطة.

فتمتم الشيخ: أمرنا إلى الله.

كان الضابط يقترب من باب الزنزانة ووراءه مجموعة من الموقوفين والرقيب يقول له: امتلأ المكان يا بيك.

ألقى نظرة على المجموعة المكتظة في الداخل. ونفر من رائحة العرق والهواء الفاسد وقال: خذ قسماً منهم إلى القشلة.

ثم ذهب.

ودخل الرقيب مع عدد من الجنود وصار يشد من تقع يده عليه ويدفعه إلى الخارج. فكان إبراهيم وسميح بين المدفوعين. وظل نادر في الداخل.

— ٨ —

حكت لها زوجة الباشا، وهما تتهيآن للذهاب إلى السهرة، أن جمال حين دخل إلى البيت لم يرض أن يخلع ملابسه أو جزمته ليرتاح قليلاً كعادته. ظل مستنفراً بملابسه كلها، وهو يتجول في البيت وكأنه في عرض

عسكري. والياور المسكين يلاحقه من مكان إلى آخر ليلتقط أوامره واحداً بعد الآخر: قل لعلي باشا أن يعمل لنا قالب كاتو كبيراً. اليوم لدينا احتفال. قل له أن يدعو فيصل. سأرى كيف تحول هذا الأمير إلى فأر مذعور. قل له أن لا يدعو اليوم إلا العرب. لا أريد أن أترك لهم فرصة يمارسون فيها ندبهم وأحزانهم من وراء ظهري. إذا كانوا مخلصين للدولة العلية يجب أن يحتفلوا اليوم معي بتخلصها من أمراضها. إسمع. إجلب أسماء الذين أعدموا اليوم. لا. لا. لا تجلبها. لا أحب قراءة أسمائهم. ستعمل لي قائمة. إجلس. إجلس.

وجلس الباشا على الأرض وهو يضحك باستمتاع. فيما الياور المسكين مرتبك لا يعرف إن كان عليه أن يجلس أو يظل واقفاً.

إسمع. كل واحد من المعدومين له أقارب. أليس كذلك؟ الذين لهم أقارب أو أهل في دمشق في الكرك، في حمص في معان. أينما كانوا. سجل لي أسماءهم. وأبلغهم من الغد أنني كل يوم سأتغدى في بيت واحد وأتعشى في بيت الآخر. ما رأيك؟ بدل أن يعملوا طعاماً خاصاً للعزاء سأجبرهم بالجزمة أن يعملوا ضيافة للباشا وضيوفه.

قالت لها سارة: أتمنى أن لا أذهب إلى هذه السهرة.

قالت لها الزوجة: إياك. يجب أن لا نخالف له اليوم أي

أمر، وإلا فلا نعرف ماذا يمكن أن يحدث أو ماذا يمكن أن يفعل. أنا نفسي مضطرة إلى الذهاب.

في الحفلة منع الباشا جميع الحضور من أن يمزجوا العرق بالماء: اليوم سكرة ولا كل السكر. سيك. كله سيك. وكعبه أبيض. حتى الليدي دكتور ستشرب العرق سيك.

وتطلعت سارة إلى الليدي تتفحصها. ثم تقدمت منها تسلم. وكانت راغبة في الحديث الآن عن عبد السلام.

فسألتها: أين مرافقك الجميل؟

همست آنا بحزم: خلينا مع الباشا.

وراحتا تتابعان تصرفات الباشا الاستعراضية.

وجاء خدم بقالب الكاتو الكبير وتركوه وسط القاعة.

وتقدم علي باشا من جمال وقال له: يأمر مولانا بقطع قالب الكاتو؟

وجرد سيفه وقدمه له.

أمسك جمال بالسيف وهزه بيده، كأنه يستعد لمبارزة. ثم نقل نظره بين الحضور فوجد أن الصمت يخيم عليهم. أطلق ضحكة صاخبة: خفتم؟ هذا للكاتو وليس لقطع الرؤوس. لماذا سكتم؟

ولكنه لاحظ أن العيون تتوجه إلى الباب.

تطلع حيث يتطلعون، فرأى الأمير فيصل واقفاً بالباب، وابتسامة هادئة على وجهه. الوقار الذي دخل به الأمير

أساد نوعاً من الارتباك. كان في عينيه شيء من الاحمرار. والجلد تحتهما بدا محمراً أقرب إلى الانتفاخ. قدرت سارة، كما قدرت آنا، أن هذا الرجل لم ينم الليل. أو أنه كان يبكي. أو لعل الأمرين قد حدثا.

وتقدم جمال وهو يهز السيف بيده حتى توقع الجميع أنه سيضرب الأمير به. لكن الأمير ظل يتقدم بخطوته الثابتة حتى صار أمام الباشا ووقفا وجهاً لوجه.

أمسك جمال بذراع الأمير، وشده بصمت حتى صارا أمام القالب. ثم التفت إليه وقال: تعرف أنني أعدمت الخونة اليوم؟

قال الأمير: أعرف يا باشا.

وبغتة مد جمال يده بالسيف، وضرب قالب الكاتو عرضياً، فأوقع قسمه العلوي وقال: وهكذا سوف أقطع رؤوس الفرنسيين والإنكليز والخونة كلهم.

قال الأمير: أنت من يستطيع ذلك يا باشا. وهذا ما نتوقعه كلنا منك.

صرخ جمال: طبعاً أنا من يستطيع ذلك. وما كان لك أو لأبيك أن تتوسطا من أجلهم.

قال الأمير: لم نكن نعرف ما تعرفه يا باشا.

تطلع إليه جمال متشككاً: وما الذي أعرفه وأنتم لا تعرفونه؟

قال فيصل: أنهم خونة.

ابتسم جمال منشرحاً: طبعاً. لقد قطعت اليوم ذنب الأفعى. وغداً ترون كيف أقطع رأسها، سواء أرسل أبوك جيشه أم لم يرسله.

قال الأمير بهدوء: لم يسألني الباشا عن سبب تأخري عن السهرة.

صحيح أنت متأخر. لماذا؟ هل كنت تقوم بالتعزية؟

* جاءني رسول من الشريف والدي. فأحببت أن ألتقي به قبل المجيء إلى هنا لكي أنقل لكم خبراً طيباً.

والتفت فيصل إلى الآخرين لكي يخلّص الكلام من الحوار الشخصي المباشر مع الباشا. وقال: جيش الحجاز سيجهز خلال أيام. عشرون ألف مقاتل.

وتيقظ اهتمام كل من سارة والليدي، بينما كان الجميع يهللون مبتهجين. فاضطر جمال إلى الابتسام: خبر طيب فعلاً يا أمير. متى يجيئون؟

* الأمر متوقف على عظمتكم. هل تريدهم أن يتوجهوا إلى القدس أم إلى سيناء مباشرة؟

سنؤجل نقاش هذا إلى الغد. أخبار طيبة فعلاً. اليوم يوم الأخبار الطيبة. هذا يوم سعدي. فلنشرب نخب الشريف حسين.

وحين رفع الجميع كؤوسهم، تقدم الأمير بهدوء إلى كرسي فارغ. وجلس.

تطلع جمال إليه: ألا تشرب نخب أبيك؟

ابتسم الأمير وقال: أشرب كأس ماء. وليكن صافياً مثل النوايا بيننا يا باشا.

قهقه الباشا معجباً بالتعبير. ثم التفت إلى الآخرين فشربوا.

وساد الهرج.

وتطلع جمال مزهواً إلى سارة. وقال لها دون أن يرفع صوته: كان أخوك آرون على حق. العصا من الجنة. حين أريهم العين الحمراء سيطيعونني كالكلاب. كم ظل الشريف متردداً في إرسال الجيش؟ حتى أنه كان يريد أن يساومني عليه. ها هو الآن يرسله حين رأى الحزم والبطش.

واغتنمت سارة الفرصة. فتقدمت من المائدة وعبأت طبقاً تنوّعت فيه الأطعمة. ثم تقدمت من الأمير باستعراضية: أنا سأقدم للأمير صحنه تحية لأخباره الطيبة.

نهض الأمير شاكراً بحياء. لكن سارة كانت تقوم بهذه الحركة لكي تستطيع أن تسأل الأمير: هل حان الوقت لتقديم الجواب يا أمير؟

تناول الصحن منها وقال: شكراً.

ثم عاد إلى الجلوس.

قدمت له المنديل الذي كان تحت الصحن، وهي تهمس له: الوضع خطير كما ترى. ونحن نستطيع مساعدتك.

فرفع صوته قائلاً: هل من المعقول أن تجلبي لي طعاماً وأنت لا تأكلين؟ هل أسكب لك؟

نظرت إليه حانقة وقالت: لا. هذا كثير. لم أصل بعد إلى حيث يخدمني أمير.

ثم بربرت: نحن كنا نحب أن ننال شرف خدمة الأمير. ولكن يظهر ما لنا نصيب.

وابتعدت عنه بعد أن لاحظت مرة أخرى الاحمرار فوق الوجنتين: هذا الأمير الوقور الهادئ كان يبكي اليوم. لكنه قادر على المكابرة.

ازداد صخب الباشا وتهريجه حتى اضطرت زوجته إلى أن تهمس لسارة: دعينا نذهب.

ووقفتا فانتبه إليهما الباشا: وقطع غناءه الصاخب وهو يقترب منهما مترنحاً: إلى أين؟

قالت الزوجة: تعبنا يا باشا. سنذهب إلى النوم.

قال: تذهبون. ما المانع؟

والتفت لينادي أحداً. ولكن الياور كان جاهزا تحت الطلب.

* إجلبوا عربة الليدي سارة توصلها إلى فندقها وعربة الليدي حرمنا، وضحك، توصلها إلى البيت.

ونهضت آنا: تسمح لي أنا أيضاً بالانصراف يا باشا.

* على راحتك. الجميع اليوم على راحتهم. أين مرافقك؟

وانتبهت سارة إلى جواب الليدي: ينتظرني في الخارج يا باشا.

وتقدمت سارة مع الزوجة نحو باب الخروج وهي تأمل أن ترى عبد السلام. وخطر لها أن تفكر جدياً بإغاظة كل من آنا وألتر بالتقرب من هذا الشاب. فقالت وهي تهمس لزوجة الباشا: لدى الليدي دكتور مرافق شاطر. أتمنى لو أن الباشا يفرزه إلي.

قالت الزوجة: المرافقون كثر. والليدي لن تطول إقامتها. سيكون لك.

وحين صارتا في الخارج راحت سارة تتلفت بحثاً عن عبد السلام، إلا أنه لم يكن موجوداً. تمهلت قليلاً بأمل أن تراه حين تخرج آنا. ولكن آنا خرجت وتوجهت إلى عربة ليس فيها إلا السائق. ولم تستطع سارة إلا أن تسألها: أين مرافقك يا دكتور؟

فردت آنا دون ابتسامة مجاملة: أعطيته إجازة.

وحين اقتربت الزوجة من العربة المهيأة لها التفتت إلى سارة: تنامين عندنا اليوم.

نظرت إليها سارة خائفة، فقالت لها: هذا أكثر أماناً. إذا بحث عنك لن يخطر له أنك عندنا.

ولم تستطع سارة إلا أن يذهب خيالها إلى أن الباشا سيذهب في هذه الحالة إلى آنا. وربما كانت هي عند عبد السلام. أو كان عبد السلام عندها. مشهد تتمنى أن

تراه حين يدخل الباشا إلى الفندق ويخبره الخدم أن عبد السلام عند الليدي.

وركبتا في عربة واحدة. بينما أمرت زوجة الباشا سائق العربة الثانية أن يذهب إلى بيته.

الفصل الحادي عشر

- ١ -

إستيقظت سارة في بيت جمال باشا وقد اتخذت قرارها بضرورة الذهاب إلى القدس. صار وجودها هنا مضيعة للوقت. حفلات وسكر وتوتر وهرب دائم من جمال باشا. إنها تحصل على معلومات كثيرة صارت مبتذلة في أحاديث كبار الضباط والمسؤولين لكنها معلومات عقيمة. لا قيمة لها طالما أنها معها وحدها. يجب أن توصلها لأحد ما. ولهذا يجب أن ترى آرون وتطمئن إلى أخبار أفشالوم.

أحست بها الزوجة. ورأتها وقد ارتدت ملابسها مستعدة للذهاب: تذهبين قبل شرب القهوة؟

* سأشربها في الفندق.

لم العجلة؟

* بصراحة.. سأسافر إلى القدس. يبدو أن الوضع مع الباشا سيكون متعباً.

وافقتها الزوجة مرتاحة: سأرسلك في عربة من عربات الحراسة. متى ستذهبين؟ اليوم؟

—على الأغلب سأسافر غداً. ولكنني سأنتقل من الفندق. أريد أن أتجنب الاحتكاك بالباشا.

* تأخذين أمتعتك وتذهبين مع السائق إلى بيت خال

في القنوات. تبقين فيه حتى الغد.

شكرتها سارة وخرجت.

في الفندق فاجأها أحد الخدم: أين كنت يا سيدتي؟ جاء الباشا ليلاً وقلب الدنيا بحثاً عنك. فتح الغرف غرفة غرفة وهددنا بالإعدام.

كانت تستمع وهي تجمع أغراضها في حقيبتها على عجل. ثم قاطعته وقالت: أنقل هذه الحقائب إلى عربة واقفة أمام الفندق.

ولم يرض صاحب الفندق أن يأخذ منها أي مبلغ لأن آرون بك كان سيحاسب عنها. والآن هي ضيفة الباشا. وحساب الباشا أفضل. لأن البخشيش قد يكون أكبر من الحساب.

— ٢ —

ظل عبد السلام في غرفته طوال اليوم. لم يكن راغباً في الذهاب إلى مقر الباشا أو إلى الليدي دكتور. خشي أن يلتقي بأحد، فينفجر بما لا يعود عليه بالخير. كان حزنه على الشهداء أكبر مما توقع. كان قد قرف من الشراب وهو وحيد في غرفته دون طعام. فظل جالساً كالمخدر، وبين حين وآخر يستسلم للبكاء.

ولكن آنا ليستر لم تتركه وشأنه. عند المغرب سمع قرعاً على بابه. فتح فإذا بها تقف بالباب.

أنت؟

والتفت حوله محرجاً، لا يعرف إن كان عليه أن يدعوها للدخول.

لحظة.

وترك الباب مفتوحاً، ورجع لكي يرتدي حذاءه.

ظلت واقفة بالباب، حتى عاد إليها.

تفضلي.

وسار معها.

قالت له: ألم يخطر لك أن تدعوني للدخول؟

نظر إليها محرجاً. فابتسمت له ابتسامة تفهم: أحرجت لأنك تعيش وحدك. أليس كذلك؟ لا عليك. لكن مع ذلك كان في وسعك أن تدعوني. قد أدخل. أنا لا أحرج من مسائل كهذه. ولا أخاف. لا أحد في الدنيا يستطيع أن يأخذ من المرأة إلا ما ترغب، أو ترضى، هي أن تعطيه. ولكن نهال جاءت إليك ذلك اليوم. ألم تدخلها؟

* بلى أدخلتها.

وماذا حدث بينكما؟ كانت متلهفة للقائك.

* أرجوك. أنا الآن غير قادر على أحاديث من هذا النوع.

طيب. خلص. سنغلق الموضوع. لا أريد أن أتدخل في حياتك الخاصة.

* أخبريني: ما الذي جاء بك؟

خفت عليك. لماذا لم تأتني يوم أمس؟ أنا أيضاً كنت في حاجة إليك.

* لم أكن راغباً في رؤية أحد.

حتى أنا؟

ولم يكن في حالة تسمح له بالتقاط الإشارة. تطلع إليها بعينين يكاد الدمع ينفر منهما. فهزت رأسها متفهمة: أعرف. أفهمك. ولكن يجب أن لا يظهر عليك. يجب أن تعود إلى السرايا قبل أن ينتبه الباشا لغيابك.

* قرفت من السرايا ومن الباشا. قرفت منهم كلهم. إذا أعلن الشريف حسين هذه الثورة لن أبقى يوماً واحداً في هذه البلاد كلها.

أفهمك. ولكن إلى أن يحين ذلك. يجب أن لا ينتبه أحد لشيء.

* ما الذي تريدينه مني؟

طلب الباشا أن يقيموا له حفلة تكريم في سينما جناق قلعة. وسيجلب معه الأمير فيصل. أردت أن أحضرها. فوافق الباشا وقال لي: دعي عبد السلام يرافقك. لذلك جئت لأخذك.

* أما زلتم تحضرون الحفلات؟ ما الذي تتوقعينه من حفلة كهذه؟

لا شيء. فضول.

* لا تقولي لي إنك ما زلت تريدين أن تري الأمير.

لا. لا. أريد أن أطمئن على الأمير فقط.

* تطمئنين؟ كيف؟

الباشا يجبره على حضور الحفلة. أريد أن أعرف إن كان سيحضر أم لا. وإذا حضر هل سيستطيع التماسك. خاصة وأن الخطابات كلها ستكون تأييداً للباشا، حتى بشأن الإعدامات.

* أظنه لن يحضر.

ماذا سيفعل الباشا إن لم يلبِّ الأمير هذه الدعوة؟ تلك هي القصة التي تستحق المتابعة. وهناك قصة أخرى يجب أن أطلعك عليها. الباشا خائف من رد فعل اسطمبول. أنور باشا يرسل له أنه قد ارتكب خطأ بتنفيذ الإعدامات، وأنه سيثير السوريين ضد الدولة بفعلته هذه. فأرسل جمال يستدعي مجموعة من وجهاء سورية وعلمائها، ليرسلهم إلى اسطمبول حيث سيعلنون هناك ولاءهم للدولة العلية وموافقتهم على سياسته. وفي الوقت ذاته أعطى أوامره باعتقالات جديدة.

* حسن. سآتيك في المساء. أريد الآن أن أظل وحدي.

سأتركك وحدك. ولكن لقاء وعد.

* ما هو؟

أن لا تشرب.

* قرفت حتى من الشرب. قرفت من نفسي لأنني أواجه أمراً خطيراً كهذا بالشرب.

— فإذن إلى اللقاء.

في الحفلة كان الباشا يجلس مع الأمير فيصل في مقصورة واحدة. وكانت آنا ليستر مع عبد السلام في مقصورة أخرى تستطيع منها أن تراقب الباشا وضيفه.

كان من الممكن تبادل الحديث بشيء من الهمس دون لفت انتباه أحد. فالخطباء كانوا يبالغون في ضجيجهم وأشعارهم التي تمتدح الباشا الذي جلب الخير للبلاد واستأصل منها الفساد، وذلك في إشارة واضحة للإعدامات التي حدثت يوم أمس. كما كان التصفيق الحاد يقاطع الخطابات. ووجد بين الخطباء من اتهم المعدومين بالخيانة والعمالة للأجنبي، ومن أثنى على حسن اختيار الباشا للبعثة الذاهبة إلى اسطمبول. وحين انفجر التصفيق مالت آنا على عبد السلام وقالت: هل ترى الأمير؟ أنظر إليه جيداً. وجنتاه متورمتان من البكاء.

ولم يرد. أضافت: لم تكن وحدك الذي بكى يوم أمس.

وظل ساكتاً. وكان أحد الخطباء قد وصل إلى فقرة ألهبت الأكف بالتصفيق. واضطرت الليدي أن تصفق. ولكن عبد السلام لم ينتبه للأمر.

قالت: هل تلاحظ الأمير؟ يكاد ينفجر غضباً من هذا الكلام.

فقال لها: الأمير أذكى من أن ينفجر.

قالت: إني لأتساءل من منهما الأشد ذكاء.

التفت إليها، فقالت: إسمع يا عبد السلام. لقد آن الأوان لإطلاعك على ما لدي. الباشا يراسل الإنكليز والفرنسيين سراً. ويعرض عليهم القتال بجانبهم ضد الدولة العلية، إذا وعدوه باستقلال سورية تحت إمرته.

صعق عبد السلام: معقول؟

همست: لا ترفع صوتك. تريد أن تتأكد؟

طبعاً.

* وماذا ستفعل إذا تأكدت؟

إذا سربت وثيقة تثبت ذلك للشعب السوري ستقوم القيامة.

* الوثيقة عندي.

كم تريدين ثمنها؟

ابتسمت: رضاك.

والتفتت عنه محاذرة. وبعد قليل أضافت: تستطيع أن تدفع فعلاً؟

لن أعدم وسيلة. سأجعل البلد كلها تساهم في جمع ما تريدينه.

* لا أريد مالاً. أريد نسخة عن الوثيقة.

تقولين إنها معك.

* لا. قلت: عندي. وهذا يعني أنني أعرف مكانها. وأحتاج إليك لجلبها.

أين هي؟

* في مكتب جمال باشا. في خزنته.

ومن سيجلبها؟

* أنت.

كيف؟

* أنا أجلب لك مفتاح خزنة الباشا.

– كيف؟

* المهم كيف سأعطيك إياه. إسمع. أنت تستطيع الدخول إلى السرايا في أي وقت. ودون أن تثير أية شبهة. أليس كذلك؟

طبعاً.

* إذا كان المفتاح معك تستطيع الدخول إلى المكتب؟

أستطيع.

* دع الباقي علي. اليوم سيأتي الباشا إلى غرفتي في الفندق بعد الحفلة. أنت تكون في الصالون. سأنزل إليك ومعي المفاتيح. تأخذها وتذهب. وحين تنهي مهمتك تترك لي المفاتيح على حافة نافذة غرفتي. وتطلق إشارة نتفق عليها. وعندها أفتح النافذة، وأعيد المفاتيح إلى سترته، دون أن يلحظ شيئاً. موافق؟

فكر قليلاً. مرة أخرى سينتظر امرأة ينام معها رجل. أي عالم يزج نفسه فيه. فهم الآن ما معنى شبكات الجاسوسية. ولكن الأمر يستحق التضحية والمغامرة.

ولم تلح على أخذ الجواب. عند انتهاء الحفل غادرت مع

عبد السلام. ووقفا بالباب منتظرين خروج الباشا والأمير فيصل. وحين اقتربا منهما حياها الباشا بحرارة وابتسامة. وتوجه كل إلى عربته.

في الطريق سألها عبد السلام: ما مصلحتك في هذه العملية كلها؟

قالت له: ألم أقل لك إنني أريد نسخة. سأصور الوثائق التي ستجلبها. نحن أيضاً نريد أن نعرف مع من نتحالف. نحن نخوض حرباً على مستوى العالم. ولا نريد أن تحدث أية أخطاء أو أن يتلاعب بنا أحد. فإذا عرفنا أن الباشا يتعامل سراً مع الإنكليز استطعنا أن نتجنب كارثة لقواتنا المتورطة هنا. أرأيت؟ المسألة لمصلحتنا ومصلحتكم. موافق؟

هز رأسه: موافق. ولكن الباشا سيعرف أنني أنا الذي أخذت الوثائق.

– طبعاً.

* وهذا يعني أن أختفي بعد العملية.

– بالتأكيد.

* سأذهب إلى الحجاز.

وصمتا. بعد قليل قال: هل يجب أن يراني الباشا في الفندق؟

– طبعاً. وأنا التي سأصرفك. حين أعطيك المفاتيح.

ثم تطلعت إليه باسمة: أينما ذهبت بعد العملية سيكون

عنوانك عندي. لك مكافأة خاصة.

وقبل أن يمني نفسه بشيء حول نوعية المكافأة أضافت: خمسة آلاف مارك تصلك أينما كنت.

أحس بالخجل. إنها تشتريه. تمنى لو كانت تريد معرفة عنوانه لتتصل به. فهما شركاء في عملية خطيرة. وهذا مبرر آخر للتقارب. كما أنه قضى في صحبتها فترة لا بأس بها، دون أن يزعجها في أي شيء. ودون أن يعكر صداقتهما شيء. دون أن يحاول حتى أن يلمسها، مع أنها كانت تملأ أحلامه. بل إنها قد عرضت عليه لقاء حميماً يوم أمس. وقرر بينه وبين نفسه أنه إذا نجح في أخذ الوثائق سيذهب لينام عند إبراهيم. ثم غير رأيه: يجب أن يرى الأمير فيصل هذه الوثائق فوراً. إذن يذهب إلى بيت البكري في القابون. وصمم: كل لعب لعبته. وسنرى.

— لا أريد مكافأة مالية.

* غيرك يريدها.

— من غيري؟

* حتى لو كنت لا تريد المبلغ لنفسك قد يكون مفيداً لجماعة الشريف حسين والأمير. ومن يدري؟ قد تكون هذه بداية لتعاوننا مع الشريف بواسطتك.

— سنرى. كل شيء في أوانه.

وفي الفندق صعدت إلى غرفتها. وظل هو في الصالون.

وحين وصل الباشا نهض عبد السلام وحياه. فتطلع إليه الباشا مستغرباً: أما زلت هنا؟

فقال له عبد السلام: الليدي طلبت مني أن أنتظر.

فصعد الباشا وتركه.

وحين دخل إليها في غرفتها، قال لها: لماذا استبقيت عبد السلام؟

– أردت أن أعرف إن كان الباشا سينام هنا حتى الصباح أم لا.

* وما علاقة عبد السلام بذلك؟

لكي أعرف متى أريده أن يأتي إلي غداً.

* لا. لن أنام.

قالت وهي تساعده على خلع سترته: على راحتك يا باشا. إذن أستطيع أن أذهب غداً إلى معلولا. سأعد لك كأسك.

وأخذت السترة ودخلت بها الحمام. واستطاعت أن تأخذ منها المفاتيح وتضعها في صدرها، وهي تعد الكأس. ولكي تشغله أكثر قالت له: كنت أظنك ستنام عند تلك الحسناء اليهودية.

فرقع ضحكة ماجنة: سارة؟ بنت الكلب هربت. تصوري. لا أعرف أين هي.

قالت وهي تخرج من الحمام: هي الخسرانة. وأنا الرابحة.

ثم قرعت الجرس فجاءها الخادم. قالت له: قل للملازم عبد السلام... أو أقول لك: إجلب المازة والماء البارد للباشا. أنا سأتفاهم مع عبد السلام. عن إذنك يا باشا.

وخرجت. فتمدد الباشا مسترخياً.

— ٤ —

حين وصل عبد السلام إلى السرايا نزل من عربته وأوقفها في الظلام. ثم توجه إلى الباب الرئيسي. وفي لمح البصر كان جندي ألماني يخرج من الظلام ويندس في العربة ليلبد فيها. وما كاد الجندي يدخلها، حتى تلقى من الطرف الآخر من الظلمة طعنة في صدره. وامتدت يد تكمم فمه. وامتدت اليد الأخرى تجره من العربة وتسحبه إلى الزاوية المظلمة. وتلقيه أرضاً. وعاد الشبح من جديد إلى العربة وكمن فيها.

ودخل عبد السلام دون أن يثير أية ريبة أو تساؤل. بل إنه حيا بعض الضباط الذين كانوا يلعبون الورق. ودخل إلى الداخل. ولكنه حين وصل إلى صالون الباشا، وجد الحاجب الجاويش عثمان مستيقظاً يشرب الشاي.

نهض عثمان يعترضه، حين رآه يقترب من باب مكتب الباشا. ولكن عبد السلام بسطوة الضابط الأعلى والمقرب من الباشا الواثق من نفسه قال له بثبات: الباشا نسي بعض الأوراق. وقد أعطاني مفاتيحه لآخذها له. ودون أن ينتظر، وضع المفتاح في الباب وفتح. مما

طمأن الجاويش إلى أن الأمر بين كبار لا يستطيع أن يتدخل بينهم.
وفي تلك الأثناء كان جمال باشا قد بدأ يرتدي ملابسه. حاولت آنا أن تطيل بقاءه قدر الإمكان دون فائدة. قال لها وهو يلبس سترته: تعبت. يومين من الشرب والسهر. تعبت. صار يجب أن أستريح. ومد يده إلى جيبه فلم يجد مفاتيحه. تلفت حوله باحثاً، فقالت له: هل أضعت شيئاً؟
قال: مفاتيحي. هل وضعتها في مكان ما هنا؟
قالت: لا أظن.
وراحت تبحث معه. وقبل أن تستطيع تدارك الأمر، رفع سماعة الهاتف وقال للسنترال: أعطني السرايا. ثم تطلع إليها: لعلي نسيت المفاتيح في المكتب.
وظل يمسك بالسماعة إلى أن سمع صوت الجاويش عثمان. قال له: عثمان. أدخل إلى مكتبي وانظر إن كنت قد نسيت مفاتيحي على الطاولة. فجاءه جواب عثمان مرتبكاً: المفاتيح يا سيدي مع الملازم عبد السلام. الآن جاء ليفتح الخزنة. ويجلب لك الأوراق بناء على أوامركم.
وانتفض الباشا: أية أوراق؟ وما الذي أوصل المفاتيح إلى عبد القرد؟ أقبض عليه فوراً. وانطلق خارجاً. وظلت آنا لا تعرف ماذا عليها أن تفعل.

وضع الجاويش السماعة، وأشهر مسدسه، وركض نحو غرفة الباشا. وحين دخلها لم يجد الملازم عبد السلام. وكانت الخزانة مفتوحة. فخرج يركض مستغيثاً.

عند مدخل المبنى كان عبد السلام يهم بالخروج دون أن يثير اهتمام أحد. وإذ رأى الجاويش يركض ومسدسه بيده أدرك أنه انكشف. ودون تردد أخرج مسدسه وأطلق النار على الجاويش. فسقط قبل أن يستطيع إطلاق صرخة التحذير التي كان ينويها.

وانتفض جنود الحراسة على صوت الإطلاق. وعرف عبد السلام أن العملية قد فشلت. فاندفع نحو الجاويش، ودس الأوراق التي معه في جيب القتيل. ثم التفت إلى الضباط الذين وصلوا إليه: مات الكلب.

ما الذي حدث؟

* دخلت إلى السرايا، فوجدت الجاويش يلعب بأوراق الباشا. حين رآني أخذ بعض الأوراق وهرب. لحقت به فكاد يطلق النار علي.

ثم انحنى على الجثة وأخرج الأوراق.

وفي هذه اللحظة دخلت عربة جمال باشا كما تدخل العاصفة. ونزل جمال منها مسرعاً: طوقوا المنطقة كلها. وانتشر الجنود كالنمل. ودون كلام توجه الباشا إلى عبد السلام، ووجه إليه صفعة عنيفة: تخونني يا كلب؟

– يا سيدي أنا دافعت عنك. الجاويش...

ولم يتركه يكمل. وجه إليه صفعة أخرى: إعترف ولاك. لحساب من تعمل؟

والتفت إلى ضباط الحراسة: إعتقلوه. وفتشوا لي عربته. فتشوا المنطقة كلها.

ورأى الجنود المنتشرون شخصاً ينزل من عربة عبد السلام ليهرب. فألقوا عليه القبض فوراً.

كان جمال قد جلس في مكتبه متوتراً. وأمر بإدخال عبد السلام إليه. فأدخل بصحبة ضابط من الحراسة. وبادره جمال: قل لي ولاك كلب. لحساب من تعمل؟

يا سيدي...

* لا سيدي ولا خراء. قل لي لحساب من تعمل؟ أنا أعرف أن الجاويش لم يسرق الأوراق. أنت الذي سرقتها.

سيدي أنا لست جاسوساً.

* كيف تفسر تصرفك هذا؟

وأحس عبد السلام باليأس يطبق عليه: تفسيري الوحيد هو أنني عربي.

* عربي يا طيزي؟ سأريك أين توصلك عربيتك؟ خذوه.

وتقدم منه ضابط الحراسة. فالتفت عبد السلام ليمشي دون كلام. ولكن في تلك اللحظة وصل الجنود ومعهم شخص غريب بملابس مدنية وهو يرتجف ذعراً. تطلع إليهم جمال مستفسراً. فقال له أحد الجنود: سيدي. كان

هذا الرجل في عربة الملازم عبد السلام.

تطلع إليه جمال باستغراب: أنت مع عبد السلام؟

وتدخل عبد السلام: أقسم لك يا سيدي أنني لم أره في حياتي.

وظل الباشا يتطلع إلى الرجل الغريب: من أنت؟

وتعفو عني يا سيدي؟

* أعفو عنك؟ سأريك كيف أعفو عنك.

وتطلع الباشا إلى أحد الجنود: لقم سلاحك. فإذا عددت إلى الثلاثة ولم يجب أطلق عليه.

حاضر سيدي. وهيأ بندقيته.

وارتجف الرجل مذعوراً: سيدي. أنا أعمل مع ألتر ليفي.

* ألتر ليفي؟ وأين هو ألتر ليفي؟

لا أعرف يا سيدي. هو الذي يتصل بي.

* وماذا كنت تفعل في عربة عبد السلام؟

أعطاني ألتر ليفي مئة ليرة ذهبية لكي أكمن في العربة وأقتل عبد السلام فور خروجه، وآخذ الأوراق التي ستكون معه. ولكن حين نزل عبد السلام من العربة تسلل إليها جندي ألماني ليكمن فيها. فاضطررت لقتله.

* جندي ألماني؟ أين هو؟

– قرب العربة. في العتم تحت الشجرة. يمكن أن يكون قد مات.

أعطى الباشا إشارة إلى أحد الجنود. ولكن هذا لم يكد

يتحرك للخروج حتى كان رقيب الحراسة يقف بالباب: وجدنا جندياً ألمانياً جريحاً قرب العربة يا سيدي.

وألقى الجنود بالجندي الجريح.

تطلع إليه الباشا بحدة. ثم نقل نظره إلى الضابط: لم يمت؟

لا يا سيدي. لا يزال حياً.

وانحنى الباشا على الجريح وأمسك بياقته: أنت جندي ألماني. أليس كذلك؟

فرد الجندي بضعف: نعم يا سيدي.

* ما الذي كنت تفعله في عربة هذا الخائن؟

لن أجيب إلا أمام رؤسائي.

* اعترف ولاك. وإلا لن تعرف لا قيادتك ولا الذباب الأزرق أين جثتك. هل كنت تعمل مع عبد السلام؟

من هو عبد السلام؟

أشار جمال إلى عبد السلام وهو يقول: هذا الملازم الذي كنت في عربته.

تلفت الجندي حوله بخوف: وتعدني بجلب الطبيب؟

* أعدك.

سيدي. أنا لا أعرف هذا الرجل. وصفوا لي عربته. فانتظرتها حتى وصلت. كانت الأوامر التي لدي أن أقتله فور عودته إلى العربة، وأن آخذ الأوراق التي معه.

* ومن الذي أعطاك هذه الأوامر؟

أوامري من الليدي دكتور يا سيدي.

* آنا ليستر؟

نعم يا سيدي.

* خذوهما.

واقتادوا الرجل الغريب. وحمل اثنان منهم الجندي الجريح.

وأحس عبد السلام بتعرق جديد. الجميع يريدون قتلي؟ حتى آنا؟ كانت تستخدمني فقط. تستخدمني كالحيوان. ولم يستطع الاستمرار في تداعياته. اقترب منه الباشا: سمعت يا طيزي؟ سمعت أنهم كانوا يلعبون بك؟ وأنت كالحمار. هذا يعني أننا أنقذناك من الموت حين قبضنا عليك. ولكن وحياة شواربك ستموت عندي ميتة الكلاب.

لم يجب عبد السلام. وتابع الباشا: قل ولاك. كيف طبقتك هذه الشرموطة؟

ولم يرد. وتابع الباشا: هل كنت تنام معها؟

وتوقفت دمعة على جفني عبد السلام. بماذا يجيب على سؤال كهذا؟

مرة أخرى قاطع الباشا تداعياته مع نفسه: أنا أعرف شغلي معك يا إبن الكلبة. خذوه.

قال عبد السلام قبل أن يخرج: من هو ألتر ليفي يا باشا؟

* ولماذا تسأل؟

* لماذا يريد أن يقتلني؟

لأنه ابن قحبة مثلك.

وأشار بيده أن يأخذوه. ففعلوا. ورفع الباشا سماعة التلفون وقال: أطلب لي المفوض العدلي.

وأيقظ المفوض من نومه، فجاءه أمر الباشا: تذهب الآن إلى فندق داماسكو بالاس، وتعتقل الليدي شرموطة. نعم الليدي دكتور. الليدي خراء. آنا ليستر.

الفصل الثاني عشر

– ١ –

فيما العربة تقترب من الكسوة التفت الحوذي إلى سارة وقال لها: فارسان وراءنا. هل أقف؟

التفتت قلقة. لكن الفارسين وصلا. وانحنى أحدهما لتعرف فيه ألتر: ذاهبة بهذه السرعة؟

وتوقف الحوذي. فنزل ألتر عن جواده، وسلم عنانه إلى زميله ثم دخل العربة.

قالت بتوتر: ألتر، ماذا تفعل؟

قال لها بتوسل: أرجوك أن تسمعيني. أنا أيضاً يجب أن أذهب إلى القدس. ولكن الجميع يعرفونني. ولذا لا أستطيع السفر بعربة حافر دوار عادية من تلك اللواتي تبحث عن الركاب والزبائن. ولا حتى في عربات الداليجانس.

قاطعته: وماذا تريد مني أنا؟

قال: أن أذهب معك في هذه اللاندونية المغطاة. أقسم لك أنني لن أزعجك.

بتوتر وعصبية صاحت: تريد أن يقبضوا عليك في عربتي؟

قال لها: عيوني أنت. إسمعي. قد يقبضون علي في أي مكان في الدنيا إلا في هذه العربة. هذه العربة حكومية.

ومعروفة أنها تابعة لحرس جمال باشا. لا أحد سيوقفها أو يفتشها. وإذا فعلوا فأنت معروفة أيضاً. أنت محمية من قبل الباشا وزوجته، ومن أخيك آرون. وأنا يجب أن أذهب إلى القدس. هناك شخص يطاردني اسمه عارف إبراهيم سبقني إلى هناك.

* وتريد أن تلحق به؟ من منكما يطارد الآخر؟

هو يعرف ما يفعل. إنه يجبرني على الذهاب إلى القدس. صادر محلي واحتجز محتوياته. وأغلق شركة التأمين واعتبرها غير نظامية. تعرفين ماذا يعني ذلك؟ يعني أنه جند معه كل الذين اشتركوا في التأمين عندي. يريدون مالهم أو ضماناتهم. لقد استأجرت هذا الرجل مع جواديه على أمل أن ألحق بك وتقبليني في عربتك فيعود بالجوادين. أرجوك.

حارت سارة في أمرها فلم تعرف ماذا تقول. ولاحظ ألتر حيرتها فلم يمهلها: لحظة.

نزل من العربة، ودفع الحساب للرجل الآخر. تمنت في هذه اللحظة لو كانت قادرة على أن تطير بالعربة، وتتركه. وإضافة إلى استحالة ذلك قالت لنفسها: حرام. هو أيضاً يخدم قضيتنا.

واعتباراً من هذه الومضة في ذهنها بدأت تكتشف إيجابيات ألتر. هو شاب متحمس للقضية. يعمل من أجلها ليلاً ونهاراً. وهو يغامر بنفسه دائماً. وعلى الرغم

من أنه مطارد ومطلوب فإنه لم يختر الهرب من البلاد. بل تابع تخفيه ليتابع عمله: سأساعده.

ولهذا صار الطريق إلى القدس مريحاً والحديث طرياً.

* كيف ستتعامل مع هذا الضابط الذي تقول عنه؟

يجب أن أشغله عني. ولن يكون الأمر صعباً.

* وكأن معركتك معه وليست مع الدولة العلية.

أريد أن أراوغه لكي أستطيع خوض معركتي مع الدولة.

* لماذا لا تقتله؟

فوجئ. ليس لأن الفكرة جديدة، بل لأن الكلمة صدرت عنها. هذه المرأة التي لم يكن يرى فيها إلا الجمال والشهوة تتكشف بغتة عن شخص يفكر في القتل.

قال لها: لم تفهمي حالتي جيداً. ويجب أن تفهميها لكي تعرفي كيف تشتغلين. تصنيف العثمانيين لي الآن هو أنني جاسوس. والجاسوس لا يُقتل. بل يقبض عليه. لا معنى لقتل الجاسوس. هذه قاعدة عامة. المهم هو القبض عليه. ولكن حين يبدأ شخص مثلي بالقتل يصبح خطراً على الحياة الشخصية لكل مسؤول أو متنفذ فيسعى الجميع لقتله. في هذه الحالة يطاردون قاتلاً.

* أوَلا يحسون بخطرك عليهم دون قتل؟

يحسون بخطر مبهم. خطر عام على الدولة كلها. وقد يجعلهم إحساس كهذا يرتاحون بشكل إفرادي. كل منهم

يقنع نفسه بأنه لم يكن هو المستغبى. وأنه بريء لأنه لم يقل شيئاً أمامي.

* ألم تدخل أبداً في عمليات كان فيها قتل؟

طبعاً. عمليات كثيرة. آخرها يوم أمس.

نظرت إليه غير مصدقة.

حول نظره عنها وأكمل: مرافق الليدي دكتور. الملازم عبد السلام. أرسلته الليدي ليلة أمس لسرقة أشياء من خزنة جمال باشا لا أعرف ما هي. فأرسلت وراءه من يقتله ويأخذها منه قبل أن تصل إلى أيدي الألمان والليدي. يبدو أن العملية قد فشلت.

أية عملية بينها التي فشلت؟

* فشل كل شيء. عمليتي وعملية الليدي وعملية عبد السلام. فاجأ الباشا الجميع. وقبض على عبد السلام وعلى الرجل الذي أرسلته ليقتله.

والآن عبد السلام محبوس؟

* وسيلاقي الإعدام حتماً. تجسس لصالح الألمان. ويبدو أن الرجل الذي أرسلته أنا قد اعترف وذكر اسمي.

غرقت في أفكارها ولم تعد تسمعه. مسكين عبد السلام. هل من الممكن مساعدته؟ كيف ورطته تلك الألمانية اللعينة؟ لو أنني استطعت أن أقيم صلة حقيقية معه لحميته منها. لولا تدخل ألتر ومنعه من الدخول إلي في الفندق ذلك اليوم.

كان ألتر قد توقف عن الكلام وراح ينظر إليها خلسة. وحين رأى دمعة تنحدر على خدها خمّن بماذا سرحت: زعلانة على عبد السلام؟

ولم ينتبه إلى أنها لا تسمعه، فتابع معتذراً: لو كنت أعرف أن الأمر جدي بالنسبة لك لما تدخلت. أنا آسف. ولكنني كنت أريد أن أصرفه عنك. كنت أريد أن أبعد تأثيرك عنه، لكي يظل تحت تأثير الليدي دكتور، فأعرف إلى أين ستصل به. كان من الواضح أن الليدي تسعى وراء شيء. كنت في الفندق حين أوصلها، وظل ينتظر في الصالون. استغربت بقاءه. خاصة وأن الباشا وصل بعد قليل. ولم ينصرف. هناك شيء إذن. بعد قليل خرجت إليه وأعطته رزمة مفاتيح. فخرج مسرعاً. أرسلت وراءه أحد الذين يتعاونون معي. تعلق بعربة عبد السلام من الخلف. تعرفين. من ضمن أهدافنا الآن تدمير العلاقة القائمة بين الألمان والأتراك.

صعوبة تحديد مشاعرها نحو عبد السلام جعلتها غير راغبة في الحديث عنه. فهي لم تكن واثقة إن كانت تحبه أم تشتهيه أم تعتبره ميداناً للمنافسة مع امرأة أخرى. ولكن التفكير في أن هذا الشاب الجميل يلاقي الإعدام كان متعباً. أرادت صرف تفكيرها عن الموضوع نهائياً. قالت لألتر دون أن تنظر إليه: قل لي كيف تقربت إلى جمال باشا؟

لا تذكري الاسم. وأشار إلى السائق: تقربت بالمصريات.
* دفعت له؟ هل هو في حاجة؟
لا. دفعت لجيشه. حين رفض تطوع اليهود، قدمت لجيشه معونات. والأهم من ذلك أن الباشا بعد عودته من حملة السويس خائباً أدلى بتصريحات تبرر هزيمته. السوريون الموجودون في مصر كانوا يشنعون على الهزيمة ويتابعون إجراءاته القمعية في الصحافة. وكان هو منزعجاً جداً. وصار يتردد أمام كل خطوة يريد أن يأخذها. أنا تطوعت بالذهاب إلى مصر لإسكات هذه المعارضة.
* لا تقل لي إنك صاحب نفوذ على السوريين في مصر.
لا. لكن يجب أن تدرسي الميكانيك لتتعلمي أن تحريك جسم ما لا يعني بالضرورة الإمساك به مباشرة لتحريكه. يمكن تحريكه من خلال جسم آخر موجود في مكان بعيد. وكل جسم يحرك الجسم الآخر. وهذا يحرك ذراعاً إلى أن تصل الحركة إلى الجسم الذي تريدين تحريكه.
* إشرح لي كيف أثرت على السوريين في مصر.
لم أحدثهم ولم ألتق بهم. شرحت لوولي في الاستخبارات البريطانية أن من الضروري إفساح الفرصة لجمال لكي يرتكب المزيد من الأخطاء التي تجعل الشعب السوري كله ضده. فوعدني بالمساعدة مقابل خدمة بسيطة. وهي أن أقنع الجماعة هنا بأن الإنكليز

يريدون الهجوم على الإسكندرونة ليصلوا منها إلى حلب. وأن الفرنسيين سيقومون بإنزال عند بيروت. لماذا؟ أنا أقول لك. يريدون من الرجل أن يؤجل هجومه التالي على القناة. الإنكليز مشغولون بشغب السنوسي في ليبيا. ويريدون التفرغ له. كما أنهم مضطرون لسحب قسم من قواتهم من مصر إلى جبهات أوروبا. لهذا ترين التوتر على الشواطئ هنا. قمت بحركة استعراضية على الشاطئ قرب صيدا جعلتهم ينشغلون ويفكرون جدياً باحتمال الإنزال الفرنسي في بيروت أو صيدا. سأحدثك عن هذه لاحقاً. وتحدثت مع بعض العائلات اليهودية المتنفذة في مصر أيضاً. فمارست هذه تأثيرها على بعض الصحف. وهكذا هدأ الحديث عن فضائح الحكم في سورية. وبدأ الحديث عن ضرورة قيام الثورة العربية. فتحركت جهود العرب كلهم مصريين وسوريين وعراقيين للحديث عن شرعية الشريف، العربي الذي يعود نسبه إلى النبي محمد، بدلاً من الخليفة التركي في اسطمبول.

حين رجعت كان صاحبنا مرتاحاً وخائفاً. ارتاح لسكوت السوريين في مصر عنه. لكنه بدأ يخاف جدياً من الإنزال الفرنسي والإنكليزي. كما صار يخاف جدياً من الشريف حسين. صار في حاجة إلى ما هو أكثر من نقل الضباط فبدأ بالاعتقالات في صفوف السوريين هنا.

وربما كان يفكر بالاكتفاء بحجزهم. ولكن كان في حاجة إلى نصيحة تقول له إن قتل هؤلاء سيجعل الشعب السوري كالأغنام. وسيخفف من خطر الشريف حسين. بعد اضطراري إلى التخفي أكمل آرون هذه المهمة. والمنطق كما يلي: من سيظل مع الشريف إذا خمدت حركة السوريين؟ بعض فرسان البادية الذين لا يستطيعون التحرك دون ذخيرة ودون مال؟ هذه ستتسابق عليها مع الإنكليز. الذي يدفع قبل الآخر سيشغل هؤلاء البدو لحسابه. الإنكليز يجرون الاتصالات مع الشريف وابنه عبد اللّه. ولكنهم لا يستطيعون الذهاب إلى مكة والمدينة. وأنت لديك فيصل هنا.

فتحت سارة عينيها دهشة وهي ترى الصورة تتوسع أمامها كلما تابع ألتر حديثه.

ما بك؟

هزت رأسها معجبة دون جواب.

أضاف بعد قليل من الصمت: حتى إصدار العملة الورقية كان في حاجة إلى خبير مالي مثل جودت باشا وزير المالية. تعرفين أنه من ملتنا. إصدار العملة الورقية أنهى وجود معلمنا في سورية. في البدء كان عامة الناس يكرهونه لأنهم خائفون وجائعون. ولأنهم مجندون بالقوة حيث يبتعدون عن أراضيهم وأهلهم ويتعرضون للموت. والمثقفون وقادة الرأي ضده لأنهم إصلاحيون

أو عروبيون دعاة انفصال. العسكريون كسب عداءهم من خلال شكه بهم ونقلهم. الوحيد الذي كان معه هم التجار، الذين استفادوا من الأزمة ليزدادوا غنى ويجمعوا الثروات. والتجار معهم المال وبعضهم رجال الدين. لذلك فهم الأقدر على تحريك الناس. الآن يحس هؤلاء التجار أن الحاكم سيسرقهم من خلال العملة الورقية. كانت قيمة الليرة الورقية عند إصدارها ١٠٨ قروش. وظلت تتدنى حتى وصلت إلى ١٥ قرشاً. الدولة تصادر العملة الذهبية من التجار وتعطيهم بدلاً منها العملة الورقية. وما هي هذه العملة الورقية؟ ورق. مجرد ورق. حتى ضباطه صارت لديهم حساسية من الضباط الألمان الذين يأخذون رواتبهم بالذهب، بينما هم يأخذونها بالعملة الورقية. من بقي معه؟ لا أحد. هو مضطر لأن يجلب الأتراك أو الألمان. ليس فقط لكي يستطيع أن يحارب في سورية أو انطلاقاً من سورية. بل لكي يحافظ على وجوده هو في سورية. وحتى هذه تواجه مصاعب. أنور باشا لا يريد تدعيم موقفه. ولذلك لن يرسل له قوات تركية. ولكن هنا يأتي شغل الهواة، وتطلع إليها باسماً: أقصد شغلك أنت وجماعتك. آرون ويوسف ونعمان وأفشالوم. التجسس على الجيش، على تنقلاته، تسليحه، خططه. وسنشتغل كلنا في هذا الطريق.

* ولو سميتنا هواة فأنا أؤكد لك أن لدي معلومات هامة في هذا المجال.

ممكن.

* ألا تريد أن تسمعها؟

لا.

* لماذا؟

لأنها لا تفيدني. إسمعيها نصيحة مني. الجاسوس لا يأخذ معلوماته من جاسوس آخر إلا إذا كان التنسيق قائماً بينهما أصلاً. قد تكون معلومات مضللة أو غير مطلوبة. يفضل أن يجمع المعلومات حسب الأوامر التي تجيئه. يعني ربما كان يهم القيادة الإنكليزية معرفة عدد حراس الشواطئ قرب حيفا أكثر مما يهمها معرفة تسليح اللواء الألماني الجديد.

لأول مرة تحس سارة أنها تعود تلميذة صغيرة وهي تستمع لهذا الداهية المتشعب المتلولب. وتمنت لو تستطيع أن تجره من بحره الذي يتقن السباحة فيه إلى البحر الذي تتقن هي السباحة فيه، لتستعيد ثقتها بنفسها، وتعود إلى ممارسة تفوقها. الميدان الوحيد هنا هو العلاقة بينهما كرجل وامرأة. ولكن حتى في هذا المجال لا يبدو عليه أنه ضعيف.

* عجيب أنت يا ألتر. تشتغل كل ما تشتغله ومع ذلك تظل نظيفاً مثل ناب الذئب.

ضحك: تعبير جميل. هل أقول لك كيف أراك؟
تطلعت إليه حذرة من ذكائه فقال: أراك نظيفة ومرتبة وشهية ومغرية مثل الفخ.

— ٢ —

وصلا إلى القدس قبيل الفجر.
* هل ستكملين إلى زخرون ياغوف؟
— لا. تعبنا. ولكن أين نجد مكاناً ننام فيه؟
* عندي.
تطلعت إليه مستنكرة. فضحك: ما بك؟ خفت؟ قلت عندي ولم أقل معي. حتى أنني لم أقل في بيتي. أنا أصلا لا أجرؤ على الذهاب إلى بيتي.
تخاف من امرأتك؟
* أخاف منها طبعاً حين تكون معي واحدة حلوة مثلك. ولكن خوفي الآن من عارف بيك. لا بد أنه وضع البيت تحت المراقبة.
أين سننام إذن؟
ولم يجبها بل تقدم إلى قرب السائق وصار يدله. ومرت العربة في شوارع القدس حتى وقفت أمام بانسيون. ونزلا.
* ما هذا؟
بانسيون لناس أصحابنا. وقرع الجرس أكثر من مرة. حتى فتح الباب شاب كان من الواضح أنه استيقظ

مزعوجاً من نوم عميق. ولكنه تطلع إلى ألتر بنظرة عادية.

* أهلين خواجا ألتر.

أهلاً دوما. ثم التفت إليها ألتر: تفضلي.

وقال للشاب: دوما. إجلب الحقيبة من العربة واصرف السائق.

دخلت معه إلى الصالون المعتم. وراح يتحرك بهدوء وثقة. فأشعل مصباحاً جعلها تستوضح بهواً واسعاً في الطرف الآخر منه طاولات توحي بمطعم أو مقهى.

أين نحن؟

والتفت ألتر إلى الدرج الذي بدرت عنه أصوات خطوات: أزعجناك يا مدام؟

* أهلا ألتر. وتطلعت إلى سارة بنظرة أربكتها. كان واضحاً أن المدام قد اعتادت على مجيء ألتر ومعه نساء.

وتقدم ألتر فقبَل المرأة على خديها. وأحاط كتفها بذراعه ثم توجه إلى سارة: المدام أستر حاييم صاحبة النزل. وهي من أعز الأصحاب.

تطلعت إليه المدام: بحاجة إلى شيء؟ أم ستنام فوراً؟

قال ألتر وهو يتطلع مبتسماً إلى سارة: ننام فوراً. لا نريد أي شيء.

قالت المدام: البنسيون ما فيه غير غرفتين مشغولتين

نم في أية غرفة تريد.
قال ألتر: نريد غرفتين.
تطلعت المدام مجدداً إلى سارة. ثم حولت نظرها إلى ألتر كأنها لم تفهم. فابتسم لها وهو يهمس بصوت مسموع: سارة تشخر في النوم. وأنت تعرفينني. نومي حساس.
هزت رأسها باستخفاف وهي تتوجه إلى الدرج: ناموا كما تريدون.
وحمل الشاب حقيبة سارة إلى إحدى الغرف. فتبعته بصمت.
– ٣ –
استيقظت سارة قبيل الظهر. وبعد أن غسلت وجهها ولبست ثيابها خرجت إلى الصالون فوجدت المدام جالسة خلف طاولة تراجع حسابات. ألقت عليها تحية الصباح دون أن تحاول الاقتراب منها. بل اختارت طاولة منزوية فأسرع إليها دوما بفنجان القهوة.
أفاق ألتر؟
* وذهب.
تطلعت مندهشة إلى دوما الذي انصرف عنها لا يريد أن يطيل الكلام. وفيما هي تشرب القهوة وتستمتع بسيكارتها وتفكر في ألتر، مستغربة في البداية أن يتركها ويذهب، ثم متفهمة بأنه ملاحق وأنه لا شك قد

ذهب يتدبر أموره، خرجت من إحدى الغرف صبية بقميص نوم شفاف بان من خلاله نهداها وسروالها، وهي تهرش برأسها وجلست عند المدام. ولم تستطع سارة إلا أن تسمع حوارهما.

* متى جاء ألتر؟

قرب الفجر. أيقظك؟

* لا. اندس ورائي في الفراش ونام كالقتيل. ذهب؟

ذهب.

وأشارت أستر برأسها إلى سارة: المدام معه.

– معه؟ ولماذا ينام عندي إذن؟

نظرت إليها أستر لائمة: ليديا. ما بك مستيقظة على كثرة الحكي؟ قومي ضعي شيئاً عليك.

ونهضت ليديا عائدة إلى غرفتها مشيرة إلى دوما أن يلحقها بالقهوة. وحين خرج نادته سارة وطلبت منه أن يبحث لها عن عربة أجرة (حافر دوار). ثم قامت إلى المدام لتدفع أجرة مبيتها فرفضت هذه: يزعل ألتر.

صباح العاشر من أيلول أعدم الملازم عبد السلام العبداني. وكذلك أعدم الشخص الغريب. وتم دفن الجندي الألماني دون أن يسمع به أحد. وذهب جمال بنفسه لرؤية آنا في السجن.

كانت متماسكة وواثقة من نفسها. بادرته قبل أن يقول شيئاً: تعتقلني يا جمال؟

* جمال فقط؟ لم أعد الباشا؟

بل أنت الخائن.

* خائن؟ أنا الخائن أم أنت؟

تطلعت إليه باستخفاف: ومن خنت؟ خنتك أنت؟ صدقت أنني مغرمة بك؟ أنا أخدم بلدي. ولست خائنة مثلك.

* وأنا خائن لمن؟

خائن لحلفائك. خائن للألمان الذين يقدمون دماءهم على هذه الأرض. وأنت تريد أن تفاوض الإنكليز لكي تنقلب علينا وعلى اسطمبول.

* حقيرة. كذابة. شرموطة. قحبة.

والتفت يصرف الضباط المرافقين. فتطلعت إليه بتعال: إذا كنت رجلاً أظهر الأوراق التي كان يسعى إليها الملازم عبد السلام.

* إسمعي. أريد جواباً على سؤال واحد أخير. هل نمت مع عبد السلام؟

وجدتها فرصتها الوحيدة لتحطيم كبريائه: نعم. وبالمناسبة هو ممتع في الفراش أكثر منك.

* بسيطة. أنا أريك يا شرموطة.

وخرج.

ورنت أجهزة الهواتف بين دمشق واسطمبول وبرلين. وتقدم القنصل الألماني باحتجاج رسمي على اعتقال

الليدي دكتور آنا ليستر. ولم يجد جمال أمامه إلا أن يطلق سراح الليدي بشرط أن تغادر فوراً إلى ألمانيا. وأن لا تغادر القنصلية الألمانية إلا إلى بيروت، ويوم توفر وسيلة تنقلها إلى ألمانيا. وعلى أن لا تقابل أي ضابط أو مسؤول في الدولة العثمانية أو صحفياً عربياً أو أجنبياً طالما هي في سورية.

وتعهد القنصل الألماني بذلك.

— ٤ —

حين التقت سارة بآرون كان مليئاً بالأخبار: الجو متوتر. جمال باشا سيأتي إلى القدس. السوريون لم يعودوا قادرين على القيام بحركة مؤثرة. زعماؤهم أعدموا. زعماء آخرون في السجون أو منفيون. معظم القطعات العربية نقلت إلى الشمال. كبار الضباط العرب نقلوا من قطعاتهم.

هذا الجو مواتٍ جدا للعمل. ويجب أن نتحرك. لكن الظروف لا تساعدنا كثيراً. أفشالوم فشل في الخروج من البلاد. ولم تنفع وساطة الرابي باشا في اسطمبول. ولذلك سيكون هنا اليوم. أرسلت في طلب يوسف ونعمان. سنضع خطة دقيقة للعمل. أنا سأخرج لمقابلة الإنكليز. وسآخذ معي ليوفا. سأخرج بمهمة موقعة من جمال باشا وسأقابل أنور باشا إذا لزم الأمر.

كان ليوفا سعيداً لأنه سيخرج مع آرون. البقاء هنا

يضعه في أجواء تضطره لمخالفة قناعاته. وقد قالها بصراحة لآرون أكثر من مرة: أنا أكره الدولة لأنها دولة. سواء كانت عثمانية أم إنكليزية أم يهودية. أنا أحارب الدولة العثمانية. لكنني لا أريد أن أبني على أنقاضها دولة سواء كانت يهودية أم إسلامية، مسيحية أم عربية. الأهم من هذا أنني لا أريد أن أموت، أو أن أتسبب في موت أحد. يعني أنا لا أريد أن أقتل أحداً. وأتمنى أن لا يقتلني أحد. لذلك فإنك إذا أخذتني معك جنبتني الاحتمال من أساسه. سأشتغل معك في الخارج أي شيء تريده.

في المساء وصل أفشالوم عائداً من اسطمبول محطماً من فشل آخر يصطدم به. وجاء نعمان ويوسف. واجتمعوا في مكتب آرون. وفيما آرون يشرح لهم خطة عمله ونيته للسفر كانت سارة تراقب أفشالوم الذي كان يهرب بعينيه منها ويجلس منطوياً على نفسه.

لخص آرون لهم الموقف: معارك غاليبولي على وشك الانتهاء بفشل ذريع للإنكليز. الجيش العثماني الآن سيتفرغ لجبهة أخرى. وأتوقع أن يكثف وجوده في فلسطين. جمال باشا سينقل مقر قيادته إلى القدس. وسيكون في المرحلة القادمة أكثر بطشاً. الجيوش العثمانية كثيفة. لكنها ضعيفة ومهلهلة. المهم أن يعرف الإنكليز أين هي نقاط الضعف. سارة ستشتغل مع

القيادات. وستنسق مع أفشالوم بحيث لا يخلو المختبر. نعمان، من خلال أقبية الخمر وتردد الضباط إليها، سيعرف مواعيد تحرك القوات. وسيكون لدينا أكثر من مصدر للمعلومات. بالنسبة ليوسف صدر قرار من الباشا بتعيينه في مكتب مراقبة الرسائل. جمال واثق من أن هناك من يتصل بالإنكليز والفرنسيين. ولذلك أنشأ هذا المكتب لمراقبة الرسائل الصادرة والواردة. هذه وظيفة حساسة تتيح له الفرصة لفتح أية رسالة صادرة أو واردة إلى الشام كلها. مدير هذا المكتب من جماعتنا أيضاً. يهودي ماسوني من سالونيك. وهو أيضاً مدير مكتب الصحافة. وهناك يهودي عراقي مدير مكتب التلغراف. ستستفيدون منه كثيراً. هذا يعني أننا نستطيع السيطرة على آذان الأمبراطورية وعيونها. كل ما يردها من الخارج، وكل ما يصدر عنها إلى الخارج، سيكون تحت أنظارنا. وهذا كله سنوصله إلى الإنكليز. جماعتنا كلهم سيتحركون الآن. ونحن أقوياء. لدينا ثلاثة وزراء يهود في الدولة غير جاويد وزير المالية. بساريا أفندي وزير الأشغال. ونسيم مازلياح وزير الزراعة والتجارة. وأوسقان أُفندي وزير البوستة والتلغراف. ولدينا نائب في مجلس المبعوثان هو عمانوئيل قرة صو. وحاخام اسطمبول حاييم نعوم. وهو الرئيس الفعلي لمجلس الشرق الأكبر العثماني

الماسوني. ومن المتوقع أن يستلم إضافة إلى منصبه الديني منصب مدير مكتب الصحافة.

ولم تستطع سارة إلا أن تسأل: وكيف يأتمنون لهذا العدد من اليهود؟

فرد ألتر: بعضهم مقبول بحجة الماسونية. لا تنسي أن الماسونية هي التي غطت تحركات الاتحاديين حين كان عملهم سرياً. وبعضهم دونمة.

* وماذا تعني دونمة؟

نشرحها فيما بعد.

ولكزت أفشالوم هامسة: ستشرحها لي أنت.

ولكن أفشالوم كان مهتماً بشيء آخر. قال: أخشى أن هؤلاء الإنكليز لا ينظرون إلينا بجدية.

فرد آرون: أنا سأجعلهم ينظرون إلينا بجدية. سأعرف كيف أكلمهم.

وانتفض أفشالوم: تعني أنني لم أعرف كيف أحكي معهم؟

وهمّ بالخروج فصاح به آرون بحزم: أفشالوم. لا تتصرف مثل ولد. لسنا هنا في مجال مقارنة أحدنا بالآخر. أنت شخص مليء بالأفكار الثورية وبالشعر. أنا عقلي مليء بالزراعة والتراب. الإنكليز لم يقبلوا بالثورة. سيقبلون الآن حين أحدثهم عن التراب الذي سيدوسون عليه ويحاربون فوقه.

ساد صمت مترقب وكان الجميع ينظرون إلى أفشالوم متسائلين عما سيفعله. ولكن أفشالوم، بالاحترام الكبير الذي يكنه لآرون، رجع إلى مكانه. فتابع آرون وكأن شيئا لم يحدث: يقول فلافيوس جوزيفوس، المؤرخ اليهودي، إنه مشى يوماً كاملاً جنوبي قيسارية وسط حقول مخضرة. ماذا يعني هذا؟ يعني أنه كانت هناك ينابيع وآبار. الآن تصل الصحراء إلى أسوار قيسارية. سأشرح للإنكليز كيف يمكن كشط الطبقة الرملية والحفر لإخراج الماء، بدلا من نقله على الجمال كما فعل الأتراك حين قاموا بهجومهم. هذا وحده سيضمن لهم النصر في حرب الصحراء.

كانت نظرات الدهشة والإعجاب معلقة على آرون الذي صمت قليلاً قبل أن يضيف: أنا أجمع هذه المعلومات من أجل مستقبل إسرائيل. الصحراء الممتدة من سيناء إلى النقب ستتحول كلها إلى أرض زراعية حين نعرف كيف نستخرج منها الماء. ولكنني سأعطي هذه المعلومات للإنكليز الآن لضمان انتصارهم. وهذا هو الذي سيضمن قيام دولة إسرائيل. سأقدم لهم معرفتي بكل نبتة وعشبة وشجرة وصخرة في هذه المنطقة. كما سأقدم لهم المعلومات الخطيرة التي ستتمكنون من جمعها أنتم والشباب الذين ستجندونهم معكم.

غمغم أفشالوم: أنا آسف لأنني توترت.

ولم يشأ آرون أن يقف عند إحراج أفشالوم بل تجاوزه وقال ضاحكاً: تعرفون ما هو المشروع الذي اقتنع به جمال باشا، وبناء عليه سمح لي بالسفر؟ مشروع استخراج الزيت من السمسم. من أجل سكة الحديد في سيناء قطع الجيش أشجار البلاد كلها، بما في ذلك أشجار الزيتون. ونفقت الحيوانات التي يمكن أن تعطي السمن. لا بد من إيجاد مصدر للزيت. طعام الجيش على الأقل في حاجة لشيء من الدسم. والاستيراد مستحيل أمام الحصار الذي يضربه الإنكليز والفرنسيون على الشواطئ. وعدته أن أدرس في أوروبا مسألة تصنيع الزيت من السمسم. لا بد من طريقة كهذه. فأنا لا أستطيع أن أخرج من البلاد متسللاً لأنني معروف.

وختم آرون كلامه: سيشتغل كل في مجاله. وسيكون في وسعكم التحرك بحرية. سارة ستكون مركز تجميع المعلومات. في اليوم الخامس أو اليوم العشرين من كل شهر قمري تنتظرون الاتصال بكم في عتليت عن طريق البحر. وبعد أول اتصال تتحدد الترتيبات كلها.

بعد الاجتماع أبلغهم آرون أنه قد حجز لهم كلهم في الفندق. ولكن يوسف أصر على العودة ليلاً متعللاً بأن لديه شغلاً ينتظره. وعلق عليه نعمان بأنه لا يريد أن يترك رفقة، زوجته، تنام وحدها. ورد يوسف على التعليق بابتسامة فاترة. بينما قال نعمان إنه سيأخذ

ليوفا ليسكرا في حانة يعرفها. وأضاف مبتسماً: في روشيون لوزيون أسقي الناس وآخذ نقودهم. هنا فرصتي في أن يسقيني آخرون وأدفع لهم. وذهب ليوفا معه متحمساً. فقد كان يعرف أن نعمان لن يقضي ليلته دون نساء.

تطلع آرون إلى أفشالوم: وأنت؟

بحياد حرج قال: لا أعرف.

قال آرون: إسبقني أنت وسارة إلى المطعم.

تطلع محرجاً إلى سارة: أنا وسارة؟ لماذا؟

ابتسم آرون: لأنكما قادمان من مناطق بعيدة. أنت من اسطمبول وهي من دمشق.

حين خرجا أحس الصمت ثقيلاً. وأراد أن يكسره بموضوع محايد، فقال لها: كنت تريدين أن تعرفي معنى الدونمة. الدونمة هم أتباع سباتاي زيفي الذي عاش في القرن السابع عشر. وهو يهودي أعلن إسلامه وادعى أنه المسيح المنتظر. التف حوله اليهود وخاصة في تركيا. إلى أن سجنته السلطة العثمانية. ولكن صارت التسمية تطلق على كل يهودي يعتنق الإسلام لكي يخفي دينه.

وتطلع إليها. فعرف أنها لا تستمع باهتمام. صمت قليلاً. وراح يفتش عن موضوع يمكن أن يثير اهتمامها: تعرفين لماذا أصر يوسف على العودة؟ لأنه لا يحب أن يكون مستضافاً. يحس دائما أنه ثقيل على الآخرين

وأنه زيادة في كل جلسة.
تطلعت إليه بنظرة نافذة: وأنت؟
نظر إليها مرتبكاً، وقد أحس أن موضوع يوسف أيضاً لم يستطع أن يملأ الفراغ الذي يحيط بهما: أنا ماذا؟
أنت أيضاً لست طبيعياً. أنت أيضا تحس دائماً أنك تأخذ ما ليس من حقك. وتحس أنك تأخذه من آرون الذي تحبه وتحترمه.
* إن كنت تقصدين نفسك فلا. الموضوع الآن مختلف. أنا منشغل بموضوع الإنكليز. لا أحس إلا بأنني فاشل. فاشل بالإكراه. أظن أن الجميع هنا لا يصدقون أنني اتصلت بالإنكليز.
* كيف لا يصدقون والغواصة جاءت عدة مرات؟
وبعصبية كاد يصرخ: لماذا انقطعت إذن؟ هل كانت معلوماتنا تافهة؟ هل كنت أنا تافهاً فلم أقنعهم بالتعامل معنا بجدية؟ كان يجب أن أذهب مرة أخرى إلى مصر. يجب أن أعرف ماذا جرى. ويجب أن ألتقي بالملازم ويلي مرة أخرى وأقنعه. ولكن حتى هذه لم أنجح بها. آرون سينجح. سيخرج ويذهب إلى مصر. وسيقنعهم كما كنت سأقنعهم لو أنني نجحت في الخروج. لكن الظروف تعاكسني. لا تريد لي أن أنجح في شيء. بينما آرون ينجح في كل شيء.
* هل هي غيرة منه؟

أبداً. أنا أحبه وأحترمه وأقدره. لكنني أحس أنني أستطيع أن أنجح مثله. أنا عمليٌ مثله. ولست مجرد شاعر. ألا ترين ماذا سيحدث؟ آرون سيعمل وينجح. يوسف ونعمان سيستطيعان تقديم معلومات قيمة. أنت ستنخرطين في أجواء المسؤولين هنا وتجلبين المعلومات. وأنا ماذا سأفعل؟ أجلس وأكتب الشعر. يا ليتني أحمل قناعات ليوفا. ليوفا فوضوي. معني فقط بتدمير الحاضر الذي هو الدولة فقط. أنا لا أستطيع أن أوقف أحلامي. أحلامي تمتد إلى مستقبل الشعب اليهودي.

* والحب؟!

حتى هذا الحب.. طالما أنني لا أقوم بعمل مفيد فإنه يجعلني مثل العشيقة التي تنتظر في البيت إلى أن ينهي عشيقها أعماله لكي يأتي إليها. كالزوجة المهملة في البيت بينما الرجل، الزوج، في الحياة يعمل وينتج. أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا الدور. لا أستطيع أن أكون عاشقاً لا يملك لعشقه إلا عواطفه وقواه الجنسية. هذه موجودة حتى عند الدواب. حتى «فحل الشباية» يأتيه يوم يخصونه فيه لكي يتحول إلى ربيطة لا تصلح إلا للذبح أو للقتل.

* هل التقيت بحاييم؟

التقيت به وأعطيته الرسالة. وقلت له أين يستطيع أن

يجدني إذا شاء أن يرسل جواباً. ولكنه لم يتصل.

* وجئت دون أن تحاول الاتصال به؟ ألم يخطر لك أنني في حاجة إلى جواب؟

بصراحة؟ زوجك لطيف. استقبلني. وأراد أن يدعوني إلى عشاء أو غداء. وأنا رفضت. قلت له أن يهيئ جواب الرسالة ويرسله بطريقة ما. ثم عرف بفشل محاولتي في الخروج. وأراد أن يدعوني مرة أخرى فلم أقبل.

* لماذا؟

صرخ: لأنني لا أريد أن أصير صديق زوجك. لا أريد أن أضيف حاجزاً جديداً بيني وبينك.

اكتفت بهذا الذي قاله عن زوجها. فبنقمته على نفسه لم يترك لها مجالاً لأن تسحب الحديث مرة أخرى نحو موضوعهما المشترك. كلامه بهذه الطريقة عن الجنس ووضعية العشيق ثم انفجاره بشأن زوجها جعل أية محاولة منها للاقتراب من الموضوع مذلة ورخيصة.

لذلك تابعا الجلوس صامتين في المطعم حتى جاء آرون وأخبرهما أن جمال باشا قادم إلى القدس غداً أو بعد غد. وفور وصوله سيأخذ منه الإذن بالسفر.

سألته سارة: وماذا تم بشأن مقابلة بن غورين للباشا؟

قال آرون: الموضوع مؤمن.

سأل أفشالوم: كيف؟ كيف دبرتم مسألة الخروج من السجن؟

ابتسم آرون: ألتر ليفي، رفيقك في السفر، هو الذي رتب الموضوع. سيؤمن خروج بن غورين أو بن زيفي لمدة ساعتين لمقابلة الباشا.

قالت سارة مستاءة: ولماذا تلجأ إلى ألتر ليفي؟ أما كنت تستطيع تأمين الموضوع أنت؟

قال آرون: أستطيع. ولكن لماذا؟ قد يحدث أي طارئ. لماذا أنكشف؟ ألتر مكشوف وملاحق أصلاً. والمسألة بسيطة. رشوة صغيرة تؤمن الموضوع. أنا يجب أن لا يبدو علي أي اهتمام خاص بالسياسيين. أنا يهودي عثماني وخبير زراعي مخلص. ويجب أن لا تتغير هذه الصورة قبل أن أسافر.

بعد العشاء قالت له: أين سأنام؟

قال آرون: عندي طبعاً.

سألت، وهي تتطلع إلى أفشالوم، وكأنها تقرر أن تبذل محاولتها الأخيرة معه الليلة: ألم تقل إنك حجزت لنا كلنا في الفندق؟

قال: معقول أن أحجز لك في الفندق وبيتي موجود؟

قالت: قلبي مسكّر من البيوت. أما كفاني ما عشته في بيت حاييم؟

وتطوع أفشالوم: تأخذين غرفتي وأنا أنام عند آرون.

فاتضح لها أنه لن يمنحها فرصة المحاولة.

الفصل الثالث عشر

— ١ —

على الرغم من أن إبراهيم قد تعرض لفلقتين جعلتاه لا يستطيع أن يدوس على قدميه، وعلى الرغم من أنه اضطر إلى البكاء تحت الضرب، إلا أنه لم يحس بالخجل. ولم يعد يحس بأنه مظلوم. لقد تنقل بين عدة سجون. وشاءت الصدف أن ينتقل معه سميح.

* نتسلى.

هذه تسلاية يا ابن العرص؟

ويضحكان: أليس أفضل من أن نكون كل واحد في ديرة؟ صدقني أن قلبي يوجعني على نادر. يأكل القتل وهو وحيد.

وهذه المرة كان حظه أفضل. فقد وضعوه في هذا السجن مع سميح في غرفة واحدة.

بل إن شيئاً من الفخر قد تسرب إلى نفسه حين عرف أنه مسجون في خان أسعد باشا. وأن وجوه المجتمع السوري وأقطاب الحركة الوطنية بدأوا يتواردون عليه في الموجة الثالثة من الاعتقالات وربما في التهيئة لوجبة إعدامات أخرى.

بعد فلقة الصباح الأولى، وفيما سميح يعتني به، وقبل أن يسحبوا سميح لكي ينال نصيبه من الضرب، ذلك

النصيب الذي يتفكّه الجنود التنابل بتسميته الفطور، عرف أن بين الموجودين في السجن فارس الخوري وشكري القوتلي وشكري الأيوبي والدكتور أحمد قدري. وقرر أنه فور أن يخف الألم ويتمكن من الوقوف والمشي سيحاول أن يتعرف بهم. وصار في أعماقه يتمنى أن لا يكتشف أحد أنهم قد زجوا بهذا الشاب الصغير، طالب المدرسة، بين هؤلاء القادة عن طريق الخطأ.

من شقوق الباب كان يرى وجوهاً في الغرف الأخرى. ويسمع أصواتاً لأناس يتحدثون بأصوات مختلطة متألمة. كما كان يسمع استنجادات المتوجعين تحت الضرب. فوجد لنفسه عزاء. ليس وحده الذي يبكي تحت الضرب. بل كل إنسان. وهاهم وجهاء البلد وقادته يبكون تحت الضرب. بينما آخرون يتابعون أحاديثهم وكأنهم لا يسمعون شيئاً. أهي طريقتهم في مقاومة جلاديهم؟ يريد الجلادون أن يسمعوك أصوات الضرب مع صرخات الألم، لكي يبدأ شيء في أعماقك بالتحطم وأنت تنتظر دورك. وهؤلاء يتابعون أحاديثهم العادية وكأنهم لا يسمعون شيئاً. أو كأن ما يسمعونه لا يعنيهم. لا يعنيهم إن كان متعلقاً بمصير رفاقهم وزملائهم؛ ولا إن كان ما يجري ويسمعونه هو الذي ينتظرهم مثله. هكذا هي المقاومة. وهكذا يكون القادة. أم أنهم قد

اعتادوا فعلاً فلم يعودوا يتعاملون مع الأمر بانفعال؟ وهكذا أيضا يكون القادة. سيعود الذي كان يصرخ متألماً ويجلس بينهم ويناقشون مستقبل البلاد من جديد. وكأن ما حدث لم يحدث. كأن أحدهم عطس وقال الآخر: رحمك الله. ثم تابعوا الحديث. حتى هو لا يحس بالحرج لأنه كان يصرخ متوجعاً قبل قليل.

تمنى الآن لو أن الجنود يعرفون تهمته الحقيقة ولو أنهم يعلنونها على الجميع. حتى الآن كان سعيداً لأنه سجين نكرة، ملموم مثل أولئك الملمومين لا على التعيين. وقد صار من الواضح أن هذه الحملة تكملة لحفلة الإعدامات. لن يتركوا للشعب فرصة لتأمل الفجيعة والتعامل معها. سيجعلون كل إنسان مشغولاً بالمحافظة على نفسه، والشعب كله متوتراً ينتظر إن كانت هناك إعدامات جديدة.

ولكن لا. بالنسبة له الآن اختلف الأمر. هؤلاء يناضلون من أجل الشعب والوطن والأمة ويقاومون الظلم والاستبداد. وهو كان شاباً نشيطاً من الجيل الذي يرفد نهر البطولة العظيم. حبذا لو أن الجنود يعرفون أنه وطني نشيط ومشاغب. وأن يعرف ذلك هؤلاء المساجين أيضاً. وحتى لو كان هناك موت أو إعدام يا مرحبا. هل هناك أجمل من أن يرتبط اسمك مع هؤلاء العظماء؟

المهم أن لا يخرّب سميح كل شيء. أن لا يخبرهم أنه ابن أحد كبار ضباط الشرطة.

قال لسميح وهو يمسح الدم عن أسفل قدميه: هل سألوك عن شي؟

يسألون؟ هؤلاء الدواب يعرفون السؤال والجواب؟ هؤلاء يريدون أن يهينونا فقط. حتى أنهم لا يعرفون لماذا نحن في السجن.

المهم. سميح. إياك أن تقول لهم إنني ابن عارف بك الإبراهيم.

فتفجر سميح غضباً مشوباً بأوجاعه: يا أخي قسماً باللّه أنت ما برأسك عقل. كلمة واحدة منك ويعرفون أنك ابن عارف خراء ونخرج. هم لا يعرفون ماذا فعلنا.

* هم لا يعرفون. غيرهم يعرف. لا تفضحنا.

أفضحك؟ ألا تقول لي كيف تفكر؟

* أقول لك. قد أعلن عن اسم أبي ولا أستفيد شيئاً. أتظن أن هؤلاء المساجين ليس وراءهم وساطات تدعمهم؟ هؤلاء كانوا كبار البلد وكبار المسؤولين في الدولة. ولكن واضح أن جمال باشا هذه المرة ما عنده ذقن ممشطة.

يا أخي نحاول. ماذا نخسر؟

* نخسر الكثير. نخسر صداقة هؤلاء المساجين العظماء.

صار يتقرب من هؤلاء المساجين المحترمين، حين تسنح له الفرصة، بتقديم الخدمات لهم. وقد حاولوا أن يعطوه إكراميات لكنه كان يرفض: لا مال ولا طعام ولا حتى كأس شاي. هو ندٌ وليس تابعاً أو مسترزقاً. وهو يخدمهم لأنه يحترمهم، ولكونه أصغرهم سناً فقط. يكفيه أنه يستطيع سماع فارس الخوري وهو ينشد قصيدته في رثاء الشهداء الذين أعدموا في الوجبة السابقة:

كان التجلد في البلوى يؤاتيني
فما له حين أدعو لا يلبيني
ضاق الفؤاد بآلام تبرحني
وفاجعات بنار الوجد تكويني
أبكي ومعذرة عيني إذا ذرفت
على الغضاريف منها والأساطين
على شيوخ، على رهط الفتوة بل
على الليوث، على الغر الميامين
بيض الصحائف ما هانوا ولا غدروا
أنقى وأطهر من زهر البساتين

وكان يستمع إلى أحاديثهم ويتشربها فيحس أنه يكبر ويزداد نضجاً في كل يوم.

سمع عن الجمعيات العربية، وعن مقاومة العرب لسياسة التتريك التي يتبعها الاتحاديون، عن مبادئ

الماسونية والثورة الفرنسية، عن المؤتمر العربي بباريس، عن النضال من أجل استقلال أمة العرب، عن مؤامرات الدول الأوروبية لاقتسام بلاد العرب، عن النشاط الصهيوني لأخذ فلسطين وإقامة دولة يهودية، عن الاستعمار والاستعمار عن طريق التعليم.

هذه المدارس ليست هنا من أجل العلم فقط. بل إنها تهدف إلى شيئين أساسيين وهما متناقضان جداً لمن يتعمق فيهما. من جهة يريدون نشر الدين المسيحي، ومن جهة أخرى يريدون من الشبان المسلمين التمرد ضد دينهم بحجة التقدم والتنوير. ثم بحجة حماية المسيحيين يفرضون وجودهم وامتيازاتهم ومصالحهم على الدولة. بينما يتقبلها الشعب الذي هو في غالبيته مسلم لأنها تمثل أوروبا المتحضرة المتقدمة. ولأن الشعب يحس بنقص تجاه هذه الحضارة فقد جعلوه يرى أن تخلفه ناجم عن ارتباطه بالدين. كيف يكون الدين هناك تفكيراً حضارياً وتقدمياً وهنا تخلفاً ورجعية؟

قد تبدو المسألة حرباً دينية، أو، كما يقول بعضهم، صليبية جديدة. ولكن أمن أجل الدين تفتح فرنسا المدارس عندنا؟ حتى بدء هذه الحرب كانت فرنسا تؤمن السيطرة على خمسين بالمئة من المدارس والطلاب في سورية ولبنان. لماذا؟ ألأنها تحبنا وتريد لنا

أن نتعلم؟ ألأنها معنية بنشر الدين المسيحي؟ لا والله. كل الذين ذهبوا إلى فرنسا، وبينهم بعض هؤلاء المساجين، يعرفون أن الفرنسيين غير معنيين بالدين في حياتهم في بلدهم. لا بالدين المسيحي ولا بالإسلامي ولا حتى بالمجوسي. فلماذا يسوّقون إلينا هذه الأفكار التي لا يتبنونها؟ كأن الأمر — حسب تشبيه واحد من المساجين — بضاعة فاسدة يصدرونها إلينا لأنها غير صالحة للاستهلاك عندهم.

الحقيقة أنها حرب ضد جذور انتماء الشعب في هذه المنطقة. إنهم يخلخلون جذوره العميقة والعريقة. وأول هذه الجذور هو الإسلام. لا بصفته ديناً بل بصفته هوية محلية ووطنية. أضرب لكم مثلاً. إنهم يعلموننا أن نتشبه بهم. أقصد بالأوروبيين. طيب. على رأسي. ولكن الأوروبي في حياته شيء من الدين وليس بالضرورة التدين. إنه يرسم شارة الصليب على جسمه. ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد. ويتزوج عند الخوري في الكنيسة حتى من الفتاة التي كان يزني بها، أي يقيم معها علاقة جنسية قبل الزواج. ونحن. يا رجل صرنا نخجل أن نقول بسم الله قبل تناول الطعام. وأنا أعرف أنهم في أوروبا يعلمون أولادهم أن يصلوا صلاة خاصة قبل الطعام أو قبل النوم.

وما كان يجعل هذا الكلام أكثر سحراً وتشويقاً لإبراهيم

هو أنه يصدر عن مسيحي.

أكثر من مليون أرمني قتلوا ولم يحدث شيء. أليس هؤلاء مسيحيين؟ ولكن الغرب ليست له مصالح واضحة في مناطق الأرمن. مصالحه هنا في سورية. ولذلك فإن قتل ثلاثة موارنة أو كاثوليك أو أرثوذكس في لبنان أو سورية سيجعل الإنكليز والفرنسيين والروس يقيمون القيامة. المضحك هو أنهم يحمون المسيحيين ضد المسلمين على شاطئ المتوسط. ويحمون مشايخ العشائر المسلمين على شواطئ الخليج العربي في الوقت نفسه. هنا يفتحون المدارس ويشجعون العلم منذ منتصف القرن التاسع عشر. وهناك لا يأتون على ذكر المدارس ويشجعون روح البداوة والعشائرية باسم الحفاظ على العنصر العربي. وفي المغرب العربي يحاربون العروبة واللغة العربية والإسلام. المصالح هي التي تحرك وتتحرك. أنظر إلى اليهود. لأنهم أقوياء في أميركا جعلوا أميركا نفسها تتدخل لأجلهم. وهي التي لا علاقة لها بهذه الحرب. لماذا؟ الحجة أنه لأسباب إنسانية. لأن اليهود ليس لديهم تموين. تأتي البواخر محملة بالإعانات الغذائية والأموال. إنسانية؟ والآخرون الذين يموتون جوعاً في طرقاتنا ويلمهم الزبالون كل صباح عن الأرصفة، ألا تشملهم كلمة الإنسانية؟ والأرمن الذين ذبحوا أما كانوا

يستحقون أن يتدخل أحد لصالحهم لأسباب إنسانية؟
إبراهيم يحس أنه يتعرف إلى أصوله السورية والعربية لأول مرة هنا في السجن. وهؤلاء الذين يتحدثون وكأنهم يتسلون يعلمونه أكثر مما كان يتعلم في المدرسة. لقد وصل في المدرسة بالفعل إلى حد أنه صار يعرف عن التاريخ الفرنسي والإنكليزي أكثر مما يعرف عن تاريخ العرب والإسلام. وحتى بدأ يتسرب إلى وعيه أن الإسلام ملازم للمشايخ والفلاحين والجهلة والبدو. وأن الحضارة هي هناك في أوروبا التي لا يرى منها إلا ما تقدمه المدرسة. تاريخاً ولغة وآداباً. كأنه يتحضر حين يتحدث بالفرنسية بدلاً من العربية. وحين يعرف شعر فرلين ويجهل شعر البحتري. وهو لا ينسى أنه كان يتمنى لو أن أمه، التي يحبها أكثر من أي إنسان في الدنيا، تصير راهبة.
في الليل كان يتمدد ويفكر في ما سمعه في النهار. وصار أكثر حساسية لأصوات تعذيب المساجين. هؤلاء الجلادون لا يعذبون مساجين فقط. بل إنهم يهينون سورية والعروبة حينما يبهدلون هذه العقول الحكيمة التي تحمل الوعي بمستقبل البلد وشرف العرب.
لذلك فإنه لم يستطع احتمال إذلال شكري الأيوبي. كانوا يجبرونه على الركض في ساحة الخان وهو شبه عار وهم يجلدونه. فاندفع إلى الباب وهو يصرخ: يكفي

يا أولاد الكلب. يا وحوش.

وكانت نكتة سجناء الخان في اليوم التالي. فقد جاءه الضابط متوتراً وفتح الباب. ووجه إليه صفعة عنيفة ألقته إلى الأرض. وصرخ به: لماذا تبعق ولاك حيوان؟

فلم يجد ما يجيب به إلا: أنتم لا تتركوننا ننام.

تظن نفسك في أوتيل يا ابن الصرماية؟ خذوه. سأضمن لك أن تنام دون هزّ.

فلقة مرتبة أخرى جعلته يملأ الدنيا صراخاً.

وحين رجع، والجنود يجرونه، قال له أحد المساجين ضاحكاً: وأنت أيضاً لم تتركنا ننام.

أعجبه التعليق على الرغم من آلامه. كل ما يصدر عن هؤلاء يعجبه وينظر إلى وجهه الحسن. يجب تحويل آلام السجن إلى تسلية أو نكتة. يجب أن لا يحطموا أرواحنا. ولذلك ابتسم وسط آلامه وقال لصاحب التعليق: إذهب معه وستنام دون هز كما قال.

ولكنه قضى بقية الليل وهو يتقلب من الوجع. ولكن دون أن يمنعه هذا من محاولة التخطيط للعالم وللأمة العربية ولسورية: جمال باشا يريد أن يستقل بسورية عن الدولة العثمانية. ويحاول أن يزيّن الأمر لمن حوله بأنه سيفعل كما فعل محمد علي باشا في مصر. ولكن هذا تركي وهذا ألباني. لماذا يكون مستقبل سورية مرهوناً بأجنبي؟ لماذا يفكر بعض السوريين في أن

يجدوا حلاً وسطاً ويجلبوا واحداً من أسرة الخديوي في مصر ليحكمهم؟ حتى أنهم صاروا يذكرون علناً اسم الأمير يوسف كمال باشا ابن عم الخديوي بصفته الحاكم المنتظر لسورية. لماذا لا يكون الحاكم من هذا الشعب؟ لماذا حتى الشريف حسين أو الأمير فيصل؟ في هذا السجن أناس يفهمون ويستطيعون أن يحكموا البلد وهم يتحسسون كل نبض فيه.

«أبوحوسة». اسم اتفق عليه السجناء والسجانون. فعلى الرغم من الفلقات التي تعرض لها كان لا يترك شيئاً يفوته. لا يترك جلسة إلا ويقترب ليستمع إلى ما يقولونه فيها. لا يترك شيئاً يجب أن يعمل إلا ويعمله. حتى حين لا يكون دوره في السخرة يخرج مع المسخرين ليساعد في التكنيس والشطف ولم الزبالة وغسل المراحيض.

ولم يعد أحد يستغرب أن يراه في أي مكان. وكان هو يعلق ضاحكاً وساخراً من نفسه: السجن مدرسة. أفي كل يوم يصح لك أن تنسجن؟ وبينه وبين نفسه يضيف «مع هؤلاء». وهؤلاء عملوا له غسيل دماغ حقيقياً.

وكان يفضل الجلوس في مجلس شكري الأيوبي. ليس فقط لأنه كان أكثر المساجين عرضة للتعذيب، وبالتالي فهو متعاطف معه ومشفق عليه، بل لأن الأيوبي حين يرتاح قليلاً كان يتحدث عن تجربة كبيرة له مع اليهود

في فلسطين ومع كبار المسؤولين الأتراك. فيحس أن في تجربته تلخيصاً لتجربة الشعب كله:

الجفتلك أرض. كان الفلاحون يملكونها ويزرعونها. ولكن الفلاحين لم يكونوا يضمنون مواسمهم. ضرائب كثيرة تفوق المحصول أحياناً. والمحصول نفسه يصادر أو ينهبه البدو أو الدرك أو اللصوص الجائعون. لذلك ظهر حل غريب. تنازل الفلاحون عن هذه الأراضي للسلطان ليحميها ويعفيها من ضريبة العشر. صار اسمها جفتليك. وصاروا هم فلاحين فيها في خدمة السلطان. على الأقل صاروا يضمنون عدم تهجيرهم من قبل الزعماء. وبعد سقوط السلطان عبد الحميد ذورت ملكية هذه الأراضي إلى الخزانة العامة فصار اسمها الأراضي المدورة. هذه الأراضي ليست ملكاً لأحد بالتحديد. وهي الأراضي التي يحوم حولها الصهاينة بأساليبهم المتعددة. آخر محاولة في أيامي كانت محاولة نجيب إبراهيم الأصفر — أحد أعضاء مجلس إدارة بيروت — الذي حاول أن يستأجر هذه الأراضي من الدولة لمدة ٩٩ سنة على أن يدفع مئة مليون فرنك. ويتعهد بإصلاح الأرض. ثم بأن يقسمها إلى أقسام يبيعها للفلاحين. ومن هم الفلاحون القادرون على الشراء؟ اليهود الذين تمولهم الصهيونية العالمية لهذا الغرض. العين في الحقيقة على الأراضي في غور بيسان وأريحا. وهذه

يحاول الصهاينة شراءها منذ زمن. ولا تنسى أن سليم الأصفر شقيق نجيب كان قد تقدم لأخذ امتياز تجفيف الحولة بأموال الجمعية الصهيونية. ثم يأتي الآن نجيب تحت غطاء شركة بلجيكية رأس مالها صهيوني. وفي الوقت نفسه تأتي شركة فرنسية لأخذ امتياز حمامات الحمة. هذه كلها محاولات صهيونية لتملك أراضي فلسطين بالالتفاف على القوانين المحلية. هذا غير المحاولات المستمرة منذ ثلاثين عاماً لشراء الجولان.

ويتابع الأيوبي: في ذلك الحين، ١٩١٠، كنت قائم مقام الناصرة. وكان اليهود يحاولون استملاك أراضي سهل مرج ابن عامر الذي يسمونه يزراعيل. وهذه الأراضي كان قد توارثها أبناء سرسق وتويني وسنبرس. وبدأوا يبيعونها قطعاً صغيرة. ثم تبين أنها تنتهي إلى اليهود. وحين عرفت، وأنا قائم مقام، بصفقة بين الياس سرسق ووكيل الجمعية الصهيونية لبيعه أراضي العافولة قرب الخط الحديدي الحجازي خفت أن تتم الصفقة إذا ظل الاحتجاج عليها في نطاق الدوائر الرسمية. أفسحت المجال للأهالي للتعبير عن احتجاجاتهم. فراحوا يرسلون البرقيات ويتظاهرون. وكان معي مستند قانوني لدعمهم. فهناك أمر حكومي يمنع استملاك الأراضي الواقعة على جانبي الخط الحديدي وبعرض عشرة كيلومترات. ولكن الوالي، الذي أتحمل برقبتي

وبموقفي أمام الله أنه قد قبض من اليهود ما فيه النصيب، أقر إفراغ الأرض بالبيع لأن البائع عثماني والشاري عثماني. ولأن هناك تعهداً بأن يظل الفلاحون عثمانيين. ماذا يعني أن يظلوا عثمانيين؟ اليهود معظمهم أخذوا الهوية العثمانية. ولذلك بيعت الفولة أو العافولة وفيها قلعة أثرية من أيام صلاح الدين. وأقام فيها الصهاينة مستوطنة مرحافيا.

وإضافة إلى ذلك صدر أمر بكف يدي عن العمل. وجاءني الإنذار عن طريق متصرفية عكا. وعرفت أنه طلب من وزارة الداخلية إصدار أمر بعزلي. ولكن شعبنا لا ينسى أبناءه. أحس أبناء الشعب أنني أقاوم مخططات الصهيونية. في ذلك الحين توفي المرحوم محمد العجلاني مبعوث دمشق. فجرت انتخابات فزت فيها بعضوية المبعوثان لأحل محل العجلاني. منحني الشعب في دمشق خمسين ألف صوت. وبعد أن صرت في مجلس المبعوثان أتيحت لي الفرصة للالتقاء بالشباب الطيب، في نادي الإخاء والجمعية القحطانية والمنتدى الأدبي.

لا تخافوا يا شباب. بلدنا لن يخضع. وبلدنا يعبر عن إرادته من خلال شبابه. وحتى الإعدامات لن تزيد الناس إلا تصميماً على متابعة النضال. لكن معركتنا طويلة. وعدونا ليس واحداً. وليس سهلاً.

أحاديث كهذه كانت تجعل إبراهيم يحس أنه قد صار قوياً وكثيراً. نعم «كثيراً». يحس أنه أكثر من واحد. وأنه ليس وحيداً مستضعفاً. وصار يتمنى أن يقضي عمره إلى جانب هؤلاء ليتشبع من أحاديثهم. وفي الوقت نفسه يتمنى أن يتناول سلاحاً ويخرج به. ويبدأ بإطلاق النار على كل من يصادفه من الأعداء: العثمانيين والصهيونيين والخونة والعملاء والدرك، من باب السجن حتى الباب العالي في اسطمبول.

وينظر إلى شكري الأيوبي فيحس أن العذاب الذي يكابده هذا الرجل في هذا السجن هو انتقام يمارسه أعداء مركبون من مطامع صهيونية وطغيان عثماني وجشع ملاكين وضعف موظفين.

ولذلك حين استيقظ السجن بكل من فيه مذعوراً على صرخة أفادت بأن شكري القوتلي قد انتحر لم يستغرب أحد وجود إبراهيم مع الدكتور أحمد قدري وشكري الأيوبي وفارس الخوري وغيرهم من المساجين والجنود الذين تجمعوا يرون ما حدث. ويسعفون المنتحر. ويحملونه إلى العربة لنقله إلى المستشفى. فوجد إبراهيم نفسه، وسميح معه، يمسكان برأس شكري القوتلي. وحين وصلت العربة إلى المستشفى ركض الممرضون يتناولونه من العربة. أما هما فينزلان ويختلطان بالجمع المتزاحم المتهامس المتسائل. وبعد

قليل أدركا أنهما في المستشفى خارج إطار الحراسة والسجن. تطلع كل منهما إلى الآخر وقد أدركا أنهما هربا دون أن يقصدا. ودون كلام نزلا الدرج وخرجا من المستشفى وكأنهما كانا في زيارة.
وعند الباب.. يا من سترت لا تفضح. وانطلقا يركضان كأنهما سهمان أطلقا من قوس واحدة.

— ٢ —

الفضول، وحده، هو الذي دفعها في البداية إلى محاولة الالتقاء بعارف. الطريقة التي كان ألتر يحكي بها عن هذا الرجل لم تترك لها خياراً. بل إنها استغربت كيف أنها لم تلتق به حتى الآن. أليس مثل غيره من الضباط؟ سألت عنه الضباط الآخرين الذين صارت تراهم بشكل طبيعي فعرفت أنهم لا يحبونه. وفهمت أن سبب ذلك هو النظافة. هذا الرجل لا يسرق ولا يرتشي ولا يقبل وساطة. ولذلك فإنهم يتندرون عليه: جحش شغل. وعلى الرغم من أنهم يتجنبون الاحتكاك به إلا أنهم متواطئون جميعاً على ضرورة تفشيله في عمله. فنجاحه تعرية لانعدام فاعليتهم. أو هم على الأقل متفقون على ضرورة عدم الاستجابة لأي طلب يطلبه منهم. فهم يعرفون أنه لن يلبي لهم أي طلب غير قانوني. ولذا فليس من الممكن مقايضته بشيء. وبما أن أحواله المادية أقل من عادية فإنها لن تتوقع رؤيته

في المطاعم أو السهرات الباذخة. ولن تستطيع الذهاب إلى المقهى الذي يستمع فيه إلى «التغريبة» التي يغرم بها. فالجلسة هناك رجالية.

اليوم جاءتها الفرصة لمحاولة التعرف. أخبرها رابين هرتسوك، اليهودي، الذي كان يعمل في شراء الأراضي العربية، أن عثمان الراعي، العربي، الذي يملك أرضاً زراعية ذات أهمية كبيرة خارج القدس، قد وصل إلى الإفلاس التام. لقد ضاربوا على أسعار مواسمه حتى مني بخسائر كبيرة. كما استطاعوا أن يعيقوا استلامه لتحويل ينتظره من اسطمبول. ولهرتسوك ديون مستحقة على عثمان تستدعي مصادرة أملاكه. إذا استطاعت سارة استصدار أمر المصادرة فلن يجد هذا الرجل أمامه من حل سوى أن يبيع أرضه بأي ثمن. وهم جاهزون للشراء.

وسألته سارة: ولماذا تأتي إلي أنا؟

* اقترح علي مسيو ألتر ليفي أن آتي إليك.

هل ترى ألتر كثيراً؟

* ألتر هو الذي يختار متى نراه.

كان في استطاعتها أن تستصدر هذا الأمر من أي ضابط كبير ممن تعرف. لكنها وجدتها فرصة لأن تذهب بنفسها لمقابلة رئيس الشرطة العدلية عارف بيك إبراهيم.كما أنها قدرت أن من مصلحتها أن تكون قريبة من شخص

مثل عارف. ليس فقط لأن آرون يعتمد عليها من أجل المعلومات. بل لأن ألتر أيضاً صار يعتمد عليها كثيراً. ها هم الجميع يعتمدون عليها.

قبل يومين فوجئت بشاب ينتظرها في صالون الفندق. كان اسمه عبد الله جبريل. واسمه الحقيقي إسرائيل جيب. جاءها، حسب ما قال، لأنها بنت الملّة. وأيضاً لأن ألتر نصحه بذلك. واعتبرت قوله هذا بمثابة رسالة توصية من ألتر.

ما المشكلة؟

هو كان يشتغل، كما قال لها، بين القرى الساحلية اللبنانية. يتنقل بين الناعمة و المطلة والصالحية والخالصة. هناك أقام شبكة تهريب. لا. ليس تهريب بضاعة. بل تهريب سلاح وشباب. شباب من جماعتنا يريدون الدخول إلى البلاد. والدولة لا تسمح لهم. شباب أولاد عرب من هنا يريدون الهجرة إلى الخارج. القصة طويلة. لا أريد أن أتعب رأسك بها. ولكنهم كشفوني. كان يمكن أن يقبض علي وأعدم. ولكنني تدبرت أمري. قتلت اثنين من الحرس وهربت. يجب أن أغادر البلاد.

وتعتمد علي لتهريبك من البلاد؟

* لا. أريد أن أختبئ فقط. الهروب مؤمن.

هل تظن أنهم عرفوا أنك هنا؟

* لا أعرف. ولكن سنتصرف وكأنهم قد عرفوا.

ماذا تريد مني بالضبط؟

* مخبأ.

هزت رأسها وقاطعته حين أراد أن يسترسل: يكفي. سأرسلك في عربة إلى روشيون لوزيون. هناك شخص اسمه نعمان بلكند سيؤمن لك مخبأ.

سترى عارف أيضاً لتعرف إن كان لديه علم بقصة عبد الله أو إسرائيل.

فاتها أمر واحد فقط. لم تكن تعرف أن عارف كان يعرفها.

ولقد كانت المفاجأة مذهلة لعارف حين أبلغه الحاجب أن السيدة سارة آرونسون تريد مقابلته. مفاجأة جعلته لا يعرف بماذا يجيب. ماذا تريد منه هذه المرأة؟ وكيف عليه أن يقابلها؟ هي من جلساء جمال باشا وحاشيته. وهذا يفرض عليه أن يحسن استقبالها. ولكن ما الذي تريده منه؟ اكتشف في أعماقه كراهية لها دون سبب واضح. ألأنها اقتحمت أجواء الباشا؟ ألأنها يهودية؟ أم لأنها جميلة؟ أياً كان الأمر لا بد من إدخالها.

ودخلت.

أهكذا تعاملون النساء يا بيك؟

* هل أزعجكِ أحد؟

أنت. ألا يكفي أن تجعلني أنتظر بالباب؟ كنت أظن أن للسيدات معاملة خاصة.

ومدت يدها وهي تقدم نفسها: سارة.

ضايقته بساطة تقديمها لاسمها، فرد عليها برسمية: أهلاً مدام سارة آرونسون.

وتطلعت إليه مستغربة: تعرفني؟

* ومن لا يعرفك؟ أو يعرف أخاك آرون؟

ألهذا جعلتني أنتظر؟

* عدم المؤاخذة. كنت أجري مكالمة هاتفية.

سرية؟

ونظر إليها مستَفَزاً: مكالمة يُستحسن أن لا تسمعيها.

نسائية؟

الله أكبر على هذه الورطة. ما دخلها بنوع المكالمة؟ ولكي لا يترك لها الفرصة للمزيد من التدخل في شؤونه سألها: بماذا أستطيع أن أخدمك؟

فهمت أنه لا يحب الأخذ والرد. ولا يريد أن يستغل الفرصة لإطالة الحديث مع امرأة، كما كان يمكن أن يفعل أي شخص آخر؛ وخاصة بعد أن فتحت باب الحديث عن النساء.

سألته: تعرف شخصاً اسمه عثمان الراعي؟

* أسمع به.

لنا عنده ديون. ولا يريد أن يدفعها.

* ديون لك أنت؟

— الحقيقة هي ديون لشركاء أخي. أنت تعرف أن أخي

آرون يستطيع أن يحل الأمر بنفسه. ولكننا لا نريد أن نزعج الباشا بأمور صغيرة كهذه. تكفيه مشاغله.

* وما المطلوب؟

— لو أنك تكلمه وتجعله يدفع ديونه.

* وما علاقتي أنا بأمر كهذا؟

— ألست رئيس شرطة العدلية؟

* الشرطة يا مدام لا تتدخل إلا لتنفيذ حكم. حين تقيمون الدعوى ويصدر عليه حكم يُطلب إلينا العمل على تنفيذه.

أف. من ظل يتكلم عن شكلية القانون في دولة كهذه؟ وصاحب المال مستعد أن يدفع جزءاً منه لقاء تحصيله.

* المحكمة توصله إلى حقه دون أن يدفع منه شيئاً. إلا إذا كنت تعرضين علي رشوة.

— رشوة؟ أعوذ بالله. ولكن لا نريد أن يصل الأمر إلى القضاء، إذا كان بالإمكان حل الموضوع حُبّياً.

* لا يكون الحل الحبي عن طريق تدخل رئيس الشرطة العدلية يا مدام.

توقعت أن تأخذ راحتها عنده أكثر من ذلك. كانت تظن أنها ستدخن لفافة، وأنها قد تشرب فنجان قهوة. لكنها أحست أنها ليست محل ترحيب. وصار المهم هو كيف تخرج دون خزي كبير.

تنصحنا بالدعوى إذاً؟

* أنا لا أنصح بشيء.

تعرف يا عارف بك؟ كنت أظن أنك قد تخدمني هذه الخدمة. الناس بعضها لبعض. وربما استطعت ذات يوم أن أكلم الباشا كلمة لصالحك.

ولم يرد على هذا الكلام.

أضافت وهي تتمعن في وجهه: خاصة أنه يتوقع منك أن تمسك بشبكات تهريب اليهود. سمع أن الهاربين من سواحل بيروت يأتون إلى هنا. ويريد من يمسكهم له. هو مهتم مثلاً بعبد الله جيب.

أمسك سماعة التلفون: قصدك إسرائيل جيب.

فعلاً.

ودون اهتمام باستكمال الحديث قال لعامل المقسم: هل عناصر الدورية جاهزون؟

ولم تجد أمامها إلا أن تنهض: أستأذن.

ودون أية كلمة مجاملة أو دعوة لضيافة قال: مع السلامة.

الحيوان ابن الحيوان. العمى. لماذا؟ كأنني آكلة مال أبيه.

الفصل الرابع عشر

— ١ —

على الرغم من هيبة عارف ورتبته ومركزه، فإن تعففه عن البراني والتجاوزات قد جعل وضعه المادي صعباً. فهو ينفق على البيت في بيروت وعلى ابنه في دمشق وعلى نفسه هنا في القدس ويساعد أهله في نابلس. والمظاهر لا ترحم. مع ازدياد الفقر تتزايد تظاهرات الغنى. وهو، بحكم وظيفته، يجب أن يكون مع علية القوم ويسهر في الفنادق والأندية ويلعب القمار إذا أحب. ويحلف على الموجودين أن لا أحد يدفع الحساب مهما كانت الطاولة.

وقد حسبها مع نفسه ببساطة: ليس من اللائق أن يظلوا يدفعون عني. وأنا ليس في مقدوري أن أدفع عنهم. إن حساب طاولة واحدة يكسر الظهر. كما أن حساباته جعلته يدقق في تصرفاته ويقدر القيمة المادية لكل تصرف. فحتى لو لم يكن قادراً على دفع حساب طاولة سكر، فإنه ليس مضطراً لدفع هذا المصروف الإضافي من أجل البزوزة. وليس من الضروري أن يأكل في المطعم. أولاً أكل المطعم غال. وهو إذا أعدّ أي شيء في البيت، أو طلب من بهيجة ابنة صاحب البيت أن تطبخ له شيئاً، يستطيع أن يوفر. وما يوفره فهو للأولاد

ولإبراهيم بالذات.

ولذلك حين يخرج من السرايا كان يسرع إلى حصانه أو عربته، ويعتذر من الآخرين بأن لديه مشاغل. فيتركهم يذهبون إلى المطاعم والأندية، ويذهب هو إلى البيت حتى دون سائق. ويقضيها كيفما كان. يقلي البيض أو يسلق البطاطا أو يطبخ البرغل أو يأكل الخبز والشاي.

لن يصدق أحد أن رئيس شرطة القدس يعيش بهذه الطريقة. ولكن ماذا يهم؟ صدقوا أم لم يصدقوا. المهم راحة البال والضمير وتأمين العيال. ثم أنا لا ينقصني شيء. مرتاح هكذا. أحب هذا الأكل. وأكره جلسات البروزة والمنفخة. ولا أحب الشراميط والتاترجيات. ولا معنى لإهدار المال من أجل كسب ضحكة ساقية أو تدليل نادل. والذين يدفعون عنه يريدون تمرير مصالحهم. حين يضطر للدخول إلى هذه الأماكن فهو سيدخل في مهمة فقط. ولن يستغل مهمته لكي يسكر ويسمر ويعرّص. سيدخل في شغل. وسيحترمونه رغماً عنهم لأنه ضابط. فليحترموا الآخرين من أجل ما يدفعونه. هو غير مهتم بذلك.

ثم إنه لا يحب المشروب أصلاً. والتبغ اللف أطيب في فمه من سجائر الباكيت. مع أنه يحمل الباكيت لكي يدخن في الطريق. كما أن إخراج العلبة في بعض المجالس سيبدو مبالغة أو إحراجاً.

الجنود المكلفون بخدمته يتوقعون أن يشبعوا من فضلات مائدته كما هو حال الذين يخدمون الضباط الآخرين. لكنه عوّضهم عن ذلك بأن كان يصرف كلاً منهم حال انتهاء عمله. يصرف حتى سائق العربة فور إيصاله إلى البيت إذا طلب إيصاله. ويصرف السائس فور وضع العلائق للخيل. ولا يسمح لأحدهم بالدخول لتكنيس البيت ومسحه بحجة الحفاظ على الأسرار.

ولم يكن قد استطاع بعد أن يجد منزلاً قريباً ولائقاً. طالَبَ أن يسمحوا له بالسكن في دار السكاكيني الفارغة والمجاورة للسرايا، لكن الرد من المتصرف جاءه بأن هذا يحتاج إلى قرار من مصادر عليا. وهو ينتظر ذلك. ولذلك دبر أمره في غرفة مستأجرة.

وعارف الذي يعرف القدس جيداً انتقى بيت سلمان حمود أحد معارفه القدامى. هو شخص حط به الزمان بعد عز وجاه. اضطر لبيع أراضيه في الأرياف واستقر في القدس مع ابنته الوحيدة الصغيرة بهيجة. وقد سره أن يرى أن بهيجة قد كبرت وصارت صبية. وعرف أنها قد تزوجت. وأن زوجها قد أخذ في حملة السويس الأولى ولم يرجع. قال سلمان: يعلم اللّه أنه قد مات. وإلا لكان قد رجع. ورد عارف: «توكل باللّه. ولا تيأس من رحمته». ومما زاد في ارتياح سلمان لجيرة عارف أن هذا الضابط ليست حوله ضجة. لا جنود يروحون

ويأتون. ولا ضيوف يزعجونه أو يزعجون ابنته. عارف يأتي وحده. يأكل وحده في غرفته. ثم يخرج للتسلية معه. وبهيجة تستطيع الاعتناء بهما. تطبخ وتغسل وتنظف وتعد الشاي لهما. على الأقل عارف يجلب الشاي والسكر.

واليوم سمع عارف بما جرى لعبد السلام. وعرف بتنفيذ حكم الإعدام به. فجعه الخبر. وجعله يزداد تفكيراً بابنه. ولكنه حين عرف بتفاصيل التحقيق معه ازداد حقداً على النساء اللواتي يستدرجن الضباط، كما ازداد حقداً على ألتر ليفي الموجود في كل قصة.

لم يستطع البقاء في المكتب. قرر الخروج للتريض على حصانه وحيداً والاستسلام لخواطره.

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر.

وفيما هو في شارع يافا خلف مستشفى البلدية لفتت نظره حركة سريعة. شخص ما كان على وشك الخروج من أحد الأزقة ارتد بسرعة حين رآه.

دخل الزقاق. وكان الرجل واقفاً بالانتظار. وحين رأى عارف يدخل الزقاق انطلق راكضاً. فلكز عارف جواده وراءه. وفي أحد المنعطفات اختفى الرجل.

ترجل عارف وسحب مسدسه وتقدم بحذر. بعد انعطافة واحدة تبين له أن الزقاق مسدود. هل دخل أحد هذه البيوت؟ وقبل أن يقرر جواباً على ذلك رأى بناء مهدماً

في طور الإصلاح وفيه أكوام من الأتربة والحجارة.
دخل البناء وصار يتنقل في زواياه فلمح الرجل مختبئاً وراء أحد الأعمدة.
وقف عارف متهيئاً ولقم مسدسه: أخرج من وراء العمود وإلا أطلقت النار.
وأظهر الرجل نفسه وهو يرفع يديه. لكنه ظل واقفاً بعيداً.
* إقترب.
دعنا نتفاهم وأنا هنا.
* من أنت؟
أنا هربان من العسكرية. يستر على حريمك. عندي امرأة وخمسة أولاد وأبي وأمي. ما لهم غيري. أنا هربان من بير السبع.
* من بير السبع؟ وكيف وصلت إلى هنا؟
بالتستر والمصاري. ظل معي خمس ليرات ذهبية. خذها واتركني أصل إلى أهلي يلحقك ثواب.
* ما اسمك؟
محمد الخلف.
* إقترب.
أخاف يا سيدي.
ومد يده إلى جيبه ثم خرجت بالنقود: سأترك لك الخمس ليرات هنا وأنصرف.

وهمَ أن يضع المبلغ على الأرض.

* قلت لك اقترب.

ولم يجد الرجل بدأ من الاقتراب. قبعة إفرنجية مطوية ومنكسة قرب العينيين وشاربان كبيران وسالفان يغطيان نصف الوجه. وصل إلى قرب عارف وهو يتطلع إلى الأرض ويقدم المبلغ.

أمسك عارف بيد الرجل وشده نحوه بقوة: تطلع إلي.

وحين التقت العيون عرفه: ألتر!!

* دخيلك يا عارف بك.

تريد أن تشتريني؟

* يا ابن الحلال خذ هذا المبلغ واتركني. الله وكيلك هذا كل ما معي.

تعال معي.

* إذا أردت أكثر سأجلب لك.

وضع المسدس في نقرة ألتر: وقعت. وألله و قعك يا ألتر. آخرتها أين ستطير؟

وسار به إلى المخفر القريب وراء المستشفى. دخل به فلم يجد في المخفر إلا شرطيين.

إفتح الحبس. أنا عارف بيك الإبراهيم رئيس الشرطة العدلية.

أسرع أحد الشرطيين وفتح الباب الحديدي فدفع عارف سجينه. وسارع الشرطي بإقفال الباب.

* هذا ألتر ليفي. فهمان؟

فهمان سيدي.

لكن حركته لم تدل على أن الاسم يعني له شيئاً.

* مَن هنا في المخفر؟

لا أحد إلا أنا وزميلي سعيد المقدسي.

* وأنت ما اسمك؟

خليل عبد الجليل يا سيدي.

دخل عارف الغرفة. فراح الدركي سعيد يلملم البصل الذي كان يأكله مع الخبز. تجاهله وتوجه إلى الهاتف وبدأ يستخدمه: ألو يا مقسم. أعطني السرايا. ألو يا سرايا من عندك؟ أعطني علي باشا. عدنان بيك. بهاء بيك.

لا بيك ولا باشا. الجميع خرجوا، مع جمال باشا، كما قال له حاجب بهاء بيك، في جولة تفقدية في الجبهة. ولن يرجعوا قبل المساء.

وضع السماعة ثم تطلع إلى الشرطيين: والرؤساء هنا متى يجيئون؟

* العصر.. المغرب يا سيدي. ذهبوا إلى الغداء وتفقد العيال.

إسمع يا خليل. واسمع أنت يا سعيد. هذا السجين خطير ومهم. جمال باشا ذاته يطلبه. سيبقى هنا حتى المغرب فقط. وأنا سآتي وآخذه. مفهوم؟

* مفهوم يا سيدي.

ونهض. ولم يستطع إلا أن يرى بقايا البصل على الطاولة: ألا يصرفون لكم طعاماً؟

* نأخذ بدل طعام يا سيدي. نعطيه للعائلة تدبر حالها. ونحن نمشي الحال بأي شيء حسب التياسير. وهذا الشهر لم تأت الرواتب. ضمَنّاها بالربع ألله وكيلك.

طيب. إنتبه جيداً للسجين. وأنا أعدك بمكافأة أنت وزميلك.

* أمرك يا بيك.

وتوجه عارف ليلقي نظرة على سجينه. كان ألتر يقف وراء القضبان الحديدية. توقع أنه سيرجوه من جديد. ولكن هذا حدق إليه بتفوق لم يفهم مصدره. وقبل أن يقول عارف شيئاً بادره ألتر: عرضت عليك ذهباً ورفضت. تعرف لماذا ترفض يا عارف؟ لأنك جحش.

ومد عارف يده إلى مسدسه غاضباً.

فقال ألتر:

هل ستقتلني؟ أرنا مراجلك.

بحقد عارم قال له عارف: على الأقل أستطيع أن أقتلك انتقاماً لعبد السلام. تذكره؟

قريبك؟

وتابع عارف دون أن يهتم للسؤال: ولكنني سأجعلك تشتهي الموت ولا يأتيك.

وخرج.

إمتطى جواده وانصرف.

كان يحس بنشوة خاصة وهو يأكل وحده في غرفته. لقد أنجز أمراً عظيماً. ألتر ليفي مدوّخ الدولة، الذي لعَب عدنان وعلي باشا على أصابعه، والذي يهتم جمال باشا شخصياً بالقبض عليه، ها هو بين يديه. ذلك الذي كان يريد أن يقتل عبد السلام، والذي أوصل الشاب المسكين إلى المشنقة هو الآن في قبضته. كان يحس بالذنب لما جرى لعبد السلام. هو مثل ابنه. وكان يجب أن يحميه من ذئب كهذا. الاعتذار الوحيد المجدي هو هذا الإنجاز. القبض على ألتر وتقديمه للمحاكمة. وكشف أسرار شبكته الجاسوسية. الحمد لله أنه ضبط أعصابه ولم يقتله. ستكون مفاجأة سارة للباشا حين يعود من الجبهة. ولام نفسه لأنه يجلس هنا ليأكل والسجين هناك. ابن الكلب قد يلعب ملعوباً على هؤلاء الدرك البسطاء.

ولم يطاوعه قلبه أن يكمل الطعام. لف رغيفاً بما فيه وخرج وهو يقضمه. وركب جواده الذي لم يكن قد أنهى عليقته وعاد نحو المخفر.

حين دخل المخفر وقف الدركي سعيد يرتجف: هرب يا سيدي.

* والله لألعن أبوك في مية صرماية يا ابن الكلب. كيف

هرب ولاك؟

يا سيدي. بدأ يتكلم وهو يبكي. بعدما رحت حضرتك، بقيت أنا وخليل. نادى لنا السجين وقال إنه يريد أن يتغدى. أعطاني ليرة ذهبية لأجلب أكلاً لنا وله. وبصراحة يا سيدي. قال لي خلّ الباقي لك. رحت. اشتريت اللحم المشوي والحمص والسلطة ورجعت. ما لقيت أحداً. لا السجين ولا خليل. شوف اللحم. ما أحد ذاقه.

تطلع إليه عارف، وكان غاضباً إلى درجة لم يعرف معها كيف سيضرب هذا المخلوق الغبي، يعفسه بالجزمة، أم يطلق عليه النار.

* تعرف بيت رئيس المخفر؟ تذهب وتجلبه. وتجلب العناصر كلهم من بيوتهم.

أمرك يا سيدي.

وخرج الدركي.

بدأ عارف يتصل. اتصل بحامية السرايا. بسمعان بيك. وطلب مفرزة.

خلال ساعة صار هذا المخفر الصغير يعج بالجنود والأسلحة: أخلقوا لي ألتر ليفي. واخلقوا معه زميلكم خليل عبد الجليل.

ألتر ليفي اختفى. وخليل عبد الجليل جُلب مخفوراً. وأدخل ليقابل عارف.

كان خليل يبكي: يا سيدي. أعطى رفيقي ليرة ذهبية ليجلب الأكل لنا نحن الثلاثة. وذهب سعيد ليجلب الأكل. أليس صحيحاً يا سعيد؟ بعد أن ذهب سعيد وضعت كرسياً أمام المخفر وجلست عليه أنتظر. لم أنتبه إلا وضربة تأتيني من الخلف. أنظر الضربة يا سيدي. ارتميت على الأرض ولكنني لم أفقد وعيي. كان السجين يهرب. قمت وصرت أركض وراءه بقدر ما أستطيع بعد الضربة. كنت أركض وأنا أصرخ بكل من أصادفه لكي يساعدوني عليه. كنت أصرخ: جاسوس. جاسوس. ولكن لا أحد كان يهتم. وهو صار يدخل في شارع ويخرج من شارع. وأخيراً اختفى. وأنا دخت من الركض وأثر الضربة. دخت ووقعت.

* سأريك نجوم الظهر يا ابن القحبة. إبطحوه.

وبدأ الدركي يستجير. وعارف يقول له: هذه القصة كلها لم تدخل دماغي. دركي يطارد رجلاً في شوارع القدس، ويقول إنه جاسوس، ولا أحد من المارة يساعده أو ينتبه إليه؟

— يا سيدي. إسأل زملائي كلهم. عمرنا ما طاردنا أحداً ووجدنا من يساعدنا. الناس يساعدون الهارب ولا يساعدوننا.

لمعت في ذهنه مطاردته لألتر في ليل دمشق. ولكنه لم يكن ليسمح لأية فكرة بالسيطرة عليه وهو في هذه

الحالة: إبطحوه. سيظل يأكل الفلق أمام عيني حتى يحكي لي قصة غير هذه. كيف خرج من الباب المقفول؟ أنا قفلت الباب بيدي.

لف الدرك قشاط البندقية على قدمي زميلهم خليل وبرموها حتى حصرتهما جيداً. الدركي يعرف معنى هذه الحركة. بعد أول ضربة صاح: لحظة يا سيدي. لحظة. سأحكي. التوبة على يدك.

فكوا البندقية عن قدميه. فبدأ يحكي: بعد ما راح سعيد لجلب الأكل ناداني السجين. وقال لي: معي أربع ليرات ذهبية تأخذها وتفتح لي الباب؟ قلت له: لأ. قليل. قال: سأعطيك عشرين. تأخذ الآن أربعاً. وتجيء معي إلى الكوبّانية النمساوية لأعطيك الباقي. قلت له إذا لعبت ملعوباً أقتلك هاه. قال: لماذا ألعب الملعوب؟ أنا أريد أن أهرب. وأنت تحتاج إلى المبلغ من أجل أسرتك. إي والله يا سيدي. أنا في حاجة من أجل أسرتي. ألم ترني آكل الخبز والبصل؟

نهره عارف: ستقدم لي فقر حال؟

أكمل الدركي: قلت له كيف أفسر الأمر لرؤسائي؟ قال: بعد أن أعطيك العشرين ليرة ذهبية أضربك ضربة خفيفة على رأسك. وتقول لهم إنني ضربتك في المخفر وهربت. فتحت له الباب يا سيدي. وخرجت معه إلى الحارة النمساوية. هناك دق أحد الأبواب. وطلب من

امرأة أن تعطيه عشرين ليرة ذهبية. ناولته المبلغ فأعطاني إياه. قلت له: ألله معك. ولكنه ذكّرني أنه يجب أن يضربني. قلت له: دخيل عرضك لا توجّعني. فضربني على رأسي بحجر صغير أسال دمي. الله وكيلك هذا كل ما صار يا سيدي.

نهض عارف وقد اسودت الدنيا في عينيه.

تحمس رئيس المخفر: نطوق الحي النمساوي ونمشطه. نعتقل المرأة التي أعطته المصاري.

هز عارف برأسه وخرج دون كلام، بينما كان الشرطي يساق إلى قسم الحفظ.

وفوجئ عارف بمن يضع يده بمودة تحت إبطه من الخلف. وعرّفه الرجل على نفسه بسرعة: محسوبك جواد رفعت أتلخان.

شهق عارف: أنعِمْ وأكرم.

كان هذا أكثر ما يحتاج إليه عارف. جواد أتلخان.

ودون تضييع وقت في المجاملات دخل أتلخان في الموضوع: سمعت بالقصة فجئت لكي نتعاون. أنا هنا بشكل مؤقت. سمعت عنك الكثير. ولا أستطيع أن أفوت فرصة وجود شخص مثلك دون أن نتعاون في شيء ما. وخاصة أنك تطارد ألتر ليفي. ألتر هذا من أخطر الجواسيس.

أنا أحس بذلك فعلاً.

* وعلى أمل التعاون بشكل أفضل في المستقبل، أترك لي فرصة التعرف بك جيداً.

وسارا معاً نحو السرايا: صدقني يا عارف بك لم يهدم هذه الدولة إلا اليهود. ضع يدك في يدي لنحاول الوقوف في وجوههم.

وحكى له جواد قصصاً غريبة، كان قد سمع ببعضها، عن تجسس اليهود. وعن الجواسيس الذين استطاع القبض عليهم بالجرم المشهود، ثم إيصالهم إلى حبل المشنقة.

سمعت عنك الكثير. وكنت أتمنى أن نلتقي ونتعاون.

قال أتلخان بلهجة خبير: كنا نقول إن الشنق يجعل الآخرين يعتبرون. ولكن بالنسبة لليهود لا. هؤلاء مصرّون. ولو شنقت كل يوم عشرة منهم لوجدت في اليوم التالي عشرة غيرهم. فكرتنا عن اليهود فيها غلط. نحن لا نعرفهم إلا مرابين وقوادين وأصحاب خمارات وكباريهات. ولكنهم يهيئون مشروعاً. وهم مستعدون للتضحية من أجله. التضحية بالمال الذي لديهم منه الكثير. والتضحية بالرجال وبالأعراض أيضاً. أنا بصراحة لا أستنظف يهودياً واحداً. كلهم مجندون لخدمة هدفهم. ودولتنا هنا وليست هنا. اليوم تراها حذرة من اليهود. والحالة بعضها داخل في بعض. ترى أكثر من ضابط يلقلق عند اليهود، وأكثر من يهودي مدحوش في طيز الباشا. والباشا بين سيقان

اليهوديات.
نفخ عارف مهموماً: لولا الباشا كانت قصة ألتر ليفي انتهت منذ زمن طويل. هذه هي المرة الثانية التي أقبض فيها عليه.
* تصور أن الباشا في أول زيارة له إلى القدس أبلغهم أن ثلاثين منهم سيطردون إلى القسطنطينية أسوة بالتهجير الذي يمارسه على الشوام الآخرين مسلمين ومسيحيين. ولكنهم قالوا له: نحن يهود يا باشا. ولسنا عرباً. قال لهم: أنتم عثمانيون. ما لك بالطويل. بعد الأخذ والرد واختلاء الباشا بعنتيبي وآرون آرونسون خرج بقرار مضحك: لكي لا يرجع عن كلامه نهائياً فإن ١٤ منهم فقط سيتم نفيهم إلى حيفا وطبريا ودمشق. ولمدة لا تتجاوز الأسبوعين. تصور. بينما أنت تعرف ماذا حدث للعائلات الشامية والفلسطينية التي غضب عليها الباشا.
نفخ عارف مرة أخرى. لقد كان سعيداً بالالتقاء بهذا الرجل. ولكن ليس لكي يصور له المشكلة على حقيقتها: على كبرها وتعقيدها وصعوبتها وفاجعيتها. وحتى استحالة مواجهتها. قال له: أنا في ألتر ليفي. صار هذا الرجل مشكلتي.
* معك حق. ألتر من أخطر الجواسيس. هذا مع الاستخبارات البريطانية منذ عام ١٩١١. ولكن هناك ألف

ألتر مثل ألتر. هذا غير النساء. قد لا تقدر خطورة الدور الذي تقوم به النساء. إسألني أنا. لم أقبض على جاسوس يهودي إلا وكانت معه امرأة أو أكثر تخدمه وتزوده بالمعلومات.

— ومن أين لها المعلومات؟

* من ضباطنا. يكفي أن تفتح ساقيها لأي ضابط حتى يعري لها لا طيزه فقط، بل والوضع من الجبهة حتى الباب العالي. وهذه المعلومات كلها تصل إلى الإنكليز.

بهذه البساطة تفتح اليهودية ساقيها؟

* ألا تعرف؟ طبعاً بهذه السهولة. ولكن ليس لأنها يهودية. بل لأنها تشتغل للقضية اليهودية. ومن أجل هذه القضية تفتح ساقيها وتفتح كارخانة أو مقمرة أو خمارة أو بنكاً. هناك توصيات واضحة بهذا الشأن. ألم تسمع بفتوى الحاخام الأكبر وتوصيته لهم؟ يقول إن الذين يعملون ويناضلون من أجل هذه الأرض عليهم أن لا يغاروا على بناتهم لأنهن يعملن لغاية وطنية مطلقة.

هذا يعني أن نراقب النساء أيضاً.

* ومن ستراقب يا عزيزي؟ القدس مليئة ببيوت البغاء. المومسات أكثر من المحصنات. يهوديات وغير يهوديات. بعضهن جئن مع الجيش من أقاصي البلاد السورية. تدهورت الأخلاق بسبب الفقر وغياب الرجال. القدس والشام وبيروت كلها صارت كرخانة واحدة. كل

مكان فيه جيش ستتحول إلى كارخانة. وفي النهاية ليس هناك ضابط إلا وله أكثر من عشيقة. بعضهن يذهبن إلى بيوت الضباط يشتغلن فيها وينمن فيها. وبعضهن ينتظرن ضباطنا في المراقص والكارخانات. وفي هذا الجو تسرح اليهوديات اللواتي يخدمن قضيتهن وغير اليهوديات من اللواتي يعملن مع أي جاسوس يدفع.

* وما العمل؟

نتعاون. ضع يدك في يدي.

* أنا جاهز. ولكن ما الفائدة من تعاوننا كلنا إذا كان الخط الأعوج...؟

رضي ضميرنا وربنا.

— ٢ —

واستدعي عارف إلى فندق أوغستا فكتوريا، الذي كان مخصصاً للضباط الألمان، وصار فيه الآن مقر قيادة جمال باشا، ليقدم تقريره للقائد شخصياً حول ظهور ألتر ليفي واختفائه. وعلى الرغم من أنهم قالوا له: توضأ باللبن، تحسباً لعواقب مقابلة كهذه؛ إلا أن الغضب كان قد أعماه فلم يعد يكترث، حتى لو انتهى الأمر إلى إعدامه. بل قال لجواد بيك: ماذا سيفعل جمال باشا؟ يخصيني؟

دخل بهو الفندق. فقال له رئيس الحرس: إنتظر. الباشا

سينزل الآن. ولكن كن حذراً. الباشا يشرب منذ الصباح.
وكان الباشا قد بدأ الشرب مبكراً فعلاً. ولم يسمح لأحد بالدخول عليه إلا آرون آرونسون. وآرون كان يعرف أن لهذا اليوم أهميته. فقد تم ترتيب خروج أحد السجينين اللذين يهتم بهما لمقابلة الباشا. ووجدها اليوم فرصة أن يهيئه لقبول الالتماس. فقد أوعز إلى صحيفة ها أشدوت أن تنشر قصيدة لوسيان سيوتو. ووضع نسخة منها في جيبه ليتحين فرصة قراءتها للباشا قبل اللقاء.
وكان بين الحين والآخر يخرج ليطمئن إلى وصول أحد السجينين، ثم يرجع. ودخل إلى الباشا فصاح هذا به بشيء من الغضب: ما بك تدخل وتخرج؟ دوختني.
قال آرون: أرى الباشا منشرحاً. وأنا أفكر كيف أزيد من سروره وانشراحه. سألت جماعة الفندق إن كانوا يستطيعون جلب مغنية تسليك.
لا. لا. لا أريد مغنيات. نسيت أن هذه دائرة حكومية؟ صحيح أنه فندق. ولكن نزولي فيه يجعله دائرة حكومية.
* ولكن أنت الآمر الناهي يا باشا. من سيعترض إن أدخلنا عليك مغنية أو راقصة.
لا. لا. لا أريد أن يسخر منا هؤلاء الألمان. أليسوا كلهم مجتمعين في الفندق؟
* في الصالون بعض الضباط.

— أما قلت لك؟ لماذا لا تشرب؟

* الحقيقة أنا لا أحب الشرب يا باشا. ولكنني هذه المرة سأشرب لكي لا تظل تشرب وحدك.

وأخذ كأساً وشرب.

قال الباشا: بدل أن تفكر في مغنية أو راقصة لماذا لا تفكر في جلب أختك سارة لتتسلى معنا؟

ابتسم آرون: إذا شاء الباشا أرسل من يبحث عنها. ثم أضاف: تعرف أن سارة تحب الشعر يا باشا؟ هي ذكرتنا بأن نعيد نشر قصيدة لوسيان سيوتو.

ومن هو سيوتو هذا؟

* الصحفي الذي كان في سالونيك. كتب أفضل قصيدة عرفان بالجميل باسم اليهود.

وماذا يقول فيها؟

أخرج آرون الصحيفة من جيبه وبدأ يقرأ له:

حين كان المنبوذون الأبديون، على سفن مثقلة

بحمولتها الحزينة، يتجولون من بحر إلى بحر

طالبين الملجأ بصرخات مريرة

كانت الشعوب التي تراهم وهم يعبرون

تصرخ بهم: ظلوا بعيدين.

* * *

وفي السفن التائهة في العاصفة

يا للمعجزة! لا يسمع المرء إلا نحيباً وبكاء

يرفع إسرائيل المحتضر رأسه
وبهدوء ينتظر انفتاح الأمواج
* * *

ولكن الله، الذي وضعهم في هذا الامتحان الصعب،
قال: «يكفي. ستعيشون. ما جدوى الموت؟
لقد أتاني البرهان الأقوى على إيمانكم.
أنتم الذين تعرفون كيف تموتون، لا. لن تموتوا».
* * *

«إطمئن
يا ابن إسرائيل. فأنا الذي أدعمك.
هناك، في الشرق، توجد بلد مجيدة.
سماؤها رحيمة، وأرضها خصبة.
ومن يحكمها يحمل اسمي في قلبه».
* * *

ها هي! ها هي! أضيء الشرق!
الملاذ هناك! واسطمبول على البعد حمراء متوهجة.
ونحو المدينة المنيعة يتقدم إسرائيل
وأناشيد شكره تتفجر تحت أشعة الشمس
* * *

وحين وصل أولئك الذين كانوا يلعنون بالأمس
إلى اسطمبول تعساء ومعوزين
سمعوا لأول مرة كلمات: «أنتم أيها

المنبوذون، أهلاً بكم».
أشار الباشا بيده طالباً منه التوقف. وكانت آثار السكر قد بدأت تظهر عليه. فسأله آرون: ألم تعجبك القصيدة يا باشا؟
قال الباشا: كأن فيها قصة. ما قصة هذه القصيدة؟
قال آرون: هذه قصيدة امتنان اليهود للدولة العلية التي آوتهم بعد أن طردوا من الأندلس.
ضحك جمال ساخراً: كنت أظنك ذكياً يا آرون. لمن الشكر في هذه القصيدة؟ أليس للسلاطين الذين قمنا نحن الاتحاديين ضدهم؟ بهذا تريد أن تسليني وأنا أسكر؟ لم يبق إلا أن تقرأ علي المدائح للسلطان عبد الحميد.
* معقول يا باشا؟ وهل ننسى نحن ما فعله بنا السلطان عبد الحميد؟ نحن لم نلق الرحمة والمعاملة الحسنة إلا على أيديكم يا باشا. ونحن نعتمد كثيراً على حسن تفهمكم لظروفنا.
الحمد لله. هناك من يقدَر.
* ولو يا باشا. أصلاً كلما واجهت أياً منا مشكلة لا يتوقع أن يجد حلاً لها إلا إذا وصل إليكم. حتى بن زفي وبن غورين.
ما بهما؟
* حبسوهما يا باشا. مع أن بن غورين هو أكثر من

يحمس اليهود على التطوع في الجيش وخدمة الدولة العلية. حتى أنه رفع لك مظلمة. ألم ترها يا باشا؟

وتناول المظلمة الموجودة على طاولة الباشا، وقدمها له. تصفحها الباشا ثم دعكها وقذف بها: أكل خراء. لم أفهم شيئاً. قم بنا. لنر هؤلاء الضباط الألمان المنافيخ. هل عندي أي شغل اليوم؟

* لا أعرف يا باشا. ولكنني سمعتك تطلب عارف إبراهيم.

ولماذا لم يأت هذا الخراء؟

* قد يكون في الصالون تحت. أنا طلبت أن لا يدخلوا إليك أحداً إلا إذا كنت رائق البال.

برافو آرون. أنت تفهم مزاج الباشا أحياناً. إسبقني. سألحق بك.

وخرج آرون بينما دخل جمال إلى المرحاض.

كان عارف قد دخل الصالون وانتحى جانباً. وجلس ينتظر. وحوله انتشر عدد من الضباط الألمان. ورأى في مدخل الفندق شاباً طويلاً بملابس بالية، اعتنى جيداً بمحاولة إظهارها بأقل رداءة ممكنة وهو يعتمر طربوشاً. كان يدخل من باب الفندق وكأنه يدوس على البيض.

ولم يستطع عارف أن يتعرف إلى هذا الشخص إلى الرغم من إحساسه بأنه يعرفه. لكنه انتبه إلى شدة

ارتباكه وتردده. وانتبه أيضاً إلى أن آرون آرونسون الذي خرج الآن إلى الصالون يتابع النظر إلى هذا الشاب باهتمام شديد، ولكن دون أن يقترب منه. وما أن همّ الشاب بالتوجه إلى رئيس الحرس، حتى كان هذا قد أخذ وضعية الاستعداد وأعطى الأمر بالتهيؤ. وبدأ جمال باشا ينزل الدرج متوجهاً نحو القاعة الرئيسية. فهب الضباط واقفين.

أمام هذه المفاجأة وقف عارف بك متهيئاً. وارتعد الشاب الداخل من الباب. وحاول أن يتوارى وراء أحد الأعمدة. ولكن رئيس الحرس كان قد رآه. كما انتبه إليه جمال باشا نفسه.

* من هذا؟

وأسرع رئيس الحرس إلى الشاب فشده إلى حيث أوقفه أمام الباشا.

* من أنت ولاك؟

وتلعثم الشاب، فيما عارف يتطلع إليه ويحاول أن يتذكر أين رأى وجهه: أنا بن زفي يا سيدي.

وتذكر عارف. رآه في السجن المركزي مع بن غورين. ولكن كيف خرج دون علمه؟ ومتى؟

وكرر الشاب متلعثماً: إسحق شيمشيلفتش.. إسحق بن زيفي يا باشا.

* شيء يهوي. وماذا تريد؟

وتلجلج الشاب الذي لم يتصور أنه سيضطر لمخاطبة الباشا وجهاً لوجه بهذه الطريقة المفاجئة.

* ولك. ماذا تريد ولاك؟

وكرر جمال السؤال بالتركية. مما زاد في ارتباك الشاب وتلعثمه: العمى في عيونه. العمى. ولك لا تفهم التركي ولك؟

بتلعثم جعل كلامه نصف مفهوم قال الشاب: يا باشا. أنا. أنا ورفيقي بن غورين. نحن جماعة حزب بو غلي زيون. كنا رفعنا لعظمتكم مذكرة تظلم.

وقاطعه الباشا: إي مسحت طيزي فيها. إسأل آرون.

والتفت الباشا عنه، وهو يضحك معجباً بما تصور أنه نكتة قالها. ثم كأنه تذكر شيئاً فالتفت إليه: إسمع ولاك. حزبكم بو غُلي صهيون. ما له محل في هذه البلاد. فهمان؟ يا اللّه انقلع من وجهي. يا اللّه. يلعن أبوكم عرصات كواويد. قال يريدون دولة يهودية. كأني فاضي لكم أنا يا أولاد القحبة.

وسار عدة خطوات. لكن الشاب اليائس لم يشأ أن تنتهي المقابلة بهذه الطريقة. فشد نفسه قليلاً من قبضة رئيس الحرس، وقال: يا باشا. عظمتكم أمرتم بنفينا. نحن تحت أمرك. ولكن اعملوا معروفاً. انفونا لأي محل ضمن الدولة العلية.

* فشرت. ولا تحلمون فيها.

ثم التفت الباشا إلى رئيس الحرس: ترحلونهم فوراً إلى مصر.

دخيلك يا باشا.

وشده رئيس الحرس وهو يقول له: إحمد ربك يا منحوس أنك نفدت بجلدك.

وتقدم جمال إلى وسط القاعة وجلس مسترخياً.

وقدر الجميع، على الرغم من قسوة المقابلة، أن الباشا منشرح الصدر الآن، لأنه لم يأمر بإعدام اليهودي ممثل حزب بو عْلي زيون. واقترب منه أحد الضباط الألمان: كيف كانت جولتكم يا باشا؟ إن شاء اللّه رضيتم عن الوضع في الجبهة؟

* كله برنجي.

ثم التفت جانباً فرأى عارف: ومن هذا؟

تقدم رئيس الحرس وقال: هذا عارف بيك يا باشا. رئيس الشرطة العدلية يا باشا.

وتطلع إليه جمال باستخفاف: أعرفه. أعرفه. هذه كل مراجلك يا طيزي؟ تمسك الزلمة ويفلت منك؟ شاطر تعمل لي مراجل في بيروت؟

وتقدم عارف، وقد بدأ العرق يتصبب منه لهذه المفاجأة المهينة: أنا ما فلت مني يا باشا. أنا مسكته وسلَمته لعسكركم. وهم فـلّتوه.

* وكيف فلّتوه؟ سأل الباشا، الذي لم ينتبه إلى الكلمة

«عسكركم».

— بعدما أمسكت به بساعة دفع لهم عشرين ليرة ذهبية. فتركوه يهرب.

ضحك الباشا: عشرين ليرة ذهبية؟! العمى. ما هذه الدناءة؟

والتفت إلى رئيس الحرس: تشوف لي الدرك الذين ارتشوا وهرّبوه. هؤلاء يجب أن يُعدموا.

تجرأ عارف وقال: دركي واحد يا باشا.

دركي واحد. يكفي. خلوه يصير عبرة.

أحس عارف كأنه تحول إلى مسؤول عن هذا الدركي المسكين، الذي سيدفع حياته لقاء العشرين ليرة، التي اضطر إلى إرجاعها أصلاً في المخفر.

قال: يا باشا. الموضوع ما هو موضوع مصاري.

نهره الباشا: خلص! قلت كلمتي. تعملون لي إياها قصة نضيع نهارنا فيها؟

والتفت إلى رئيس الحرس: ينعدم الدركي.

ثم التفت إلى عارف: ما اسمه؟

وكذب بآخر جهد غير مجد استطاعه لحماية خليل عبد الجليل: لا أعرف ما اسمه يا سيدي.

فقال الباشا لرئيس حرسه: أنت تشوف اسمه. وترفع لي الأمر بإعدامه لأوقعه.

وأنهى المقابلة بالتوجه أخيراً إلى عارف: وأنت سوف

تريني مرجلتك.كيف ستجلب لي ألتر؟ ها.. تذكرت. أنت رفعت طلباً من أجل بيت السكاكيني. تريد البيت؟ سأسكنك فيه. ولكنه مكافأة إذا قبضت على ألتر. أقول لك؟ إسمع. سأعطيك البيت تمليكاً. ولكنه ثمن ألتر ليفي.

وضحك مما تصوره نكتة أخرى. فضحك معه بعض المرافقين.

ولكن يا باشا.

التفت إليه الباشا مستغرباً أن هذا الرجل لم يفهم بعد أن المقابلة قد انتهت. فاقتحم عارف الجو بعصبيته المعهودة وهو يرتجف غيظاً:

* عرفت من هذا الذي قابلك قبل قليل يا باشا؟

— قال اسمه. ثم التفت إلى الآخرين. بن زفي؟ زيفي؟

* بن زفي يا باشا. والمفروض أنه مسجون. كيف خرج من السجن؟ هكذا هرب ألتر بعد ما قبضت عليه. وهذا الرجل. هل تضمن أنه سيعود من هنا إلى السجن؟

قال الباشا بثقة: لو كان يريد أن يهرب لما جاء إلى هنا. يا الله. خلك بشغلك.

* كيف يخرج من السجن ويعود إليه؟ أهو سجن أم فندق؟

لم يهتم الباشا لهذا الكلام: هذا شغلكم. أنتم حبوسكم غير مضبوطة. أمسك ألتر ليفي وضعه في حبس

مضبوط.
ثم التفت إلى الآخرين وأطلق ضحكة وهو يلف رجلاً على رجل: هل تصدقون أن ألتر ليفي جاسوس؟ تعرفون ألتر. ألا تعرفونه؟ كان دائماً معي. هل من المعقول أنه جاسوس؟
ولم يجرؤ أحد على الإجابة على سؤال صعب كهذا، حتى من قبيل المجاملة. وكان جمال يعرف ذلك فتابع: ألتر. ألتر صاموئيل ليفي. صاموئيل يهودي. وليفي يعني إلياهو.
والتفت إلى آرون مستعرضاً معرفته: وإلياهو هو ألله. أليس كذلك يا آرون؟
وقبل أن يجيب آرون التفت الباشا إلى الآخرين مستعرضاً معلوماته: حتى آرون ماذا تظنون معنى اسمه؟ هارون. نعم هارون أخو النبي موسى.
والتفت مرة أخرى إلى آرون: أليس كذلك؟
وأخذ جمال وضعية جدية، بعد أن ابتسم آرون الذي لم يستطع الجلوس: ولكن تريدون الصراحة يا شباب؟ اليهود يعجبونني. مخلصون. ها هو آرون. يهودي. ما الذي يعيبه؟ أليس شاطراً في الزراعة؟ يا سيدي وافرض أنهم ليسوا مخلصين لنا. أليسوا مخلصين لأبناء ملتهم؟ سألتكم بالله. اسمعوا. حدثهم يا آرون.
ولم يعرف آرون عم يجب أن يحدثهم. ولم ينتظر

جمال، بل تابع يحدثهم بنفسه: إحك لهم عن المعونة الأميركية التي جاءتكم. كم كانت؟ سبعمئة طن من المواد الغذائية. أليس كذلك؟ هذا غير المصاري. آرون كان بين المشرفين على توزيعها. أنا عرفت أنها وزعت فعلاً. ووصلت المعونة كلها للعائلات اليهودية. سألتكم بالله. لو كانت هذه المعونة باستلام واحد من أولاد العرب أو الأتراك وفي هذه الأيام كم كان سيصل منها إلى أصحابها حتى لو كانوا زوار النبي؟ يا عمي أنا اليهود يعجبونني. مخلصون. وكل واحد يعرف شغله. الزراعي زراعي. والجاسوس جاسوس. والشرموطة شرموطة. بصراحة أيضاً والصديق صديق. إحك لهم يا آرون فكرتك عن السمسم. على بال من تخطر فكرة كهذه؟ ماذا يهمني أن آرون يهودي أم غير يهودي؟ يكفيني منه أن يحل لي مشكلة الدسم في أكل الجيش التي تعاني منها بعد الحصار. الحيوانات معظمها فطس. يعني لا يوجد سمن. والزيتون انقطعت أشجاره من أجل سكة الحديد أو أكلها الجراد. يعني لا زيت. والحل؟ السمسم. حتى الألمان المليئون بالعنجهية لم يخطر لهم أنه يمكن استخراج الزيت من السمسم. أو ربما كانوا يعرفون ولا يريدون أن يخدمونا. آرون عرف وقدم فكرة المشروع.

فتدخل آرون: ويمكن استخراجه من بذور القطن وعباد

الشمس يا باشا.

فتطلع الباشا إلى الآخرين معجباً: أرأيتم؟ هذه هي الأفكار التي تخدم الدولة. لذلك لن أصدق إذا قال لي أحد ذات يوم إن آرون جاسوس. وهذا ما يجعلني أستغرب أن يكون ألتر ليفي جاسوساً. جاسوس لمن؟ للإنكليز؟ مستحيل. لماذا؟ لأنه مخلص لي. ولا يمكن أن يخون صداقتي. يعرف أنني سأعدمه إذا خانها. ألا أستطيع أن أعدمك اليوم يا آرون؟

ووجدها آرون فرصة للتذكير بمسألة سفره: لا يا باشا.

فاستغرب الجميع. وضحك جمال نصف ضحكة: لا أستطيع؟ لماذا؟

لأنك أنت أيضاً صادق في كلامك يا باشا. سمحت لي أن أسافر غد أ إلى اسطمبول ثم إلى ألمانيا من أجل معامل السمسم. كيف يمكن أن تعدمني اليوم؟

وقهقه جمال باشا، الذي يعجبه الأذكياء، فقهقه الجميع معه.

* عفارم عليك. لاحظتم الذكاء؟ طيب. قل لي الآن: هل تعتقد أن ألتر ليفي جاسوس؟

لا أظن يا باشا. الجاسوس إنسان خسيس. وألتر لم يكن كذلك. وإلا لما صار صديقك. والجاسوس دنيء يشتغل من أجل المصاري. وألتر ليس بحاجة. بالعكس. الجميع يعرفون أنه كان يصرف كثيراً. وأن مصروفه من شغله.

حتى أنه قدم تبرعات. هل يقدم الجواسيس تبرعات؟
وأضاف باسماً في مجاملة عرف أنها ترضي الباشا: طوال عمره كان يصرف كثيراً، بينما يجب أن يكون بخيلاً لأنه يهودي.
* عفارم عليك. أنا أظن أن جماعتنا يبالغون. ربما كان يشتغل مع الألمان.
التفت إلى الألمان مجاملاً: يعني معنا. لكن ربما كان يحب الشغل مع الأوروبيين لأنه أوروبي. أوروبي أم أميركاني؟ والله نسيت. ولكن حتى لو كان هكذا أو هكذا. لماذا يشتغل مع الألمان؟ يتعالى على الأتراك؟ قل له يشرف ويرينا فصاحته: من منا يعرف الأدب الأوروبي أكثر؟ أنا أم هو؟ أنا لا أنكر أنه مثقف. ولكنه لا يستطيع أن يتخرين علينا. معقول أن يكون جاسوساً؟
والتفت إلى عارف: معقول يا عارف؟ كيف يكون جاسوساً وأنتم حولي؟ ماذا تفعلون؟ لماذا لا تراقبون اليهود؟ تقولون لي: اليهود كلهم جواسيس. قل لي ماذا فعلتم مع اليهود حتى الآن؟
وأحس عارف أن جمال قد توقف عن استطراداته، وأنه ينتظر الجواب فعلاً. فقال: والله يا باشا نحن لا نعرف كيف نشتغل. اليهود يحميهم العالم كله.
وسرق نظره نحو آرون: وبعضهم محمي لأنه قريب منكم مثلما كان ألتر. الجميع يقولون إنهم يكرهون

اليهود. ولكن الجميع يخدمون اليهود ويبيعونهم أراضيهم، أو يشترون الأراضي باسمهم. أوامرك يا باشا لا تخرج من هذا الباب إلا ويكونون قد اشتروها. الناس في حقيقتهم يكرهوننا. ولذلك فهم مستعدون لخدمة كل من يكرهنا حتى اليهود. على مبدأ عدو عدوي صديقي. وخاصة إذا كان عدو عدوي معه مصاري. ويدفع كما فعل ألتر ليفي مع الشرطي المسكين.

* كل خراء. جئت تتفلسف؟ أقطع لسانك ولاك. تسمع؟ أنت رئيس شرطة. وواجبك أن تنفذ أوامري. فهمت؟ أريد ألتر منك أنت بالذات.

— يا باشا. أنا قبضت عليه.

* وهرب. ماذا نفعل لك؟ نقعد نواطير عليه؟ أنت واجبك أن تقبض عليه. وهو مصلحته أن يهرب. أرنا عزمك وشطارتك. حاول أن تكون أشطر منه.

ولم ير عارف فائدة من استمرار الحوار فقال: أمرك يا باشا.

وخرج.

ولكن جمال ظل متحمساً فضحك بعصبية: قسماً بالله جاء على بالي أن أعدمه.

وتنحنح آرون: تسمح لي بالانصراف يا باشا؟

قهقه الباشا: خاف آرون. حكينا بسيرة الإعدام فخاف. رح. رح يا آرون ولا تخف. لن أعدمك قبل أن ترجع من

إرساليتك.

تحت أمرك يا باشا.

وكأن الباشا تذكر: ولكن أين أختك سارة؟ ألم تقل إنك أرسلت في طلبها؟

نعم يا باشا. سيجدونها. هي دائماً بين الأيادي يا باشا.

وخرج آرون أيضاً. وأراد الباشا أن يكمل استرساله فضحك: ماذا قال؟ بين الأيادي. أخته بين الأيادي. يا ليتها بين يدي. تعرفونها؟

ولم يرد أحد. قال: لماذا لا تجيبون؟ خائفون من أخيها؟ خرج. خذوا راحتكم.

وأضاف: خاف فعلاً من الإعدام. أليس كذلك؟ ألم يخف؟

فقام ضابط ألماني شاب وقال: لا يا باشا. لم يخف. لأنه يعرف أنك لا تستطيع أن تعدمه.

* أنا لا أستطيع؟ لماذا؟ ما الذي يمنعني؟

جسمه ثقيل يا باشا. إذا أعدمت واحداً مثله ينقطع الحبل به ويسقط على الأرض.

بثقة عالية قاطعه جمال: وماذا يعني إذا سقط؟ أعلقه مرة أخرى. ألم أفعل ذلك بالزهراوي؟ فرد الضابط: ولكن آرون إذا سقط يصل صوت سقوطه إلى أمريكا. أأنت قدها يا باشا؟

ونهض جمال متوتراً: أنا قدها وقد الذي خلقك وخلقها.

تتحداني ولاك؟ ولاك أنت وأمبراطورك على جزمتي. فهمت؟

لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع أن يعدم الضابط الألماني أيضاً. فخرج بالعصبية ذاتها.

— ٣ —

وكان عارف قد وقف بالباب الخارجي مستغرباً ذلك الصراخ. ثم لمح آرون يتجه للخروج فلم يحب أن يترك للمصادفة أن تفتح بينهما حديثاً. أدار ظهره ليمشي.

فقال له آرون: إلى هذه الدرجة تكره اليهود يا بيك؟

قال عارف: أنا لا أكره إلا أعداء الدولة.

فقال آرون: نحن أبناء عم. وأنتم تقولون أنا وابن عمي على الغريب.

فرد عليه عارف: لكن قبلها نقول أنا وأخي على ابن عمي.

ومشى لكي لا يكمل الحوار. لكنه وجد نفسه مضطراً إلى الالتفات ليقول: وصاحبك ألتر لن تكون نهايته إلا على يدي.

— ٤ —

كان كل منهما محتقناً بغضبه الخاص به.

آرون خبط الباب بقدمه ودخل معلناً فشل محاولة بن زفي. بينما ظل ألتر جالساً بهدوء. وبعد أن استطاع آرون أن يجلس قال له ألتر: تعرف أنني كنت يوم أمس

معتقلاً؟

قال آرون: عرفت. عارف بيك الذي اعتقلك طلبه جمال باشا ليسأله عنك.

عارف هذا داهية. لا يخيفني واحد في الدولة العثمانية أكثر منه.

* وكيف قبض عليك؟

بالصدفة. بعد أن أوصلت الرشوة للوسيط من أجل إخراج بن زفي من السجن، تمشيت نحو المستشفى. فالتقيت به. لكن محسوبك يدبرها. المهم. ماذا سنفعل الآن؟ أنا لم أعد أستطيع التحرك بسهولة. الجميع يعرفونني. واسمي صار في كل مكان.

* سنفكر في الأمر. ولكن معك حق أن تحذر من هذا الرجل الذي اسمه عارف بيك. شجاع.

كلنا شجعان. أم أنك ترانا جبناء؟

* هذا شجاع حتى أمام جمال باشا.

وماذا يعني؟

* يعني كما يقول العرب: بايعها. يعتبر المسألة معركته الشخصية. قد يطاردك حتى لو لم يطلب منه رؤساؤه ذلك.

ندبر حالنا.

— ٥ —

وعارف بيك كان يغلي غضباً لسبب آخر.

اندفع كالمجنون إلى السجن المركزي وركض نحو الغرفة الخاصة فوجد السجينين جالسين. تطلع إليهما بحقد حتى رفعا نظريهما إليه. وفوجئ به بن زفي فاضطر إلى الابتسام. ولكن عارف لم يعرف كيف يبتسم. بجفاء سأل الرجل: ألا تقول لي لماذا ترجع بعد أن صرت خارج السجن؟

فابتسم بن زفي له: لأنني وعدت أن أرجع.

— قل غير أكل الخراء هذا.

* هل تستغرب أن أكون عند كلمتي؟

— خفت أن نعدم زميلك إذا لم ترجع؟

* وخفت أن تعدموا بعض الشرطة الأبرياء.

ذكّره بأنه ما كان يمكن أن يخرج ويدخل لولا تواطؤ الشرطة معه، فعاد إلى مكتبه. وجه صفعة مفاجئة إلى أول شرطي صادفه: كيف خرج هذا من هنا؟

وفوجئ الدركي الذي لا يعرف شيئاً عن الموضوع: يا بيك. أنا لا أعرف إلا أنه رجع الآن.

دخل عارف إلى غرفة رئيس الحرس: كيف خرج بن زفي من السجن وعاد إليه؟ هذا سجن أم كرخانة؟ حتى الكارخانة لا تخرج منها الشرموطة دون أن تعرف بها البترونة. هل تعرف كيف خرج؟

* أنا لا أعرف أنه خرج يا بيك. أليس في الحبس؟

خرج ورجع كأنه نازل في أوتيل. قابل جمال باشا.

وأحب أن يكذب ليضغط أكثر: والباشا يريد أن يعرف كيف خرج.

همهم الرقيب باهتمام: والله علمي علمك يا بيك. سنسأل.

بالتحقيق والضغط والصفع والفلق تبين أن الحارس المناوب قد أخذ خمس ليرات ذهبية من بائع السوس المجاور مقابل السماح للسجين بأن يخرج. مع تعهد بعودته.

أتعرفون أن الباشا سيعدم زميلكم خليل عبد الجليل لأنه أخذ مالاً لقاء تهريب ألتر ليفي؟

* ولكن بن زفي رجع إلى السجن. ولم يهرب يا بيك.

ولدى سؤال بائع السوس قال إنه قبض المبلغ أمانة لهذا الدركي من ألتر ليفي.

* ألتر من؟

ألتر ليفي يا بيك.

* متأكد؟

أعرفه يا بيك. ولو. من لا يعرف ألتر أفندي؟ ما شاء الله لو تراه الآن بشاربيه الجديدين.

فكاد عارف أن يفقد توازنه.

— ٦ —

في المساء جلسا إلى طاولة كان الداعي إليها أتلخان. ولم يكن ذلك لكرم فيه فحسب؛ بل لأنه كان سعيداً بأن

يجد في عارف من يشاركه همومه في اليهود.

قال له أتلخان هامساً: تعرف لماذا انقلب الاتحاديون على عبد الحميد؟

قال عارف: من أجل الإصلاح؟

ابتسم أتلخان ابتسامة مرة وقال: بل بسبب اليهود. اليهود حاولوا شراء فلسطين من السلطان عبد الحميد. عرضوا المال على السلطان شخصياً وتعهدوا له بدفع ديون الأمبراطورية العثمانية كلها. هرتسل قابله ثلاث مرات دون فائدة. ثم صار يضغط عليه عن طريق أصدقائه وعملائه وعلى رأسهم نفلنسكي. قال السلطان لنفلنسكي هذا: إذا كان هرتسل صديقك فانصحه بأن لا يسير في هذا الموضوع أبداً. أنا لا أستطيع أن أبيع ولو شبراً واحداً من أراضي الأمبراطوربة. فهي ليست ملكي. بل هي ملك لشعبي. دع اليهود يحتفظوا بملايينهم. فإذا جرى تقسيم الأمبراطوربة من بعدي فقد يأخذ اليهود فلسطين دون مقابل. لكن ما سيجري تقسيمه آنذاك إنما هو جثتنا. ولكننا لن تسمح بتشريح جسدنا الآن ونحن أحياء لأي غرض كان. نعم يا صاحبي. هكذا كان موقف عبد الحميد. خذ واقرأ.

وأخرج له من جيبه ورقة وقدمها له: هذه رسالة من السلطان عبد الحميد من منفاه في سلانيك إلى صديقه الشيخ محمد أبو الشامات في الشام. إقرأها.

قال عارف غاضباً: لا أريد أن أقرأ شيئاً. ألله يخليك جواد بيك. أنا أرقص دون دف.

* على مهلك. على مهلك. لا تنفعل. أنا سأقرأ لك. إسمع: الحمد للّه رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ. إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني، بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم «جون تورك» وتهديدهم، اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة الإسلامية. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة، فلسطين. ورغم إصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيراً وعدوا بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً. فرفضت التكليف بصورة قطعية أيضاً. وأجبتهم بالجواب القطعي الآتي: إنكم لو دفعتم ماء الدنيا ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي.

صاح عارف: يكفي باللّه عليك.

طوى أتلخان الورقة وأضاف: من أجل ذلك شنت عليه

تلك الحملة على مستوى العالم كله. فصار يبدو كالمهرج. أنا أعرف عبد الحميد. كان ظالماً مثلما هم الحكام في كل مكان. مثل صاحبنا جمال باشا على الأقل. ومثل الاتحاديين جماعتنا كلهم. ولكنه لم يكن أبله ولا مهرجاً كما يصورونه.

— وأنا الذي كنت أظن أن الحملة على عبد الحميد سببها تلك التهمة بحذف المسائل الشرعية المهمة من كتب التشريع. أليس من أجلها أصدر حمدي أفندي تلك الفتوى بخلع عبد الحميد؟

* تشريع؟ إي مرحبا تشريع. من كان يشن الحملة على عبد الحميد؟ الأوروبيون. أليس كذلك؟ هل هؤلاء مهتمون كثيراً بالشريعة الإسلامية وبدقة تطبيقها في بلادنا؟ يا إبن الحلال ألم يكن الاتحاديون ينشطون سراً في سالونيك ضد عبد الحميد؟ من كان يتستر عليهم ويساعدهم هناك؟ اليهود. ومن الذي كان رأس الماسونية التحررية ومكمن قوتها؟ اليهود.

— الماسونيون يهود أيضاً؟

* على الأقل هم المتزعمون للحركة الماسونية.

— ولكن أفكارها معقولة.

* إي مرحبا أفكار. ألم تكن أفكار جماعتنا الاتحاديين معقولة؟ ماذا ظل منها؟ أليست أفكار الثورة الفرنسية التي تصدرها إلينا فرنسا معقولة؟ ولكن هل فرنسا

معنية فعلاً بأن توصل إلينا هذه الأفكار؟ وهل الفرنسيون في الجزائر لنشر الأفكار التحررية؟
والعمل؟ سأل عارف وهو يكاد يختنق.
* العمل عمل ربنا. أجابه أتلخان.
— ألله يخليك يا أتلخان لا تخربطني أكثر مما أنا مخربط. أنا أريد أن أشتغل. فأين أشتغل؟
قال له: إشتغل ضدهم في ميادينهم.
وانفجر عارف: وأين هي ميادينهم إذا كانوا ممتدين من عبد الحميد إلى جمال باشا، ومن وزارة المالية إلى تعريص الضباط؟ ومن تعريص الباشا إلى مدارس الأولاد؟
ثم باح له أتلخان بالسبب الحقيقي للدعوة إلى هذا العشاء. اليهود يركزون نشاطاتهم الآن في القدس وعلى الشواطئ الجنوبية. يعني أن الضغط يخف عن شواطئ لبنان. كما أن جماعتنا في لبنان موفقون أكثر منكم هنا. إنهم يقبضون على شبكات تجسس متعددة. حتى الجواسيس والمطلوبون صاروا يهربون إلى هنا. آخرهم قاتل. أقصد أنه جاسوس تحول إلى قاتل. وهو الآن مطلوب لأكثر من سبب. اسمه عبد الله. لكن له اسم آخر هو إسرائيل. هذا صار هنا. ويجب أن نعثر عليه. أنا هنا من أجله.
سمعت به.

* القبض عليه مهم جداً. قد تكون عنده مفاتيح للوصول إلى مخابئ الجواسيس كلهم. ولا تستغرب أن يكون بينها مخبأ صاحبك ألتر ليفي. وجماعتنا في بيروت يسعون وراءه أيضاً. هل تستطيع أن تفعل شيئاً؟ فكر في الأمر.

لا أعرف. ولكن لعل هذا هو السبب في أن اليهود صاروا يحتكون بي.

* بك أنت؟ من منهم؟

سارة آرونسون.

الفصل الخامس عشر

— ١ —

شهقت سارة وهي تسمع من ألتر تفاصيل مغامرته في السجن والفرار منه. حتى أن القصة التي كانت قد هيأتها عن لقائها بعارف بدت لها عديمة القيمة وعديمة الإثارة. سألته: وأين اختبأت طوال هذه المدة؟

أجاب: هل أفهم أنك قلقت علي؟

الخبيث. لا يريد أن يفوت فرصة دون الاقتراب من الموضوع ذاته.

قالت: لا. ولكنني تساءلت حين طال غيابك. ليس من عادتك أن تختفي عني طويلاً.

قال: هل أطمح إلى توهم أنك اشتقت إلي؟

قالت: لست في حاجة إلى من تشتاق إليك. نساؤك كثيرات.

لم يفهم تلميحتها في البداية: عمن تتحدثين؟

— حبيبتك في بنسيون أستر.

* آ.... ليديا.

نعاام ليديا.

لم تستطع أن تنسى صورة ليديا وهي تخرج شبه عارية من الغرفة، وتتحدث عن ألتر الذي قالت إنه انحشر وراءها في الفراش تلك الليلة. أكثر من مرة ترددت

الصورة إلى مخيلتها وكانت تطردها قائلة لنفسها: ما علاقتي؟

* هل أطمح في توهم أنك تغارين علي؟

أنا؟ ولمَ أغار؟ لكن لم أتصور أن تكون لك علاقات مع نساء من هذا النوع.

قال لها: لا تغلطي. النساء من هذا النوع قد يكن مفيدات أكثر من ربات البيوت المحتشمات. بماذا تفيدنا العفة؟ إنها تعوق المرأة عن خدمة قضيتها، أو إرواء غليل عاشق يعبدها.

* وليديا من النوع الآخر؟

ليديا تشتغل أكثر من الرجال. ومع ذلك لديها الوقت لتحن على مطارَد لا يجد مكاناً يؤويه.

* أريد أن أراها.

استغرب: ماذا تريدين من امرأة مثلها؟

قالت: أريد أن أفهمها. طوال عمري أسمع عن هذا النوع من النساء وأنا لا أجرؤ على الاقتراب منهن. إني مليئة بالفضول لسماعها ومعرفة كيفية رؤيتها لعملها. كيف تتحدث امرأة كهذه عن نفسها؟ أريد أن أقضي معها نهاراً كاملاً إذا كان هذا ممكناً.

يوم كامل مع الشغل؟

صرخت به: ألتر.

أردت أن أعرف فقط. بالمناسبة، آرون عرف أنني سآتي

إليك. وهو قد اضطر إلى الذهاب إلى المختبر. لديه أغراض سيهيئها قبل السفر إلى ألمانيا. أوصاني أن أبلغك أن الباشا سأل عنك.

* أعرف. أقصد أتوقع أن يسأل عني.

ابتسم ألتر: تتوقعين؟

ألا تسألون كلكم عن المرأة التي لم تنالوها بعد، ولم تيأسوا من إمكانية نيلها؟

* أفهم أنك لم تنامي مع الباشا بعد؟

تجاهلت السؤال: سأتصل بالباشا وأقول له أين أقيم. تعرف. هذا جمال باشا. وهو الذي يقرر متى سنراه. أتريد أن تخبره أنت عن مكان وجودي؟

ابتسم من جديد: أنا أتكفل بإبلاغ ليديا عن رغبتك في رؤيتها. وابحثي أنت عن غيري يوصل رسالتك للباشا. تخاف؟

* بل أغار.

— ٢ —

سافر آرون وليوفا إلى اسطمبول. وبعد أيام رجع ليوفا وحده ليبلغهم بأن السلطات هناك قد سمحت لآرون وحده بالسفر. وهو الآن في طريقه إلى ألمانيا. وسيذهب بعدها إلى مصر. «والحقيقة أن آرون لم يصرَ كثيراً على ذهابي معه. يريدني أن أظل هنا من أجل مراقبة الرسائل».

وأكد لهم تعليمات آرون بأن يكونوا بانتظار الإشارة بعد شهر من هذا التاريخ.

وكانت البلاد يومها تغلي. فقد تناقل الناس إشاعة مفادها أن الأمير فيصل قد خدع جمال باشا وتمكن من الخروج من البلاد ومعه أموال وفرسان.

وكان واضحاً أن الباشا متوتر. فالأخبار، إن صحت، لا تعني فقط أن الباشا قد خُدع. بل تعني أن الثورة في الحجاز ستندلع. لقد كان فيصل رهينة تمنع قيام الثورة، على الرغم من عناد الشريف حسين ورده على أنور وجمال بالقول إنه لم يرسل ابنه إلى الشام لكي يستعيده.

وعلى الرغم من استماع سارة في مجالس الباشا وكبار الضباط لتفاصيل الخديعة التي قام بها فيصل، إلا أن هذا كله لم يشتت اهتمامها عما كان يشغلها. وحتى التحقيقات مع بيت البكري، والتي قدمت للباشا وأطلعها عليها لم تشغلها كثيراً. فهي لم تستطع فعلاً أن تسيطر على فضولها للقاء ليديا. هروب فيصل لم يعد سراً تسعى إلى استجلائه. السر هو عمل ليديا. وهي مهتمة بهذا الأمر إلى أبعد الحدود. ولا تعرف تماماً هل ينبع هذا الفضول من غيرة غير مرئية على ألتر أم من فضول لمعرفة عالم المرأة التي يسمونها العاهرة. كيف تقرر امرأة أن تنام مع رجل ليس لأنها تحبه، ولا لأنها

تشتهيه، ولا حتى لأنها تشتهي الجنس؟ كيف تتيح جسدها بهذه الحيادية؟ أسئلة تمضها وهي تفكر بإمكانية النوم مع جمال باشا في الوقت الذي يؤرق جسدها التفكير في أفشالوم.

أمور لا تستطيع أن توضحها لها إلا عاهرة مجربة. وهذه المرأة، ليديا، عاهرة. هذا واضح من استرخائها مع جسدها العاري، ومن طريقة كلامها عن ألتر واندساسه في الفراش معها.

ذهبت إليها تريد أن تفهم.

واستقبلتها ليديا بصفتها صديقة مشتركة مع ألتر وربما عشيقة مشتركة: أنا لا أغار. الغيرة تنبع من الحب. وأنا لا أحب أحداً. مثلما أمنح نفسي لأكثر من شخص، أفهم أن الآخر يمنح نفسه لأكثر من امرأة. ألتر بالنسبة لي رب عمل. وقد فهمت منه أنني أستطيع أن أثق بك وأحدثك بصراحة. أنا أشتغل معه وأقدم معلوماتي له. أما المسألة الأخرى فهي تحصيل حاصل. نحن نشتغل معاً. وأحياناً ننام معاً. طالما أنني أنام مع هؤلاء الخنازير، لماذا لا أنام مع ألتر؟ على الأقل ألتر استطاع أن يرفع من قيمة عملي فرفع من قيمتي. لم أعد تلك التي تمنح جسدها لقاء المال. بل أنا أوظف جسدي من أجل قضية. هو الذي حولني من عاهرة إلى مناضلة.

* ولكن كيف وصلت إلى القناعة بأن تمنحي جسدك لمن

لا تحبين؟ أقول لك بصراحة؟ أنا تركت زوجي لأننا لم ننسجم. وأنا أحب شخصاً آخر، غير ألتر، ولم يتحقق اللقاء الذي نتمناه. وخلال تنقلي وعملي أواجه إغراءات عديدة من رجال يتوددون ويغازلون ويقدمون الهدايا ويبوحون بالأسرار. لكنني لم أستطع أن أقنع نفسي بأن أنام مع واحد منهم حتى الآن.

يجب أن تقنعي نفسك. بعد فترة يمل الرجل، أو تستيقظ كبرياؤه. إذا لم تمكنيه منك، يعتبرك تسخرين منه. أو ييأس منك فلا تعودين قادرة على كسب ثقته ومعلوماته.

* إحكي لي. كيف أقنعت نفسك؟

كانت الخطوة الأولى هي الأكثر صعوبة. ولكن في البداية كان لا بد أن تتغير نظرتي إلى الجنس ذاته. كنت ذات يوم أشتغل في مزرعة. كنت أشتغل من الصباح إلى المساء. وبصعوبة أؤمّن ما أقتات به. الجميع يتحدثون عن أرض ميعاد. قالوا لنا سنأخذ أرضاً دون شعب. هاجرت من روسيا خائفة وآملة. وهنا لم أجد أرضاً موعودة جاهزة. بل كانت أرضاً فيها أناس غيرنا، أرضاً يجب أن نشتغل فيها وعليها. نحيي الأرض. ونعرف كيف سنتعامل مع السكان الذين سنحل محلهم، ومع السلطات التي يجب أن نقوضها. أنا لم يكن معي إلا جسدي. كلنا نؤجر أجسادنا. الرجال يؤجرون

العضلات للشغل. ونحن نؤجر أجسادنا للمتعة. وشكلي، كما ترين، لا بأس به.
باختصار كنت أرى نفسي جميلة. والرجال أكدوا لي ذلك بعيونهم التي تلتهمني. لكنني كنت أعيش في حياد خبيث مراقب. كنت أبيح من جسدي ما يساعدني على كسب فرصة عمل أو قضاء ليلة ممتعة أنا التي أحتاج إليها. أما احتراف الأمر فهو مثل المشروع الكبير برأس المال كله، أو المقامرة بالرصيد كله. ولم أكن أريد أن ألقي برأس المال هذا إلا في صفقة العمر. إن أضعته أضعت كل شيء. وتحولت إلى امرأة مثل هؤلاء النساء. تعرفين ما أعني بالنساء؟ سأحكي لك.
كنت في (السجيرة). وكان الشبان كثيرين والبنات قليلات. أمام الواحدة منا فرصتها الكاملة لكي تتدلل وتختار من أجل الزواج أو العشق أو العبث أو المرافقة في الرقص أو السهرة. لكنهم كلهم فقراء مهاجرون يبحثون عن فرصتهم. وأدركت أن من الأفضل الانتظار على أمل أن أكوّن نفسي، وألتقي بشاب كوّن نفسه.
في ذلك الوقت تزوجتْ واحدة منا بأحد العمال. بالنسبة لنا كانت فرصة للسهر والرقص حتى الصباح. وبعدها انتقلتْ للسكن معه. وخلال يومين عادت الحياة إلى رتابتها.
ذات يوم كنت أسقي الخضروات المجاورة لبيوت

المزرعة. وكانت العروس قد جلست في ظل شجرة التوت تخض اللبن. ورأيت العريس يجلب الدواب من البيدر ليسقيها. وصل إلى الساقية وترك الدواب تشرب، بينما راح يغسل وجهه ويشرب.

لا أدري كيف انتبهت يومها. إتجه نحو الغرفة التي يسكنانها وناداها. تركت الخضة ودخلت وراءه. بعد دقائق خرج وقاد الدواب، بينما رجعت هي إلى الخضة.

سألتها وأنا أحول الماء: لماذا تركت الخضة؟ قالت: ألم تري؟ ناداني. وسألتها: وماذا كان يريد؟ بأقل من نصف ابتسامة قالت: قضى شغلته. ثم استأنفت الخض.

يومها قلت لنفسي: أهذه هي المسألة؟

لم أكن يومها بريئة تماماً. كانت لي، كما قلت لك، علاقات عابرة بين حين وآخر. وكانت الأمور ممتعة. لكن رؤية تلك العروس في ذلك الموقف المحايد أضحكني. لقد لبت طلبه وتركته يفعل فعلته لأنها تحبه أو لأنه صار زوجها. ثم خرجت إلى شغلها وكأنها لم تفعل شيئاً. لو تمنعت عليه ماذا كان سيفعل؟ يضربها ويجبرها لأنها زوجته؟ يرجوها لأنها حبيبته؟ يمهلها لأنه يريد المسألة بالتفاهم؟ يغتصبها لو فاجأها في البرية؟ ولكن هي لو شاءت أن تتملعن ما الذي كان يمكن أن يحدث؟ يومها عرفت كم المرأة في موقع قوي ومؤثر. الرجال يلاحقون النساء في كل مكان، ويبذلون الكثير

من أعصابهم وأموالهم ووقتهم. المرأة، ببساطة، لا تحتاج إلا لأن ترضى. أن تهز برأسها، أو تبتسم موافقة. أن تشير إلى أي رجل: تعال. المسألة بسيطة إذاً.
وصرت أتحدث بصراحة مع النساء في هذا الموضوع. رأيت امرأتين على طرفي نقيض: المرأة الخائنة والشرموطة.
* كيف تميزين بينهما؟
من الناحية الأخلاقية لا يعنيني التمييز. أنا أنظر إلى الموضوع من ناحية أخرى. كل منهما تمارس الجنس مع رجل دون موافقة الشرع. والشرع واسع يشتمل على الدين والتقاليد والأسرة. ولذلك فالعاشقة دائماً خائنة. فمجرد أن تعشق يعني أنها منحت نفسها حق الاختيار، ولم تنتظر أن يختاروا لها. أعني كل عاشقة خائنة لتقاليد حولها. بعضها من العائلة، كأن تعشق شاباً لا توافق عليه العائلة. وبعضها من المجتمع كله كأن تعشق اليهودية مسلماً أو الغنية فقيراً. وبعضها من الأطراف كلها كأن تعشق المرأة واحداً غير زوجها. وبعضها، وهو الأفظع، أن تنام مع الرجال طمعاً في المال.
* هذه هي المومس.
سميها باسمها. شرموطة. هذا الصنف سأحكي لك عنه فيما بعد. الصنف الأول من النساء الذي تسميه الصنف الخائن هو صنف ضعيف. يحس أنه يسرق ما ليس من

حقه. صنف مكسور الجناح محتقر معرض للقتل والإهانة والذل. لا تستطيعين أن تتصوري أن الصنف الثاني الذي سميته مومسات، وأسميه شراميط، هو الأفضل والأقوى.

فتحت سارة عينيها على اتساعهما دون كلام.

خليكي معي. امرأة تفعل ما تشاء. وعلى عينك يا تاجر. ماذا تعني الشرموطة؟ امرأة تستخدم جسدها بطريقة لا ترضونها؟ تخفي ما تفعل خوفاً أو خجلاً. وهم يتهامسون بالأقاويل عنها. طيب. إذا قالت علناً: أنا أفعل ذلك. هذا جسدي وأنا حرة فيه. حرة أن أمنحه لرجل لأنه يعجبني، أو لأنه يعطيني مالاً، أو يوصلني إلى طموح أريده: المنصب، النجومية، الظهور الاجتماعي. هذا النوع من الشراميط ينسحب على نساء أخريات. كل امرأة تحب ولا تخجل من حبها، تعشق ولا تخجل من عشقها. أنا أريد أن أنام مع هذا الرجل. وهأنذا أفعلها وأنتم تعلمون. تماماً مثلما تفعلها الزوجات المحصنات مع أزواج كريهين أو عشاق سمجين لأنهم يصرفون عليهن وعلى بيوتهن. على الأقل أنا أفعلها مع شخص يعجبني أو يفيدني. تعرفين أن آخر سكين يحملها الآخرون ضدك هي أن يهددوك باتهامك بالشرمطة. قولي لهم سلفاً: أنا شرموطة حسب تسمياتكم. طيب. ثم ماذا؟ تكسرين سكاكينهم. تصيرين

أقوى منهم. وحتى أقوى من العاشقة التي تخاف انكشاف أمرها. أنت إذا اعترفت دون خوف بماذا سيعيّرونك؟ وكيف سيشتمونك؟ قبل أيام تحرشت بي إحدى الجارات. تريد أن تعيّرني. لم أترك لها مجالاً. صرخت بها: ما الذي أفعله غير ما تفعله ابنتك التي تزوجت قبل شهر؟ انصعقت. قالت لي: يا شرموطة بنتي تزوجت. قلت لها: من تزوجت؟ ذلك الذي عشقته في ضوء القمر؟ أم تزوجت رجلاً اشتراها منكم؟ رجلاً اقتنعتم بماله ومركزه فسمحتم لها أن تنام معه باسم الزواج. وأنا أفعل ذلك مع كل رجل أقتنع بماله ومركزه.

— ٣ —

دخلت سارة إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل. وبعد أن أقفلت باب غرفتها مدت يدها لتفتح فستانها استعداداً لخلعه. ولكن صوت ألتر جاءها من طرف الغرفة المعتم: لا تخلعي.

أجفلت. وكادت أن تصرخ لولا أنها عرفته. أسرعت لتفتح قفل الباب متوترة: أخرج من هنا قبل أن أطلب لك الشرطة.

قال لها وهو يكمل خروجه من تحت السرير: ولمَ الشرطة؟ معارفك يستطيعون أن يجلبوا لك جيشاً. إهدئي. لو كنت أريد أن أغدر بك لانتظرت على الأقل أن تخلعي ملابسك.

ألا تقول لي أي نوع من البشر أنت؟

* أنا النوع الذي يحبك.

قلت لك أخرج قبل...

* سأخرج. سأخرج. ولكن هل تظنين أنني تسللت واختبأت تحت السرير لكي أقول إنني أحبك فقط؟ هذه كنت أستطيع أن أفعلها بالهاتف.

وجلس: خفت أن يأتي معك أحد من أصحابك. كنت سأضطر أن أختبئ تحت السرير. الحمد لله أنك لم تجلبي أحداً؛ وإلا لقضيت الليلة بائساً تحت السرير، وأنتما فوقه.

صرخت: ألتر!! هل أنت هنا لتحاسبني؟

— لا يا عزيزتي. أنا لا أحاسبك. لست زوجك ولا ربك لكي أحاسبك. جئت لأستفيد منك. كنت أظن أنني الأكثر براعة. وإذا بي،كما يقول الفلاحون العرب، لا أفتل لك خيطاناً.

* المهم. ما الذي تريده؟

كيف هرب الأمير فيصل؟

ابتسمت مسترخية قليلاً: ها هي أخيراً تعرف أكثر منه في مسألة محددة.

* طلع أذكى منك ومني. تجاهل رسالتك، وتصرف بنفسه. لم أنت مهتم بهربه؟

من هرّبه؟

* الباشا.

— أي باشا؟

* كم باشا عندنا؟ جمال باشا.

* أرجوك خلي كلامك مفهوماً. جمال باشا يساعده على الهرب من جمال باشا؟

* جاء الأمير إلى القدس، وأقنع الباشا أن جيش الحجاز جاهز للتحرك. فجن جمال فرحاً لأنه لم يكن واثقاً من أن الحجازيين سوف يلبّونه فعلاً. وخاصة بعد الإعدامات.

ولكن الأمير سبق أن قال ذلك للباشا يوم الإعدامات.

* صحيح. ولكن الباشا لم يكن واثقاً تماماً. وقد احتاج إلى هذا التأكيد الجديد من فيصل.

المهم كيف خرج فيصل؟

* جاء واستشار الباشا في مسألة بسيطة: من أجل هيبة الجيش أليس من الأفضل أن يكون أحد أولاد الشريف في قيادته؟ ذلك أن الشريف نفسه كبير في السن وستتعبه رحلة كهذه. فوافق الباشا طبعاً. واقترح فوراً أن يذهب فيصل نفسه ويقود الجيش.

بهذه البساطة؟

* لا. جلب معه برقية من أبيه موجهة إلى الباشا. تريد نسخة منها؟

معك؟

* صوروها لي. إسمع. وأخرجت ورقة من محفظتها: برقية من الشريف حسين إلى أحمد جمال باشا: إننا حتى عند تلقي إشعاراتكم الأخيرة من تشكيل قوة المجاهدين أكدنا لكم ببرقية مباشرتنا إحضار لوازمهم. ولكن الخمسة آلاف التي تفضلتم بها كانت ورقاً. وقد هبطت قيمتها الاعتبارية إلى مقدار الربع. كيف تُوزّع على هؤلاء المجاهدين الذين بلغ عددهم ألفاً وخمسمئة شخص؟ وما الذي يُبقي كل منهم من هذا المقدار لعائلته؟ وما المقدار الذي يصحبه معه؟

إن رأفتكم السامية مدعوة لتدقيق هذا الأمر. وعلى كل حال فإن القوة المشار إليها سترسل إلى المدينة المنورة بعد عشرة أيام. وعند وصول ما عرض من لوازمهم يمكن إرسالهم على ركائبهم إلى أي محل تشاؤون في ظرف أسبوع واحد.

— فأرسل الباشا فيصل لقيادة الجيش وجلبه.

* لا. فيصل أذكى من ذلك بكثير. مانع في البداية وقال له: أخي علي أكبر مني. وهو الذي يجب أن يقود الجيش. وأنا أبقى إلى جوارك هنا. ولكن الباشا، كما هو متوقع، أصرّ على فيصل. أولاً، لأنه لا يريد أن يتراجع عن كلمة أفلتت منه. وثانياً لأنه لا يحب الأمير علي الذي كان يشاغب على والي المدينة المنورة. كما أنه لا يحب عبد الله لأنه يعتبره موالياً للإنكليز ويعرف

اتصالاته بهم. قال له: أنت أفضل. تعوّدنا عليك. تسلينا هنا معاً. وسنحارب معاً. وعاد الأمير إلى دمشق ليأخذ مبلغاً كبيراً من المال وكمية كبيرة من الأسلحة. ستستخدم كلها بعد أيام ضد جمال باشا نفسه.
والسوريون؟
* أرسلوا مع فيصل كتاباً فيه مبايعة للشريف حسين. كان فيصل يحمل الكتاب معه حين قابل الباشا. تعرف أين خبأ الكتاب خوفاً من أن لا تنجح الحيلة ويفتشه جمال باشا؟ هذه عرفتها اليوم. خيّط كعب حذائه على الكتاب. وهكذا سافر معززاً مكرماً. سافر بالقطار ومعه كبار موظفي الدولة. وانكشف هذا كله يوم أمس، حين وصل خبر اختفاء الفرسان الذين جاؤوا مع فيصل من الحجاز ومعهم بعض رجال الحركة الوطنية السوريين. حققوا مع بعض أبناء عائلة البكري الذين كان فيصل ينزل عندهم. فعرفوا كل ما أقوله لك. لكنني لا أفهم لماذا يتكتمون على أخبار ثورة الشريف.
— هناك نوع من الحكام يشبه النعام. جمال باشا منهم. يظن أن إخفاء خبر الحدث يمكن أن يخفي الحدث نفسه. ولكنه سيضطر إلى الإعلان عن الموضوع قريباً.
* هل حصلت الآن على ما تريده؟ شرّف. أرنا عرض أكتافك.
لحظة. لحظة. لم العجلة؟ سأذهب. ولكن بقي لدي

سؤال أخير: كيف تحصلين على معلوماتك من هؤلاء الناس؟

* لكل شيخ طريقته.

هل تنامين مع بعضهم؟

* ليس هذا من شأنك.

— أنا أستخدم بعض النساء لهذا الغرض. يبدو أن ليديا أفادتك.

* رأيت ليديا اليوم. وقد أفادتني فعلاً. ولكن لا تسألني مرة أخرى عما أفعل.

طيب. ولكن لدي سؤال أخير.

* تفضل.

ما كمية المعلومات التي يجب أن تتوافر لدى الشخص لكي تقرري أن تنامي معه؟

اضطرت أن تضحك. ولكنها قالت: أولاً أن يعرف حدوده.

قال: أنا أعرف حدودي. وإضافة إلى حدودي أعرف عن القوات الموزعة على حدود هذه الأمبراطورية أكثر مما تعرف رئاسة أركان الجيش العثماني. وأنا أعطيها كلها وأعطي فوقها نصف عمري لو تركتني أنام هنا اليوم.

تطلعت إليه ساخرة: نصف عمرك فقط يا بخيل؟

قال: أريد النصف الثاني لأستمتع به معك. لو أعطيتك عمري كله لما ظل لك إلا الجثة.

أستغرب. كيف تخلط هذا بهذا؟
* أي هذا وأي ذاك يا سارة؟ كله هذا. أنا أريد أن أعيش. وهذا يعني أن أحس بكرامتي. وكرامتي تتحدد في أن أعيش ضمن شعب محترم لا يتعرض للإهانة أو للذبح يومياً. تكون له دولته. وأنا أشتغل من أجل هذا الهدف. لا أستطيع أن أكمل هذا الطريق إلا إذا كنت إنساناً طبيعياً قادراً على تحقيق رغباتي وحاجاتي. هل تسمعين؟ رغباتي وحاجاتي. وهذه تتضمن الأكل والنوم والنزهة والقراءة والحب والجنس. ومثلما أصر على أن أعلن عن جوعي وأن آكل كلما جعت؛ كذلك فإنني مصر على الإعلان عن رغباتي. وأهم رغبة في حياتي الآن هي رغبتي فيك. وأرجو أن لا تفهميني خطأ. لو شئت جنساً فقط فأنا أشغل الكثيرات. وأستطيع أن أنام مع أية واحدة منهن. وأستطيع أن أغامر بالذهاب إلى زوجتي. وهي مغامرة أقل خطورة من التسلل إلى غرفتك. المسألة معك هي أنني أحبك.
نفخت متذمرة وجلست: ألتر. أنت تتعبني. أي إنسان في الدنيا يمكن أن يطرح رغباته علي دون أن يتعبني. أستطيع ببساطة أن أقول: لا. وينتهي الأمر. أنت الوحيد الذي يجبرني على أن أبرر له رفضي.
* أنا لست في حاجة إلى التبرير. كلمة «لا» تحمل مبرراتها الكاملة. هذه أقوى كلمة في الدنيا. ولكن لا بد

لي من توضيح صغير: هل أنت عاجزة عن حب شخص إذا لم يحبه آرون أولاً؟

تظن أنني أحب أفشالوم لأن آرون يحبه؟

* أظن ذلك.

غلطان.

* ربما. ولكن دعينا الآن ننتقل إلى الموضوع الأهم. هل تنامين مع جمال باشا؟

لماذا تسأل؟

* لأنك آن الأوان لأن تنامي معه.

— ألتر.

* إسمعيني جيداً. ربما كان لا يلح عليك الآن. ولكنه ذات يوم سيفعل. وإذا حقق ذلك بالضغط لن يغفر لك. شخص كهذا يريد أن يحس أن المرأة هي التي ترغب فيه.

ألتر. إنك تهينني بهذا الكلام. هل تظن أنني واحدة من النساء اللواتي تشغّلهن؟

* إنتبهي جيداً يا سارة. أنا أشغّلهن من أجل قضية تعرفينها. ولست قوّاداً أجني المال من ورائهن. أنا أكنّ احتراماً كبيراً لبناتنا اللواتي يتحملن قذارة هؤلاء المسلمين والأتراك من أجل المعلومات. وأؤكد لك أنهن مناضلات يخدمن قضيتنا، ويرضين الله حتى في ما لا تحبين تسميته.

— إعتبرهن كما تشاء. ولكن كيف تطلب مني أنا أن أفعل ذلك؟

* لأنك جميلة. أجملهن. أنت كنزنا. وبما أنك قريبة من جمال باشا فإن إحساسه بأنه يجذبك سيجعله طوع بنانك. سيحاول دائماً الاحتفاظ بك قربه لكي يفاخر بك وبإعجابك به.

* قبل قليل كنت تقول إنك تحبني. كيف تطلب مني أن أنام مع رجل آخر؟ أنا لا أفهمك.

يجب أن تفهميني يا سارة. أنت جزء من تضحياتي من أجل قضية شعبنا. وأنت يجب أن تفكري مثلي. ليس هناك ما لا نضحي به من أجل هذا الشعب وهذه القضية. إذا كسبنا الدولة ماذا ستكون قيمة أنك نمت مع بعض الرجال مقابل خدمات ومعلومات أوصلتنا إلى هدفنا؟ وما الذي يختلف في النهاية؟ أقصد ماذا تكونين قد خسرت؟ لا شيء. هذا أنت وهذا جسدك. لم ينقص منكما شيء. بل إن الرجل الذي تقررين إكمال حياتك معه لن يعرف إن كنت قد نمت مع غيره أم لا. وإن كنت أنا ذلك الرجل الذي ستكملين الحياة معه فسأفاخر بك وبما فعلته.

* وإن كان شخصاً آخر لا يفكر كما تفكر أنت؟

إن كان لا يفكر بهذه الطريقة فهو لا يستحقك.

* والله؟

ما علاقته بنا؟

* الزنا.

اللّه الذي وعدنا بهذه الأرض يأمرنا بأخذها بأي ثمن. ومن يستطيع أن يقدم شيئاً في هذا الطريق ولا يفعل هو الذي يخالف أمر اللّه. هل فهمت؟ ليست مخالفة اللّه في أن تنامي مع شخص ما. بل مخالفته هي في أن تترددي عند وجود فرصة للتقدم نحو هذا الهدف.

لم تعلق. ظل واقفاً ولم يعد يجد ما يقوله. تقدم إلى الباب. فتحه بهدوء وحذر ثم تطلع خارجه ليطمئن. وبعدها تسلل مغلقاً الباب وراءه دون أن يودعها.

— ٤ —

لقرارها بالنوم مع جمال إذاً هذا البعد الديني والسياسي والجنسي والنفسي والـ... وابتسمت. أيحتاج الأمر إلى هذه الضجة كلها؟ وكيف تعامل جمال معها بهذه السماحة حتى الآن، فلم يحاول أن يفرض نفسه عليها بالقوة؟ ليس لأنه يحترم أخاها حتماً. هذا غير أفشالوم. ألأنه يريدها برضاها؟ أم يتركها «تستوي على نار هادئة» كما يقول بعض الرجال؟ ولماذا لم يعد يتصل؟ أشكاً فيها؟ أم مللاً منها لأنها تمنعت عليه حتى الآن؟ ولكنه هو الذي أوصى آرون بإبلاغها بأنه يريد رؤيتها. كيف تراه؟ هذه مسألة يقررها هو. وحين يقرر سيرسل في طلبها.

ولكن اتخاذ القرار بالنوم مع رجل ما دون حب ودون شهوة لم يزل قراراً غير سهل بالنسبة لها. ولذلك فقد قررت أن تبدأ بتجربة اعتبرتها تهيئة لنفسها كي تكون جاهزة لكل طارئ عند لقاء الباشا. ولذلك ذهبت إلى فندق «فاست» الذي يتردد عليه الضباط الألمان.

وفي تلك الليلة — التجربة استطاعت أن تتخلص من مخاوفها الداخلية. لكنها اكتشفت أنها مخاوف تنطوي على قدر كبير من المبالغة. كل ما في الأمر أنها ابتسمت لواحد من هؤلاء الضباط فرد ابتسامتها متفهماً. ثم بدأ يتباهى أمامها في الشرب حتى زهزه. هذا ما يحدث عادة. لكنها هذه المرة تابعت. تابعت وراء الرجل نفسه. قررت اختبار قدرتها على أن تمنح جسدها لمن لا يعني لها شيئاً. هل صحيح أنه لا يعني لها شيئاً؟ لا. لقد انتقته. إن كان لا بد من ذلك فليكن مع شاب جميل أو جذاب... وألماني لا يخاف من جمال باشا، ولا يعاملها عدا ذلك على أنها امرأة رخيصة.

في الفراش اختلف الأمر. تضاءلت المرأة التي تراقب لصالح المرأة التي تشارك. ما المانع؟ هي ليلة جنس. فلم لا تكون ليلة ممتعة؟

لقد راقبت نفسها جيداً. أحست بجسده. جسد الرجل. الرجل الذي لا هوية له. الرجل الذي يشبع رغبة جنسية. حين دخلها كانت تريد ذلك. وحين انتهى انتهت. لحظة

مثالية لم تعرفها حتى مع زوجها من قبل. وإن كانت تعرف أنها تفتقدها.

لكنها بعد ذلك، وهي تراقبه مسترخياً، عرفت أن شيئاً كالزجاج في داخلها قد انكسر. ها هو رجل مجهول يمنحها البهجة والمتعة وهو بلا هوية ولا رابطة. حتى أنها ليست متأكدة من اسمه. ما الذي يمنع أن يتكرر ذلك؟ ليس بالطريقة التي تفعلها ليديا. هي قادرة على أن تنتقي. تنتقي الرجل — رجل الفراش — وفي الوقت ذاته يكون رجل المعلومات. هذا يعني البدء بجمال باشا.

— ٥ —

فوجئت نهال بدعوة إسماعيل بيك لها. ماذا يريد منها؟ كانت، بعد أن سمعت بإعدام عبد السلام، قد اعتزلت الجميع. ظلت أياماً وهي تبكيه. ثم توجهت للوم نفسها. كيف تركته بين يدي الليدي آنا لتورطه هذه الورطة؟ وكيف قبل هو أن يتجسس على الباشا لصالح الألمان؟ ما الثمن الذي دفعته له الليدي لقاء تلك الخدمة؟ هل سحبته إلى فراشها لكي تذيب معارضته؟ لم تصدق الأمر تماماً. ولكنها ظلت تعتبر نفسها المسؤولة إذ تخلت عنه. واستعادت ذلك اللقاء المتوتر معه. ولم تستطع أن تفهم لماذا تمنعت عليه يومها. لم تكن تتظاهر بالتمنع. كما أنها لم تندم بعد ذلك. إن فيها شيئاً حقيقياً قد

رفض الجنس معه. معه هو بالذات.

وما الذي يريدونه منها الآن؟ هل سيحاول إسماعيل بيك مرة أخرى أن ينام معها؟ هل سيستغل أن علي باشا مشغول، فيتجاهل توصياته؟

لم يحدث شيء مما توقعته. عاملها إسماعيل بيك باحترام وأبلغها أن هناك مهمة جديدة تنتظرها.

قالت له: أعذرني يا بيك. لم أعد راغبة في الشغل.

استغرب إسماعيل اعتذارها: كنت أريد أن أسألك لماذا لم نعد نراك.

قلت لك: لأنني لم أعد راغبة في الشغل.

* ولكن لماذا؟

— لدي أسبابي.

* إذا كنت تريدين راتباً...

أرجوك. أنا لست في حاجة إلى رواتبكم. وأنت تعرف ذلك. شوفوا غيري.

* مستحيل. هذه المهمة لك أنت بالذات.

ولماذا أنا بالذات؟

* لأنك جريئة وبارعة.

يعني ليس لأنني شرموطة؟

* أستغفر الله. من قال عنك ذلك؟

— أنت.

* أنا؟ متى قلت ذلك؟

في تصرفاتك كلها.

* إسمعي يا نهال. لا تخلطي هذا بذاك. إذا كنت قد أبديت إعجابي بك أو رغبتي فيك فليس بالتأكيد لأنني لا أكنّ لك احتراماً. أو لأنني لا أقدر لك شغلك. ما فعلناه معاً مع الألمان في المغامرة الأخيرة كان نجاحاً باهراً. وأنا أتمنى طبعاً أن نكلل نجاحنا بلقاء عاطفي. ولكن إذا لم تكوني راغبة فأنت حرة. وإذا فهمت مني غير ذلك فأنا أعتذر.

استغربت هذه اللهجة المختلفة عن كل ما سبق لها أن سمعته. فجلست تفكر. ولم يمهلها: هذه المهمة لا يمكن أن يقوم بها سواك. ستحتاجين إلى دخول المستوطنات اليهودية. السبب الأول لهذه المغامرة هو إسرائيل جيب. تعرفين أننا في الظاهر نطارد قاتلاً. وتتضمن العملية اختطافه من مخبئه. يجب أن نصل إلى الشبكة التي يتعامل معها، والتي نحن متأكدون من أنها بزعامة ألتر ليفي. ولكننا يجب أن نعرف ما الذي في هذه المستوطنات. مئات الشباب المسلمين يهربون من الجيش ويختبئون فيها. وما من أحد يستطيع الدخول إليها. وقد تكون الهجمة العلنية غير مفيدة. سيعرفون كيف يختفون في المخابئ السرية التي هيأوها. نريد أن نعرف أين هذه المخابئ، وما الذي فيها.

وجلس قبالتها بوقار مفاجئ: قد يكون ذلك طريقك

للانتقام الحقيقي لحسام.

حسام ! كان عبد السلام قد غطى على حسام في نفسها. ولكن لم لا؟ انتقام للاثنين معاً.

نهضت وقد حسمت أمرها: سأذهب. مع من سأتعاون؟

— ستبدأ مهمتك في القدس. ولا بأس من التنسيق مع عارف بيك.

* عارف لا.

* لماذا؟

لأنه غليظ وقليل أدب.

الفصل السادس عشر

— ١ —

فشل الجنرال البريطاني موراي في الهجوم الذي شنه على غزة. إذ قوبل بمقاومة لم يكن يتوقعها. فالعثمانيون كانوا، هذه المرة، يقاتلون وقد أحسوا أنهم محاصرون ولا مهرب لهم. واعتبر جمال باشا هذا الفشل للجنرال موراي انتصاراً له. فأقام حفلاً دعا إليه الضباط من اسطمبول. لكن انشغالهم في معركة غاليبولي، وبالنصر الذي لاحت بوادره، جعلهم يكتفون بإرسال برقيات التهنئة.

وبعد الحفلة التي أقامها لضباطه وللضباط الألمان الموجودين في القدس والشام قرر أن يقيم لنفسه حفلته الخاصة.

وأرسل يدعو سارة.

واسترجعت سارة كلام ألتر وليديا كله في ذهنها، وهي في العربة التي تقلها إلى السهرة. قررت أن لا تأتي على ذكر الأمير فيصل ونجاحه في الهرب لكي لا يتعكر مزاج الباشا. ولكنها راحت تتساءل بجدية إن كان عليها أن تنام مع الباشا. هل صحيح أنه ذات يوم يمكن أن يمل أو تستيقظ كبرياؤه؟ يجب أن لا تفقد حظوتها عنده أبداً. فآرون في الخارج. والاتصال مع الإنكليز

سيستأنف بعد أيام. وهو نفسه قال إنه يعتمد عليها هنا. ويجب أن تكون عند حسن ظنه.
وابتسمت. هل حسن ظنه أن تنام مع الرجال؟ ومع جمال بالتحديد؟ هل كان من الممكن سؤاله أو استئذانه في هذا الأمر؟ لو كان هذا ممكناً لسألته أو استأذنته من أجل أفشالوم. هل تستأذن أفشالوم نفسه؟ وهل سيقبل؟ هل يصل إيمانه بالقضية إلى هذا الحد؟ مستحيل. الأفضل أن لا يعرف. ولكن... هل اتخذت قرارها فعلاً؟
ومتى ستفعلها؟
حسب نصيحة ألتر العاشق العجيب يجب أن تستعجل. ويجب أن تكون هي الراغبة. أو أن تتظاهر بذلك على الأقل. هذا يعني أن تبادر.
فوجئت بوجود امرأتين غيرها في السهرة. هما ضيفتان على الباشا.
لماذا استدعاها إذاً؟ أيريد أن يستعرض غرامياته أمامها؟ ستريه أنها ليست سهلة.
كانت الأولى، كما قدمها جمال، أديبة تركية اسمها خالدة أديب. امرأة جميلة وناضجة في الثلاثينيات من عمرها. قال جمال إن خالدة ستشتغل في دمشق وبيروت في تنظيم المدارس ودور الأيتام. وأضاف، وهو يحيط خصرها بذراعه، أنه مهتم بها بوصفها أديبة وروائية،

أكثر من كونها مربية أو معلمة. وباعتزاز ختم كلامه عنها: إنها أول فتاة تركية تتخرج من الكلية الأميركية للبنات. وهي متفوقة في الإنكليزية والموسيقى والقرآن الكريم واللغة العربية والرياضيات. كما أنها كانت تخدم الجرحى في المستشفيات. وقد دعاها جمال لتقضي إجازة في القدس.

والسيدة الأخرى هي المفاجأة. ببساطة قدمها جمال على أنها نهال حامد من مكتب مكافحة الجاسوسية في بيروت.

لم تكن نهال راضية عن طريقة تقديمها. وقد انتبهت سارة إلى أن نهال قد فوجئت بالتقديم، مثلما فوجئت هي بالمعلومة السهلة التي وصلتها.

لماذا فعل جمال ذلك؟ أيريد أن يستعرض موظفيه وأتباعه، ويريها أن بينهم نساء جميلات؟ ولكن ليس مفهوماً أن يكشف عن هوية نهال بهذه البساطة. هل يريد أن يقول إنه واثق من النساء الثلاث الموجودات في السهرة، وهي بينهن؟

ولم تستطع أن تمنع نفسها من التعليق على موضوع نهال. فقالت لها باسمة: هل تطاردين أحد الجواسيس من بيروت إلى القدس؟

ابتسمت نهال: الباشا يمزح.

فعلق جمال: أنا أقتدي برسول الله. كان يمزح ولا يقول

إلا الحق. قولي لنا: لم أنت هنا؟

مشوار يا باشا.

ضحك: هؤلاء ألعن من الجواسيس أنفسهم. لا يعطون أسرارهم بسهولة.

وعلقت سارة من جديد، وهي تحاول أن تبدي تضامناً مع نهال: لعلها قادمة للحج.

ضحك جمال: لا تتوقعي أن تقول شيئاً. هي كتومة على أسرارها مثل الطوائف الباطنية.

ولم تشأ سارة أن ينتهي الموضوع هكذا. سألت الباشا: هل من المعقول أن يحتاج الباشا إلى السؤال؟ صحيح أنك لا تعرف لماذا هي هنا؟

أنا فعلاً لا أعرف. وهي لم تقل لي بعد. ولكنها لا تأتي، عادة، إلا في مهمات خاصة وخطرة. إحكي لهما يا نهال كيف أوقعت بذلك الجاسوس الألماني.

والتفت إلى المرأتين متبسطاً ضاحكاً: أسكرته ثم نامت معه. وفي الليل فتشت غرفته وهو نائم.

وراحت سارة تتمعن في وجه نهال. هذه المرة كانت تريد أن ترى كيف يكون وجه المرأة حين يتحدث الآخرون عن مغامراتها الجنسية. ولكن نهال حافظت على ابتسامتها المحايدة. وراح جمال يكمل القصة باستعراضية: وحين استيقظ صاحبنا لم يجد نهال إلى جانبه كما كان يتوقع. بل وجد الشرطة حول الفراش.

إحكي لنا القصة كلها يا نهال.
ابتسمت نهال بلطف: ظننت أن الإجازة تعفيني من الحديث في الشغل يا باشا.
قالت سارة: هذا إذا كنت في إجازة فعلاً.
وردت نهال مستنفرة: على الأقل يجب أن تعفيني السهرة عند الباشا من الحديث في الشغل.
وتدخل الباشا دون أن يلحظ الاستفزاز الذي كاد أن ينشب بين المرأتين: معك حق. اللعنة على الشغل. ولكن أريد أن أحذرك قبل أن أنسى. نسّقي مع عارف إبراهيم رئيس شرطة القدس، لئلا تثيري حساسيات جديدة.
قالت نهال دون حماس: طبعاً يا باشا. عارف بيك لا يمكن الاستغناء عن خبرته.
مرة أخرى تتأكد سارة من أهمية عارف.
وتطلع الباشا ضاحكاً إلى خالدة: يغار الضباط واحدهم من الآخر مثل غيرة الضرائر.
كان من الواضح أن للمرأتين مكانتهما الخاصة عند جمال. ستسأل ألتر عنهما فيما بعد. ولكن المهم الآن أن تعرف لماذا نهال قادمة من بيروت. هل لإسرائيل جيب علاقة بالأمر؟
وفوجئت بأنها مهتمة بالتبسط الذي تعاملت به خالدة مع جمال، على الرغم من أنها أرادت أن لا تهتم. مما جعل سارة تتيقن أن هناك علاقة بينهما. يجب كسب

الجولة من هذه المرأة. حتى لو كانت خالدة عشيقة لجمال، فإن سارة واثقة من أنه سيفضل أن ينام مع امرأة جديدة بدلاً من القديمة. وهي اليوم جديدة.
غرقت خالدة في الحديث مع الباشا عن خمارات اسطمبول، وخمارة (سيركجي)، التي يبدو أن الباشا كان يحبها ويكثر من التردد عليها، وكأنها كانت ترتادها معه. العلاقة بينهما قوية. هل هذا يعني أنها ستظل في القدس؟ وهل ستزيح النساء الأخريات من حول الباشا.
خالدة هي الوحيدة التي تجرأت على الإشارة إلى الحملة الفاشلة في سيناء. إذ قالت بعد أن تحدثت عن فشل حملة أنور باشا في الشمال: لا أفهم سبب اندحار جيوشنا في كل حرب، مع أننا ننتصر في البداية.
ولم يغضب جمال بل اكتفى بالضحك والقول: إلا هذه المرة. اندحرنا في سيناء في البداية وسننتصر في النهاية. نحن مثل بني هلال. أولهم كسرة وآخرهم نصرة. ومعركة غزة هي أول الغيث.
وشكت خالدة من الصحف العربية: تصور يا باشا. يقولون عنا إننا يهود.
من يقول ذلك؟
* رشيد رضا صاحب مجلة المنار يريد أن يفضح الدونمة بين الاتحاديين. وفي عدد صدر مؤخراً عدد أقطاب الاتحاديين الدونمة أمثال: جاويد وعمانوئيل

قرة صو وحاييم نعوم والشاعر فاروق نافد. كما ذكر عظمتكم. وحتى أنا.

فضحك جمال: وماذا يعني أننا يهود متسترون؟

وابتسم لسارة: هذه يهودية غير مستترة. وهي جميلة. أليس كذلك؟

فابتسمت خالدة مجاملة: طبعاً جميلة.

وكانت سارة بعيدة عن تقبل المجاملات. كانت تفكر في نهال حامد. هذه الصبية الجميلة المخيفة، هل هي إحدى عشيقاته؟ ليس هناك ما يمنع أن تكون عشيقته وهي في مكتب مكافحة الجاسوسية. بل لعل العلاقة مع الباشا تساعدها في شغلها. هذا إذا لم تكن عميلة مزدوجة، تعمل لحساب طرف آخر، وتتقرب من الباشا تنفيذاً لغرض.

ربما أن مديحه لخالدة جعلها تحس بالغيرة، مثلما أثارتها معرفتها بأن نهال من مكتب مكافحة الجاسوسية. لأن لدى خالدة هذه ما تتفوق عليها به. وإذا كان الباشا معجباً بالمثقفة والمبدعة إلى هذه الدرجة فما هي حقيقة نظرته إليها هي؟ ولماذا يجلبها إلى سهرة كهذه؟

على أية حال طالما أنها هنا لن تقبل إلا أن تكون الأولى. غداً ستسأل ألتر عنهما. وغداً يجب أن تعرف كيف ستتعامل مع عارف بيك. اليوم الباشا.

وصارت تميل على الباشا وهي تضحك، وتمد يدها لتضرب يده برفق كلما مازحها بكلمات جريئة. ثم تتعمد ترك يدها على يده. كأنها كانت تريد أن تبين لخالدة أنها ليست وحدها التي تستطيع رفع الكلفة مع الباشا. وفي الوقت ذاته تريد أن تنبه الباشا إلى أنها تمازحه بجسدها.

والباشا لا تفوته هذه الحركات. بدأ يغير اتجاهه نحوها سعيداً بهذا التحول الذي بدأته هي. وكانت سعادته لا توصف حين همست له: هل أستطيع أن أنام هنا؟ ولكنه لمزيد من التأكد من القصد أجابها الإجابة التي تصلح كميناً ومزحة: ليس هناك إلا سرير واحد لي. فابتسمت دون كلام. وهمس لها لمزيد من التأكد: هل حنَّ الخوري على الكنيسة؟ فاكتفت بالضحك بصوت عال.

قالت نهال التي لا يفوتها معنى ما يحدث: أضحكونا معكم.

وحكى لهن الباشا حكاية الخوري الذي كان يحرد من الكنيسة فيعاقبها بعدم الصلاة فيها. يأخذ رعيته إلى البرية. وكان المصلون يتضايقون، وينتظرون دائماً متى سيحن الخوري على الكنيسة.

وأكمل وهو ينظر بنظرة خاصة إلى سارة: وبعد حين يقرر أنه قد عاقب الكنيسة بما فيه الكفاية فيعود ويحن عليها ويجمع الرعية فيها.

اعتباراً من هذه اللحظة بدأت خالدة تنزاح نحو هامش السهرة.

— ٢ —

ذهب ألتر إلى البنسيون، ودخل من الباب الخلفي المؤدي إلى المطبخ. ولم يسمع أصواتاً فعرف أن الجميع نيام، وأن صالون الفندق خال. فجلس وحده في الظلام يدخن.

وفتحت ليديا باب غرفتها. رفع نظره إليها فهزت له رأسها. وفهم أنه يستطيع الدخول.

نهض ودخل غرفتها: خشيت أن يكون عندك أحد.

كانت السهرة هادئة اليوم. لم يأت كثيرون. الجميع متوترون بسبب ثورة الشريف حسين.

* إلا الباشا ليس متوتراً. سهرته عامرة اليوم.

وأنت لماذا توترك؟ لماذا تجلس في الصالون وحدك وتدخن في الظلام؟

* أنا أحبها يا ليديا.

وهي؟

* مشغولة بغيري.

منذ متى تغار؟ إذا كانت تشتغل...

* لا يا ليديا. ليس شغلاً. هي تحب شخصاً آخر. وتضعه بيننا كلما حاولت أن أكلمها.

تخلص منه.

* كيف؟

أقتله.

تطلع إليها وقد فوجئ. آخر ما يمكن أن يخطر له هو أن يتخلص من غريمه العاطفي بالقتل. وخاصة أنه يهودي مثله. لا. مستحيل. وكيف أسرعت هذه المرأة إلى التفكير بالقتل؟ وتذكر أن سارة نفسها فكرت بالقتل حين حدثها عن عارف.

هدأ نفسه وكأنه سيشرح درساً: ما هكذا يتغلب المرء على من ينافسه في حب امرأة. القتل سهل لكنه غير مجد. إن كانت لا تحبني فلن تحبني حتى لو أزحته من الطريق. ثم إن الشخص الذي نتحدث عنه من شبابنا. وهو مخلص لقضيته وشعبه.

ومع ذلك يمكن قتله.

صرخ: ليديا. أنا لم أفكر حتى في قتل عارف إبراهيم. هذا شخص آخر يجب التخلص منه. ولكن ليس عن طريق القتل أيضاً. مع الخصمين يجب أن يفوز بمؤهلاته. وليس بقدرته على القتل.

— ٣ —

فوجئت سارة. كأنها لم تكن تتوقع أن ترى نفسها عاربة في الفراش. وحين فتحت عينيها بتكاسل رأت الباشا إلى جانبها. فاستعادت بقية سهرة الأمس. وأدركت جيداً أين انتهى بها الأمر.

هل استمتعت؟ نعم. ولكن ليس بالجنس. استمتعت بتحطيم الحاجز الذي كان يفصلها عن جمال، وبقدرتها على تنفيذ قرارها بالتعامل مع جسدها بهذه الحرية. ولكن المتعة الأكثر أهمية كانت في التغلب على المنافستين اللتين كانتا في السهرة.

قالت له وهي تتمطى: ألا تحس امرأتك بالغيرة عليك؟

قال متفلسفاً: يجب أن تغار لأحس أنها تحبني. أنا أستحق أن أحب. أليس كذلك؟

ابتسمت له موحية فأضاف: لكنها تعودت أن لا تظهر غيرتها. أنا معرض للإغراءات مثل الشعراء.

ما الذي أوصلك إلى الشعراء أيها التعس؟

نهضت وقد أحست بغتة بأنها قد ارتكبت خيانة لأفشالوم. ركضت إلى الحمام وكأنها كانت تخشى أن يراها أفشالوم هنا أو هكذا. متى ستتخلص من إحساسها بمطاردة الآخرين ومراقبتهم لها؟ إنها تتذكر الآن كيف أنها ليلة أمس، وهي في أوج انغمارها مع جمال في الفراش، أحست بألتر يطل فوق السرير ليراقبها، مثل أستاذ يتأكد من كتابة تلميذ صغير. وحين وصل جمال إلى أوج لذته، وبذلت هي جهدها لكي تجاريه، تطلعت في الظلام فرأت ألتر يبتسم ويصفق لها مستحسناً أداءها.

حدثها جمال وهي في الحمام: سأخرج الآن. متى أراك

مرة أخرى؟

أنا تحت أمرك يا باشا.

ابتسم مرتاحاً: يجب أن نعالج غيرة أخرى غير غيرة زوجتي. نسينا خالدة.

ونهال؟

وأنصتت جيداً لتسمع تعليقه. لكنه قال ممازحاً: تظنين أنني أحتكر نساء الدولة كلهن؟

* لا. أنا أتحدث عن الغيرة. ألا تغار نهال عليك؟

تظنين أنني عشيقها؟

* رئيسها. ورئيس بلدها. ألا تغار عليك إلا عاشقاً؟

هل تقبلين بسهولة أن أتركك من أجل أخرى؟

* وهل من الضروري أن تتركني؟ أنا أقبل الأخرى معي لأنني أعرف أنني لا أستطيع الاستئثار بك. فلتقبلني الأخرى معها إذا كانت عاقلة.

ابتسم معجباً بالدهاء الأنثوي: هيئي نفسك. قد نسهر الليلة مع خالدة أيضاً.

— ٤ —

فوجئ عارف. كيف فاته ذلك؟ منذ أن جاء قالوا له إن «الخضرة» من قرية النبي صاموئيل. ولم يخطر له الموضوع. وها هو تلجمه المفاجأة حين يعود أحد العناصر بخبر رؤيتها في القرية.

كان جالساً في غرفته المطلة على الشارع والمواجهة

لمنزل خليل السكاكيني يترقب قدومها. ويطمئن إلى أن الشرطي المكلف بجلبها فور ظهورها لم يغادر مكانه.

وظهرت أخيراً. ورأى الشرطي يحادثها ويضحك معها. هو كان قد أوصى الشرطي أن لا يخيفها أو يزعجها. واعتدل في جلسته ليشغل نفسه بأي شيء منتظراً قدومها. يجب أن يكون منظره مؤثراً فيها. ويجب أن يستدرجها ليعرف منها ما يمكن أن يفيده في موضوع ألتر.

تأخرت قليلاً. ثم جاءت وهي تحمل باقة من الورد: عسكركم يا بيك لا يفهمون في الأصول. هل يُعقل أن أتصبح بوجهك الكريم دون أن أجلب باقة ورد بيدي؟ على الأقل سيعوضك الورد عن التصبح بوجه امرأة عجوز.

لم يكن يبدو عليها أنها خائفة: أمر يا بيك؟ قال أنت تريدني.

بادرها: أنت من النبي صاموئيل. تعرفين واحداً اسمه ألتر ليفي؟ ألتر صاموئيل ليفي؟

كيف لا أعرفه يا بيك؟ ألتر صهري.

* صهرك؟ وقفز واقفاً. بدل أن يفاجئها فاجأته.

صهري زوج بنتي يا بيك.

* وأين هو؟

ألله أعلم يا بيك. امرأته وأولاده لا يعرفون عنه شيئاً.

هربان. يقولون إنه مطلوب. دنيا دولاب. يوم فوق ويوم تحت. أمس كان مدللاً عند الباشا الكبير. واليوم لا أحد يعرف مكانه. ولكن تريد الصراحة؟ أنا لا أصدق أنه يختفي لأنه مطلوب. إبن حرام. يخطر لي أنه موالف لامرأة أخرى. وزوجته المسكينة وأولاده يعيشون على صدقات الأجاويد.

* ألا يرى زوجته وأولاده؟

خلها على ألله يا بيك. أقول لك حتى المصروف يأتيهم من فاعلي الخير.

لا فائدة. ولكن يجب تشديد المراقبة على النبي صاموئيل.

نهض عارف واقترب منها: إسمعي وليك. ألتر أريده منك.

مني أنا يا بيك؟

* أمامك أحد أمرين: إما أن ألقي بك في السجن هنا بين الرجال أو أحبسك في النبي صاموئيل فلا تغادرينها.

أنا أخدمك بعيوني يا بيك. ولكن قل لي كيف.

سؤال صعب.

أدار لها ظهره وتطلع إلى بيت السكاكيني. رآها فرصة أن يحول الموضوع لكي لا يقدم لها جواباً على السؤال الصعب.

التفت إليها: إلى أن تجدي طريقة لمساعدتنا في موضوع ألتر ساعدي العناصر في تنظيف البيت وترتيبه. سأنتقل إليه.

متى يا بيك؟

* متى ماذا؟ الآن تبدئين.

أمرك. أمرك.كنت أسأل متى ستنتقل؟

* ليس شغلك. إبدئي التنظيف منذ اليوم. وسأرسل لك عساكر يساعدونك.

— لا. لا. دخيلك. الرجال دفشون. يعطلونني ويوسخون لي أكثر مما يساعدونني. دعني أشتغل وحدي. وإذا احتجت لأحد سأقول لك.

وأبلغه الحاجب بقدوم سيدة اسمها نهال حامد. فاستغرب: ما الذي جاء بها من بيروت؟ صرف العجوز وأدخلها. وعلى الرغم من نشافته الدائمة معها، إلا أنه اضطر للسلام عليها بمودة. حدثته عن الإحراج الذي تسبب لها به الباشا ليلة أمس. وسألها عمن كان في السهرة. فحدثته عن خالدة أديب وسارة. وامتعض أكثر منها حين عرف أن الباشا عزّف عنها بتلك الطريقة وسارة موجودة. ولكن مع ذلك الشغل يجب أن يستمر:

لم أنت هنا؟

حدثته أنهم اعتقلوا جاسوساً في بيروت أفاد أن المستعمرات اليهودية مراكز لتجميع الهاربين من

الجيش العثماني. وهذا يعرفونه كلهم. وليس جديداً على أحد. ولكن الأخطر من ذلك هو أن بعض هذه المستعمرات تتخذ مراكز للاتصال بالإنكليز. وأنها هنا بصدد التسلل إلى هذه المستعمرات للمعاينة بشكل مباشر: ومن بعد إذنك طبعاً. لأن المنطقة منطقتك.

وأرته برقية من القيادة العامة في اسطمبول: المعلومات الواردة إلينا من مصر تدل على أن المخابرات كانت قائمة بين السوريين والفرنسيين والإنكليز. ويهمنا جداً معرفة كيفية الاتصال. وأضافت أن من الأفضل أن لا يعرف الباشا شيئاً عن هذا الموضوع. فهم هناك يشكّون حتى بجمال.

* وهل من الضروري أن تتسللي؟ الأمر خطر. اليهود خطرون. إذا كشفوك...

أنا أعرف كم هم خطرون. ألم تسمع بقصة عبد الله جبريل؟

* ما الذي تعرفينه أنت عن الموضوع؟

أولاً اسمه الحقيقي هو إسرائيل. وأنت تعرف أن إسرائيل تعني كما نقول نحن: عبد الله. وهذا الرجل سمى نفسه عبد الله فعلاً.

وحدثته بقصة الرجل. وأضافت أنها يجب أن تقبض على إسرائيل أو عبد الله أيضاً. فقد يكون المفتاح عنده.

ورحب عارف بالفكرة. وسألها عن كيفية التنفيذ: كيف ستتسللين إلى المستعمرات؟

ابتسمت له: أريد أن تدبر لي عريساً. وأفضل أن يتقن الأرمنية. لدي توصية بالتعاون معك.

ابتسم عارف: أنا جاهز. ما رأيك بأتلخان؟ هل يصلح عريساً لك؟

قالت بجدية: أسمع عنه. ولكنني لا أعرفه. هل هو عجوز؟ يجب أن يكون مقنعاً كعريس.

نهض إلى الهاتف وهو يقول: لن يخيبك.

واتصل بجواد وسأله: أتعرف اللغة الأرمنية؟

وأضاف عارف، وهو يسترق النظر إلى نهال: لأنني دبرت لك عروساً جميلة.

ثم عاد إلى مقعده.

بعد لحظة صمت قال: إسمعي يا مدام نهال. لن أتدخل في تفصيل خطتك. ولكن إن استطعت أن تكتشفي لي مخبأ ألتر ليفي ستكونين أفضل...

لم تدعه يكمل. نهضت: عارف بيك. أنا لست هنا لنيل شهادة حسن سلوك منك.

وخرجت دون أن تعطيه فرصة الرد عليها.

— ٥ —

ذهبت نهال وجواد إلى قرية هرتزليا. وتوجها إلى نزل السيدة روبيكا إسرائيل. أظهر جواد، الذي صار اسمه

آغوب، سخاء في الإنفاق. واختلت نهال بروبيكا لتخبرها بأنها وهذا الشاب عاشقان هاربان. فهي شركسية. وأهلها لا يمكن أن يزوجوها لأرمني. ولذلك فقد قررا الهرب. وهما يلجآن إلى هذه القرية، لأنها تعرف أن أهلها لن يفتشوا عنها في المستعمرات اليهودية. وهي وخطيبها على استعداد لدفع كل ما تريده السيدة روبيكا مقابل إيوائهما لفترة من الزمن.

وبعد أن تحدثت روبيكا بالأرمنية مع جواد واتفقت معه على السعر اطمأنت وعادت إلى نهال: ولكن يا بنتي نحن لدينا الكثير من العمال الشركس. وحتى بعض الحراس المسلحين شركس.

صحيح. معك حق. انعمى على قلبي فنسيت ذلك. أين تنصحينني أن أذهب؟ نحن مستعدان لدفع أي مبلغ تريدينه. لن نطيل الاختباء. سنسعى إلى الهرب من البلاد كلها.

* عندي. ستظلين عندي. وأنا سأؤمن لك طريق الهرب من البلاد أيضاً.

وفي المساء قادتهما في الظلام خارج القرية إلى بقايا قلعة قديمة. وتناولت من إحدى الحفر مصباحاً أشعلته ونزلت سرداباً طالبة منهما أن يتبعاها.

وفوجئا أن في القبو الذي يوصل إليه السرداب ما يزيد على عشرين شخصاً يفترشون الأرض وينامون على ما

تيسر لهم.

من هؤلاء؟

* ما لك ولهم؟

أخذتهما روبيكا إلى جانب آخر وقالت: هذا يوصلكما إلى البحر إذا أحسستما بأية مفاجأة.

وساعد ضعف الإضاءة في أن لا يتبين المختبئون ملامح اللاجئين الجديدين. ولكن نهال استطاعت أن تتعرف إلى إسرائيل جيب بينهم.

حين غادرت روبيكا السرداب تطلعت نهال إلى أتلخان بصمت، ثم هزت رأسها بالإيجاب. ففهم أنهما قد وصلا إلى المطلوب.

— ٦ –

فيما كان عارف جالساً ظهيرة ذلك اليوم يقشر البطاطا المسلوقة، سمع طرقاً على الباب فأخفى الصحن والطنجرة تحت السرير. وقام يفتح، وقد قرر أن يوحي للزائر بأنه كان نائماً.

فتح الباب ففوجئ بابنه: إبراهيم. حبيب قلبي.

وضم ابنه إلى قلبه. وأحس أن إبراهيم ليس الولد الذي كان. فجسده القوي بين ذراعي الأب، وقامته الطويلة وشارباه، هذه الأمور كلها جعلته يدرك أنه يراه للمرة الأولى منذ زمن طويل.

بسرعة قال إبراهيم: معي ضيف.

* أهلاً وسهلاً. أين هو؟ أدخله.

مد رأسه من الباب ليدخل سميح، الذي سلم على الأب بأدب. وأغلق إبراهيم الباب.

* وكيف اهتديتما إلى البيت؟

نظر كل منهما إلى الآخر وضحكا: حين صادفنا أول دركي، وقبل أن يسألنا عن هوياتنا أو أوراق تجنيدنا، سألناه إن كان يعرف أين بيت رئيس شرطة القدس.

— وبيت رئيس شرطة القدس لا يضيع.

ضحك معهما: أكيد أنتما جائعان.

قال إبراهيم: نحن جائعان فعلاً.

اضطر عارف أن يكذب لكي لا يكشف عن حقيقة التقشف الذي يعيشه: تعرف. أنا عزابة. آكل في المطاعم. ليس عندي هنا ما يستحق. بعد أن ترتاحا تنزل أنت ورفيقك إلى المطعم.

قال إبراهيم: نأكل أي شيء من الموجود. التعب يهدنا. لا ضرورة للمطعم.

* إذاً قم أنت ورفيقك. شوف ماذا في المطبخ ودبر رأسك. أنا كنت سآكل هذه البطاطا المسلوقة لمعالجة الإسهال.

دخلا إلى المطبخ، وظل الأب وحده مدعياً أنه سيتركهما على راحتهما. وبدأ يأكل.

وحين عادا مع البيض المقلي والبندورة والبصل، قال

عارف لائماً: أين كنت طوال هذه المدة يا ابني؟ شغلتنا عليك. قلبت الدنيا وأنا أسأل عنك.

تطلع إلى زميله وقد أحس أنه صار كبيراً بتجربته الطويلة التي لا يعرفها أبوه. أخبره أنه ذهب مع سميح إلى قريته حيث قضيا هذه المدة.

* والمدرسة؟

— احتل الجيش المدرسة وحولها إلى ثكنة. رفعت المقاعد التي أحرقت فيما بعد، أو كسرت وأخذت ضمن حملة التحطيب الشاملة لصالح السكة الحديد. وما لا يصلح للسكة تدفأ عليه الفقراء البردانون من جنود ومشردين. وتحولت الغرف إلى مهاجع للضباط. هذا حال مدرستنا النظيفة المرتبة المخدومة. أما المدارس الأخرى فقد صارت مستودعات أو إسطبلات أو مهاجع للجنود. احتلوا المدارس والكنائس والجوامع والإسطبلات والخانات. ما هذه الحرب التي من أجلها يعطل العلم والدين والإنتاج وزراعة الأرض والحياة اليومية؟ وإذا كنا سنضحي بهذا كله فما الذي ندافع عنه؟ عزة الإسلام؟ لا واللّه. عزة جمال باشا والسلطان. هذه العزة التي ستقوم على رماد الدمار.

* يا ابني. ما لك ولهذا الكلام؟ كن في دروسك وانتبه لنفسك.

وناول ابنه بعض النقود لكي يتصرف ويضيف زميله.

لكنهما أكدا أنهما سيبقيان في البيت فوعد بإرسال العشاء لهما، أو جلبه بنفسه إذا عاد مبكراً.

بعد ذهاب الأب جلسا يستعرضان ما يمكن أن يفعلاه. يجب أن نعمل. يجب أن نخرج من البيت مهما كان الخروج مخاطرة. المعركة هنا لا تقل أهمية عنها في دمشق. بل ربما كانت المعركة هنا أقسى لأن كثافة اليهود أشد ونشاطهم أقوى. هذا ما سمعاه في (لجا) حوران، في ذلك الجبل الذي يخفي عشرات الهاربين من سطوة الدولة العلية أو سجونها، والذي يستعصي على الدولة.

هناك كان يمكن لهما أن يبقيا متخفيين. الأمان متوفر. وأهل الجبل، الذين لا يبدو عليهم أنهم يخافون كثيراً، كانوا يعاملونهما كضيفين عزيزين. ومعاملة الضيف هي الحد الأقصى من العناية لدى هؤلاء الذين لا تزال أخلاق البداوة تحكم حياتهم. ليس بكرم الضيافة فقط بل وبمفهوم الجيرة أيضاً. هما مستجيران والأهالي مسؤولون، بحكم العادة، عن الدفاع عنهما. وقد سرهما هذا كثيراً في البداية. إذ لم تعد سلامتهما، منذ أن جاءا إلى هذه اللجاة، موضع اهتمامهما بقدر ما صارت موضع اهتمام «المعزِّبين» وحرصهم. حتى أنه قد عُرض عليهما أن يقيما نهائياً في هذا الجبل. ولكنهما تحيّنا الفرصة للتسرب جنوباً إلى القدس.

قال سميح: أنت تستطيع أن تظل مدللاً عند أبيك. أما أنا فلا أستطيع. سأبحث عن شغل.

* وإذا مسكوك؟

— يا إبراهيم. جئنا من دمشق إلى هنا ولم يمسكونا. الطاسة ضائعة. تعرف؟ والله العظيم يخطر لي أن اختفاءنا في الغوطة طوال هذه المدة لم يكن له ما يبرره. كانت الدولة قد نسيتنا. والدليل أنهم حين قبضوا علينا لم تعن أسماؤنا لهم شيئاً. يعني كنا نستطيع أن نعود إلى بيوتنا. ولو فعلنا ذلك لتجنبنا هذه الحبسة ووفرنا على أنفسنا تلك القلقات.

هذا الكلام مخيب لإبراهيم. إنه يجرده من هالة البطولة التي رسمها لمغامرته. صحيح أن مغامرته الثانية في خان أسعد باشا هي الأكثر أهمية؛ ولكن مغامرة الاختفاء في الغوطة والسجن والهرب والتسلل إلى حوران... هذه الأمور كلها لا يجوز القول عنها إنها بلا مبرر.

ولم يناقش سميح: المهم. ماذا ستشتغل؟

أي شيء. المهم أن نؤمن اللقمة والإقامة. لكي نتمكن من متابعة النضال. يجب أن نبحث عن الشباب العرب هنا لكي نعمل معهم على توعية الأهالي.

* كنت تقول إنك ستشتغل في الصحافة.

ولم أزل عند قولي. سأنزل اعتباراً من الغد للبحث عن

عمل في إحدى الصحف.

* هل تعرف أنك تحمل كرت توصية؟

أنا؟ أي كرت؟

* هنا صحف وطنية. وأعتقد أن ذكر أسماء من كنا مسجونين معهم سيساعدك.

وقرع باب الغرفة ففتح إبراهيم ليفاجأ بفتاة جميلة تقدم لهما الشاي: أوصانا الوالد بك قبل أن يذهب. الحمد لله على السلامة.

* ألله يسلمك. ولكن...

— أنا بهيجة بنت صاحب البيت.

* شكراً.

تناول منها الشاي وأغلق الباب لتفاجئه نظرة سميح الخبيثة: هنيئاً لك يا عم. جارتك صبية. أنت لن تفكر في الشغل. البابا ضابط والجارة حلوة. أكل ومرعى وقلة صنعة.

* عدت إلى العلاك. خلنا بالمفيد.

لنا صديق في القدس. سأذهب إليه غداً لتأمين شغل.

واتكأ سميح وبدأ بالترنم:

وسمّيت باسم الله، بظهرا تعلّيت

نفرت نفير الظبي تطلب رباها

نهض إبراهيم: صرعتنا بأحمد العلي وقصيدته.

ألم يعد أحمد العلي يعجبك؟

* يعجبني. وقد حفظت كل أشعاره التي قلتها لنا. ولكن إسمع القصيدة التي حفظتها في حوران. قصيدة ماضي أبو حديفة:

ياونّتي ونّت طعيناً بعودي

بأقصى ضميري جايد مطرق الزان

تحذروا يا ناس حكمنا صاير يهودي

تحذروا يا ناس ترى الدهر خوان

واويل سباع البر هي والأسودي

ن كان حكم بها الحصيني مع سرب ويوان

ويقول سميح: أتذكر كيف فسروا لنا انتصارهم في حوران على حملة الفاروقي؟

— نعم. قالوا نحن أولاد عمْ، وهم عسكرهم ملمومة لمْ.

* لذلك أنا مطمئن على معركتنا مع اليهود. هؤلاء أيضاً ملمومون لم.

وقبل أن يناما استرجعا قراراتهما وواقع الأمة التي قررا أن يحملا مسؤوليتها: هذه الأمة تحتاج إلى خدمات كثيرة. وأينما كنت تستطيع أن تخدمها. في الأستانة تخاطب رؤوس السلطة. في الشام تشتغل مع الحركة الوطنية. في القدس تشتغل ضد اليهود. في الحجاز تشتغل مع الشريف حسين. في مصر تشتغل مع رجال اللامركزية الهاربين. المهم توفر النية والإخلاص والاستعداد للعمل والتضحية. وبالتالي فإن مجيئنا إلى

فلسطين، وعلى الرغم من وجودنا تحت جناح رئيس الشرطة، ليس تخلياً عن المعركة. بل هو انتقال من جبهة إلى أخرى. سنشتغل ونوعّي الأهالي إلى خطورة الصهيونية وخطورة الهجرة وبيع الأراضي.

ولم يقولا شيئاً للأب. ولكنه حين عاد ذات مساء ولم يجد سميح أبلغه إبراهيم أن زميله وجد عملاً واستأجر غرفة. ولامه عارف. كان يجب أن يظل هنا تحت الحماية. في أية لحظة قد يسوقونه إلى الجيش إذا أمسكوا به ولو عن طريق المصادفة. الإعفاءات ألغيت. هذه المرة سفر بلك. تعبئة عامة بلا استثناء ولا إعفاء ولا أمي ارحميني. إسمع يا إبني. إذا تعرضت لك دورية أو أي إنسان قل فوراً إنك ابن عارف الإبراهيم.

وارتبك عارف قليلاً حين قال له إبراهيم إن سميح قد غادر لأنه أحس أنه يضايقنا. فأنت تنام في السرايا وتترك سريرك. والبيت ضيق. ولكنه دارى ارتباكه بشيء من الكذب. فهو، كما قال لابنه، لا ينام في السرايا بسبب الزحمة بل بسبب الشغل. وعلى أية حال فالبيت الجديد كبير وواسع. لقد تم تنظيفه وسينتقلان إليه حالما يصل الأمر من الباشا.

وأبلغ إبراهيم زميله بتحذيرات أبيه وباحتمالات البيت الجديد لكنه لم يقبل بالعودة. وأبلغه سميح أن لا خوف عليه من التجنيد فعمله في الصحافة يحميه. واختصر

الحديث بسرعة لينتقل إلى الموضوع الأهم: يا سيدي أبناء فلسطين لم يكونوا ينتظرون فصاحتك وفصاحتي لتوعيتهم. البلد في حالة حرب داخلية أقسى من الحرب المعلنة بين الدولة والحلفاء. إذا قرأت الصحف ستعرف أن هناك حرباً سرية داخل دوائر الدولة نتائجها على الأرض ودخانها في الصحف. اليهود يشترون الأراضي مستغلين فقر الناس من جهة وفساد أجهزة الدولة من جهة وطمع الملاكين الكبار من جهة أخرى. ولا يكاد يمر يوم إلا وتحدث مشكلة يثيرها أبناء البلد ضد اليهود أو ضد الموظفين. اشتباكات في الشوارع. شكاوى إلى أعلى المستويات، إلى الأستانة. لجان إسلامية ولجان فلسطينية واتصالات ومحادثات سرية. ويبدو أن اليهود يشتغلون على أكثر من خط.

* وأنت ماذا تشتغل؟

جاءت زيتاً على زيتون. رئيس التحرير يتصرف كأنه قائد جبهة. بالنسبة له المعركة من أجل فلسطين وأراضيها مستمرة دائماً في الليل والنهار. وقد طلب مني أن أشتغل مخبراً متنقلاً في الوقت الذي أبيع فيه الصحف. أدور في دوائر الدولة. أجلس في المقاهي. أتجول في الأسواق. وكلما سمعت عن حادثة بيع أو شراء أو مشاغبة أو تزوير أو تمرير معاملة بالواسطة أنقلها للجريدة فيثيرونها بشكل علني. ولكن تصور.

القانون يمنع المناداة على الصحف.

* سميح! مادمت في الجريدة، هل أستطيع أن أنشر شعري فيها؟

* أهذا وقتك ووقت شعرك يا إبراهيم!؟

— ٧ —

ساد الارتباك قرية هرتزليا. لقد وجدت بين الصخور المجاورة للسرداب جثة آخر لاجئ جاء إلى القرية. واختفى من السرداب أيضاً العروسان الهاربان اختفاء مفاجئاً. والمحير أكثر أن القتيل إسرائيل جيب كان مربوطاً بحبل. ومن أين جاء الحبل؟ وأين اختفى العروسان؟ وهل هناك علاقة بين الأمرين؟

في كافة الأحوال يجب مواراة الجثة بصمت. ويجب السكوت عن اختفاء العروسين. ولكن الأهم من هذا كله يجب إخلاء المخبأ نهائياً. من المحتمل أن يكون العروسان من الشرطة.

قالت روبيكا لألتر الذي اهتم جدياً بالأمر: ضحكوا علي يا ألتر.

فقال لها مؤنباً: بل أعمتك المصاري. قلت لكم ألف مرة إذا احتجتم إلى مصاري أنا أعطيكم. وكيف تأتين إلى هنا؟ أنت انفضحت. تريدين أن تفضحي نزل أستر أيضاً؟ إذهبي إلى القرية فوراً.

ألا أستطيع الانتظار حتى الصباح؟

* لا. النزل سيمتلئ بالزبائن. ومعظمهم من الضباط. قد يكون عاشقك الأرمني واحداً منهم.

قالت ليديا: نحن أيضاً يجب أن نعرف من هو العاشق الأرمني. اتركها تخدم في المطبخ. وإذا رأته وتعرفت إليه تقول لنا. على الأقل يجب أن نفهم لماذا كان إسرائيل مربوطاً بالحبل.

وكانت نهال تشرح لعارف لماذا اضطرا لقتل إسرائيل: أنا مع مبدأ أن الجاسوس يجب أن يأتي إلينا حياً. وكنا نريد أن نختطف إسرائيل. وقد ساعدنا أن المخبأ مطل على البحر من مدخله الآخر. في الليل فاجأه أتلخان بضربة أفقدته الوعي. وبعد أن قيده وحمله لينزل به نحو البحر أفاق. حتى أنه صرخ. وكان من الممكن أن يوقظ كل من في السرداب.

قال أتلخان: أول ما أسعفتني به بديهتي هي إلقاؤه عن الجرف على الصخور. ثم نزلنا وراءه. حين وصلنا إليه كان قد فارق الحياة.

علقت نهال: هذا يعني أن عمليتنا فاشلة.

وقال عارف: ما رأيكم في أن نشن هجمة على هرتزليا ونجلب كل الذين في السرداب؟

لا أظن أنهم سيظلون بانتظارنا. لا شك أنهم هرّبوا الموجودين إلى مكان آخر.

الفصل السابع عشر

— ١ —

اشتدت الهجمات الإنكليزية على غزة. وكان الجنرال أللنبي، الذي حل محل موراي، على رأس القوات الإنكليزية في مصر، قد بدأ عملياته التي أثبتت أنه يستحق لقبه «الثور الهائج».

وفي جلسة مناقشة مع ضباط الأركان والضباط الألمان طرح الألمان ضرورة التفكير في خط الدفاع الثاني. وحين استنكر جمال مجرد التفكير في ذلك قال الجنرال فون كريس: هذا لا يعني أننا سنسلم غزة. بل يعني طرح كافة الاحتمالات والاستعداد لها. أقصد أنه إذا نجح الإنكليز في احتلال غزة يجب أن لا نرتبك وننهار. ويجب أن تكون لدينا إمكانية للتحرك السريع. وأيده علي فؤاد. ثم تم الاتفاق على أن يشمل خط الدفاع الثاني يافا تحسباً لإمكانية إنزال قوات من البحر.

وصدر الأمر بترحيل سكان المدن الساحلية الواقعة جنوب يافا. وبدأ اليهود ينتقلون من يافا وتل أبيب وميكفيه إسرائيل ورويشون لوزيون وزيونه وشارونه نحو القدس والمستوطنات الداخلية. وبذل نعمان جهداً كبيراً للسماح له بالبقاء في أقبية الخمر. وأقنع

العسكريين بأن وجوده هنا هو لخدمتهم. إنه باق على مسؤوليته من جهة. ومن جهة أخرى فإن الخمارة تتحول إلى مطعم. فبعض الضباط قد لا يحبون أكل الثكنة. هنا يأكلون لقمة طيبة وساخنة. وقد يشتهون كأساً.

واستطاعت المستوطنات الداخلية استيعاب معظم المهاجرين اليهود. كما وجدها بعضهم فرصة للبدء ببناء مستوطنات جديدة في الشمال. أما المهاجرون العرب، المسلمون والمسيحيون، فقد ملأوا الطرقات وشوارع المدن مما زاد في مظاهر الفقر والجوع والتشرد.

ولم تكن الحكومة قادرة على أن تولي هذه الحشود المتدفقة من السواحل أي اهتمام، أو أن تقدم أية خدمات لها. فالحرب تزداد ضراوة. وقد استطاع الثور الهائج أللنبي أن يقترب كثيراً من غزة وأن يهدد يافا أيضاً. وصار من الواضح أن الطيران سيحسم هذه الحرب.

ويدرك ألتر ليفي أن عمله الآن مزدوج. فكثافة العمليات العسكرية تعني ازدياد أهمية أية معلومة عن تنقلات القطعات العسكرية أو قدوم أسلحة جديدة. وهذا يعني تكثيف الجهود لمعرفة خفايا اجتماعات القيادة العسكرية. وقد استعان على ذلك بمن يمولهم من عمال السنترال وعساكر الخدمات و...نزل أستر حاييم،

والاتصال بليوفا من أجل المعلومات المستقاة من مراقبة الرسائل.
وفي الوقت ذاته يجب أن يعود الشغل إلى المخبر في عتليت. ولكي لا تقوم الدولة بتهجير مَن هناك أو في بقية المستوطنات الساحلية كان لا بد من حملة لإرباك الحكومة. فبدأ يرسل الرسائل حول مجزرة جديدة يعدها الأتراك لليهود، مشيراً إلى أن هذا الترحيل هو الخطوة الأولى في المجزرة المرتقبة. والكل يذكر أن مجزرة الأرمن بدأت بقرارات ترحيل بحجة إخلاء المناطق العسكرية. وكان في رسائله هذه توضيح للإنكليز أن إخلاء المناطق الساحلية يعني وجود نشاط عسكري واسع. وفي الوقت ذاته إجبار للحكومة العثمانية على تقديم توضيحات حول إجراءاتها.
وفعلت هذه الرسائل فعلها. فبدأت الصحف في مصر تكتب عن وحشية جمال باشا من جديد. وبدأ القنصل الأميركي يعبر عن قلقه. وطيّر سايكس من القاهرة برقية ذكر فيها بأن تل أبيب قد نهبت. وأن عشرة آلاف يهودي صاروا دون مأوى أو غذاء. وأن المستوطنات اليهودية كلها مهددة بالخراب. ونُقل عن جمال باشا أنه قال إن السياسة الأرمنية سوف تطبق الآن على اليهود.
وكاد جمال يفقد أعصابه: العمى في قلوبهم. نحن رحلناهم من أجل الحفاظ على سلامتهم. ثم لماذا لا

يذكر أحد عشرات الآلاف من الأهالي الآخرين الذين زُحُلوا؟ هؤلاء اليهود أولاد الميتة لا يعرفون كيف يصلون على النبي.

وتلفت حوله كأنه يبحث عن شاهد فلم يجد إلا بهاء. تطلع إليه ولكثرة ما كان متوتراً ضحك: لا يعرفون كيف يصلون على النبي.

كلٌ له نبي يصلي عليه حسب مصلحته يا باشا.

* واليهود. ماذا أفعل بهم؟ صارت لعبتهم بالنسبة لي مكشوفة. يريدون أن يلعبوا معنا لعبتهم مع عبد الحميد نفسها. ظلوا يَلقْلِقون عنده ويعرضون عليه أموالهم لكي يسمح لهم بالبقاء في فلسطين. وحين تأكدوا من عناده واستحالة تلبيته لطلباتهم شنوا حملتهم عليه في أوروبا كلها. حولوه إلى مهرج. ونحن قبلنا حملتهم وتعاونا معهم. كان التقاء مصالح. نحن ضد عبد الحميد وهم ضد عبد الحميد. إتحاديون وماسونيون وصهيونيون. أما أن يلعبوها معي أنا. والله أنسيهم الحليب الذي رضعوه.

قال بهاء: والله يا باشا علاج هؤلاء اليهود يجب أن يكون مثل علاج الوجع في الفم.

* كيف؟

الدواء في الفم يجب أن لا يبقى طويلاً وإلا ابتلعه الإنسان أو فقد تأثيره. يجب أن يكون سريع التأثير

وحاسماً.

* يعني؟

— يعني كفى تدليلاً لهم. هم مواطنون مثل هؤلاء المواطنين. الناس كلهم يجوعون. ما معنى هذه الضجة على اليهود؟ على رؤوسهم ريش؟ الناس، كما قلتم عظمتكم، كلهم يهجَّرون من منطقة العمليات. لماذا هذه الضجة على ترحيل اليهود وحدهم؟

بسيطة. أنا أعرف شغلي معهم.

وأصدر أوامره بالتشدد في جمع السلاح من كل إنسان ليس في صفوف القوات المسلحة. وكان بذلك لا يقصد إلا اليهود. كما أصدر أمراً بملاحقة أي نوع من أنواع التنظيم المسلح وغير المسلح. ولكنه اضطر لوقف ترحيل اليهود من مستوطناتهم. فكانت فرصة أن يوسعوا هذه المستوطنات على حساب القرى العربية التي أخليت من سكانها.

وكان نزل أستر حاييم قد بدأ عصره الذهبي. صار ألتر يرابض فيه باسم ديفيد أفراييم بجواز سفر أميركي. وبصفته تاجراً يشتغل في التصدير والاستراد وقد توقفت أعماله بسبب العمليات العسكرية. وهذا ما يجعله يستقر في بنسيون أستر حاييم إلى أن يحصّل أمواله من المدينين له. ففي البنسيون مجال للتسلية وتمضية الوقت بالأحاديث والشرب والسهر ولعب

الورق.

* تعرف أنني أموت من الضجر نهاراً. ولا أصدق متى يأتي الليل لكي تنتهوا من أعمالكم واجتماعاتكم وتجيئوا لكي نتسلى.

وتطلع البنباشي عارف حكمت بيك إلى اليوزباشي عادل بيك وغمزه وهو يقول: إذا كانت لهذه الحرب ميزة فهي أنها جعلتنا نتعرف بالمستر ديفيد.

* هل ستطول الحالة على هذا النحو.

ويشرحان له مُطَمْئنين أن الحالة لن تدوم. ويسهبان في شرح الاستعدادات العسكرية. وهما يتغامزان على ورقه. ويصران على أنهما لا يريدان أن يتدخل في اللعب أحد. وخاصة أولئك الضباط الألمان والنمسويون الذين يأتون لشرب البيرة والرقص مع نساء يجلبونهن من الخارج.

وفي المدينة التي صارت تعج بآلاف المهجرين وآلاف الجنود كان يسهل على ألتر أن يتنقل. ويصعب على عارف وقواته ضبط الأمن والمراقبة. حتى أن كثرة العسكريين الألمان والنمسويين واليهود المدنيين بلغاتهم المتعددة جعلت المدينة عصية على الفهم أيضاً.

وعارف يعرف أن هذا الجو ملائم جداً لنشاط الجواسيس واللصوص والنصابين. ولذلك صار الشغل يستنزف معظم وقته. فلم يعد يجد الفرصة الكافية

لرؤية ابنه كما يجب. وكان يعزي نفسه بأن ابنه شاب وقبضاي. ولا داعي للخوف عليه.

لا يستطيع أن يتخلى عن أمن المدينة. ولا يستطيع الامتناع عن حضور اجتماعات القيادة العسكرية من أجل التنسيق مع الجيش. ولا يستطيع أن يجد وقتاً يتفرغ به لألتر ليفي. ولا لابنه.

لكن الجميع في القيادة كانوا يمسكون قلوبهم بين أيديهم خشية انفجار حرب أهلية بين أية طائفة وطائفة أخرى. هذا التشرد والجوع والإذلال قد يتفجر بسبب لقمة أو سرقة. يجب منع المسلمين المهاجرين إلى القدس من اقتحام الحي اليهودي أو الحي الأرمني أو حتى الحي البخاري أو المغربي. كل ما في المدينة يثير الحساسية ويفجرها. الكنائس يجب أن تبقى مصونة. والمدارس اليهودية والمسيحية لا أحد يقترب منها. الجوامع والكنائس مفتوحة للمشردين الذين يريدون النوم أو التستر من المطر أو انتظار صدقة ما بعد الصلاة. يجب أخذ الحذر.

بين المهجرين والعسكريين المتوترين كانت تكمن تلك الكراهية المتربصة بين المسلمين والمسيحيين،بين السنة والدروز، بين العلويين والسنة، وبين الدروز والمسيحيين. شيطان مستكين. لكنه لا ينام. ولا تعرف متى يهب من استكانته فيحول البشر كلهم إلى

شياطين متعطشة للدم.
وحدهم اليهود كان يبدو عليهم أنهم خارج هذه المعمعة. وكانوا يحسبون حساب هذه الاحتمالات أكثر من القيادة العسكرية أو قيادة الشرطة. أخفوا توترهم بقدر ما استطاعوا. ولكنهم ظلوا حريصين على أن لا يستفزوا أحداً. يتحاشون أي اصطدام أو احتكاك. تجارهم مسالمون قابلون لذلّهم. عارفون بكراهية الآخرين لهم. لا ينكرون دناءتهم التي يعيّرونهم بها. ولا ينكرون حبهم للمال. لكن هذا كان في المدينة فقط. أي في السوق. وكان حيث يضطر اليهودي لمخالطة أعداد غفيرة من الأديان الأخرى المسيطرة.
ويشرح عارف فكرته أمام ضباط القيادة: في الغيتو، في حارة اليهود، كان اليهودي يبدو أكثر ارتياحاً. لا يخرج من الحارة إلا مضطراً. وإذا خرج فبشخصيته المطواعة المتقبلة المتذللة. وقد هيأ نفسه لقبول خضوعه. يلقي السلام ولا ينتظر الجواب. ويحمل شارة تدل عليه وعلى دينه. ويفسح الطريق للقادم من أمامه أو من خلفه. وإذا لم يخرج استرخى وعرف نفسه فاطمأن إليها.
أما في المزارع فيختلف الأمر تماماً. هناك أناس يمتلكون الأرض والمزارع. وهم مستعدون للدفاع عنها. بعضهم يحمل السلاح من أجل ذلك. وبعضهم يستأجر

من يحمل السلاح ويقاتل عنه. مثلما يستأجر من يشتغل عنه. والذين يستأجرهم يكونون أحياناً عرباً، وأحياناً شركسيين. ويفضل في معظم الحالات أن يكونوا يهوداً. والمزارع والمستوطنات تختلف عن بيوت المدن. هناك يستطيع المزارع أن يخفي سلاحه حيثما شاء. وأنت لا تستطيع أن تنقب الدنيا كلها. أما في المدن فالأمر مختلف. تستطيع أن تقوم بكبسات. ولذلك فهو يقدر أن أبناء المدن غير خطرين لأنهم غير مسلحين.

واليهودي المسلح في المستوطنة لا يريد فقط أن يحمي المزرعة أو الأرض. بل أن يحمي كبرياءه ويعزز موقعه الجديد: هنا أنا أعود إلى حقيقتي. ابن شعب الله المختار المتفوق على هؤلاء الهمج المحيطين بي. مسلح بالمال والعلم. حين تحدثني حدثني باحترام. حين أحييك فهذه منة. وحين تحييني فافعل كما تحيي أي باشا في الإيالة. أنا الخواجة. والخواجة هنا كلمة تساوي الباشا. ونفسية العربي ابن البلد محفوظة ومبصومة. إنه يكتفي بهذا الإحساس بالفوقية حتى وهو يرى ماله يهدر، أو يرى الآخر يجمع المال. إبن البلد يكفيه الإحساس بأنه يشغّل الآخرين. والإحساس بأن هذه المرأة رخيصة ومباحة أو ممكنة. حتى لو لم يستطع أن ينال منها شيئاً. يكفيه إحساسه بالتفوق

عليها. ولذلك فإن عمل اليهود بين صفوف أبناء البلد سهل. أدخل أية امرأة بينهم وعلمها أن تتسامح بكلمة ماجنة أو لمسة يد عابرة. وعندها تتسرب في حياتهم كالهواء. أما إذا علّمتها أن تضحك وتتحدث، وأن تتظاهر بالغفلة، وهي تقوم ببعض الحركات التي تبدو عفوية لتظهر ومضة من أي مكان من جسدها، فإنها تصبح مطلوبة ومتمناة. المرأة الأخرى، التي تتساهل أكثر من ذلك والتي تجالس ضمن شروط واضحة ومكشوفة، فتشرب معهم، وتعد هذا، وتمنّي ذاك، ثم تنفذ وعدها مع أحدهم، هذه كنز يجب أن لا يهدر. يجب أن توظف للأمور الخطيرة مثل نتح الأسرار من الضباط والباشوات ومعرفة خفايا الدولة ومخططاتها وتمرير عقود البيع الخطيرة أو استنزاف الثروات الكبيرة.

اليهودي إذاً متفوق وهو مذلول ومباح، مثلما يكون متفوقاً وهو مسلح ومستقل. الفارق هو أن تفوقه في الحالة الأولى تفوق ذكي مراوغ يظهر الخضوع. وفي الحالة الثانية تفوق استفزازي مشاكس يظهر التسلط وينتقم من ماضيه.

ويضيف عارف: لذلك أنا أرى أن نتشدد في مراقبة اليهود.

ويبدي جمال باشا استياءه: يا عارف. لا نستطيع. إذا راقبنا اليهود تضايقوا. ونحن دون هذا سمعتنا تلاك

بالألسن في كل مكان من أوروبا. هؤلاء اليهود لا حل لهم إلا بقتلهم كلهم، وهذا غير ممكن الآن. أو بالتساهل معهم حتى تمر هذه الأزمة. وبعدها يعيننا الله عليهم.

* طيب. المحلات العامة يا باشا. المطاعم والفنادق والبنسيونات هذه أماكن يرتادها ضباطنا.

قال الجنرال الألماني فون كريس: بصراحة إذا كنتم ستراقبون فراقبوا ضباطكم. الضباط الألمان والنمساويون متعودون على قضاء الإجازات المريحة دون مراقبة.

ويجيب عارف بأدب: يا جنرال نحن لا نراقبهم. بل نحميهم.

ويثور فون كريس: أنت لا تستطيع أن تحمينا. نحن هنا لحماية الأمبراطورية العثمانية كلها.

ويخرج. فيضع جمال باشا رأسه بين يديه لكي يهدئ نفسه من أن ينفجر، ولكي لا يعطي المجال لمتابعة الحديث. ثم ينهض تاركاً الاجتماع ليقوده علي فؤاد باشا.

ويتطلع إليه عارف منتظراً فيقول له: أترك الموضوع الآن.

— ٢ —

ولكن الناس كانوا ينظرون إلى الأمور بعيون أخرى. أولاد الميتة، اليهود، لديهم كل ما تشتهيه النفس: الأكل

للجائعين، والبيوت النظيفة للمشردين، والنساء المباحات للمكبوتين، والرجال الخاضعون لمن يريد أن يمارس تسلطاً أو تفوقاً. نساء رخيصات ورجال مذلولون لا يجرؤون أن يرفعوا عيونهم إليك.

كان شيء من هذا يتم تداوله همساً بين المشردين الجائعين. ثم صار الصوت يعلو ويزداد تشنجاً وعصبية. ومع تفاقم الجوع وتفشي مشاهد الخلاعة والاستباحة والمساومات العلنية على قضاء الأوطار بدأت الصدور تحتقن والعيون تجحظ والأشداق تنفتح لتقطر اشتهاء.

وماذا ننتظر؟

ينتظرون من يشعل الفتيل. والفتيل يشتعل حين تأتي جثث خمسة ضباط من الجبهة مع أقوال عن ثلاثين جثة لجنود وأنفار تركت في العراء. وكيف قتلوا؟ لا أحد يعرف. خيانة. العدو استطاع أن يفاجئهم في مهاجعهم وهم نيام. لا بد أن هناك من قاده إليهم. فهم قد وصلوا تلك الليلة ذاتها إلى المكان وخيموا فيه. جواسيس. طبعاً جواسيس. كنا في حالات سابقة نتهم الألمان. ولكن هذه المرة بين القتلى ضابط ألماني. ولهذا جلبوا جثث الضباط. ومن سيكون هؤلاء الجواسيس؟ أتحتاج إلى تخمين؟ من غير هؤلاء اليهود أولاد الكلب؟ حرام أن يكون لهم عيش بيننا. عليهم يا شباب. آن الأوان للتخلص من هذا الكفر وهذه الدعارة وتلك

الموبقات. عليهم. حطموا خماراتهم وبيوتهم. جرجروا رجالهم. وافضحوا نساءهم.
ومع تصاعد الأصوات تزايدت الأعداد. وبدأ التجمع يتحول إلى تشجيع. حتى الدولة لن تتدخل. بل الدولة تريد ذلك. ولكن الظروف لا تسمح لها بالتنفيذ بنفسها. هذا واجبنا نحن. نحن الذين سنحمي الإسلام. بل نحن الذين سنأكل لأننا جائعون، ونشرب لأننا عطشانون. وقد نصل إلى الأموال المخبأة.
ويصل الجمع المندفع إلى أول بيت يهودي. وعند الباب الذي أرادوا تحطيمه لاقتحامه سقط أربعة قتلى من المهاجمين. كانت المفاجأة كبيرة. اكتشفوا أن أولاد الميتة مسلحون. وقبل أن يعرفوا إن كان اكتشافهم هذا يفرض عليهم المزيد من ضراوة الهجوم أم الانسحاب إيثاراً للسلامة، انهالت عليهم الطلقات من البيوت اليهودية المجاورة. وبدأ المتجمهرون بالبحث عن سبل للنجاة. لكن المدافعين كانوا قد أصبحوا يحيطون بالمهاجمين. يجب أن يزداد عدد القتلى لكي لا يعود أحد في المستقبل إلى التفكير في النيل منا.
ودب الذعر بين الناس. وهاموا على وجوههم بحثاً عن الملجأ في الشوارع والحارات الأخرى وفي المساجد والكنائس. ولكن بعضهم قتل في صحون الجوامع وباحات الكنائس. حتى صاروا يحسون أن اليهود

موجودون في كل ثنية وحارة، وتحت كل حجر.

ولم يعرف إبراهيم أنه نجا، أو أنه لم يصدق نجاته، إلا حين فتحت له بهيجة باب الدار وأوصدته وراءه وهي تشده بلهفة: الحمد لله على سلامتك. ما الذي دخلك في هذه المشاكل؟ وأدخلته إلى غرفة أهلها. فجلس مكللاً بالخزي. يتحاشى أن يتطلع إلى الفتاة.

وبدأت الحكاية تكبر منفوخة هذه المرة بالرعب. كل يهودي كان معه رشاش. من أين أتتهم هذه القوة؟ ومن أين لهم هذه الشجاعة؟ ومن أين لهم السلاح؟ وكيف تسلحوا بصمت ونحن كان محرماً علينا حمل السكاكين في مطابخنا؟ هؤلاء سحرة. مؤاخون للجن. الجن قاتل معهم. وإلا كيف نفهم أن يتغلب واحد من هؤلاء الأنجاس على ثلاثة شبان مسلمين وهو أعزل. يا رجل حتى النساء. النساء قتلن منا أكثر مما قتل الرجال. فتحت واحدة منهن الباب لاثنين من الهاربين وكانت عارية كما ولدتهما أمها. قليلا العقل دخلا إلى البيت. وهناك قتلتهما. هي نفسها قتلتهما. لا. لا. لم تكن عارية. ورطتهما بالدخول، وتظاهرت أنها ستتعرى. المهم أنهما قتلا.

قال جمال باشا: أنا أفهم أن يدافعوا عن أنفسهم. ولكن لماذا يلحقون بهم إلى الجامع؟

فقالت له سارة وهي تبتسم: مجنون يقاتل مجنوناً.

أتتوقع إجابة عاقلة عن تصرف أي منهما؟

وحين أبدى استغرابه من وجود السلاح معهم بعد أن كان قد أصدر أوامره بجمعه منهم، شرحت له أنهم قد سلموا ما كان لديهم من السلاح إطاعة لأمره. لكنهم لا يستطيعون أن يظلوا دون سلاح. عظمتكم رأيتم بأنفسكم. لولا أنهم كانوا اليوم مسلحين ما الذي كان الغوغاء سيفعلونه بهم؟ كان يجب أن تسأل يا باشا: من أين يشترون السلاح؟ ألم يقل لك أحد إن بواريدهم ألمانية؟

— تعنين أن الألمان...

* الألمان بشر يا باشا. يحبون المال مثل غيرهم.

وتضحك بإغراء: ويحبون النساء أيضاً.

هل يضايقونك؟

* أحس بنظراتهم. ولكنهم لا يجرؤون. يعرفون أنني من بضاعة الباشا.

إذا تعرض لك واحد منهم قولي لي.

* تظن أنني لا أستطيع الدفاع عن نفسي؟ أنا من هؤلاء اليهود الذين عملوا معركة اليوم.

— ٣ —

ولكن عارف لم يتوقف عند هذا الحد. قام بهجومه الخاص على حارة اليهود. ولم يقتل أحداً. ولكنه عاد بمعتقلين وبأسلحة. وحين أنكر المعتقلون أنهم قد

شاركوا في الأحداث طمأنهم: أنا لم أجلبكم من أجل ذلك. أريد منكم شيئاً واحداً فقط. من أين جاءكم السلاح؟

— اشتريناه يا بيك.

* ممن؟

من تاجر سلاح اسمه ألتر ليفي.

* تاجر سلاح؟

تاجر كل شيء يا بيك.

* من أين يأتي بالسلاح؟ هذا سلاح ألماني.

لا نعرف. يهربه، يسرقه. علمنا علمك يا بيك.

* وأين هو؟

العلم عند الله والحكومة يا بيك.

أين يذهب ألتر؟ يطير؟ تبلعه الأرض؟ أولاً وقبل كل شيء فتشوا بيت كل يهودي في البلاد. سأنبشه من تحت الأرض.

— ٤ —

قال ألتر لسارة: كنت أظنه أكثر ذكاء. هل من المعقول أن أختبئ في بيت يهودي؟ ولكن مع ذلك يجب أن تشغليه. إنه على وشك أن يصل إلى مخبئي.

* ماذا تقترح؟

أعتمد عليك أنت في هذه. فكري في طريقة تشغله أو تشل حركته.

* سنرى.
وبسرعة.
— ٥ —
دخلت بهيجة إلى غرفة عارف وقدمت له ورقة مبلولة. اعتذرت منه لأنها كانت في قميص إبراهيم الذي غسلته دون أن تنتبه لها.
فتح عارف الورقة المطبوعة بعد خروج بهيجة وقرأ فيها: جاء في مروج الذهب: (سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليهم عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفقّده يلزمنا. فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا. وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا. وهربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا. ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا. وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا. وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا. واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا. وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا).
ما هذا؟ ولم يحتفظ إبراهيم في ثيابه بهذه القصاصات؟ مناشير؟
تذكر. أين سمع أن الطلاب يوزعون مناشير هي عبارات مأخوذة من الكتب؟ أعاد القراءة. العبارات فيها ذكاء

وفيها سذاجة. الذكاء لأنها تنطبق على واقع الحال عندنا. والسذاجة لأنها عبارات يمكن أن تأتي في قصيدة أو مقطوعة أدبية. وليس في منشور سياسي.

ولكن ما الذي أوصل إبراهيم إلى هنا؟

أجابه إبراهيم حين رجع، ودون أن يبدو عليه أنه قد اقترف ذنباً: أو صلني ما رأيته.

وما الذي رأيته؟

* رأيت الناس يموتون جوعاً. ورأيت البلاد تضيع. والناس يقتلهم أعداؤهم المتسللون. ولكن المشكلة أنني رأيتهم ولم يموتوا بعد. هذه هي الفظاعة. حين ترى الميت ترى جثة. جثة منتهية. جيفة. رأيت جثثاً مرمية في الشوارع. ولكن الذين لم يموتوا بعد شيء آخر.

الذين يموتون هم الذين لم تعد أجسادهم قادرة على الاحتمال.

* الاحتمال؟ لا يا أبي. هذا ليس احتمالاً. الجوع هو الذي يهدم كبرياء الناس فيتخلون عن كل ما يعتزون به: الكبرياء والكرامة والشرف والأرض والانتماء للأهل والقبيلة والدين والوطن. هذا ما يفعله الجوع. ولكن هذا يفعله الخوف أيضاً. والناس خائفون وجائعون في الوقت ذاته.

معك حق. الجوع يدفع الناس إلى أمور كثيرة. ولكن يا إبني أنت كبرت. يجب أن تتعود على هذه المسائل. فلا

تفاجئك أو تثير اضطرابك.
* نتعود؟ تعرف ماذا تعلمنا يا أبي؟ ذات يوم شرحوا لنا في المدرسة شيئاً عن التعود. حين نشم رائحة تضايقنا فإن جملتنا العصبية كلها تتنبه وتعبر عن ضيقها. بعد حين من البقاء مع الرائحة يخف الضيق. أتعرف معنى ذلك؟ معناه أن هناك شعيرات حساسة في مجرى الشم قد ماتت فلم تعد تتحسس. وبالتالي لم تعد تنبه الجملة العصبية. والأمر ذاته في السمع. حين تمر في سوق النحاسين فإن الضجة تثير أعصابك. لو أقمت هناك لتعودت مثلما يتعود المقيمون والنحاسون أنفسهم. السبب نفسه: الشعيرات الحساسة والأعصاب الحساسة في الأذن قد ماتت. نحن لا نتعود يا أبي إلا إذا مات فينا شيء. تصور حجم ما مات فينا حتى تعودنا على كل ما يجري حولنا.
تطلع عارف إلى ابنه غير مصدق. العبارة أكبر من حجم الولد. ومسؤوليتها أكبر من قدرة الأب على التحمل.
حول إبراهيم نظره عن أبيه وأضاف: نعم. يجب أن تزول هذه الدولة قبل أن تنهينا وتحولنا إلى أكياس فارغة.
ألا تقول لي من أين تجلب هذا الكلام؟
* يا أبي. الكلام لا يُجلب. الكلام يأتي. هل هي المرة الأولى التي تقرأ فيها منشورات؟

لم أكن أتصور أن تقرأها أنت.

* هل يزعجك أن أقرأ منشورات؟ البلد كلها تقرأ المنشورات.

لكن الأب لم يكن قادراً في هذه اللحظة على التطلع في وجه ابنه. سأله دون أن يرفع نظره: ما الذي كبّرك بهذه السرعة؟

ابتسم إبراهيم: هل كبرت؟

أسرع مما كنت أتصور.

* لم أحس بهذا. ولكن يطاردني إحساس دائم بأنني معرض للموت.

شهق الأب خائفاً. فأشاح الولد بوجهه عن أبيه وأكمل: وفكرة الموت تجبرك على أن تكبر.

هز عارف رأسه بصمت وهو يعيد الورقة لابنه.

نظر إبراهيم إلى الورقة ثم تطلع إلى أبيه: أبي. العبارة الأخيرة تقول: وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا. الحكام يقولون دائماً إنهم لا يعرفون. هل كنتم توصلون لهم الأخبار؟

أية أخبار؟

* ما يجري. هل يعرفون في القيادات العليا بما يحدث للناس؟ هل تخبرونهم بما يجري؟

تظن أنهم لا يعرفون؟ يعرفون. ويغضبون منا إذا أخبرناهم بما يعرفون. ولكنهم حين يأتيهم السؤال:

لماذا تركتم الأمور تجري على هذا النحو؟ يقولون دائماً: ما كنا نعرف.

— ٦ —

ويدخل اليوزباشي جواد أدهم إلى بنسيون أستر وهو يفتل شاربيه. ويناديه ألتر لمشاركتهم في اللعب فيقول ضاحكاً: لا حبيبي. لا. أنا أعرف. حظي في اللعب سيئ.

ويجيبه ألتر: لأنك سعيد في الحب.

فعلاً. فعلاً. ويضحك بقهقهة عالية تعلن عن وجوده. فتخرج إليه ليديا وهي بكامل زينتها. ويتقدم منها جواد مزهواً كالطاووس. ويأخذها نحو البار: ماذا ستشرب عصفورتي؟

* زعلانة منك. تأخرت كثيراً.

لا. حبيبي. لا. كله إلا الزعل.

* أنا لا أستطيع أن أزعل منك. ولكن ماما تزعل مني إذا تأخرت عن البيت. أنت وعدتني أن تأتي في السابعة وها هي الآن الساعة التاسعة.

بسيطة. بسيطة. الآن نشرب كأسين. نتعشى. نتناغش. أنسيك الزعل وحياة عينيك.

* تظل تتأخر ثم تضحك علي بكلمتين.

لا وحياة عيونك. لكن صار عندنا اجتماع مهم.

* اجتماع. اجتماع. كلما تأخرت علي تتحجج بالاجتماع. بدأ الفار يلعب بعبي يا بيك. عشقان واحدة

ثانية حضرتكم؟

وأين سألاقي أحلى من حبيبتي ليديا؟ ومن عبَها. أريني هذا الفأر الذي يلعب فيه.

ومد يده ينزل ياقة ثوبها ليكشف عن أعلى نهديها. وتشاغلت عن غزله بادعاء الزعل: إذن لماذا تهملني؟

صدقيني. وحياة شرف حضرتنا اجتماع.

* أنت يوزباشي قد الدنيا. لو أنك مشتاق إلي كنت أنهيت الاجتماع بسرعة.

صحيح حبيبتي. صحيح. لكن هذه المرة كان معنا رئيس الأركان علي فؤاد باشا. الاجتماع مهم ولا أستطيع أن أنسحب منه.

* كله من أجل اليهود والمشاغبات؟

لا. لا. لم نناقش مسالة اليهود كثيراً. لدينا ما هو أهم.

* وإلى متى ستظل مشغولاً عني بهذه الاجتماعات؟

ألا ترين أننا في حرب؟

* متى نخلص من هذه الحرب ونرتاح؟

إطمئني. ستخلص الحرب بسرعة.

* كيف؟

حبيبتي. أنت لا تفهمين في المسائل العسكرية. لا أريد أن أوجع لك رأسك الجميل بها.

* طمئني فقط كيف ستنتهي الحرب؟

بالمختصر المفيد. نحن نحارب الإنكليز. صح؟

* صح. والشريف حسين.
الشريف ليس مهماً. الإنكليز حين نقضي عليهم ينتهي الشريف.
* لكن الإنكليز أسمع عنهم أنهم أقوياء. والله خائفة عليك.
ويقهقه مغتبطاً وهو يفرغ كأسه. ويغمز البارمان لملئه من جديد.
صحيح حبيبتي.الإنكليز أقوياء. لكن كل قوي عنده نقطة ضعيفة. ونحن عندنا جواسيس. أوصلوا لنا أين هي نقطة ضعفه.
وترقص ليديا فرحاً: صحيح؟ أين هي؟
* شمالي غزة جبهتهم ضعيفة. أعطينا اليوم فرمان لفوزي بك قائد الفيلق السادس ليهجم بقوة كبيرة على تلك المنطقة. وفي الوقت ذاته يهجم عصمت بك بقوات كبيرة عند بئر السبع. سيرتبك الإنكليز. ولا يعرفون من أين تأتيهم الضربة. في هذا الوقت تتقدم القوات الاحتياطية وتضرب الضربة الأساسية. وفقع قبلة على خدها وهو يضغط بيده على نهدها. فتنهدت وشهقت وهي تميل عليه متظاهرة بأن لمسته لنهدها قد سحبت قلبها: ألله يسمع منك.
ولكن الهدوء لم يستمر. اقتحم النزل مجموعة من العساكر وعلى رأسهم عارف إبراهيم. وانسل ألتر إلى

المرحاض ومنه إلى الخارج. تلفت اليوزباشي جواد مستاءً: ما بكم تدخلون كالوحوش؟

فأجابه عارف: لا تؤاخذنا يا بيك. نحن نريد أن نجمع السلاح منهم.

سلاح هنا أيها المعتوه؟ ألا ترى أنه لا يوجد إلا الخمور والرقص؟

ولكن جندياً خرج من الداخل وهو يحمل مسدساً عثر عليه. أخذه عارف منه دون أن يتابع حواره مع اليوزباشي. وهمست ليديا في أذنه: المسدس لي. أنا أبقيه معي لأحمي نفسي.

فقال لها: أنت لا تحتاجين إلى سلاح. حين تأمرين أحرك لك لواء بأكمله.

فأصرت: أرجوك. إنه ذكرى من أخي.

فنهض اليوزباشي نحو عارف وقال له وهو يترنح: عارف، أعطني هذا المسدس.

تطلع عارف إلى ليديا بنظرة حاقدة. ولم يحب أن يفتعل معركة فناوله المسدس وهو يخرج.

— ٧ —

في اليوم التالي، وقبل تحرك القوات العثمانية نحو غزة وبئر السبع، هجم الطيران الإنكليزي على مواقع التحشد وضرب القوات الاحتياطية. وحين تقدم الفيلق السادس إلى شمال غزة لم يكن الموقع الإنكليزي ضعيفاً، كما كان

متوقعاً بل كانت فيه قوة نيران هائلة. ودبت الفوضى فتراجع الفيلق السادس. وأخطأ به عصمت بك. فأمر الفرقة الخامسة والأربعين بفتح نيرانها على القوات المتراجعة لأنه ظنها إنكليزية. وكانت الحصيلة:

صرخ فوزي بك كأنه يطلق رقماً في مزاد علني: ألف ومئتان وخمسون قتيلاً. هل أرسلتموني إلى موقع ضعيف أم إلى كمين؟

* الموقع كان ضعيفاً حتى يوم أمس.

كيف عزّزوه في خلال أقل من أربع وعشرين ساعة؟ كذب. المعلومات كاذبة. والاستخبارات لا تساوي بصلة. كلهم عرصات يسكرون في الخمارات ويقدمون لكم تقاريرهم من قفا اليد.

بعد ذهاب فوزي بك تطلع علي فؤاد باشا إلى جواد أتلفان وعارف، ينتظر تفسيراً. قال جواد: معلوماتنا كانت صحيحة.

قال عارف: هناك واحد من احتمالين: الأول أن يكون العدو قد عزز المواقع بالصدفة.

وهبَ علي فؤاد باشا: أعرفك أعقل من ذلك يا عارف. بالصدفة؟ خلال ساعات يعزز الموقع الضعيف قرب غزة ويضع كميناً عند بئر السبع. وتأتي الطائرات لتهاجم القوات الاحتياطية في موقع تحشدها؟ بالحرف عكس ما كنا نخطط. كأنه كان معنا.

قال عارف بهدوء: وهذا هو الاحتمال الثاني.

تطلع علي إليه مستغرباً، فأكد: كان معنا. كان يحضر الاجتماع معنا.

قال جواد: أكيد. هذا شغل جواسيس.

وضحك علي باشا بعصبية: ما هذا الاكتشاف يا جواد بك؟ الآن عرفنا أنهم جواسيس؟ بعلم كزنا هذا شغل جواسيس.

قال عارف: لا يا باشا. الجواسيس هذه المرة نوعية مختلفة. الجواسيس هنا.

وأشار إلى الطاولة أمامه.

هنا؟

* نعم. هنا في هذا المكتب.

ليس في المكتب إلا أنا وأنت وجواد.

كان في المكتب غيرنا حين اتخذتم القرار.

فكر علي فؤاد قليلاً ثم تطلع إلى جواد أتلفان الذي سارع إلى القول: كان في الاجتماع فوزي بيك وعصمت بيك وعارف حكمت بيك وجواد أدهم بيك ونحن.

قال علي: هؤلاء قادة قطعات. هل سأشك بهم؟

قال عارف: ونحن لا نشك بهم يا باشا. ليس بالضرورة أن يكون واحد منهم جاسوساً. ربما كان قد تحدث عن الموضوع دون قصد أمام جواسيس.

* إنتظر. فوزي بيك وعصمت بيك ذهب كل منهما إلى

قطعته فوراً بعد انتهاء الاجتماع.
يظل عارف حكمت وجواد أدهم.
* أين ذهبا من هنا؟
إلى بنسيون أستر.
* ومن هناك تسرب الخبر.
تطلع علي إليهما محذراً: عارف. جواد. هذه ليست لعبة. هذا بنباشي وهذا يوزباشي. والبنسيون للضباط والقادة. لا تعملوا لنا شوشرة.
* الحل بسيط. تسمح لي؟
تصرف. سأبلغ جمال باشا أنك أخذت الموضوع على عاتقك وعلى مسؤوليتك.
في الاجتماع التالي ترك المجال لأتلفان ليشرح الموقف. قال: هذه المرة سنقوم بخدعة. نقطة الهجوم الأساسية ستكون عن طريق الشاطئ. والإنكليز لا يتوقعونها، لأنها تحت رماية سفنهم. لكننا سنحرك قوات وهمية عن طريق بئر السبع لتضليلهم.
في اليوم الثاني هاجم الإنكليز قوة متقدمة عند الفجر على طريق الساحل فلم يجدوا إلا خمسين جملاً تسير بسرعة وهي تجر تنكات فارغة. وفي الوقت ذاته التفّت حولهم قوة عثمانية كبّدتهم خسائر فادحة وجلبت مئتي أسير.
سمع ألتر بالخبر فأسرع يخرج من البنسيون. تمسكت

به أستر فقال لها: انكشفنا. هذه الحيلة مقصودة لكشف الضابط الذي نأخذ منه المعلومات.

وخرجت ليديا من غرفتها على صوته: وأنا. ماذا أفعل؟

أنت تظلين كما أنت. ولكن لكي تبلبليهم صارحيهم بالحقيقة. إجعليهم يحسون أننا اخترقناهم. سيفقدون أعصابهم. ولكن أنا وأنت فقط. نحن نعمل وحدنا. ولا علاقة لأستر. إذا قبضوا عليك أبلغيهم بالحقيقة. واذكري اسمي. وحتى المسدس اعترفي أنه لي.

حين دخل جواد أدهم بنسيون أستر وجدها واجمة. حاول مداعبتها فلم تستجب له. سألها عن ليديا فقالت: في غرفتها تبكي.

دخل إليها: لماذا تبكين يا حبيبتي؟

* لأنك تكذب علي.

أنا؟

* طبعاً أنت. تدّعي أنك في الاجتماعات ثم تبين لي أنك تكذب.

أعوذ بالله.

* اجتماع أول أمس لم تكن فيه.

— كيف؟ ألم أقل لك إننا قررنا أن نضلل الإنكليز.

* وكانت معلوماتك كلها غير صحيحة. تعرف كم خسر الإنكليز بسبب معلوماتك هذه؟

وما علاقتك أنت؟

* ألا تعرف ما علاقتي؟ ألا تعرف أنني أشتغل مع الإنكليز؟

أنت؟

* وأنت أيضاً.

أنا؟

* طبعاً. منذ أن تعارفنا تصل المعلومات التي تحكيها لي إلى الإنكليز.

سأقتلك. سأفضحك. سأحدث القيادة.

* فات الأوان يا بيك. أنت تشتغل معنا شئت أم أبيت. ثم ما المشكلة؟ أليس جميلاً أن نكون معاً في الحب وفي الحرب؟

وجلست في حضنه. لكنه كان لا يحس بها. ولا يسمع ما تقول.

وبغتة اقتحم عارف الغرفة ومعه عناصره المسلحون.

هبت ليديا واقفة. ولكن عارف لم يمهلها: ستقولين لنا مع من تشتغلين.

فتطلعت إليه بتحدٍ: مع ألتر ليفي.

هز عارف رأسه: خذوها.

كان جواد لا يزال جالساً وعاجزاً عن الحركة. تطلع إلى ليديا التي يقتادونها وهمهم: لماذا؟

قالت له: من أجل أرض إسرائيل.

فوضع يده على جبينه.

وخرجت العناصر مع ليديا. فيما ظل عارف واقفاً:
تفضل معنا يا بيك.
هز جواد رأسه بحزن عميق. ولم يستطع منع دمعة من التحدر من عينيه. ثم نهض مستسلماً: هذه القحبة جعلتني أحس أنني حمار. حمار لا يقاد برسن بل يقاد بشهواته. تفضل عارف بك.
ولم يلحق عارف أن يستدير نحو الباب حتى سمع طلقة وأحس بالدم يطرشه.
التفت فوجد جواد يتهاوى على الأرض ومسدسه بيده ورأسه غارق في الدم.
وهذا ستدفع ثمنه يا ألتر ليفي.
ولكن طلقة أخرى من الصالون منعته من الاسترسال مع تصميمه.
انتحرت ليديا أيضاً.
— ٨ —
أنكرت أستر معرفتها بألتر ليفي. قد يكون أحد الزبائن. حتى أنها لم تنتبه لعلاقة خاصة بين ليديا وبين أي من الزبائن باستثناء جواد بيك. كانت تظن أن جواد بيك هو رجلها المفضل. ويا بيك هؤلاء كلهم بيكوات وضباط. يشربون ويقامرون ويرقصون. أنا لا أعرف إلا شغلي. تأمين الطعام والشراب والموسيقى والطاولات النظيفة. أنا لا أتدخل في شيء إلا عند طلب الحساب.

أما هذا الألتر. ألتر ماذا قلت حضرتك؟ ليفي؟ وكيلك ألله....

وإضافة إلى إنكارها التام فقد كلّمه أكثر من ضابط ومسؤول. قالوا له: لا تعمل من الحبة قبة. ويفضل التكتم على قصة جواد بيك. وربما إنكار حدوث قصته من أجل معنويات جنودنا. ماذا سيقول الجنود إذا عرفوا أن ضباطاً من القيادة قد وقعوا في فخ المتجسسات؟ ثم إن الجواسيس موجودون في نزل أستر وخارجه. النزل ليس هو المسؤول. أترك لنا مكاناً نجلس فيه ونأخذ راحتنا. بصريح العبارة لم يوافق أحد على إغلاق نزل أستر.

وكان عارف يفهم سر هذه الضغوط. ويعرف أنه لن يستطيع أن يقاومها، ويعترف بذلك. فصرف أستر إلى نزلها مع التوصيات التي لا بد منها، والتي يعرف أنها في هذه الحالة لا معنى لها. لكنه حاول أن يقول توصياته بلهجة حازمة: ديري بالك. وافتحي عينيك جيداً. وإذا رأيت ما يريب أبلغينا.

ولولا ما يحس به من تحد خاص بينه وبين ألتر ليفي لاعتبر الأمر منتهياً عند هذا الحد وخارج إمكاناته وقدرته على التصرف. لكنه لم يستطع طي الأمر حتى في داخله. فليديا اعترفت أن ألتر وراء القصة كلها. وهذا يجعل الموضوع تحدياً شخصياً له.

ولذلك اتخذ قراره بالإقامة في النزل. سيتابع الأمور بنفسه.

وحين رجعت أستر إلى النزل جاءها عدد من الضباط مهنئين. وأقاموا لها احتفالاً خاصاً. ولم تستطع منع نفسها من تلطيش عارف الجالس وحده في الزاوية: من يعينني على تنظيف سمعة نزلي؟

ومن يهدد سمعة النزل؟

* عارف بيك. تصوروا أن يشاع عن نزلي وجود رجل لا يشرب ولا يتطلع إلى النسوان.

وينفجر الضحك. ويظل عارف وحده صامتاً ومقطباً.

وخرجت أستر بحجة شراء أغراض للنزل. ولكنها توجهت إلى سارة. وصارحتها: وجود عارف في النزل سيخنقنا. وألتر متضايق جداً منه. ويكاد أن يداهم مخبأه. ألتر يريد منك أن تشغلي عارف.

* كيف؟

هذا شغلنا نحن النساء. ولأنه شغلنا فضل أن أبحث الأمر معك على انفراد.

كانت سارة تستمع مندهشة: هل يجب أن أنام معه؟

لا. قد لا يكون هذا ضرورياً. من خلال معرفتي به تبين لي أن هذا العارف لا يمكن اصطياده بأن تعرض المرأة نفسها عليه. أنا أعرف هذا النوع من الرجال. سيزداد عناداً. وسيزداد إعجاباً بنفسه حين يقاوم ويرفض.

رجل مثله يحتاج إلى طريقة أخرى تفقده ثقته بنفسه. كأن يأتي لينام معك، ثم لا يستطيع. شيء من هذا النوع.
نهضت سارة بقرار: أتركي الأمر لي. أنا سأجد طريقة.
وكان عارف جالساً في النزل والحرج يكلله: ماذا يفعل هنا؟ يطارد الجواسيس؟ إنه مكشوف. ونهض وراح يدور كهر لم يعد يجد مخرجاً. كان عاجزاً عن التفكير. لكن زيارة سارة وضعت حداً لتداعي غضبه على نفسه. وحين ظهرت ارتبك أكثر مما كان سيرتبك لو أن القادم كان جمال باشا.
نهض مرتبكاً. ومدت يدها وابتسامة تشرق على وجهها الصبوح. ثم جلست قبل أن يدعوها. والحقيقة أنه ما كان سيتذكر أن يدعوها للجلوس. إذ لم يعتد على استضافة أحد في هذا المكان. فالاستضافة تعني عرض المشروب. هو لا يشرب. والمشروب هنا غال أيضاً. وهو لن يجالس امرأة هنا حتى دون كأس.
حين رآها تجلس أحس أنها عبء عليه. كيف يبرر أمام الآخرين وجودها؟ هو لم يقم باستدعائها. وليس لها شغل. ودعا الله في أعماقه أن يكون لها طلب ما.
لم أكن أتصور أنك تترددين على أماكن كهذه.
* وما بها هذه الأماكن؟ طالما أن فيها أناساً مثل عارف بك فسيكون شرفاً لنا أن نزورها.

ولم يجب.

قالت: إضافة إلى ذلك أنا قادمة لرؤيتك.

قال بغباء: أهلاً يا مدام.

* ألا تجلس؟ تظل واقفاً؟

تذكر الجلوس، وهو غير قادر على فهم ارتباكه وعجزه عن أن يكون جلفاً كما كان معها فيما مضى.

سحب كرسياً ليجلس. وأحس مرة أخرى بأن جلوسه هكذا رفع كلفة وتبسط لا يليقان به. لكنه، مع ذلك، ظل جالساً. وظل ارتباكه يزداد لأنه لم يعرف ماذا عليه أن يفعل.

أمر يا مدام. أية خدمة؟

هذا رجل آخر غير الذي استقبلها فيما مضى. أدركت بعينها الخبيرة أنه ليس قوياً وصارماً كما كان يبدو، أو كما بدا، لأول وهلة. إنه مثل غيره من أولئك الضباط القساة العنيفين الصارمين المخيفين الذين يرتبكون ويرتجفون حين تكلمهم امرأة.

قالت له: نحن لسنا أصدقاء يا عارف بيك. أعترف لك. ولكنني لا أفهم لماذا نكون أعداء.

الشرموطة بنت الشراميط. أعداء وأصدقاء. كأنها زلمة مثلي. من أنت يا قحبة لكي أكون صديقك أو عدوك؟ أنت إن كبرت أو صغرت شقفة شرموطة.

بجفافه الذي استطاع استعادته قال: أمر؟

* جئت أشكرك على حسن تفهمك لمسألة أستر.

وهل مسألة أستر تعنيك؟ هل أنت معنية بهذه الأجواء؟

* لا. ليس من أجل ذلك. ولكن كانوا يتقولون عليك. فسروا قسوتك عليها بكرهك لليهود.

— قسوتي؟ أنا لم أقس عليها يا مدام. أنا حققت معها بعد أن جرى ما جرى في نزلها. وكان يجب أن أحقق معها حتى لو كانت بنت النبي.

* أعرف. وكنت أريد أن أزورك وقتها. ولكنني لم أحب أن تعتبر أنني أتوسط من أجلها أو أتدخل في شغلك. الحقيقة أن لدي فضولاً للقائك. وخاصة بعد لقائنا في المرة السابقة التي يبدو أنني جئتك فيها في وقت غير مناسب.

أبداً. لماذا يخطر لك ذلك؟

* لأن وجهك كان يكب صحن اللبن.

اضطر لابتسامة مقتضبة.

فتابعت: والمشكلة أن الإنسان لا يستطيع أن يصادفك في سهرة. أين تسهر؟

وراوغ خائفاً من تطور الحديث في هذا الاتجاه: لم تكوني في حاجة للتوسط من أجل أستر. هذه المرأة واسطتها منها وفيها. زبائنها كلهم أقوى مني.

* هل تشكو من وضعك عارف بيك؟

لا. لا. أعوذ بالله. بالعكس. الحمد لله وضعي ممتاز.

* إذا كانت صلاحياتك محدودة يمكن أن أكلم لك علي باشا أو جمال باشا بالذات.

— لا. لا. صلاحياتي على قد وظيفتي. ممنونك.

نهض ليداري ارتباكه، وكأنه يرى الآن من يعيّره بأن هذه المرأة هي واسطته عند الباشا أو أنه محمي من قبل امرأة: تشربين شيئاً؟

ابتسمت: هذه المرة سألتني على الأقل ماذا أشرب. في لقائنا السابق كنت ترغب في طردي.

والآن أنا أكثر رغبة في التخلص منك. ولكنه قال: تعرفين. شغلنا صعب. دائماً على أعصابنا.

* معك حق. ألله يعينكم.

ونهضت: إسمح لي.

لم تشربي شيئاً.

ضحكت: شكراً. لا أحب أن أشرب شيئاً هنا. لماذا لا نأخذ فنجان قهوة في مكان آخر؟ هذا المكان غير مناسب لسمعتي أو سمعتك.

يحصل لنا الشرف. ولكن، تعرفين.. الشغل.

مدت يدها له: حين يكون لديك وقت نشرب القهوة في فندق الشرق. هناك موضوع أحب أن أحدثك فيه.

قال مرتاحاً لانتهاء الجلسة: إن شاء الله.

وأبقت يدها في يده: أنتظرك على الغداء؟

لا. لا. مرتبط على الغداء.

* مساء. نشرب القهوة معاً.

هل الأمر ضروري؟

* يزعجك أن نلتقي؟

ليست مسألة إزعاج. أنا.. قصدي.. شغلي كثير..

* أنا أحتاج إليك في شغل. ولهذا جئت إليك إلى هنا. ولكن أريد أن أتحدث معك على راحتي. تعرف ألتر ليفي؟

تطلع إليها وهو يسحب يده وكأنها قد ضربته على بطنه.

* هذا هو موضوعنا. سأنتظرك في السادسة مساء.

وقبل أن تصل الباب التفتت إليه: بالمناسبة. ما أخبار نهال؟ هل سافرت؟ أود أن أزورها في بيروت. تعرف عنوانها؟

— ٩ —

لم يجد نفسه محرجاً وهو يتجه إلى الفندق. ولا وهو يسأل عنها. ولا وهو يتجه إلى حيث تجلس في حديقة الفندق.

ولم تنهض لتحيته كما كان يتوقع. بل مدت له يدها وهي جالسة وبطريقة أوحت له أن عليه أن يقبل تلك اليد. ولكن لا. ألا يكفي أنه اضطر إلى الانحناء لكي يسلم عليها وهي جالسة. ولم يفته طبعاً أن يلحظ أنها ترتدي ثوباً ضيقاً. وأنها في جلستها بهذه الطريقة تبرز

وركها بطريقة خاصة.

جلب له الخادم كرسياً. ووقف ينتظر ما يأمر به. فقال بسرعة: شاي.

وجلس وكأنه سيبدأ الاستجواب وتسجيل الإفادات.

ولم تجعله ينتظر. قالت فوراً: صحيح أنكم كلكم تعجزون عن ألتر ليفي؟

أحس بالإهانة: أنا نفسي قبضت عليه مرتين. مرة في بيروت. ومرة هنا في القدس. ولكن ماذا تفعلين للحظ؟ المهم ما علاقتك أنت بألتر ليفي؟

يهودي. وأنا يهودية.

* وماذا يعني ذلك؟

— هذا ما قلته له. ماذا يعني أنني يهودية؟ ولكنه لا يريد أن يفهم. لأنني يهودية يظن أنني يجب أن أخدمه في تجسسه. ولأنني موضع ثقة الباشا يريدني أن أنقل له كلاماً معيناً أو أن أسأل الباشا عن موضوعات معينة. أنا ما لي ولهذه الأمور؟ أنا لا أفهم في السياسة. ولا أريد أن أفقد ثقة الباشا. كما أني أخاف أن أثير غضب الباشا أو شكوكه. أرجوك أن تساعدني. أبعد ألتر ليفي عني.

أدرك جدية الأمر. فظل صامتاً. جلب الخادم الشاي. انتظرت إلى أن انصرف الخادم، ثم مدت يدها وأمسكت يده بحميمية: ستساعدني أليس كذلك؟

طبعاً. طبعاً. ولكن... كيف يراك ألتر؟

* صدقني لا أعرف. لا أحس به إلا وقد صار أمامي. كأن الأرض تنشق عنه. يبلغني طلباته ثم يختفي كما يظهر. في الفترة الأخيرة صار يهددني إن لم أنفذ طلباته. أنا خائفة يا أخي عارف.

أخي عارف!! هذه جديدة. أخت تستنجد بأخيها.

هل أبلغت الباشا بالأمر؟

* لم أجرؤ. أردت أن أستشيرك. أتنصحني بأن أخبره؟

طبعاً. لا يجوز أن يبقى أمر كهذا سراً عليه. يجب أن يعرف.

* وبعد أن أخبره ماذا ستفعل؟

سأنتظر أوامره.

أظهرت شيئاً من الخيبة. وسكتت.

أحس بخيبتها: ما بك؟

* أتظنني لا أعرف أن الباشا سيوجه أوامره إليكم كلكم حين أخبره. ولكن الباشا سيثير ضجة تجعل ألتر يحس بالأمر. سيضعون بعض الحراس على الفندق. ولكن ألتر سيعرف. ولن يظهر. وهكذا لن يستطيعوا القبض عليه. أنا أريد شيئاً آخر. أريد أن أضمن أن ألتر لن يفلت.

أتحقدين عليه إلى هذا الحد؟

* أنا لا أطيق الأنذال. طوال عمره فأر أمام أخي آرون. الآن يستأسد علي لأن آرون يؤدي مهمة بتكليف من

الباشا خارج البلاد. كنت أظن أن لي أخوة يساعدونني ويمكنني أن ألجأ إليهم.

ومرة أخرى وضعت يدها على يده: سأقول لك بصراحة. أنا أحب الباشا. نعم. أحبه. ولا أريد أن أخسره بسبب واحد حقير مثل ألتر. أتفهمني؟

نهض لكي يسحب يده من تحت يدها: إتكلي على الله وعلي. ولكن أبلغي الباشا بالأمر.

وتركها وخرج.

الفصل الثامن عشر

— ١ —

ألا يا دياب الخيل أسرع نحونا

واقتل خليفة يا أمير غصيب

وان كان ما تقتل خليفة برمحك

ترى البيض تلفظ كلام معيب

دياب:

أنا لاجلك أقتل خليفة بساعدي

وادعي دماه فوق الأرض عايم

وآخذ لثار زيدان بسيفي والقنا

وادعي خليفة ع الثرى نايم

— ٢ —

استيقظت سارة فرأت أن الباشا قد ارتدى ملابسه.

صبحت عليه فتقدم وقبلها: لم أشأ إيقاظك.

هل أنت ذاهب؟

* لدي مشاغل كثيرة.

المهم أنني استيقظت قبل أن تذهب.

* تريدين شيئاً؟

جلست في السرير: ألتر يا باشا. ألتر يزعجني.

* ألم نخلص من هذا الكلب؟

— يبدو لي أن عارف بيك هو وحده القادر على

الإمساك به.

* كلفته بذلك.

ولكن ألتر يزعجني في الفندق. حبذا لو أن عارف يقيم معي. ربما استطاع أن يقبض عليه هناك إذا جاء. وإلا على الأقل إذا عرف أن عارف معي قد يوقف إزعاجاته لي.

— ما رأيك أن تبقي هنا عندي؟

* لا يا باشا. أنت مشاغلك كثيرة. وأنا أهلي يزورونني. الفندق أفضل لهم. وزيارتهم لي هناك أسهل. كلما احتجتني تزورني في الفندق، أو ترسل لي من يأخذني إليك.

— ٣ –

وفوجئ عارف باستدعاء من الباشا.

استقبله الباشا بمودة مفاجئة. حتى أنه حين كان يلومه كان يبدو عليه أنه يعاتبه. قال له: حين يكون هناك من يعنيني أمره أتوقع من أمثالك أن يبادروا إلى خدمته بمجرد أن يروه في حاجة.

ولكي لا يستغرق عارف في دهشته وتساؤله أضاف الباشا: مدام سارة تحتاجك إلى جانبها.

ابتسم عارف معتذراً: صدقني يا باشا. قلت لها إنني مستعد أن أخدمها بعيوني. خاصة وأن الأمر يتعلق بألتر. ولكنني فضلت أن تكون على علم بالأمر.

طيب. طيب. أنقل أغراضك الآن إلى الفندق. وحين تكون هناك اتصل بها. وقل لها إنك في خدمتها. دعها تطمئن.

* أليس الأفضل أن نضع فندقها تحت المراقبة؟ أنا نفسي سأراقب الفندق.

بحدة صارمة رد الباشا: حين أقول لك اذهب إلى الفندق لا تناقشني. تفعل ما أقوله لك فقط.

* ولكن يا باشا مشاغلي...

ونهره الباشا: عارف. حين أكلفك بمهمة تكون مهمتي هي مشاغلك كلها. فهمت؟

* ولكن يا باشا. إبني عندي. وكنت أتوقع أن ننتقل إلى بيت السكاكيني.

— إطمئن. بيت السكاكيني لك. ولكن تابع لي موضوع سارة الآن. يبدو أنها ستساعدك في القبض على ألتر ليفي.

— ٤ —

حين وصل إلى الفندق طلب من عامل الاستعلامات أن يتصل بالست سارة ويبلغها بوجوده. وما كاد يصل إلى غرفته ويفتح حقيبته حتى قرع الباب. تقدم وفتحه. وإذا بواحد من الخدم يبلغه أن الست تريده. وأنها تنتظره في غرفتها.

ذهب إليها وقرع الباب فجاءه الجواب: تفضل.

فتح الباب ودخل.
وما كاد يخطو داخل الغرفة حتى همَ بالعودة بسرعة. فقد كانت سارة متكئة على كرسي قرب النافذة وهي بقميص النوم. وكان يبدو عليها أنها شاردة.
عفواً.عدم المؤاخذة. كنت أظن...
والتفتت إليه بحيادية: ما بك. أدخل. متى جئت؟
الآن. منذ قليل.
* أريد أن أشكرك يا عارف بيك. إنني أتعبك معي. ولكنني الآن أستطيع أن أحس بالطمأنينة التي لم أحس بها منذ أن سافر آرون.
لم يعرف أين عليه أن يشلح عينيه. خيل إليه لأول وهلة أنه قد فاجأها. ولكنها لا تتصرف على أنها تحت تأثير المفاجأة. كما أن منظرها هذا لا يبدو عليه أنه مقصود. أي أنها لا تتعمد الظهور هكذا بقصد الغواية. كانت تحدثه بعادية وحيادية وكأنها تحدثه بالتلفون. أو كأنها بلباسها الطبيعي.
* إذا احتجت إلى أية خدمة من الباشا يا عارف بيك فأنا جاهزة. أستطيع أن أساعدك.
شكراً. يا مدام. العكس هو الصحيح. أنا هنا لخدمتك. إذا احتجت لأي شيء، أو إذا أردت أن تبلغيني أي شيء، فاتصلي بي إلى غرفتي.
وكان يتعجل الخروج.

* فهمت أنك تريد بيت السكاكيني. لماذا لم يعطوك إياه؟
سيعطونني. الباشا وعد أن يعطيني إياه.
* وأنا لن أطيل عليك. أرجو أن تقبض على ألتر ليفي بسرعة، لكي أستطيع أن أعود إلى عتليت وأريحك مني ومنه. تعرف أنني تركت المخبر الذي أوصاني به أخي آرون. لا أجرؤ على الذهاب إلىهناك. أخاف أن يفاجئني ألتر فيه وأنا وحدي.
نحن بالخدمة يا مدام. وإن شاء الله سوف أريحك من ألتر إلى الأبد.
وخرج.
ماذا يعني تصرفها هذا؟ يعني أنها لا تراك إلا حماراً. لو كانت تراك ابن آدم لحاولت تستير نفسها أمامك. لا يا سيدي. ليس هذا هو مظهرها الطبيعي. حتى حلمة ثديها كانت واضحة من تحت الثوب. وثديها ذاته يكاد يخرج من فتحته. وهي لا تريد إغراءك أيضاً. وإلا لاستغلت الفرصة من أجل حديث آخر غير الحديث عن بيت السكاكيني وألتر الخراء. إفهمها. هي لا تراك رجلاً. هذه معتادة على الباشوات. ولا ترفع أمثالك من أرضهم.
ما أدراك؟ ربما كانت تريد أن تغويني.
وردت سارة على الهاتف. كان المتحدث ألتر كما

توقعت: نعم. صار عندي. إطمئن. تستطيع أن تسرح وتمرح كما تشاء. لن أتركه يعرف يمينه من شماله.

ـــ ٥ ـ

آخر ما كان يتوقعه عارف هو أن يُفتح باب الحمام عليه وأن يُفاجأ عارياً. وممن؟ من سارة. كادت شتيمة أن تفلت من فمه. وتمنى لو كان أكثر حرية ليتقدم منها ويصفعها. لكنه بادر إلى تستير نفسه بيديه أولاً، ثم بإدارة ظهره لها، ثم بتناول أي شيء يضعه على جسده العاري. بعد ذلك استطاع أن يتطلع إليها وأن يسألها بنبرة كالانفجار: ماذا تريدين؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

ابتسمت من حرجه ابتسامة المرأة الناضجة التي تداري طفلاً: هل ستتأخر؟

لا. سأنتهي بعد قليل.

وبحيادية مغيظة، ودون أن تتعمد إزاحة عينيها عن جسده، أو تركيز نظرها على مكان خاص من هذا الجسد، تابعت: كنت أريد أن أسألك عن عنوان بيت السكاكيني الذي تريد الانتقال إليه.

مقابل السرايا.

* قريب منك إلى هذا الحد؟ ولماذا يتأخرون عليك في الموافقة؟

أخرجي من شان ألله.

* طيب. سأنتظرك في الصالون.

سارع إلى ارتداء ما يمكن ارتداؤه. هذه المرة لن يفوّت المسألة. ولن يتجاهلها مثلما تجاهل وضعها عندما استقبلته. اتجه نحو الصالون فوجدها جالسة بهدوء، وهي تدخن. بادرها فوراً: كيف دخلت؟ وكيف سمحت لنفسك أن...

قالت باسمة: ولماذا هذا الانزعاج كله؟ هل خفت أن يلحقك برد؟ ألم أغلق الباب ورائي؟

جلس ليهدئ نفسه. فتابعت تفوقها عليه: فعلاً لم أفهم لماذا انزعجت؟

أنا لم أنزعج.

وحاول أن يستعيد زمام المبادرة الرجالية: أردت فقط أن تتجنبي موقفاً حرجاً كهذا.

* أنا لم أنحرج. ليس هناك ما يُحرج. ولم الحرج؟ ألأنني رأيت رجلاً عارياً؟ أف. لم هذه الصرعة كلها؟ أنا أعرف كيف يكون الرجل العاري. ماذا تركت للنساء من حرج؟

أعوذ بالله. هذه المرأة علقتها غير شكل. لا بد من الهجوم.

— وأنا أعرف كيف تكون المرأة العارية. ولكن مع ذلك سيزعجك أن يفاجئك رجل ما وأنت عارية. ألا يزعجك ذلك؟

* ربما. أحياناً. هل تحس أنت بإحساس المرأة؟
لا أريد أن أجد نفسي في موقفها.
وليتخلص من ضيقه بارتياحها أراد أن ينتقل بالحديث إلى التنظير: بصراحة حين يفاجئ الرجل امرأة عارية تخاف أن يهجم عليها، لأن كل ما يتمناه منها يصبح ظاهراً أمامه.
قالت: هل تظن أن المرأة لا تفكر بالطريقة ذاتها حين ترى رجلاً عارياً؟
على الأقل لا تفكر في أن تهجم عليه.
* ولماذا؟
لماذا؟ لماذا ماذا؟
* لماذا لا تفكر أن تهجم عليه؟
لأن جسمه غير جميل.
* ما أدراك؟ قد تراه المرأة جميلاً.
ولكنه لا يخاف أن تهجم عليه المرأة لأنها ليست أقوى منه.
* وهي؟ المرأة؟
هي تعرف أنه يمكن أن يهجم عليها. وأنه أقوى منها. فتنحرج وتخجل وتخاف، وتسارع إلى تستير نفسها.
ضحكت وتابعت عنه: وتحتار أي جزء من جسدها ستستر. ظهرها. صدرها. بطنها. فخذيها. مثل من يحمل مجموعة من الأغراض غير المحزومة جيداً. وفي كل

خطوة تنفلش الأغراض ويكاد غرض منها أن يسقط. تصور كيف سيمشي إنسان في هذه الحالة.
هذا ما أقوله.
* بسيطة. الحل الأفضل هو أن لا يهتم. أن يتحرك بلا مبالاة. فليسقط هذا الغرض أو ذاك. هكذا يستعيد حرية الحركة. ماذا يعني لو رأيتني عارية؟ قد أكون أقوى منك حتى في هذه الحالة. تعرف لماذا؟ أنت ستفكر بالجنس. وستتصور أنني أخاف من تفكيرك بالجنس. ما رأيك لو فكرت أنت في الجنس ولم أفكر فيه أنا؟ ألا تصبح أنت في موقف ضعيف؟
قد أستعيد القوة لو فكرت في الاغتصاب.
* تظن ذلك؟ أنا أرى العكس. حين يفكر الرجل في الاغتصاب يكون في أضعف حالاته. يكون قد اعترف بعدم وجود أي امتياز لديه يقربه من المرأة إلا قوته الجسدية، واستخدام هذه القوة لفرض نفسه. يعني يعترف أنه حيوان. تعرف؟ حتى الحيوانات لا تمارس الاغتصاب. لا يمكن. هناك فصول تزاوج يكون فيها الطرفان راغبين وراضيين. وإذا حاول طرف أن يفرض نفسه دون موافقة الطرف الآخر، أو خارج موسم التزاوج، يجابَه بعنف. ولا تعود العلاقة جنسية أو عاطفية أو حتى حيوانية. تصبح وحشية. والحيوانات لا تعترف بوحشيتها. ولذلك لا تفكر في الاغتصاب.

الرجال فقط هم الذين يعترفون أنهم وحوش. والمرأة حريصة على أن لا تبدو متوحشة حتى لو أحست أو فكرت مثلكم. ولذلك لا تفكر في الاغتصاب.

وضحكت: يعني تستطيع أن تطمئن إلى أنني لن أفكر بالهجوم عليك لاغتصابك حتى لو فاجأتك عارياً. وبالتالي ففي حالتك أنت أيضاً الحل هو أن لا تخجل.

— ٦ —

ذلك اليوم وهو في الطريق إلى الفندق كان لا بد له أن يتساءل: ترى كيف كان دياب بن غانم يتصرف مع النساء؟ حوّل طريقه عن الفندق وذهب إلى المقهى. وحين ظهر الحكواتي ذهب إليه واستفرد به: معقول يا ابن الحلال؟ دياب بن غانم حياته كلها حرب وضرب. أليس في حياته نسوان؟ كيف كان مع النسوان؟

استغرب الرجل هذا السؤال: يا ابن الحلال. التغريبة تنويعة. فيها عشاق وفيها محاربون. دياب رجل مثل أفضالك. كبير ومقدّر. ماذا تعني النسوان لفارس مثله؟ العشق للجهّال. لعياض وزيدان وعقل بن هولا. بنت الزيناتي خليفة تعشق شاباً صغيراً. ما لها ولدياب؟

ولكن عارف لم ييأس. قال له بلهجة الضابط الآمر: دوّر لي على أية علاقة له بالنسوان.

أمرك. أدوّر.

تركه وذهب.

في الفندق خلع ملابسه فور دخوله إلى الغرفة. ووقف يستعرض نفسه عارياً أمام المرآة. نظر إلى منزلق الشعر تحت سرته. أرأته هكذا؟ كم أن جسمه منفر وبشع. كله شعر. وأنزل سرواله. حتى قضيبه المنكمش المحايد الـ... أرأته هكذا؟ ثم أدار ظهره ونظر إلى مؤخرته. رأته هكذا حين أدار لها ظهره. فظيع. ما هذا المنظر المقرف !

الحكواتي معه حق. لعنة الله على النسوان. النسوان وحدهن يجبرن الرجل على خلع ثيابه. فهمناها. يخلع ثيابه. ولكن هكذا؟ لكي تتفرج عليه؟

لو كانت اللحظة جنسية لكان جسده مبعث فخر له. أما الآن وهو في لحظة الحياد الغريبة هذه لا يعرف ماذا يفعل بنفسه، أي بجسده، إذ صار جسده العاري هو نفسه العارية.

أنا حتى حين كنت في العشرين، وكنت أنط وراء الذبابة مستثاراً، لم أكن أستطيع تصور أن يتطلع أحد إلى جسدي وأنا عار. حتى المرأة التي أضاجعها لا أحتمل نظرتها إلى عريي، لأنني لا أستطيع تصور جسدي بلا وظيفة. وحين يكون خارج هذه الوظيفة يجب أن لا يكون عارياً. عريه خارج لحظة الجنس يجعله تافهاً. التي تستطيع أن تراني في عريي المحايد تستطيع أن تكون محايدة معي. وأنا لا أستطيع أن

أكون محايداً. يعني أنها تكون أقوى مني. معها حق بنت الكلب.

وتذكر أيام زواجه الأولى، أيام الشهوات والمباهاة الجسدية. حتى في تلك الأيام انزعج حين اضطر لتسليم ملابسه الداخلية إلى زوجته أول مرة. وحين راحت تفتحها لتقلبها، وتنظر إلى الأماكن المتسخة فيها، أحس أن زوجته تنتهك سرية جسده. ولكن شيئاً قمعياً، تجلى في انصياعها وعدم احتجاجها أو تعليقها، ساعده على تناسي المسألة. وهي أيضاً لم تكن تعلق على المسألة. وحتى وهي تأخذ ملابس الصغار المتسخة كان تصرفها يوحي بأن الأمر طبيعي. أما أن تأتي واحدة غريبة وتفتش ملابسه الداخلية فتلك فضيحة مخجلة. فكيف إذا وقفت تنظر إلى عربه التافه؟

حين أراد أن ينام تذكرها. وخاف أن تفاجئه مفاجأة أخرى. فقام إلى الباب يتفقده ليقفله من الداخل. وحين وجد أنه لا يقفل نزل إلى موظف الاستعلامات متوتراً.

قال له الموظف: لم تجر العادة أن نهتم بإقفال الأبواب يا بيك. الدنيا أمان.

الدنيا أمان؟ أليس بين زبائنك نساء؟ أتترك غرفهن دون أقفال؟

* لا يا بيك. ولكن هؤلاء نساء. وعدم المؤاخذة غرفهن معروفة. وهي مخصصة للنساء وتقفل.

بلا كثرة حكي. أتعرف من أنا؟

* طبعاً يا بيك.

فإذاً أمّن لي قفلاً لغرفتي. أنا ضابط. وقد تكون في غرفتي أسرار. فهمت؟

* تحت أمرك يا بيك..

وسرعان ما جاء الموظف بعامل ركّب له قفلاً أعطى مفتاحه لعارف. وأقفل عارف الباب من الداخل فنام مطمئناً.

— ٧ —

في اليوم التالي تمنى أن لا تستدعيه. ولكنها فعلت. كلمته بالهاتف. حدق في نبرة صوتها جيداً فلم يجد فيها أثراً لحادثة الأمس. وحين نزل إلى الصالون ورآها، تطلع لأول مرة إلى عينيها، وليس إلى ركبتيها وهي تلف رجلاً على رجل. كان يريد أن يرى إن كانت تراه من جديد عارياً ومضحكاً ومخجلاً وتافهاً، وهو يتقدم منها، كما رأى نفسه في المرآة.

إجلس. ستوصلني إلى سرايا الباشا. طلبت العربة. ستشرب الشاي معي. ثم نذهب.

واضطر إلى الجلوس.

ولحق به عامل التنظيفات بالمفتاح: نسيت الغرفة مفتوحة يا بيك.

وتلعثم مدّعياً: أنا تركتها مفتوحة لكي تنظفوها

وترتبوها.

لدينا مفتاح احتياط يا بيك.

وذهب.

ابتسمت له سارة: تقفل غرفتك عليك يا عارف بيك؟

طبعاً. تعرفين. لدي أوراق و...

* أعرف. أعرف. ولكن يبدو أنك تحمل أسرارك معك حين تخرج فلا تقفل باب الغرفة.

وابتسمت بطريقة جعلته يعرق. فقد أحس أنها عرفت ما هي الأسرار التي يريد إخفاءها. وأضافت: ولكن كن حذراً. إياك أن تترك وراءك شيئاً ذا أهمية. الخدم يشتغلون معكم أحياناً.ولكنهم قد يشتغلون مع غيركم أيضاً.

وهز رأسه محرجاً.

أما زلت منزعجاً من حادثة الأمس؟

ولم يجب. كان يفضل عدم إثارة هذا الموضوع مجدداً.

* فعلاً لماذا انزعجت؟

وتريدينني أن لا أنزعج؟

* ولماذا الانزعاج؟

هل يريحك أن أطلب منك تعرية جسدك؟

* إذا كنت تريد ذلك فلا مانع عندي. بل ربما كنت أتمنى أن تطلب ذلك.

لا تظني أنك تستطيعين أن تغويني.

* ولماذا تتصور أنني سأتعرى لأغويك؟ أنا أريد أن أتعرى لكي أتحرر. أقصد أتخلص من الخوف منك. ومن أن ترى شيئاً من جسدي. فلتره ولننته من هذه المسألة. هناك شيء آخر يمكن أن يحدث بين الرجل والمرأة.

وقرر الهجوم: الجنس.

* إفرض. وإذا كان سيحدث فليحدث ولننته منه. أليس هناك شيء آخر يمكن أن يحدث بينهما غير ذلك؟ أو بعد ذلك؟ لماذا تتصور أن المرأة والرجل لا يجمعهما شيء إلا الرغبة الجنسية؟ هل تطرد امرأتك من البيت بعد أن تنتهي من رغبتك الجنسية معها؟ وماذا ستفعل بزوجتك حين تكبر في العمر وتفقد قوتك الجنسية؟ ترميها؟

زوجتي شيء آخر. هناك البيت والأولاد وال...

* أرأيت؟ هناك شيء غير الجنس. دعنا نفكر في هذا الشيء. ولننس أمر الجنس.

— ٨ —

من أين جاءته هذه البلوى؟

في الليل تطلبه بالهاتف. وتسأله إن كان نائماً أم لا. فهي تحس كأن ألتر في الفندق. ترجوه أن يظل صاحياً ومستعداً. فهي ستصرخ إن رأت ألتر. وفي إحدى الليالي صرخت. فهب من فراشه وركض إلى غرفتها. ورآها تقف بالباب.

ماذا؟ هل رأيت أحداً؟

* أحسست بباب الغرفة يتحرك. كأن هناك من يريد فتحه.

أليس الباب مقفلاً؟ مم خفت؟

خفت منه. وأردتك أن تقبض عليه.

وينزل عارف. يستجوب الخدم وحارس الباب وإدارة الفندق. ويطلب أسماء النزلاء. دون جدوى: لا أحد. عودي إلى النوم.

اللعنة على هذا الزمان الذي جعل وظيفتنا حماية الشراميط.

وذات يوم طلبته إلى غرفتها فذهب. قرع الباب فجاء صوتها يفهمه أن الباب مفتوح. وأنه يستطيع الدخول. دخل فلم يجدها في الغرفة بل سمع صوت الماء في الحمام.

وقف مرتبكاً. فخرجت. يا رب السموات. كانت تضع على جسدها شلحتها وحدها. الشلحة التي هي أصلاً غلالة شفافة. وهي عارية تحتها. وجسدها مبلل بالماء. والشلحة ملتصقة على أكثر من مكان من جسدها ليظهره أكثر فتنة وإغراء.

يا ألله. ما أجمل هذا الجسد. ما أجمل جسد المرأة العاري. عمره لم ير امرأة عارية. حتى زوجته لم يرها عارية. خاف أن يبكي إن استمر في النظر.

هو مسكين. منذ أشهر لم ير زوجته. ومنذ أشهر لم يفكر تفكيراً جدياً بامرأة. ثم هذه المرأة. أهي امرأة مثل غيرها من النساء؟ هذه عشيقة الباشا.

أدار ظهره يبغي الخروج. فبادرته، وهي تضع المنشفة على رأسها ووجهها: إلى أين؟

قال: سأترك الغرفة إلى أن تغيري ملابسك. أقصد أن ترتدي ملابسك.

قالت بلا مبالاة: أرتديها الآن. لماذا تذهب؟ أنا لا يحرجني وجودك.

ولكن أنا....

وأطلقت ضحكتها: تخجل؟

والتفت إليها. كانت تفرك شعرها بالمنشفة. وراح جسدها يغلي ويتموج أمامه بفعل حركتها. ولم يعد يستطيع السيطرة على نفسه. لا. زادتها. أنا في النهاية إنسان. رجل. وهي تعرف ذلك.

واقترب ووضع يده على نهدها الذي كان يترجرج تحت قميص النوم. وبغتة انتفضت وصاحت بنزق: عارف. ما هذا الذي تفعله؟

بماذا سيجيب؟ أليس واضحاً ما هذا الذي يفعله؟ انتبه إلى أن يديه ترتجفان، وإلى أن ريقه ناشف. وتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه. وكانت هي مستمرة في تأنيبها: العمى؟ أأنت ولد صغير؟ ألا تستطيع تحمل وجود

امرأة؟ لم تر امرأة من قبل؟ ألست متزوجاً؟ المراهقون لا يفعلون ما تفعله.

اندفع نحو الباب فصرخت به: إنتظر.

وتوقف. كان يريد أن يبكي: يا ست. سامحيني. أنا لست... لا أعرف ماذا أقول لك. غلطنا ومنك السماح. ولكن قلت لك أنا لا أستطيع... أعني. يا ستي لماذا تعرضين نفسك أمامي هكذا؟ أنا إنسان. رجل. وأنت...

ولم يجد ما يكمل به كلامه. أحس أن رغبته في البكاء ستخنقه.

أنا ماذا؟ نسيت أنني صاحبة الباشا؟

* لم أنس. قلت لك غلطنا ومنك السماح.

— وماذا سأقول للباشا؟ أأقول له إن الضابط الذي يثق به كان يتحين الفرصة....

— غلطنا ومنك السماح. ولكن يا ستي ألله يخليك. قولي للباشا أن يعفيني من هذه المهمة. إبحثوا عن ضابط غيري.

تراخت نبرتها قليلاً. أحست بالشفقة عليه: لا. لا. ستظل أنت معي. وسأعتبر ما حدث وكأنه لم يحدث. خلص. سماح. ولكن لا تعد لمثلها ثانية.

وخرج.

وكانت تود لو ترسل قهقهتها خلفه.

واندفع إلى غرفته باكياً.

أهكذا كان يمكن أن يفعل دياب بن غانم؟

— ٩ —

في اللقاء الثاني معها حاول أن يبحث في عينيها عن أي أثر للحادث. لا شيء. كأن ما حدث لم يحدث أبداً. بل إن بساطتها في التعامل ساعدته هو أيضاً على أن يتظاهر بنسيان ما حدث.

ولكن منذ ذلك اليوم لم يعد عارف يعرف فعلاً رأسه من رجليه معها. وصار يتصور أنها كلما نظرت إليه فإنها تراه بعريه السلبي المحايد التافه. وبما أن الفرصة معدومة في أن ترى عريه في حالة أخرى فإن حرجه قد التصق به كالصمغ. وحين لا تراه في عريه ترى ضعفه في رغبته وانصياعه لانتهارها.

وهي قد قالت لألتر: صاحبك عمي قلبه. خذ راحتك.

— ١٠ —

خلال ذلك لم يكن إبراهيم يفعل شيئاً. ظل يقضي وقته في البيت ينتظر أباه أو ينتظر سميح الذي يمر به بين يوم وآخر، ويحكي له قصص الحياة العامة والسوق وأخبار الحرب. ويقرأ بعض الكتب التي صار أبوه يجلبها له. والقراءة دائما تعيده إلى دمشق، وإلى الفتاة التي كانت تقرأ وهو يراقب خيالها على الجدار.

وجاءه سميح ذات يوم سعيداً. لقد قبض مكافأة لأنه فضح صفقة كانت ستتم في السر حول أرض مجاورة

للبحر كان المتصرف يريد أن يبيعها باسم الدولة لمشتر يحمل جواز سفر روسيّاً. وحين نبه سميح الجريدة كتب رئيس التحرير، نجيب نصار، افتتاحية ساخنة، جلبتها لك لتقرأها، مما جعل المتصرف يغلق الجريدة لمدة أسبوع. ولكن المقال فعل فعله فتظاهرت مجموعة من الفلسطينيين أمام دار الحكومة. وبعثوا برقيات إلى جمال باشا. فألغيت عملية البيع. رئيس التحرير، رغم إغلاق جريدته، كان سعيداً جداً وأعطاني مكافأة. قم نصرفها.

* أين؟

نفرح شبابنا.

* كيف؟ بالشرب؟

ما رأيك أن نذهب إلى الكارخانه؟

* أعوذ بالله.

التفت في اللحظة ذاتها، كأنه خشي أن يسمعه الجيران. أن تسمعه بهيجة.

ولكن سميح أصر: يا أخي. هذا شيء موجود في الدنيا. تعرف إليه. إعرفه. ليس من الضروري أن تفعل شيئاً. إذا خطر لك أن تدخل مع واحدة أنا أدفع عنك. هيا بنا.

والحقيقة أن إبراهيم لم يكن يمانع كثيراً في الذهاب. ليس للالتقاء بامرأة. بل لأن لديه فضولاً لمعرفة هذا الجو ورؤية هؤلاء النساء اللواتي قيل له إنهن يمنحن

أنفسهن للرجال دون تعيين وعلناً وبلا مراوغة. امرأة تقول لك: إدفع وادخل. ثم تتمدد أمامك عارية. شيء غريب.

* يا عيني علينا. والله نحن نُضحِك. من النضال ضد الأتراك والصهيونية إلى الكارخانه.

ويجيب سميح دون أي إحراج: ولم لا؟ نحن شباب ولدينا طاقة جنسية. ليس في قدرتنا أن نتزوج. ماذا يبقى؟ إما أن تذهب إلى الكارخانه أو تلتقط واحدة من المشردات الجائعات تعطيك جسدها بلقمة بطنها. صحيح أن بينهن حلوات. ولكن الأمر يجعلك تحس أنك تغدر بهن وتستغل حاجتهن. وأين تأخذ امرأة من هذا النوع إذا لقطتها من الطريق؟ هل عندك قصر تدخلها إليه؟ أو نقود كافية لكي تأخذها إلى بنسيون؟ أنت لست من الباشوات ولا من الضباط. ستأخذها إلى غرفتك الحقيرة أو بيتك المتواضع. فترى عيون الجيران عليك مثل عيون القطط على باب دكان اللحام. وسيقيمون الدنيا ولا يقعدونها غيرة على الدين والشرف والأخلاق. تعرف أن المستور في الدنيا هو تعريص الزنكيل وموت الفقير. لا يسمع بهما أحد. ثم إن نسوان الكارخانه أنظف. والحكومة تشرف عليهن صحياً.

* يا أخي أنا أستغني عن الموضوع كله وعن الكارخانه.

ولا نتزوج؟ كيف إذن؟ نبقى على العادة السرية؟

أكملا طريقهما بصمت. كان إبراهيم متحفزاً في أعماقه. وقد صار قراره واضحاً. سيتفرج دون أن يفعل شيئاً. سيخرج نظيفاً متميزاً على سميح، الذي لا شك أنه كثير التردد على هذه الأمكنة الوسخة. وسيحس سميح أمامه بالضآلة لأنه عبد لشهواته لا يستطيع الصبر عليها ومقاومتها. وسيعرف الجميع أن نظافته ليست قسرية. ليست لأن الفرصة لم تتح له. إنه يأخذ مصروفاً من أبيه أكثر من مدخول سميح. يعني أن المال متوافر والحمد لله. والنساء متوافرت في كل مكان. ولكن هو لا يضعف أمام رغباته. وها هو سميح يتيح له الفرصة كاملة ومجانية. لكنه سيرفض. هذا زنا. بغاء. عهر. تجارة بالجسد الإنساني. حرام. سيحقق نصراً حاسماً.

ودخلا إلى المكان. صالون كبير جلست فيه نساء شبه عاريات. ظهرت أكتافهن وأنصاف صدورهن مع تكور الأثداء، أو تهدلها، تلك الأثداء التي لم يعد مغطى منها إلا القليل. حتى حلماتها تكاد أن تظهر حين تتحرك إحداهن بلا مبالاة. بل ربما تعمدت لفت الأنظار إلى صدرها، وهي تتناول شيئاً من الأرض، أو تنحني لتقدم الكأس الذي طلبه الزبون. ما عليهن سوى غلالات رقيقة تظهر منها خيالات السراويل الصغيرة وبهاء الأفخاذ التي انحسرت الغلالات عن قسم كبير منها أصلاً.

تطلع إليه سميح: ما رأيك؟

هز إبراهيم رأسه بصمت قاصداً أنه يتفرج بحياد.

* أيهن أعجبتك؟

أتفرج.

طلب سميح كأسي بيرة قدمتهما لهما واحدة بدينة تترجرج كتل اللحم فيها كيفما تحركت. كرع سميح نصف الكأس دفعة واحدة:

* هل انتقيت؟

لا.

* على مهلك.

واستغرب إبراهيم أن بعض الزبائن يدخلون إلى الصالون ويسلمون على النساء بالتقبيل. ويحالسونهن وهم يضحكون. مما يدل على إلفة طويلة بينهم وبينهن. وبعض الرجال يخرجون مع النساء من الغرف ليشاركوا الآخرين جلستهم ونراجيلهم وكؤوسهم كأنهم لم يكونوا قبل قليل يفعلون شيئاً. وكأن الآخرين لا يعرفون بما يحدث أو كان يحدث في الداخل. كما رأى رجلين يساعدان في الخدمة. كيف يحس رجل يخدم نساء من هذا النوع؟ وفي مكان من هذا النوع؟

أفرغ سميح كأسه وقال: سآخذ هذه. وأشار إليها برأسه. فنهضت واتجهت إلى غرفة جانبية. ونهض سميح: ماذا قررت؟

لا.

* ستنتظرني هنا؟ أطلب بيرة ثانية.

إن لم تجدني حين تخرج أكون في البيت.

ضحك سميح: أو أنتظرك إذا كنت دخلت مع إحداهن.

ولحق بالمرأة إلى الغرفة فظل إبراهيم وحده. لم ينس أن ينقل نظره إلى الآخرين ليرى كيف سيكون رد فعلهم على دخول سميح مع المرأة. ولكنهم كانوا مستمرين في أحاديثهم. وبغتة أحس أنه وحيد، وأن شجاعته تتخلى عنه. لقد كان، دون أن يدري، محتمياً بوجود سميح وخبرته. وحتى بتبذله. أما الآن فعليه مواجهة الموقف وحده. وماذا لو دخل أحد وكان يعرفه أو يعرف أباه؟ كيف سيبرر وجوده في هذا المكان؟ وماذا ينفع أن يقول إنه لم يفعل شيئاً؟ ما الذي جاء به أصلاً؟

واقتربت منه المرأة البدينة: يأمر الأفندي بشيء؟

— لا.

* تريد أن تدخل الآن؟

— لا.

* بيرة ثانية؟

— لا.

ونهض متجهاً إلى الباب.

في الطريق أحس أن عليه أن يبتعد عن هذا المكان بأسرع ما يمكن. وحين التف عند أول ناحية واجهها،

وغاب البناء عن عينيه، أحس أنه ابتعد عن الشبهة وعن الحرج، وأن الهواء صار أكثر عذوبة ونقاء. فجلس يستجمع نفسه.

وفوجئ بسميح يلحق به: أين هربت؟

التفت إليه. طوال عمره وهو يحس بالتفوق على سميح. بطوله وبقوته وحتى بمعرفته. هذه المرة فقط سميح يحدثه بتعالٍ. ولكن إبراهيم لم يحس بهذا التفوق. بل أحس أنه يرى في عيني سميح خطيئة وعاراً. رآه وكأنه خارج من مكان متسخ والوسخ لا يزال عليه. وسميح يبتسم غير معنيّ بالوسخ الذي يطقُّه.

لم أهرب. ليس لدي ما أفعله هناك.

ضحك سميح: أعلّمك. هي تعلّمك.

سميح. ألله يخليك. اتركني بحالي.

* زعلان؟

لا. سنلتقي غداً.

* أريد أن أفهم شيئاً واحداً فقط. لمَ لم تدخل مع واحدة منهن؟ لأنك عشقان؟

ابتسم بصمت. هذا سيعيد له تفوقه.

* من هنا؟ لحقت أن تعشق؟ يا رجل. هذا لا يتناقض مع العشق. أصلاً حبيبتك نفسها تريدك صاحب خبرة. ألا تقول لي ما اسمها؟ من هي؟ جارتكم بهيجة؟

— أياً كانت أنا لا أريد أن يتلوث اسمها هنا. خلص.

أراك غداً.

وأكمل سيره. لكنه لم يعد مبلبلاً كما كان قبل قليل. لقد سلمه سميح دون أن يدري ما سيشغله بقية هذا الليل. سلمه حبه. سلمه ظلها. الظل المجهول الذي أحبه في دمشق.

تذكر أنه لا يعرف اسمها. ليس هذا مهماً. ستبقى بلا اسم. هي كل النساء في امرأة. هي امرأة مختلفة عن كل النساء. هي الظل الذي لا جسد له. له نهد فقط. نهد كان يرى انتفاخة ظله على جدار الليل. لا. عيب. كما قال لسميح. هي أجلَ من أن تذكر هنا. هل يذكرها في الغرفة؟ هل يكون أبوه هناك؟ لا. يجب أن لا يكون هناك. يجب أن يختلي بها.

قفزت إلى باله الشهوات الدفينة المبهمة اللزجة المتعرقة الكامنة السرية الـ.... معقول؟ أيذهب إلى ذكرى ظل، والناس يعيشون في الشمس؟ لماذا حياته هو وحده دون طعم ولا معنى؟ حياته ينقصها شيء يتعلق بالمرأة لا يعرف ما هو. ليس الجنس. لو كان الأمر متعلقاً بالجنس لأنهى المسألة مثل سميح. هل صحيح أنه قادر على أن يفعل ما يفعله سميح؟ لا. هو لا يريد أن يفعل. والمرأة الشريرة القذرة المغوية الماكرة لن تتغلب عليه. سيظل صامداً مقاوماً شريفاً طاهراً. حواء ضحكت على آدم. وزليخة مكرت بيوسف.

ودليلة مكرت بشمشون. ولكن إبراهيم عارف إبراهيم شأن آخر.

وعرف أنه يكذب على نفسه. أحس بفمه جافاً. وبأنه لا يريد أن يرى أحداً أو يكلم أحداً. لكنه ارتاح لفكرة أن الحياة التي يحتاج إليها هي التي سيقابلها في الأيام القادمة. وسيعيش بسعادة. وكما سيطالب المرأة التي يلتقيها أن تكون عذراء وطاهرة، يجب أن يكون هو كذلك.

وسار على مهله نحو غرفته في هذا الهدوء الليلي، وكأنه يمشي معها، مع الظل الذي عشقه. وبقي الظل معه حتى وصل إلى البيت. دخل متسللاً خشية أن تراه بهيجة أو أبوها، ويضطر إلى الكلام مع أحد. تمدد على فراشه واستحضر الظل. وربما لأن الجنس ارتبط بالقذارة التي كان فيها، وربما تحدياً لسميح، فإنه في تلك الليلة استحضر ظل الفتاة، وناجاها وتحدث معها، وقرأ لها شعراً دون أن يشوب هذا اللقاء أية رغبة. ولأول مرة يغفو دون أن يُدخل الظل معه في الفراش. وحين ثقل جفناه أحس أن الظل يغطيه باللحاف.

الفصل التاسع عشر

– ١ –

صارت الحالة لا تطاق. شهران كاملان مرّا على سفر آرون دون أي خبر. وكلما جاء الموعد المحدد لتوقع إشارة من البحر اجتمع في المختبر نعمان وأفشالوم ويوسف وليوفا وسارة وعدد من الشبان والصبايا المتطوعين الذين تم تجنيدهم للعمل مع المجموعة. ولكي يبرروا تجمعهم هذا كانوا يوجهون دعوات إلى شبان وصبايا. ولا ينسون ضباط خفر السواحل وعناصره. ويقيمون حفلة يغدقون فيها المشروبات التي يحضرها نعمان. وتصدح الموسيقى. ويبدأ الغناء والرقص ويعلو الضجيج. وخلال ذلك يتسلل بين الحين والحين واحد منهم ليجلس في مكان مطل على البحر في ذلك العراء المظلم منتظراً الإشارة دون جدوى.

بعد الليلة الحافلة المخيبة يتوزع الجميع.كل إلى عمله. تعود سارة إلى القدس. ونعمان ويوسف إلى روشيون لوزيون. ويذهب أفشالوم إلى الخضيرة. ويظل ليوفا في المختبر.

تمر الأيام وليوفا وحده. لا هو بالمحب للعمل الزراعي، وخاصة الجانب المختبري فيه، ولا تكفيه الكتب المتوفرة في المختبر، أو الكتب التي كان يجلبها معه،

أو يجلبها له أفشالوم من مكتبته، أو سارة من القدس. الكتب لا تغني عن الحياة. وشاب في عمر ليوفا لا يمكن أن يستمر على هذه الحالة. ولهذا كان يحس بالاختناق. ما معنى هذه المعلومات التي يجمعها من تجسسه على الرسائل؟ ما معنى المعلومات التي تجلبها سارة؟ بل ما معنى تجنيدهم للشباب الآخرين إن كانوا لا يستطيعون تشغيلهم في عمل حقيقي مفيد؟

ولم يعد يعنيه أن يذهب إلى المختبر أو أن يبقى فيه. كان أحيانا يسرق نفسه ويذهب إلى روشيون لوزيون فيقضي ليلة من الشرب والدعارة عند نعمان ومن يجده من الأصحاب. ولكن نعمان منذ الصباح الباكر يطلب منه العودة إلى عتليت والمرابضة في المختبر.

* يا أخي ما عدت أطيق.

– يا أخي ليس على كيفك. يجب أن تتحمل إلى أن يتقرر وضع أحد غيرك.

* ضعوا غيري. قرروا. أنا موظف حكومة. يجب أن أداوم على وظيفتي.

– إي مرحبا وظيفة. علينا هذا الكلام؟ من في هذه الدولة يداوم في وظيفته؟

* ألا تريدون مني أن أراقب الرسائل؟

– لماذا؟ طالما أنه ليست هناك فرصة لإرسال المعلومات؟

* وما معنى بقائي في المختبر إذن؟ أعفوني.
– إنتظر حتى تجيء سارة.
ويعود إلى عمله من جديد.
إلى أن اتصل به ألتر مجدداً. فقال له: جئتني من عند الله. كيف أوصل لك ما أريد إيصاله؟
قال له ألتر: ستمر إليك حماتي بين حين وآخر. إذا سئلت عنها تقول إنها تنظف لك بيتك بالأجرة وتغسل لك ملابسك. أعطها ما تريد. وليكن مكتوباً وواضحاً.
وأخفى ليوفا عن أصحابه مسألة تعاونه مع ألتر. ولكنه ظل متوتراً لأنه كان يتمنى أن ينجح آرون في الاتصال بالإنكليز.
العمل مع آرون شيء آخر.
أفشالوم كان أكثر منه توتراً. يتجول في مناطق انتشار الجيش. يعرف أسماء ضباط وتسليح قطعات وأماكن توزعها وتمركزها. ويدون هذا كله على أوراق يأخذها إلى المختبر. ويخفيها حيث يخفون المعلومات. ثم يجيء موعد الإشارة ولا تظهر الغواصة. يراجع المعلومات فيرى أن بعضها قد فقد قيمته. يمزق بعض الأوراق. يضيف أوراقاً أخرى. ثم يخفيها من جديد.
ليوفا يجلس ساهماً ولا ينظر إليه. بعد أن ينتهي من عمله ويخرج، يهز ليوفا رأسه مستهتراً: لو محلك أمزق الأوراق كلها. الشغلة فالصو. ما رأيك لو نتعاون مع أي

طرف آخر بدل انتظار آرون؟

ولا يرد عليه أفشالوم. يركب العربة ويذهب. يعمل على تجديد معلوماته وتثبيتها. يمر إلى روشيون لوزيون. يعطيه نعمان ما تجمع لديه من معلومات ثم يجلس مع يوسف ويتبادلان القلق.

قال يوسف: الحالة صارت لا تطاق. الحل أن يذهب أحدنا إلى مصر.

وحين يسمعهما نعمان يتوتر: لماذا مصر؟ آرون صاحب الفكرة. إذا اتصل نحن بالخدمة. إذا لم يتصل ننتظر. وإذا غير رأيه يريحنا. أصلاً لا أظن أن الإنكليز بحاجة إلينا بعد ثورة الشريف حسين.

ويكرع كأس العرق حتى آخره ثم يتناول بيضة مسلوقة ويضعها بأكملها في فمه. ويقول وهو يضحك مرغماً: خلص. العرب أكلوا البيضة والتقشيرة. سبقونا إلى الإنكليز.

وينهض أفشالوم متوتراً فيمسك به نعمان: يستحيل أن أتركك تذهب في هذا الليل.

* يا أخي اتركني. أنا لست ولداً صغيراً.

– أعرف أنك ولد كبير. ولكنك لن تذهب. الصباح رباح.

ويهمس له يوسف أن أفشالوم سيذهب إلى القدس لرؤية سارة. فيزداد نعمان عناداً: أنا ما عندي حب بالليل. يريد أن يحبها يحبها في النهار. وحين يلتقي بها

فله الليل والنهار. أما سفر في هذا الليل وضمن هذه الظروف مستحيل. علي الحرام أطلب من أي واحد من هؤلاء الضباط أن يحبسك حتى الصباح. لا تجعل سكرتي تفقس عليك.

ويطيعه أفشالوم. يقضي الليل معذباً. الإحساس بالفشل يعميه: حياتي كلها فشل يا نعمان.

– هذا كله بسبب سارة؟

* ليت الأمر يتوقف عند سارة.

– إسمع يا أفشالوم. أنت موهوب. وشاعر. لا تضيّع نفسك من أجل واحدة مثلها.

* أنا أفكر في أشياء أخرى يا نعمان.

– فكر في كل ما تريد. ولكن لن أترك هذه البنت تلعب بك.

ويسكت أفشالوم راضياً. ويسره أن يجد من يمنعه. فهو يتمنى أن يذهب لرؤية سارة. وفي الوقت نفسه يخاف لقاءها. هذه المرأة حلوة في الذاكرة فقط. أما في الواقع فإنها تزداد بعداً عن نفسه. شيء ما فيها بدأ يتضح، ويجعله يزداد نفوراً. لا بد أنه السلوك الذي تسلكه في القدس. وسفراتها إلى دمشق وبيروت. لا يريد أن يفكر في ما يمكن أن يحدث في هذه اللقاءات والسفرات. ولكنّ في ضحكتها شيئاً يفرقع، ولا يوحي إلا بالدعارة. يجب أن تكون هناك تسمية أخرى لامرأة

تفعل ما تفعله سارة. وتفرقع بهذه الضحكة لتخبر الآخرين مستمتعة، وعن طريق ضحكتها، بما تفعله.

حين يلتقي بها مضطراً لجلب المعلومات أو لتحديد موعد السهرة في المختبر ومدعويها أو للسؤال عن آرون يزداد انكماشاً. وتحاول هي أن تلغي مواعيدها لتتفرغ له. لكنه يزلق بين يديها كالصابون مستعجلاً العودة. فالشباب بانتظاره. وما أن يخرج من الفندق حتى يتمنى لو يرجع إليها باكياً. بحق الأبالسة فهَميني أو افهميني. كوني غير ما أنت عليه. اللعنة على الشغل الذي يقشّرك من الحياء. ويحولك إلى فرج مستعرض قبيح. أنت الآن فعلاً مثل الفرج. يسعى إليه الرجل لكن يجب أن يصل إليه دون أن يراه. رؤيته تجعل المسألة بذيئة ومقرفة وقذرة.

ويهرب من القدس لكي لا يظل يفكر فيها على هذه الصورة.

بينما هي تتوتر وتزداد قسوة على نفسها: إن كان أفشالوم غير ممكن فالرجال كلهم سواء. وأفضلهم من يوصلها إلى ما تبتغيه من معلومات، ومن معرفة أفضل بالأجواء. أفضلهم هو أكثرهم اعتداداً أو بهاء وتألقاً. أفضلهم لأنها تجعله يخلع هذا كله عن نفسه ويتعرى. وعري أي واحد منهم غير عري عارف. عارف تفاجئ عريه لكي تعميه وتربكه. أما حين يتعرى واحد من

هؤلاء أمامها، وهي تستدرجه وتورطه قبل أن تخلع ملابسها، يتحول إلى كتلة مضحكة. هو يعريها من ثيابها. وهي تعريه من أبهته وعظمته. تتمنع عليه بعد أن يكون قد خلع ملابسه وهو غير مصدق. يحس أن هناك مزحة تمزحها. وستنتهي بعد قليل. إذ ليس من المعقول أنها لن تقبل بعد الشرب والرقص والقبلات واللمسات والمداعبات ومد اليدين تحت الملابس وسط الضحك والمراوغة. ثم الخلوة التي يتلهف إليها ويستعجل في خلع طربوشه وبذلته وأوسمته وجزمته، وهي ترقبه. وتكاد تفلت منها الضحكة وهي ترى الساقين النحيلتين والكرش المتهدلة والشاربين اللذين خرب نظامهما فمال الشمع بطرف إلى الأسفل وطرف إلى الأمام والحاجبين المشعثين والصلعة. يتعرى من مركزه ومظاهره ويقترب منها بعينين تلمعان. لحظتها يخطر لها أن تتمنع لكي تزداد الصورة طرافة وإضحاكاً. وبعد استنفاد لحظات الممانعة الطريفة تستسلم له لئلا يحس بالإذلال، وبأنه مخدوع. فهو يحتاج إلى وهم الانتصار هذا لكي يستمر في ملاحقته لها. هي انتصاره. يجب أن يحس أنه أغواها أخيراً، فلم تستطع مقاومته. ولن يحس بذلك إذا تمنعت عنه نهائياً.

طالما أن أفشالوم يزداد بعداً فهي ستزداد غوصاً في هذه الأجواء. تتجاهل نظرات يوسف التي تطلق

الأحكام، ونظرات أفشالوم التي تحيد عنها، ونظرات ليوفا التي لا تجرؤ على إعلان شهواتها، ونظرات نعمان التي تعطيه مظهراً محايداً، وهو يتفحصها متمنياً، كما يتفحص شخص احتمال المطر في سماء يتجمع فيها الغيم.

صار الرجال كلهم دفتراً مقروءاً.

ويأتيها ألتر. ينبع من الظلام فلا تحس به إلا أمامها.

* سارة. أنا أقبل أن ترفضيني لأنك تحبين أفشالوم. أما أن ترفضيني وتقبلي هؤلاء الخنازير فإنك تجرحينني من الأعماق.

– ألم تكن تلك فكرتك؟ أن أستخدم جسدي؟ ألم تقل لي إن هذا واجب ديني؟

* إعتبريني واحداً من هؤلاء.

– لا يا ألتر. لا تغلط. أنا أحترمك إلى حد يمنعني من أن أقبل لك موقفاً كهذا. أحترمك لأنك مخلص وذكي ومغامر. ولم أستطع أن أحبك. ولهذا لن أقبل أن أنام معك. أنت لا تعرف كم سأرى الموقف مهيناً لي ولك.

* أنا أعتبره حلم العمر حتى لو كانت فيه إهانة.

– أنا لا أقبل لك ذلك. قلت لك إنني أحترمك.

* سارة. أنا أحببتك. وظللت أعيش على أمل أن أصل إليك حتى تزوجتِ. بعدها لم أعد أجد من حقي التدخل. لا أريد، حتى لو كنت تحبينني، أن أضعك في

موقع الزوجة الخائنة حتى من خلال علاقة معي. ثم تركتِ زوجك وجئت. فاشتعلت الأماني والأحلام من جديد. ولكنك كنت عائدة إلى أفشالوم. كيف حدث ذلك؟ متى مررت بتلك اللحظة الفاصلة بين انفصالك عن زوجك وقرارك بإقامة العلاقة مع شخص آخر؟ في تلك الفترة، في تلك الساعة، في تلك الومضة من الزمن، أين كنت أنا؟ لا أزال أحمل الحرقة في قلبي. وأقول لو أنني كنت قريباً منك حينها، لكنت أنا بديل أفشالوم. وربما بديل هؤلاء الرجال كلهم. ولكن لا. يبدو أن أختك رفقة كانت محقة. كنت تحبين أفشالوم قبل زواجك ومازلت تحبينه. ولكي أحيِّد نفسي أجبرتها على رسم إطار حالم أضعك فيه مع أفشالوم في قصة حب لطيفة. لكي أظل أتطلع إليك وأحبك وأحترمك وأعتبر أن ما بينك وبينه عواطف فقط. عواطف ناعمة رقيقة لا علاقة للجسد بها.

عند ذكر أفشالوم بهذه الطريقة لا تستطيع منع نفسها من البكاء. هي التي تلتقي بأي رجل تشاء، ومهما صعبت شخصيته أو علا مركزه؛ هي التي يترامى الرجال عند أقدامها خالعين ملابسهم وكبرياءهم وأسرارهم؛ هي التي أمامها ألتر بحبه الكبير هذا؛ هي لا تستطيع أن تحس بأحد. كأن أفشالوم قد ألبسها ريش البط، كما في الحكاية، لكنها لم تتمكن من الطيران. فلم تعد تستطيع

خلعه ولا تتعامل إلا مع طبقته الدهنية التي تمنعها من الإحساس بعذوبة الماء الذي تسبح فيه. يلبسها ثوب الريش ويمضي. فليأت وليحل رصدها. ليخرجها من هذا البرزخ الذي ترى نفسها فيه. بسببه لا تحس بغيره. وهو لا يقبل أن يحقق اللقاء معها، مع أنها واثقة من أنه يحبها ويتمناها ويشتهيها. لا بد أن هناك شيئاً ما، شيئاً صغيراً جداً لم تستطع بعد تمييزه رغم ادعاءاته وتبريراته. هذا الشيء هو الذي يحجبه ويمنعه عنها. وتتصور دائماً أن هذا الشيء سيزول ذات يوم. ذات لقاء. ذات صدفة.

ويلح ألتر: عيوني سارة. لا أفهم لماذا تعاملينني بهذه الطريقة. لا تريدين أن تضعيني في موقع واحد من هؤلاء. ولا أستطيع احتلال موقع الحبيب. أنا أقبل الحل الوسط. أقبل الموقع الآخر. أنت امرأة. ولديك غرائزك. أنا أقبل مهمة إشباع الغريزة.

– ألتر. أرجوك. لا تتكلم بهذه الطريقة. إنك تهينني وتهين نفسك. أنا يا ألتر أكره الجنس.

* تكرهين الجنس؟ تكرهينه وأنت التي..

– نعم أكرهه وأنا التي.. هل تتصور إنساناً يرى الهواء يا ألتر؟ هذا الإنسان يكون كالأعمى. يرى الهواء فلا يعود قادراً على رؤية كل ما نراه نحن عبر الهواء الشفاف. يصبح الفارق بيننا وبينه كالفارق بين يمشي في الصحو

ومن يمشي في الضباب. من يفتح عينيه وهو يغوص في الماء ومن يفتح عينيه وهو يغوص في الزيت أو الوحل.

* لا أفهمك.

– أنا أرى الرجل في لحظة الجنس. فهمتها الآن؟ أراه. عدم إحساسي به يجعلني أراه. يجعل وعيي مستيقظاً. فأراقبه وأراه. ويكون عندها سخيفاً ومضحكاً. أنا أتصور لحظة الجنس الحقيقي بطريقة أخرى. لحظة سكر لا تعرف ما الذي تفعله خلالها. لا ترى الطرف الآخر. هذا ما أتوقعه إذا حدث الأمر مع أفشالوم. لكنه لا يحدث. ولأنه لا يحدث معه لا أعتقد انه سيحدث بشكل صحيح مع أحد غيره. أرجوك. أنا لا أريد أن أراك.

وتبكي.

فيجلس واجماً يحاول أن يفهم ليعزي نفسه.

وتسترسل: بعد انتهاء لحظة الجنس مع واحد ممن سميتهم الخنازير أحسد الرجل الذي كنت معه. وأراه مقرفاً ومضحكاً في الوقت ذاته. أحسده لأنه أحس بشيء. استمتع. أيقظ جسده ودفعه إلى الحد الأقصى من الشهوة. أنا يحدث لي شيء مختلف. أو لا يحدث لي شيء أبداً. كثيراً ما يخطر لي، وأنا مع واحد من هؤلاء وفي عز هيجانه، أن أسأله عن الساعة أو احتمالات المطر أو إذا كان هناك ماء ساخن في الحمام.

وأعرف أن توجيه سؤال كهذا في تلك اللحظة سيكون سخيفاً ومهيناً. أقول لنفسي سأنتظره حتى ينتهي ثم أطرح سؤالي. وحين ينتهي ويرتمي عليَ أو إلى جانبي أجد أن طرح السؤال اعتراف بحيادي وعدم مشاركتي. أحس لحظتها أنني بقرة. أستعيد في ذهني صورة من المزرعة. كانت لدينا بقرة وجاء وقت نزائها. عطفت كما يقول الفلاحون. وجلبنا لها ثوراً أدخلناه إليها في الإسطبل. كانت البقرة تأكل علفها. رفعت رأسها. اعتلاها الثور ثم نزل. فعادت هي إلى قضم علفها كأن شيئاً لم يحدث. أحس أنا بشيء مشابه. أحس أنني سأعود إلى قضم علفي. وأحسد حتى البقرة. حتى البقرة كانت تحتاج. وأطلقت رائحتها التي هيجت الذكر. أنا أحس أن لي رائحة مشابهة تهيج الذكور من حولي. وربما تنطلق هذه الرائحة وما يشبهها من الإيحاء الذي أعطيه بأنني سأقبل بعد محاولة جادة. ولكن ليس كالبقرة. ليس لأنني أريد. بل لأنني سأقبل فقط.

يخيم عليهما جو زئبقي ثقيل. ويحس ألتر أن مفاصله طينية لا تمكنه من الحركة. ينسحب دون أن ينظر إليها. ينسل إلى مخبئه ويتمدد. شيء مما قالته سارة لمس وتراً خاصاً في نفسه. طالما أن الأمر لم يتم بشكل صحيح بينها وبين أفشالوم فلا يمكن أن يتم بشكل صحيح مع أحد. هذا يفهمه تماما. هو أيضاً مثلها. طالما

أنه لم يحدث بينه وبين سارة، فلم يعد من الممكن أن يحدث بشكل صحيح مع أية امرأة أخرى. يدرك هذا بوضوح وهو الذي لم يقرب امرأة منذ فترة طويلة. لا يحس بحاجة إلى المرأة والجنس. هو يحتاج إلى سارة وحدها. وطالما أن هذا لا يتم فإن كتلة من الحمأ تسد منابع الشهوة. فلا يعود قادراً على التفكير بامرأته، أو بأية امرأة أخرى.

وتغتسل سارة. تسكب الماء على وجهها وجسدها فتحس أن الماء لا ينظفها. بل يقوم بعملية مكياج. حمامها استعداد للسهرة التي تشبه السهرات الأخرى التي تظهر فيها على غير حقيقتها. ها هي تستحم لكي تكون غيرها. ولكي تنقسم إلى اثنتين واحدة تمنح وتستسلم وتحس بالتفوق. فتلتقي مع الأخرى، التي تراقب وتسجل في الذاكرة، وتصور وتأخذ ما تستطيع أخذه من الأوراق والمصورات والأرقام. تتفوقان معاً وتندمجان في امرأة قوية تعرف ما تريد. وتعرف كيف تصل إلى ما تريد.

بالتدريج ستحس بالسلام مع نفسها. وسيعطيها هذا الإحساس بالإنجاز راحة عظيمة لا ينغصها إلا القلق على عدم ورود إشارة أو خبر من آرون.وهي واثقة من أنه لن يخيبها. ولكن الشباب بدأوا يتململون: ما فائدة المعلومات التي نجمعها؟ فلنبحث عن عمل آخر.

فلنشغل أنفسنا بشيء آخر. وهي لا تعرف كيف تهدئهم إلا بتكرار كلمة: ننتظر.

وهم أيضا. لكي لا يتسرب اليأس إلى نفوسهم يحمل كل منهم ترس كلمة «إنتظر»، ليواجه بها الآخر: إنتظر ورود شيء من آرون. إنتظر مجيء سارة.

ولماذا الانتظار؟ أنا أذهب إلى سارة. يذهب ليوفا إلى الفندق ويسأل عنها فلا يجدها. يذهب إلى البار. يشرب حتى يسكر مللاً دون أن تظهر سارة. ثم يعود إلى غرفته في الفندق ويتمدد فيها والضجر يكاد يقتله. وينام وهو ينتظر.

يستيقظ متأخراً في الصباح وينزل ليسأل عنها. فيعلم أنها لم تنم في الفندق تلك الليلة. يتناول إفطاره ويجلس أمام النافذة ساهماً. يتجاهل عارف الجالس وحده، والذي هو الآخر لا يعرف ماذا عليه أن يفعل. فسارة التي هما من أجلها غير موجودة.كل منهما ينتظرها لسبب. وكل منهما لا يعرف الآخر. وكل منهما يخمن أين هي. ويخمن بسهولة لماذا لم تنم تلك الليلة في الفندق.

يحس عارف بالتعرق وهو جالس بهذه التفاهة. ما الذي أوصله إلى هنا؟ بدل العمل الأمني الحقيقي ها هو يتحول إلى مرافق وحارس لشرموطة. ويا ليته حارس أو مرافق. ليتها تكلف نفسها عناء القول إلى أين تذهب،

أو متى تعود. لا تقول إلا انتظرني. سأتصل بك. ويخاف أن تتصل به ولا تجده، ويخاف أن تخبر الباشا بإهماله لها، فيثبت في الفندق كالأبله.

يحس ليوفا بنفسه في مكان غير مكانه الملائم له. ليس هنا في الفندق حيث ينتظر امرأة لا تبيت في غرفتها، بل في ذلك الجو كله. حتى حين كان مع آرون لم يكن في مكانه الملائم. سكرتير؟ لماذا؟ إن قصيدة واحدة أفضل من كل ما يفعلونه في مجال الزراعة أو في التجسس. هذا كله زائل والشعر باق. أصلا هو لا يصلح لغير الشعر. وشكراً للرب على أن الأتراك لم يوافقوا على خروجه مع آرون. سكرتير في الخارج أيضاً؟ عال. عال. قبلناها هنا للتستر باسم لجنة مكافحة الجراد وللتهرب من الجندية. أما في الخارج فلماذا؟ لا. هنا أفضل. حتى مراقبة الرسائل أكثر جدوى. أكثر جدوى شعرياً على الأقل. الدخول إلى عوالم الناس الداخلية. الاستغراق في هواجسهم وأفكارهم وأشواقهم ومشاريعهم دون أن يحسوا أنهم مراقبون. وكثيراً ما يستمرئ هذا الغوص في الناس عبر الرسائل، فينسى أنه يقرأها لمراقبتها باسم الدولة. كما ينسى أنه يقرأها بحثاً عن معلومات يجب أن يسرّبها هو إلى الإنكليز. يقرأها ليتعرف إلى الناس بشكل أفضل.

وتدخل سارة وعليها آثار الإرهاق. ويتأملها ليوفا

بامتعاض: واضح أنها لم تنم طوال الليل. واضح أنها كانت تسكر وتنيك. ولو أنه اقترب منها فلا شك أنه سيشم رائحة المشروب أو رائحة الرجل الذي كانت تنام معه. ولكنها لم تعطه مجالاً. ما أن رأته حتى زعقت: ماذا تفعل هنا؟ المسألة معلقة بآرون. أنا ما علاقتي؟ واسترد توازنه: أنا لم أعد أطيق الانتظار. والشباب كلهم قلقون.

* انقلع من وجهي. أرسل هذا الكلام لآرون.

— وهل آرون في اليد لكي أرسل له هذا الكلام؟

* ليوفا!!

واقتربت منه كالنمرة. لكنها حين تذكرت احتمال ظهور عارف، تحدثت بهمس كحد الشفرة: أنا أعيش الحياة التي تراها لكي يكون كل شيء سهلاً حين يتصل آرون. فهمت؟ لا أريد أن يحسوا أن ورائي قبيلة من النمور. إرجع إلى شغلك.

— أنا لم أعد أطيق البقاء في المختبر. أريد أن أكتفي بشغلي في مكتب مراقبة الرسائل.

* إذا كنت لا تستطيع البقاء انقلع. واطلب من أفشالوم أن يبقى بدلا منك.

— ٢ —

لكن أفشالوم كانت معاناته أكبر. حين يأتي لرؤيتها يذهب من عندها مخنوقاً. يذهب إلى نعمان وهو يحس

بالرغبة في البكاء وبالقدرة على شرب كل ما في روشيون لوزيون من خمور وعرق. ويستقبله نعمان ويسكب له الكأس تلو الأخرى. فنعمان بقدر ما يستمتع أن يسكب لزبائنه لكي يربح منهم يستمتع أيضاً في السكب للأصدقاء والندماء. وأفشالوم هو الأخ والقريب وصديق الطفولة والشباب. يسكران بقدر ما يحتمل أفشالوم. ثم يرتخيان في الفراش. ولا يستطيع نعمان أن ينام.

* أفشالوم. بذمتك كم مرة دققت بسارة؟

وينتفض أفشالوم وقد لدغه السؤال: ماذا؟ سارة؟

– نعم سارة. أما دققت بها؟

* يخرب بيتك.

– ولماذا يخرب بيتي؟ ماذا فيها؟ المخلوقة تموت فيك.

* وافرض أنها تموت فيّ.

يضحك نعمان ضحكة داعرة: أفرض؟ أتظن المرأة تموت فيك لكي تقرأ لها شعراً؟

– يخرب بيتك. ولك نعمان. هذه أخت آرون.

* وماذا يعني أنها أخته؟ ألا يعرف أن أخته تنيك؟

– نعمان. ما هذا الكلام؟

* ماذا أقول يا ابن عمتي؟ النسوان خلقن لهذه الشغلة.

– تعني أنك لو صحت لك سارة...؟

* أدقّ فيها وفي أبيها. لماذا لا أدق فيها؟ ولكن المخلوقة تريد الشعر والحكي الفاضي.

– ها أنت قلتها. تريد الشعر.

* ولكنها تزوجت. هل كان زوجها يقرأ لها الشعر؟ وهل الذين تسهر معهم في القدس والشام وبيروت يقرأون لها الشعر.

– أرجوك. أنا لا أحب هذه الأحاديث.

– إي لطيزي. الآن تريد أن تستشرف علي. خليك عشقان وشاعر. وغيرك يدقّ فيها.

ويلف أفشالوم نفسه باللحاف لكي يبكي إذا شاء، دون أن يحس به ابن خاله.

– ٣ –

أخيراً ها هي ذي امرأة حقيقية يا إبراهيم. ليست ظلاً ولا وهماً. امرأة. لا تزال في عز صباها. ضاع زوجها وهي لا تعرف عنه شيئاً. لا تعرف إن كان قد مات أم ضاع أم هاجر. عظيم. وهي هنا قربك. في البيت نفسه. لا يفصلك عنها إلا هذا الجدار. دبر رأسك مع بهيجة يا ولد.

ولكنه تردد. انتصبت الحواجز أمامه واحداً بعد الآخر. لعل الحاجة هي التي تجعلها تأتي وتنظف البيت وتلم الغسيل وتجلي الأواني وتطبخ. لن يكون الذئب الذي يستغل حاجتها ليقضي وطره منها. لن يستغل حاجتها

المادية ولا حاجتها الجنسية. ذات يوم سيعود زوجها. وستجلس أمامه لكي تبكي زلتها التي اضطرت إليها. سيحس زوجها بالذنب لأنه تركها. ولكنه سيلعن الأيام التي أجبرته على ترك الزوجة الصبية بين أيدي الذئاب. هو لا يريد أن يكون ذئباً. بالعكس تماماً. الشهامة تقضي بمساعدتها على هذه الأيام الصعبة. وحتى أبوها يراها تأتي إلى الغرفة وتشتغل. ولعل أمها هي التي ترسلها. لا شك أنها الحاجة التي تجعلهما يرضيان بذلك ويسكتان. ولعلهما يعرفان أيضاً أنها تعرض نفسها أو تعرّض نفسها. ويرضيان بسبب الحاجة. لعن الله الحاجة ومسببيها ومستغليها. كيف سيناضل ضد الحاجة إذا كان يريد أن يستغل هذه الحاجة ويستفيد منها؟

وهو لم يحاول أن يعرض عليها مالاً لقاء خدماتها. لعل أباه هو الذي اتفق مع أهلها على هذه الخدمة إضافة إلى الغرفة المستأجرة. وهذا يعني أن أباه هو الذي يستفيد وهو الذي يدفع. وقد رآها الأب أكثر من مرة تأتي إلى البيت وتشتغل. فتصرّف عارف وكأن الأمر طبيعي. وكأن هذا ما يجب أن يحدث. كأنها زوجة أو...

وما أدراني أنها لا تأتي إلى هنا وفي ذهنها أبي نفسه؟ ربما كان بينهما شيء حتى قبل أن أجيء. كم هو معيب أن أتدخل بينها وبين أبي. تصور السمعة: أب وابنه يتنافسان على امرأة. أمن قلة النساء؟ النساء داشرات

في الشوارع على قفا من يشيل.

ربما كان ذلك كله موجوداً في ذهنه وحده. وهم لا يفكرون بالأمر. لا أبوه ولا أبوها ولا أمها ولا حتى هذه الزوجة الصبية المهجورة. لعلهم يرونه مثل ابنهم. ويريدون أن يعتنوا به في غربته عن أمه، وفي أيامه التي يقضيها وحيداً، فيما أبوه مشغول. كم هو مخجل أن يحسوا أنه يسيء فهمهم.

لم يمنع نفسه من الذهاب إلى بيتهم. ظل يذهب وكأنه لا يحس بوجودها. كان في البداية يذهب للعب المنقلة مع أبيها. وحتى أبوه حين كان يأتي ولا يراه في البيت، كان يسألهم عنه أولاً.

في ذلك البيت الفقير صار يقضي أوقاتاً أخذت تطول. وكان يقنع نفسه أنه ابن البيت. أو مثل ابن البيت. وقد رفعت الكلفة بينه وبين الأسرة. بل إن بعض الممازحات صارت تتسلل بينه وبينها بوجود الأب والأم. وقد صادفها في البيت وحيدة أكثر من مرة. وكان يجلس ويحادثها.

– هل جربت؟ كان سميح يسأله.

* أعوذ بالله.

– ولم العياذ بالله؟ المخلوقة تريدك. واضحة مثل عين الشمس.

* أخي كن بحالك، ولا تتدخل في شؤوني.

– تعرف؟ صرت أشك فيك. لا في الكارخانة فعلت شيئاً، ولا هنا مع هذه المخلوقة تفعل شيئاً. هل تشكو من شيء في رجولتك؟

* تريد أن تجربني؟

– جرب نفسك مع النسوان. لماذا معي؟

* لكي تقتنع.

– ستين عمرك. خلّيك على العادة السرية.

ثم يستدرك سميح: أخي المسألة باينة. المخلوقة جربت الرجال وانقطعت. أما سمعت أعزب دهر ولا أرمل شهر. هذه الأمور بعد أن تجربها لا تستطيع الاستغناء عنها. إسألني أنا. أنا كنت مثلك لا أهتم. ولكن بعد أن جربت استذوقت. والنساء تستذوق أكثر من الرجال. الآن هي تريد أي رجل بعد أن عرفت الأمر مع زوجها. فإذا كنت لا تريد أن تفعل شيئاً ابتعد عن الطريق ودعني أحاول.

* إياك. كله إلا هذا.

– لا ترحم ولا تخلي رحمة ربك تنزل.

* إبعد عن جيراني وعن ربي. فهمت؟

– لجهنم. غداً يأتي واحد آخر يلطشها ويخرأ علي وعليك.

ويذهب إلى بيتهم. يحاول التقصي في سلوكها ما يؤكد له أنها لا تعرض نفسها بفعل الحاجة. وأنها لا تعامله كأخ. وأنهم لا يعاملونه كإبن. وليس بينها وبين أبيه

شيء. و... يتعبه التقصي. فيزيح تلك الأفكار من ذهنه. ويسترخي مع التآلف النامي مع الأسرة كلها.

على الجدار صورة الزوج الغائب. شاب في مقتبل العمر. لا شك أنها تحبه. وأنها تزوجته بعد قصة حب طويلة. ولا شك أنها تحلم به وبعودته ليلاً ونهاراً. لا يمكن أن تفكر في استبداله بآخر. بل لعل البعد قد حول عواطفها إلى ما يشبه الشعر. ما أدراني بم تفكر وهي جالسة في الشمس هناك. كم هو مسيء لصورته عندها وعند الأسرة كلها أن يحاول زج نفسه في أحلامها محل زوجها الحبيب.

ذات يوم دخل المنزل وكانت تسحب الماء من البئر. طلبت منه أن يأتي لمساعدتها.

شد الحبل عنها وسكب السطل في الطنجرة التي وضعتها قرب البئر. وأنزل السطل مرة أخرى وهزه حتى تأكد من أنه امتلأ. شد الحبل من جديد. وحين ارتفع السطل إلى منتصف المسافة زلقت يده عن الحبل المبلل بالماء. فعاد السطل إلى الأسفل.

ضحكت: ما بك؟ محلول؟ مازال خيرك في ظهرك. وضربته ضربة خفيفة على ظهره.

احمرّ وجهه خجلاً. وشد السطل بقوة.

— إي هاه. يا عيني على الشباب.

وحين أراد أن يسكب الماء في الطنجرة كانت قد

اقتربت قليلاً فانسكب الماء عليها.

شهقت ونفرت ضاحكة: ما بك؟ ألم ترني؟

– عدم المؤاخذة. لم أنتبه.

وقفت وتطلعت إلى عينيه فازداد ارتباكه. وتلفت حوله ليتأكد أنه ليس هناك أحد في البيت.

قالت له: وصل الماء إلى جسمي كله. شوف. وأمسكت بيده ووضعتها على صدرها.

ارتجفت يده.

– ما بك؟ أقول لك إن الماء وصل إلى جسمي كله.

وباستسلام رخيص وبدائي سحبت يده إلى فتحة الصدر في الثوب.

ارتجفت يده أكثر. لم يتوقع العرض بهذه الفجاجة. ولكنه لا يعرف أيضاً كيف ينسحب.

– ما بك؟

أراد أن يمزح لكي يبدد ارتباكه: رغم الماء مازال جسمك ساخناً.

– يعني إذا التصقت بك لا تبرد؟

والتصقت به: مع ذلك أنا بردانة. دفّئني.

وأحاطت خصره بذراعيها. فشد كتفيها نحوه وقبلها. لانت على صدره واستكانت. ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك.

سحب نفسه منها: قد يأتي أهلك.

ولم تقل شيئاً. تطلع إليها متفحصاً وكأنه يتوقع أن يرى قبلته لا تزال على وجهها. لكنها كانت واقفة ساهمة. أتحس أنه قد أساء إليها؟ هي التي...

وخرج.

لكنه صار يعود كثيراً. وفي كل مرة يسرق قبلة سريعة. أو يلمس صدرها لمسة متعمدة. أو يشد على خصرها. وهي لم تمانع أو تعترض مرة واحدة على ما يفعل. لقد فتحت تلك القبلة الباب لكل احتمال. ولم يعد هناك ما يعوق الاختطاف والسرقة.

وما كان يفعله بعجالة وولدنة، صار يخطط له في ليالي الأرق.

وذات يوم نادته بصراحة: إبراهيم. تعال. أبي وأمي ذهبا. أنا وحدي.

وذهب إليها مندفعاً. احتضنها، فتملصت منه مراوغة ودخلت إلى البيت. دخل وراءها وأحاط خصرها بذراعيه. فمالت بجسدها عليه. انهال عليها تقبيلاً وهي تتأوه بين يديه. ثم مد يده وشد على نهدها من الخارج.

شهقت وقالت: ستشق الثوب. إنتظر.

وفتحت ثوبها. نزل بفمه على النهدين. ولم تعد قادرة على الوقوف. انزلقت على الأرض فانزلق فوقها. صارت حركاتها أكثر وضوحاً. هي التي تشد على ظهره. وهي التي تفرك جسده بيديها. وهي التي تقود يده إلى

صدرها، ثم إلى خصرها، ثم إلى ما بين ساقيها. وهي التي فكت بنطاله، وداعبت فخذيه. هي التي جعلت يده تسحب سروالها. وهي التي انزلقت تحته وشدته فوقها. في لحظة ما قرر. عرف أنها اللحظة الحاسمة. الآن سيدخل امرأة ويعرف تلك المتعة التي كانت غائمة في الأحلام.

وفي الوقت الذي نزل بين ساقيها، وأحس بملامسة فخذها لفخذه، أفلتت منه نظرة خاطفة ارتمت على الجدار الذي يحتوي على صورة زوجها. ولرعبه لم ير الصورة. رأى وجه أبيه. ليست صورة أبيه. بل وجه الأب ذاته يطل عليه. وينظر إليه من داخل الإطار. ويضبطه متلبساً بنظرة لوم وتأنيب وخيبة أمل: يا ضياع التربية.

في لحظة واحدة تصبب جسده عرقاً. وانقلب عنها لاهثاً.

– ما بك؟

وردّت ثوبها على عريها.

لم يجب.

– خلَصت بهذه السرعة؟

لم يجب.

– لا بأس. هذا يحدث لأنها المرة الأولى.

وكأنما أراد أن ينفي عن نفسه تهمة: ليست المرة الأولى.

– أقصد المرة الأولى معي. المرة القادمة ستكون أفضل.

لكنه عرف أنه لن تكون هناك مرة قادمة.

نهض يرتب ملابسه على نفسه، فيما هي متمددة على الأرض.

تطلع إلى صورة الزوج على الجدار. وتابعت هي نظرته: يعجبك؟

خرج إلى أرض الدار دون أن يجيب.

ودون أن ينتظر مجيئها فتح باب البيت وخرج.

وحين ذهب إلى الغرفة وجد أباه فيها. أشاح بوجهه عن أبيه مرتبكاً كأنه قد توقع أن أباه سيرى على وجهه كل ما حدث. ولماذا يرى على وجهه؟ ألم ير كل شيء وهو يطل من الصورة؟

وفي ذلك الليل أقنع نفسه أن اللّه سبحانه وتعالى قد أنقذه من المعصية. وأن ما جرى معه اليوم شبيه بما جرى مع سيدنا يوسف حين أغوته زليخا. فهمَت به وهمَ بها لولا أن رأى برهان ربه. وكان برهان ربه وجه أبيه. أليس الأب رب البيت؟ ألم يخاطب المسيح ربه بكلمة أبي؟

وقرر أن ينقطع عن بيتهم ليبتعد عن الغواية والشر وحواء التي تقود إلى جهنم وبئس المصير.

وفي المساء حين جاءه سميح كان يخشى أن يضطر للحديث عن مغامرته الفاشلة. ولكن سميح كان مستثاراً ومليئاً بالكلام. فلم يكن هناك مجال للحديث في شؤونه الخاصة.

لقد تشددت الدولة في مسألة الرقابة على الصحف. وقد فوجئت اليوم برئيس التحرير ينشر قصيدة شوقي عن الرقابة.

– أية قصيدة؟

* قصيدة قديمة كان قد كتبها شوقي قبل ثماني سنوات يسخر فيها من الرقيب على الصحف المصرية. حفظت منها:

لنا رقيب كان ما أثقله

الحمد لله الذي رحله

لو دام للصحف ودامت له

لم تنج منه الصحف المنزله

لو خال «باسم الله «في مصحف

تُغضب «تحسيناً «محا البسمله

إنْ تذكرِ الخنجر لفظاً تُصِب

من شدة الذعر به مقتله

جرائد الترك على عهده

كانت بلا شأن ولا منزله

كان سميح يقرأ وإبراهيم غارق في الضحك. وأضاف

سميح: القصيدة أطول من ذلك. على كل جلبتها لك. ستقرأها كلها فيما بعد. المهم يا سيدي. كنت في الجريدة أقرأها وأضحك مثلك، حين فوجئت برئيس التحرير يقف بباب غرفتي. سألني: ماذا تفعل هنا؟ واستغربت سؤاله. فأوضح لي: ألا تلاحظ أنه لم يأت أحد إلى الجريدة غيرك؟ ولم أكن قد لاحظت ذلك. التفت حولي مستغرباً. فتبين لي فعلاً أن الجريدة صامتة. ولا بد أنها خالية. فقلت: لم أنتبه. كنت أقرأ قصيدة شوقي. قصيدة ظريفة. فقال: بسبب ذلك لم يأت غيري أحد اليوم. وأنصحك بالخروج بسرعة لأن الكبسة ستكون هنا قريباً. قلت له: لا أفهم. وشرح لي أنه في الجريدة ذاتها قد نشر التعميم الذي جاءه من متصرفية بيروت. وكرد عليه نشر القصيدة. وهم لن يسكتوا. وطلب مني أن أسرع بالخروج قبل أن يصلوا. أحسست بالخوف عليه. قلت: وأنت يا أستاذ. ألن تهرب؟ ضحك وقال: عيب أن يأتوا ولا يجدوا من يستقبلهم.

هتف إبراهيم بدهشة مستثارة: بقي لكي يقاومهم؟

قال سميح: لا. بقي لكي يأخذوه إلى السجن. وقد جاؤوا فأخذوه فعلاً. وأغلقوا الجريدة. معلمنا له رأي خاص. وهو أن الدولة يجب أن تضطر لسجن بعض الوجوه الثقافية بين حين وآخر. وإلا كان المثقفون

جبناء. وظلت سمعة الدولة نظيفة.

وقال إبراهيم بخوف: ولكن هذه الأيام يشنقون أصحاب الأصوات المعارضة.

فأجاب سميح: هو عقله هكذا. لا يخرج من السجن إلا ليعود إليه. ويرى أن المثقف يجب أن يذهب إلى السجن في ظل حكومة ظالمة موالية لليهود، إن لم يستطع أن يوقف ما تفعله. ولذلك فهو يذهب إلى السجن لأكثر من سبب. لمعاداته لليهود، وفضحه لمخططات بعض رجالات الدولة، ولبعض الصفقات التي تتم لصالح اليهود، ولتحريضه للناس. مئة سبب وسبب.

وسأله إبراهيم: وما هو ذلك التعميم الذي جاء من المصرفية؟

فمد يده إلى جيبه وأخرج الجريدة وراح يقرأ له:

«من جانب متصرفية بيروت البهية:

بما أن بعض جرائد البلدة أخذت في هذه الأثناء بأن تنقل عن بعض الجرائد الأجنبية، أو تنشر بقلم إدارة تحريرها بعض فصول ومقالات مشتملة على ما يخدش الأذهان ويحرك الأفكار، ومن كون أن نشر هذه الفصول المضرة فضلاً عن كونه مبايناً لغايات الجرائد ذاتها فإنه يخالف على خط مستقيم القوانين والنظامات الموضوعة لجميع المطبوعات. الأمر الذي لا يمكن التسامح به أصلاً من جانب الحكومة السنية. وذلك

بالنظر إلى ما يمكن أن يترتب عليه من المحذورات والأمور المضرة. فبناء عليه اقتضى إبلاغ هذا الإخطار العمومي إلى جميع جرائد البلدة لكي أن إدارات هذه الجرائد تتجنب بعد الآن كل المجانبة لنشر شيء مما تقدم ذكره سواء كان نقلاً عن غيرها أو إنشاء من قلم إدارة تحريرها ولا سيما إذا كان ذلك متعلقاً بالأمور السياسية أو الحوادث المحلية. وكل من يسلك بعد الآن من أصحاب الجرائد المذكورة على هذا المنوال فيكون تحت طايلة المجازاة القانونية بدون أدنى تسامح. فالمأمول من جانبكم رعاية ما ذكر فيما يأتي ونشر هذا الإخطار في أول عدد يصدر من جريدتكم».

علق إبراهيم: ما هذه اللغة الركيكة؟ معقول أن تكون هذه لغة من يراقب الصحف والكتابة؟

وطوى سميح الجريدة ضاحكاً: ماذا تفعل؟ هذه هي الحالة. وأضاف: شيء لا يصدق. ذهبت اليوم إلى المقهى ورأيت بعض العاملين في الجريدة. حدثوني أشياء تبكي وتضحك عن منطق الرقابة عندنا. أولاً السلطة تعتبر الصحافة «رجساً من عمل الشيطان» يجب اجتنابه. وقد قلت لك إنه من الممنوع المناداة على الصحف لبيعها. ويجب على الصحف الامتناع عن نشر كل ما له علاقة بالسياسة كالثورات داخل السلطنة أو خارجها، وعن نشر أية هزائم أصابت جيش السلطنة

أو حتى نبأ مقتل حاكم من حكامها، بل يُكتب أنه توفي. ويمنع توجيه أية انتقادات للسلطة،أو نشر أسماء أعداء السلطان أو كتابة الموضوعات الطويلة، أو استعمال عبارة «البقية تأتي»، أو «يتبع»، أو «للبحث صلة». وهناك كلمات يحرم استعمالها مثل: القانون الأساسي، الخلع، الجمهورية، الديناميت، الثورة، الحرية، ممنوع ذكر أسماء مثل عبد العزيز ومراد ورشاد. بعضها ممنوعات من أيام السلطان، وهي مستمرة حتى الآن مع ممنوعات جديدة.

وسأله إبراهيم: وماذا ستفعل الآن طالما أن الجريدة قد أغلقت؟

فقال سميح: الشغل مؤمن. رئيس التحرير معجب بي. وقد كلم نجيب نصار لكي يشغلني عنده في صحيفة الكرمل.

وعرض عليه إبراهيم أن يساعده مادياً فرفض.

الفصل العشرون

– ١ –

وصل البريد إلى يافا مع الباخرة الأميركية.وكانت فيه رسالة لأفشالوم من أخته شيلا، التي تدرس في برلين. تقول فيها إنها التقت بآرون. وقد حدثها عن متاعب يواجهها. ولم تفصح كثيراً في الرسالة. لكنها تنهيها بالخبر الصاعق: آرون غادر ألمانيا إلى أميركا.

وقرأ الرسالة على نعمان ويوسف. فنهض نعمان غاضباً: لماذا لم يقل إنه ذاهب إلى أميركا؟ لماذا يتركنا ننتظر؟ ما قصة أبناء آرونسون؟ رفقة إلى أميركا. وألكسي يدعي أنه ذاهب إلى مصر فلا نسمع به إلا حين يصل إلى جبل طارق ذاهباً إلى أميركا. وآرون يقول إنه سيذهب إلى برلين ومنها إلى مصر. ولكنه يذهب إلى أميركا. إي حلوا عنا يا.

بعد صمت ثقيل قال له يوسف: ما تاريخ الرسالة؟

تطلع أفشالوم من جديد إلى الورقة وقال: مرسلة منذ أيلول.

* ولم تصل حتى الآن؟

نشكر ربنا أنها وصلت.

* يعني نحن ننتظر منذ أيلول بلا معنى.

والحل؟

قال نعمان: معناها أكلنا خراء بالملعقة. ننضبّ في بيوتنا أحسن لنا.
وصفق الباب وخرج إلى الخمارة.
وينتفض أفشالوم: لا. نذهب نحن إلى مصر.
ويؤيده يوسف: نعم. يجب أن نذهب نحن إلى مصر.
نعمان كان يغلي. لم يستطع البقاء في الخمارة. كرع كأسين متتاليين وصعد إليهما من جديد. حين فتح الباب سمع العبارة الأخيرة: نعم سيد يوسف؟ تذهب أنت أيضاً؟
قال أفشالوم: بل أذهب أنا. أو نذهب معاً.
* إن شاء الله يأتيني خبركما من رأس الرجاء الصالح. اقعدوا يا عمي. اقعدوا وارتاحوا. يظهر أن الحالة خربانة. الإنكليز لا ينظرون إلينا بجدية. تعرفون لماذا؟ لأن أحداً منا لا ينظر إلى الآخرين بجدية. نحن لا ننظر إلى أنفسنا بجدية.
نهض أفشالوم عاجزاً عن المماحكة.
* إلى أين؟
عندي مشوار.
سينزل إلى القدس. حتى لو رأى سارة ترقص عارية في الكارخانة لن يهتم. يجب وضع النقاط على الحروف. وإذا كان أولاد آرتسون لا يريدون أن يشتغلوا فسيشتغل حتى لو كان وحده.

وتنزل سلم الفندق. وحين تراه في الصالون يشع وجهها بابتسامة ترفرف في عينيها. وتجعلها تتقدم منه وهي تحس بنفسها عصفوراً يريد أن يطير.

قبل السلام يمد لها يده بالرسالة: أخبار عن آرون.

* صحيح؟ أخيراً.

تفتح الرسالة وتقرأ. فتتجهم. ولا تجرؤ على رفع نظرها إليه. ولا ينتظر تعليقها: حتى لو تخلى آرون عن الموضوع أنا لن أتخلى عنه. أنا سأذهب إلى مصر. هل تشتغلين معي؟

* حبيبي أنا أذهب معك إلى القطب. إلى جهنم. ولكن لم العجلة؟ لا بد أن هناك خطأ. ربما لم تفهم شيلا الأمر جيداً. ربما كان آرون متحفظاً معها. ولذلك ادعى أنه ذاهب إلى أميركا. لا بد أنه ذاهب إلى لندن. سيتصل بأعلى القيادات العسكرية. برئيس الوزراء. وسيرسلونه إلى مصر. أنا أفهم آرون. يحس أن جماعة مصر لا يقدّرون أهمية ما يمكن أن نفعله. يريد أن يأتيهم من فوق.

نهض مصمماً: أنا سأذهب إلى مصر. وإذا كنتم ستشتغلون، انتظروا الإشارة نفسها وبمواعيدها ذاتها. يجب أن نتصرف وكأن شيئاً لم يحدث.

* وإذا كان آرون في مصر؟

لا نخسر شيئاً. أنقل له سلامك. وأجيء مع الغواصة في

الموعد كما جئت أول مرة.
* أخشى أن تقع في أيدي الأتراك. آرون ليس هنا ليخرجك هذه المرة.
يقولون: مرة تصيب ومرة تخيب. أصابت مرة وخابت مرة. الآن دورها أن تصيب.
ينشلع قلبها وهو يخرج من الفندق. ترقبه يبتعد بعينين دامعتين. وحين أوشك أن يغيبه المنعطف بعقت مسام جسدها لتناديه. لكنه يغيب.
تظل ساهمة فاقدة الاهتمام بكل ما حولها. ستنتقل إلى عتليت. وستمكث في المختبر. هناك صار لها الكثير لتنتظره: آرون والقضية التي تخدمها و... أفشالوم.
— ٢ —
إي روحوا. إن شاء الله تأكلكم الضباع في الصحراء.
ويحاول نعمان أن يهدّئ يديه اللتين ترتجفان، وهو يفرغ العرق من القشاية إلى الألفيات. لكن توتره يجعله يسكب العرق على الأرض: شفتم؟ بقلّة عقلكم جعلتموني أكب النعمة.
أفشالوم وليوفا ويوسف لا يريدون مجاراته في المزاح.
يتطلع يوسف إلى ليوفا: تذهب معنا؟
ويعلق نعمان قبل أن يجيب ليوفا: وماذا يفعل معكم؟ هل نذهب كلنا إلى الإنكليز؟ ويضحك: نقول لهم: نحن جيش ازُرطي؟ جئنا إليكم لندعمكم. يا عمي اتركوا لنا

أحداً نتسلى معه. اتركوا أحداً تنتخون به أمام الإنكليز لتقولوا وراءنا ظهر.

في الليل ينام نعمان وأفشالوم في غرفة واحدة. ويهدئ نعمان نفسه: إبن عمتي. راحت السكرة وجاءت الفكرة. قلبي غير مطمئن لهذه السفرة. الحالة صعبة. هذا الشتاء صعب. سيناء مليئة بالجيوش والقصف والألغام. والشريف حسين ثورته جدية. يعني الأتراك وضعهم مقلقز. وربما الأتراك سيخسرون هذه الحرب. أنت تعرف مثلي تفاهة جيوشهم. وتعرف أن الألمان يخربطون أمورهم أكثر مما ينظمونها. يعني قد لا يكون هناك داع لحوصتنا كلها.

* تقدر تسكّر على الباقي وتتركني أنام؟

– يعني لا يعجبك كلامي؟

* لا.

ستين عمرك. أصلاً أنت عقلك مثل عقل الذبابة. يوسف لعب بعقلك. وكلمة منه تساوي ألف كلمة من ابن خالك. اصطفل.

ويرفع اللحاف ليغطي به رأسه منهياً الحوار. ويظل أفشالوم ساهماً. لكن نعمان لا يستطيع أن ينام. ولا يستطيع منع نفسه عن الكلام. يرفع اللحاف مرة أخرى: أفشالوم. يوسف يفهم في الشعر؟

يضحك أفشالوم: وما علاقة الشعر بالموضوع؟

خطر لي: ربما لأنه يفهم في الشعر تسمع كلامه أكثر مني. طيب يا أخي. إفعل مثل ليوفا. ليوفا أيضاً شاعر. لكن عقله أكبر من عقلك.

* تنام، أم أظل أقرأ لك شعراً حتى الفجر؟

لا. دخيلك.

– ٢ –

في الصباح يذهب يوسف وأفشالوم إلى يافا. ويعودان بعد الظهر وقد لبسا ملابس بدوية اشترياها من هناك، مع بعض المعلبات من تل أبيب. ويدخل أفشالوم متباهياً بلباسه. ويسأل: بربك هل يمكن لإنسان أن يشك إلا أنني بدوي ابن بدوي؟

ويعلق نعمان: يمكن أن يظنك قرباطي ابن قرباطي.

ثم يتطلع إلى يوسف: والله يا يوسف. إذا صار شيء على أفشالوم لأخليك تندم على عمرك..

ويضحك يوسف: وهل أفشالوم ولد صغير؟ ها هو أمامك. قل له أن لا يذهب.

* أنت لعبت بعقله.

لا والله. أنا ما كان السفر كله ببالي. ولكن بعد أن فتح أفشالوم الموضوع اقتنعت. وحتى إذا غيّر رأيه الآن فسأسافر وحدي.

قال ليوفا: وتعرفون الطريق؟

قال يوسف: اتفقنا مع دليل بدوي يتاجر بالبرتقال.

سنلتقي به في روحاما.

قال أفشالوم: يا ألله. ادعوا لنا.

ورحلا.

الفصل الواحد والعشرون

– ١ –

يقول الحجازي والحجازي سلامه

أرى الدهر يغدر بالملوك الأفاضل

ياحيف أهل العز ولى زمانهم

ومن بعدهم حكمت اولاد الأراذل

يالهيف قلبي على ملوك قد مضوا

حكم بعدهم في الناس خدّام عاطل

فلا خير في عبد علا فوق سيده و

لا خير في من يغدر بأهل الفضايل

حتى في المقهى لم يستطع الحكواتي أن يخرج عارف من شروده. ومع أن صوت الراوي وهو يغني كان صوتاً جميلاً، إلا أن الغناء لم يفعل إلا أن زاد من الحزن في نفسه.

كانت كلمات مدحت بك المتصرف تضرب في أذنيه كالمطرقة. صحيح أن الحديث لم يكن موجهاً إليه بشكل مباشر. لكنه لم يستطع إلا أن يعتبر نفسه معنياً بشكل شخصي بالموضوع. قال مدحت: ضباط أمن وبكوات. يا رجل لا يستحون على أنفسهم. لا يشتغلون بأكلهم. كل ما لدينا من رجال أمن يعجزون عن الإمساك بشخص مثل ألتر ليفي. ابن الكلب صار هاجساً عند

جمال باشا. ونحن ماذا نفعل؟ هل أمامنا إلا هؤلاء الخروات ضباط الأمن؟ والله الراتب الذي يأخذونه حرام.

أي حديث عن ألتر ليفي يعتبره موجهاً إليه شخصياً. وكل يوم يمر ولا يتمكن فيه من القبض على ألتر يعتبره إهانة له. ولكنه هو الذي ينظر إلى الأمر بهذه الطريقة. هو مع نفسه فقط. نعم. مع نفسه فقط. وليس من حق ابن امرأة في هذه الدولة أن يتوجه إليه بكلمة لوم مهما صغرت. أنا أمسكت ألتر ليفي مرتين وأنتم هرّبتموه. وما الفارق بين أن يهرّبه جمال باشا، وبين أن يهربه ذلك الشرطي المسكين خليل الذي طمع بعشرين ليرة عصملية واعتبرها ثروة العمر؟ أنتم شجعتم الناس على الدناءة. فصارت هي القانون وصارت أقوى من قوانينكم كلها. نحن رواتبنا حرام يا بك؟ تنازلنا عن السرقة والامتيازات والرشوة وخدمة الباشاوات والسلبطة على الناس والسهر في الخمارات أو مع الشراميط، وقبلنا التقتير والتعتير والتشحير، وصرنا مسخرة عند أهلنا وجنودنا، لكي لا يتطاول علينا أحد بكلمة تمس شرفنا أو كرامتنا. وتكون النتيجة هذا الكلام؟ رواتبنا حرام! ما هو الحلال إذن؟

ووجد نفسه وقد غير طريقه واتجه إلى السرايا. كأنه قرر أن يعاقب نفسه أو يضيف شاهداً آخر على تفانيه

وتقشفه. وهذه نسيناها يا بيك. النوم في المكتب وفي الثكنات وفي البرية. وهجر العيال والزوجة. بينما أنتم تتنعمون في بيوتكم مع زوجاتكم أو في أحضان الشراميط والتاترجيات. لقد صرت مثل المكاري ليلة عند مرتي وعشر ليال بالبراري. لا تشتغلون ولا تتركونا نشتغل شغلنا. أنتم ترسلوننا لحماية الفلتانات. تركنا شغلنا وصرنا نشتغل على مزاجكم. وكما قال الكندرجي: صغّروا أقدامكم. أنا لا أقدر أن أكبّر قوالبي. صغّرنا مهماتنا وأقدارنا على قد تعريصكم. ولم نخلص.

حتى حين خرج من الجلسة، وقال له مدحت بك: إلى أين؟ إبق معنا، وابتسم، كان يريد أن يوحي بأنه يعرف أنني ذاهب إلى عشيقة أو إلى كارخانة. تفو . حتى إقامته تلك المدة في الفندق يعرفون أنها كانت مأمورية من الباشا نفسه. ومأمورية مهينة لكل من على وجهه شوارب. ولكنه يقبلها وينفذها خدمة للمصلحة العا.. أقصد تنفيذاً لأوامر الباشا.

ودخل إلى السرايا. وفوجئ بأصوات الجنود المستيقظين، فانتبه إلى أن الوقت قد صار قبيل الفجر. وفاجأه صوت مفجوع: الله أكبر. حسبي الله ونعم الوكيل.

وكان الصوت باكياً. مما دفعه إلى التوجه نحو القبو. فرأى الجنود يسحبون الشرطي خليل عبد الجليل،وهو

يقاومهم رافعاً صوته بالدعاء، كأنه يتمسك بالله: الله أكبر منكم يا أولاد الحرام. الله أكبر منكم. ألله أكبر عليكم. لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله. حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي هذه اللحظة وقعت عين الشرطي المقاد على عارف. فنسي الله والجنود. وصاح به: دمي برقبتك يا عارف بيك. خطيتي وخطية أولادي برقبتك. رح منك لله.

وصعّد الجنود همتهم، وهم يرون عارف. فسحبوا الرجل بقوة جعلتهم يشحطونه على الأرض. وفهم عارف أنهم يأخذونه لتنفيذ حكم الإعدام به. حتى تنفيذ الإعدام يتم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء إخباره. هو لا يعرف كم ظل لديه من المساجين. وما مصير كل منهم.

ولكن خليل عبد الجليل لم يستكن لساحبيه. فأكمل صياحه اليائس، وهو يتمسك بحواجز الدرج: منكم لله يا كفار. يا جراد. يا حرامية. يا ظلام. يا جراد. يا ماشوش. يا من أكلتم الأخضر واليابس. أنا تعدمونني من أجل عشرين ليرة وتخلصونني إياها؟ حطوها بأطيازكم وأطياز نسوانكم وشراميطكم يا أولاد القحبة. تتمرجلون علي أنا لأنني فقير؟ والذين أكلوا البلاد والعباد لا تجرؤون على التطلع في وجوههم. والذين يريدون أن يأكلوا فلسطين كلها تخرجونهم من السجن.

تفو. ألله يلعن أبوكم واحد واحد يا أولاد القحبة.

وأكملوا جره، حتى غاب عن نظر عارف.

تطلع عارف إلى رئيس الحرس بصمت. فارتبك هذا من تلك النظرة الغريبة. ولم يعرف أين يذهب بعينيه. فقال أول شيء خطر له: رحّلوا بن زفي وبن غوربن. اليهوديّين.

صعد إلى مكتبه وصفق الباب وراءه بقوة. ثم انفجر بالبكاء.

— ٢ —

بعد الغروب جلست سارة وحدها في المختبر. كانت في حاجة إلى شيء من الراحة. الراحة من الافتعال والكذب اللذين تضطر إليهما مع هؤلاء الرجال. كذب اللطف والابتسامات والإعجاب المزيف والضحكات المفتعلة. كانت في حاجة إلى الراحة. ولذلك صرفت (أبو فريد) مع العربة. قالت له إنها لن تنزل إلى القدس. وصرفت (راب) إلى أهله. تريد أن تخلو لنفسها لكي تعتب على آرون، وتخاف على أفشالوم بحريتها. تريد أن تفكر في هذه المغامرة المجنونة التي أقدم عليها يوسف وأفشالوم. تريد أن تعرف إن كانت تستطيع أن تصدق أن آرون فضّل الذهاب إلى أميركا وصرف النظر عن مصر. يعني صرف النظر عنهم كلهم. يعني أن كل المشاريع التي تحدثوا عنها صارت كلها في الفراغ. وأنها

وهؤلاء الشباب معلقون في الفضاء، ومتروكون بلا معنى، ولا قيمة.

المشكلة أنها والشباب قد وجهوا طموحهم ورغباتهم وآمالهم كلها نحو أن يكونوا نافعين للإنكليز في هذه الحرب. وإذا لم يتحقق هذا الاتصال مع الإنكليز فهذا يعني أنهم قد راهنوا رهاناً خاسراً. وأنهم سيظلون ضائعين. ليسوا قادرين على أن يكونوا فلاحين مثل غيرهم من المهاجرين. ولم يستطيعوا أن يفهموا مناورات السياسيين والأحزاب. حتى من أراد منهم أن يكون شاعراً لم يستطع أن يتابع. وها هم لا يستطيعون أن يقدموا الخدمة الرائعة التي لديهم.

طبعاً خدمة رائعة. هم موجودون في كل مكان. وقادرون على التنقل في كل مكان. والجيش التركي مكشوف أمامهم بأسراره كلها، وبسره الأكبر والأكثر خطورة: ضعفه في التسليح والتنظيم، وانشغال ضباطه بالنهب والسلب، وشراء المناصب. يجب أن يوصلوا هذا للإنكليز.

أفشالوم ويوسف محقان. يجب الذهاب إلى مصر ومتابعة عملهم حتى لو تخلى عنهم آرون.

ولكن النتيجة أنها الآن وحدها. لا أفشالوم ولا آرون ولا ألكسي ولا حتى يوسف.

وكأنها أحست بوجود شخص على النافذة. لا تعرف

كيف رأته، إذ أحست به دون أن تنظر. تطلعت فرأت ألتر ليفي يبتسم لها وهو يتأملها.

– يخرب ذوقك. خوّفتني.

فتحت النافذة: ماذا جئت تفعل هنا في الليل؟

بابتسامته التي لا تفارقه معها قال: ماذا يفعل الإنسان في الليل؟ يبحث عن قمر مثلك.

– إحك الصراحة. ماذا جئت تفعل؟

* يقول شاعر عربي جن عشقاً: إنه كان يخترع الحجج ويلفقها لكي يأتي ويرى حبيبته.

* لا تقل لي إنك جئت إلى هنا لكي تبلغني عشقك.

وهل من الممكن أن تسنح لي فرصة أبلغ فيها عشقي ولا أفعل؟ سأبلغك عشقي. ولكن هذه المرة لدي أسباب غير ملفقة.

* أدخل وكفاك شعراً.

دار ودخل. وعند الباب قال لها: ما هي معلوماتك عن آرون آرونسون؟

هتفت: لديك أخبار عنه؟

قال: لا. أنا لا أخبار عندي. هناك من يسألني عن رأيي بآرون آرونسون. وبما أنك تعرفينه أكثر مني، أحببت أن أستشيرك. ماذا أقول لهم؟

* ألتر. أرجوك لا تلعب بأعصابي. إحك لي بوضوح.

– وحياة عينك. بعثوا يسألونني من مصر: ما رأيك

بآرون آرونسون؟

* يعني هو في مصر؟

– طبعاً. وهل يسألون في مصر عن شخص في الأرجنتين؟

* ألتر. حبيبي. يا أظرف إنسان في الدنيا. لولا قلة عقلك لقبّلتك ألف قبلة. إجلس واحك.

– خذيني على قد عقلي. وامنحيني قبلة واحدة.

* ألتر. أرجوك. كفاك لعباً بأعصابي. إحك لي وأرحني.

جلس ألتر وهو يمسك بيدها: يا ستي آرون في مصر. والجماعة ينظرون إليه بجدية. مجرد أن يرسلوا ليسألوني عنه يعني أن الأمر بالنسبة لهم جدي. ويريدون الجواب قبل العشرين من الشهر الهجري. لماذا العشرون من الشهر الهجري؟

* لا أعرف.

– أنا أعرف. لأن القمر يكتمل في اليوم الرابع عشر. وبعدها يبدأ بالتناقص. إذن هناك شيء ما سيتم بعد العشرين من الشهر الهجري وفي توقيت محدد لا يكون القمر فيه في السماء.

ارتجفت من براعته. وأحست أن عليها أن تهرب من الموضوع.

* ماذا ستقول لهم؟

– قلت وانتهيت.

* قلت؟ ماذا قلت؟

– قلت لهم إن آرون آرونسون أخ لأجمل فتاة يهودية في العالم.

* ألتر.. الله يخليك. إحك بجدية.

– وحياة عينيك أنا أحكي بجدية. إسمعي. السمعة لنا والفعل للإنكليز. يقولون عنا إننا بخلاء بالفطرة. ولكن الإنكليز أكثر بخلاً. أشك أن الموجودين في مصر إنكليز. أكيد هم إسكتلنديون.

* هل ستدخل في علم الأقوام؟

– يا عيني كانت لديهم سفينة تقوم بدورية لجمع المعلومات من إسكندرونة حتى عندكم هنا في عتليت. انكشفت شبكة بيروت، ففضلوا أن لا يتابعوا جنوباً. وكان اتصالكم مع الملازم وولي من مخابرات بور سعيد. هذا وقع أسيراً في أيدي الأتراك. ويبدو أنه لم يعترف عليكم. ولكن طبختكم انتزعت. وجماعة مصر، أقصد الإنكليز، لم يحاولوا أن يرسلوا سفينة أخرى أو ضابطاً آخر. بخلاء. لكن يبدو أن الأمور قد سويت الآن. لكن...

* كم «لكن» عندك يا ألتر.

– دعيني أكمل وأفش قلبي. لكن يبدو أن عملكم لن ينجح.

* لماذا؟

– كيف يوقّتون الاتصال بعد غياب القمر وأنت هنا قمر

لا يغيب؟

ضحكت بأعصاب مرتاحة ونهضت: تستحق كأساً على هذه الأخبار. ماذا تشرب؟

* عرق.

وفيما هي ترتب له كأسه سألته: سألوك عن آرون وحده؟

– هل هناك غيره؟

* ألم يسألوك عن أفشالوم؟

– أفشالوم هناك؟

التفتت إليه ومعها الكأس: يعني لا تعرف؟

وجلست، فتناول الكأس منها. وقال: خبرك هذا أهم من خبري. هل ذهب أفشالوم نهائياً؟

* تريده أن يذهب نهائياً؟

– أحس أنه الحاجز الحقيقي الذي يقف بيننا.

– ٣ –

نعم. لقد نام عندها ألتر تلك الليلة. وكانت ليلة ممتعة رائعة وساحرة. وأحست أنها يجب أن تبحث عن كلمات أخرى لتصفها بها. ليست مسألة الاستمتاع الجسدي وحدها. بل الدخول في عالم عسلي من الفرح. لحظة مسروقة من الزمن. لا علاقة لأفشالوم بها ولا لأخوتها ولا حتى للعمل. هو الإحساس الداخلي بالنجاح. والإحساس الذي فارقها منذ زمن. والذي تحسه الآن، إذ

ترتمي في الفراش مع رجل لا تريد منه شيئاً أكثر من هذا الذوبان الحالم الشبق الساحر المجنون. ترتمي أخيراً في أحضان رجل لا تراه. منذ زمن لم تسترخ مع رجل وهي تعفي نفسها من مراقبته ورؤيته.

وحين استيقظت ولم تجده لم تستغرب. هذا الرجل لا يهدأ. لا بد أنه وراء عمل ما. لم تحاول أن تعرف ولم تحاول أن تسأل. وحتى هو، حين سألها عن الموعد الحقيقي للاتصال، قالت له: ألا يكفي اتصالنا؟ لماذا تريد أن تشوه هذه اللحظة بالتقاط المعلومات؟

فضمها إليه مؤكداً أنه لا يحاول الحصول على معلومات. بل يريد أن يعرف عنها كل شيء لكي يطمئن عليها أكثر. ثم جلسا عاريين على الأرض والزجاجة والكأسان معهما.

وأقنعها ألتر بوجوب استخدام الحمام الزاجل من قِبل مَن يناوب في المختبر لنقل المعلومات العاجلة إلى القوات الإنكليزية في سيناء. كما رجاها أن توعز إلى نعمان، الموجود وسط القوات التركية والألمانية، باستخدام اللاسلكي الذي سيؤمنه له. فاللاسلكي عمل متطور وسريع.

ظلت متمددة باسترخاء لا تحاول حتى أن تحرك ذاكرتها لاسترجاع ما حدث بالأمس. أحست فقط أنها عارية. وأن برودة لذيذة تتسرب إليها فلفّت اللحاف

حول جسدها ونامت من جديد.

استيقظت قبيل العصر. وكان (أبو فريد) جالساً قرب نافذة المطبخ يشرب الشاي ويدخن.

– كيف الهمة يا أبو فريد؟

* تحت الأنظار يا مدام.

– جاء الشغل يا أبو فريد.

* ونحن جاهزون.

خلال الأيام التالية ذهبت إلى روشيون لوزيون وحفزت نعمان على استنفار العناصر الذين يعملون معه. وحددت له موعد اللقاء.

وعلى الرغم من فرحته بالنبأ القادم عن آرون، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من شتم أفشالوم ويوسف لأنهما لم يستطيعا الانتظار، واندفعا إلى هذه المغامرة الحمقاء: أفشالوم شاعر. مجنون. كنت آمل أن يعقّله يوسف. بالعكس هو الذي صار يحرضه.

هدأته سارة. وأكدت له أنهما قد يجيئان مع الغواصة، أو يرسلان رسالة تطمئنه عليهما:

إلى الجديره وزخرون ياغوف وتل أبيب.

ما يقرب من ثلاثين شخصاً صاروا الآن مستعدين للتعاون سراً. سراً بحيث لا يعرف الأتراك ولا حتى يهود المزارع والمستوطنات. كل مجموعة توصل معلوماتها إلى شخص محدد وبطريقة خاصة. ثم يتم تجميع هذه

المعلومات عند نعمان وعند ليوفا، الذي يعود إلى المختبر لكي تعود، هي، إلى نشاطها السابق في القدس ودمشق وبيروت. الأخبار العاجلة يرسلها نعمان بالمورس، أو ليوفا عن طريق الحمام الزاجل. الباقي ينتظر مجيء الإنكليز بحراً. وفي الموعد المحدد ستقام سهرة في المختبر يدعى إليها شبان وصبايا. ويحدث رقص ولهو وشرب للفت أنظار عناصر خفر السواحل. ولا بأس من اجتذابهم. يجب أن تصبح مخافر السواحل «جيران» المختبر. ونصبح كلنا عائلة واحدة.

في الليلة المحددة للاتصال حدث هذا كله. وحين غاب القمر تسلل ليوفا نحو الشاطئ ومعه الحقيبة الجلدية المغلقة بإحكام والتي تحتوي على مجموع ما توافر من معلومات وخرائط وعلى الخطة التفصيلية التي رسمتها سارة.

وصلّت سارة في أعماقها أن لا يفاجئها ألتر بالظهور. تريد أن تحقق هذا الإنجاز وحدها. وبقيادتها. ولم يظهر ألتر فعلاً.

وقفز قلب ليوفا، وهو يرى الإشارة تصدر من أعماق ظلمة البحر. فأخرج قداحة الفتيل التي يحملها. وبدأ يقدح بها ثم جلس ينتظر، وهو يسمع أصوات الغناء والإيقاعات الراقصة تأتيه من المختبر مخترقة سكون الليل.

أخيراً وصل قارب وعليه اثنان. وهمس: نيلي. فجاءه الجواب: نتساح يسرائيل لو يشاكر. نزل إلى الشط وخاض في الماء حتى القارب. قدم الحقيبة واستلم رسالة ورجع.

حين وقف بالباب تطلعت إليه سارة فابتسم ليطمئنها.

وعلق ضابط مسترخ بين صبيتين على بنطاله المبلل: وكيف بهدلتَ حالك هذه البهدلة؟

وسارعت سارة لنجدته ضاحكة: ألا تعرفون أنه شاعر؟ ربما كان على موعد مع حورية البحر.

وقهقه الجميع ساخرين من غرابة مزاج الشاعر. وطلبوا منه أن يقرأ لهم شعراً.

بعد هذه اللحظة مرت السهرة بطيئة قاتلة بالنسبة لهم. لقد استطاع أن يهمس لهم في صخب السهرة أن كل شيء قد تم. وأنه استلم رسالة. ولكن الفضول لقراءة الرسالة كان معذباً.

أخيراً انقضت السهرة وجلس الثلاثة للقراءة.

إنها بخط آرون وفيها خبر وحيد.

يوسف وأفشالوم تعرضا لحادث في الصحراء. أفشالوم قتل. ويوسف وصل جريحاً إلى مصر.

— ٤ —

بعد تلك الليلة التي قضاها ألتر عند سارة قدر أنها ستكون مشغولة جداً في الفترة القادمة. لكنه قدر أن

جداراً كان يفصلهما قد تهدم. صار يستطيع أن يذهب إليها في المختبر. إضافة إلى الحب هو مخبأ آمن. ولا بد أنها ستحاول الاتصال به عن طريق أستر إذا نزلت إلى القدس.

لكنه سمع بسهرة قضتها في بيت جمال باشا ومع زوجته دون أن تسأل عنه.

ما جرى بينهما كان رائعاً. وقد حاول أن يبحث في ضميره عن إحساس بالذنب تجاه أحد ما في الدنيا فلم يجد. لا ذنب حتى تجاه زوجته التي لا يستطيع أن يراها. ولا حتى تجاه أفشالوم. فليس أفشالوم صديقه. ومن جهة أخرى ما حدث كان بقرار من سارة وبقبولها وانسجامها الكاملين. وهي صاحبة الشأن في ما يتعلق بأفشالوم.

وقرر أن يتحين الفرصة للذهاب إلى المختبر. ولكن أستر نقلت له مساء أمس خبراً أزعجه. غثر على جثتين لشابين قرب العريش. إحداهما لبدوي. والأخرى لجاسوس متنكر بهيئة البدو. وطلب منها أن تبذل جهدها اليوم لمعرفة اسم الشاب. فعادت إليه تقول إن اسمه أفشالوم فينبرغ. وإنه يهودي من لواء الجراد الذي كان يتزعمه آرون آرونسون. وإن هناك شخصاً آخر كان معهما أصيب لكنه استطاع أن يصل إلى المواقع الإنكليزية.

قفزت سارة إلى ذهنه فوراً. وأحس أنه يجب أن يعزيها. وكأنما كان بإحساسه هذا يعترف بأنه يأتي في الدرجة الثانية بعد أفشالوم. أو أنه هامشي عندها، بالنسبة لأفشالوم، رغم حميمية ما جرى بينهما. بل لعل سارة، المفجوعة الآن حتماً، ستحس بفجيعة أكبر حين تراه. لقد خانت معه رجلاً تحبه. ربما في الليلة التي قتل فيها. وشاء أم أبى سيحمل هذا الذنب أو يشارك فيه.

لماذا يحس بذلك، وهو الذي كان يحس أن الجدار النفسي أو العاطفي الذي كان بينه وبين سارة قد تهدم؟ ولماذا، وهو يعرف الآن أن الجدار البشري الحقيقي بينهما قد زال أيضاً؟ أما كان يتمنى أن يزول؟ نعم. ولكن ليس هكذا. كان يتمنى أن تتوقف عن حب أفشالوم. أو أن يسافر أفشالوم وبقرار أنه لن يعود. فلا تجد أمامها غيري. بديل؟ لا بأس. حتى هذه كان يرضى بها.

أما موت أفشالوم بهذه الطريقة فقد جفف الأرض من حوله. وجففها بينه وبين سارة. سحب بموته كل قيمة للعلاقة المحتملة بينه وبينها. هو حاجز بينهما حياً وميتاً. وليست الخيانة ما حدث بينهما وأفشالوم حي وهي تحبه فقط. بل الخيانة أن يحدث ذلك الآن بعد موته.

هل يمكن أن يتكرر بينهما ما حدث من قبل؟ حين ورد

الاحتمال إلى مخيلته أحس كأنه مدعو للأكل من جثة.

– ٥ –

أضيف دافع جديد للعمل، فازدادت وتيرته. يجب الانتقام لأفشالوم. والانتقام ليس من الأتراك بل من نفسها. يجب أن لا تهدأ وأن لا تصل إلى السرير إلا مرهقة. حتى حين لا يكون لديها شغل في القدس أو في دمشق، فإنها تشتغل في الحديقة مع راب حتى تجر نفسها منهكة إلى الفراش.

إنها تحاول الهروب من مواجهة مع النفس. تحاول أن لا تفكر مرة أخرى بما حدث بينها وبين ألتر. ولكن مجيء إسرائيل إلى المختبر بدموعه المنهمرة فوق لحيته البيضاء، وهو يسألها ليتأكد من مقتل ابنه، جعلها تضطر للجلوس مستسلمة أمام امرأة أخرى، حاولت طويلاً أن تخبئها في أعماقها وتنكر وجودها. خرجت المرأة الأخرى مع دفقة القهر وسألتها: ماذا فعلت بنفسك؟

ارتمت على الوسادة تبكي: ماذا فعلت بنفسي؟ العمل الذي نقوم به يضحي آخرون بحياتهم من أجله. أفشالوم يموت من أجله. وأنا أضحي بـ.... بماذا؟ بجسدي؟ هل حقاً كان عملي يتطلب مني ذلك كله؟ هل يحولني العمل المجيد إلى عاهرة؟ ولماذا يحول العمل ذاته عاهرة مثل ليديا لتحس بالاعتزاز بأنها مناضلة؟ هل تنتحر العاهرة أم تنتحر المناضلة؟ ليديا مناضلة.

ولذلك انتحرت. فلتواجه نفسها الآن: هل كانت تسترسل في مغامراتها أكثر من اللازم لكي تنتقم من عدم استجابة أفشالوم؟ أم أنها، دون أن تدري، كانت تريد تلك الغراميات والجلسات الماجنة؟

ليس بغاء ولا خيانة لأفشالوم. شغل. والشغل يتطلب ذلك. ولكن ماذا ستسمي ليلتها مع ألتر؟ لا تستطيع الادعاء أنها تحب ألتر. وخاصة بعد أن شرخها مقتل أفشالوم. لا تستطيع الادعاء أن الأمر كان أيضاً من ضرورات الشغل. ولا تستطيع الادعاء أنها لم تكن سعيدة ومستمتعة في تلك الليلة، والتي ربما فيها ذاتها كانت الطلقات تخترق جسد أفشالوم.

في تلك الليلة فقط خانت أفشالوم.

ولذلك لن تسمح لألتر أن يرى وجهها بعد تلك الليلة.

ولكن ألتر ظهر من جديد. واستقبلته بالجفاف الذي لم يستغربه: ماذا جئت تفعل هنا؟

– أنا في حاجة إليك.

* لا تعد إلى خزعبلاتك. أعصابي تعبانة.

– ليست خزعبلات. أنا في حاجة إليك من أجل الشغل.

* قل ما تريد.

– هل أبلغت رفقة ليشانسكي بنجاة زوجها يوسف؟

* أنا لدي وقت لهذا الكلام الفارغ؟

– لا يا سارة. هذا ليس كلاماً فارغاً. أنت تتعاملين مع

بشر. لهم أولاد وزوجات. أتظنين أنك الوحيدة التي يربطك رابط شخصي بهؤلاء الناس؟

* لماذا لا تخبرها أنت؟

– لأنه لم يكن يشتغل معي. والمفروض أنني لا أعرف ماذا يشتغل. كما أنها لا تعرفني.

تنهدت متعبة: سأرسل لها من يخبرها.

– ٦ –

ولم تستطع سارة خلال عدة أيام أن تلتقي بالباشا. وقد جعلها هذا ترتبك. خشيت أن تكون شكوكه قد بدأت تحوم حولها. لعله سمع بشيء من مغامراتها. مستحيل. هي لم ترتكب أي خطأ. وهي تعتمد على خوف عشاقها أنفسهم منه. فهم الذين يخافون أكثر منها من أن يعرف بعلاقاتها بهم. وهذا بالذات هو الذي يجعلهم يشتهونها أكثر. إنهم يسطون على عشيقة الباشا.

ولكن جمال ليس طبيعياً. وليس ذلك معها وحدها. النساء بعيدات عن سهراته وجلساته على غير عادته. وحتى خالدة أديب جاءت إلى القدس ولم تستطع أن تراه. وهي: هل اكتفى منها؟ حطّ على عينها بالنوم معها، كما يقولون، ثم اكتفى منها. إن صح ذلك فهذا أكبر فشل في حياتها. لأنها لم تنم مع جمال إعجاباً به ولا إرضاء لشهوة عارضة. إنها تريد من خلال ذلك تعزيز العلاقة معه لكي يفرش أمامها معلوماته بالبساطة التي

حكى فيها عن نهال حامد. ولكي تتمكن من أن تحيّد عارف إبراهيم وتبعده عن مخبأ ألتر.

وأراحها ألتر بأن الباشا مشغول مع مسيو دو نوفيل مدير المصرف العثماني في بيروت: ومسيو دو نوفيل من أصدقائي. طلبه الباشا بسرية. ويريد أن يرسله إلى مصر في مهمة. طلب منه أن يقول للإنكليز إنهم لن يستطيعوا هزيمته. ولا حل أمامهم إلا بمفاوضته. والاقتراح هو أن يسلمهم سورية سلمياً مقابل أن تعطى استقلالها وينصّب هو أميراً عليها. كان هذا ما يخشاه الألمان. وهذا ما كانت تسعى الليدي دكتور للتأكد منه. ولكن الدليل الآن صار موجوداً. والشاهد صاحبي. أظن أنني سأمرر هذه المعلومة إلى الألمان. يجب أن نزلزل التحالف بينهم وبين الأتراك.

نظرت سارة إليه مذعورة. فابتسم لها: هل خفت؟

– طبعاً. تصور أن يتفق الأتراك والإنكليز. أين نذهب نحن؟

وخلال ذلك لم تكن تعيش على الهامش أو دون نشاط. لقد اندفعت في مغامراتها بقدر ما أتيح لها. وكان تبريرها لنفسها هو أنه يجب الانتقام لأفشالوم. وإذا كان هذا الجسد لم يعد قادراً على الحلم بأفشالوم فهذا يعني أنه لم تعد له قيمة. لم يعد فيه ما يُضَنُّ به على الآخرين. تماماً مثلما فعل أبوها حين أباح الكرم بعد أن

فعل الأتراك والجراد ما فعلوه بالأرض.

– ٧ –

يجب على عارف أن يتعرف إلى أجواء الخمارات بنفسه حتى لو لم يكن يحبها. وليس الأمر وقفاً على خمارات القدس وحدها. بل هناك الخمارات المنتشرة في السواحل، أي في الجبهة. إن تقارير عناصره تؤكد أن الضباط فيها قد حولوا الخمارات إلى مكاتب إضافة إلى كونها مطاعم ومشارب وأماكن لهو. يقضون فيها من الأوقات أكثر مما يقضون في مكاتبهم وخيامهم. وقد قيل له إن البريد يأتي إلى أحدهم في الخمارة. فيقرأ ويمزق ويعطي الأوامر وهو يشرب الكأس. ويجب أن يدخل إلى الكارخانات أيضاً. شغله يتطلب ذلك. ولم يعد هناك مجال للتردد أو الترفع. يجب أن لا تتكرر فضيحة جواد أدهم. وما دام ألتر كان على علاقة ببنسيون أستر وليديا فلا بد أنه مختبئ في إحداها.

وقرر في البداية أن يذهب لإلقاء نظرة على مستودعات الخمور في روشيون لوزيون، لكثرة ما سمع اسمها يتردد بين الضباط الذين يأتون إلى القدس في إجازات.

ومنذ أن دخل باب الخمارة التقطته عين نعمان الخبيرة فلم يوله اهتماماً. كان المكان يعج بالدخان وروائح المشروب والضجيج والموسيقى الصاخبة والضحك. ودار عارف بنظره في المكان فرابته حركة سريعة من

فتى أدار له ظهره. لكنه استطاع أن يعرف أن هذا سميح صديق ابنه.
اقترب سميح من نعمان وهو مازال يدير ظهره لعارف وهمس في أذنه: دخيلك يا أفندي. هذا الذي دخل رئيس شرطة القدس. يجب أن لا يراني.
ودون أن يرف جفن نعمان قال له: أدخل جوا. فزلق نحو الباب الداخلي واختفى.
وتوجه عارف إلى طرف البار لأنه لم يجد طاولة خالية. وفتل نعمان شاربيه اللذين أصبحا جزءاً من شخصيته وشغله. فهو يحتاج إلى أن يكون خبير شغل ولكن خبير شجار عند الضرورة. ويجب أن يوحي منظره بأنه أحد القبضايات.
وتقدم من وراء البار إلى أمام عارف: أمر يا بيك؟
وعلى الرغم من رتبة عارف إلا أنه أحس بالارتباك. فهو لا يعرف كيف يتعامل في أجواء كهذه.
* الحقيقة.. أنا أبحث عن واحد.
– من هو؟ نحن هنا للخدمة. نخدمك بعيوننا. لكن ضيافة المحل أولاً. كأس عرق أم نبيذ؟
* لا. لا. دخيلك.
– لماذا دخيلك؟ لم نفعل لك شيئا بعد. كله كأس عرق.
ابتسم عارف معتذراً: لا. لا. أدوخ.
وقهقه نعمان وهو يمسك شاربيه من جديد: طبعاً تدوخ

حبيبي. نحن نشرب لكي ندوخ. الذي يريد دماغه صافياً يظل في البيت، ويقضيها تقاراً مع زوجته.

وضحك ضحكة صافية أخرى أجبرت عارف على الضحك.

* أنا أبحث عن الميجور علي بيك إبراهيم. تعرفه؟

– عز المعرفة. أليس هو قائد كتيبة الفرسان؟ صاحبنا. ما هو اليوم؟ الثلاثاء؟ سيأتي. اليوم ليس دوره في المناوبة لا تقل إلا جاء. تفضل. تفضل. يا مرحبا. تريد أن أرسل لك من يجلبه؟

* ليس في القطعة. مررت هناك.

– طبعاً ليس في القطعة.

وأخرج نعمان ساعة جيبه بعد أن كرع بقية الكأس الذي أمامه: الآن يكون عند الكابتن فان. الكابتن الألماني من سلاح الهندسة.

واسترسل نعمان ليسلي عارف، ويخلق جواً من الإلفة: علي بيك يحب الشطرنج. لكن، كما يقول، الشطرنج يحتاج إلى عقل صاف. ولذلك يذهب إلى فان ويلاعبه قبل أن يأتي إلى هنا لأخذ كأس. سألته مرة: ألا يضيّفك الكابتن فان بيرة ألمانية؟ تعرف أن البيرة الألمانية طيبة. قال: يضيّفني ولكن أنا لا أشرب. لا أريد أن أدوخ وأنا ألعب. لماذا أترك هذا الألماني ابن الكلب يغلبني؟ وضحك مرة أخرى، وأضاف: معه حق. إبن العرب يظل

طوال عمره هكذا. لا يحطها واطئة لأحد. صحيح أن الألمان حلفاؤنا. ولكن كل شيء وحده. أنا مع الميجور علي. يجب أن لا يتفوقوا علينا في أي شيء حتى لو كانوا أوروبيين. بماذا هم أحسن منا؟

أعوذ بالله! ما هذا الإنسان؟ لم يعد يعرف كيف يسكت.

والحقيقة أن نعمان بلكند ليس ثرثاراً. لكنه يتعامل مع نفسه وكأنه مقسوم إلى شخصين. الشخص الأول هو الشاب في الثامنة والعشرين من عمره الذي يحسب لكل شيء حسابه. ولا يقول رأيه إلا بعد تفكير وتمحيص. والذي قرر احتراف العزوبية لكي لا يضطر، كما يقول، إلى طق الحنك الذي لا لزوم له مع النسوان. والشخص الثاني الذي يظهر فيه خلال الشغل. وهو شخص يلبسه مع لباس الشغل. شخصية ثرثار، تافه، سكير، قواد، حربوق، لقلوق، يأخذ البارة البخشيش فيقبّلها ويضعها على رأسه وكأنه كان سيقبل اليد التي أعطتها. وكان له من قراءاته الدائمة زاد يمكنه من فتح الحديث مع أي شخص، وحول أي موضوع، إضافة إلى عشرات الطرائف والنوادر. وذلك كله غير ما تسعفه به بديهته من تعليقات تتميز بالظرف والذكاء. وهذا ما جعل الكثيرين يتصرفون معه بمودة. فلم يعد في نظرهم اليهودي الخمَرجي بل صار نعمان الظريف. حتى أن أحد الضباط العرب الذي كان سعيداً جداً بصداقته، وخاصة

أن نعمان صار يخرج له من العرق المخصوص المخبأ «الذي – قسماً بالله العظيم – أشيله لنفسي»، هذا الضابط لكثرة ما أحب عرق نعمان سمى العرق ماء السماء. وسمى نعمان «ابن ماء السماء». ولما صحح له نعمان أن الشخص الذي يقصده هو المنذر بن ماء السماء صاح الضابط الذي كان قد سكر: أنا أسميك على كيفي. كل خراء واخرس ولاك عرص. فضحك نعمان خانعاً وقال: أصلاً أنت لم تغلط. النعمان هو ابن المنذر بن ماء السماء. وببساطة يمكن ربط الاسم بالجد دون المرور بالأب. فأنا فعلاً النعمان بن ماء السماء. ثم غنى له بلهجة عراقية يتقنها:

نخل السماوة يقول طرتني سمره

سعف وكرب ضليت ما بيي تمره

مما جعل الضابط السكران يبكي متأثراً من أحزان أثارها الغناء، ولا يعرف ما هي.

* أخذنا الحديث ونسينا أن نضيّفك شيئاً. قسماً بالله العظيم وحياة هدول – وأمسك بشاربه – لا أقبل أن تخرج قبل أن أضيّفك شيئاً على حساب المحل. لدي نبيذ خفيف جداً وطيب. مخصوص لأمثال حضرتك الذين لم يتعودوا على المشروب. إشربه وخطيّتك في رقبتي.

وأخرج زجاجة من تحت البار وسكب له كأساً: أولاً

حضرتك أول مرة تشرفنا. يعني ما حلوة بحقنا تطلع وما نضيّفك. وثانيا: أنت من طرف علي بيك حبيب قلبي. يزعل مني إذا لم أكرم له ضيوفه. وهل نحن قد زعل علي بيك؟ إشرب وادعُ لي.

واضطر عارف إلى تذوق الكأس فوجدها خمراً خفيفة فعلاً.

* صحتين. ما تشرفنا بمعرفة الاسم. أنا محسوبك نعمان بلكند. وصاحبك علي لا يقول لي غير نعمان بلكي. وأنا أقول له: «بلكي. شو بيعرفنا؟» وضحك: الاسم الكريم؟

– عارف. عارف إبراهيم.

حتى عارف أخذه الحال فلم يخطر له أن يقدم اسماً غير اسمه. وهو ما كان يفعله دائماً في مواقف كهذه. لكنه حمد لنفسه أنه قدم اسمه الحقيقي هذه المرة. من يدري؟ معارفه كثر. ويمكن لأي ضابط أن يدخل الآن ويراه ويسلم عليه باسمه.

وعاجله نعمان: عارف إبراهيم. يعني قريب علي بيك. أخوه؟ أم ابن عمه؟

* لا هذا ولا ذاك. تشابه كنية.

– هاه. إبن الحلال عند ذكره يبان.

ودخل علي بيك إبراهيم من الباب متهللاً. فصاح نعمان: بشر علي بيك. بشر.

– غلبته.

قالها علي مزهواً وهو يقترب من البار ضاحكاً: تعرف ماذا قلت له؟ بعد اليوم لن ألاعبك إلا باليد اليسرى. اليد اليمنى لست قدها. ثقيلة عليك.

وقهقه نعمان: يستأهل. شرّف. شرّف. البيك ينتظرك.

* أهلاً عارف.

وسلما بحرارة.

* ما الذي جاء بك إلى هذه البلاد؟

– رجلاي.

* لا تقل لي إنك جئتها مشياً على قدميك.

وضحكا.

فتدخل نعمان: علي بيك. تبقون هنا أم أخلي لكما طاولة؟

* لا. لا. طاولة. عارف بيك يجلس على البار؟ أنت لا تعرف هذا الذي أمامك. هذا يجعل طيزك تطقطق عند اللزوم. رئيس شرطة القدس.

– تشرّفنا. يا ألف أهلاً ومرحباً.

لم يرتح عارف لهذا التعريف. رغم أنه حمد لنفسه مرة أخرى أنه لم يقدم نفسه باسم غير اسمه الحقيقي. لكنه لم يعلق. واتجه مع علي إبراهيم إلى طاولة أخليت بقدرة قادر.

وجاء نعمان بنفسه ومعه لتر النبيذ، الذي سكب منه لعارف، ولتر عرق لعلي مع الكؤوس وقال: نطلب لكم

العشاء الآن أم ننتظر؟

قال علي: على مهل. ثم تطلع إلى عارف: أم أنك جوعان؟

– لا. لا. أصلاً لن أطيل الجلوس. سأعود اليوم إلى القدس.

* نتحدث عن هذا فيما بعد.

وقال لنعمان: كم صحن مازة الآن. وتعال اقعد معنا إذا لم يكن عندك شغل.

فاعتذر نعمان بأدب: لا. أتركك مع البيك. قد يكون هناك حديث خاص طالما أنه قادم من القدس وسيعود إليها اليوم.

وتركهما وانصرف.

أصول الشغل. يجب أن لا يحسوا أنك تفرض نفسك عليهم. بالعكس، إجعلهم يلحون.

وتطلع عارف إلى علي: ولد شاطر وحربوق. صاحبك؟

– لماذا تسأل؟

* يعرف عنكم أكثر مما يعرفون عنكم في الأركان.

– ما الذي جاء بك؟ قل لي الصراحة.

* الجواسيس.

الفصل الثاني والعشرون

– ١ –

كانت سارة وحدها في المختبر تنتظر ظهور إشارة الغواصة. فاليوم لن ترسل معلومات ولن تتلقى إعانة. اليوم ستستقبل يوسف ليشانسكي، آخر من رأى أفشالوم وصاحب الخبر الأكيد عنه.

لقد ظلت حتى اليوم تمنّي نفسها بأنه ربما كان أفشالوم قد جرح وأسره الأتراك. وعلى الرغم من أن زوجة جمال باشا التي أثارتها القصة قد أكدت لها أن الجنود طاردوا ثلاثة في الصحراء فقتلوا اثنين وجرحوا الثالث، وأن الجريح اتجه حسب ما يدل خيط الدم النازف منه نحو صفوف القوات الإنكليزية، وأنه ربما مات قبل أن يصل إليهم؛ لكن ورود المعلومات من آرون في مصر أن يوسف قد عوفي من جراحه قد أيقظ الأمل في نفسها بأن أفشالوم ربما لم ينته حسب ما أوردته حكاية زوجة الباشا، وحتى حسب ما جاء في رسالة آرون. أما اليوم، ويوسف قادم حسب آخر رسالة من آرون، فإن الآلام والآمال قد استيقظت. لعل يوسف سيحكي لها شيئاً آخر. وتمنت لو تنزل باتجاه الشاطئ قبل الأوان. لكن عليها أن ترد على إشارة الغواصة، وأن تعطي إشارة الأمان لكي يتم إنزال يوسف.

ثم بغتة أحست بالارتباك. إنها تتهيأ لاستقبال خاص. خطر لها للوهلة الأولى أن ترتب المختبر أو الصالون على الأقل. لكنها ضحكت من نفسها وطردت الفكرة من خاطرها بسرعة. هل يجب أن تلبس شيئاً خاصاً؟ تمنت لو تسرع إلى الحمام لتلقي نظرة على نفسها.

ومرة أخرى سخرت من نفسها: استحي يا بنت. أنت تستقبلين يوسف وليس أفشالوم. وفتحت باب المختبر وخرجت تركض بين الأشجار. ثم انحدرت نحو الشاطئ.

كانت الفرحة في أعماقها تنبئها أنها مسرعة للقاء أفشالوم وليس للقاء يوسف. شيء ما يوحد الآن بين أفشالوم ويوسف ليشانسكي.

أليس من الممكن أن يكون قد حدث خطأ أو التباس في الرسائل وأن يكون يوسف هو الذي مات، وأفشالوم هو الذي جرح ونجا؟ كم مرة خطرت لها هذه الفكرة. وجلست في العتمة تتطلع إلى البحر. وصدرت الإشارة من الأفق الغامض، الذي خالته بعيداً جداً، فأصدرت إشارتها فرحة.

وراحت تصيخ السمع لعلها تميز بين ضربة المجذاف وصوت الموج الذي يضرب الشاطئ. وفي الوقت ذاته تقلب نظرها في المنطقة المحيطة بها خشية وجود طارئ. حاولت أن تتذكر شكل يوسف فلم تستطع أن

تحدد تفاصيل وجهه. كيف لا تتذكر وجهه؟ لا شك أنه نحل قليلاً. وربما اصفر قليلاً. في كل مرة يرتسم أفشالوم مكانه. ثم تهز رأسها وتعود إلى التفكير في يوسف. لقد كان جريحاً ووصل إلى مصر وعولج. ولكنه نزف دماً كثيراً. أما زال يحتفظ بهذا الشعر القصير المسرح من منتصفه؟ و شاربيه الصغيرين وأناقته الدائمة؟ أما زال وجهه صغيراً أقرب إلى وجوه الأطفال؟

لكي تشغل نفسها عن محاولة تذكر وجهه تحولت بأفكارها نحو آرون. كيف هو الآن؟ ما رأيه بما يجري؟ لماذا يرسل يوسف بعد أن أبلغته أن يوسف قد انكشف وصار اسمه معروفاً لدى أجهزة الأمن التركية؟ هل سننتقل إلى العمل المسلح؟ هل الإنكليز قادمون؟ ما علاقة يوسف بهذا كله؟ هل يريد آرون أن يطمئنَ عليها فيرسل يوسف ليقف إلى جانبها؟ هي ليست في حاجة إلى أحد. ويوسف قد يتحول إلى عبء. فهي لا تستطيع أن تخبئ أحداً عندها. الكلام يكثر عن المختبر. حتى خمارة نعمان صارت عليها العين. وتلك الزيارة التي قام بها عارف إلى الخمارة تقتضي التنبه وأخذ الحذر جيداً. صحيح أن عارف لم يفعل ما يثير الشك. ولكن الزيارة ذاتها غير مريحة. لقد استأنف نشاطه بعد أن هجرت الفندق. ولكنها ستجد الوقت للتفرغ لهذا

العارف مرة أخرى.

سمعت ضربة المجذاف. كانت متأكدة. وحدقت عبر الظلام تستطلع فلم تستطع أن ترى شيئاً. تمنت لو أنها جلبت معها مصباحاً يدوياً. كانت سوف.... لا. جنون. لو رأوا الضوء لرجعوا. وبعد صبر ممض ظهر شبح القارب. اقترب أكثر. ورأت شخصاً ينزل في الماء ويخب نحو الشاطئ. ورأت القارب يدور ويرجع.

فارقها حذرها العريق فاندفعت نحو الشاطئ. وتوقف القادم متوتراً فخبت في الماء نحوه: يوسف. أنا سارة.

وتقدم نحوها فاندفعت إليه تعانقه. وأربكته تلك العاطفة المفاجئة. فلم يجد ما يفعله، وهي تحيط عنقه بذراعيها، وتعوقه عن التقدم، إلا بأن يحملها بين يديه ويمشي. مما جعلها تضحك.

وعلى الرغم من أنها قد فوجئت بهذه الحركة إلا أنها أحست بالراحة. أحست أن يوسف يعيدها طفلة تُحمل بين الذراعين وتُضَم إلى الحضن. فازدادت تشبثاً بعنقه.

خرج من الماء ثم أنزلها. تطلعت إليه فرحة: لا أصدق.

ولم يتكلم. مشى بسرعة مشية خبير بالمكان مما ذكرها بأن يوسف ليس غريباً ولا ضيفاً. هو ابن المنطقة التي لم يفارقها إلا منذ فترة.

حين وصل إلى أول المنحدر جلس على الأرض وأخرج من جيبه قداحة فتيل وبدأ يقدح بها.

– هل ستدخن؟

بعد أن اشتعل الفتيل ظل يقدح: أطمئنهم إلى أنني وصلت بخير.

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج لفافة: ذكرتني. تدخنين؟

فهزت رأسها وهي تجلس إلى جانبه وتعود إلى طفولتها.

أشعل اللفافة وقدمها لها. ثم أشعل الأخرى وبدأ يمجها وهو يتمدد بهدوء.

* ما بك؟ ستبقى هنا؟

أحست أن إلفة خاصة تنبع بينهما، فتبلل ذلك الجفاء الذي يشيعه حوله دائماً. وقد أفرحها أن الظلمة لا تجبرها على مواجهة نظرته القاسية.

شعّت ابتسامته في الظلام: لم العجلة؟ وصلنا. ما الفارق بين هذا المكان وأي مكان آخر؟

– قم. الأرض رطبة.

* دعيني أستمتع وأدخن هذه اللفافة هنا باسترخاء.

تسرب إليها الهدوء الذي يتصرف به. فاتكأت إلى جانبه: لماذا رجعت؟

– سنتحدث عن كل شيء فيما بعد. باختصار: رجعت لأشتغل.

* ظننت أنك رجعت لتطمئن علي.

أجابها دون انتظار أو تردد: رجعت أطمئن على زوجتي وأولادي. هل يراهم أحد؟

– أنا رأيتهم. وطمأنت زوجتك على نجاتك. كيف آرون؟

– اقتنع بعودتي لكي أشتغل معك.

ثم توجه بجسمه نحوها وهو متمدد بطوله: أنت لا تحتاجين إلى من يطمئن عليك. أنت يحتاج إليك الآخرون لكي يطمئنوا على أنفسهم.

بغتة أحست أنها مظلومة ومقهورة وتريد أن تبكي. كيف يخطر لهم أنها ليست في حاجة إلى من يطمئن عليها؟ هل تظنونني من حجر؟ أنا أبتعد عن أبي وأمي لكي لا يلحقهم أذى إن انكشف أمري. أبتعد عن زوجي لأنني لا أطيق استعباده. عن حبيبي الذي...

* يوسف. قل لي. هل مات أفشالوم فعلاً؟

تنهد يوسف ولم يجب.

* مات؟ مات؟

قال بحدة: ماذا تظنين؟ لو أنه لم يمت كنت أتركه في الصحراء؟ لم أتحرك من قربه إلا بعد أن تأكدت من أنه لن يتحرك بعد ذلك أبداً.

* كيف مات؟ إحك لي.

– مات. أصيب بطلقة وأصبت بطلقة. هو دخلت الطلقة من ظهره إلى قلبه وأنا استقرت الطلقة تحت لوح الكتف. لم تكن بعيدة عن القلب. ظللت أنزف ثلاثة أيام في الصحراء وأنا محموم.

* حدثني عن أفشالوم.

– يزعجك الحديث عني؟ معك حق. لا أحد يريد أن يسمع عني.

* لا. لا. لم أقصد. ولكن أريد أن أسمع منك عن أفشالوم. أنت آخر إنسان رآه. هل تعذب قبل أن يموت؟ هل صرخ؟ هل بكى؟ هل توجع؟ هل أوصى بشيء؟

نهض يوسف: الأفضل أن لا تسألي عن هذه التفاصيل. مات وانتهى الأمر.

ثم مشى.

أحست أنه غضب. وهي لا تريد له أن يغضب. لا تريد أن يعيد الجفاء بينهما، أو يجفف الأرض من حوله. فقامت تتبعه. ولما كان الطريق صاعداً فقد احتاجت إلى جهد وهما يصعدان. مما منعهما من مواصلة الحديث. لكنها تمنت أن تقول له إنها مهتمة به وبأخباره. وأنها سعيدة بسلامته وبعودته.

لكن لم يبد عليه أنه يريد أن يتكلم. واستغربت كيف ظهر عليها التعب بشكل مفاجئ، وهي التي اعتادت نزول هذا المنحدر وصعوده. ربما لأنها تستعجل لكي تظل قريبة منه وملاصقة له. كأنما كانت تهجس بأنه إذا سبقها إلى الأعلى سيكمل سيره دون أن ينتظرها. فلا تراه بعد ذلك.

وحين وصلا إلى الأعلى وقف يوسف والتفت. فاطمأنت

إلى أنه لن يهرب. وارتمت لاهثة.

* تعبت؟

– أنت أتعبتني.

وأرادت أن تكمل كلامها، ولكن انفعالها الممتزج بلهاثها أخرج الكلام بكاء: تعبانة يا يوسف. تعبانة جداً. أنا أكابر على نفسي لكي لا يبدو علي الضعف. ولكن الخوف يعشش في أطراف حياتي كلها. يومي كله خوف. وحين يمر اليوم على خير ولا يحدث لي شيء أتمنى أن أجد أحداً قربي لأبشره بأني نجوت هذا اليوم. أبشره. ولكن يجب أن يكون عزيزاً لكي أبشره. ويجب أن أكون عزيزة عليه لكي يعتبرها بشرى. ليس حولي إلا أبي وأمي. وهما يعتبران نجاتي كل يوم بشرى. لكنني لا أستطيع أن أبشرهما لأنني لا أريد أن ينتقل إليهما الخوف الذي أحس به. ولا أن يعرفا بوجوده. حتى أخي زفي لا أخبره لأنه لا يشتغل معنا. ليس حولي أحد. لا صديق ولا أخ ولا أهل.

جلس حيث كان واقفاً وأطرق برأسه. وخرج صوته منسجماً مع هدوء الليل: أنا سعيد لأنني وجدتك بخير.

تطلعت إليه في الظلمة فلم تستطع أن ترى وجهه. مدت يدها لتشكره فوصلت إلى ركبته، شدت عليها بامتنان أحسه. فشد بيده فوق يدها. وتابع كلامه الهادئ: أقول لك لماذا أنا عائد؟

التفتت إليه من جديد. وأحس بها: قلبي يحدثني بأنني عائد لكي أموت.
شدت يدها على ركبته أكثر: لا يا يوسف. لم يبق لي غيرك.
فهمهم: وأنا لم يبق لي أحد. ولكن من سيبقى لأولادي؟
أحست بالكلمات تخرج ساخنة من فمه. وصار عليها أن تبذل جهداً لمواساته مثلما واساها. وحين جلست نهض.
* ما بك؟
– دعينا ندخل إلى المختبر.
لقد حسب حساب كل شيء في رحلته إلا أن يضطر لمواجهة عاطفية كهذه مع سارة في هدوء الليل وحدهما. وليس بينهما إلا الحزن والفقد.
كان يوسف يخاف أن يضطر للكشف عن أحزانه. وكان يحس دائماً أن أحزانه مصدر ضعفه الوحيد.
ولذلك فإنه كان يتجنب أي حديث عن العواطف. ويظل منزوياً، حتى وهو مع الآخرين، يسمع أحاديثهم وخططهم. يعلق عليها من الناحية العلمية ويناقش من زاوية عقلية مجردة.
هنا، معها، لا مجال إلا للعواطف والأحزان. ولذلك أحس أنه مرتبك. وأحس أنه قد تورط في ما لم يحب الوصول إليه حين حملها في الماء، وحين سمح للموضوع أن يصل إلى حيث تشكو له أوجاعها. وحتى

حين شكا أمامها من أن أحداً لا يحب أن يسمع عنه هو.
لحقت به حتى المدخل. ووقف ينتظرها في أسفل الدرج.
قالت ممازحة لتكسر الجو الحزين الذي فرض نفسه عليهما: هل ستحملني إلى الداخل؟
لم يبتسم. بل تقدم يسبقها.
* الباب مفتوح.
فتح الباب ودخل. ودخلت وراءه.
* هل ساءك مزاحي؟
– هل كنت تمزحين؟
* حين سألتك إن كنت ستحملني؟
– اعتبرتك جادة. ولهذا استأت.
نظرت إليه مستغربة: لماذا؟
– إسمعي يا سارة. في المستشفى في مصر اعتنت بي إحدى الفتيات. ظلت ترعاني حتى شفيت. وصوّر لي الوهم الناجم عن حالتي أنها لا ترعاني بصفتها ممرضة فقط، بل بصفتها صبية متعاطفة مع شخص من ملتها تعرض للموت في مغامرة من أجل الشعب المختار والأرض الموعودة. ربما كان امتناني لها قد لبس لباساً آخر. توهمت أنها قد تكون أحبتني. وقد أكون أحببتها. المهم ونحن خارجان من المستشفى تمنيت أن أضمها إلى قلبي امتناناً وحباً. وفيما نحن سائران التفتت إلي

وأمسكت بيدي. كدت أطير من الفرح. ظللنا نسير حتى وصلنا إلى حيث ينتظرنا آرون. أفلتت يدي وقالت: أودعك الآن. سألتها إلى أين؟ فقالت: إلى الإسكندرية. كانوا قد جلبوها من الإسكندرية لتبقى إلى جانبي. فهي تتعاون مع شبابنا. وقد خافوا أن أتفوه تحت تأثير الحمى بأي شيء يضرّ بنا أمام إنسان غريب. سألتها: هل سأراك ثانية؟ قالت: لا أظن. استغربت. حتى كمجاملة كان يجب أن تقول لي شيئاً آخر. اضطررت لسؤالها: ألا تريدين أن نلتقي ثانية؟ هل أزورك في الإسكندرية؟ قالت بحياد الجزارين: لماذا؟ أنت شفيت تماماً. لم تعد في حاجة إلي. وأنا عندي شغلي. وقبل أن تذهب قالت: شكراً على أنك أمسكت لي يدي. يدك دافئة. ويدي كادت تتجمد من البرد. تصوري. هذا كل ما كان يعنيها من الأمر. يدي دافئة ويدها باردة. فهمت؟ كانت تراني مدفأة. قولي لي الآن لماذا كنت تريدينني أن أحملك إلى الداخل؟ تعبانة؟ رجلك تؤلمك؟

صدمها بكلامه فلم تجد ما تجيبه به. ولكي لا يلقي الصمت بثقله عليهما نهض واتجه إلى المطبخ: سأعمل الشاي.

— الماء ساخن وجاهز.

* تشربين؟

فلم تجبه. ظلت جالسة وحدها تحاول أن توائم بين

صدمته لها، وبين الحالة التي هو عليها الآن. الحقيقة أن أحداً لم يكن يهتم بوضعه. هو موجود فقط. موجود ونشيط وفعال. ولم يكن يبدو عليه أي انفعال. لم هو عصبي الآن؟ لم هو حزين؟

نهضت نحو باب المطبخ. نادم لأنك جئت؟

قال بحياد مصطنع: لا.

* خائف؟

– كل إنسان يخاف. الآن أنا لست خائفاً. لكنني متوتر. يجب أن نشتغل بجد.

حمل الشاي وعاد إلى الصالون: في مصر يحسون بالامتنان لما نفعله. أللنبي نفسه صار يعلق أهمية خاصة على التقارير التي تصل من عندنا. وهم ينتظرون باهتمام كبير وصول الحمام الزاجل من هنا، أو شارة المورس من عند نعمان، أو وصول السفينة بالتقارير المكتوبة. جماعتنا في أوروبا نشطون جدا. ويتوقعون صدور شيء رسمي من بريطانيا لمصلحتنا.

* أمامنا وقت طويل للحديث في هذه المسائل.

وأرادت أن تعيد الحديث إلى حميميته: لماذا تستغرب أن يهتم بك أحد؟

– إسمعي يا سارة. أنا ليست عندي أوهام. ولذلك لا أطالب أحداً بشيء. تعرفين؟ هناك شاب في القدس صاحب معصرة زيتون. حين أنزل أمر به وأحييه. فيرد

علي التحية كما يردها على العشرات الذين يمرون به في شغله. نادراً ما يقول لي: أين تغيب؟ أو لماذا لم نعد نراك؟ أو أقعد واشرب كأس شاي أو فنجان قهوة. أعذره. هو في شغله. والصداقة لا يمكن تسولها أو استقراضها. وأنا واحد من الذين يعرفهم. وربما أقلهم أهمية. أتركه وأذهب. لكنه حين يجول في المنطقة ليشتري الزيتون، أو ليدفع العربون قبل الموسم يمر بالمطلة أو روحاما. وحين يراني هناك يسلم علي بحرارة كأننا صديقان حميمان. لا أستغرب منه هذا. فأنا الوحيد الذي يعرفه هنا. أرحب به وأدعوه إلى بيتي، بعد أن صار لي بيت، وأقدم له ضيافة. وقد أجول معه على البيوت. ثم أودعه دون أن أتوهم أنني صرت صديقه.

* لم هذه القصة؟

– لكي لا أجعلك تحسين بالندم على عناقك لي. لا تخافي. لن أتوهم شيئاً. ويجب أن لا تتوهمي شيئاً من حملي لك ونحن في الماء. الآن أنا الوحيد الذي تعرفين. أما حين كان الجميع هنا. فأنا أحد الذين تعرفين وربما أقلهم أهمية. تعرفين لماذا رجعت؟ لأنه ليس لدي مكان آخر أذهب إليه. أينما ذهبت فأنا نكرة تافهة لا تعني شيئاً لأحد. هنا، على الأقل، أستغفل الأتراك. أجمع معلومات وأرسلها إلى مصر. أحس أنني أفعل شيئاً نحو

تحقيق حلم ليس لديّ بديل عنه. أنتم لديكم بدلاء. ألكسي ورفقة يستطيعان الذهاب إلى بيروت أو مصر أو أميركا. آرون رجل المواهب وجوال العالم. أنت حلم الرجال كلهم وأمامك العالم كله. أفشالوم كان لديه الشعر. ونعمان لديه الخمر. يشتغل ويسكر ويستمتع بالعرق والنساء. أنا ليس لدي شيء أستمتع به ولا مكان أذهب إليه. المطلة مثل ملجأ الأيتام. جلبني الأقارب إليها لكي لا أُترك يتيماً في شوارع كييف. حاولت أن أمد جذوري بين الناس فلم أستطع. قدمت انتساباً إلى حزب بو عْلي زيون فلم يبحثوا في الأمر. ثلاث سنوات وأنا أشتغل حارساً مع هاشومير في الجليل. وكل يوم نمنّي أنفسنا أننا سنقنع أليشوف أن الشباب اليهودي لا يقل حنكة وشجاعة عن العرب أو شركس كفر كام الذين يستأجرونهم للحراسة. وبعد ثلاث سنوات من الحراسة في السجيرة لا يقبلونني في الحزب. خرجت من الهاشومير كما لو أنني خارج من ميتم انتهت المدة المخصصة لي للبقاء فيه. حتى هذا المختبر كان كالملجأ. أنا لا خبرة لي في الزراعة ولا في التحليل المخبري. قد لا تصدقين أنني أخاف من الجراد. وأقرف منه. ولذلك أعرف أن آرون قد شغّلني معه في المكافحة لكي يفتح لي أبواب ملجأ جديد.

وهاأنذا أخيرا: لا أهل ولا أقارب ولا منظمة ولا حزب.

ليس لي إلا البيت مثل أية زوجة محدودة. ولذلك أرى أنه لم يبق لي إلا أن أوسع طلباتي إلى الحد الأقصى. أريد وطناً يدفئني. وطناً يعوضني عن هذا كله. وأنا أقامر. كان لي صاحب يقامر بالنرد. يضع كل ما معه ويضرب ضربة واحدة. صولد. وكثيراً ما يخسر. وكان يقول دائماً: خربانة خربانة. إما أن تأتي بضربة حظ وإما أن تبقى خربانة كما هي.

فهمت الآن لماذا أشتغل في نيلي؟ أريد أن أوسع الملجأ. أن تصبح هناك دولة يهودية على أرض إسرائيل تصلح ملجأ للآلاف الذين يشبهونني.

* أنت تبالغ قليلاً. وإن كنت أعترف أن كلامك مؤثر. المهم الآن أين ستنام؟

ونهضت.

– في أي مكان. لا فرق. سأذهب إلى المطلة أو إلى روحاما.

* في هذا الليل؟ مستعجل على لقاء زوجتك؟ رأيي أنها يجب أن لا تعرف بعودتك الآن. لقد عرف الأتراك بما جرى معكما في الصحراء. واسمك معمم على الجيش والشرطة. ولا شك أن لديهم جواسيسهم الذين قد يكونون بانتظارك. نم هنا. وتذكر أنك ستنام هنا كثيراً إذا كنت ستشتغل معي.

– يجب أن أرى الأولاد. الأولاد يستحقون ضربة صولد.

يجب أن لا يعيشوا أيتاماً منذ الآن. سأذهب إليهم وأعود في الصباح.
ونهض ليخرج فخرجت معه، وقد فقدت قدرتها على الكلام. نزلا الدرجات القليلة فوقف يودعها لكي لا تكمل معه.
لكنها قالت: سأمشي معك قليلاً.
بعد عدة خطوات قالت: كأن شيئاً ما قد حدث لك مؤخراً فجعلك تحمل هذه المرارة كلها.
قال: فعلاً. لكنه لم يحدث مؤخراً. كان يحدث دائماً ولم أكن أتكلم. أنظري إلى هذا الليل. في ليل مشابه كنت مع أفشالوم والدليل. في مثل هذا الليل ضيع الدليل الطريق واصطادنا البدو. لم يصطدنا الجيش كما يدعون. بل اصطادنا البدو. قتل الدليل وقتل أفشالوم وأصبت. في مثل هذا الليل سرت وحدي في صحراء مليئة بالأعداء وأنا أنزف. ولا أعرف هل سأموت من جرحي؟ أم من الأتراك الذين سيكشفونني؟ أم من البدو الذين ربما كانوا يطاردونني؟ أم من الوحوش التي ربما تشممت رائحة دمي؟ أم من الإنكليز الذين قد يطلقون علي النار قبل أن أستطيع الكشف عن هويتي؟ ثلاثة أيام أختبئ فيها نهاراً وأمشي في ليالي كانون الباردة. أنت لا تعرفين أن البرد في ليل الصحراء الشتوي أقسى من الحر في نهارها الصيفي. وحين وصلت إلى القاهرة

أحسست أن لدى الجميع خيبة. تعرفين لماذا؟ لأنني أنا الذي نجوت. والذي قتل هو أفشالوم. الجميع كانوا يتمنون لو حدث العكس. جعلوني أحس كأنما كانت هناك حياة واحدة لنا نحن الاثنين وأنا سرقتها منه.
وخشيت أن يتمعن في وجهها في الظلمة، فيكتشف أن هذا ما كانت هي تحس به فعلاً. هي كانت تتمنى لو حدث العكس. لو أن أفشالوم نجا. والآن فقط تقول: ودون أن يموت يوسف. وأحست الآن أنها هي سبب مرارته. كأنه كشف ما في نفسها. ولئلا يرى ما في داخلها جيداً وضعت يدها على ذراعه بحنان صادق: لا تبالغ يا يوسف. كلنا نحبك. ولكن صوتها لم يعجبها.
ابتسم لها شاكراً لكي لا يبكي. ثم شد على كتفها. واندفع في الظلام.
بغتة وهي تراقب اختفاءه أدركت أنها وحيدة وأنها مستوحشة. لم تكن لهفتها عليه إلا كذباً بارعاً من أجل تجاهل إحساسها بالوحشة. هي كاذبة. لم تكن تريد أن تسمع القصة الحقيقية لمقتل أفشالوم. ولا كانت بشوق لرؤية يوسف. كانت تريد أحداً ما من غير الذين تغويهم وتستمتع بضعفهم فيزدادون بعداً عن نفسها، كلما ازدادوا قرباً بأجسادهم وضعفاً في نفوسهم. تريد أحداً ما يحس بها ويعرفها، ويضمها فيزداد قرباً منها ومعرفة بها كلما ضمها. وكانت مهيأة حتى لمضاجعته. كان يمكن

أن يحدث هذا في الماء حين عانقته. أو على الشط حين اضطجعا ودخنا. أو حتى في الداخل مع الشاي. لولا انفجار المرارات: مسكين يوسف. لم نكن نحس به فعلاً. أنا نفسي لم أكن أحس به.

وعادت إلى الداخل.

طوال حياتها والأضواء المسلطة عليها أقوى من أن تسمح لها برؤية يوسف أو الإحساس به. لقد كان في الظل البارد. ولكن هنا حيث الظلام والرطوبة والشتاء فقد صارت هي غير مرئية. هي التي تبحث عمن يراها. هي التي تتعلق بالأوهام لتضع يوسف مكان أفشالوم وأفشالوم مكان يوسف. وتلعب بذاكرتها فتتجنب تذكر ما لا تحب لكي يعود إليها أفشالوم عارياً من تحفظه.

ولكن هذا ليس مجدياً. وهي الآن وحيدة. وحيدة تماماً: مثل هذا المختبر. مثل هذا البحر. مثل هذا الحزن. مثل هذا الليل.

— ٢ —

لم تستطع سارة أن تنتظر مجيء يوسف صباحاً. ارتدت ملابسها وخرجت تنتظر. وما أن وصل أبو فريد حتى قفزت إلى العربة وقالت: إلى روحاما. ولم يرتح أقارب يوسف وزوجته لمجيئها. يهود المستوطنات يتبرمون بها وبزملائها. يحس الجميع أن هؤلاء الشباب يفعلون شيئاً سيتسبب في وقوع مصيبة على رؤوسهم كلهم.

وأقارب يوسف قالوا لها: تفضلي، من رؤوس شفاههم. وزوجته رفقة ظلت واقفة تتطلع إليها دون كلام، وهي تحمل طفلاً على ذراعها. ولم يكتم زوج عمته امتعاضه. فسألها: ألست مبكرة عليه؟ إنتظريه كم يوم إلى أن يأخذ نفساً. لكن يوسف حسم الأمر بالتوجه نحو العربة. وهي أيضاً لم تنزعج. بل كانت تحس إحساساً طريفاً بأنها أنثى تختطف شاباً من أهله وزوجته.

انطلقت العربة وهي تقول له: ارتحت؟

فهز رأسه موافقاً. سألته: كيف همتك للشغل؟ قال: لعيونك.

أبو فريد موثوق به. ويعرف شغله. استغرقت الرحلة عدم أيام: إلى الناصرة وطبرية والعافوله ثم إلى روشيون لوزيون. وكانت النقود، وابتسامات الأنثى، ومعرفة الضباط بها على أنها من حاشية جمال باشا، تفتح الطريق لها عند كل حاجز. فمرت الرحلة بسلام، ووفرة من المعلومات، ودون أي إزعاج إلا عند اللقاء مع نعمان.

نظر إليهما نعمان بعينيه الحمراوين من الشرب والسهر. ولم يتحرك عن كرسيه. مد يده إلى الدرج وأخرج مغلفاً قدمه لسارة: هذه هي المعلومات.البقية أرسلت برقياً. ولكن هناك توصية بأن لا نستخدم البرقيات كثيراً. فهي معرضة للكشف.

– ألا تسلم على يوسف؟

تطلع إلى يوسف كأنه سينهشه: الحمد لله على السلامة.

* اللّه يسلمك. رجعت منذ عدة أيام.

– سمعت.

* آرون يسلم عليك.

ولم يعلق نعمان. بل نهض لكي لا يطيل الحديث: تشربان شيئاً؟ أم أنكما مستعجلان؟

صرخت به سارة: نعمان! كأنك تطردنا. ما بك؟

فصرخ مثلها: ما بي شيء. ولماذا يكون بي شيء؟ كله شاب عمره خمسة وعشرون سنة ومات. طز. نعملها قصة؟ وننزع الجو عليك وعلى انبساطك مع يوسف؟ لا. عيب.

قالت له سارة والدموع في عينيها: تظن أنك مقهور على أفشالوم أكثر مني؟

* أكثر منك؟ لا. ولكن أكيد أكثر من هذا الذي ورّطه وتركه مرمياً في الصحراء.

وتطلع إلى يوسف بقسوة: تعرف يا أفندي أن الغواصة وصلت بعد ثلاثة أيام من سفركما؟ إسمعوا الكلام. لا. كلٌ رأيه من رأسه. كلهم رؤوس مثل البصل. وكأن في طيزك دودة. لا تعرف كيف تهدأ. روّحت الولد. ارتحت الآن؟ إجلس وانبسط مع سارة.

وخرج يوسف تجنباً لمزيد من التوتر، وصوت نعمان

يلاحقه: قولي له. قولي لهذا الأفندي أن السفرة كلها ما كان لها طعم ولا معنى. نحن نتعامل مع دولة عظمى تحكم العالم. عندها حساباتها. عندها جيوش وأساطيل. وهي تقدم كل يوم لا أقل من ألف قتيل. نريد أن نمشيها على كيفنا؟ يا عمي انتظروا. الغائب عذره معه. آرون عمره لم يقصّر. سيرسل خبراً حين يستطيع. لأ. ظل يلعب بعقل الولد حتى أخذه إلى الصحراء وضيّعه. ضيّعه للا شيء يا مخلوقة. للاشيء.

كانت سارة قد ارتمت على كرسي وبدأت تبكي، بينما صوت نعمان يلعلع في جو القبو. وفتح نعمان زجاجة من العرق بدأ يشرب منها وهو يندب ويبربر: يقولون لا تشرب يا نعمان. لا تشرب. لماذا لا أشرب؟ ماذا أفعل إذا لم أشرب؟ ألحق يوسف إلى مصر وأقتله؟ خطر لي وحياتك. أخرج إليه الآن وأقتله؟ والله شرب دمه حلال.

ووسط انفعاله ذهب إلى الباب فرأى يوسف يضع رأسه على الجدار ويبكي بمرارة. شده نعمان من كتفه إلى الداخل: فوت. انضرب على قلبك واشرب كأساً.

دخل معه يوسف. لكنه لم يشرب الكأس الذي صبه له نعمان.

— ستين عمرك ما تشرب. لكن اسمع ولاك. تعرف كيف ألله خلقك؟ هكذا ستقول لي أين انقتل أفشالوم. أنا

أروح وأجلبه.

رفعت سارة رأسها: نعمان. نعالج الجنون بالجنون؟

– من كل عقلك أتركه مرمياً في الصحراء كما تركه يوسف؟ وحياة عينك سأذهب إليه وأجلبه.

* يا نعمان. القصة منذ شهور. والميت...

– ولتكن دهوراً. أنتم تريدون فلسطين بعد ألفي سنة. وأنا أريد ابن عمتي بعد شهور.

استعادت سارة هدوءها: نعمان. كلما أتيت عندك تعمل لي هذا الفصل. لن آتي بعد اليوم؟

* لا تأتين؟ ولمن أجمع المعلومات من الألمان والأتراك إذن؟

قالت بتحد: قد لا أتمكن من المجيء دائماً. يوسف هو الذي سيمر ويأخذ منك ما لديك.

* لأ. كله إلا يوسف. وفي وجهه أحكي. تريدين أن أبتلي به؟ ليس فقط أني لا أقبل أن يصير رئيسي. بل وبصراحة لا أريد أن أشوف خلقته بعد اليوم.

نهضت. فنهض يوسف: سنذهب إلى الفولة.

* وماذا لديكم في الفولة؟ ستتفرجين على القلعة؟

– شغل.

* تخبئين الأسرار عني يا سارة؟ وتأخذين أمين سرك يوسف أفندي؟

وضربه على كتفه: حلوة يوسف أفندي. ما؟ أحسن من

اليافاوي. لكنك والله تظل حامضاً على قلبي، ولو كنت المنّ والسلوى.

قالت سارة: سنمر على الدكتور نيومان. هذا طبيب مشرف على فحص المجندين الجدد.

– إيه. الله يوفق. ولكن نيومان لن تروه في الفولة نفسها. سكن مستعمرة مرحافيا بجنبها.

وحين دخل سميح بالكؤوس النظيفة تطلعت إليه سارة بصمت. وانتظرته إلى أن خرج. فسألت نعمان: شغّيلك هذا من أين؟

قال دون اهتمام: من بيس عرب.

– مطمئن إليه؟

* كوني بشغلك ولا تخافي علي. أنا أدبر رأسي.

أشارت إلى يوسف. وخرجا.

فعاد نعمان إلى زجاجته.

– ٢ –

– وصاحبك يشتغل في خمارة عند واحد يهودي.

تطلع إبراهيم إلى أبيه مستغرباً. فتابع عارف: هذه آخر وطنيتكم؟

* تقصد سميح؟ مستحيل.

– نعم سميح. رأيته بعيني. وهو هرب مني. إنصحه أن يلحق نفسه قبل فوات الأوان.

لم يستطع إبراهيم أن يخفي صدمته لهذا الخبر. اشتعل

غضباً. تمنى أن يكون سميح أمامه الآن لكي يشبع منه ضرباً ولكماً. ولكن أباه لم يتركه ليسترسل مع انفعالاته الصامتة: أراك لم تعلّق.

* سميح كان يشتغل مع الصحافة لمقاومة عمليات شراء اليهود للأراضي.

– وما الذي أوصله إلى خمارات اليهود؟

* ربما كان يريد أن يختبئ.

أفلتت الكلمة فاضطر لإيضاح كل شيء. حكى عن تجربتهما في السجن وعن هربهما.

– يعني كنت تتعاون مع الإصلاحيين؟ واللّه عال. أنا وظيفتي أن ألاحقهم وابني يتعامل معهم.

* ولماذا تلاحقهم؟

– لأنهم يعملون ضد الدولة وضد القانون.

انفجر إبراهيم: صرعت ربي بقانونك. ألا تلاحظ أن قانونك لا يستقوي إلا علينا؟ يشزبكنا كيفما تحرّكنا. يلاحق ابن العرب ويطارده ويجوّعه وينفيه. ويزج به في جيش تافه ليخوض حرباً لم يكن لها مبرر. وقانونك نفسه هو الذي يرتبك أمام اليهود وأبناء الجنسيات الأجنبية. وهو الذي يطأطىء رأسه لكي تمر فوقه تجارة الحبوب ومصادرة الأراضي وبيعها. قانونك هو الذي يكسر ظهور الناس بالضرائب حتى يجبرهم على هجر أراضيهم والهرب خارج البلاد كلها. وهو نفسه الذي

يصبح مليئاً بالبخوش مثل المنخل لكي ينفذ منه المهاجرون اليهود. بخوش ليهاجروا إلى هنا. وبخوش تساعدهم على شراء الأرض. وبخوش لحمايتهم بصفتهم مواطنين للدول الأوروبية التي هاجروا منها. ثم بخوش ليتسلحوا ويقتلوا. وليس لنا إلا بخش واحد يفتح باب الهجرة من البلاد هرباً من الجوع والظلم والتجنيد. لم يبق أمامنا إلا أن نفكر بأننا عرب يجب أن نحمي هذه الأرض من الإنكليز واليهود والأتراك. والله العظيم نحس كأننا دائخون لا نفهم ما يجري. يا ليتها كانت حرباً صليبية. كنا فهمناها. مسيحيون ضد إسلام. أوروبيون ضد مشرقيين. كانت سهلة. ولكنْ مسلمون وإنكليز وفرنسيون يهاجموننا ومسلمون وألمان يدافعون عنا. عرب في الجيش الإنكليزي وفي جيش الشريف يهاجموننا. وعرب في الجيش العثماني يقاومونهم. خليفة المسلمين في اسطمبول يعلن الجهاد المقدس باسم الإسلام. والشريف حسين، سليل الرسول، يعلن الجهاد ضد العثمانيين الكفرة. حتى اليهود لم نعد نستطيع أن نفهمهم. يهود يتبرعون للجيش العثماني ويدعون إلى التطوع فيه. ويهود يتجسسون لصالح الإنكليز ضد العثمانيين. يهود يحتالون لسرقة الأراضي ويهجّرون سكانها العرب، ليقيموا فوقها مستوطنات تتحول إلى ملاجئ للعرب الهاربين من الأتراك. إحك.

لماذا لا تحكي؟

لقد ورث إبراهيم عن أبيه مواصفاته كلها. وهو يفهم أباه الآن أكثر مما يخافه. ولذلك فإنه، على الرغم من قسوة الأب المتجهمة، كان يحس في أعماقه أنه قادر على مناقشته وبعصبية أحياناً. كان يعرف في لحظة ما أن نقاءه العنيد يتحاور مع نقاء أبيه العنيد. مما يتيح فرصة لمناطحة شريفة بين أب وابنه. ولكنها بين أب نظيف تعجبه جرأة ابنه وابن جريء معجب بنظافة أبيه.

غمغم عارف بهدوء: أنا أيضاً لم أعد أفهم شيئاً.

قال إبراهيم: أنا أكفل سميح. هل تؤمن له إعفاء من الجندية، لكي لا يظلوا يلاحقونه؟

قال عارف: لا أستطيع أن أؤمن ذلك حتى لك أنت. قلت لك أنا أيضاً لم أعد أفهم شيئاً. أنا رئيس شرطة القدس. المفروض أنني رجل قوي في الدولة. ولكنني أحس نفسي عاجزاً عن كثير من الأمور. بعضها أنا لا أفعله لأنه ضد مبادئي وقناعاتي. وبعضها لا أستطيع أن أفعله لأنهم يضعون عراقيل لا أفهمها. والنتيجة أن أي جندي يذهب إلى قرية من هذه القرى تكون لديه صلاحية أكثر مني.

وخيم عليهما صمت مقيت. كل منهما استرسل مع مواجعه. لكن كان هناك وجع جديد ينبع في أعماق

عارف. وجع ممزوج بشيء من الفخر. إبنه كبر أكثر مما كان يتصور. كبر في غيابه. لم ينتبه إليه وهو يصير رجلاً ويحمل مسؤوليات أمة. لا بد أن أخوته أيضاً قد كبروا. وفي غيابه أيضاً. عمله يستغرقه أكثر مما يجب. وإلى درجة أنه يظل غائباً عن الزوجة والأولاد. لم يكن يوماً ذلك الأب الموجود في البيت الذي يسمع الشكوى وينهر وينصح ويربت الكتف. وقد يحضن ويقبّل. أولادي ولكنني لا أساهم في تكوينهم وتوجيههم. ها هو إبراهيم. ليس ابناً. بل هو رجل كامل. بوجهة نظر كاملة. ورأي في الحياة والناس والسياسة والحرب. وربما رأي فيَ أنا أيضاً. رأي مستقل عني. يختار طريقه بحرية. حتى أنه يختار طريق موته.

بحزن عميق تحدث عن مواجعه. ففوجئ إبراهيم بتحول الموضوع إلى هذا المنحى. لكن رنة الحزن في صوت الأب جعلت الابن يرغب في البكاء، ويتمنى لو أن أباه لم يفتح مواجعه بهذه الطريقة. صحيح أنه لم يتلازم مع أبيه طويلاً. هو أيضاً ابتعد عن البيت بسبب بقائه في الشام للدراسة، بعد انتقال أبيه إلى بيروت ثم انتقاله إلى القدس. لكن صورته ظلت صورة الأب القوي الذي قد تتحداه وأنت تحبه. تتحداه كأنك تقف إلى جانبه. وترفع أصابع قدميك لتتطاول وتصبح مساوياً له. أب موجود في النفس إلى درجة أن تُطل عيناه من

صورة زوج المرأة التي كاد...

وختم عارف كلامه الموجوع بقوله: يا إبني. ظروفي اضطرتني أن أظل غائباً عنكم. لكنني حاولت دائماً أن أنجز شيئاً يعادل غيابي عن البيت ويعوضه أو يبرره. لم أستطع أن أعاملكم عن قرب لكي تحسوا بي أباً. لكنني سأجعلكم تفخرون أنه كان لكم هذا الأب.

– ٤ –

حين توجهت سارة إلى بنسيون أستر استغرب يوسف. ما الذي سنفعله هنا؟ ابتسمت له: هنا سنعمل منك رجلاً. تطلع إليها بمعاتبة مازحة: وما أنا؟ فضحكت وقالت: أنت رجل. لكن سنعمل منك رجلاً محترماً.

قال: يعني هكذا أصلحت العبارة؟ سحبته من يده: تعال بلا كثرة حكي.

في الداخل توجهت معه إلى إحدى الغرف وتبعتها أستر بعد قليل.

فوجئ يوسف بأستر. واضح عليها الاحتراف في كل حركة من حركاتها. من أين تعرف سارة هذه النماذج؟ هل نزلت إلى هذا المستوى؟ ولماذا جلبته إلى هنا؟ هل تمتحنه؟ هل تسخر منه؟

قالت لها سارة: سأشرب فنجان قهوة في الخارج. إعملي لنا من هذا الشاب رجلا محترماً.

وخرجت.

كالطفل الخائف همّ بالخروج راكضاً وراء سارة. لكن أستر تجاهلته تماماً. وفتحت خزانة، أخرجت منها بذلة أنيقة ألقتها على السرير.

* جرب هذه.

ووقف متردداً. وفهمت بسرعة أنه يخجل من خلع ملابسه أمامها. فأطلقت ضحكة وخرجت.

بعد قليل خرج يوسف من الغرفة كأنه شخص آخر. البذلة الرسمية والطربوش وربطة العنق وعصا الوجاهة. وتطلعت إليه سارة معجبة والضحكة في عينيها، بينما يقف هو مرتبكاً كأنه يحمل على كتفه الشخص الآخر الذي صاره.

* لم هذا التنكر؟

– الآن تصلح للسهر في فندق الشرق مع هيئة أركان الجيش الألماني.

وذهبا إلى الفندق. وكان يعج بالضباط الألمان. وعرفا أن الجنرال فون كريس موجود هناك.

وتسابق أكثر من ضابط للسلام عليها وتقبيل يدها، وهي تقدم لهم يوسف على أنه شقيقها. وذعيا إلى مائدة. غرقت سارة في الحديث مع أحد الضباط. وبعد قليل قام يوسف ليرقص مع زوجة ضابط آخر. ولم تجد سارة صعوبة في تبادل النظرات مع ضابط محدد. فانتهى الأمر إلى الرقص ثم إلى الشرفة، حيث أطلت منها

ساهمة على المدينة الصامتة. ثم التفتت إلى الضابط: أليست أورشليم مدينة عظيمة؟

* ستبقى إلى الأبد عظيمة. وتبقى مطمحاً لكل مسيحيي العالم.

– ويهوده.

* هل أنتم جادون في مسألة العودة وبناء دولة يهودية؟

– لا أعرف إذا كان هناك من هو جاد في هذا الموضوع. ولكنني أعرف أنني أحب أورشليم. أنا لا أفهم في السياسة ولا أهتم بها.

* بماذا تهتمين؟

– بالسياحة. أشتهي أن أكون في مكان عالٍ لأطل على المدينة، وأراها كلها دفعة واحدة.

* تركبين طائرة؟

– لا. دخيلك. أخاف من الطائرات. هل تركبون الطائرات دائماً لكي تطلوا على منطقة ما، وتكوّنوا فكرة كاملة عنها؟

* لا. نكوّن الفكرة عن طريق الخرائط. هناك علم اسمه الطوبوغرافيا، يحدد انثناءات الأرض وارتفاعاتها والتواءاتها. وعليها أماكن تواجد القوات. تحبين أن تري خريطة؟

– لا. لا. لا أحب ذلك.. شغلكم خال من الخيال والشاعرية. أنا أفكر في صورة كبيرة لمدينة القدس.

يظهر عليها السور والأماكن المقدسة، وجبل الزيتون وجبل صهيون. أشياء كهذه...

* عندي خريطة للقدس. وعليها كل تفصيل صغير أو كبير. كل دخلة وكنيسة وجامع وشارع.

– ياه. شيء رائع. هذا ما كنت أحلم أن أراه.

* تحبين أن تريها؟

– يا ليت.

* تفضلي معي.

ترددت متظاهرة بالحذر: إلى أين تستدرجني؟

* تخافين؟

– ماذا سيقولون عنا؟

* أنا آخذك إلى المكتب. وليس إلى غرفة النوم.

– مكتب؟ هنا مكتب؟ في الفندق؟

* هنا رئاسة أركان القوات الألمانية كلها. ألا تعرفين؟

– قلت لك لا أحب السياسة. ولا تؤاخذني إذا قلت لا أحب الأعمال العسكرية أيضاً.

* أنا سأريك خريطة القدس التي تحبينها.

– هيا بنا.

وانتبه يوسف لذهابهما، فلم يستطع أن يمنع نفسه من اللحاق بها.

دخلا غرفة المكتب. ووقف يوسف قريباً من الباب يستمع.

فتح الضابط أحد الأدراج وأخرج لها خريطة كبيرة مدها على الطاولة وبدأ يشرح: هنا باب الشام وهنا باب سانت ستيفان وهنا باب الأسباط. وهنا كنيسة القيامة وراء خان الزيت. هذا الشارع اسمه شارع الموازين. هنا حارة اليهود. وهنا حارة الأرمن. وهذه حارة المغاربة. وهنا السور. وهنا... وهي تبدي اندهاشها وفرحها وتزداد قرباً منه.

قالت سارة وهي تتطلع إلى الخريطة: رائعة. ولكن ما هذه الخطوط؟

* هذه أماكن توزع القوات لحماية المدينة.

– الحرب فظيعة. صورة جميلة كهذه تشوَه بخطوط الجيش. أليس عندك صورة غيرها؟

* إذا شئت أمحو لك خطوط القوات وتبقى المدينة وحدها.

– ألن تحتاج إليها؟

* عندنا نسخ كثيرة غيرها.

وصار وجهها مقابل وجهه. التفتت إليه فمر شعرها على وجهه. وأحس أن لحظته قد حانت. فمد يده إلى خصرها وجذبها إليه. لم تمانع. بادلته القبلة ثم انتزعت نفسها من بين يديه.

وأحس يوسف أن عليه أن ينسحب.

– لا بد أنهم يسألون عنا.

* لا أحد يتذكر الآخر.

وشدها إليه من جديد: كما عرَفتك على خريطة المدينة المقدسة أود لو أتعرف إلى خريطة هذا الجسد المقدس.

– الآن؟ لا.

إجابة ذكية فهم منها أنها تقبل، ولكن ليس الآن. وليس هنا. فاعتبره وعداً مضموناً.

* غداً؟

– ممكن.

* هنا في الفندق؟

– لا أحب جو الفندق.

* الناس يتواعدون في الفنادق.

– ولكن لا تكون الفنادق قيادة قوات وأركان. أليس عندك مكان آخر؟

* عندي.

– إلى الغد إذن.

وهمَت بالخروج متجاهلة الخريطة. ولكنها وهي تتحرك أزاحتها بيدها فأوقعتها إلى الأرض. فانحنى ورفعها: ألا تريدينها؟

– ألا تحتاج إليها؟

* قلت لك عندي غيرها. أم تفضلين أن أؤمن لك نسخة نظيفة ليس فيها خطوط؟

– لا. لا. سآخذ هذه. سأعتبرها ذكرى لقائنا الأول.

طوى الخريطة وأعطاها إياها فدستها في حقيبة يدها. وخرجا ليختلطا بالساهرين.

في نهاية السهرة ودّعت ويوسف الجميع. وتوجها إلى منزل آرون.

وهناك جلسا يستعرضان الحصيلة. وأهم ما فيها خريطة بتحصينات القدس. أما يوسف فقد استطاع التقاط بعض المعلومات من الزوجات اللواتي راقصهن. لقد أبدى تخوفه من هجوم الإنكليز على هذه المدينة العظيمة وتهديمها. ولكن إحداهن أكدت أن لا خوف على مدينة يحميها خمسون ألف عسكري. وحين سأل إن كانت القوات الإنكليزية أكثر من ذلك قالت الزوجة ضاحكة: كنا نظن أنهم مئة ألف. ولكن زوجي يقول إن الرصد بالطيران أكد أنهم ليسوا أكثر من خمسين ألفاً. وعلى المائدة أبدى يوسف استغرابه من التناقض بين الرقمين. فعلق أحد الضباط ضاحكاً: وماذا تتوقع من البدو؟ بشر لم يصلوا بعد إلى التعامل مع الأرقام. يقول لك البدوي: قعدنا شربة سيكارة. وذلك المكان يبعد شلفة عصا. وضجوا بالضحك. فأضاف: لا شك أن بعضهم قدّر أن لواء إنكليزياً عدد عناصره أكثر من قبيلة بدوية، فضرب رقماً من عنده وقال: مئة ألف. وكان يمكن أن يقول مليون. ولكنه لم يسمع بالمليون. فهو لا يعرف كيف يعد بعد المئة ألف. فعلق آخر: ربما قال ألف

ألف.

قالت سارة: هذا يعني أن تقديرات الألمان لعدد الإنكليز خمسون ألفاً. وهو رقم مريح لهم لأن قواتهم مع العثمانيين تبلغ أكثر من هذا الرقم. معلوماتنا اليوم عظيمة. يجب أن نكتب رسالة نحذِّر فيها القوات البريطانية من البدو الذين يتنقلون بين سيناء وفلسطين لتجارة الحمضيات. لكي لا يسمحوا لهم بالعودة إلى هنا. غداً تأخذ الرسالة والمعلومات، وتذهب إلى عتليت.

* وأنت؟

– أنا سأظل هنا. يجب أن ألتقي بالضابط الألماني.

* وماذا تتوقعين منه بعد أن أخذت الخريطة؟

– أن لا يهتم بالخريطة. إذا لم يرني غداً سيحس أنني خدعته، وأنه تورط بإعطائي خريطة. وربما أدى هذا إلى تغيير في مخططاتهم. أما إذا التقيت به وسايرته فسينسى مسألة الخريطة نهائياً.

* لكنك سايرته. أنا رأيتك تقبلينه.

– تتجسس علي؟ نحن هنا لكي نتجسس عليهم. وليس لكي يتجسس كل منا على الآخر.

* لم أكن أتجسس. خفت عليك حين غبت. وحين رأيتك تقبلينه، انسحبت.

– حسناً فعلت.

ولكنني مازلت أريد أن أسألك لماذا قبّلته؟ أو سمحت له بتقبيلك؟

– لكي لا يحس أنني محترفة. المحترفات لا يقبلن.

* ولكن أنت لست...

– أنا أقوم بعملي.

لم يفهم يوسف كثيراً. ولكنه لم يستطع أن يخفي امتعاضه من بقائها. وبعد مجيء الغواصة، وقيامه مع ليوفا بتسليم المعلومات والخرائط، رجعا إلى المختبر. ففتح يوسف قلبه لليوفا: لست مرتاحاً يا ليوفا. أحس أنني أتحول إلى قواد. ليتني لم ألحق بها. ليتها لم تتركني أعرف. ليت كلاً منا يشتغل شغله، ويجلب معلوماته وحده، دون أن يخبر الآخرين بكيفية الحصول عليها. هل يستطيع أحد التدخل؟ هل تعتقد أن نعمان يستطيع أن يكلمها في سلوكها هذا؟

تأثر ليوفا لانفعال يوسف، دون أن يلقي بأهمية حقيقية على ما تفعله سارة. وقد قال ذلك بشيء من الاستهتار لنعمان. فكرع نعمان كأسه وهو يقول: شرموطة شرموطة. أنا ما خصني؟ هل أنا ناطور على أكساس النسوان؟ المهم الشغل يمشي. ما تبقى كل إنسان يحمل مسؤولية نفسه. نحن اخترنا شغلة وسخة. ويجب أن لا نقرف من رائحتها، أو نتفاجأ بوساختها. لو ظلت إمكانية شغل في الهاشومير كان الواحد يرفع رأسه.

يحمل سلاحاً ويقاتل. أما بعد أن اخترنا هذا الطريق لسرقة المعلومات وتوصيلها، فالحل هو الحيلة. والحيلة تعني أن تصير وسخاً بإرادتك. أنا ماذا أفعل؟ ألا أتحمل خرينات أناس لا أتنازل بالبصاق عليهم؟ لماذا؟ الشغل هكذا. وفي شغلتنا نحن مثل النَّوَر. لا يسأل النوري حتى زوجته أين كانت، بل يسألها: ماذا جلبت؟ وهذا ما يهمنا الآن من سارة. لا يهمنا ماذا تفعل. بل يهمنا ماذا تجلب. نحن ما دخلنا؟ إذا كان هناك من يحق له التدخل فهو زوجها. ألله العليم أنها في اسطمبول أيضاً كانت تفتّ برة الصحن. ولذلك فإنه هو الذي طردها. أنا أعرف أنها كانت تعشق المرحوم أفشالوم. أما بعد أن ذهب فلا أعرف شيئاً. ثم من الذي يعض على ذنب هذا العرص بن العرص يوسف؟ يعني ضيّع أفشالوم وجاء يحل محله في كل شيء؟ في الشغل فهمناها. وفي فراش سارة أيضاً؟ يروح ينحرق هو وإياها. نحن ما دخلنا.

— ٥ —

كانت بهيجة تحس بحرقة الفرصة الضائعة. إبراهيم فرصة للعلاقة التي تروي عطشها وتعيد ملء حياتها دون أن تلفت الأنظار إليها، ودون أن تضطر للظهور بمظهر المرأة الرخيصة. هو موجود ضمن الدار. ووصولها إليه يتم دون لفت نظر.

ولكنها لم تفهم ما الذي جرى وجعله ينفر منها هكذا. أو

ما الذي منعه من إكمال ما بدآه. فقد اكتشفت بخبرتها أن تقديرها الأول لم يكن صحيحاً. إبراهيم، حين امتنع عنها، لم يفعل ذلك لأنه «خلّص» بسرعة اللقاء الأول. بل هناك شيء حدث. ولم تفهمه.

اقتحمت الغرفة والشرر يتطاير من عينيها: لماذا تهرب مني؟

وكأنه كان يتوقع منها هذه الهجمة. لم يتحرك من مكانه. تطلع إليها بهدوء: تفضلي. إجلسي.

بحدة تمنعها من البكاء ردت: أريد أن أفهم. لا أريد أن أجلس. ماذا فعلت لك؟ لا تريدني، أنت حر. ولكنك بهذه الحركات تحرجني أمام أبي وأمي.

— أية حركات؟ أنا لا أفعل شيئاً.

* لأنك لا تفعل شيئاً. أبي يسألني لماذا لم نعد نرى إبراهيم؟ وأمي تسألني: ماذا فعلت حتى زعّلت إبراهيم؟ لا يريان سبباً لامتناعك عن بيتنا إلا أن أكون قد زعّلتك. ماذا فعلت لك؟ قل لي.

لم يعرف بماذا سيجيب. حوّل نظره عنها نحو الكتاب الذي كان مفتوحاً أمامه. فاندفعت وأمسكت بالكتاب. وقذفت به نحو سقف الغرفة: لا تتشاغل بكتابك. قلبي مليء بكلام أكثر مما في كتبك كلها. إسمعني.

تطلع إليها بصمت. فوضعت يدها على خصرها: أنا لست رخيصة كما تظن. وإلا كنت خرجت إلى الشارع

واشتغلت ما تشتغله نصف نساء البلاد. أنت تعرف ما هو. أشتغل وأجلب نقوداً. ولكن إذا كنت قد ضعفت وعرضت عليك نفسي فلأنني من بني آدم. لا أعرف نفسي أرملة أم مطلقة أم زوجة مهجورة. أنا بشر. أنا وأنت في هذه الدار. كان طبيعياً أن أفكر فيك. إذا كنت لا تريدني فهذا شأنك. لستين جهنم. ولكن لا تجعلني أصغر أمام نفسي. ولا تضعني في مواجهة أهلي.

– وما علاقة أهلك بالأمر؟

* أهلي يخافون أن تزعلوا وتتركوا البيت. وأهلي لا يهمهم الآن إلا الإيجار الذي تدفعونه. أنا لست مشغولة على حالي. أستطيع أن أخرج اليوم من البيت وأؤمن نفسي. ولكن أنا مشغولة على أبي وأمي. هذا العجوزان لم يبق لهما أهل ولا ولد ولا رزق إلا أنا وهذا البيت. تعرف أن هناك من جاء وعرض أن يشتري البيت. أبي لم يرض. بعد أن باع كل ما يملكه في القرية بدأ يحس أنه قد أخطأ. لن يبيع شيئاً بعد الآن. قال: طالما إبراهيم وأبوه هنا ونأخذ منهما الإيجار فهي مستورة. تعرف ماذا يعني هذا الكلام؟ يعني إذا خرجتما سيبيع.

– نحن لن نخرج. وأبي باق هنا.

* وأنت؟

لم يجب. فأكملت: أعرف أنك متضايق من جيرتنا. أنت شاب متعلم. ولا تريد أن تبقى في جوار امرأة تعرض

نفسها عليك برخص.

نهض بحمية. وأمسك بكتفها: لا تغلطي. أنا أفهمك. أفهمك وأحترمك. وأحترم أباك وأمك. وما حدث بيننا لم يغير من الأمر شيئاً. أنا لست حاقداً عليك. بل حاقد على نفسي. أنا الذي أخشى أن تحتقريني. كان يجب أن أمنع الأمور من أن تصل بيننا إلى هذا الحد. ولكنني مشغول يا بهيجة. مشغول بنفسي. يجب أن أكمل تعليمي. ولكن ليس هناك تعليم. يجب أن أخرج من هذا البيت وأفعل شيئاً، بدل أن أظل فيه كالمُقعد. أحس نفسي عالة على أبي. وعالة عليك وعلى أبيك وأمك. أنا لا أفعل شيئاً. ولذلك لا أستطيع حتى أن أكون رجلاً معك. فهمت الآن؟ سأترك القدس وأعود إلى الشام أو بيروت. هناك أكون بعيداً عما يجري.

* وما الذي يجري؟

– صعب أن أشرح لك يا بهيجة. صعب. لن يفيد أن أحكي لك عن فلسطين واليهود والحرب. أريحي ذهنك من هذه الأمور. وقولي لي ما الذي تريدينني أن أفعله حتى ترضي.

* إرجع إلى أبي ولاعبه الضامة والمنقلة والورق. مازح أمي كما كنت تمازحها. إفعل ما كنت تفعله. وانسني أنا. دع أباك ووالديَ يحسَون أنك مرتاح هنا.

وبغتة جلست على الأرض وراحت تبكي.

ولم يعرف ما الذي عليه أن يفعله. كان يود أن يحتضنها ليواسيها. ولكن أية حركة من هذا النوع لن تُفهم بشكلها الصحيح. ففتح الباب وخرج.

وحين أحست أنها صارت وحيدة، راحت تشهق ببكائها، وكأنها ستختنق.

– ٦ –

دون أن ينظر إلى سميح كان نعمان يحس بحركته، وهو يتهيأ للنزول إلى القدس في إجازته التي طلبها. وقد حاول نعمان أن يثنيه عن عزمه على النزول دون فائدة. قال له: يا سميح. أنا حين قبلت أن أشغلك وأؤمن تهريبك كان هذا يعني أن أحميك. أنت هنا محمي. أما وأنت في القدس فلا أضمنك. فرد عليه سميح: أدبر رأسي.

ولكنه الآن، وقد عرف بأن لسميح صلة برئيس شرطة القدس، ندم لأنه شغَّله عنده. وبدأ ينظر إليه وكأنه ضابط شرطة متنكر. ألتر لم يخبره بذلك. لكنه اكتشف الأمر حين جاء عارف إلى الخمارة. كل ما قاله ألتر هو: إن هذا الشاب متعِب. وهو يقوم بنشاطه ضدنا لأنه لا يجد مكاناً آخر. الآن لدينا فرصة لاقتناصه. جريدته أغلقت. ومعلمه في السجن. شغَّله عندك إلى أن نؤمن تهجيره. وقد اقترح ألتر أن يذهب نعمان إلى الخمارة التي يسكر فيها سميح، أو إلى الكارخانة التي يتردد

عليها، لكي يلتقي به بالصدفة. وهناك يقترح عليه نعمان الشغل والاختباء. ولكن السؤال صار الآن: هل أنا اعترضت طريقه بناء على طلب ألتر؟ أم هو اعترض طريقي بناء على طلب عارف؟

طلب إلى أحد الشباب أن يركب الشاحنة مع الذاهبين إلى القدس لكي يراقب تحركات سميح. وفي القدس سيعاونه في ذلك آخرون، بحيث لا يضطر لملازمته دائماً.

– تريد نقوداً؟

قال سميح: لا. شكراً. أريد أن أصمد نقودي معك لكي لا تتبعزق.

هز نعمان رأسه دون أن ينظر إليه. وقام يلهي نفسه بأي شيء.

وحين وصل سميح إلى القدس توجه فوراً إلى منزل عارف. فتح له إبراهيم الباب. وقابله بنظرة عتب جارحة: فت. لكن واللّه حرام أن تدخل هذا البيت.

* أف. لماذا؟

– تشتغل عند اليهود يا طيزي؟

* قال لك أبوك. أليس كذلك؟ ماذا أفعل يا إبراهيم؟ قل لي.

– أما كنت تشتغل مع جريدة الكرمل؟

* وكان شغلي عال العال. ولكن لم يعد الشغل ممكناً.

صاروا يضيّقون علينا إلى درجة لا تطاق. انتقلت الضغوط إلينا كأشخاص. أنا نفسي أينما تحركت صرت أرى شرطياً يطلب هويتي، وورقة إعفائي من الجندية. أحسست أن تجار الأراضي الذين كنت أنقل أخبارهم إلى الجريدة هم الذين يحرضون الشرطة علي، مثلما حرضوها على نجيب نصار رئيس الجريدة حتى سجن.

* وماذا حدث حتى سجنوه؟

– قصة طويلة.

* أريد أن أسمعها.

– أعاد نشر قصيدة محمد جابر آل صفا المنشورة منذ المؤتمر السوري في باريس.

* وماذا في القصيدة؟

– تعرفها:

إذا جئت القرى ألفيت فيها

وطيس الجور يتقد اتقادا

ترى فيها نساء حاسرات

جياع الجوف لا يلقين زادا

أناديكم فهل منكم مجيب

ولكن لا حياة لمن يُنادى

بكيت دماً على الأوطان لما

رأيت الجور فيها قد تمادى

* وما المناسبة لإعادة نشرها؟

– باختصار، استولى اليهود على أرض في غور بيسان. وادّعوا أن أهلها قد تركوها. ثم ادعوا أن الأهالي قد أجّروها إلى إحدى الشركات. فنشر نجيب نصار المذكرة التي أرسلها أهالي الغور إلى المؤتمر السوري عام ١٩١٣. وفيها أن الأهالي يستنجدون برجالات سورية لمساعدتهم في المحافظة على أراضيهم وعدم موافقتهم على بيعها أو تأجيرها إلى أية شركة. فقامت قيامة اليهود وشغلوا الدولة عليه بأنه يؤلب الناس على الحكومة. فكان رد نجيب أنْ نشر تلك القصيدة تحدياً.

* وأنت ما علاقتك بهذا كله؟

– أنا موزع الجريدة ومراسلها في الدوائر. بشكل مفاجئ وجدت نفسي ملاحقاً. ماذا أفعل ونجيب نصار في السجن؟ يبدو الأمر جدياً هذه المرة. فقد نقلوه إلى السجن في دمشق.

– لماذا لم تأت إلى هنا؟

* يا أخي انحرجت. أبوك قائد شرطة. يستطيع أن يخفيك لأنك ابنه. أنا لماذا؟

– لأنك صاحبي.

* لا. هكذا نزيدها عليه. وقد نسيء إليه. المفروض أنه هو الذي سيقبض علينا ونطالبه بأن يخبئنا؟ أنت نفسك لا تستطيع أن تقول له إننا كنا...

– تتكلم بصيغة الجمع. من أنتم؟

ابتسم محرجاً: أنا ونادر.

* نادر؟

– نعم نادر. التقيت به منذ فترة.

* تلتقي بنادر ولا تقول لي؟

– هو لم يرد ذلك. كان مثلي محرجاً من المجيء إليك. الدنيا ضيقة في وجهه. فقرر الهجرة.

* وأين هو الآن؟

– هاجر إلى الأرجنتين.

* وكيف أمّن الخروج؟

– لا أعرف. التقى بأناس يحترفون تهريب الناس لقاء أجر معين.

* أقص يدي إن لم يكونوا من اليهود. وأنت. كيف أمنت الشغل في الخمارة؟

أطرق سميح محرجاً: بالصدفة التقيت بواحد اسمه نعمان بلكند في خمارة هنا في القدس. وشربنا معاً. سألني ماذا أشتغل. فحكيت له قصتي مع الصحافة، وأنني الآن بلا عمل. فقال إن لديه خمارة وهو يحتاج إلى من يشتغل معه. وقال لي: ما رأيك؟ تشتغل بأجرة، وتختفي عن عيون الشرطة. وتشرب مجاناً. رأيتها فرصة. ذهبت معه إلى روشيون لوزيون. الشغل معقول. والأجر جيد. وهناك حين رأيت كثرة تردد الضباط على الخمارة خطر لي أنهم ربما كانوا يتجسسون. ولكن حين

رأيت جهاز المورس تأكدت. أنا أنام في قبو الخمارة. وفي الليل أسمع أحياناً شغله على الجهاز. ما رأيك؟ قل لأبيك إذا أحب أن أقدم له أية خدمة...

– تريد أن تستر على فعلتك بأنك ستقدم خدمة وطنية.

* أية فعلة يا إبراهيم؟ أنا أشتغل لآكل وأنام بأمان. نصف العمال الذين في المستوطنات من أولاد العرب.

– إسمع يا سميح. تذكر أن أحرف اسمك هي أحرف المسيح. ولكن هؤلاء اليهود لم يوفروا المسيح نفسه. أترك هذا الشغل وتعال. أنا أؤمنك إلى دمشق.

* كيف؟

– تريد العنب أم قتل الناطور؟

* قل لي كيف.

– يا أخي أبي يؤمنك. سأجعله يرسلك بصفتك سجيناً. وعند مدخل دمشق يتركونك. يرضيك هذا؟ وأنا أيضا أذهب معك. أنا أرى أن بقائي هنا بلا معنى. كذبنا سابقاً كذبة يبدو أنها ستكون هي الحل. سأذهب معك إلى قريتك. سنعمل مثل اليهود. نشتغل في قرانا. نقيم فيها مستوطنات.

ضحك سميح: ألا تلاحظ أننا لا نعرف ماذا نفعل؟ لا في السياسة زبطت. ولا في الثقافة ولا في التنظيمات. الآن تريد أن نحول قرانا إلى مستوطنات. وقرانا تكاد تفرغ

من سكانها بسبب الجيش والهرب والهجرة والضرائب والجفاف. كأن كل شيء مرسوم ليعقد حياتنا ويسهل عمل اليهود.

– هيا بنا نخرج.

* إلى أين؟ دعنا هنا. قل لي ماذا حدث بينك وبين جارتك؟ ألم تزبطها؟

– لا شيء يزبط يا سميح. لا شيء يزبط. كما قلت أنت. كل شيء معقد. دعنا نخرج قبل أن تقتحم البيت علينا بحجة تضييفك.

* إسمع. أخرج إذا كنت تريد أن تخرج. وأنا أنتظرها هنا. لعل الله يهديها وتأتي لتضيّفني.

– إي تلحس حلب. وبعدها أنطاكية. قم. قم.

الفصل الثالث والعشرون

– ١ –

لم يستطع جمال باشا أن يمنح سارة الوقت الذي كان يريده. فالأوضاع على الجبهة تزداد سوءاً. والدلائل كلها تشير إلى أن الإنكليز مصممون على اقتحام خط الجبهة الفلسطينية. وتدل تقارير الاستخبارات على قدوم تعزيزات كبيرة إلى مصر من غاليبولي التي انسحبوا منها مخزيين، ومن أوروبا التي تجمدت الحالة العسكرية فيها. وعلى الرغم من حساسية الوضع على هذه الجبهة فإن أنور باشا، الذي يحلم أنه سيصبح نابليون، لا يرى ذلك يتحقق إلا بوضع العراقيل في طريق جمال، والتصامم عن نداءاته المتكررة بوجوب دعم الجبهة الغربية في فلسطين.

وقدم عامل الشيفرة ثلاث برقيات متبادلة بين جمال باشا وأنور باشا إلى ألتر. فقام بإرسالها فوراً إلى الإنكليز. وكلها تشير إلى أن أنور معني بتدمير جمال ولو كان ذلك يعني تدمير جبهة فلسطين.

ونتيجة لإلحاح جمال على ضرورة دعم هذه الجبهة وجهت الدعوة لعقد مؤتمر لكبار ضباط الجيش العثماني في حلب.

غاب جمال عدة أيام في المؤتمر ورجع إلى القدس.

وأوصل ألتر إلى سارة أن تعرف نتيجة المؤتمر. وعلى الرغم من أن نتيجة المؤتمر لم تكن كما يشتهي جمال، إلا أن سروره كان لا يوصف حين قال له الحاجب إن الليدي سارة تريد أن تسلم عليه.

اندفع إلى الباب يستقبلها: فعلاً الصديق وقت الضيق.

* كله إلا أن يتضايق الباشا. خير؟ خير؟ ما الذي يضايقك يا باشا؟

– لا أريد أن أضيع هذا اللقاء الحلو بالحديث عن خنازير.

وضحكت ضحكتها المفرقعة: خنازير؟ منذ متى يهتم المسلم أو اليهودي بالخنازير؟

وضحك مجدداً إعجابه بلماحتها. جلست ولفت ساقا على ساق: فسارع يقدم لها سيكارة.

قالت: قلقت عليك. لم أرك منذ زمن طويل.

– طويل؟ كلها عدة أيام.

* هذا ما يراه العشاق طويلاً.

– يا سلام. هذا ما يريح الأعصاب فعلاً. حديث العشق.

* قلت لنفسي آتي أنا وأسلم بما أن الباشا لم يعد يسأل. ولكن طالما أنك تضحك، ولديك الاستعداد للحديث عن العشق أو سماعه، فمعنى هذا أن سفرتك موفقة.

أشعل سيجارة لنفسه وهو يجلس: لا والله يا سارة ليست موفقة. مشكلتنا أننا نتصارع مع بعضنا أكثر مما

نتصارع مع الإنكليز. أنور باشا يتعامل معي كأنني ضرته. أطلب قوات لدعم الجبهة فيفهمها قوات لدعم نفوذي. ولذلك فهو يحجب القوات عني. ويضعف الجبهة معتقداً أنه يضعف نفوذي. وينسى ماذا يعني هذا الإضعاف في المواجهة مع الإنكليز. أناس عقلها مركب بالغلط. أمبراطور ألمانيا مهتم بسكة حديد بغداد. لذلك دينه ورأس سكينه يريد تحرير بغداد. ولك يا عمي لا تغلطوا. صحيح الإنكليز احتلوا بغداد لكن قواتهم لا تستطيع تطوير هجومها. القوة الأساسية مع أللنبي في مصر. لا. بغداد. يعني – عدم المؤاخذة – مثل من ترفع ثوبها لتغطي رأسها فتكشف عن طيزها.

وتضحك معه لكنها تريد أن تطمئن عليه: نمت في فندق بحلب؟

* إذا كنت قد نمت. قضيناها صراخاً ومناقشات في فندق بارون.

– المهم النتيجة. إن شاء الله كانت كما تريد.

* والله يا سارة الحالة خربانة. العرب فائرون وخاصة بعد عصيان الشريف. وقلبي غير مطمئن للقوات العربية عندي. نشف ريقي وأنا أطلب من جماعتنا: إذا كانوا لا يريدون إرسال قوات جديدة فعلى الأقل يستبدلون الفرقة ٦٢ التي في درعا والفرقة ٧٢ التي في بئر السبع. الفرقتان جنودهما وضباطهما عرب. يا عمي خذوهما

وأعطوني بدلاً منهما قوات تركية. لا فائدة. والله والله كأنني أشوفها بعيني. إذا، لا سمح الله، تراجعنا، أو ظهر علينا الضعف سيأكلنا العرب بلا ملح.

– ولكنني رأيت طائرات جديدة في الأجواء. أليست لنا؟

*نعم يا ستي. طائرات ألمانية. أرسلوا ثلاثين طائرة وفرقة ألمانية ولكن لماذا؟ لتقوية الجبهة؟ لا والله. لإضعافي. هؤلاء الألمان لا يتلقون أوامرهم مني. أوامرهم من فالكنهايم فقط. سمع الإنكليز بالطائرات قبلي. تبين لي أن ألتر ليفي يشغّل عناصره فينقلون كل شيء إلى الإنكليز.

– متأكد أنه ألتر ليفي؟

* طبعاً. جواسيسنا في مصر أكدوا لنا ذلك.

نهضت. فقام مندهشاً: أين؟

– سأعود إلى عتليت قبل أن يتأخر الوقت.

* وماذا في عتليت؟ تبقين هنا ونسهر معاً. أريد أن أصفّي رأسي من اللغط الذي سمعته خلال هذين اليومين. أنا متضايق. ألم نقل الصديق وقت الضيق؟ قولي لي هل عاد ألتر ليفي لمضايقتك؟

– وهل يجرؤ بعد أن عرف أنني أوصلت لك الأمر.

* وعارف.

– عارف على سلامته. مهيوب. يبدو أن ألتر ليفي

يخاف منه. ولكن تعرف يا باشا. أظن أنك يجب أن تؤجل تسليمه بيت السكاكيني.

* لماذا؟

– أنت تقول إن أولاد العرب قد يعملون وجعة رأس. وعارف عربي. قد يميل إلى أبناء ملته. ولكن إذا ظل يأمل في البيت فإنه سيظل يطلب رضاكم. ولن يأتي بأية حركة.

* كلك حِكم.

– ٢ –

معرفة عارف بعلي فؤاد باشا خففت من حرجه تجاه البرقية التي جاءت من اسطمبول: الأسرار العسكرية والحربية تتسرب إلى العدو بشكل مفضوح ونحن مكشوفون أمامه. يجب العمل على وضع حد لذلك. يجب القبض على ألتر ليفي. كل ما لدينا يصل إلى الإنكليز عن طريقه.

أرسل علي يطلب عارف. وحين مثل بين يديه شرح له الموقف. وقال له إن المكان الوحيد الذي يمكن أن تقترب منه السفن أو الغواصات المعادية دون أن نعرف بها هو في مواجهة عتليت. يجب معرفة مواعيد الزيارات ومراقبة طرق الاتصال. ما رأيك لو تتولى هذه المهمة؟

– ولكنني مكشوف. أنا رئيس شرطة لواء القدس.

والكل يعرفونني. مكافحة الجواسيس يا باشا تتطلب إنساناً يستطيع مفاجأة خصمه. أنا وراء ألتر ليفي طوال هذه المدة ولم أستطع مفاجأته.

* لن تعوزك الحيلة. أنت أبوها. وكل ما تريد من إمكانات تحت تصرفك. وسيكون على خط واحد معك عدنان بك ونهال حامد. ولديهما ما يفيدك ويسهل مهمتك.

– يا سيدي. أبعد النسوان عن شغلي. ألله يخليك.

* إنهما في منطقتك وسيتلقيان أوامرهما منك مباشرة.

وفتح الباب فدخل مدحت بك متصرف القدس المستقل. ابتسم لعارف وسلم عليه. ثم فتح الموضوع مباشرة: المسألة أكبر من مسألة الجواسيس. المزارع اليهودية صارت ملاجئ للهاربين من الجيش. هل قرأت تقرير نهال حامد؟

تطلع عارف إلى فؤاد باشا منتظراً التوضيح.

– نهال نجحت في اعتقال جاسوسين في بيروت. وهما اللذان حددا أن مختبر عتليت يستخدم للاتصال بالعدو. وأن غواصة تأتي إلى مقابل الشاطئ هناك مرتين في الشهر.

وأضاف مدحت: هناك شخص اسمه يوسف ليشانسكي. يقال إنه خطيب سارة آرونسون أو عشيقها. كان يحاول عبور الصحراء نحو مصر ومعه شخص آخر تبين أن

اسمه أفشالوم فينبرغ. هذا قتل. أما يوسف فقد اختفى. كان الظن أنه قد هرب إلى مصر. ولكن المخبرين يؤكدون أنه رجع.

سأل عارف: هل حدد أحد مكانه؟

قالت التقارير الأولى إنه يتردد على قيساريا ويختبئ فيها. هو إما هناك أو في عتليت.

أمسك عارف التقرير ونهض. فقال له الباشا: متى نسمع منك؟

قال عارف: اتركها على التيسير.

وخرج.

ظل مدحت بك وعلي باشا وحدهما. قال مدحت باسماً: لم أستغرب أن تخاطبك اسطمبول مباشرة وتتجاهل جمال باشا. يبدو أنك بدأت تمارس مهامك الجديدة منذ الآن.

ابتسم علي مواربًا وقال: أية مهام جديدة؟

– الناس كلهم لا حديث لهم إلا أن علي فؤاد باشا سيحل محل جمال باشا.

ابتسم علي بحرج.

قال مدحت: تريد الصراحة؟ صار الأمر لا يطاق. أقصد من الناحية العسكرية. الحساسية بين جمال والألمان جمدت الجيش كله. يجب أن يتنازل أحدهما للآخر.

* جمال طلب مني أن أرافقه إلى بيروت. يبدو أنه فهم

معنى إرساله إلى ألمانيا. وفهم أن ذهابه هذه المرة بلا عودة.

— ٣ —

نهال تتمكن من ذلك؟ يبدو فعلاً أن هناك أموراً تتمكن المرأة من القيام بها ولا يستطيعها الرجال. على بال من تخطر تلك الحيلة الجهنمية التي قتلت فيها ذلك اليهودي الهارب؟ ثم كيف تمكنت من هذين الجاسوسين؟ أعوذ بالله من مكر حواء. من يستطيع أن يقاومها؟ ولكن المهم أنها قد حددت المكان الذي يجب أن يبدأ به. عتليت.

وقفز ذهنه فوراً إلى سارة. من يستطيع أن يقاوم تلك أيضاً؟ هل يترك لنهال أن تتفرغ لسارة؟ امرأة تصارع امرأة. لا. لن يتنازل عن مهمته لأحد. سارة من اختصاصه هو. سيثبت تفوقه على الجميع. وعلى سارة بالتحديد. تفوقه عليها وامتناعه عليها. سيعرف كيف يستعيد قوته أمامها. وسيعرف كيف يصل من خلالها إلى ألتر ليفي.

— ٤ —

التقى عارف وعدنان. ولم يبد عدنان أي حرج في أن يترأس عارف بك الجلسة وأن يصبح هو الآمر. قال عدنان: نستطيع ببساطة أن نشن حملة ونقتل كل من نشتبه فيه أنه جاسوس.

قال عارف: هذا هو الحل السهل الذي لا أريد أن نلجأ إليه لأنه لا يفيدنا. مطاردة الجاسوس لا تهدف إلى قتله بل إلى الإمساك به.

واسترخى عارف يشرح وجهة نظره: سمعت بالطير الحر؟ الطير الحر طائر من الجوارح. يستخدم للصيد. وهو نادر الوجود. يصطادون أعداداً قليلة منه في بادية الشام. ولذلك ثمنه غال جداً. ولا تجده إلا عند كبار الأمراء والمشايخ والباشوات من هواة الصيد بالطير.

سأله عدنان: إلى أين تريد أن تصل يا عارف بك؟

– المهم ليس فهم كيف يقوم الطير الحر بالصيد. المهم كيف تصطاد أنت الطير الحر نفسه. إذا كسرت منه ريشة واحدة هبط سعره ما يعادل هبوط سعر الفرس الأصيلة إذا كانت عرجاء. يجب القبض عليه دون أن يلحق به أي أذى ودون أن نكسر ريشة منه.

ثم تطلع إليه باسماً: هكذا يجب أن نصطاد الجاسوس. فإذا كان سليماً معافى واستطعنا أن نحقق معه جيداً، استخدمناه للصيد مثلما يستخدمون الطير الحر للصيد. نصطاد به جواسيس آخرين. أو نصطاد به العدو الذي كان يتصل به بتمرير ما نريد من المعلومات عن طريقه.

– وهل هناك طريقة لصيده؟

* الدبق. أو الشبك.

قالت سارة: أنا أقترح أن نشيع بين الملة كلها في المزارع والمستوطنات والمدن ضرورة عدم إيواء الجنود الهاربين بعد اليوم. يجب أن لا تلين قلوبهم. ويجب أن لا نعرف شفقة حتى لو ارتمى الناس على أبوابنا ميتين جوعاً.

لم يستطع ليوفا تحمل بشاعة الصورة التي ترسم من خلال كلام سارة. وأحس بنفسه يتضاءل أمام قسوتها وانعدام حتى الليونة الأنثوية منها. قال: أليست هذه وحشية؟

قالت: ليوفا. هذا ليس وقت الشعر. نحن نبحث في مصير الشعب اليهودي.

قال: أفهم أنها تعاليم التوراة؟

أجابت: لا أعرف. ولكنها تعاليم الحرب. حرب الوجود. ولا مجال للشفقة في حرب الوجود.

قال: وما الهدف؟ ما ذنب هؤلاء الناس؟ هل هم أعداؤنا أيضاً؟

قالت: هم أعداؤنا طبعاً. لكنهم الأعداء للمرحلة القادمة. وكلما ازدادوا ضعفاً وعجزاً سهلت معركتنا القادمة معهم. كلما مات منهم أكبر عدد ممكن وهاجر أكبر عدد كان ذلك لمصلحتنا على المدى البعيد. نستولي على أراضيهم أو نشتريها منذ الآن. في النهاية ستكون هذه الأرض لنا أو لهم. أما بالنسبة لهذه المرحلة فيجب أن لا

تجد هذه الدولة رِجلاً تقف عليها. لن تهزم من الخارج فقط بل ستتقوض من الداخل. تعرفون كيف انتصر لينين على القيصر؟ هو ورفاقه كانوا قلة. أقل منا عدداً. لكنهم استثمروا ويلات الحرب لكي يجعلوا الناس تزداد نقمة. وبحيث إنه حين قامت الثورة لم تجد الدولة لها دعماً فانهارت.

قال يوسف: المفروض أن ليوفا هو الأكثر تفنناً في صياغة الأفكار عن انهيار الدول.

ابتسم ليوفا بهدوء وقد ارتد إليه شيء من اعتباره لنفسه. فقرر أن يعزف على وتر سارة بدلاً من مجادلتها: حتى لو أن سارة لم تقرأ التوراة فهي تتحدث في جوهره. إسمعوا ماذا جاء في سفر العدد: «وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم. ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها».

— وما الاقتراح؟

* ما نفعله هو المطلوب. هناك نوع من النمل يحس بالخطر فيبحث عن مخبأ ويتفنن في مداخله ومخارجه. يرى تلاً كبيراً فيبدأ بالدخول فيه. يفتح فيه دروباً وأنفاقاً ثم يفتح ملاجئ. وبعد فترة من الزمن يظل للتل شكل التل. لكنه من الداخل فارغ ومقوض. لا يحتاج إلا إلى من يدوس فوقه لينهار كله مثل قبة من

خيوط العنكبوت. أللنبي قادم ليدوس على التل بقدم ثقيلة. ولكن نحن والعرب والأرمن كنا ذلك النمل. الدولة العلية الآن علية شكلاً. لكنها عملياً لم تعد دولة.

صرفتهم بعد أن أبلغتهم أنها لن تراهم في الأيام القادمة. وأن عليهم أن لا يبحثوا عنها أو يحاولوا الاتصال بها. بل أن ينتظروا اتصالها هي. ويفضل أن لا يترددوا على المختبر في الأيام القادمة.

ودون أن يفهموا سبب ذلك خرجوا. فقد كانوا يعرفون أن من الأفضل عدم مناقشة التفاصيل.

أما هي فقد كانت تريد أن تبقى وحدها لكي تتهيأ للسفر إلى مصر.

آرون أرسل يطلبها.

هي الزعيمة هنا وستذهب إلى القيادة العليا. إلى آرون.

سيكون جميلاً أن تلتقي بآرون. آرون الربان الذي لا تشوّشه العواصف. يحسب حساب كل شيء. يحمل مسؤولية شعب. ويملك معرفة تفوق ما تملكه جامعة. في قلبه متسع كاف لأن يكون ابناً وأخاً. مشتاق إليها بقدر ما هي مشتاقة إليه. لا شك أنه يريد أيضاً أن يواسيها في فقدان أفشالوم. واضح أنه مرتاح لشغلها. وفخور بها. هذا واضح من رسالته. ويريدها أن توافيه إلى مصر. هل يسألها كيف تحصل على المعلومات؟ لا. آرون ذكي. يعرف بالتأكيد أنها تستخدم سلاح الأنثى.

وهو نفسه ارتاح لاهتمام جمال باشا بها قبل سفره. ولكن هل يعرف آرون إلى أي حد تصل في استخدام سلاحها الأنثوي؟ وحسمت أمرها: إلى حد تأمين المعلومات المطلوبة.

وسمعت صوت العربة فأطلت متوترة.

وفوجئت أن أباها هو الذي في العربة. خرجت مهتمة لملاقاته. لكنه لم ينزل من العربة: إسمعي يا سارة. أنا عجوز لا أستطيع أن آخذ وأعطي كثيراً. كلمتان على السريع، وسأعود فوراً. هذا الذي تفعلينه لن يمر على خير.

– ما الذي أفعله؟

* ما تفعلينه لم يعد سراً. الجميع يعرفون الآن. ما لنا وللإنكليز يا بنتي؟

– خوّفك هؤلاء الخرفانون؟

* لا يا سارة. أنا لا يخيفني أحد. وحتى لو كبرت في العمر فأنا مازلت أرى جيداً. وأنا أرى الآن كم أنت متهورة. ما لنا وللإنكليز؟

– سيساعدوننا على الخلاص من العثمانيين.

* لنقع تحت سيطرة الإنكليز. هذا إذا استطاع الإنكليز فعلاً أن يهزموا العثمانيين. يا بنتي، نحن لا نريد الخلاص من هذا لنجلب ذاك. ما نريده هو أن نخلص من الجميع.

– وهذا ما أسعى إليه.

* لا. مع الأتراك الحالة أفضل. هؤلاء أغبياء وجهلة. ونحن نشتري الأراضي ونأخذها بالحيلة. المهاجرون يأتون على مهل. صرنا نعرف كيف نتسرب من منافذها. بل الدولة ذاتها تخاف منا أحياناً.

– ولكن نحن نظل خائفين منها دائماً.

* كما نخاف من غيرها. إلى أن ننجح في أخذ أرض إسرائيل. لكن على طريقة وايزمن: دونم آخر، عنزة أخرى.

– وايزمن ليس نبياً. له رأيه ولنا رأينا.

* أنت ستقفين ضد وايزمن؟ وايزمن نفسه قال إن الدولة لن تقوم قبل خمسين سنة.

– لا أريد أن أقف ضد وايزمن. ولكن آرون وقف مرة ضده وتعلم على طريقته هو، ولم يسمع نصيحة وايزمن. وتبين أن آرون على حق. وأنا سأمضي في طريق آرون. وايزمن طريقه طويل.

* سيطول الطريق أكثر إذا جاء الإنكليز. عدو جديد قوي ومتمدن. العثمانيون أفضل لنا. متخلفون ومهلهلون. ألف ثغرة في نظامهم وقوانينهم ننفذ منها.

– لماذا تعتبر الإنكليز أعداء؟

* هل هم أصدقاء؟

– طبعاً.

* ولكنهم أصدقاء العرب. هم متحالفون مع الشريف حسين. يعني أن العرب سيزدادون قوة. ألا ترون أبعد من أنوفكم؟ ألا ترون أن معركتنا الحقيقية في المستقبل ستكون مع العرب؟ إسمعي. إذا أردنا أن نكسب هذه المعركة يجب أن لا يغيب عن عيوننا العدو الحقيقي ولو للحظة واحدة.

* تريدنا أن نشتبك مع العرب؟

* ولماذا الاشتباك؟ إننا نزيحهم عن الأرض شبراً فشبراً. وفي كل شبر نكسبه نمد جذوراً ونبني متراساً. دعونا نكمل الشغل على طريقتنا. لا تدخلوا في لعبة الدول والحروب.

– أبي. يستطيع كل منا أن يشتغل على طريقته، طالما أن الهدف واحد.

* لا يا سارة. لا. أنت تشوشين علينا. حين تنكشفين لا تقع البلوى عليك وحدك. ستقع علينا كلنا. أنا أبوك. ولكن الآخرين ليسوا أهلك. وليسوا مستعدين أن يسلموك مصيرهم. سيمنعونك من أن تسببي لهم الأذى بأية طريقة. تفهمين؟ لن يتركوك تستمرين في اللعب مع هؤلاء الصبيان.

– أبي. لا تخف علي. إرجع إلى البيت وكن مطمئناً. جاء دورك لترتاح. إرتح ودعنا نشتغل.

ارتعش وجهه وكأنه سيبكي: لم أعد أحتمل يا سارة.

رفقة وألكسي وآرون. ثم أنت. لا أريد أن أخسرك أنت أيضاً. إن جماعتنا لا يتورعون عن شيء إذا تعلق الأمر بحماية أنفسهم. قد يقتلونك.

كان عليها أن تبلغه أن آرون بخير. وأنها ذاهبة للقائه. هذا أب ومن حقه أن يعرف، وأن يطمئن على ابنه. مرة أخرى رنت كلمات ألتر في ذهنها: لماذا تتصورين أنك الوحيدة التي تربطك بهؤلاء روابط شخصية؟ لكنها خشيت أن يطغى قلقه من المغامرة الجديدة المتمثلة في التسلل إلى مصر على ارتياحه للاطمئنان على ابنه. فسكتت.

أدار الجواد والتف بالعربة عائداً.

— أبي. إبق حتى الصباح.

ولم يرد.

تابعته بنظرها مشفقة على هذا العجوز الذي يتحمل أعباء أولاده وأولاده لا يهدأون. لكنها ارتاحت لذهابه. ستنصرف الآن لترتيب شؤون سفرها.

آرون ينتظر.

— ٦ —

* أين كان حضرة الأستاذ؟

بادره نعمان وهو يقف بباب الخمارة. فتلكأ سميح وتلعثم قليلاً وهو يجيب: كنت في القدس كما تعرف يا معلمي. وتأخرت قليلاً.

* وماذا فعلت في القدس؟

– كنت.. كان عندي شغل. أهلي.. يجب أن أسافر إلى الشام. جئت آخذ حسابي وأذهب.

* ألم تكن تريد الهجرة إلى الأرجنتين؟

– غيّرت رأيي. سأذهب إلى الشام. أعطني حسابي.

* إي تكرم عينك. شوف الشغل الآن. والصباح رباح.

ودخل يشتغل.

لكن نعمان لم يعد دمه يحمله. نزل إلى القبو وطلب من سميح أن ينزل وراءه لإخراج صندوق مشروب. وحين صارا في أعماق القبو المعتم قال له نعمان: قلت لي تريد حسابك لتذهب؟ والتفت إليه بعينيه الحمراوين: تظن الطلعة من الحمام مثل دخوله. وعاجله بصفعة عنيفة ألقته أرضاً، وأحس لها بشرارة تنطلق من عينيه.

* قرَ ولاك. لماذا نزلت إلى القدس؟

– الله وكيلك نزلت أشوف واحد صاحبي.

* صاحبك أم الشرطة؟

– وصلاة محمد صاحبي.

رفسه في بطنه رفسة عنيفة: ليك ولاك. لا السماء ترفعك ولا الأرض تبلعك. وإذا ظللت تصرخ حتى الغد لن يسمعك أحد. ستقول لي: اتصالك مع من؟ وما علاقتك بعارف إبراهيم؟

أحس سميح أنه غريب ووحيد ومحاصر. أكثر من ذلك

أحس أنه ضعيف. وتمنى لو أن إبراهيم يظهر له الآن بمعجزة ما. انفجر بالبكاء: وكيلك الله لا علاقة لي به. ابنه رفيقي.

* من أين رفقتك معه؟

– من المدرسة. انحبسنا معا في الشام وهربنا معاً.

* ولم الحبس؟

– أعمال وطنية. اشتغلنا ضد الأتراك. يعني نحن مثلكم نشتغل ضد الأتراك.

* وهل نحن نشتغل ضد الأتراك؟

– ألا تشتغلون؟ ظننت أنكم تشتغلون.

* وهذا ما قلته لعارف إبراهيم؟

– وكيلك الله لم أره.

* لكنك رأيت ابنه. هل أوصلت له ما يجب أن يقوله لأبيه؟

ودخل ليوفا: نعمان! ماذا تفعل عندك؟

قال نعمان وهو يلهث غيظاً: لا شيء.

أقفل الباب وخرجا. وظل سميح في عتمة القبو. فجلس يبكي.

بعد قليل سأل نفسه: ماذا سيفعل به نعمان؟ هل يبلغ الشرطة عنه؟ لا. لن يجرؤ. فهو لا يحب دخول الدوريات ومجيء الشرطة إلى الخمارة أو إلى روشيون لوزيون. خاصة مع وجود هذا المورس المشبوه. هل

سيطرده؟ لو كان سيفعل ذلك لماذا يحبسه هنا إذن؟ هل سيضربونه ثم يطردونه دون نقود؟ لو فعلوا ذلك سينزل هذه المرة إلى عارف بك فعلاً ليحصل له حقه بنفسه. هم أصلاً يعرفون أنه على صلة بعارف. ماذا سيفعلون إذن؟ هل سيقتلونه؟

— ٧ —

قال عدنان يحدث عارف بالهاتف من بيروت: إسمع. تذكر سارة آرونسون؟ نعم. نعم. التي كانت تحضر سهرات الباشا. هي الآن في مصر. رأيت صورتها في جريدة. وأحد جواسيسنا أرسل لنا أنها هناك مع أخيها آرون. بحثنا هنا في كل مكان فلم نعرف كيف خرجت. لا من بيروت ولا من اسطمبول. حاول أن تتأكد إذا كانت قد خرجت من حيفا أو من يافا.

* ولماذا التأكد؟

— لأنها إن لم تكن قد خرجت بطريقة رسمية فهذا يعني أن هناك طريقة أخرى. وبهذه الطريقة يتسلل اليهود وغيرهم. حاول أن تتأكد بنفسك. لا نريدهم أن يحسوا بأننا انتبهنا.

غاب عارف عدة أيام، ذهب خلالها إلى يافا وقابل ضابط الهجرة الذي جلب سجلات المغادرين. فلم يجدوا اسم سارة أفراييم آرونسون. وحاول الضابط أن يتصل بميناء حيفا. لكن عارف فضل أن لا يتم الحديث عن

هذا الموضوع بالهاتف. سيذهب بنفسه.

وحين خرج من يافا قرر الدخول إلى تل أبيب على أمل أن يسمع شيئاً أو يرى ما يفيده. لكنه أينما تحرك كانت العيون تترصده بحذر. وأحس أن الجميع يعرفونه وأن هناك خيوطاً خفية تربط هؤلاء الناس فيما بينهم. هناك من يحرك هذه الخيوط فيجعل المدينة كلها تعرف بوجوده منذ أن لمحه أول إنسان فيها. تخفت الأصوات وتقل الحركة وتحاصره العيون.

أدرك أن لا معنى لوجوده في هذه المدينة. فتوجه شمالاً إلى حيفا. ولم يكن حظه في حيفا بأحسن من حظه في يافا. لا ذكر لاسم سارة في السجلات. الحل هو الذهاب إلى زخرون ياغوف.

توجه إلى هناك وسأل عن بيت أفراييم آرونسون. وحين قرع الباب فتح له زيفي: نعم؟

* أريد سارة. أين هي؟

– لا نعرف.

وخرج الأب من وراء ابنه: ماذا تريد من سارة؟

* أريد أن أراها. أنا عارف إبراهيم رئيس شرطة لواء القدس.

– تشرفنا. تفضل.

* شكراً. أريد سارة.

– سارة يا إبني ليست هنا.

* أين هي؟

– لا نعرف.

* متى رأيتها آخر مرة؟

– نحن لا نراها. هي تأتي وترانا. إذا كنت تريدها لماذا لا تذهب إلى المختبر في عتليت؟

* هل هي هناك؟

– هي دائماً هناك أو في القدس.

* يعني ليست في مصر؟

– وماذا يأخذها إلى مصر؟ إذهب معه يا زيفي. دله على المختبر.

* لا. لا حاجة. أعرف أين هو المختبر. سأذهب بنفسي.

وحين وصل رأى راب يشتغل في الحديقة. سأله عن سارة فأجاب أنها في الداخل.

استغرب عارف: قل لها إنني أريد أن أراها.

سبقه راب راكضاً ومشى عارف وراءه. وقبل أن يصل كانت سارة تقف مستندة إلى تمثال الأسد الحجري عند المدخل وهي ترمقه باستهتار: أهلاً يا بيك. رأيتك من النافذة فاستغربت.

قال لها: سارة. دون لف ودوران. متى عدت من مصر؟

قالت مندهشة: مصر؟ وما الذي سيأخذني إلى مصر؟

* نشرت صورة في جريدة مصرية كنت فيها.

قالت ضاحكة: وتنشر الجرائد صورتي؟ يا ليت يا عارف

بيك. ولماذا تنشر الجرائد صورتي؟ هل أنا نجمة غناء أم رقص؟ أمن أجل ذلك ذهبت إلى تل أبيب؟

* وما أدراك أنني ذهبت؟

* وهل يذهب رئيس الشرطة سراً؟ ثم يبدو أنك نسيت أن تل أبيب مدينة يهودية صافية. وبنوع من الاستخفاف بما يسعى إليه، استرسلت تحكي له: ورد في سفر قزحيال أن أحد المواقع اليهودية في بابل القديمة كان يحمل اسم تل أبيب. الحديث في التاريخ طويل يا بيك. وقد تأخر الوقت. وأنا لا أستطيع أن أدعوك إلى شيء. أنا وحدي. ولا أستطيع أن أدخل غريباً إلى بيتي.

* بسيطة.

الفصل الرابع والعشرون

- ١ -

بناء على اقتراح من فالكنهايم اجتمع أنور وطلعت وخليل بقيادة الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، وقرروا إلغاء الجيش الرابع واستبداله بجيش عام للبلاد العربية كلها. وأبقي الأمر سراً خوفاً من تمرد جمال باشا. واستدعي جمال المرسيني، الملقب بالصغير تمييزاً له عن أحمد جمال باشا، لتكليفه بقيادة الجيش في الشام بعد المرحلة الانتقالية التي سيستلم فيها علي فؤاد باشا القيادة من جمال. وكان رضاهم عليه نابعاً من الحكمة التي أبداها: لا يمكن الانتصار على الإنكليز إلا بعد مصالحة العرب. ولا بد أن أنور باشا يعرف ذلك من خلال تجربته في ليبيا. وبما أن جمال باشا هو الذي أعدم العرب، فستكون الخطوة الأولى في اجتذاب العرب هي عزل جمال. ولكن لكي لا يقوم جمال بأي تمرد، تقرر أن توجه إليه القيادة الألمانية دعوة لزيارة برلين. هذا سيجعله يسلم القيادة لعلي باشا تلقائياً. وبعدها تهون الأمور.

وفي طريقه إلى بيروت ومعه علي باشا أدرك جمال باشا اللعبة. كان منكسراً فاقداً لعصبيته المألوفة عنه. وحين جلس في شرفة فندق شاهين في عاليه كان

يبدو على وجهه أنه يشرب ماء النرجيلة التي يدخنها. ملامحه لا توحي إلا بالقرف من كل شيء. ولهذا لم يبد عليه أنه مجروح وهو يسلم القيادة العسكرية لعلي باشا.

قال له: أنت تستحق. وقد كنت صديقي ورئيس أركاني الكفء. الحمد لله أنهم رشحوك أنت ولم يرشحوا غيرك من أولئك الخروات. على أية حال يا علي أنا ذاهب.

* طول بالك يا باشا. قد تكون المسألة مؤقتة.

– لم يعد الأمر يحتاج إلى المجاملات ولا إلى المماطلة. أنا أعرف أنهم يريدونني أن أذهب إلى ألمانيا لكي يمنعوني من العودة إلى هنا. ليست مشكلة. سأبقى هنا فترة أستريح فيها ثم أغادر.

نهض من جلسته ودخل إلى الصالون وكأنه كان يخشى أن يرى عابر ما ذلك الحزن العميق الذي كسا ملامحه: ما يحزنني يا علي هو أنهم لم يعطوني فرصة. كأنهم قالوا لك أهدم بيروت وابنِ مدينة جديدة مكانها. تضع مخططاتك وتبدأ عملية الهدم. وحين تريد أن تنتقل إلى البناء يبدأون بوضع العراقيل في طريقك. فلا تحس فقط أن مشروعك سيفشل. بل تحس أن هناك وصمة قد التصقت بك. فأنت لست إلا هادم بيروت. وسيحاولون هم أن يحملوا شرف بناء المدينة الجديدة. الأمر شبيه بساعة الموت. يقولون إن الذي يموت

يسترجع حياته كلها في لحظة. لا شك أنه يفعل ذلك ليندم. ليقول ليتني استفدت من حياتي بشكل أفضل. ليتني استمتعت هنا وفعلت كذا هناك. وهو إذ يفعل ذلك يتمنى أن يمهله الموت لكي يعيد ترتيب الأمور التي يتمنى أن يتركها منتهية. كالمرأة التي يباغتها الضيوف وكل شيء حولها مبعثر ومتسخ. أقول لك بصراحة: أحس الأمور أكثر إحراجاً وقذارة. هل كنت ذات مرة في مرحاض عام وتعرف أن هناك من ينتظر خروجك ليدخل؟ وحين تريد أن تخرج تكتشف أن المياه مقطوعة. فلا تستطيع تنظيف المكان وراءك. ستحس بحرج أكبر حين تعرف أن الذي ينتظر في الخارج يعرفك. مهما كان يعرفك. ومهما كان يعرف من مباذلك وأخطائك وتفاهاتك فإنك لا تريد أن تعطي الانطباع عن نفسك بأنك وسخ إلى هذه الدرجة. أقصد إلى درجة أن تخرج من المرحاض دون أن تفتح الماء وراءك. ولكن ماذا تفعل؟ تفتح الصنبور ولا يأتي الماء. أخيراً تضطر للخروج ويدخل غيرك بينما تتسلل مسرعاً. أتعرف أين يكون الخزي الأكبر؟ حين يدخل الآخر وأول ما يفعله هو أن يفتح الماء. لقد كان هناك صنبور آخر، أو شيء آخر، يجب أن تفتحه أو تحركه ليتدفق الماء. لكنك لم تكتشفه. أو لم يكن لديك الوقت الكافي للبحث عنه. وهو لن يفهم ذلك. سيعتبر أنك قذر ومستهتر

وغير مهتم بالآخرين فلم تفتح الماء. أنا أعرف أن كل ما فعلته في سورية صحيح. أو كان صحيحاً. لأنه كان ضرورياً في حينه. وكانت صحته ستكتمل حين تنكشف ضرورته. أو حين تُمنح فرصة لتقديم وجه آخر لك غير وجه الجزار. حين تمنح الفرصة لاستثماره وإظهار فائدته. لكنهم استنزفوني. ضيعوني. أربكوني. دفعوني لأن أخرج قبل أن أضع يدي على الصنبور الذي كان يجب أن أفتحه. الصنبور هو تحقيق النصر ضد الإنكليز. وهذا لا يتحقق إلا بجيش منضبط وشبعان ومسلح. الانضباط لم يعطونا فرصة لتحقيقه. كانوا يفسدون الجيش بالسماح له بالتطاول على المدنيين. والشبع لم يسمحوا لي بتحقيقه حتى للجيش لأنهم كلهم شركاء مع المهربين وتجار الحبوب. وكلهم يضعون لك المحاذير التي تمنعك من تأمين الغذاء. إحذر أن تضغط على حوران فيزعل الدروز. إحذر أن تضغط على لبنان فيزعل الموارنة. إحذر أن تضغط على الجزيرة فيزعل البدو. طيب. من أين نجلب الطعام؟ الشواطئ يحاصرها الأعداء. ماذا يتبقى؟ السلاح؟ تريد الصراحة؟ حتى الآن لم أفهم هل جاء الألمان ليساعدونا أم ليسخّرونا؟ وهل سينتصرون في هذه الحرب على الإنكليز والفرنسيين أم علينا نحن؟ الألمان يعرفون وضعنا الاقتصادي. والناس كلهم يعرفون أن المديون

مذلول. قراره ليس في يده. كانت ديون المملكة عند سقوط عبد الحميد ٣٠ مليوناً. وأراد اليهود استغلال الفرصة. يدفعون الديون ويهاجرون إلى فلسطين. وفي النهاية استلمنا نحن السلطة. كنا نريد أن نصلح الأوضاع. ولم نكن نفكر في الحرب. طلب الباب العالي قرضاً من الألمان بقيمة خمسة ملايين ليرة فردوا بأنهم سيدفعون خمسة ملايين إلا ربع إذا دخلنا الحرب. وما هي النتيجة؟ صارت الديون الآن أربعمئة مليون خلال أقل من ثلاث سنوات. المهم، إنهم يتهيأون الآن للحرب. بارك الله. سأبقى هنا أشرب العرق حتى أرى إن كانوا سيعرفون كيف يفتحون الصنبور أم أنهم سيرتبكون أكثر مني ويضطرون للجلوس على خرائهم.

— ٢ —

نهض مدحت بك من وراء مقعده. ولم يستطع أن يخفي توتره على الرغم من الجهد الذي بذله: تعتقل سارة آرونسون؟

* هي رئيسة شبكة تجسس خاصة بها اسمها نيلي. وهي الدبق الذي يلتصق به ألتر ليفي.

مد عصمت يده إلى درج أمامه وقدم له صورة تضم سيدتين.

* التي إلى اليمين هي سارة آرونسون.

— لماذا تعطيني صورتها؟ أعرفها.

* هل تعرف المرأة التي إلى جانبها؟

تطلع إليه عارف مستفهماً فأضاف مدحت: هذه زوجة الباشا. جمال باشا.

* وما علاقتي بالأمر؟

– جمال باشا يحس أن الدنيا كلها تتآمر عليه. أنور باشا لا يلبي طلباته. الألمان صاروا مستقلين عنه تماماً. قوات اليلدرليم، الصاعقة، لا تتلقى أوامرها إلا من فالكنهايم. السوريون يكرهونه لأنه أعدم شبابهم وجوعهم ويعتبرهم عملاء لفرنسا. اليهود يتآمرون عليه. وهو يعتبرهم عملاء للإنكليز.

قال عارف بحزم: وهم كذلك فعلاً.

قال مدحت: إنتظر. أنا لا أستعرض لك الوضع السياسي أو العسكري. أنا أستعرض لك هواجس جمال باشا. أتعرف ماذا سيفهم من اعتقال سارة صديقته وصديقة زوجته؟ لن يعتبره تحدياً له فقط. بل سيعتبره محاولة للتشهير به. هذه ضربة تحت الحزام متعلقة بعشيقته السرية وصديقة زوجته شكلياً. يعني فيها كسر عظم. هذا خط أحمر لا نستطيع تجاوزه الآن.

قال عارف: لماذا نشتغل طالما أن هناك خطوطاً حمراء لا يمكن تجاوزها؟ الجواسيس ليس لديهم خطوط حمراء. كيف سنتغلب عليهم إذن؟

* ألم تجد إلا هذه المرأة لتبدأ بها؟

– مدحت بيك، هذه ليست امرأة. هذه شيطان. إنها مؤذية.

* حكوا لي نظريتك عن الطير الحر. إعتبرها طيراً حراً.

– ولكنك أحياناً تضطر لقتل الطير الحر. أتعرف لماذا؟ لأنه أيضاً من الجوارح. أعني قد يهاجمك ويؤذيك.

* فكر في غيرها.

– عندي غيرها.

* من؟

– استقالتي.

صاح مدحت: لا إله إلا الله. نحن أين وأنت أين؟

– أعفوني من المهمة.

* ألم تعد تستطيع أن تشتغل دون اعتقال سارة آرونسون؟

– لا. وأزيدك علماً أن يوسف ليشانسكي الذي تريدونه يعمل في منظمة نيلي. ويتلقى أوامره من سارة نفسها. يعني سارة هي مفتاح القصة كلها. وهي مفتاح ألتر.

عاد مدحت إلى مقعده وقد أعيته الحيلة: ألا تريد تجنيبي الحرج؟

– ألا تريد أن أنفذ المهمة؟

* إسمع يا عارف بك. بصراحة. أنا لا أستطيع موافقتك الآن. ولكن جمال باشا ذهب إلى بيروت. ولا نعرف ماذا سيكون مصيره. قد يعود. وإذا عاد وكنا قد فعلنا كما

تقترح يحرقنا كلنا. ولكنه قد لا يرجع. يعني انتظر يومين. وربما استطعت أن تشتغل كما تشاء. حتى لو اعتقلت زوجة جمال نفسها، لن تجد من يقول لك ما أحلى الكحل بعينيك.

– وقتها تفرج.

– ٣ –

كان سميح دائماً يجد في إبراهيم حماية له. فإبراهيم طويل القامة عريض المنكبين عضلات كتفيه وصدره تظهر من خلال قمصانه. شكله وحده كان يحسم بعض المعارك دون وقوعها. وحين تقع تلك المعارك كان إبراهيم يثبت أن هذا الجسد يصلح لما يوحي به.

والمفارقة أن إبراهيم هو الذي كان يحسد سميح. فهذا الزمن، كما كان يحس، ليس زمن العضلات والقوة الجسدية. بل هو زمن القوة الفكرية. وحتى من الناحية الجمالية. سميح النحيل دقيق الملامح ناعم البشرة هو النموذج لابن العصر وابن المدينة. وشكله يوحي بالثقافة أما شكلي فشكل عتال أو راعي بقر.

ولكن هذا الفارق بين الجسدين أجبر إبراهيم على الإحساس بضرورة رعاية سميح وحمايته. ليس فقط بصفته صديقاً، بل بما يشبه رعاية الأب لابنه، أو الأخ الكبير للصغير.

ولذلك فإنه لم يستطع تقبل فكرة أن سميح يشتغل في

خمارة يهودي في مستعمرة بعيدة. وانشغاله بهذا الموضوع ساعده على التهرب من مواجهة بهيجة مرة أخرى. هناك أمور هامة تشغله. وهذه أمور الرجال أو الكبار الذين ليس لديهم الوقت دائماً للولدنات.

أكثر من مرة تهرب منها. لكنه استطاع أن يقف ويتطلع إليها حين قالت له بلهجة ساخرة: أين أنت؟ لم نعد نراك. كنت أظن أننا تفاهمنا. فأجابها: عدم المؤاخذة. مشغول.

* إي روح كمّل شغلك. ولكن حين يئين الأوان سأعرف شغلي معك.

قال لها: أتذكرين رفيقي الذي جئت معه؟ سميح. هذا يشتغل عند ناس يهود. ولم يعد يظهر. أخاف أن يكونوا قد فعلوا له شيئاً. سأذهب وأبحث عنه. حين أعود سنتفاهم.

قرر أن يذهب بنفسه إلى روشيون لوزيون لجلبه. سيساعده هذا على أن يغيب عن الوجه. وفي الوقت نفسه يطمئن على سميح. لقد بدأ يقلق عليه فعلاً.

صرف العربة التي أوصلته. كان سميح قد أبلغه أن هناك دائماً إمكانية توفير وسيلة نقل. ولهذا فالذين يسكرون في روشيون لوزيون يأتون أحياناً من القدس.

وحين دخل من باب الخمارة كان واضحاً لنعمان أن هذا الشكل ليس شكل ضابط ولا فلاح ولا صاحب كأس.

ماذا يريد؟

وقف إبراهيم. ودار ببصره في المكان. فأوحى أنه يبحث عن أحد وليس قادماً ليجلس.

تقدم منه نعمان: أمر؟

* مَن صاحب المكان هنا؟

– محسوبك. أمر؟

* عندكم واحد يشتغل هنا اسمه سميح صافي: أريد أن أراه.

– ما عندنا أحد بهذا الاسم.

وأدار ظهره دون اهتمام يريد أن يرجع إلى مكانه. ولكن إبراهيم شده من كتفه بعنف فأداره نحوه من جديد: إحك معي.

نتر نعمان نفسه بقوة ووقف متحفزاً: يدك عني ولاك. من أنت؟

فتقدم منه إبراهيم من جديد ووضع يديه على كتفي نعمان بقوة تكفي لإشعاره بأن الموقف أكثر جدية مما يظن: إحك معي مثل الناس. سميح.. أين هو؟

ورفع نعمان صوته لينبه الآخرين: قلت لك ما عندنا أحد بهذا الاسم. نخلقه لك؟

وأحس إبراهيم أن عيون الجالسين كلهم صارت عليه. وأن شابين آخرين يقتربان منه متحفزين للقتال. فهم أن أبواب التفاهم قد أغلقت بأسرع مما كان يتوقع. وأن

التعامل سيتم بصيغة أخرى. ولم ينتظر. وجه ضربة قوية لنعمان جعلته يترنح. ثم أسرع للإمساك بكرسي والتفت إلى الشابين الآخرين. ولكن في اللحظة ذاتها كانت زجاجة تطير في الهواء لتصيبه في رأسه. فاضطر إلى التراجع حتى اصطدم بنعمان من جديد. ودفعه نعمان بقوة إلى الأمام وهو يصرخ: العمى سلبطة. ما راح تخلونا نشوف وجه ربنا؟ فصار إبراهيم بين الثلاثة. ومع ذلك لم يكن من السهل التغلب على إبراهيم. وبدأ تبادل اللكمات بينهم.

وسرعان ما انطلقت رصاصة في الجو جعلت الجميع يتوقفون. وقام الضابط عن طاولته والمسدس بيده. واقترب من المتشاجرين الذين بدأت الدماء تسيل من رؤوسهم وأنوفهم وأفواههم: ابتعدوا جميعاً.

فوقف الأربعة يلهثون. فيما وقف بالباب ثلاثة جنود مسلحين. وقبل أن يتكلم أحد وصل الضابط إلى إبراهيم وضربه بالمسدس على وجهه: كلب إبن الكلب. تريد أن تنزع مزاجنا؟

واستطاع إبراهيم أن يتماسك ويظل واقفاً، وأن يحاول توضيح موقفه للضابط: أنا جئت فقط أسأل عن صاحبي وهم علقوا بي. أما كنت ترى؟

ولم يسمع الضابط. أشار إلى الجنود: خذوه. فتقدموا منه وسحبوه بعنف وهو يصرخ: إنتظر لحظة يا أفندي.

أنا إبن عارف بك إبراهيم رئيس شرطة القدس.

* خذوه.

وخرجوا به.

فتقدم نعمان: يكثر خيرك يا بيك. الحمد لله أنك موجود وإلا كان خرب لنا المحل.

قال الضابط وهو يعود إلى طاولته: تعرفونه من قبل؟

* صوت الله. ولا عمرنا شفناه. لكن يا بيك الجو مليء بالنصابين والمتسلبطين. هذا يدعي أنه ضابط. وهذا يدعي أنه ابن باشا.

وتابع نعمان شرحه وهو يعيد ترتيب طاولة الضابط: الله وكيلك لا نأخذ وعينا. طيب. ولنفرض أنه ضابط. ها حضرتك ضابط. ما الذي يمنع أن يجلس برواق ويأخذ كأساً ويتسلى مع الأوادم؟ أضروري إذا كان إبن ضابط أن يزعج الآخرين أو يشرب بلا دفع.

* ولماذا يشرب بلا دفع؟ الناس خدامون عند أبيه؟

– هذا كلامنا.

وتناول زجاجة جديدة من يد ليوفا ليضعها أمام الضابط: وأراهنك يا بيك أنك حين تحقق معه ستكتشف أنه عونطجي. لا إبن ضابط ولا إبن مسؤول.

– بسيطة. بسيطة. حسابه عندي.

وتدخل ليوفا: وماذا لو كان ابن عارف إبراهيم فعلاً؟

أجاب الضابط قبل أن يجيب نعمان: وليكن. هل يخيفنا

هو أو أبوه؟
وفي السيارة التي كانت تقل إبراهيم إلى حيث لا يدري حاول أن يجعل الآخرين يفهمون. شرح لهم أنه جاء يبحث عن صديقه. وهو لا يفهم لماذا ينكرون وجوده. ربما كانوا قد عملوا له شيئاً. وأكد أنه ابن رئيس شرطة القدس.
وقال له أحد الجنود إنه يفهم موقفه ويصدّقه. لكنه لا يستطيع أن يفعل له شيئاً. فهو عبد مأمور. وأخرج إبراهيم من جيبه بعض النقود أعطاها للجندي راجياً منه أن يذهب إلى أبيه بأسرع ما يستطيع ويبلغه بما جرى.
وفي الليل سمع عارف بما جرى لابنه. قال له الحاجب حين جاء إلى مكتبه أن جندياً من الجبهة جاء يطلب مقابلته، لأن ابنه عمل مشكلة في روشيون لوزيون فاعتقله الجيش. وماذا يفعل إبراهيم في روشيون لوزيون؟ يسكر؟ أم أن سميح جرجره هو الآخر؟
ركب عربته وتوجه إلى البيت. وهناك أكدت له بهيجة أن إبراهيم ذهب يبحث عن صاحبه. لا بد له إذن من الذهاب إلى روشيون لوزيون.
وفي الليل عاد الضابط سكراناً دون أن ينسى الشاب الذي كان سينزع مزاجه. فدخل إليه وعمل له فلقة بيده. ثم طلب تسليمه إلى قيادة الفرقة للتحقيق معه.

فقلبه غير مطمئن لوجود هذا الشاب الذي لا يعرفه أحد في منطقة عسكرية.

واقتاده الجنود إلى قيادة الفرقة. وكان الوقت متأخراً. والسجين، بسبب الفلق والجرح الذي أحدثته ضربة المسدس في جبينه، صار في حالة إرهاق شديدة لا تسمح بالتحقيق معه. فألقي في السجن بانتظار الصباح الذي سيأتي بمن يبتون في أمره.

– ٤ –

ونهض نعمان مرحباً: أهلاً. أهلاً. عارف بيك.

ودون أن يهتم عارف بهذا الترحيب سأله: أين ابني؟

– إبنك في الصون والأمان. إجلس. إجلس وارتح.

* قل لي أين هو.

– يعني هو ابنك فعلاً؟ سامحه الله. أنظر. أنظر يا عارف بيك. وأشار إلى وجهه الذي ظهرت عليه كدمة: هذه أول كلمة قالها لي. جاء يطالبنا برفيقه. نحن عندنا رفيقه؟ من أين؟

* رفيقه كان عندكم. سميح. أنا رأيته هنا.

– سميح!! إي قلْ من الأول. يا سيدي سميح نزل إلى القدس ورجع غير سميح. لا أعرف من لعب بعقله. قال: بطلت أشتغل. أعطوني حسابي. قلنا له: كل شيء يصير بالإجباري إلا الشغل. تفضل. أخذ حسابه وتيسر. قال إنه يريد أن يعود إلى دمشق.

* المهم. إبني. أين هو؟
– ابنك يا سيدي بعد أن ضربني وضرب الشغَيلة – سترى وجوههم الآن – علق مع ضابط من الزبائن كان يتسلى. الضابط ما حمله دمه. جلب الجنود واعتقله.
* من هو هذا الضابط؟
– واللّه علمي علمك.
* تقول إنه زبون.
– زبون يا بيك. عدم المؤاخذة. نحن نرى الأشكال والألوان. كل يوم مئة زبون جديد. معلومك منطقتنا صارت جبهة. والجيش ما شاء اللّه ليله ونهاره حركة. كل يوم قطعة جديدة تأتي ونتعرف إلى ضباط جدد.
* يعني الضابط الذي اعتقله جديد؟
– جديد يا بيك. هذه ثاني مرة أو ثالث مرة نراه.
وخرج عارف من الخمارة التي كانت تتهيأ للإقفال. ووقف في الظلمة قرب عربته لا يعرف أين يجب أن يذهب. يجب أن يصل إليه قبل أن يضربوه ويهينوه. هو يعرف أي وحوش هؤلاء حين يقع بين أيديهم أحد. توجه بعربته إلى الطريق العام حتى وصل إلى أول منطقة عسكرية. ولكن الحوار والأخذ والرد مع الحرس شبه النائمين كان بلا معنى. لم يفهموا ماذا يريد ولا عن أية قصة يحكي.
– على رأسي وعيني قائد شرطة القدس. يحصل لنا

الشرف. ولكن يا بيك أنت تسأل عن ضابط لا تعرف اسمه ولا تعرف إلا أنه كان يسهر في روشيون لوزيون. الضباط كلهم، عدم المؤاخذة، يسكرون في روشيون لوزيون أو غيرها.

* طيب. هل سهر أحد من ضباطكم في روشيون لوزيون؟ إذا لم يكن هو الضابط الذي أريده فسيكون على الأقل قد شهد الحادثة ويعرف كيف يدلني عليه.

– والله يا بيك علمي من علمك. هل نستطيع أن نسأل الضابط الأفندي أين يسهر؟

* طيب. أي ضابط كان سهراناً خارج الثكنة وعاد إليها في الليل.

– كتيرون. كلهم رجعوا!

* أيقظ لي أي واحد منهم.

– لا بالله يا بيك – عدم المؤاخذة – حتى لو كنت جمال باشا بعظمته لن أوقظ لك ضابطاً في هذه الساعة. تعرف ماذا يفعل بي إذا أيقظته؟ ماذا وراءك يا ابن الحلال؟ الصباح رباح.

* أقول لك ابني.

– يا بيك. الناس كلهم أولاد عالم. السجانون والمسجونون.

ما العمل؟ لا حل أمامه إلا انتظار الصباح. وليس من المعقول أن يذهب إلى القدس ليعود صباحاً. يجب أن

يبحث عنه منذ الفجر. فتوجه بعربته إلى يافا لينام في الفندق.

وعند الفجر أفاق وذهب دون أن يتناول الإفطار أو فنجان القهوة. واستطاع أن يتوصل إلى اسم الضابط المعني وقطعته. وحين ذهب إليه أبدى الضابط أسفه إذ لم يعرف أن «هذا الشاب ابن حضرتكم. لكنه، عدم المؤاخذة، طوّل لسانه علينا».

— المهم أين هو الآن؟

* حولناه إلى قيادة الفرقة.

وفي قيادة الفرقة لم يسمع قائدها بالموضوع إطلاقاً. ولم يسمع بها أحد من ضباطه. وحين تم استدعاء رئيس الحرس، الذي كان مناوباً، أفاد بأنه لا يعرف شخصاً بهذا الاسم. لكن جرت العادة أن يعتقلوا أي مدني يرونه في المنطقة ليلاً. وإنه كان لديه سبعة معتقلين لا يعرف أسماءهم طبعاً. وقد أرسلهم كلهم صباحاً إلى القدس.

وحين وصل إلى القدس كان الوقت قبيل العصر. واستقبله رئيس الحرس المناوب في الشرطة العسكرية. فالضباط كلهم ذهبوا إلى الغداء والقيلولة. وتطلع في الدفتر: إبراهيم عارف إبراهيم. صحيح. ابنكم؟ نعم يا سيدي عندنا.

* الحمد لله. إجلبه.

– لا يا سيدي. الله يخليك. لا تحطني تحت مسؤولية. والله إذا جاء رئيس الأركان نفسه لا أستطيع أن أسمح له برؤية سجين. الأوامر الجديدة مشددة.

– يا بني آدم. أنا الذي أصدرت الأوامر المشددة.

* وأنت الذي يجب أن تحترم هذه الأوامر يا بيك. أنت تعرف. البلد مليئة بالجواسيس.

* ولك حيوان أقول لك أنا عارف بك رئيس شرطة القدس.

– الله يسامحك يا سيدي. والله أعرف. وأعرفك. ولكن تريد أن تخرب بيتي؟ يا سيدي لو كان عندك رقيب معتر مثلي وأعطيته أمراً، ماذا تفعل به إذا خالفه مراعاة لضابط آخر؟ والله أتمنى لو انقلعت عيني ولم أوضع في هذا الموقف. يا سيدي والله يخربون بيتي. يرمونني في القبو مع المساجين. إنتظر يا سيدي إلى أن يأتوا. وإن شاء الله لا يخرجونه لك فقط. بل يعلقون له نيشاناً.

معه حق. الأمور هكذا فعلاً. وعارف نفسه يعرف.

* طيب. لي عندك طلب.

– من عيني هذه قبل هذه.

* أريد وعداً منك بأن لا تضربوه.

– ولو يا بيك صحيح ما قدرت ألبي لك طلبك. لكن ابنك في عيوننا. طمئن بالك. تنقطع يدي من الإبط إذا

إبن امرأة يمد يده عليه بعد الآن.
بعد الآن؟ يعني أنهم ضربوه.
وذهب إلى منزله. وكانت بهيجة تنتظره بقلق. لم يرد على تساؤلاتها. جلس غارقاً في همه. هل يبحث عن الضابط المسؤول؟ أين؟ في المطاعم؟ في الخمارات؟ في بيته؟ قد يكون في لحظة انشراح. أو يكون متمدداً في قيلولته. لماذا يصغّر نفسه؟ كأنه يسمع ما سيقولونه عنه: الآن يريد تجاوز القوانين. يريد المراعاة. هذا الذي كان يمسكها حنبلية. ويجدها العسكريون فرصة للتشفي من الشرطة. الأفضل أن ينتظر إلى المساء ويذهب إلى الضابط في مكتبه بشكل طبيعي.
وانتبه إلى بهيجة الجالسة في صحن الدار تراقبه. لحظتها خطر له أن يتساءل: هل بين إبراهيم وهذه البنت أي شيء. ولكنه لم يكن في حالة تسمح له بالاهتمام بهذا الأمر.
في المساء ذهب مرة أخرى إلى الشرطة العسكرية. فوجد رقيباً آخر: والله يا سيدي، سيادة الكابتن رفعت طلبوه في الأركان. لا أعرف متى يرجع. عدم المؤاخذة.
* ألا يوجد أي ضابط؟
— نعم سيدي. هناك الملازم شيرتوك.
* ألماني؟
— لا. سيدي. يهودي. الملازم موشي شاريت. أأتصل لك

به؟

* لا.

ونهض. ملازم يهودي مسؤول عن ابنه. لن يذل نفسه أكثر من ذلك. سيذهب إلى الأركان.

حين وصل إلى فندق القدس حيث مقر قيادة الأركان وجد الصالون يعج بالضباط. ورأى بينهم فهمي بك. ما الذي جلبه من دمشق؟

تعانقا. أين أنت يا رجل؟ قلبوا الدنيا عليك.

ورأى عدنان بك ونهال حامد: ماذا تفعلان هنا أيضاً؟

ضحك عدنان: استنفار عام. فاتك الاجتماع.

* صحيح. ما الموضوع؟

– باختصار: تكثيف الجهود الأمنية ضد نشاطات اليهود. ألم تسمع بوعد بلفور؟ أين أنت؟

* أسكت يا ابن الحلال. إبني علقان مع الشرطة. و...

وضحك فهمي: أروح وأرجع وأنت مشغول بابنك. البلد مقلوبة بسبب اليهود وأنت...

أحس بالخجل فعلاً. ومع ذلك سأل: هل كان في الاجتماع أحد من الشرطة العسكرية؟

– طبعاً. رفعت بك. كان هنا. والتفت: لا بد أنه خرج الآن.

وهمّ عارف بالخروج: إلى أين؟ لم العجلة؟

* أقول لك إبني معتقل منذ الأمس، ولم أستطع أن أراه

حتى الآن.

– عرفت أين هو؟

* عند الشرطة العسكرية.

– إي. تعال. تعال. تريد أن تهرب منا؟ ماذا سيحدث لابنك؟ الآن نحكي مع رفعت بك ونعزمه معنا. وسيسبقك ابنك إلى البيت.

ودخلوا إلى مطعم الفندق، بعد أن اتصل فهمي برفعت ولم يجده. وترك له خبراً مع السنترال أنهم ينتظرونه في مطعم الفندق.

وجلسوا يتذاكرون ويتسامرون. وعد بلفور هو وعد لليهود بفلسطين. ولكن فلسطين ليست تحت سيطرة بريطانيا. ماذا يعني الوعد إذاً؟ بريطانيا تضمن الانتصار؟ أم أنها تكذب وتعطي الوعود للجميع؟ للعرب ولليهود وللفرنسيين واللبنانيين ولكل من يمكن أن يشاغب على الدولة العلية؟

وعلى الرغم من اهتمامهم بوعد بلفور إلا أن الحديث أخذهم إلى نهايات أخرى. وكان عارف لا يكاد يسمعهم. عيناه مشلوحتان إلى الباب بانتظار أن يطل هذا الرفعت بيك الذي سيهدئ باله. ويخرج له ابنه. ابنه البريء المعتقل ظلماً.

– يا عارف. تتحدث وكأنك غريب عن البلد. هل ظل أحد لم يقل: يا ما في الحبس مظاليم.

* تتفلسفون الآن؟ هذا ابني.

قال عدنان بجدية: إبنك صحيح. ولكن عدم المؤاخذة أنا لا أقصد المحروس بالذات. ولكن من منا يضمن ابنه؟ هل نعرف ماذا يشتغل أولادنا؟

خجل أن يقول منفجراً: مهما كان ما فعله ابني يجب أن يخرج من السجن. وارتبك أكثر إذ تذكر ما حكاه له ابنه عن نشاطاته في الشام. هل يعرف فهمي بالأمر؟

وعقبت نهال بتثاقف: لم يعد من الممكن الوثوق بأحد. وإذا أردتم الحقيقة فالناس معذورون. الفقر والجوع وارتفاع الأسعار والنهب جعل النفوس ضعيفة. رجال شرفاء يصبحون لصوصاً: شباب يصيرون جواسيس. المهم أن يجلب الإنسان ما يطعمه أو يطعم أولاده. ولا تستطيع أن تلوم الناس.

قال عدنان: لهذا يجب تعزيز التعاون بين البوليس وفرع مكافحة الجاسوسية. سمعت طبعاً أن عزيز بك صار رئيسنا.

– سمعت.

قالت نهال: كم دفع؟

تطلع الجميع إليها مستغربين فأوضحت: هل هناك من يستلم منصباً جديداً دون أن يدفع؟

قال عدنان: لا. أظن هذه المرة دون دفع. الموضوع له علاقة بالمنافسة مع الألمان. كان هناك ضابط ألماني

مسؤول عن العلاقة مع القبائل البدوية لاستمالتها ومنعها من تأييد الشريف حسين. فصار ينفق المال لكسبهم لصالح ألمانيا. ولكثرة ما كان يبذخ صار الناس يرون أن ألمانيا هي خلاصهم وتركيا سبب بلائهم. لأجل هذا عينوا عزيز بك مكانه للتعامل مع البدو.

قالت نهال: البدو معذورون. في هذا القحط والغلاء يجب أن تقدم لهم الدولة دعماً.

وتوجهت إلى عارف: كيف الأوضاع هنا في القدس؟

قال عارف ساهماً: ماشي الحال.

لكزه عدنان: إحك يا أخي. خلّيك معنا.

* ماذا أحكي؟

قال فهمي: حدثنا عن الأوضاع في القدس.

قال عارف: ألم تكونوا في الاجتماع؟ المفروض أنهم قالوا لكم كل شيء.

قال عدنان: حدثونا عن احتمالات الحرب. نريد أن تحدثنا أنت عن شيء آخر. الحياة.

قال عارف: الحياة صعبة. الغلاء كسر ظهور الناس.

ضحكت نهال: آخر خبر عن الغلاء. إسمعوا. ارتفعت أسعار المناصب! الذي يشتري الولاية ليصير والياً صار يجب أن يدفع بين ٨٠٠ ألف وألف ألف دوقة ذهبية. والدفتردارية من أربعين إلى خمسين ألفاً. وسعر القاضي أيضاً صار في هذه الحدود.

واسترسلوا في تقديم معلوماتهم عن الفضائح. وعارف يتطلع إلى الباب. ورفعت لم يأت.

— ٥ —

كان ألتر وليوفا الموفد من قبل نعمان يتدارسان كيفية إعاقة أي نشاط يمكن أن يقوم به عارف وشرطته في الظروف الحالية. فرأي نعمان أن إبراهيم الابن قد يتسبب في وجعة رأس إذا ترك له المجال للبحث عن صديقه سميح. وذلك أن سميح كان بيننا. ولعلنا قد ارتكبنا خطأ جسيماً بتشغيله عندنا. فنحن لا نعرف ما الذي اكتشفه من شغلنا حتى الآن.

وكان زمام الحديث بيد ألتر كالعادة. فدور ليوفا هو فقط إيصال المعلومة إلى ألتر في المخبأ وتلقي الأوامر بما يجب فعله. وقال ألتر إنها قد جاءت على رجليها كما يقولون. ولا توص حريصاً. فبعد نجاح سارة في شربكة عارف وعرقلته فترة لا بأس بها، صار لا بد من البحث عن شربكة أخرى. وطالما أن ابن عارف في السجن الآن فتكفي عرقلة جهوده الرامية إلى رؤية ابنه أو إلى إطلاق سراحه حتى ينشغل بالأمر ليلاً ونهاراً. ونحن يجب أن نصعّد من نشاطاتنا في خدمة الإنكليز بعد وعد بلفور لكي نثبت أننا نستحق هذا الوعد. وفي الوقت ذاته يجب تنبيه أبناء الملة لكي يكونوا حذرين من ردود الفعل المحتملة على الوعد الإنكليزي سواء من

قبل العرب أو المسلمين. وخذ هذا المبلغ ووزعه على بعض الضباط والرقباء كما في هذه الورقة. هذا المبلغ لمن يخدموننا. وهم سيساعدوننا على عارف. وقل لسارة إنها تستطيع العمل في مجال عرقلة جهود عارف لحل مشكلة ابنه أكثر منا. ليس بالضرورة بالطريقة السابقة. بل بتأليب بعض الضباط عليه من باب أنه مهتم بمشكلته الشخصية أكثر مما هو مهتم بالمشكلة الوطنية. وأنا سأتصل من هنا بمن يجب الاتصال بهم.

– ٦ –

عثر على جثة شاب إلى جانب الطريق قرب القدس، وفي ظهره طعنة بأداة حادة وصلت إلى قلبه. وكان وجود جثة إلى جانب الطريق أمراً مألوفاً. فهناك كثيرون ممن يموتون جوعاً ومن يقتلهم الطاعون. وهناك ضحايا السرقة والتشليح. إضافة إلى الفارين الذين تصطادهم الدوريات.

وكان عمال التنظيفات يمرون بعرباتهم لجمع الجثث من أجل دفنها في مقابر جماعية كما هي العادة كل يوم. هذه الجثة لم يحتاجوا لتفتيشها بحثاً عن أي شيء يمكن أن يكون بين ملابسها لأنها كانت شبه عارية. فالميت بالتالي لا يحمل شيئاً من المال أو وسائل التعريف به. لقد تعرض للقتل بعد تشليحه. ولكن بعد أن حملوا الجثة لاحظ أحدهم أن كف الميت مطبقة

بإحكام. فأعادوه إلى الأرض. وبدأوا يعملون على فتح كفه وقد قدروا أن يجدوا فيها قطعة نقدية. وبعد جهد استطاع العمال انتزاع ما انطبقت عليه الكف. وكان قطعة معدنية صغيرة عليها كتابة لم يعرفوا قراءتها. وعلى الرغم من أن شكلها لا يوحي بأنها قطعة نقدية إلا أن ملمسها الناعم وأطرافها المطوية بانتظام والكتابة وإطباق كف الميت عليها بهذا الإحكام، هذا كله جعلهم يتشككون ويخمنون. لا بد أنها ثروة.

بتفاهم صامت وضعها أحد العمال في جيبه ونقلوا الجثة مجدداً إلى العربة. وأكملوا طريقهم إلى منحدر الخشخاشة حيث قلبوا الجثث فيها. وذهبوا لتصريف اللقية التي لاقوها.

حملوا تكهناتهم وأحلامهم معها واتجهوا بها إلى صراف يهودي ووضعوها أمامه. ألقى عليها نظرة سريعة ثم رفع ناظريه إليهم وهو يمسك بها بين ظفر إبهامه وسبابته وينقفها إلى الشارع.

وعلى الرغم من هذا الاحتقار فإن واحداً منهم ركض وراءها إلى الشارع وعاد بها بينما ظل زميلاه يتطلعان إلى الصائغ وعلى وجهيهما ابتسامتان بلهاوان.

– غطاء زجاجة بيرة. انقلعوا من وجهي.

خرج الثلاثة غير مصدقين. لديهم رغبة في الضحك. لكن بقية من توقعاتهم دفعتهم إلى الاحتفاظ بها

والتوجه إلى صائغ آخر. فهذا الصائغ اليهودي قد يكون لئيماً استهتر بها لكي يرموها. وسيأتي بعد ذلك لأخذها. ولا شك أنه قد أرسل وراءهم من يتجسس عليهم.

وأكد الصائغ الثاني ما قاله الأول. فمشى الثلاثة يتضاحكون ساخرين من أن الدنيا تطورت. وبعد أن كانت لقية الفقير المعتر في الماضي لا تتجاوز الخيط أو الإبرة أو الزر صار يلاقي غطاء زجاجة بيرة. وتشبثاً بأمل لم يمت احتفظ بها أحدهم في جيبه بحجة أنه سيعطيها لابنه ليلعب بها.

وتندر العمال بالموضوع مع زملائهم. والزملاء مع رؤسائهم. والرؤساء مع زملائهم حول الميت المسكين الذي كان موهوماً أكثر من العمال. فمات وهو يطبق بكفه على ما ظنه ثروة، ثم على العمال وآمالهم وتوقعاتهم، وفي النهاية لم يكن الموضوع أكثر من غطاء زجاجة بيرة.

ولكن نهال، حين سمعت بهذه الطرفة، نهضت مهتمة وقالت لهم: إجلبوا لي العمال.

وجيء بالعمال فطلبت منهم أن يدلوها على الخشخاشة. وحين سمع عارف بما تفعله أحس أنها تتطاول على صلاحياته. وبما أنه لا يريد الآن أن يصطدم بها فقد قرر مرافقتها. ذهب العمال معهما بالرفوش. وأزاحوا التراب وقلبوا هذا الميت وذاك حتى

وصلوا إلى جثة الشاب. وتطلع عارف إلى وجه الشاب الميت وتنهد: سميح.

وتطلعت نهال إلى عارف متسائلة. فقال لها: أعرفه. رفيق ابني. كان يشتغل في خمارة عند اليهود. لا بد أنه قد تمت تصفيته في خمارة نعمان.

فعلقت نهال: هذا يعني أنه قد أحس بما سيفعلونه به. فحمل معه دليلاً يمكن أن يقود إلى الكشف عن المكان الذي ارتكبت فيه جريمة مقتله.

وقدّر عارف مبلغ الحزن الذي سيحس به إبراهيم، ابنه، فقرر إخفاء الخبر عنه حين يتمكن من رؤيته. وعلى الرغم من وجود الجثة قرب القدس فقد كان عارف شبه واثق أن لروشيون لوزيون علاقة بالجريمة. ولكنه مضطر الآن لقبول الصيغة التي اقترحها القاتل أو القتلة: تشليح وقتل. بدليل عدم وجود نقود أو ملابس كافية على الجثة. وقد سبق أن أعلن نعمان أن سميح أخذ حسابه وانصرف. وهذا يعني أنه كان يحمل نقوداً تشجع على تشليحه وقتله.

بينه وبين نفسه صمم: حسابهم لا يتم بالتقسيط. يجب تصفية الحساب معهم دفعة واحدة.

وأسرع يخرج من المكتب إلى حيث ينتظره رفعت بك. رحب به الرجل باحترام يليق برتبتين في زمن حرج. ولكنه أبدى أسفه لأنه لم يتعرف إلى إبراهيم في الوقت

المناسب: الحقيقة أنا لم أر الموقوفين. تعرف. الشغل فوق رؤوسنا هذه الأيام. وأرسل يطلب المسؤول عن الموقوفين. وحين قدمت أوصاف إبراهيم له لم يبد عليه أنه عرف الشخص المطلوب. ولكن الموقوفين كلهم أرسلوا إلى مناطق تجميع المجندين (لم العسكر).
هذا يعني أن إبرة وقعت في البحر. وتعال ابحث عنها يا عارف.

– ولكن وحياة عيونك سأرسل في طلبه وسأسترده إن كان ذلك ممكناً.

في البيت فاجأته بهيجة: ما بك عارف بك؟

– إنتبه لها.

* هذه ثالث مرة أكلمك فيها ولا ترد.

– لا تؤاخذيني كنت شارداً.

* أين الأستاذ إبراهيم؟ لم نعد نراه.

– ليتني أعرف أين هو يا عين عمك.

الفصل الخامس والعشرون

- ١ -

فوجئت سارة حين أخبرها أحد الشباب أنه رأى البنت الشركسية التي كانت هاربة مع حبيبها الأرمني وجاءت إلى هرتزليا يوم قتل إسرائيل جيب. رآها تخرج من مقر القيادة. وقد عرف أن اسمها نهال حامد.

نهال؟

هي التي قتلت إسرائيل جيب إذن. لن تسمح لامرأة كهذه أن تفسد ما رتبوه حتى الآن. ويجب أن تدفع الثمن. الدم اليهودي غال.

وقررت أن تتصرف بنفسها هذه المرة. فطلبت معرفة مكان إقامتها.

وبعد أن عرفت أنها في فندق القدس، أرادت أن تتأكد بنفسها من الأمر كله. ذهبت إلى الفندق. وقد طلبت أن يدخل عليها أحد الذين كانوا في المخبأ وهما جالستان لكي يتعرف إلى نهال جيداً. ولكي يقرر إن كانت هي التي دخلت إلى السرداب بوصفها عاشقة شركسية.

وكأن نهال كانت تتوقع سارة. حين رأتها تدخل الفندق قامت تسلم عليها بحرارة. وجلستا لشرب القهوة. وجلستا تتذكران لقاءهما في السهرة مع الباشا. وذكرتها سارة بأنها كانت حريصة فلم تقل ما الذي جاءت تفعله

في القدس رغم إلحاح الباشا. فهل ستقول الآن؟
ضحكت نهال وقد قررت إحراج سارة: سقى اللّه أيام الباشا. راح وراحت أيامه. ولكن لم تقولي لي كيف كان الباشا معك في تلك الليلة؟ لقد بقيت عنده يومها. مع أنني ظننت أنه سيقضي ليلته مع خالدة أديب.
قالت سارة بثقة: حين أكون موجودة تحال النساء كلهن إلى الهامش.
– محظوظة فعلاً. ولكن لم تقولي لي كيف كان.
معركة مكشوفة بين امرأتين. أجابت سارة دون أن يبدو عليها أي إحراج: جمال في الفراش هائل. ألم تجربيه؟
– لا.
* فاتك نصف عمرك.
ضحكت نهال: النصف الثاني يكفيني.
* لتنامي مع الألمان؟
– سارة. دعينا من هذه الألاعيب. لن نضيع وقتنا في هذا الموضوع. وأنت لم تأتي لتتأكدي من أخلاقي.
* أنا هنا بالصدفة. لم آت للتأكد من شيء. للفندق ديون في ذمة أخي آرون جئت أدفعها.
ودخل شاب ملتح وقدم لسارة علبة التبغ. وقال لها وهو يشير إليها إشارة خاصة تؤكد أن نهال هي البنت الشركسية: نسيتها في العربة يا سيدتي.
أخذت سارة الباكيت وقلبها يقفز في صدرها من الحقد.

وظل الشاب واقفاً فصبت شيئاً من غضبها عليه: لماذا تظل واقفاً هنا؟

تراجع الشاب مضطرباً: أنتظر إن كنت تحتاجين إلى شيء.

* لا أريد شيئاً. إنتظرني في العربة.

وخرج طائعاً.

قالت نهال: يعاملونك معاملة الضباط. هل هذا بسبب العلاقة السابقة مع الباشا؟ أم علاقتك الحالية مع غيره؟

أجابت سارة: لا هذا ولا ذاك. هذا واحد من الملة. وليس عسكرياً.

ومدت نهال يدها وأخذت لفافة من باكيت سارة دون استئذان: هل سنتحدث في شيء آخر غير الجنس؟

فأشعلت لها سارة دون اهتمام وهي تقول: معك حق. لن نضيع الوقت في الحديث عن الجنس. سنتحدث عن الجنسية. هل أنت عربية؟

فوجئت نهال بهذه النقلة فردت عليها بسؤال: ماذا تتوقعين؟

* كنت أتساءل إن كنت عربية أم شركسية.

— الشركسيات شقراوات.

* أهذه مشكلة؟ يمكن صبغ الشعر.

وفوجئت الاثنتان بدخول عارف. ودون استئذان جلس معهما.

تطلعت إليه نهال لتشركه في الحديث: هل تعجبك الشركسيات يا عارف بيك؟

ولم يجب. والحقيقة هي أنه لم يعرف بماذا يجيب. فهو لم يتوقع أن الحديث بينهما حول هذا الموضوع. أخرج علبته ليلف لفافة، وهو يقول لنهال: عربتك جاهزة.

ونهضت سارة. فنهضت معها نهال: لم تنهي قهوتك.

– اكتفيت. ربما كان بينكما شغل.

وخرجت دون أن تعطي مجالاً لأي كلام آخر.

وعادت نهال إلى جلستها: ما الذي جاء بك؟

– ماذا تفعل سارة هنا؟

* لم تعطني مجالاً لأفهم منها سبب مجيئها. ماذا تفعل أنت هنا؟ أنت لم تأت من أجل العربة.

– العربة جاهزة فعلاً. ولكن العناصر شاهدوا ألتر ليفي يحوم حول الفندق. هل حدثتك عنه؟

* لا.

– ألم تأت لتطبقك له؟

نهضت نهال كالملسوعة: إحفظ أدبك عارف بيك.

نهض عارف مستفزاً: هل بينك وبين ألتر علاقة؟ هل جئت إلى القدس لرؤيته؟

* عارف. أنت مجنون. أكيد أنت مجنون. ألا تعرف لماذا أنا في القدس؟

وانصرفت عنه وهي ترتجف. وصعدت إلى غرفتها.

فتبعها. ودون أن يقرع الباب فتحه ودخل. ووجدها تمسك بمسدسها وتتأكد من حشوته. تطلعت إليه بعينين مليئتين بدموع الغضب: أتعرف لماذا سينتصرون علينا؟ هي نامت تلك الليلة مع جمال باشا. والله أعلم مع من غيره تنام. ومع ذلك يعاملها جماعتها باحترام وكأنها ضابط في قطعة عسكرية. بينما أنتم تلاحقونني بشكوككم. وتعاملونني على أنني لست إلا شرموطة.
وجلست وكأنها لم تعد تقوى على الوقوف. وانفجرت بالبكاء.
وأحس عارف بحجم غلطته. ولم يكن قادراً على مناقشة الأمر معها. فنقل الحديث بعد قليل من الصمت: لماذا هذا المسدس؟
– ليس لكي أنتحر بالتأكيد. هذا لحماية نفسي. الشرفاء من أمثالك لا يعنيهم أن يحموا الشراميط.
ظل صامتاً. وتقدمت من النافذة دون أن تطل منها. وبضعف مفاجئ قالت: أنا خائفة يا عارف بيك. أظن أن سارة كشفتني. نقلت الحديث إلى الشركس دون مناسبة. وأنت تعرف أنني دخلت المخبأ مع أتلخان بصفتي شركسية.
إستيقظ ضابط الشرطة والحس الأمني في أعماقه. ونسي تحامله الأخلاقي عليها: لم تعرفي لماذا جاءت؟
* قالت إنها جاءت لتسدد ديون أخيها. ولكنها خرجت

دون أن تفعل ذلك. أظن أنها جاءت لتتأكد من أنني أنا التي دخلت المخبأ، وشاركت في قتل إسرائيل جيب. لماذا لا نتأكد من الأمر؟

نزل إلى صاحب الفندق. ولكن ليست هناك ديون على آرون آرونسون.

عاد إليها يبلغها بذلك فقررت: لن أسافر إلى بيروت في العربة. سأسافر في القطار.

ولأول مرة يحس بأنه مسؤول عنها ويريد أن يحميها.

قال لها: إن كنت تحسين بالخطر إبقي هنا. وأنا أضمن حمايتك.

فأجابت بكبرياء: طوال عمري وأنا أحمي نفسي.

— ٢ —

حين غادر القطار محطة البرامكة في دمشق كان الظلام قد حل. وكانت الرحلة من القدس إلى هنا قد أتعبت نهال وهي تجلس محترسة خائفة من أن يقتحم عليها مقصورتها أحد. وبعد الاستراحة في دمشق أحست أنها قد ابتعدت عن الخطر. فاسترخت في مقصورتها تريد أن تنام. ولكن بعد دخول القطار وادي بردى أحست أن هناك من يفتح باب المقصورة. ومن ضوء القمر المتسرب من النافذة رأت اثنين يدخلان. أحدهما ملتح. إنه الشاب الذي كان مع سارة حين جاءت إلى الفندق. ودون انتظار أخرجت مسدسها وأطلقت عليه.فسقط.

ولكن الثاني هجم عليها وانتزع المسدس من يدها. وصرخت بأعلى ما تستطيع. ولكن ضجة القطار غطت على صراخها. ألقاها أرضاً وراح يرفسها ببوطه على رأسها حتى غابت عن الوعي. ألقى بجثة زميله من النافذة. ثم جلب حبلاً ربط به قدمي سارة وربط طرفه بالمقعد الحديدي. وحملها ثم قذف بها من النافذة. وظل جسمها معلقاً ينجر إلى جانب القطار. ثم قفز هو الآخر من النافذة. تدحرج قليلاً على الأرض. ولكنه استطاع أن يتابع القطار بنظره. ويرى جسم نهال وقد انسدل ثوبها على رأسها وعرى نصفها السفلي، ورأسها يتأرجح فيرتطم بجسم القطار تارة وبالسكة تارة أخرى. والتف الحبل على العجلة فسحب رأسها إلى السكة. ومرت العجلات فوقه.

وحين وصل القطار إلى بيروت لم يكن قد بقي إلا الحبل الذي عليه بضع قطرات من الدماء.

— ٢ —

بعد مرور عارف إلى زخرون ياغوف انتشر الخبر بين اليهود أن الشرطة بدأت تشمشم المنطقة، وأن قائد شرطة القدس بنفسه قد جاء إلى القرية وذهب إلى عتليت بحثاً عن سارة. وتطابق هذا الكلام مع خبر مرور عارف السريع وغير المفهوم إلى تل أبيب.

وعلى الرغم من الاطمئنان إلى أن سارة قد التقت

بالضابط ولم يحصل لها شيء، إلا أن هذا أول الغيث. وعليهم أن يستعدوا لمواجهة المزيد.

كانت سارة قد جلبت معها من مصر ألفي جنيه ذهبي تم توزيعها خلال يومين على يهود المستوطنات لمواجهة الحالة المعيشية الصعبة التي يمرون بها في هذه الظروف. وشارك في التوزيع مجموعة الشباب المتحمسين الذين يتعاونون مع نيلي. ومعظمهم من أبناء الأقارب والأصدقاء.

صحيح أن هذه المعونة قد أراحت الناس، وجعلتهم أقل توتراً من سارة ونشاطاتها. إلا أن اللجنة الأمنية اليهودية في القدس، والتي كانت تتحمل مسؤوليات كهذه عادة، رأت أن سارة آرونسون تتطاول على شغل اللجنة وتلغيها. كما أن قيادة تنظيم هاشومير في الناصرة أحست أن قيام سارة وجماعتها بتوزيع المال على اليهود يعني بروز تنظيم جديد قد يتسبب في بلبلة الأوضاع. وجرى اتصال بين قيادة الهاشومير وبين حركة العمال في يافا من أجل تحطيم هذا التنظيم الجديد.

فظهور الشرطة حولهم يعني أن الخطر الذي كانوا يخافون منه قد صار وشيك الوقوع.

وصدر مقال في الصحيفة العمالية الرسمية اعثبر تمهيداً أو تبريراً مسبقاً لما يمكن أن يفعله الهاشومير قريباً.

وقد جاء في المقال: «إن سياستنا الواقعية في ظل الظروف الحاضرة تعتمد على الولاء المدني الكامل. ويجب النظر إلى أي نشاط يهدف إلى إبعاد أليشوف عن هذا الإطار خطراً على أليشوف نفسه».

قال لها يوسف وهو يلوح بالمقال: إنهم يقصدوننا بهذا الكلام.

فابتسمت بثقة: وهل نحن نحاول أن نبعد اليشوف عن ولائهم؟

واجتمع وجهاء مجموعة من القرى. وطلبوا سارة، وعاتبوها بلهجة لا تخلو من القسوة: كم مرة قلنا لك أن تتوقفي عن هذا اللعب؟ تريدين أن تعطي حجة للعثمانيين لكي يذبحونا أو يصادروا أراضينا أو يهجرونا من البلاد. أليشوف والألياه والهاشومير وحتى بو علي زيون... الجميع لا يأتون بأية حركة في هذه الظروف، لكي لا نقدم للأتراك ذريعة تجعلهم يفتكون بنا. وأنت وهؤلاء الأولاد تعتبرون المسألة لعبة. تتعاملون مع السفن العابرة وتتسللون إلى مصر. تريدون أن تفرضوا رأيكم على الملة كلها؟ هل استشرتم أحداً قبل أن تقدموا على هذه المغامرة؟ أم أنكم نصّبتم أنفسكم زعماء للشعب اليهودي، تشتغلون باسمه دون استشارته؟ ثم على الشعب كله دفع نتيجة مغامرتكم. نحن في غنى عن كنز قارون الذي تجلبينه إلينا. وقسماً إذا لم

تتوقفي عن هذه الولدنة سنبلَغ عنك بأنفسنا.

وقد بذلت سارة جهداً كبيراً لمحاولة شرح أهمية التحالف مع الإنكليز وما يقوله أخوها آرون عن معاني وعد بلفور الذي صدر مؤخراً. فهذا أول الغيث. لكنهم ردوا عليها بأن هذا يعني أن عليهم أن يلتزموا الهدوء في الظروف الحالية، طالما أن الكبار يلعبون، لكي لا يروحوا معساً بين الأرجل.

وخرجت سارة من الاجتماع مختنقة. إن مخاوفهم حقيقية ومشروعة وصحيحة. ولكن لم يعد من الممكن بالنسبة لها أن تتراجع عما بدأت به. إنها قد دفعت الثمن من جسدها. وغامرت بحياتها. وضحت بحبيبها. وورطت آرون بالاعتماد عليها. وبشكل مباشر او غير مباشر صارت يداها ملوثتين بالدم. لم يعد التراجع ممكناً. يجب أن تكمل بنفسها.

ولقد أخافها فعلاً ذلك الإنذار بالتبليغ عنها. لكن الإنذار الأكثر خطورة وجدية جاء إلى يوسف من ناحيم أحد زملائه السابقين في الهاشومير. إن زعماء الهاشومير قد قرروا أن إنقاذ الشعب اليهودي من هذه الورطة يقتضي التخلص من نيلي. وهذا يعني التخلص من سارة ويوسف أولاً.

ونقل يوسف هذا التهديد إلى سارة فزاد في اضطرابها وقلقها. وأضاف يوسف: ربما كنت لم أحك لك عن

زعيمي الهاشومير شوشات ومانيا. الاثنان متوحشان. لا يعتبران أن من الممكن استكمال مغامرتهما في أرض إسرائيل إلا بالعنف. لذلك فإنهما مصران على الاستمرار في تنظيم الهاشومير المسلح، على الرغم من تشدد الدولة في مسألة السلاح. وهو أمر يختلف عن مغامرتنا بالنسبة لهما. فوجود السلاح ضروري للحماية الشخصية، ولحماية المزارع من احتمالات السطو والسرقة. وهو الاحتياط للنهوض في المستقبل حين تحين الفرصة. كما أن الدولة حين تعثر على السلاح قد تحاسب صاحبه أو حامله ولا تحاسب الشعب اليهودي كله، مثلما سيحدث إذا كشفوا تنظيمنا. ولكي تزي جدية التهديد على حقيقتها، أقول لك إن مانيا أكثر دموية ووحشية من شوشات، الذي يصول ويجول مع عناصره المسلحين بملابس نصفها شركسية ونصفها بدوية. مانيا حين كانت في مينسك أحست بعنصر مخابرات يلاحقها فأغوته. استدرجته إلى بيتها. وهناك بعد أن تعرت له، قامت بقتله. ولكي تخفي فعلتها قطعت الجثة قطعاً عديدة. لفتها بأكياس ووزعتها في كافة أنحاء المدينة. هذه هي المرأة التي تهددنا الآن. لقد فعلت تلك الفعلة وهي شابة ناعمة في العشربنيات من عمرها. فتصوري ماذا يمكن أن تفعل الآن وهي تقترب من الأربعين.

مصير مشترك يجمعها بيوسف الآن. وهو ختام

لمجموعة من الأشياء المشتركة كان أبرزها مغامرة كل منهما إلى مصر والنجاح المشترك في العمل، والحزن المشترك على أفشالوم.

تطلعت إليه في الظلمة التي تحيط بالمختبر: هل أنت خائف؟

– نعم. خائف.

* هل نتوقف؟

– لا.

– ٤ –

في قيسارية أفاق القائم مقام مبكراً وراح يمارس هوايته اليومية في كش الحمام. وكانت فرحته الصباحية تكتمل إذا تمكن من جذب حمامة غريبة من رف غريب والإمساك بها ليقص لها جناحيها، ويتركها بين رفوفه إلى أن تألف المكان وتصبح من ضمن مقتنياته. فرحته بهذا تعادل أية فرحة أخرى في حياته الناشفة في هذا المكان الذي يراه كالمنفى.

وما إن بدأت الحمامات تنزل لتأكل حتى نزلت معها حمامة غريبة. انشرح صدره إذ يبدو أنها من نوعية ممتازة.

أسرع يجلب الشبك الخاص بالتقاط الحمام الغريب الذي يكسبه، وأمسك بها. وفي رجلها وجد رسالة مكتوبة بطريقة غريبة. ترك الحمام وركض إلى التلفون.

وفي القيادة تبين أنها رسالة سرية مشفرة مرسلة إلى أللنبي. وبتوقيع غريب: نيلي.

الفصل السادس والعشرون

– ١ –

يعني يا أفشالوم: يا حبيبي يا ابن عمتي. أكان ضروريا أن تُقتل في الزويد قرب العريش؟ يا أخي كنت اعملها في مكان قريب. ولا تتعبني. ما الفارق بين أن تقتل عند العريش أو عند.. أين؟

ندم لأنه شرب العرق. هذا العطش الشديد سببه العرق. ولكن كيف كان سيستطيع مواجهة سارة لولا أنه كرع نصف الزجاجة؟ لو أنه تهرب من لقاء سارة لاستطاع تجنب الشرب. حجة. أنت تريد أن تشرب. ولم تعد تستطيع أن تعيش بلا مشروب. أنا؟ أنتم لا تعرفونني. أنا أشرب العرق ولا أسمح للعرق أن يشربني. هاأنذا أقطع الصحراء وأبحث فيها عن أفشالوم لأعود به. كم يوماً ستحتاج هذه؟ وكلها دون أية قطرة مشروب. ومن كان سيمنعني لو أنني جلبت معي المشروب؟ أنا لا أريد. ولكن كان لا بد من الشرب صباحاً لتوديع المشروب. ألا يودع الإنسان صاحبه بكأس؟ وكان لا بد من الشرب لمواجهة سارة. ألا يتزود الإنسان بكأس لمواجهة خصومه؟ سارة. يا عمي. ماذا يهمها؟ أهلها زناكيل ومرتاحون. وهي معززة في المختبر الأميركي اليهودي الذي تحميه وتموله أميركا. وهي بنت آرونسون.. أخت

آرون. وحلوة. طبعاً حلوة. وتنيّك على كيفها. لهذا كان كبار الضباط يترامون عند أقدامها بعد أن يسكروا، ليتقيأوا معلوماتهم أمامها. ليست مثلنا نحن المعترين. صحيح أنا لا أشكو شيئاً من ناحية المال. بل أكسر عين أكبر جخَيخ في البلد. وحتى من جهة النسوان لا أقصر. كنَ أكثر من الهم على القلب حتى في روشيون لوزبون. وكل نزلة إلى القدس أو الشام كنت أدبر رأسي مع أخريات. وأجساد النساء لا دين لها. اليهودية مثل النصرانية مثل المسلمة. لم يكن ينقصني شيء. ولكن الأمن هو الأساس. ومسألة سميح ثم مجيء ابنه ثم عارف بعده يجعل الخمارة معرضة لخطر المداهمة في أية لحظة. وتدفق الضباط والغانيات عليها يعني أيضاً تدفق المخبرين. لسنا وحدنا الباحثين عن المعلومات. ومن يحمي خمارة؟ حتى أبناء ملتنا سيهزون أكتافهم. سيقولون: خمارة وما كانت. تنسون فضلها الآن؟ هذه خمارة كانت تتدفق فيها الخمور والأموال والمعلومات. ولكن أولئك الضباط الذين ينثرون معلوماتهم متباهين على الطاولة، ويتقيأونها بعد السكر، هم أنفسهم الذين يصبحون خطرين ومتشككين وقبضايات. وهم الذين يمكن أن يضربوا ويطلقوا النار ويشتموا اليهود أولاد الميتة. ليسوا هم فقط. بل هم وأولادهم. تقتل جواسيسهم. ولكن هل تستطيع أن تقتل أبناءهم؟ ومتى

حدث القتل وطلعت الرائحة لا يشم أحد إلا رائحة الخمارة. فإذن خمارة وما كانت. يتركها هو الآخر. يدبرون أمورهم. سنرى كيف يدبر ليوفا رأسه مع هؤلاء السكارى. لا أخاف عليه حتى لو قرأ لهم من شعره. حتى سارة ويوسف يتدبران الأمر. أنا لن أظل مرهوناً في الخمارة؟ هناك ما هو أهم. على الأقل بالنسبة لي. هناك أفشالوم.

* وبالنسبة لنا أيضا كان أفشالوم مهماً.

– بالنسبة لكم كان. بالنسبة لي لا يزال مهماً. ثم أنت يا يوسف أفندي. إخرس. لا تتحدث معي في هذا الموضوع نهائياً. خل سارة تتكلم.

وتكلمت سارة: هل أنت مجنون؟

– حين أذهب للبحث عنه أصبح مجنوناً. أما حين يورطه يوسف ويضيعه فليس جنوناً.

* تعرف! هناك شيء اسمه علك الصوف. كلامك عن أفشالوم بهذه الطريقة مثل علك الصوف.

بعبرة مخنوقة قال: وأنا أحس في فمي طعم الصوف المعلوك. حياتي كلها صارت صوفاً معلوكاً. أنا أنام فأرى في الحلم جثة أفشالوم والكلاب تنهشها. أو أرى الطيور تأكل منها. وأحيانا أراه جريحاً يستنجد بي ويطلب شربة ماء. ما أدراني أن يوسف لم يتركه جريحاً في الصحراء؟ يا سارة أنا لا أرى في نومي إلا الجثث. ولا

أسمع إلا صوت أفشالوم يستنجد بي.
* بطّل شرب العرق فتتخلص من هذه الكوابيس.
– بطلوا نصائح أشرف لكم.
حاول يوسف أن يتودد: هل ستسافر في هذا الحر؟ إنتظر إلى الليل.
* أنت حمار. في الليل أثير الشبهة.
نهضت سارة بحزم: أولاً كان يجب أن تأتي قبل أن تسكر.
* أنا سكرت خصيصاً لكي أجيء إليكم.
عقب يوسف: من يسكر صباحاً إلا المجنون؟
ظلت سارة على حزمها: ثانياً إذا كنت لا تريد أن تسمع رأينا فلماذا تجيء إلينا؟ إذهب. ها هي الصحراء أمامك. ستين عمرك.
لماذا ذهب إليهما فعلاً؟ هل أراد أن يعمق تهمته في قلب يوسف؟ أم أراد أن يجعل سارة ترى ما يفعل منذ البداية؟ استعراض سخيف. تذكر حين كانوا فتياناً يسبحون في بركة المزرعة في زخرون ياغوف. كانوا يتبارون في الغطس. وكان يومها يحس إحساساً مبهماً نحو الصبايا. لم يكن يعرف ما يريده منهن. لكنه كان يحب اكتساب إعجابهن باستعراضاته، وهو يصعد إلى أعلى الشجرة ليغطس في البركة. كان ينتظر أن تتطلع نحوه إحداهن، وسارة بشكل خاص، فيقفز بمهارة

متظاهراً بأنه لا يراها. هل يفعل ذلك الآن مع سارة؟ هل كان يستعرض شيئاً ما أمامها؟ هل أهان يوسف صاحب العضلات والجسد الفارع القوي لكي يجبره على الاشتباك معه أمامها؟ لا. طز في سارة وفي كل نساء الدنيا.

الآن يريد أفشالوم فقط. ويريد أن تخف حدة العطش في حلقه. هذه المطرة اللعينة كأنها تسخن الماء. يشرب جرعة منها فيحس كأنه يشرب بولاً. وهذه الحرارة اللاهبة. خطر له أن يقذف بالمطرة. وجودها مثل عدمه. لو عبأتها عرقاً لاختلف الأمر. والله كان أحسن. هذا الماء فيها لا قيمة له. وهي أيضاً لا قيمة لها. ولكن لا. في الليل سيبرد الماء. سيشرب ويملأها من أول بئر. آ. بئر. لماذا لا يتوجه الآن إلى البئر الموجودة عند... أقصد وراء...

– قف...

تطلع إلى الجندي الذي يصوب البندقية إليه. ولحس شفتيه الجافتين ثم اقترب منه بلا مبالاة.

* مرحبا.

– ماذا تفعل هنا؟

* من معلمك هنا؟

– أنا أسألك: من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

* قل لمعلمك أنا نعمان بلكند.

ومد يده فأخرج بطاقة: من اللجنة الزراعية، لواء الجراد. أنا هنا في مهمة.

اقترب منهما رئيس الحرس. فأخذ البطاقة ودخل، بعد أن أوصى الجندي: لا تدعه يذهب.

وجلس نعمان على حجر قريب متجاهلاً الجندي وبندقيته، ليوحي له بفوقية خاصة.

وعاد رئيس الحرس: تفضل معي.

فنهض وتبعه إلى الداخل حتى صار أمام الضابط المسؤول. هذا الوجه غير مألوف. يبدو أنه ليس من زبائن الخمارة. أو أنه منقول إلى هنا مؤخراً. التحركات العسكرية كثيرة هذه الأيام. لكنها كلها لن تنفعهم. جيوشهم هزيلة. ومخروقة.

* معك هوية؟

شيء ما جعله يحس بالإعاقة. اللهجة والنبرة إضافة إلى التعب والعطش. ولم تسعفه براعته المألوفة في الكلام: ألا تكفي هذه البطاقة يا بيك؟

— لا تكفي. لماذا لست في الجيش؟

* محسوبك يهودي.. موسوي.. وأنا في لواء الجراد. في اللجنة الـ... هذه البطاقة فيها...

قاطعه: أعرف ما فيها. ماذا تفعل هنا؟

— جولة تفقدية.

* على ماذا؟

– على احتمالات وجود بيوض للجراد. يجب القضاء عليها نهائياً خلال الشتاء.

* هل كان عندنا جراد هذا العام؟

هذه فاتته. الجراد كان في العام الماضي. صحيح. لعنة الله على العرق.

* نحن نهتم بالتربة أيضاً.

– أنت علاّك. قرب إلى هنا. سكران؟

قبل أن يفلت الموقف تماماً، قال: أنا أبحث عن الميجور علي إبراهيم من سلاح الفرسان.

* من قال لك إنه هنا؟

– أليس هنا؟ كان متمركزاً قرب روشيون لوزيون. وهو قال لي إنه انتقل إلى...

لم يبد على الضابط أنه يريد أن يسمعه. أدار مقبض الهاتف: أعطني كتيبة الخيالة ٨٢.

الخيالة!! كيف غلط وقال: الفرسان؟

– ألو.. ٨٢؟ الميجور علي موجود؟ أعطني إياه. أنا الكابتن إسماعيل. إحترامي علي بيك. الله يسلمك. تعرف شخصاً (وتطلع إلى البطاقة) اسمه نعمان بلكند؟ (ضحك) يسأل عنك. إساله هو ما الذي أوصله إلي؟ طبعاً. طبعاً. سأرسله إليك معززاً مكرماً. خلليك معي لو سمحت.

أبعد السماعة عن فمه وتطلع إلى رئيس الحرس، الذي

كان ما يزال واقفاً: تضعه في سيارة وترسله إلى علي بيك مع اثنين من الحرس.

– أمرك.

وناوله البطاقة.

لم يجد نعمان أمامه إلا أن يخرج وراء السرجنت.

فور انتهاء المكالمة أحس الميجور علي أن الفرصة قد واتته للتعاون مع عارف بك حسب اتفاقهما في اللقاء الأخير. اتصل بعارف وأبلغه بضرورة حضوره حالاً، لأن هناك صيداً ثميناً ينتظره. وأدرك عارف ما تعنيه العبارة. قدر أنه سيصطاد اليوم الطير الحر. لذلك سارع بركوب سيارته وتوجه إلى كتيبة الخيالة.

– ٢ –

حين وصل نعمان استقبله الميجور علي استقبالاً حاراً. وصرف العسكريين المرافقين ثم دخل معه الخيمة. ومع الشاي سأله عما يفعل في هذه المنطقة. فكرر بعض كلامه السابق متجاهلاً الجراد. وأضاف أن هناك مشروعاً لزراعة نباتات خاصة في الصحراء. وأن الإدارة قد أرسلته لاستطلاع الأماكن التي يمكن البدء فيها. يجب البدء بأماكن صحراوية على أن لا تكون بالضرورة رملية. وتذكر السمسم فأضاف: يبدو أننا سنزرع السمسم.

السمسم هنا في الصحراء ! وكتم علي ضحكته: بارك

الله فيك. كيف عزمك مع الخيل؟

* الخيل؟

– نسيت أننا كتيبة خيالة؟ قم نتفرج على الخيول.

وخرجا فتجولا في الإسطبلات. ثم أخرج علي أحد الجياد. فركبه وجال به عدة جولات. ثم نزل ومد الرسن لنعمان.

* أرنا عزمك.

– لست خيّالاً مثلك. ولكن نجرب.

وامتطى الجواد وجال به. وفيما هو يجول ومضت في ذهنه فكرة أن يوجه الجواد خارج الثكنة ويهرب. لكنه أبعد الفكرة عن ذهنه. سيطلقون عليه النار أو يلحقون به. وتركبه تهمة لا يمكن الدفاع عنها. ولذلك لوى عنق الجواد، وعاد به إلى حيث يقف علي.

* خيّال!

– أعجبتك؟

* ظننت هذه الشوارب للمنفخة. وإذا بها لفارس بجد.

– الحصان ممتاز.

* كم يساوي برأيك؟

– تريد أن تبيع؟

* هل هناك من يشتري؟

* لا يخلو الأمر. ولكن أليست الخيول للجيش؟

* حط بالخرج. في أي يوم قصف يمكن أن تشرد خمسة

أحصنة ولا نعثر عليها. نرفع بها تقريراً بأنها فقدت أو نفقت. وخمسة أخرى يمكن أن يقتلها القصف.

– إذا كان الأمر كذلك أنا أجلب لك المشترين.

* إلى أين تجلبهم؟ تريد أن تفضحني؟ تحدد لي مكانهم فأرسل لهم الخيول ونقبض الثمن.

– ليتني أستطيع تصديق ذلك.

* ولماذا لا تصدق؟

وسارا باتجاه الخيمة. وعلي يتابع الكلام: أنت صديق يا نعمان. وأنا أعتبرك أخاً. ثقتي بك لا حدود لها. وإلا لما أدخلتك هذه الخيمة. ولما فتحت معك موضوع بيع الخيل.

* أقدر ذلك. ولكن لماذا عاملني الكابتن بهذه الطريقة؟

– لا تنزعج منه. من لا يعرفك يجهلك. والرجل يخاف. تخلص من المسؤولية لأنه لا يعرف كيف يتصرف. خاصة أنه رأى مدنياً و – عدم المؤاخذة – يهودياً بالقرب منه! أنت هنا عند أخيك.

عند باب الخيمة سأل الحاجب: رجع مروان؟

– ليس بعد.

والتفت إلى نعمان وهما يدخلان: أرسلت مروان يشتري لنا عرقاً وبعض المازوات. طوال عمرك تسقينا العرق. ألا يطلع لنا يوم نسقيك فيه؟

* بصراحة حلقي ناشف وأشتهي كأس عرق. ولكن حبذا

لو استطعت العودة.

– بعد أن عتمت الدنيا؟ أنا لا أرضى لك أن تذهب في هذا الليل. مئة من سيسألك: من أنت؟ وماذا تفعل؟ ما وراءك؟ نسهر ونتسلى. غداً أرسلك بسيارة إلى باب الخمارة على أن لا تعود فارغة.

وضحكا: تكرم عينيك.

فاستأنف علي حديثه السابق: حالتنا صعبة يا أخي نعمان. نحن يرموننا في هذه الصحراء. في فم المدفع كما يقولون. وهم يسهرون الليالي في السكر والبسط والقمار. قد لا تصدق لو قلت لك إنني أستدين لكي أكمل مصروف الشهر.

* مع أن الضباط...

– هذا كلامنا. الذي يدبّر رأسه يتبحبح. والذي لا يبحث عن رزقه تروح عليه. لماذا أفكر ببيع بعض الأحصنة؟ لأنني جئت أستلم الكتيبة التي فيها ثلاثمئة حصان فوجدت مئتين وثلاثين. تصور. ومازال التموين يرسل العلف لثلاثمئة حصان. حتى العلف يسرقونه ويبيعونه.

* أعرف. أنا أشتري علفاً من الجيش.

– لديك مواشي؟

* لا. أبيعه للمزارعين في المستوطنات.

– برافو. أنت تعرف كيف تدبر رأسك. والجميع يدبرون رؤوسهم. وقفت عليَ أنا؟ هل أبقى أستدين لكي أشرب

كأس عرق؟ وإلى متى؟ إلى أن تجيئني قذيفة عميانة تقضي علي؟ ولماذا؟ لكي يقولوا شهيد؟ يا سيدي طز. الجنود يموتون في الطرقات، ولا يسأل أحد عن أسمائهم. تصدق بالله؟ بعض الضباط لا يرفعون أسماء الموتى والقتلى عندهم لكي يظلوا يقبضون رواتبهم وطعامهم وملابسهم، مثلما يستمرون في استلام العلف عن الخيول الناقصة.

– خلض علي بك. وحياتك أنا أدبرك. لكن أنت عليك الحماية والتغطية.

* ولا يهمك. الحماية مؤمنة. ورئيس شرطة القدس صاحبي الروح بالروح.

– عارف بك؟

* تعرفه؟

– نسيت أنه زارنا في الخمارة؟

* صحيح. رأيت كم هو صاحبي؟ هذا ينزل شريكاً معنا. تأخذ أنت عشرة بالمئة. كافٍ؟

– نعمة. ولكن أخاف منه. جاء منذ أيام وسأل عن ابنه. إبنه ألله يصلحه....

* لا تكمل. سنعطيه هو عشرين بالمئة. وسينسى ابنه وأمه. يكفيه عشرون بالمئة. ألا يكفيه؟

– يكفيه.

ووقف الحاجب بالباب: وصل مروان يا بيك.

* أدخله فوراً.

وغمز علي لنعمان هامساً: نؤجل الحديث.

دخل مروان فوضع ألفية العرق.

وبدأ اثنان من العساكر يرتبان الطاولة، بينما سأل مروان: كيف تريدون الدجاج يا بيك؟

– مشوي.

والتفت إلى نعمان: الشوي أطيب مع العرق.

– طبعاً. مع الزيت والثوم. عندكم زيت؟

* عندنا لبن العصفور. كأسك.

– كأسك.

أفرغ نعمان نصف الكأس في رشفته الأولى فأحس بالعرق لا يصل إلى معدته بل يتوزع من حلقه عبر شرايين جسده كلها: آه... رجعت لي روحي.

وضحكا.

وسمعا صوت سيارة. قال علي للعسكري. شوف من جاء.

وأطل العسكري من الخيمة: عارف بيك.

* عارف بيك؟ ما هذه الصدفة؟

ثم همس لنعمان: جاء في وقته. سنرتب كل شيء اليوم.

ودخل عارف. فهتف علي: أذكر الديب وهيئ القضيب.

قال نعمان متأدباً: بل ابن الحلال عند ذكره يبان.

قال عارف: كنتم في سيرتي إذن. أللهم استرنا.

ولم ينس أن يبدي دهشته لوجود نعمان: يظهر أصحابك يلحقون بك أينما ذهبت.

فرد علي: طبعاً. أولاد الأصل لا ينسون العِشرة.

وتطلع عارف إلى المائدة: عمرانة.

* سلامة خيرك. تفضل.

وجلسوا. فبادره علي بسرعة: ما الذي جاء بك؟

تطلع عارف إلى نعمان: أهكذا يُستقبل الضيوف؟

وضحكوا.

قال إنه كان في مهمة. ولم يضف شيئاً. فبادره علي: إحك. نعمان أخونا. ما هذه المهمة؟

فأضاف عارف: بصراحة يبدو أن الألمان قد قرروا وضع ثقلهم في الحرب هنا أخيراً. سينزلون الدبابات. جاء لواء ألماني مدرع. وسيتمركز غداً قرب غزة. ويجب تأمين طريق تنقله. نشرنا الدرك على طول الطريق لكي يُخلوه غداً. عمرنا لم نستطلع طريقاً لنخليه قبل أربع وعشرين ساعة من تحرك القوات. ولكن الألمان حريصون.

تطلع علي إلى نعمان: تصور لو أنك ذهبت والشرطة تملأ الدنيا.

– ألله ستر.

في العادة كانت أذنا نعمان تتنبهان لأحاديث كهذه. لكنه

اليوم يعتبر نفسه في إجازة. لقد ودع سارة ويوسف. وهذا يعني أنه قد أعفى نفسه من جمع المعلومات. كان سيأخذ بعض الملاحظات في الطريق، ليحكيها للإنكليز حين يصل إلى خطوطهم. ولكن يبدو أنه قد أخطأ في توقيت رحلته. مادامت هناك حركات عسكرية بهذا المقدار، وما داموا صاروا يحرسون الطرقات بهذا الشكل، فالحمد للّه أنه وصل إلى هنا، ولم يقع بين أيدي أناس لا يعرفهم أو بين أيدي الألمان.

* إشرب. لماذا لا تشرب أخي عارف؟

– يا أخي، أنت تعرف أنني لا أحب المشروب.

* لا. نحن نسكر وأنت تبقى صاحياً لتضحك علينا. لا نقبل. يجب أن تشاركنا وتنبسط معنا.

قال له نعمان: هل هناك أحد في الدنيا لا يحب المشروب؟

قال عارف: يا جماعة لا تحرجوني. أنا لا أنبسط بالعرق.

فسأله نعمان: بماذا تنبسط؟ لبن العصفور؟ يحضر. نرسل سيارة إلى الخمارة ونجلب ما نريد.

ضحك علي: ألم نقل إن لبن العصفور عندنا؟

اعتذر نعمان: سلامة خيرك. الخير هنا وافر فعلاً. الشهادة للّه علي بك لا يقصر. وإن شاء الله سينفتح له طريق رزق جديد.

تطلع عارف إلى علي بحرج مصطنع، وقال: بصراحة..

أنا.. وتردد.

فقال له علي بحدة: لم أنت محرج؟ إحك. قلت لك نعمان أخي.

قال عارف: يا جماعة أنا لا أنبسط بالمشروب. أنا أعمّر سيجارة.

صاح نعمان: إي قلْها من الأول. هات ونحن نعمّر معك.

وضع عارف قطعة الحشيش على الطاولة. وأخرج علبة تبغ ودرج لفافة. ففعل نعمان مثله بينما اعتذر علي لأنه لا يحب الحشيش. وامتدت السهرة بين السجائر المعمرة والكؤوس. وعارف يبذل جهده في أن يدرج اللفافة تحت الطاولة دون حشيش. وعلي يقود الحوار حول صفقة الخيول.

قبيل منتصف الليل بدأ الارتخاء يصيب نعمان واستيقظت أحزانه. فقال معتذراً: أعذروني يا جماعة. أنا يمكن سكرت.

فقال علي: وهل نشرب إلا لنسكر؟ خذ راحتك. أنت مع أخويك. أليس لك أخوة؟

فتنهد نعمان: كان لي أخ أحسن من مليون أخ. ابن عمتي. شاب مثل الزهرة. شاعر وفهمان وقبضاي. الملعون يوسف لعب بعقله. وأقنعه أن يذهب إلى مصر. لماذا؟ قال لأن الإشارة لم تصل. ستصل. لم العجلة؟ لأ. أخذوه. وضيعوه. قتله البدو في سيناء. تصور. هو

ذهب من هنا، والغواصة جاءت من هنا. يعني راح بلا طعمة. أنا كنت ذاهباً للبحث عنه. تصور الكلب الحقير يوسف. تركه في الصحراء جريحاً. حتى لو كان قد مات. كيف يطاوعه قلبه أن يتركه مشلوحاً في البرية لتأكله الوحوش؟ هل تستطيع أن تتخيل صديقاً أو قريباً أو أخاً لك تأكله الوحوش؟

واسترسل نعمان يحكي تحت تأثير الحزن والخمر والحشيش حتى غفا حيث يجلس.

وحين استيقظ وجد نفسه في الطريق إلى السجن في دمشق.

الفصل السابع والعشرون

– ١ –

كان الأمير فيصل في أحسن حالاته. فقد وصل شكري العسلي ليلتحق بالثورة. ويبدو أن الحماس الذي كان يعتمل في صدر هذا الرجل قد نقل الحرارة إلى صفوف المقاتلين كلهم. فقد كان العسلي ضابطاً في الجيش العثماني. وكان يحارب على الجبهة الروسية التركية. وحين سمع بالثورة العربية التي نشبت في الحجاز ترك الجيش وفرّ عبر الخطوط الروسية في القفقاس. ولأنه أشقر فقد تعاملوا معه بوصفه ضابطاً ألمانياً. ثم لما ثبت لهم أنه رجل مسلم من دمشق سمحوا له بالسفر عبر مضيق أرفانجل إلى أوروبا ومنها إلى مصر فالحجاز. وقد وصل إلى مكة وانضم إلى الجيش العربي.

وحين التقى بالأمير لم يستطع أن يخفي قلقه من وعد بلفور. وكان الأمير قلقاً مثله. ولكن والده الشريف طمأن الجميع. وأرسل أنه قد جاءته تفسيرات مطمئنة لهذا الوعد. فهو لا يعني أكثر من حق الهجرة إلى الأراضي العربية والعيش فيها. ويرى حلفاؤنا الإنكليز أن سماحة الدين الإسلامي تطفئن هؤلاء الموسويين الذين تعرضوا للمذابح في معظم الدول الأوروبية. ومع ذلك فالأمير ينتظر عودة لورانس من مصر ليجلب له إيضاحات.

وحين عاد لورانس إلى العقبة، أبلغ الأمير أن الجنرال أللنبي مسرور من أداء القوات العربية، و«يهنئنا» لحسن بلائنا في الاستيلاء على العقبة. وقدم له الخطة القادمة التي تقضي، حين يأتي توقيت الهجوم الشامل، بأن يتقدم فيصل بالقوات العربية عن يمين نهر الأردن. بينما يتقدم أللنبي بالقوات الإنكليزية شمالاً داخل فلسطين.

ولكنه لاحظ أن الأمير ليس على ما يرام. وسأله إن كان مزاجه متعكراً بسبب ما يشاع عن اتفاقية سايكس بيكو. فقال له فيصل: ليست اتفاقية سايكس بيكو وحدها. ولست وحدي القلق. كلنا، أنا وجماعتي، قلقون من وعد بلفور. ما الذي يريده جماعتك بالضبط؟ فقال له لورانس إنه قلق مثله. وإنه قد فتح الموضوع في القاهرة. ويبدو أن الموضوع ليس كما يبدو للوهلة الأولى.

– ماذا يعني أنه ليس كما يبدو؟ أنا أريد أن أعرف هل ستكون فلسطين عربية وتحت الحكم العربي؟ أم لا؟

* هذا ما سألت عنه. وأظن أن الجواب مطمئن. وسيأتي وفد يهودي إلى الشام، وإلى عندك، وعند جلالة الملك، الوالد الكريم، إذا أحب، لتوضيح ما يريده اليهود، وتفسير وعد بلفور.

– ومتى سيأتون؟

* أظن أن وايزمن سيكون عندك قريباً.

وقبل وصول الوفد اليهودي برئاسة وايزمن وصل عدد من صحيفة القبلة التي تصدر برعاية الشريف حسين في الحجاز، وفيها افتتاحية تؤكد: أن الموسويين أبناء عمنا. وهم في ضيافتنا. ونحن نجيرهم ونؤمن حمايتهم. فهم من أهل الكتاب الذين أوصانا الله بهم. فنحن نحسن معاملة أهل الكتاب كلهم. واليهود، مثلهم مثل الأرمن والنصارى، سيعيشون بيننا بأمان. وأعاد التذكير بالرسالة التي سبق أن أرسلها إلى فيصل وعبد الله الجربا يوم مشكلة الأرمن:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن المرغوب بتحريره المحافظة على من تخلف بأطرافكم وجهاتكم وبين عشائركم من الطائفة اليعقوبية الأرمنية تساعدوهم على كل أمورهم وتحافظون عليهم كما تحافظون على أنفسكم وأموالكم وأبنائكم. وتسهلون كل يحتاجون إليه في ظعنهم وإقامتهم. فإنهم أهل ذمة المسلمين. والذين قال فيهم صلوات الله عليه وسلامه: من أخذ عليهم عقال بعير كنت خصمه يوم القيامة. وهذا من أهم ما نكلفكم به وننتظره من شيمكم وهممكم. والله يتولانا وإياكم بتوفيقه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعقد الاجتماع المرتقب بين وايزمن وفيصل في العقبة. وقد بدأه فيصل بالتعبير عن ارتياحه من

التصريح الذي أدلى به وايزمن قبل اللقاء، وقال فيه: إن اليهود «لا يسعون إلى تأسيس حكومة يهودية في فلسطين. ولكنهم يريدون أن يعمروا البلاد تحت الحماية البريطانية، دون أن يتعدوا على أية مصالح مشروعة للآخرين». وأخبره وايزمن أنه سيسافر قريباً إلى الولايات المتحدة حيث سيستعمل «نفوذ اليهود مع الرئيس ويلسون لمصلحة الحركة العربية».

وكانت هذه التصريحات مطمئنة للأمير فيصل. فراح يتهيأ للهجوم شمالاً. وأرسل لورانس للاتصال بالقبائل العربية وتهيئتها للانضمام إلى الثورة.

— ٢ —

ولكن العالم يتغير بأسرع مما يلتقط الناس فيه أنفاسهم. ثورة في روسيا يقودها شخص اسمه لينين تسقط القيصر وتخرج روسيا من الحرب.

— ومن هو لينين هذا؟ وماذا يريد؟

* يريد أن يحل محل الرب. سيعيد توزيع الثروات بين البشر. سيعيد العدل إلى الأرض.

— إذن هو القائم المهدي. هل هو مسلم؟

* ربما.

— ومن هو الأعور الدجال إذن؟

* أللنبي.

— بل جمال باشا.

* جمال باشا صار لا شوكة ولا ذبَاحة. الأعور الدجال هو علي فؤاد.

– بل فالكنهايم. الألمان هم شعب ياجوج وماجوج.

* لماذا لا تقول إنه الشريف حسين؟

– هذا من سلالة الرسول صلى اللّه عليه وسلم.

كانوا يتسلون بهذا الكلام في بيروت بانتظار سماع خطاب جمال باشا. ولم يكونوا كلهم يعرفون بالتطورات الأخيرة التي طرأت على وضعه. وقد تهيأ مغنٍّ خاص لتحيته، كما اعتاد أن يحيي كبار الضباط في الجيش الرابع الذي يتهيأ لعبور قناة السويس. وقد سمع باعتزاز بعض المتحدثين بالانتصارات التي حققتها جيوش الدولة العلية في جناق قلعة وفي الكوت.

دوزن عوده وبدأ يغني استعداداً لمجيء الباشا:

للكوت أرضاً لها قد صابنا كسرة

حتى وصلنا لإيوان البناه كسرى

ناديت: يا خالقي نصراً عقب كسرة

جانا النصر والعدو أصبح غدا مكسور

للكوت وصَل وحاصر بي قلب مكسور

خمسة عدد أشهرا وخاطره مكسور

وسادس شهر بالرغم سلم عقب كسرة

وبدأت التعليقات التي يدلي بها بسطاء يرسمون الحروب كما يشتهون ويتمنون. تساءل أحدهم عن

سبب فشل الحملة السابقة على القناة. فلكزه آخر محذراً: ما لنا ولهذا الحديث؟ الآن سيوضح لنا الباشا كل شيء. ولكن ثالثاً علق متعالماً: الألمان خاوذوا معنا. وأراد الثاني أن يعيد الحديث إلى الإيجابية التي تعود عليه بالسلامة: ولكن هذه المرة مضمونة بإذن الله.

– كيف؟ كيف سيعبرون الترعة؟

* سمعت أنهم سيرمون الجمال في الترعة حتى تصير على سوية الشط. وبعدها يعبرون.

– وكيف سيصلون بالجمال إلى الترعة؟ هل سيتركهم الإنكليز يصلون؟

* الخطة كما يلي: يعطشون الجمال عدة أيام. ثم يفلتونها. أين ستذهب؟ إلى الترعة. ستندفع فيها. وستشرب ماء مالحاً وتموت.

– حكي ما له طعم.

* تفضل. تفصحن أنت.

– لا حل إلا بردم القناة بالرمل.

وساد الهرج فعرفوا أن الباشا قد وصل.

* الآن يوضح لنا الباشا كل شيء.

وتقدم المغني إلى حيث يصير مسموعاً أكثر. ورفع عقيرته:

نار اللظى الولعن جوا ضامري ترعى

ومجارح القلب من كثر الألم ترعى

بعيني شفت العساكر بجمال لها ترعى
جانا الخبر يارفاقا دخل الأعادي مصر
وجيوش إسلامنا هجمت وصاحت مصر
ربي بجاه النبي وبجاه غفيرة مصر
تنصر ملكنا وبركي ناخد الترعة.

وقف جمال باشا أمام الناس. وعرى الفضائح التي يعرفها، قبل أن يغادر إلى ألمانيا. حكى أن الخارجية الروسية المنسحبة من التحالف بعد الثورة قد نشرت اتفاقاً سرياً بين سايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسي يتضمن أن هذه المنطقة العثمانية التي يطمح الشريف حسين لحكمها بصفتها دولة عربية واحدة، وبصفته ملكاً عليها، سيتم تقاسمها بين الإنكليز والفرنسيين. وإن اليهود يعملون لصالح الإنكليز. لأنهم موعودون بتحقيق حلمهم في دولة يهودية في فلسطين. ووعد بلفور الصادر مؤخراً هو تعهد إنكليزي رسمي لتحقيق الحلم اليهودي. وإن التفسيرات الإنكليزية والصهيونية لهذا الوعد والتي قدمت للشريف حسين وقَبِلها الشريف تجعله يظهر بمظهر البدوي المغفل وهو يتحدث عن العلاقة مع اليهود من خلال القرابة معهم وتقاليد الضيافة في عالم جديد قائم على المخططات والمشاريع. إنه يدخل عالم السياسة المعاصرة بعقلية مشايخ العشائر، التي تقبل كلمة الشرف ومسك الشوارب

بدلاً من الاتفاقيات. لقد سلم العرب رقابهم للإنكليز والفرنسيين وهم يتوهمون أنهم يتحررون من العثمانيين. والشريف حسين – يروح ويرجع للشريف حسين لعمق الجرح الذي تركه في نفسه – إما أنه لا يعرف بما يجري وهو، بالتالي، غبي ومغفل يقود الآخرين إلى المسلخ، ويجعل العرب والمسلمين مضحكة ومسخرة. وإما أنه يعرف، وبالتالي فهو خائن للإسلام والعروبة معاً. وإنه، أي جمال باشا، لكي يبرئ ذمته أمام التاريخ، وأمام الله وأمام العرب والمسلمين، قد قام بإرسال نسخة من اتفاقية سايكس بيكو إلى الأمير فيصل في العقبة. ودعاه إلى الانشقاق عن الإنكليز والتعاون معه، أي مع جمال، قبل فوات الأوان. وكذلك أرسل نسخة إلى الأمير عبد الله الذي كان من أكثر المتحمسين والمشتغلين لهذا الاتفاق بين الشريف والإنكليز. وهو – أي جمال باشا أيضاً – يعرف أن عبد الله لم ينزعج لما عرفه بعد أن عرف. وأن فيصل اضطرب وأرسل الاتفاقية إلى أبيه يسأله الرأي. فقام الشريف حسين بإرسال الاتفاقية إلى الإنكليز أنفسهم يسألهم عن صحة ما جاء فيها. فكان جواب الإنكليز أنهم شكروه على ثقته بهم، هذه الثقة التي تفوّت الفرصة على جمال باشا – تصوروا عليّ أنا – في شق التحالف الإنكليزي الشريفي. ولكنه – أي جمال باشا

أخيراً – ولكي يبرئ ذمته كاملاً أرسل الاتفاقية إلى جعفر العسكري، القائد الأعلى لدى الأمير فيصل، لكي يكون الضباط العرب المخدوعون على بينة من أمرهم. ولكي يعرفوا إلى أين يقودون أمتهم وهم منخدعون بالشريف.

وختم جمال باشا خطابه – الذي لم يهتم به أحد – بأنه مهما انتهت إليه الأمور بعد الآن، فقد صار مما لا شك فيه أن خادم الحرمين الشريفين الآن هو الملك جورج الخامس ملك إنكلترا.

ونزل عن المنصة وهو يحس بالاختناق. لكن المغني، الذي لم يفهم شيئاً من الخطاب، أحس أن دوره قد جاء. فانطلق يغني محيياً الباشا:

ما ظن متل هادي الحرب بالتاريخ مصر
حتى الأخلا غدوا ما عاد ليهم مصر
النار بالجوف تكوي بالضماير مصر
حتى دعاني زماني بالذي ترعى
ومدامعي فوق خدي ع الوجن ترعى
إنْ قدر الله لا زم ناخد الترعة
وندوس هام العدا وبالسيف ندخل مصر

– ٣ –

أبلغه أتلخان باختفاء نهال. وكان متأكداً من أن الحادث قتل مدبر. نهال لم تصل في القطار إلى بيروت. والذين

كانوا ينتظرونها في المحطة لم يروها. صحيح أن الجثة لم يعثر على أثر لها، ولكن ما معنى الدم في حجرة القطار؟ وما معنى الحبل المدمى الذي وجد مربوطاً إلى الحجرة؟ مثلما ظل الحبل لغزاً عندهم في موت إسرائيل جيب فقد تركوا لنا حبلاً ملغوزاً أيضاً.

زعل عارف من قلبه. وأحس بالندم على قسوته معها، وعلى رأيه فيها. أحس بالشفقة. مسكينة. كيف واجهت هؤلاء الوحوش؟ ليته كان معها. وكيف سيخطر له أن عليه مرافقتها؟ لقد عرض عليها البقاء فرفضت. لا شك أن أحد أسباب رفضها معرفتها برأيه القاسي فيها.

قال: في اللحظة الأخيرة قبل سفرها كانت خائفة. ولذلك سافرت بالقطار. ولم تسافر بالعربة. كأنها كانت تتوقع أن يتعرضوا لها.

وقال له أتلخان: لقد قتلوها. ويجب أن نضع باعتبارنا أن القتل صار من مفردات اللعبة.

* ماذا تعني؟

– أعني أن نهيئ أنفسنا لاحتمال أن نُقتل وأن نتعرض للقتل. تغيرت قوانين اللعبة يا عزيزي. وصلنا إلى الدم.

* وهل الدم جديد؟ لقد قتلوا سميح من قبل.

– وهذا يعني أننا دخلنا الحرب. حربنا الخاصة بنا.

* ولكن يجب القبض على الجاسوس حياً.

– أنت تفكر في ألتر ليفي. نعود إلى رأيك في الطير

الحر. ولكن تذكر ما قلته أنت لمدحت بيك. هذا الطير في النهاية من الجوارح. أعني أنه قد لا يقبل بالتسليم. ولذلك قد يقتلك وأنت تسعى للقبض عليه حياً، فتجد نفسك مضطراً لقتله.

قال عارف: كنت ظن أنني أطارد الطير الحر. الطير النادر. ولكن الطيور صارت رفوفاً. كالنحل والذباب. لم أعد أعرف أي الطيور هو الأهم بينها.

قال أتلخان: أليست طيوراً مهاجرة نحو هدف؟ حتى الطيور التي تهجر يكون لها زعيم. أنظر إلى القطا والكراكي المهاجرة. كل رف له زعيم. كتب فريد الدين العطار في «منطق الطير» عن رحلة الطيور إلى هدف معين. وقد اختاروا الهدهد زعيماً لهم. ربما كان عليك أن تقتل الهدهد لكي يتشتت السرب.

– أو أقبض عليه.

ونهض مهموماً: أكاد أضيع يا جواد بيك. دوخوني.

– معك حق. ولكن من الواضح أن لسارة آرونسون علاقة بالأمر.

سارة. لماذا يحس بالخجل كلما ورد ذكرها؟

* لا، ألتر هو الهدهد.

ولكنه حين قرأ التقارير التي تجرأ عناصره على كتابتها بحق امرأة كانت تعتبر من خصوصيات الباشا، واستمع إلى القصص التي يتندر بها زملاؤه عنها في الجلسات

الخاصة المأمونة، والتي كان فيها كذباً أم ادعاءً، مغامرات جنسية معها، أحس أن هناك ما يعتصر قلبه.هذه المرأة ممكنة ومباحة إذاً. وسواء كان يحب الحرام أم لا يحبه، لم يكن هناك مبرر لأن يتعامل معها بوصفها صعبة المنال. بدل أن يخاف منها كان يمكن أن يخيفها.

هي لا تراه حيواناً كما أوحت له، أو كما خيل إليه. بل ربما كانت تعرض نفسها عليه. ويا جحش أنت لم تفهم ما المقصود بأن تطلبك من الباشا للبقاء معها في الفندق. البقاء معها حتى وهي تشتغل في التجسس، وأنت رئيس الشرطة العدلية. يعني أنها كانت مستعدة لدفع أي ثمن مقابل كسب ودك. وهي تنتخي بك لأنك الوحيد القادر على إخافة ألتر ليفي. ولكن كيف يمكن لها أن تشتغل مع ألتر ليفي وهي تطلبني لحمايتها من ألتر ليفي؟

داخ مرة أخرى.

ولكنها بعد سفر جمال باشا أبلغتك بعدم حاجتها إليك. هل ينتهي خطر ألتر عليها بعد غياب الباشا؟ هي كانت تريدك إذن من أجل الباشا، وليس خوفاً من ألتر. ولمعت في ذهنه الفكرة: ربما جلبتني للبقاء إلى جانبها لتعطيلي عن مطاردة ألتر. وربما كانت مستعدة لتقديم كل شيء لي من أجل البقاء. كيف لم يخطر له ذلك؟ بسيطة.

وفور وصول علي باشا إلى القدس طلب عارف بيك:
سمعتم بالتغييرات الجديدة؟
– سمعنا. مبروك يا باشا.
تجاهل التهنئة ودخل في الموضوع: كان هناك عائق يعرقل عملنا. وهو ناجم عن الحساسية التي كانت بين جمال باشا وفالكنهايم، أو الألمان عموماً. وهذه الحساسية لم تكن وقفاً على جمال. حتى مصطفى كمال، حين جاء من جناق قلعة لكي يذهب إلى المدينة المنورة، ولم تتم المأمورية، عاد إلى اسطمبول وقدم تقريراً أن الألمان يريدون فصل سورية عن جسم الدولة العلية. الآن ليس هناك جمال، ولا مصطفى كمال. نحن منسجمون. وسنرى ماذا سيفعل الألمان. الجنرال فالكنهايم مطلق الصلاحية. وأنا مستعد للحرب. وأنور باشا قادم إلى القدس. إننا نستعد لضربة كبيرة. مفهوم؟
– مفهوم يا باشا.
* أنا لا أسأل إذا كان كلامي مفهوماً. أريد أن يكون الموقف مفهوماً. وأن يفهم كل منكم ماذا يعني هذا الوضع الجديد، وأية مسؤوليات يلقيها عليه. نحن لا نضمن سلامة التحرك العسكري ونجاح الخطة والتنفيذ المتقن للضربة، إذا ظل الجواسيس يعملون بيننا. أمس أمسكوا بحمامة في قيسارية تبين أن في رجلها رسالة مرسلة من عندنا إلى الإنكليز. سامع يا عارف بيك؟ كنت

محرجاً من جمال باشا. والآن لم يعد هناك حرج. أنت مطلق الصلاحية. فافعل ما تشاء.

* في الحقيقة يا باشا كنت أحتاج إلى قوة عسكرية. ومدحت بيك يقول إنه ليس من صلاحيته تحريك القوات. أردت الذهاب إلى جمال باشا المرسيني. ولكن مدحت بيك قال لي: لا أنصحك. جمال الصغير لا يبادر مبادرة كهذه ما دام جمال الكبير في سورية كلها.

قاطعه علي باشا: لا تكمل. جمال الكبير لم يعد هنا. سيغادر سورية كلها خلال أيام. وأنت معك كل صلاحية تريدها. الآن سأطلب من يونس حيدر بك قائد المنطقة أن يلبي لك أي طلب تطلبه، حتى لو كنت تريد تحريك فيلق. رضيت؟

قال عارف: رضيت يا باشا. ولكن عندي موضوع أريد أن أحدثك عنه. ابني معتقل منذ...

* عارف! أهذا وقتك يا عارف؟! يا أخي. إبنك في الصون. خلص. إعتبره ابني. أين هو؟

– حوّلوه إلى دائرة لم العسكر.

* غداً يكون في البيت. مبسوط؟

– أمرك. يكثر خيرك.

وخرج.

وقام علي باشا من فوره إلى اجتماع تنسيقي مع المشير فالكنهايم، دون أن يعرف اسم الابن الذي اعتبره ابنه،

والذي يفترض أن ينام في بيته غداً.

– ٤ –

لم يعرف ليوفا ما إذا كان الضابطان اللذان يتحدثان قد قصدا أن يُسمعاه حديثهما. لكنه فهم أن نعمان قد وقع. وأنه في جلسة سكر وتحشيش لم يترك شيئاً إلا قاله.

أكمل تلك الليلة وعينه على باب الخمارة. وجسده ينتفض لدخول كل زبون جديد. ولم يعد يحس بمتعة الشراب. بل إنه خاف أن يسكر. وخاف أن يدفعه السكر إلى تصرف أخرق. يجب أن يرى سارة. لا شك أنها سمعت باعتقال نعمان وباعترافاته. ماذا سيفعلون؟

بعد خروج آخر الزبائن أقفل باب الخمارة. وانطلق قاصداً عتليت.

إنها رحلة المذعور. لكن مخاطر الطريق ومخاوف الظنون لم تستطع أن تتغلب على لهفته للوصول إلى المختبر. إلى سارة. كأنه يريد أن يصل إلى حضن أمه ليبكي.

* طبعا خائف. من قال لكم إنني بطل أو إنني أريد أن أكون بطلاً؟

– أنت شاعر وأفشالوم شاعر؟

* أنا خراء. انبسطت؟ شاعر خراء. أليس هناك شاعر رومانسي وشاعر كلاسيكي وشاعر خراء؟ أنا شاعر خراء. أنا لا أريد أن أموت. ولا أريد أن أقضي بقية

عمري في السجن. أريد أن أعيش وأسكر وأعشق البنات وأكتب الشعر.

قال يوسف: لم يجبرك أحد على اختيار هذا الطريق. ونحن وضعنا مثل وضعك.

قال ليوفا: أنتم أحرار. أنتم كنتم تعرفون أن المسألة فيها موت. أنا لم أكن أعرف.

قالت سارة: هل أستطيع أن أفهم ما الذي جلبك إلى هنا في هذه الساعة؟ ماذا تريد منا؟

* دبروني.

– نحن الآن لا نستطيع أن ندبر أنفسنا.

* ماذا ستفعلون؟ ماذا ستفعل أنت يا يوسف؟

قالت سارة: لماذا لا تسألني أنا ماذا سأفعل؟

قال: أنت امرأة. لن يقتلوك. قد يتدخل من أجلك كبار رجال الدولة من أصدقائك. العترة علينا نحن. أنا ونعمان ويوسف. ماذا ستفعل يا يوسف؟

قال يوسف بهدوء: سأفعل ما تأمرني به سارة.

فوجئت سارة بهذه الإحالة إليها. تطلعت إلى يوسف لكنه لم يرفع نظره إليها.

تطلعت إلى ليوفا، الذي كان ينتظر منها إكمال عبارة يوسف. فقالت بالهدوء ذاته: نحن سنكمل شغلنا، حتى تأتينا أوامر أخرى من آرون.

هذا كلام لا يقبله عقل ليوفا. ولم يعرف ماذا سيقول

الآن. أدار ظهره، وهو يبربر ويشتم: خرائي عليك وعلى آرون وعلى يوسف. وصفق الباب وخرج.

تطلع يوسف إلى سارة: أظن أننا يجب أن نقتله.

إقشعرت للفكرة. وللبساطة التي نطق بها يوسف حكمه. ولم تجد ما تعلق به. فأدارت ظهرها.

تابع يوسف بهدوء: ليوفا خائف. قد يدفعه خوفه إلى الاعتقاد بأنه سينجو إذا ما سلم نفسه وقدم المعلومات المطلوبة منه.

قالت سارة: لم تبق لديه معلومات يقدمها. يبدو أن نعمان قد اعترف لهم بكل شيء.

* يعني.. لا نقتله؟

صرخت كأنها تريد أن تدفع خوفها بصراخها: يوسف. ماذا جرى لك؟ كيف تتحدث عن القتل بهذه البساطة؟

قال بهدوء قاتل: يبدو أنك أنت أيضاً قد فوجئت بأن المسألة فيها موت وقتل.

قالت تدافع عن نفسها: أنا لم أفاجأ. أنا أعرف ذلك. ولكن أنت تتحدث كأنك شخص آخر.

نهض مختنقاً: أنا فعلاً شخص آخر. أنا الآن شخص مهدد بالموت. ماذا تأمرين أن نفعل؟

جلست مرهقة كأنه أضاف ثقلاً جديداً على كتفيها: يوسف. أنت تتعبني بالقيادة. القيادة سهلة حين تكون أوامر حركة ونقل معلومات. ولكن ليس من السهل تقرير

أمور تتعلق بالحياة والموت. أنت حر. إفعل ما ترى فيه نجاتك أو مصلحتك.

تطلع إليها بنظرة ثابتة: أنا معك.

فحولت نظرها عنه. كانت تود لو تبكي الآن. لكن هذا الرجل يعوق حتى الدموع في عينيها.

* ماذا سنفعل؟

تنهدت والتفتت إليه: سؤالك هذا أهون. ماذا سنفعل؟ وليس ماذا تأمرين؟ قل لي أنت: ماذا سنفعل؟ أنت الصديق والرجل.

— رجل؟ الآن؟ آخ يا سارة! الآن توجهين لي كلمة اشتهيتها منذ أن ولدت. ولكنك تلقينها علي الآن فتنزل ثقيلة كالجبال.

كابر على نفسه وتجاهل غصته، وقال وهو يتطلع إلى الفجر المطل من الأفق: اليوم موعد الغواصة. عيب أن يجيئوا ولا يجدونا.

ابتسمت: معك حق.

وظلت تحدق من النافذة دون أن تنظر إليه.

— ما بك؟

* حين تحدثت عن القتل ذكّرتني بألكسي. ألكسي هكذا. يفكر في القتل فوراً.

— أتظنين أن ألكسي لن يعود؟

* سيعود. يجب أن يعود. صرنا في حاجة إلى من

يفكرون في القتل.

– ونحن، ألا نقتل؟

* هل أنت مستعد أن تقتل فعلاً؟

– أيفاجئك ذلك؟

* وتقتل صديقك؟

– حتى لو فاجأك ذلك فالجواب: نعم. لو وافقت، لقتلته قبل أن يغادر حديقة المختبر.

* في الماضي كنت أراك كذلك. ولكنني أحسست أنك قد تغيرت. نعمان كان قد نبهني إلى التغيير الذي طرأ عليك.

التفت إليها، فضحكت: كان يقول إنك فقدت زهوك بعد أن تزوجت. وأكملت ضاحكة: رأيه أن زهوك كان ينطلق من الكبت. هل هذا صحيح؟

لم يبتسم. قال: ربما. ربما كنت مثل الحسون. طالما هو مكبوت ومحروم فإنه يزقزق أحلى الزقزقات. ولكن إذا جلبت له أنثاه لم يعد في حاجة إلى الزقزقة. هل سمعت زقزقتي يوماً؟

جلست إلى جانبه: حين رأيتك أول مرة بعد عودتي من اسطمبول، حين كنت تطمئنني عن أفشالوم السجين في بئر السبع، أحسست فعلاً أن شيئاً قد تغير فيك. ربما كان هذا ما قصده نعمان.

* لدي رغبة في الكلام. أنا فعلاً تغيرت. أنا نفسي

أحسست بذلك. لا أعرف كيف انقلبت الأمور بعد الزواج. زوجتي رفقة هي ورطتي الأولى في هذه الدنيا. أنا لا أريد أن أرتبط بأحد. ولكنني كنت أحبها وأشتهيها. وكنت في حاجة إلى امرأة. ثم بدأ الأولاد يجيئون. عبيرا ثم طوبيا ثم ثوبا. وكنت أحبهم أيضاً. وكان المفروض أن يعمقوا العلاقة بيننا. ولكنها بغتة صارت حرمة: بدينة تتأرجح وهي تمشي. ويتموج بين كتفيها صدر لم يعد يصلح إلا لإرضاع الأطفال. وحتى حركتها التي كانت تغنج بها وهي تمشي، صارت مضحكة. احتجت إلى مدة لا بأس بها كي أراها كما أصفها لك الآن. ظللت مدة وأنا أراها لأبررها. أراها فأتجاهل ما صارت إليه، وأرى تذكري لما كانت عليه، وما كنت أحبه وأشتهيه فيها. كنت أحب ماضيها معي. أو أحب ماضي نظرتي إليها. وماضي اشتهائي لها. كنت أشتهيها من الذاكرة. ولا أشتهي وجودها الحقيقي أمامي. ثم اكتشفت أنها فعلاً قد صارت امرأة أخرى. شبيهة بزوجات من نسخر منهم. ولكن كان قد صار عندنا ثلاثة أولاد. ولا أريد لأولادي أن يعرفوا اليتم مثلما عرفته. فخضعت للأمر الواقع. وصرت أحس أنني مضطر للعودة إلى فراشها كما يعود الثور، تصوري ليس إلى أنثاه، بل إلى معلفه.

حتى أمها التي كانت فخورة بها، والتي أفهمتني منذ

البداية، أنها تعطيني جوهرة ثمينة، وأن هناك ألف من يتمناها، وتمن علي بالظفر بهذه الحورية. أمها هذه لم تعد تستطيع أن تفاخر بابنتها أو تمن علي بها. بل استكانت واستسلمت وأنزلت نظرتها إلى الأرض، كأنها تقر بذنب ارتكبته. ولكنها تكابر: أنت أخذت بنتاً بكراً. وبالخلفة والخدمة أنت صنعت منها حرمة. النسوان كلهن كذلك. وبدل التفاخر السابق بجمال ابنتها صارت تلح على امتداح كونها صاحبة بيت وطباخة ونظائفية. ولم يكن ينقصها إلا أن تروز بيديها تديي ابنتها لتمتدح كمية الحليب التي فيهما.

ولم تستطع سارة إلا أن تبتسم للصورة التي رسمها واستطاعت هي أن تتصورها. أمّ ترجرج تديي ابنتها لتمتدح كمية الحليب: يفضحك. كيف خطرت لك صورة كهذه؟

وبدل أن يجيبها على سؤالها فاجأها بفظاظته التي كانت تخشاها: لا تؤاخذيني يا سارة. أنت تقومين بعمل عظيم. ولكن المرأة إجمالاً مخلوق حقير وتافه. أنا طوال عمري أحس أن المرأة مخلوقة للتقليل من عظمة الرجل. تصوري. أنا آسف. لا تتصوري. أعني. المرأة مخلوق صغير. وضحل. وقصير. وترين امرأة لا يزيد طولها عن متر وربع المتر ومعها رجل يقترب طوله من المترين، بكتفين عريضتين وعضلات، أو بعقل عالم

وموهبة عبقري، أو بعظمة ضابط كبير يقود الجيوش، ما الذي ساعدها على توريطه بها وانتصارها عليه واستخدامه؟

أحس أنه يسأل أسئلة لا يريد أجوبة عليها. كان يريد التأكيد، ربما لنفسه، أن بوحه لها لا يعني أنه سيضعف أمامها. وكان من الواضح أن سارة ممتعضة. ولا يمكن لها أن تفكر في الإجابة.

تناول معطفه وقال: سأنزل إلى القدس. يحب أن أرى ألتر.

* إنتبه جيداً. سأنتظرك. السهرة تبدأ في السابعة.

عند الباب استوقفته: ماذا سيفعل ليوفا برأيك؟

قال ببساطة: إما أن يحاول الهرب بطريقة حمقاء فيقتل وإما أن يسلم نفسه.

وخرج.

بعد ذهابه أحست بالراحة. راحة اتخاذ القرار والتخلص من التردد. ولأول مرة لا تحس أنها امرأة عليها أن تلعب دور الرجل، أو دور العاهرة. ها هي تقترب من لحظة الخطر فتتخلى عن أقنعتها وتقرر أنها المرأة الإنسانة. فقط. هي الإنسان الذي يقوم بعمل ويجب أن يقوم به كما ينبغي. ولكن يجب أن تظل امرأة.

ويوسف!

في أيام كهذه ينام دائماً في الغرفة الأخرى. وقد

اكتشفت الآن أن وجوده كان يمنحها الطمأنينة. حتى وهو يتحدث بهذه الطريقة عن النساء، لا يختلف كثيراً عن غيره من الرجال. وليس لها أن تُفاجأ. يظل رجلاً.

لأول مرة تفهم معنى أن يكون لها صديق. ورجل. ليس بالضرورة أن يكون عاشقاً أو معجباً.

يكفي أن يكون الرجل الوسادة والسياج. والمصير المشترك.

ليت آرون كان هنا.

— ٥ —

جمع عارف تقارير مخبريه. وأضاف إليها المعلومات المأخوذة من التحقيق مع نعمان. فتكونت لديه الصورة التالية: في مختبر عتليت تقيم سارة آرونسون حفلة غنائية راقصة يشترك فيها شباب من عدة قرى. وقدر أن هذه الحفلة تعد للتغطية على موضوع هام هو الاتصال بالسفينة أو الغواصة البريطانية التي تأتي في ذلك الموعد وتقديم معلومات لها ذات أهمية.

ركب عارف جواده ومعه مرافقه، بعد حلول الظلام، حتى وصل إلى حيث ظهرت له أضواء المختبر. نزل عن جواده وطلب إلى المرافق أن ينتظره. ثم تقدم متسللاً باتجاه خفر السواحل. دخل المخفر فرأى عنصرين يلعبان طاولة الزهر. أجفلا لدخوله. فهدأهما وعرفهما بنفسه وبرتبته.

* هل أنادي الضابط المناوب يا بيك؟

– أين هو؟

* مدعو إلى سهرة في المختبر.

هز عارف رأسه وقال: لا. لا داعي. من غيركما هنا؟

* لا أحد يا بيك. الجميع في السهرة.

– وأنتم لماذا لم تسهروا؟

ابتسم أحدهما: اليوم دورنا هنا. لا يجوز إخلاء الخفارة. السهرة القادمة لنا. ولكنهم يحسبون حسابنا. سيأتينا الأكل والشرب إلى هنا.

وخرج.

همَ أحدهما بالخروج وراءه: سأعلم الضابط بوجودك.

* إياك أن تفعل. إياك أن تتحرك، أو تلفت النظر إليك. إرجع إلى مخفرك وأكمل دق الطاولة.

– أمرك يا بيك.

وعاد العنصر.

تقدم عارف إلى حيث صار يستطيع مراقبة نوافذ المختبر المطلة باتجاه البحر وجلس يرقب. كانت الأضواء مشعشعة في الداخل. والموسيقى تصدح. والرقص قائم. وبين حين وآخر تقف عربة وينزل منها اثنان أو ثلاثة من الشبان والشابات يدخلون المختبر فيعلو التهليل لدخولهم.

ووصل اثنان قدر عارف من حركتهما أنهما هما اللذان

يعملان مع سارة تحت ستار الحفلة. فقد كانت حركتهما عند النزول من العربة والتوجه إلى الداخل مشوبة بشيء من الحذر. ولقد تلفت كل منهما أكثر من مرة قبل الدخول. كما أنهما دخلا بخطوات متزنة توحي بجدية تحركهما. ولم يدخلا مباشرة إلى حيث تقوم الحفلة.

تحفز عارف وتحسس مسدسه. وتجمعت حواسه كلها في أذنيه وعينيه لكي لا تفوته أية حركة. النوافذ لم تصدر عنها أية إشارة. أشباح تروح وتجيء لشباب يلهون ويرقصون حتى استطاع تمييز عناصر خفر السواحل. وفُتح باب المختبر من الداخل وظهر الوجه الذي يهم بالخروج. ألتر ليفي !

تمنى الآن لو كانت معه قوة. لو لم يأت وحده. ولكن يجب عدم لفت انتباه من في الداخل.

خرج ألتر واتجه نحو العربة وركبها. ثم مضى بها. ها هنا رأس الأفعى. أياً كان ما سيفعله هنا يجب إيقافه قبل فعله. وهذه المرة يجب أن لا يفلت من يده.

الشخص الثاني الذي دخل مع ألتر ليفي هو يوسف ليشانسكي.

أصر ألتر أن يأتي بنفسه ليبلغ سارة أن الوضع قد صار مفضوحاً. وأن الرقابة مشددة. وإذا جاءت الغواصة اليوم يجب أن لا يحاول أحد الاتصال بها أو الرد على إشارتها.

وبعد خروج ألتر سألها يوسف، وهما وحدهما في غرفة المكتب: ما رأيك؟

قالت سارة: فلنخرج إلى الصالون قبل أن ينتبهوا لغيابنا.

– هل سنتابع التنفيذ؟

* طبعاً.

وهمت بالخروج.

أمسك بكتفها ففوجئت.

التفتت إليه فقال: سارة. أرى أن الوضع قد صار خطيراً. ما رأيك لو...

* نتوقف؟ مستحيل.

– لا. لن نتوقف. نحن نتابع. أقصد أنت. ما رأيك لو تهربين؟ إذهبي إلى مصر. تستطيعين أن تهربي اليوم. القارب الذي سيأتي إلى الشاطئ تستطيعين الذهاب فيه.

– لا يا يوسف. لن أذهب. أنا أعرف أن الوضع خطر. وأنني صرت مشبوهة. ولكن غيابي سيؤكد تهمتي. وسينتقمون من أمي وأبي وأهلي. سأظل هنا. وغداً سأخفي كل شيء. المهم أن ننفذ عملنا اليوم. ونبلغ آرون بالتطورات التي حصلت. إسبقني قبل أن ينتبهوا لغيابنا.

خرج. فأسندت رأسها إلى الجدار وبكت: أخيراً هناك من

يخاف عليها.

– ٦ –

فيما كانت عربة ألتر تبتعد وتدور حول التل المجاور، ركض عارف بأقصى سرعته وفي خط مستقيم قدر أن يلتقي في نهايته بالعربة بعد أن تكمل دورتها. وقد أفادته سرعته في أن يحقق ذلك. إذ وصل إلى الطريق قبل وصول العربة. فلطأ خلف صخرة. وحين اقترب منه الجواد قفز عارف في وجهه، وأمسك بعنانه وهو يصرخ شاهراً المسدس باليد الأخرى: ألتر ليفي. سلم نفسك.

شب الجواد على قائمتيه الخلفيتين بفعل المفاجأة فكادت قائمتاه الأماميتان تسحقان رأس عارف. مما اضطره إلى التنحي جانباً والقفز إلى العربة خشية أن يجمح الجواد بها.

ولكنه لم يجد أحداً في العربة.

قفز نازلاً من العربة. وسمع وقع الخطوات الراكضة في الوعر، فاندفع يلحق بها.

واستطاع ألتر بعد أن تخلص من أثر المفاجأة، وبعد ابتعاده قليلاً عن مصدر الخطر، أن يستعيد هدوءه ويشغل فكره. فخفف من حركته لكي لا يستمر في إصدار الأصوات بقدميه. وتقدم حتى وصل إلى حافة منحدر دحرج عنه حجراً كبيراً. وظل مكانه ينتظر.

فرأى شبح الرجل الذي يطارده يندفع راكضاً في المنحدر وهو يتابع صوت الصخرة. هل هو عارف بك؟ ربما. سأل نفسه إن كان يجب أن يرجع لينذر الساهرين. ثم أجاب نفسه بسرعة بالنفي. واضح أن عارف وحده. ويريد أن يقوم ببطولة. وإلا كان معه من يكمن إلى جانبه. ثم إن عودته قد تكون خطرة. فعارف لن يستمر في الركض وراء هذه الخديعة. وقد يعود إلى المختبر. وهو لا يريد أن يلتقي به مرة ثانية. وخاصة خلال هذه الليلة.

اندفع ألتر بسرعة حتى قدر أنه اجتاز مسافة أمان تفصله عن المكان الذي يفترض أن يكون عارف قد وصل إليه. وكان عارف قد أحس أنه يلحق حجارة متساقطة، ربما تدحرجت تحت قدمي ألتر. ولذا حول سيره بالاتجاه الآخر.

وفيما هو يتقدم ومسدسه بيده، سمع طلقة اخترقت سكون الليل المشحون.

عرف أن الطلقة طلقة بندقية. فهي إذاً صادرة عن العنصر الذي تركه مع الجوادين. وتمنى لو يكون مرافقه قد نجح في قتل ألتر، على الرغم من أنه يتمنى أن تكون النهاية على يده هو.

توجه نحو مكان المرافق فجاءه الصوت خائفاً متردداً:

من هذا؟

قال له: أنا عارف. أنت أطلقت النار؟

وتلجلج المسكين: حرامي يا سيدي سرق الحصان.

فكاد أن يغمى على عارف. وتابع المرافق: كنت جالساً بانتظارك والحصانان إلى جانبي. ما أحسست إلا بشخص يقفز فوق أحد الحصانين وينطلق به. تفاجأت. في البدء ظننته أنت: قلت له: يا سيدي. لكنه لم يجب. وانطلق بالحصان. ركضت إلى البندقية ولقمتها وأطلقت عليه. لكنه كان قد اختفى في الظلام. صدقني يا سيدي.

ولم يعلق عارف.

– يا سيدي.. والله العظيم.

* والله العظيم سألعن أجدادك يا ابن العرص. كنت مشغولاً بالفرجة على النسوان يا عكروت. أليس كذلك؟ إلحقني.

وركب الجواد الوحيد المتبقي. فراح الجندي يركض ليلحق به، وهو يبكي خوفاً مما سيحل به عند وصول عارف إلى المكتب.

حوّل عارف الجواد نحو منطقة يعرف أن فيها نبع ماء. فقد كان في حاجة إلى الشرب وغسل وجهه بعد هذه المطاردة. أوقف الجواد الذي لم يكن أقل منه عطشاً. فاندفع الاثنان إلى الماء. ووصل الجندي فرأى سيده يمسح وجهه بمحرمة. واندفع ليقبل قدميه: أبوس

رجليك يا سيدي.

فوجئ به عارف فركله ليبعده: ما بك؟ جننت؟

– دخيلك يا سيدي لا تؤاخذني. أنا جحش وغشيم. وحضرتك لم تقل لي شيئاً. أنا حتى الآن لا أعرف لماذا جلبتني. وإلا ما كان أحد يستطيع أن يفاجئني. يا بيك أنت أمرتني أن أنطر الخيل فنطرتها. أنتم تشتغلون وتعرفون ماذا تشتغلون. نحن لا نعرف شيئاً. نعم يا سيدي. أنا فقير ومعتر ومعمي على قلبي. معك حق. سمعت غناء وضحكاً وأصوات نسوان. فصعدت إلى أعلى الصخرة لأتفرج. نسوان. ويهوديات. نحن لا نسمع إلا الكلام. أول مرة أشوف بعيني. ما أدراني أنك تطارد شخصاً؟ لو أنك قلت لي...

هز عارف رأسه وهو يتجه إلى حصانه: أصلاً الذين أكبر منك يدوخون أمام النسوان.

ودله على مكان العربة طالباً منه أن يأتي بها لأخذ حصانها بدلاً من الحصان المسروق.

– ٧ –

رجع عارف إلى مكتبه مخزيّاً.

ليس فقط لأنه فشل في القبض على ألتر. بل لأنه كان مأخوذاً بمطاردة هذا الرجل إلى درجة أنه أهمل أمراً أكثر خطورة.كان يستطيع القبض على الشبكة كلها متلبسة. لكنه، مثل الحمار، لحق الطعم ونسي الصيد

الأساسي. هذه المرة أيضاً لم يعرف أين هو رأس الأفعى.

ولكنه واسى نفسه. حتى لو رجع إلى المختبر. ما الذي سيفعله؟ هل سيعتقل الناس لأنهم يسهرون ويرقصون؟ حتى أن ضباط خفر السواحل...

يا سيدي نحن ننفخ في قربة مخزوقة. نسكب ماء في سطل لا قعر له. إذا كانوا يستطيعون أن يخبئوا جنودنا الفارين في مستوطناتهم، ويقيمون حفلات لضباطنا في صالوناتهم وخماراتهم، وإذا كان خفر السواحل الذين يجب أن يكتشفوا وصول الغواصة يسهرون عند سارة. ماذا تريدنا أن نفعل؟

كان يبرير لنفسه وكأنه يحدث علي باشا. ولكنه لم ينم قبل أن قال له ذلك وبوجود أتلخان. لم يعد من الممكن ملاحقتهم بالحيلة. أنا لا يعجبني أسلوب أبو زيد. يجب أن نجابههم. دياب بن غانم هو الذي قتل الزيناتي خليفة. قتله بأن نزل إلى الميدان وطلبه للمبارزة.

– قلت لك إنك مطلق الصلاحية. اليوم أول تشرين الأول. أريدهم منك قبل منتصف الشهر. قبل وصول أنور باشا.

– خذهم مني اليوم قبل بكرة. ولكن ابني يا سيدي لا يزال...

وكان في عيني علي باشا ما يمنعه من مواصلة الكلام.

العمى. العمى.

ألتر ليفي المطارد الذي كنت أظنه مخنوقاً ولا تدخل المسلة في طيزه يصول ويجول. وأنا رئيس شرطة القدس، أضرب واطرح، لا أستطيع أن أرى ابني. يوماً يقولون لي إنه أرسل إلى مركز تجميع المجندين، ويوماً يقولون: لا. ظل في السجن. الله يبريني عن ديني يا إما أشوفه يا إما أهزبه. وليس أولاد الكلب اليهود أشطر منا. وسنرى إن كنا نحن فقط نحترم القانون ويلتعن أفطاسنا. وهم يخالفونه عينك بنت عينك. لماذا ألغيتم امتيازات الأقليات إذن؟

وسبب ثورة عارف هو إحساسه أنه مضطر لبذل الجهود وتضييع الوقت في البحث عن ابنه، في الوقت الذي يزداد ضغط القيادة عليه وعلى زملائه بضرورة البحث عن ألتر ليفي والقبض عليه بأي ثمن. فهذا الرجل صار بالوعة الأسرار العسكرية ونقطة استقطاب الأوامر.

أراد إنهاء قصة ابنه بأي شكل. ذهب إلى نقطة تجميع المجندين. ووسط الازدحام الشديد عند نقطة الفحص الطبي استطاع أن يرى الدكتور نيومان المشرف على هذه الفحوص. واستقبله نيومان بترحاب لم يكن يتوقعه من يهودي. قال له إنه سيعطيه ابنه حالما يجده، وعلى مسؤوليته الشخصية. وبعد البحث

ومراجعة السجلات تبين أن أحداً ما قد أخذ إبراهيم عارف إبراهيم. آ. آ. تذكرت. أخذه البنباشي صقر. نعم. نعم. البنباشي صقر. في الشرطة العسكرية. لا أعرف لماذا طلبه بالتحديد. ولكنني متأكد من الموضوع.

كان البنباشي صقر موجوداً في مكتبه. وقد رحب به هذا بصفته زميلاً. وأبلغه أنه تمكن من استرداد إبراهيم فور معرفته بمكانه: أهلاً وسهلاً. ترى إبنك وتجلس معه قدر ما تشاء. والحكي بيننا. أستطيع أن أرسله معك إلى المنزل ليستحم ويأكل لقمة نظيفة. ويسهر معك ومع الوالدة إذا أعطيتني قولاً بأنك تعيده غداً.

– ولماذا لا يذهب معي إلى البيت نهائياً؟

* حين جلبته وقعت على ورقة باستلامه. تعرف ذلك اليهودي اللئيم الدكتور نيومان. أصر على أن أستلمه رسمياً. وبصفته سجيناً هارباً من التجنيد. أنا كنت مستعداً على التوقيع على أي شيء من أجل أن أضمن وجوده عندي لكي لا يرسلوه مع المجندين إلى الجبهة. ولكن لا تهتم. لقد رفعت كتاباً بشأنه. قلت فيه إنه طالب مدرسة يشمله التأجيل. وإنه معروف من قبلنا. ولكن أوراقه المدرسية ضائعة منه. كم يوم وتنتهي القصة. طمئن بالك. على الأقل إذا تعقدت وتعقدت نستطيع أن نؤمن له تهمة فنحيله إلى الشرطة على أنه مدني. يعني نحيله إليكم. يعني عندك. فلا يظل

باستلام الجيش. المهم أن نجد حلاً يبيض وجهنا معك دون أن نتحمل مسؤولية. أنت ترى الظروف.

مشى معه زميله. وركض العسكر يفتحون أبواب الزنزانات، حتى وصلوا إلى زنزانة فيها مجموعة من المساجين. وكان إبراهيم عارف إبراهيم بينهم.

نهض وتطلع إلى أبيه بصمت. ثم احتقن وجهه دون أن يتحرك من مكانه. تساقطت دموعه فأحس عارف أن قلبه يسقط معها: لا يا ابني لا. خلّك رجلاً. لا تبك. اعتبرها كما يقولون: السجن للرجال. لا تخجلني أمام زملائي. ولا تصغر نفسك أمام زملائك. ولكنه ارتاح أيضاً لبكاء ابنه. سيساعده هذا البكاء، حين يقول لهم إن إبراهيم لا يزال ولداً، لا تنغروا بطوله وضخامة جسمه.

وانسحب البنباشى صقر تاركاً الأب وابنه لموقفهما العاطفي. وأمر الحارس بالبقاء بعيداً وتنفيذ طلبات عارف بيك. بينما كز إبراهيم على أسنانه ليوقف بكاءه. وتقدم وكأنه سيضرب شخصاً مجهولاً لا يراه أحد.

* جاءك كلامي؟ عملوها.

— ماذا عملوا؟ من عملها؟

* الإنكليز. أما سمعت بوعد بلفور؟ وعدوا اليهود بدولة في فلسطين.

لا حول ولا قوة إلا بالله. أهذا ما يبكيك يا إبني؟ وأنا الذي ظننت... لا حول ولا قوة إلا بالله مرة أخرى.

حسبي الله ونعم الوكيل. نحن أين؟ وأنت أين؟

– سمعت. ولكن كنت مشغولاً بالبحث عنك.

* بالبحث عني؟ أم مشغول بخدمة الباشا والدولة العلية؟

رغم رتبته التفت عارف خائفاً من أن يكون هناك من يسمع الحديث. فالموقف الآن لا يساعد على استعادة سيطرة الأب. كأن الحاجز الحديدي بينهما قد ألغى اعتبارات الأبوة والبنوة.

التفت محرجاً مرة أخرى، خشية أن يكون الحارس قد سمع هذه اللهجة القاسية. لكن الحارس الواقف بعيداً فهم أن عليه فتح الباب ففتحه. وسار أمامهما إلى غرفة منعزلة.

ومع أن الحاجز الحديدي لم يعد موجوداً، إلا أن عارف أحس أن عليه أن يجاري ابنه ويجامل حماسه. ولذلك بلهجة أقرب إلى الاعتذار، وتحمل الكثير من الرغبة في المصالحة والوقوف على أرض واحدة، قال له: هذه هي. الإنكليز وعدوا اليهود. ونحن نحارب الإنكليز. يعني موقفنا واحد.

أحس بالندِّيَة المطروحة في الحديث. ولم يحس بالرغبة في التراجع عنها.

* ولكن كيف وصل اليهود إلى الإنكليز؟

وأسعفت عارف بداهته الآن: يا إبني. ما أحد قصر في

شيء. وها هو الشريف حسين متحالف مع الإنكليز. ألا تظن أن وعدهم لليهود خيانة له؟

* هذا يتوقف على أن نعرف ماذا يريد الشريف حسين.

– يسمي نفسه ملك العرب والبلاد العربية. ألا يعني هذا أنه ملك على فلسطين أيضاً؟ أليست فلسطين عربية؟ الإنكليز يا ابني...

واستعاد موقع الأب. لكن الولد برعط مثل فرخ السمك. هب واقفاً وقال مقاطعاً أباه: أتعرف أن وضع العرب كلهم، إما مثل وضعك: يجري الماء من تحتك وأنت لا تعرف. وإما أنهم مثل وضعي: مسجون ولا يعرف ماذا يجري في الخارج. ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. لا تصله الأخبار إلا بائتة. ولا تصله الطبخة إلا مستوية. فإما أن يأكل منها وتلتعن أفطاسه؛ وإما أن يعف عنها فيلتعن والد والده من الجوع. نحن أيضا تسجننا تركيا وغيرنا يتحالف باسمنا مع الإنكليز. والإنكليز الذين يتحالفون مع بعض زعمائنا هم أنفسهم الذين عملوا اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم البلدان العربية بينهم وبين الفرنسيين. وهم أنفسهم الذين أعطوا الوعد لليهود. وهكذا نطلع لا دنيا ولا دين. معقول أنكم لم تسمعوا خطاب جمال باشا قبل مغادرته بيروت؟

من أين لك هذا الكلام كله؟ من أين سمعت بذلك كله وأنت في السجن؟ بينما أنا لم أسمع به وأنا طليق

ورئيس دائرة حكومية هامة؟
رفض إبراهيم أن يخرج في الزيارة الليلية المقترحة: إما أن أخرج مع زملائي أو أظل معهم.
أعطاه والده بعض النقود فطلب زيادة دون رجاء: رفاقي أيضا مفلسون. وهؤلاء الدرك العرصات يبيعوننا اللقمة أغلى من أسعار اليهود. إذا كنت سآكل فسآكل مع زملائي.
ولم يدخل الأب في النقاش، فأعطاه ما استطاعه. وخرج من المقابلة وكأنه كان هو السجين في جلسة تحقيق. رفع طربوشه، ومسح العرق عن رأسه وجبهته. وخطر له أن يعود ليبلغ ابنه بمقتل سميح. ولكن لماذا يزيد في مأساته؟
توجه إلى غرفة صقر. فقالوا له إن هذا قد خرج في عمل طارئ، ولكن مدير السجن بانتظاره. ذهب إلى غرفة مدير السجن الذي نهض مبالغاً: يا أهلاً وسهلاً. يا أهلاً ومرحباً بالبنباشي عارف. منذ زمن نريد أن نتعرف بشخصيتكم الكريمة. وقد أوصاني البنباشي صقر أن أكون في خدمتكم. ولكن أمثالكم لا يحتاجون إلى توصية. ما شاء الله وكان. صيتكم يملأ الدنيا. ويا ليتها كانت مناسبة غير هذه. تفضل لف سيجارة. على كل حال عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. ورب صدفة خير من ألف ميعاد. وأنا، شهد الله، منذ أن عرفت من

هو أراعيه مثل ابني. لكن ماذا تفعل؟ عبد مأمور. أين القهوة المرة يا عادل؟ يعني كنت أقول: ما له وللسياسة؟ ألا يرى أن الدنيا قائمة قاعدة؟ على الأقل لو كان يسمع كلامكم لما حصل له ما حصل. جاءنا سجيناً عادياً. أظن أن السبب مشاجرة في خمارة. أليس كذلك؟ ليست المشاجرة مهمة. وحتى وجوده ليلاً في منطقة الجبهة في هذه الظروف ليس مشكلة. ولكن السياسة. كأنه يريد أن يعمل حزباً أو جمعية سرية في السجن. ومعلومكم ليس هناك أكثر ممن يريدون تبييض الوجه عن طريق نقل الحكي والإخباريات. ولكن، شهد الله، بعد أن عرفت أنه ابنكم لم يمد أحد يده عليه.

العمى.. وضربتموه هنا أيضاً؟!

تحشرج صوت عارف: ولكن البنباشي صقر استلمه على أنه...

– شيلك من هذا الكلام يا سيدي. البنباشي صقر يظن الأمور سهلة. إفرض أن السجين عندك أنت. وتريد أن تراعيه مثل العين الرمدانة. ثم يأتي من يقدم لك تقارير عن طريق التسلسل حول نشاط سياسي يقوم به هذا السجين. ماذا تفعل؟ حتى لو كان ابنك. لو أن التقارير لم تأت عن طريق التسلسل كان يمكن أن أطنش عنها. ولكن إذا طنشت أنت هل يطنش غيرك؟ والذي وشى بابنك ألا يشي بك؟ بماذا تغطي مسؤوليتك في هذه

الحالة؟

لماذا تتعقد قصة ابنه بهذا المقدار؟

- ٩ -

بسيطة يا أبو زيد!!!

وتدفق في الكلام أمام أتلخان الذي كان ينصحه بضرورة اللجوء إلى الحيلة للقبض على ألتر: على الأقل يجب أن تفعل مثل (أبو زيد).

انفجر عارف الذي كان يحس بالحصار الخانق: أنا لا أفهم باللف والدوران. أنا أعرف أن هناك عدواً قوياً ويجب أن أقف في وجهه. أن أحاربه: رجلاً لرجل. مبارزة. مصارعة. مغالبة. الأقوى والأشجع قلباً هو الذي يفوز. لماذا هذا اللف والدوران؟ ما معنى الحيلة؟ ولماذا اللجوء إليها إن توفرت الشجاعة وقوة القلب؟ أبو زيد أبو زيد. هذا غير ما أفهم. أنا دياب بن غانم. وإذا وقع ابن الشرموطة ألتر لا أكون إلا من ظهر خالي إذا لم أنسه الحليب الذي رضعه.

قال أتلخان: هل تظن أن قصة ابنك تتعقد بالصدفة؟ إنها إحدى الحيل لإرباكك.

قال عارف: بالصدفة أم بالقصد. خلص. سأنسى ابني. سأتفرغ للعدو الأساس.

— أحسنت. أتعرف مسألة الصراع مع الأخطبوط؟ للأخطبوط أذرع عديدة. كثيراً ما ينشغل بها الذي

يصارعه تحت الماء. وهكذا يختنق الرجل ويموت. فالأذرع قوية. وحتى لو أنك قطعتها لا تؤثر كثيراً على الأخطبوط. الحل هو أن تنسى أذرعه وتضرب رأسه.

* وأين الرأس؟

– في حالتنا هم اليهود.

* نضربهم.

قال أتلخان: اليهود يطرحون ضرورة التحالف مع العرب لأن الطرفين ضد الدولة العثمانية.

وانفجر عارف مرة أخرى وهو يستعير، دون أن يدري، حماسة ابنه: يريدون أن يسخرونا من أجل مشروعهم ودولتهم؟ حليفان؟ ونحن، الاثنين، نقاتل الزيناتي خليفة لكي تستولي على مملكته؟ طيب. ولكن يا أبناء الذين أنتم أبناؤهم كيف سنصفّي حساباتنا نحن فيما بيننا بعد قتل الزيناتي خليفة والاستيلاء على تونس؟

— ١٠ —

وفي ظلام السجن، الذي صار إبراهيم يعامَل فيه معاملة حسنة تليق بابن ضابط كبير، كان يتمدد ساهماً وهو يحلم.

ما الذي فعله في حياته؟ لا شيء. إنه عنيد فقط. وعنيد ربما مع أبيه فقط. هذا الأب الذي يتبوأ منصباً ممتازاً ولا يعرف أن البلاد تضيع. يسمع بوعد بلفور ولا يبدو أنه يعني له شيئاً. وهو أيضاً يسمع بوعد بلفور ولا

يستطيع أن يفعل شيئاً. هو سجين. وسيظل سجيناً. لن يخرج من هذا السجن بواسطة تجعله يصغر أمام نفسه وأمام زملائه. أنتم تحكمون البلاد وتسجنوننا. وأنتم ستضيعون البلاد. تحملوا مسؤولية ذلك وحدكم. وتذكروا أننا يومها كنا في السجون.

في هذا السجن يستعيد ذكريات أيام خان أسعد باشا. كان الأمر يختلف. هناك كان زعماء الحركة الوطنية. أما هنا فليس إلا شباب تخلفوا عن الخدمة العسكرية، أو شباب فلسطينيون معتقلون بسبب المشاغبات التي يقومون بها مع اليهود. والجميع يجتهدون في محاولة صعبة لفهم ماذا يجري.

شاب بينهم ذكره بعبد السلام. وحين قال له ذلك تبين أن الشاب يعرف عبد السلام أيضاً. وكان يحبه لحماسه من أجل مصلحة البلد. والمأسوية التي يتحدث بها هذا الشاب تحمل نغمة المأسوية ذاتها التي انتهى بها عبد السلام.

الشاب يكاد يفقد أعصابه كلما تحدث عن فلسطين التي سيأخذها اليهود: يا رجل. كأنني أراها تنسحب من تحت أقدامنا شبراً وراء شبر. ونحن نتحرك كالأسماك التي يجف الماء من حولها. أمام أعيننا يوهبون الأراضي، أو يشترونها، أو يشتريها لهم غيرهم من الأجانب، وحتى من جماعتنا. وإضافة إلى ذلك يتسلحون. عينك بنت

عينك. أتعرف لم أنا مسجون هنا؟ كنت في الجندية. سحبوني إلى الجيش بعد هزيمة الباشا في سيناء. وحين تجدد القتال قام الجيش بتهجير أهلي وأهل القرية كلهم لأن المنطقة صارت منطقة عمليات. أهلي هاجروا لا أعرف إلى أين. وأنا صرت في الجيش. وتشاء الصدف أن تنتقل قطعتي إلى المنطقة ذاتها التي كان أهلي يعيشون فيها، قرب يافا. وهناك رأيت كرمنا يسيّج. من يسيجه؟ يهودي من تل أبيب. لماذا؟ قال: أرض مهجورة. وهو يعتني بها. قلت له: يا ابن العرص. هذه أرضنا. فضحك ساخراً مني، وقال: وهل للعسكر أرض؟ العسكر لهم البلد كلها. لكن ليدافعوا عنها. ويعطونا الفرصة للزراعة والعمل. لم يحملني دمي. ضربته بأخمص البارودة وطردته. وفوجئت بأن معه مسلحين. كان يمكن أن يقتلوني لولا وجود عساكر حولي. أطلقوا علينا ليخيفونا. تصور. لديهم أسلحة أحسن من أسلحة الجيش. انتهت على خير. ولكن تدخل الرابي باشا في اسطمبول. واحتج القنصل الأميركي. وصلت إلى أعلى المستويات. هـــذه إساءة معاملة لليهود. والنتيجة: أنا هنا في الحبس. وهو يكمل سرقة الأرض، ويحميها بالسلاح.

تتزايد الهموم على إبراهيم مع سماع هذه القصص. ينسحب ويتمدد في الظلام. وتستيقظ الهواجس

الأخرى. شباب يموتون. شباب لا يجدون فرصة للعشق أو استكمال الدراسة، أو أن يعيشوا شبابهم. هو نفسه لم يعرف شيئاً من متع الشباب. ويتبادر إلى ذهنه سؤال متكرر يبدأ فيه تداعيه: هل استطاع عبد السلام أن يظفر بشيء من الليدي دكتور، التي دفع حياته في خدمتها؟

البرد يشتد. ويلف نفسه جيداً بالبطانيات الإضافية التي قدمت له. يستمد بعض الدفء والراحة فيسترخي. يعزل نفسه عن السجناء الآخرين، فتنسل إليه بهيجة لتحل محل الظل الذي يكاد يتمدد إلى جانبه. يعتريه ندم وهو يستعيد اللحظات النادرة في حياته، تلك اللحظات التي عرفها مع هذه المرأة. لماذا لم أستغل تلك الفرصة؟ كذاب. ليس الشرف ما منعه. ولا الحرص عليها ولا على سمعته. ولا الخوف من الله. بل هو جبان. جبان فقط. وجبنه مستمد من قلة التجربة. الله أعلم ماذا سيكون رأيها فيه. شاب مثل الوحش. طول وعرض على الفاضي. ما الذي يضمن أن تتاح له فرصة أخرى مشابهة؟ تظن أنها لا شغل لها إلا أن تنتظرك؟ وكأنه يسمع صوت سميح. وسميح يعيد إليه تجربة الكارخانة. حتى هناك لم يتعفف إلا لأنه جبان. ولكن على الأقل ذلك الهروب يبقيه نظيفاً ومحترماً. حتى بالنسبة لبهيجة. تصور أن تعرف بهيجة أنه يذهب إلى

الكارخانة. ولكن بهيجة. آخ يا بهيجة. كم سيظل هذا الوجع النادم في النفس كلما تذكرتك. قسماً عظماً حالما تتاح الفرصة، حالما يخرج من هذا السجن، سيطير إليها طيراناً. وفي أول فرصة أو خلوة تتاح سوف...

ومرة أخرى يأتيه صوت سميح: ألله يسود وجهك. سوّدت وجهنا. ويدافع عن نفسه: يا أخي أنا أبحث عن الحب. وهذا الـ... لماذا أتعب قلبي بهذه المماحكة؟ يطردها ويطرد سميح من أحلامه المصطنعة، ويفسح المجال لفتاة الظل. يمن عليها بأنه لا يزال بكراً مثلها. لقد حافظ على شرفه مثلها. من قال إن المرأة وحدها يجب أن تحافظ على شرفها؟ ومن قال إن الرجال بلا شرف؟ يجب على الرجال أن يكونوا أبكاراً إذا كانوا يريدون بنات أبكاراً. أليست هي بكراً أيضاً؟ سيعرف ذلك حين تتاح الفرصة. حين يعود إلى دمشق. ولن يخاف. ولن يتردد. سيمد يده إلى جسدها بشجاعة ويستلقي فوقها هكذا...

وتدخل بهيجة في تلك اللحظة لتحل مرة أخرى محل الظل.

الفصل الثامن والعشرون

– ١ –

حين استيقظت سارة كانت تحس براحة كبيرة، كأنها قد نامت أياماً. ولا شك أن توترها خلال السهرة وبعدها، وتوقع أن تحدث مداهمة في الليل، قد أوصلاها إلى الإرهاق. وهذا الإرهاق أوقعها في النوم مستسلمة لراحة اليأس. في لحظة من لحظات أرقها وخوفها قالت لنفسها بشجاعة: فليحدث ما يحدث. ثم أغلقت عينيها. وكأنما جسدها كان ينتظر منها هذا الأمر الصارم. فأطاعها دفعة واحدة. وغطت في النوم.

وها هي تستيقظ. وتسمع حركة في المختبر. فتعرف أنه يوسف. أدارت ظهرها، وسرحت ببصرها في السماء الملبدة بالغيوم.

أحست بحزن غامض وهي ترى الغيوم السوداء. وقدرت من حركتها وحركة غصن شجرة الليمون قرب النافذة أن الريح في الخارج باردة، وأن المطر سيهطل. ومع شعورها المتخيل للبرودة اللاذعة من قطرات المطر المتناثرة مع الريح الباردة، سمعت صوت الماء في الحمام.

يوسف يستحم.

وازداد إحساسها بالبرد مع صوت الماء في الحمام. كأن

الرذاذ يصل إليها. وكأن المياه أو الريح الباردة ستدفع الباب وتدخل إليها. فالتفَت باللحاف جيداً. واسترخت مع خيالاتها.

لم تستطع إلا أن تراه عارياً في الحمام. ولم تكن صورته العارية في مخيلتها مثيرة للشهوة، بل كانت مثيرة للعطف. كان يجب أن يكون الآن مع زوجته أو مع أمه. ضحكت من نفسها: أهي عواطف الأمومة التي لم تمارسها حتى الآن، وهي في السابعة والعشرين من عمرها؟ يوسف أيضاً لم يعرف أمه. قضى طفولته يتيماً. ثم عاش عند الأقارب الذين هربوا به من كييف إلى المطلة. وبعدها قضى حياته وهو يحس أنه ملاحق، وعليه أن يركض. كم من مرة احتاج فيها إلى أم قد لا تنفعه في شيء، لكنها تستطيع أن تضمه بحنان وتبكي. كم كان يحتاج إلى أم يظل ينام في حضنها، وتظل تحممه حتى يصل إلى سن البلوغ. هل تستمر الأمهات في تحميم أولادهن بعد البلوغ؟ لم تعد تتذكر كيف كان الحال بالنسبة لأخوتها. لكنها تتمنى لو أنها نامت في زخرون ياغوف. ربما كانت قد نامت في حضن أمها. صوت الماء في الحمام مستمر. وهي تحس بالبرودة كأن الماء في سريرها. وتتمنى لو أن أمها تحضنها وتدفئها. سمعت صوت خطواته يخرج من الحمام فنادته: يوسف!

– أنا أيقظتك؟

* لا. عملت القهوة؟

– الركوة على النار.

وفتح باب الغرفة. كان يلف وسطه بالمنشفة وصدره عار.

* أليس الطقس بارداً؟

– قليلاً. ولكن البرودة منعشة.

* إلبس ثيابك. ستمرض.

– لست هشاً إلى هذه الدرجة.

* أعرف أنك قوي. ولكن منظرك يجعلني أحس بالبرد.

– قومي استحمي. وستحسين بالدفء.

وهمّ أن يذهب.

* يوسف.

والتفت إليها.

فرفعت طرف اللحاف عن السرير.

* تعال أدفئك.

فوجئ.

* أو أدفئني أنت. ألم تدفئ يد فتاة مصرية ذات يوم؟!

– ٢ –

بسيطة يا زبناتي خليفة.

تريدها معركة على طريقة «أبو زيد»؟ فلتكن. كنت أظنك فارساً شجاعاً. وتقاتل على طريقة دياب بن غانم.

وجهاً لوجه. فارساً لفارس. أما وأنت تلعبها بالمكر والخديعة، فسنرى من منا الأشطر.

بناء على اقتراحات عارف أعطى يونس بيك حيدر أمره بأن تكون قوة كبيرة من الجند تحت تصرف عدنان بيك الذي قاد الحملة. ولم يفهم أحد لماذا لا يريد أن يكون عارف نفسه على رأسها، ليقودها. بينما يغامر بنفسه وحيداً في ليلة سابقة.

احتل قسم من الحملة مستوطنة زخرون ياغوف. واحتل قسم آخر أقبية الخمر ومستودعاته والخمارة في روشيون لوزيون. وتوجهت قوة ثالثة إلى مختبر عتليت.

– ٣ –

وفيما يوسف متمدد على ظهره همس لها: هل نمت؟

ولم ترد. بل سحبت اللحاف تغطي به جسديهما العاريين.

– بما أننا عاريان ما رأيك لو عريت لك شيئاً في نفسي؟

لفت يدها على صدره العاري وأسندت رأسها إلى كتفه لكي تسمع.

– لم أكن أتصور أن هذا يمكن أن يحدث بيننا ذات يوم. كان بالنسبة لي حلماً مستحيلاً. طوال عمري وأنا أنظر إليك فأشتهيك وأحبك. ولكن كما أحب صورة

امرأة جميلة في جريدة. أكتفي بالإعجاب الصامت. قد أعلق الصورة في الغرفة. وقد أحلم بصاحبتها. لكنني أعرف أن اللقاء معها مستحيل. فلا أسعى إليه. وعلى الرغم من أنني رأيتك وأنت تتزوجين، ثم وأنت مع أفشالوم، ثم وأنت تروحين وتسهرين وتجيئين مع هذا وذاك، لم أكن أحس يوماً أن هناك رجلاً يمكن أن يطمح إلى أكثر من الحلم بك. لم يكن خيالي يجرؤ على تصورك في وضع جنسي.

* والآن؟!

– هناك شيء وحيد أخاف منه. أو أخاف أن أتأكد منه. لكنني لا أستطيع تجنب التفكير فيه.

* ما هو؟

– أخاف أن تكوني قد اعتبرتني بديلاً يعوضك عن أفشالوم.

ولم تجب. أرخت وجهها على صدره بحزن.

– هل الأمر هكذا؟

رفعت نفسها عن صدره وجلست في السرير. ورآها تقرّب ركبتيها تحت اللحاف لتسند كوعيها العاريتين عليهما فتتمكن من احتواء رأسها بين يديها.

تطلع إليها ففهم كيف يكون اللحم حزيناً. كان ذراعها وشعرها المبعثر وكتفاها العاريتان وثدياها المتدليان بارتخاء كتلة واحدة من الحزن الذي لم يفهمه.

قالت دون أن تلتفت: الرجال الذين التقيت بهم كلهم بدلاء عن أفشالوم يا يوسف.

ظل صامتاً منتظراً. فأكملت بعد قليل: لأنه لم يحدث شيء من هذا بيني وبين أفشالوم.

— معقول؟

ابتسمت بحزن: دائماً نصل إلى ما لا نريد. ولا نصل أبداً إلى ما نريد.

— ونحن الذين كنا نعتبر...

ولم يكمل. أحس أنها لا تستمع إليه.

— ما بك؟

* أخافني شيء انتابني منذ قليل. أحسست بك مثل آرون.

— آرون؟ وفي الفراش؟

* أنا طبيعية. وعلاقتي بآرون طبيعية. ولكنني في لحظة ما أحسست أنني أحتضنه هو. أو كأنني أتمنى لو أنني أحتضنه. صار آرون حبيبي وابني معاً.

كان معها في الفراش إذاً أكثر من واحد، إلا أنا الذي كنت معها بجسدي.

مد يده إلى منشفة الحمام ونهض يلف نفسه بها.

تنهدت لكي تقلع نفسها من شرودها. ثم نهضت. وقررت أن ترتدي ملابسها دون أن تستحم.

كان يوسف في الغرفة الأخرى. وقد جلس ساهماً يحدق

إلى الفراغ خارج النافذة. بغتة يختلف الرجل عما كانه في السرير قبل قليل. ويصبح له مظهر محايد.

تطلع يوسف خارج النافذة، ففوجئ أن الوقت صار قبيل الغروب. حانت منه التفاتة عبر النافذة الأخرى فرأى أشباح الجنود تتحرك على خط الأفق.

قال لها: جاؤوا.

* أنفذ بجلدك.

– وأنت؟

* سأدبر نفسي. لا تخف علي.

وقفز من النافذة الجنوبية فلم يجد أمامه طريقاً آمناً إلا البحر. فألقى بنفسه في الماء.

تطلعث إلى الجنود المقتربين وقررت قرارها. دخلت إلى غرفة النوم وأخذت مسدساً ربطته على لحم سرتها. ثم جلست أمام النافذة تتزين. قدرت أنها ستشغلهم عن يوسف.

ووصل الجنود فأحاطوا بالمختبر.

وصرخت سارة من الداخل: لا تطلقوا النار. سأخرج.

فتحت الباب بهدوء، وخرجت بكامل زينتها. مما جعل الضابط يتردد في الإمساك بيدها. وجه أمره إلى جندي بأن يأخذها إلى السيارة.

لم يجدوا غيرها في المختبر. فنقلتها السيارة إلى المقر التعبوي الذي صار في زخرون ياغوف. بينما بقي

آخرون يفتشون بحثاً عن أوراق ووثائق ومستندات.

حين وصلت، وجدت البلدة قد تحولت إلى ثكنة. ورأت بعض الشبان الذين كانوا يتعاونون معها يُجرّون إلى بيوت يحيط بها الجنود. واحد من العجائز، كان يلحق بالجنود الذين يقودون ابنه، رآها فصاح بها: كله منك. كله منها يا بيك. هي التي ورطت الأولاد ولعبت بعقولهم.

ولم تجد الوقت أو الفرصة للرد عليه. وأمام بيت آخر رأت ليوفا مقيداً وجالساً على الأرض. تطلع إليها وأطرق. فأدركت أن كل شيء قد انتهى.

وأدخلت فوراً إلى دار المختار، حيث فوجئت بجمال المرسيني و علي فؤاد باشا ويونس حيدر بيك وياسين بيك الجابي. وكانت تتوقع أن ترى عارف إبراهيم بينهم. وأدركت من وجود هؤلاء الضباط الكبار، الذين ليس فوقهم رتبة أعلى في سورية كلها، أن الأمر محسوم. سحبت كرسياً وجلست مستعدة لمواجهة النهاية.

تطلع إليها جمال المرسيني: هل سمحنا لك بالجلوس؟

* ستسمح لي لكي تسمعني. فأنا لا أعرف كيف أتكلم وأنا واقفة.

– ولم نسمح لك بالكلام.

* سيسرك أن تسمعني. لدي اعترافات خطيرة. أنا أدير شبكة جاسوسية باسم نيلي لصالح الإنكليز. أتعاون مع

أخي آرون الموجود الآن في مصر.

– هذا كله نعرفه.

أكملت كأنها لم تسمعه: كان أخي الثاني ألكسي يتعاون معنا. لكنه صار الآن في أميركا. نحن الثلاثة وحدنا نشتغل. الآخرون لا علاقة لهم. ولا يعرفون شغلنا.

– ولكن هناك بين المعتقلين من اعترف أنه كان منظماً معكم.

* شرف يريدون ادّعاءه.

* شرف؟ أي شرف؟

بهدوء وثقة قالت: شرف النضال من أجل قيام إسرائيل.

ابتسم مضطراً إلى مجاراتها: وكيف كان يحدث الاتصال بينكم وبين العدو؟

* كل خمسة عشر يوماً تأتي غواصة إلى مقابل المختبر. تعطينا إشارة. ثم ينزل منها قارب يتجه إلى الشاطئ. فنكون بانتظاره. نعطيه معلوماتنا مكتوبة. ويعطينا ما يريد أن يوصله إلينا.

– مثلاً؟

* أوامر. معلومات يريدون التثبت منها: أمكنة تواجد القطعات العسكرية. الأسلحة الجديدة. الأموال التي جاءت من الخارج إلى يهود أليشوف جاءت عن هذا الطريق وأنا وزعتها.

– والحمام الزاجل؟

* للمعلومات الطارئة والمستعجلة والتي يجب أن ترسل إلى القوات الإنكليزية في سيناء.

– ولماذا تقدمين الاعترافات بهذه السهولة؟

* أنا أحسن التقدير يا باشا. انتهى كل شيء. تفرجت في سهرات ضباطكم على لعب القمار. وتعلمت منها درساً. اللاعب البارع يعرف أيضاً متى ينتهي اللعب. لا أريدكم أن تضيعوا وقتكم وتظلموا الناس. أنا أدلي بمعلوماتي كلها.

نهضت: ستأخذونني الآن. أليس كذلك؟

ابتسم لها دون جواب.

* هل يسمح الباشا بأن ألبس ملابس تلائم هذا البرد؟

– خذوها.

خرجت مع الضابط المكلف بمرافقتها. واتجهت نحو منزل أهلها، فلم تجد إلا توبة التي سارعت لإخبارها أن زيفي والأب والأم معتقلون. ومنعها الضابط من الاسترسال.

وقفت تتطلع إلى وجوه أبناء الملة الذين كانوا يتخوفون من نتائج مغامرتها. وابتسمت لهم كأنها تريد أن تطمئنهم، وتؤكد لهم أنها لن تورطهم.

ولم يستطع جمال المرسيني أن يخفي فضوله فتبعها. مما اضطر الجميع إلى السير معه.

حين دخلت المنزل أمر الضابط بالدخول معها. وأمر

الآخرين بتفتيش الدار والبئر والحظيرة والسطح. واندفع الجنود ينبشون كل شيء.

في الداخل فتحت خزانتها وأخرجت ملابسها ثم التفتت إلى الضابط قائلة: أنت عربي ومسلم وتغار على العرض. هل تقبل أن تجبر فتاة غريبة على خلع ملابسها أمامك؟

قال لها مضطرباً: لا أستطيع الخروج. أدخلي وغيري ملابسك في الحمام.

دخلت وأغلقت الباب. ولم تمض أكثر من دقيقة حتى سمع الضابط صوت طلقة من الداخل.

اندفع وفتح الباب. فوجدها مرمية على الأرض، والدماء تنزف من رأسها.

واندفع من الخارج كل من كان موجوداً، وعلى رأسهم جمال الصغير.

وكانت قد فارقت الحياة.

— ٤ —

ظل يوسف يسبح ويرتاح، دون أن يجرؤ على الاقتراب من الشاطئ، حتى قدر أنه قد ابتعد بما فيه الكفاية وأن الليل قد تقدم بما يكفي للسترة. فخرج إلى الشاطئ، وهو يرتعد من البرد. وعلى الرغم من أنه منهك، فقد أدرك أن عليه أن يركض لكي يبتعد عن الشاطئ، ولكي يدفئ نفسه.

ولكن إلى أين؟

إلى المطلة؟ لا. لا بد أنهم ينتظرونه هناك عند زوجته وأولاده.

إلى زخرون ياغوف؟ لا شك أن الجيش هناك أيضاً. يستحيل أن يدهموا عتليت دون أن يدهموا زخرون ياغوف. إلى روشيون لوزيون؟ هذه أيضاً مكشوفة منذ اعتقال نعمان. هذا إذا لم يكن ليوفا قد أكمل فضح كل شيء.

هاشوميرا! فإلى السجيره إذن.

ظل يمشي ويركض طوال الليل. ولم يكن يحس بالبرد، على الرغم من ملابسه المبللة، واحتمالات سقوط المطر التي تنذر بها السماء الملبدة بالغيوم. تجنب الطرقات لأن حركة الجيش عليها كانت مستمرة طوال الليل. وحين بزغت أول خيوط الفجر رأى نفسه في حرج جبلي لم يستطع أن يحدد مكانه بالضبط. وكان الإرهاق قد أوشك أن يشل حركته. فجلس ليرتاح. لكنه راح في نوم عميق.

— ٥ —

بعد انصراف كبار الضباط لم يبق في زخرون ياغوف إلا عدنان بيك على رأس القوة. وقد تلقى أمراً واضحاً بأن يكون تحت تصرف عارف وإمرته حين يأتي. وكان عدنان قد حول المستعمرة إلى معسكر اعتقال. جمع

ولكن إلى أين؟

إلى المطلة؟ لا. لا بد أنهم ينتظرونه هناك عند زوجته وأولاده.

إلى زخرون ياغوف؟ لا شك أن الجيش هناك أيضاً. يستحيل أن يدهموا عتليت دون أن يدهموا زخرون ياغوف. إلى روشيون لوزيون؟ هذه أيضاً مكشوفة منذ اعتقال نعمان. هذا إذا لم يكن ليوفا قد أكمل فضح كل شيء.

هاشوميرا! فإلى السجيره إذن.

ظل يمشي ويركض طوال الليل. ولم يكن يحس بالبرد، على الرغم من ملابسه المبللة، واحتمالات سقوط المطر التي تنذر بها السماء الملبدة بالغيوم. تجنب الطرقات لأن حركة الجيش عليها كانت مستمرة طوال الليل. وحين بزغت أول خيوط الفجر رأى نفسه في حرج جبلي لم يستطع أن يحدد مكانه بالضبط. وكان الإرهاق قد أوشك أن يشل حركته. فجلس ليرتاح. لكنه راح في نوم عميق.

— ٥ —

بعد انصراف كبار الضباط لم يبق في زخرون ياغوف إلا عدنان بيك على رأس القوة. وقد تلقى أمراً واضحاً بأن يكون تحت تصرف عارف وإمرته حين يأتي. وكان عدنان قد حول المستعمرة إلى معسكر اعتقال. جُمع

فوجئ المعتقلون، أكثر مما فوجئ عدنان. فلم يصدقوا في البداية. إلا أن عدنان أعطى أمره إلى الجنود. ففكوا الحصار عن المعتقلين. وبدأ كل منهم يعود إلى بيته، مصطحباً معه عدداً من معتقلي المستوطنات المجاورة، وهم ينظرون إلى عارف نظرة امتنان.

وظل عارف يرقبهم، والمختار إلى جانبه، حتى رأى الخضرة تتجه إلى منزل أفراييم آرونسون حيث تعالى الندب. وهمس له عدنان: سارة آرونسون انتحرت.

قال عارف: أعرف. تعال للتعزية.

وسارا وحدهما، حيث لم يجد المختار له مكاناً بينهما.

قال عدنان: أفهمني. ما الذي تفعله. ما هي اللعبة؟

قال عارف: جاء دور الطير الحر. من خلال المعتقلين الذين أرسلتموهم إلى القدس، وبعد انتحار سارة، صار واضحاً أن تنظيم نيلي قد انتهى. ولم يبق منه إلا يوسف ليشانسكي. وهذا يُعتبر الآن مطارداً أكثر مما هو جاسوس ذو فاعلية. يبقى علينا الآن ألتر ليفي، الطير الحر. ويجب أن نمسك به دون أن ننقص منه ريشة أو شعرة.

قال عدنان: طالما أنك أخذت الوجه الأبيض معهم. أدخل وعزِّ وحدك. ليس من المعقول أن أدخل وأعزي بها، وأنا الذي كنت وراء انتحارها. ولا تنس أنها اعترفت بتجسسها قبل أن تنتحر.

دخل عارف. فوجم الجميع.
ظل واقفاً وتوجه بكلامه إلى أفراييم. تمتم: سامح الله الشباب. لا يعرفون كم يكسرون قلوب آبائهم بتصرفاتهم. ولولا تعجلهم لأمكننا أن نتفاهم معهم. حتى أنا أفاجأ بابني يشتغل في السياسة دون علمي. حتى ابني أنا في السجن. ماذا نفعل؟ جيل جديد. لا يقدر. لا أستطيع أن أقول لك يا عم أفراييم إلا: رحمها الله ومنحك الصبر.
وخرج.
وعند الباب تكلم بصوت مرتفع يخاطب أحد الجنود: إذهب واسأل عدنان بيك إن كان يريد شيئاً. أنا ذاهب إلى النبي صاموئيل.
والتفت إلى المختار: أخاف أن يكون العسكر قد تراذلوا هناك مثلما تراذلوا هنا.
قال له المختار: جلبوا أناساً من النبي صاموئيل إلى هنا.
أظهر عارف دهشته: صحيح؟ من النبي صاموئيل؟ ولماذا جلبوهم إلى هنا؟
تقدمت الخضرة منه: أنا من النبي صاموئيل يا بيك. أما عرفتني؟ ألا تذكر الخضرة؟
* أنت؟ كيف لا أعرفك؟ ماذا تفعلين هنا؟
– جلبني العسكر يا بيك. جلبوا الكثيرين من القرية. أخذوا قسماً إلى القدس. والبقية هنا. حتى ابنتي

جلبوها يا بيك.

* مجانين. قسماً بالله مجانين. تعالي. تريدين أن تذهبي إلى بيتك؟ إجلبي ابنتك بسرعة.

في الطريق سألها، وهو يريد أن يُسمع الزوجة: ولماذا يدهمون النبي صاموئيل؟ أنتم ليس عندكم جواسيس. عندكم غير ألتر؟

— الله أعلم يا بيك. نحن ما لنا وللجواسيس؟ والله لولاك تبهدلنا كلنا.

* قبضوا على ألتر؟

قالت الزوجة: لا. لم يكن في القرية. حين لم يجدوه جلبونا نحن. لا أفهم ماذا يريدون منا.

* صحيح. ولكن مادمت زوجته لماذا لا تعقلينه؟ وهذه حماته أيضاً تستطيع أن تعقّله. حلوة حياته هكذا؟ خائف دائماً وملاحق دائماً. أكيد أنه لا يرى زوجته وأولاده مرة كل شهر أو شهرين.

— صحيح يا بيك.

* إلى متى سيظل هكذا؟

قالت العجوز: أنت تعرف يا بيك.

* أنا؟

— أنت تطارده من مكان إلى مكان. هو يقول إنك لا هم لك غيره.

* هذا شغلي يا خضرة. وأنا أؤدي واجبي ووظيفتي.

طالما أنه في هذه البلاد سأظل أطارده.

– أمرنا إلى الله.

* ولماذا التسليم بهذه البساطة؟ لماذا لا يخرج من البلاد؟

– يستطيع؟

* المال يفعل كل شيء. ولكن يظهر أن ألتر بخيل. أنتم اليهود كلكم بخلاء. ولكن يبخل الإنسان على روحه؟

– كيف يا بيك؟

* تصوري، حين قبضت عليه منذ فترة في القدس، تعرفين كم عرض علي لكي أتركه؟ خمس ليرات. كنت أتصوره أذكى من ذلك. بذمتك أليس عيباً أن يعرض خمس ليرات على البيك قائد الشرطة؟ تصوري حتى الشرطي الذي هرّبه لم يرض بأقل من عشرين ليرة ذهب. تعرفين لماذا؟ لأنها مسؤولية. سمعت أن الشرطي انعدم. ألم تسمعي؟

تنهدت: لم أسمع.

قال: طبعاً انعدم. يعني الموضوع فيه مسؤولية. والذي يساعده يلعب بدمه.

وحين اقترب من القربة التفت إليها: قولي له أن يحل كيسه، ولا يبخل على نفسه. يجب أن يدفع لكي يهرب خارج البلد هو وزوجته وأولاده. وأنت معهم إذا أحببت.

تطلعت إليه راجية: تهرّبه أنت يا بيك؟

قال لها: لا تكثري من الأسئلة. حين يقرر سيعرف من الذي يهربه، ولمن يجب أن يدفع.

ووقف أمام البيت. وانتظر نزولهما من العربة. وفي آخر لحظة أمسك بالعجوز فالتفتت إليه. قال لها: اقتربي.

اقتربت.

* اقتربي أكثر.

اقتربت حتى وقفت لصق باب السيارة.

وتطلع إلى الزوجة أيضاً: تعالي أنت أيضاً.

وبجدية وحزم قال: إذا فلتت من واحدة منكما كلمة من حديثنا أجعل الله ما خلقها. عيونها أشيلها، فهمت؟

– أمرك يا بيك. أمرك.

– ٦ –

خبط ألتر رأسه بالحائط حتى سال دمه وخضرة تتطلع إليه عاجزة عن التدخل. ثم ضرب بقبضتيه الجدار والطاولة والأرض، وهو يدور كالمجنون.

انتحرت؟

وجلس يبكي كالطفل: لماذا لم تهرب؟ أنا أنذرتها. قلت لها سيجيئون. لم تصدقني. عمرها لم تصدقني. أنا أخاطر بنفسي وأتعرض لمطاردة عارف إبراهيم لأوصل لها الإنذار. وهي تستهتر بي ولا تصدقني. إستهتري بي وبعواطفي وحبي وشهواتي. ولكن عيشي. إبقي موجودة في الدنيا لكي يظل لها طعم، ويظل لها لون

ورائحة. أبقي لكي يظل لدي حلم أسعى إليه، وأخدر نفسي به، وأعد نفسي بتحقيقه ولو بعد أن نشيخ. لا يا سارة. لا. لماذا فعلتها؟ ليس من حقك يا عيني. ليس من حقك أن تقتلي نفسك. في سبيل القضية يموت الآلاف. ولكن ليس أنت. أنت حين تموتين يموت في كل واحد منا شيء لا يعوض.

ظلت خضرة ساكتة تنتظر أن يهدأ. لكن غضبه وألمه كانا يتزايدان، حتى خشيت عليه أن يختنق أو ينفر الدم من عينيه. تطلع إليها بحقد: لماذا جلبت لي هذا الخبر؟ كنت خبئيه في قلبك. إكذبي علي ولا تقولي إنها ماتت. انتحرت؟ يا إلهي. إلى هذه الدرجة تنسى وجودي؟ وتنسى أن الطلقة التي صوبتها إلى رأسها قد اخترقت قلبي؟

وتطلع من جديد إلى العجوز: سمعت؟ نعم. أنا أحبها. ولم أحب في حياتي امرأة غيرها. قولي هذا لابنتك لكي تغسل يديها من ألتر. قولي هذا للدنيا كلها لكي لا يظل فيها مكان لألتر. قولي للأولاد أيضاً إنني لا أريد أن أراهم. قولي لهم أن ينسوني. أنا لم يبق لي أمل ولا حياة ولا مكان. لم يبق لي عمر له معنى. ستشغلني عن الدنيا بعد موتها، أكثر مما كانت تشغلني وهي حية.

ونهض بغتة: سأسلَم نفسي. سأجعلهم يشنقونني. سأعترف بكل ما فعلته. إذهبي إلى عارف بيك إبراهيم

رئيس الشرطة. قولي له ألتر يريد أن يسلّم نفسه.

– هو يسلّم عليك.

تطلع إليها كأنه لم يسمعها: ماذا قلت؟

– يسلّم عليك.

* علي أنا؟

– أوصلني بعربته إلى النبي صاموئيل. وقال إنه يستطيع أن يساعدك.

استيقظ فيه حسه الهارب الحذر. وعاد إلى النظر نحو حماته بحذره القديم الذي لا يفارقه: يعني هو يعرف أنك ترينني. ولذلك يتركك. ويرسل وراءك من يتبع خطواتك. وأنت عجوز خرفانة لا تنتبهين. يعني أنت قدتهم إلى المخبأ.

– ألتر. هل جننت؟ تجن على موت سارة أنت حر. أما أن تجن وتعتبرني مغفلة فهذه كثيرة عليك. أنت تعرف أنني ألعب على شرطة القدس كلها.

* ماذا قال لك عارف؟

– لم تعرض عليه ما يعبئ العين يوم قبض عليك. وعليك أن تتشجع وتحل كيسك.

أبرقت عيناه بومضة انتصار أنسته فجيعته وأحزانه. فجلس على الأرض وأخرج لفافة وأشعلها.

– ٧ –

أفاق يوسف قبيل الظهر. أحس بالبرد وبآلام في مفاصل

جسمه كلها. ولكنه، وهو يعي موقفه جيداً، نهض وصار يمشي بين الحراج باحثاً عن عشب يؤكل.

وصل إلى السجيرة بعد العصر. كانت الحياة ساكنة فيها: كسل الفلاحين في الأيام الماطرة. توجه إلى بيت ناحيم، الذي كان يشاركه المسكن طوال السنوات الثلاث التي قضاها هنا.

وفوجئ به ناحيم. أضرم النار من جديد. وجعله يخلع ملابسه المبللة. وأعطاه من عنده ملابس جافة. وصار يخرج ويعود حاملاً حطباً وطعاماً وكلاماً. وبعد أن تسربت حرارة النار إلى يوسف ارتخت مفاصل جسده كلها.

قال له ناحيم: ألا تأكل شيئا؟

قال يوسف: دعني أنام.

قال له ناحيم: لا تؤاخذني يا أخي يوسف. أنت على رأسي. ولكنك تعرف قسوة الهاشومير.

— أعرف. مانيا تشرب الدم لو طلع بيدها. وشوشات أرذل من عقرب.

* لا. مانيا وشوشات رَحَلا إلى الأناضول منذ زمن. يبدو أنك لم تسمع بما جرى في البلد. انقسموا على أنفسهم. وإسرائيل جيلادي ترك، وراح قرب المطلة. عمل مستوطنة كفار جيلادي. ولكن هم هنا يعرفون بشغلكم في نيلي. والجميع غير موافقين.

– الآن أنا لا نيلي ولا نيلة على رأي المصريين. أنا هربان وأريد أن أسلم بروحي.

* أنا لا أستطيع أن أحميك. يسلخون جلدي والله العظيم.

– أطلب لي مقابلة أي واحد منهم.

* أخبرتهم بمجيئك. وهم ينتظرونك.

– لا يفوتك شيء يا لعين.

* أنت تعرف. هؤلاء لا يمكن اللعب معهم.

– هيا بنا.

* إذهب وحدك إلى منزل مانيا. سترى إيفون هناك. هي تحل محلها الآن.

نهض يوسف وخرج متوجهاً إلى منزل مانيا.

نعم هو منزل مانيا. فحتى أيام شوشات وعلى الرغم من قوته وسطوته وقيادته للمسلحين وصولاته على الحصان بالكوفية والعباءة والبندقية كأي فارس بدوي؛ فإن مانيا فيلبوشيفتش كانت هي الرجل الأقوى في المزرعة، كما كان العمال يرددون. وهم لا يقولون هذا الكلام ليتندروا، بل يقولونه وهم يرتجفون ذعراً. وسيظل اسمه منزل مانيا حتى لو نفيت وحلت محلها امرأة أخرى.

قرر يوسف أن يسلم عليها بصفته العامل السابق الذي اشتغل في المزرعة ثلاث سنوات.

أدخلته الخادمة إلى الصالون فجلس ينتظر.

ولم يطل انتظاره. سمع فرقعة كعبها وهي تنزل الدرج فنهض وهيأ نفسه للسلام.

لكن صوتها الجهوري لم يعطه الفرصة: اللّه لا كان جاب أيام الفلاء. ما الذي أرجعك؟

عرفها. هي إيفون التي كان يراها في زياراتها لمانيا.

* أهلاً يا مدام.

– هربان من البوليس. أليس كذلك؟

تعرف كل شيء فلا داعي للمناورة. ولكنها محاولة ومجاملة: لا نستغني عن الفضل يا مدام. وشرف كبير أنك ما زلت تتذكرينني.

– وماذا نذكر من السفرجل؟

تجاهل المعنى: قلت لنفسي أقضي يومين هنا، حتى تهدأ الأحوال. وبعدها أدبر أموري.

– وماذا ستشتغل هنا؟

* أي شيء. شغليني أي شيء تريدين. أكنس. أمسح. أنظف للخيل. أحرس. أي شيء.

– وما الذي شد على أذنابكم حتى تشتغلوا بالتجسس؟ ينقصنا أن يشك الأتراك فينا ويطاردونا؟ تريدون أن تورطوا الملة كلها، لكي تتسلوا أو تتجسسوا؟ أنتم حمير. حمير لا تنقصكم إلا الأذناب. إبن آرونسون يشغّلكم من بعيد. وأنتم تبقون هنا للسخرة. هذا لا يهمه

أحد في الدنيا إلا نفسه. حتى أخته لم يهتم بها. رجال يهربون ويتركون النساء لتواجه الخطر. سمعت أن سارة انتحرت؟

وارتعد للخبر.

* انتحرت؟

– طبعا انتحرت. ألم تسمع؟

* أنا هارب منذ يومين. لم أر أحداً ولم أسمع بشيء.

– ولماذا جئت إلى هنا؟

* قلت لنفسي: سبق لي أن اشتغلت في الهاشومير. فإذا كانوا لا يزالون يريدونني أشتغل. وإلا أبقى يومين ثلاثة وأذهب. ألاقي وسيلة للهرب.

– وبعد أن يكون الدرك شموا رائحتك، تهرب وتتركنا لوجع الرأس. وإلى أين ستهرب؟ ستترك البلاد. أليس كذلك؟ حلو. شيء جميل. نحن نعمل ليلاً ونهاراً. وننفق الأموال لشراء الأراضي ولتقديم القروض من أجل تشجيع الناس على المجيء إلى أرض إسرائيل. والشباب يلعبون بالتجسس وأكل الخراء، ثم يتركون البلاد.

* أنا لم أكن أفكر في الهرب من البلاد لولا أنني ملاحق. ولن أفكر به إذا سمحت لي بالبقاء.

– كيف أبقيك وأنت مطلوب؟ هل تنقصنا المشاكل؟

* طوال عمرنا نخبئ الهاربين والمطلوبين. ما المانع أن

أختبئ مثل غيري؟

هزت رأسها منهية المقابلة: طيب. طيب. سنبحث أمرك. إبق عند ناحيم. عنده أكل؟

* لا أعرف. عنده. ندبر أمورنا.

– طيب. إنتظر حتى نطلبك.

* حاضر.

خرج راغباً في الاختلاء بنفسه. يجب أن يعطي نفسه الفرصة لاستيعاب مسألة انتحار سارة. انتحرت أم قتلوها؟ قاومتهم؟ ما الذي حدث بالضبط؟ وحاول استرجاع ذكرى ذلك الصباح الدافئ في أحضانها. أكان يجب أن تترك له هذه الذكرى المفرحة الموجعة؟ صحيح أن سعادته كانت عظيمة. لكن الظروف لم تترك له الفرصة لاستحلاب ريقه ومزمزة تلك المتعة. لقد نهض من فراشها إلى الهرب والذعر. كان في غنى عن لحظة الحب تلك. أكان حباً أم جنساً مجرداً؟ كيف كان الأمر بالنسبة لها هي؟ لو أطال الحوار معها في الفراش. أكان من الضروري أن يضيع الوقت بالحديث عن آرون وأفشالوم؟ هو لا يعرف بالضبط كيف جرت الأمور. قالت له: تعال. فاندفع إلى جسدها كأنه يلقي بنفسه إلى البحر. لم يكن هناك وقت للاستيعاب والفهم. لا مكان للعقل. جسد وحواس ومتعة وغبطة. وبعد ذلك إحساس بالانتشاء الذي يوهم بالقوة. ويدفع إلى الإدلاء

بالآراء الخرائية. كله الآن هباء. كله الآن غير موجود. حياته تعود إلى كلاحتها مثل ليل دامس عرف لحظة برق واحدة. نعم. ها هو ذا يعود إلى ليل حياته. هذا الليل الذي يزداد كلاحة وخطورة وعماء. مثل هذا الليل الذي ينبض بالخطر، والذي زاده قتامة بعد هذا اللقاء مع إيفون.

عاد إلى جلسته قرب النار. أكل ودخن ولم تترك الهواجس لجسده فرصة للاسترخاء.

وحين مد ناحيم فراشه، سأله يوسف بفزع: ستنام؟

– طبعاً. اليوم ليس عندي حراسة. ألن تنام؟

* سننام بعد أن يجيء الخبر. قالت لي إيفون إنهم سيدرسون وضعي. ناحيم. أريد منك هذه الخدمة. أريد أن أحضر جلستهم، وهم يتناقشون.

– كيف؟ مستحيل.

* يجب أن أعرف كيف ينظرون إلى الموضوع. أرجوك يا ناحيم.

– أتمنى أن أخدمك بعيوني. ولكن كيف؟

* إذا كان من الصعب حضوري حاول أنت أن تحضر.

– تظن أنهم يسهرون معنا؟ دخول السرايا أسهل من الدخول إليهم.

* أليس لديك في منزلهم من يمكن أن يفيدك؟

– يا أخي لم اللبكة؟ ألا تعرفهم؟ لا يستحيي واحدهم

من ربه. إذا كانوا لا يريدونك في السجيرة فسيبلغونك بذلك.

* يا ناحيم. إفهمني أرجوك. صحيح نحن كلنا يهود وكلنا مهاجرون. ولكن كل منا يفكر في هذه الأرض، وفي إقامته عليها، بطريقة مختلفة. هناك من يقتل. وهناك من يتسول. هناك من يضحي بنفسه معتبراً هذه الأرض قضية. وهناك من يعتبرها مشروعاً للتجارة. أنا لم أفهم شوشات أو مانيا. ولم أفهم إيفون. لم أعد أفهم أحداً.

– الآن تريد أن تفهمهم؟

* نعم. لأنني الآن أمام خيار صعب. هل يستحق الأمر هذه التضحية؟ هل انتحرت سارة وقتل أفشالوم لأن لدى الآخرين مشروعاً يستحق التضحية؟ أم أن الذين يموتون أغبياء متعجلون لا يعرفون ما في أذهان الآخرين؟ ناحيم. أنا ملاحق. أحس الآن كما كنت أحس وأنا جريح في الصحراء. الموت قد يأتي من أي طرف أو أي سبب. لكن الوصول إلى مصر كان هدفاً يستحق السير أمام خط النزيف من أجله. فهل كان هناك ما يستحق العودة؟ هذا ما أنا في حاجة إلى معرفته اليوم.

كان ناحيم يستمع متأثراً. هو الآخر مهاجر. جاء إلى الأرض الموعودة. ومثل غيره بدأ من الصفر. بدأ من العمل اليدوي المأجور، منتظراً الفرصة لكي يأخذ أرضاً

يشتغل فيها ويحبها لأنها ستصبح أرضه. أو ليصبح واحداً من عناصر إحدى المستوطنات. وإلا لم هذه الغربة؟ وهذا الشقاء؟

* خطر لي يا ناحيم وأنا أعبر تلك الصحراء أن أسأل نفسي: أيهما أكثر صعوبة: عبور موسى وجماعته من مصر إلى فلسطين؟ أم عبورنا نحن من فلسطين إلى مصر؟ كل عبور كان هدفه النجاة. لكنني أذهب إلى مصر وأعود، ولا أعرف أين نجاتي. إلى أين أذهب الآن؟

– أنت تعقد المسائل كثيراً.

ونهض.

* ماذا ستفعل؟

– سأذهب إلى الحراس. قد أستطيع أن أفهم شيئاً يهدئ خاطرك.

وخرج.

– ٦ –

الانتظار متعب. والتدخين لم يهدئ الخاطر. لكن الجسد بدأ يطالب بحقه. فلم يستطع يوسف مقاومة النعاس على الرغم من قلقه. بدأ يكبو قرب النار. ثم ينتبه حتى خشي أن يسقط وجهه فيها.

اتكأ ولم يجد الوقت للاستسلام للنوم. فقد اندفع ناحيم متلجلجاً: يوسف. قم أهرب.

فتح عينيه كأنه يريد أن يسمع بهما جيداً.

– يرون أن وجودك خطر على المزرعة كلها.

* طيب. سأرحل. لم هذه ال....

– ألا تفهم؟ وجودك كله خطر على المزرعة وعلى الشعب اليهودي. رأيهم أنهم إذا قتلوك استطاعوا أن يعلنوا براءتهم منك أمام الأتراك.

* يقتلونني؟ هم؟

– عجل يا أخي. تريد أن تناقشني الآن؟ سيقتلونك الليلة. إنتظر. لا تخرج من الباب. إفتح النافذة واقفز منها.

وما كاد يفتح النافذة حتى سمع الخطوات الثقيلة المنذرة تتقدم نحو البيت. مد جسده ليخرج من النافذة ثم قذف بنفسه مع صدور الطلقة.

ارتمى خارج البيت وتدحرج قليلاً. ولم يحاول التأكد مما حدث له. بل نهض وانطلق في الظلام دون توجه واضح.

ظل يركض، وهو يسمع اللغط وأصواتاً قريبة إلى الشجار، حتى أحس أنه يصعد جبلاً. كانت الأصوات قد انقطعت. ولم يعد يسمع إلا لهاثه ووجيب قلبه. وبيأس سمح لنفسه أن يسعل وهو يتلمس جسده. فتأكد أن البلل الذي يحس به دم. وليس عرقاً. وأنه مصاب في كتفه.

الآن صار وجودي خطراً على الشعب اليهودي؟

وانفجر بالبكاء غامراً وجهه بالأرض الرطبة، كأنه يبحث عن أم مواسية.

الفصل التاسع والعشرون

– ١ –

رأى فالكنهايم أن جبهة فلسطين مهلهلة وغير قادرة على الصمود. ورفع تقريراً صحيحاً ودقيقاً عن حالة الجبهة. وأنذر القيادة بأن الأوضاع ستتغير لصالح الإنكليز في القريب العاجل. لقد سبق أن تم سحب ستين ألف جندي إنكليزي من جبهة مصر، وتم إرسالهم إلى أوروبا لمواجهة هجوم ألماني مرتقب. الآن تغيرت الحالة. رجع هؤلاء إلى مصر. وأضيف إليهم الجيش المتراجع من جبهة غاليبولي. وقام عامل البرقيات بإرسال تقرير فالكنهايم إلى القيادة في اسطمبول. ثم أعاد توليف جهازه. وأرسل التقرير إلى حيث طلب منه ألتر مقابل مئة ليرة ذهبية.

وكاد فالكنهايم أن يفقد عقله. ففي اليوم التالي لإرسال التقرير قامت الطائرات الإنكليزية بقصف المواقع الوحيدة المتماسكة التي أشار إليها في تقريره. وفي الوقت ذاته تم تفجير مستودعات الذخيرة في حيدر باشا. وهي المستودعات التابعة لجيش الصاعقة الذي طلب فالكنهايم استقدامه.

ثم لاحظت الكمائن المتقدمة قرب غزة تحركاً غامضاً في الليل. وسمع الجنود صوت حوافر حصان فأطلقوا

النار على الظلام الذي يخافونه. وسمعوا صرخة وسقوط جسم. وتقدموا بحذر فوجدوا حقيبة جلدية ملوثة بالدم. ولم يجدوا الفارس. فحملوا الحقيبة إلى رؤسائهم. ووجد الرؤساء فيها أوراقاً رفعوها إلى قيادتهم. فعرفت القيادة من هذه الأوراق مخططاً سيتبعه الإنكليز في هجومهم القادم. وكانت الفرحة كبيرة في قيادة الأركان في القدس: غداً يهجم الإنكليز فلا يعرفون أننا ننتظرهم. وأننا كشفنا مخططهم.

وأرسل ألتر من مخبئه برقية إلى الإنكليز تحذرهم من أن خطة هجومهم قد كشفت.

ولكن الإنكليز لم يؤجلوا الهجوم. وقد حدث على غير ما تقول الوثائق التي تم العثور عليها مع المتسلل الجريح، الذي اختفى في الظلام حاملاً جراحه. ولما كان من غير المعقول أن يتم تغيير الخطة بهذه السرعة، فقد صار من المؤكد أن الخطة كانت مزيفة. وأنه قد تم تسريبها بهذه الطريقة للخداع. وتيقن الجميع أنه لم يكن هناك فارس. ليس إلا ثياباً ملوثة بالدم. ومخططات كاذبة.

واحتل الجيش الإنكليزي المواقع المتقدمة في الطريق الذي سيوصل إلى القدس.

انشغلت القيادة العثمانية والألمانية بإعادة تنظيم القوات. وقال فالكنهايم إن ما جرى بسيط ومتوقع. فلم يكن من الممكن الصمود في جبهة غزة. وإن الصمود

الحقيقي هو في الخط الدفاعي التالي: خط يافا – القدس.

وحين جاء أنور باشا إلى القدس ليطمئن على الأوضاع أخذه فالكنهايم إلى مناطق تمركز القطعات الألمانية وأطلعه على تسليحها ومخططاتها. فعاد مليئاً بالثقة والتفاؤل. وتناول عشاء فاخراً مع ضباط القيادة. ثم غادر في اليوم التالي والانتصار في جيبه.

وكاد علي فؤاد باشا أن ينفجر غيظاً: يا جماعة. لم يسألني، أو يسأل أي ضابط عثماني، سؤالاً واحداً. اكتفى بما قاله له الضباط الألمان. كأنه مبعوث الأمبراطور الألماني، وليس وزير حربيتنا.

– ٢ –

وكثرت حوادث الهرب من الجيش. لم تكن هرباً عادياً لجنود يريدون الوصول إلى أهاليهم. بل كانت هذه المرة هروباً من أجل الالتحاق بجيش الشريف. وجاء من يبلغ عن اتصال الوطنيين السوريين – عملاء الشريف – ببعض الضباط في الجيش. ولكن هذه التقارير كانت مريحة للقيادة، على الرغم من أن الضباط الذين تم الاتصال بهم مشكوك أصلاً في ولائهم. فقد رفض رضا الركابي تلبية دعوة الشريف لأنه يتسلم موقعاً قيادياً للدفاع عن دمشق بتكليف من جمال الصغير نفسه. وإن «شرفه العسكري» لا يطاوعه على التخلي عن واجبه.

كما تم الاتصال بياسين الهاشمي الذي كان من كبار القوميين العروبيين. وهو من أعضاء حزب العهد العسكري السري. ومن بين الذين اتصلوا بفيصل يوم كان هذا في دمشق ووعدوه بإقامة الثورة في سورية بالقطعات التي تكون تحت أمرتهم. ولكن هذه المرة كان رد الهاشمي، الذي يقود الفرقة العشرين في طولكرم: إن البلد في حالة حرب. وإنه لذلك لا يمكن أن يترك واجبه العسكري في هذه الظروف الصعبة. بل إنه أحرج من وجهوا إليه الدعوة. إذ كشف لهم عن شكوكه في الإنكليز. وقال إنهم غير مخلصين لفيصل أو لأبيه الشريف حسين. وذكر لهم اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور. حتى أنه قرأ لهم المناشير الإنكليزية التي تلقب الشريف بملك الحجاز، في الوقت الذي يلقب نفسه بملك العرب. وهذا مما يدل على سوء نية الإنكليز. وقال الهاشمي لسليم عبد الرحمن، المندوب المتحدث باسم «العصاة»: إن واجب الجميع الآن العمل على إنقاذ العرب. وحين نوقش في كلامه انفجر الهاشمي غاضباً: ألا تعرفون أنهم يعتبرون فلسطين يهودية؟ إسمعوا ما يقوله وعد بلفور: «إنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية». ولكي يفهموا جيداً صاح: يعني أن فلسطين يهودية. وأنهم يتنازلون بالحفاظ على

حقوق الطوائف غير اليهودية. العمى. ما أقل حياءهم: ٩٥÷ من سكان فلسطين مسلمون ومسيحيون ويصير اسمهم طوائف غير يهودية؟ العمى.

وناقش علي فؤاد هذه التقارير مع كبار الضباط فكان رأي عارف، وقد أقره الجميع، أن عليهم أن يتجاهلوها، لئلا يحدثوا بلبلة بين صفوف القوات، خاصة وأن موقف هؤلاء الضباط جيد ولا غبار عليه. كما أن في هذه التقارير ما يدعو إلى التفاؤل. فخيبة الأمل في الإنكليز والفرنسيين تدعو الكثيرين إلى المزيد من الولاء للدولة العلية من أجل الوقوف في وجه الأوروبيين.

ولكن الوضع في الجبهة كان مختلفاً. فقد تواردت الأخبار عن تقدم الجيش الإنكليزي. وأخبار كهذه لا تحتاج إلى صحف أو مراسلين. الجنود العائدون والأهالي الهاربون أخبار ساخنة كأنها خارجة من التنور لتوها. في ١٦ تشرين الثاني وصل الجيش الإنكليزي إلى يافا.

وكان الجنود يحكون للناس، أو بعضهم للبعض الآخر، عن الهزيمة. لكن وجوههم وحالتهم وهم يتنقلون حفاة مهلهلي الملابس توحي أنهم خارجون من مصح للأمراض العقلية، أو قادمون لتوهم من احتشاد للتسول. وكان ذلك كله دليلاً على الحجم الذي ستصل إليه الهزيمة.

وزاد في هذه البلبلة تذكر الناس للخطاب الذي ألقاه جمال باشا في بيروت. صدق جمال باشا في كل ما قاله. وها هم الإنكليز قادمون لتحقيق وعدهم لليهود، ولاقتسام بلاد العرب مع الفرنسيين. ولكن كثيرين منهم كانوا متفائلين بما يجري: ها هم الإنكليز قادمون. ومن الجهة الأخرى سيأتي جيش الشريف حسين. الأمير فيصل هو الزعيم القادم للبلاد السورية. الحمد لله. أخيراً سينزاح هذا الكابوس التركي.

على الأقل على مستوى الجبهة القائمة الآن حول القدس لم يكن هناك مجال للاهتمام كثيراً بخطاب جمال باشا. فالإنكليز مصممون، حسب ما هو واضح، على اقتحام القدس. وأللنبي سيلبّي طلب ملكه الإنكليزي بتقديم القدس هدية في عيد الميلاد: يعني في الشهر القادم... يعني بعد أيام.

— ٢ —

في الليل المطبق على مستوطنة بتاح تكفا تسللت امرأة من بيت مطفأ الأضواء نحو بيت جارها أورال. دقت الباب وطلبت أن ترى ابنه بنيامين.

وحين خرج الشاب، استغرب أن يراها: ماذا تريدين يا خالة مريم؟

سحبته من يده بصمت، حتى ابتعدت به عن باب البيت. ثم همست: يوسف ليشانسكي عندي. وأحست أن يده

ارتجفت في يدها.

ولماذا تخبرينني أنا بذلك؟

* أعرف أنك كنت مع تنظيم نيلي. والمغضوبة ابنتي لورت معكم. هي أخبرتني.

حاول أن ينتزع نفسه منها: وماذا أستطيع أن أفعل له أو لك؟

بنيامين. أنا عندي ثلاث بنات. لا أريد أن يتعرضن للخطر.

* فتعرضينني أنا؟

إذا انكشف وجوده عندي تعرضت المستوطنة كلها للخطر.

* وما الذي جلبه إلى بيتك؟

تعال اسأله. سيجيبك أنت وهذه المغضوبة. لأنكما معه في نفس أكل الخراء الذي تعملونه كلكم. خلصني.

أراد أن يتراجع. ولكن قبضتها القوية منعته، وهو جريح، يحتاج إلى المساعدة.

حين وصلا إلى البيت ودخلاه، كان الظلام لا يزال مخيماً.

لماذا لا تشعلون الضوء؟

* لأننا يجب أن نكون نائمين. الضوء سيلفت الأنظار.

وهمست إحدى البنات: هس. إنه نائم.

فأرعدت الأم: وتريدين أن تحافظي على راحته؟

سحبت البنت أمها إلى الخارج، فتبعهما بنيامين. وخرجت البنتان الصغيرتان. قالت لورت: أمي أرجوك. إنه مسكين. وقد ضحى من أجلنا كلنا. لو رأيته وهو يبكي. كان يبكى كالأطفال.

فكابرت الأم: يا بنتي. إذا جاء الصباح وهو هنا لن نجد كلنا من يبكي علينا. أيقظيه.

وترددت البنت. فاندفعت الأم إلى الداخل وسمعوها وهي تكلمه: قم يا يوسف. بنيامين أورال هنا وسيساعدك. لا تؤاخذني يا إبني. أنا ليس عندي سوى البنات الصغيرات.

ودخل بنيامين وجلس قرب يوسف. مد يده ووضعها على كتفه: يوسف. كيف جرحك؟

جرحه بسيط. قالت الأم.

فارتفع نشيج يوسف بشكل أربك النساء الأربع.

وتمالكت الأم نفسها: نلبسه ملاءة. وتخرج معه أنت ولورت.

همس يوسف: إلى أين؟

قالت الأم بحزم: بعيداً عن المستوطنة. بالملاءة سيتمكن من الابتعاد عن حاجز الجيش. وبعدها يدبر رأسه.

— ٤ —

لم يكن عارف، هذه المرة، ينتبه إلى العناصر الذين

وزعهم في كل مكان في المدينة. بعضهم بملابس مدنية، والآخرون بالملابس الرسمية. الأوامر هي إلقاء القبض على كل بالغ يرونه خارج بيته، واحتجازه حتى يراه عارف بنفسه. وعليهم أيضاً مداهمة البيوت والخمارات والكارخانات، واعتقال كل من فيها، حتى الضباط. سيوقف الحياة كلها إلى أن يقبض على ألتر. الأوامر التي معه صريحة. وصلاحياته لا حدود لها.
كل ساعة يخرج ويتجول في الطرقات ليتأكد بنفسه أن كل أورطة تقوم بأعمال الدورية سراً أو علناً. لا يريد لدورياته أن تتحول إلى أورطات مشلحين وزعران وسكرجية. انتهى زمن الرخاوة.
لكنه هذه المرة لم يكن ينتبه إلى أحد.
لقد خرج من مكتب علي فؤاد باشا والهم يركبه بين أكتافه. متى إذاً يستطيع أن يحكي من أجل ابنه؟ ويطالبهم بإطلاق سراحه؟ هل ابني هدم الكعبة؟ أنا أعرف أنها ظروف حرب. ولكن هذا شاب. ولد. فار دمه من أجل رفيقه وخاض مشاجرة عادية. تريدون أن تعملوها قضية؟ وماذا يعني أنه تحدث كلمتين في السياسة؟ الدنيا كلها في حالة حرب. هل يمكن لشاب متعلم وفهمان أن لا يتحدث في السياسة؟ هذه ليست سياسة. هذا اهتمام. اهتمام بالوطن والبلد. أليس بينكم من يمكن أن يفكر بهدوء؟ يا أخي فكروا في وضعي أنا.

أنتم لا تعرفون أنه حتى من الناحية المادية يكلفني ابني، وهو في السجن، أكثر مما كان يكلفني وهو يدرس في دمشق. لا أريده أن يكون ذليلاً في السجن بسبب المال. ولا أن يبخل على زملائه الذين معه. أريده أن يظل رافع الرأس. طوال عمري وأنا أحلم أنه سيكبر ويصبح شيئاً عظيماً أرفع رأسي به. تقرفون شبابه منذ الآن؟ ألا ترون أنه غض؟ ألا ترون أن إهانة الشباب تدمي قلوب أهلهم؟ يا أخي أنا زميلكم. أستحق منكم بعض المراعاة. ثم أنا لا أقصر في واجبي. أتحدى أكبر رأس فيكم. أنا أفعل ما لا يفعله غيري. وما لا يستطيع أن يفعله غيري. وكله لا جزاء ولا شكوراً. أنا لا أطالب بشيء. لا بإكرامية ولا بترفيع. أطالب أن تحيلوني على التقاعد لأخلص من وسخ هذه الوظيفة كلها. كل من حولي وسخون. ويتعاملون بالوسخ. أنا لا أريد إلا نظافتي. في كل مكان ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم. حتى من الغارة على نيلي عادوا بالغنائم من المستوطنات اليهودية. وأنا لا أفكر إلا بواجبي وبعملي. هل تريدون أن توصلونا إلى حيث لا يبقى أي إنسان في الدنيا محافظاً على نظافته؟ تريدونني أن أمد يدي لأرشو أو لأرتشي؟ ألا تعرفون أنني أستطيع أن أخرج ابني حتى لو كان في رقبته عشرون قتيلاً؟ هل أستحق منكم هذه الاستهانة لمجرد أنني أريد أن يأخذ القانون

مجراه حتى على ابني؟

وصل إلى باب السرايا وهو غارق في أفكاره. حتى أن خضرة التي كانت تمسح نوافذ بيت السكاكيني رأته وهو يحدث نفسه فابتسمت.

عند الباب التفت فرآها تمسح النافذة. وتظاهرت بأنها لم تنتبه له. دخل إلى قسم المحتجزين. تصفح وجوههم واحداً واحداً. وأطلق سراحهم. أحدهم قال: يا بيك. هذه ثالث مرة أعتقل فيها خلال يومين. والله العظيم صار يجب أن يعرفوني.

نهره بحدة: كل خراء ولاك. لا أحد يعرفك غيري. أنا أعرفك. وأنا وحدي أطلق سراحك.

لم يكن ألتر ليفي بين الموقوفين. فأطلقهم كلهم.

ولكن ما إن دخل مكتبه حتى سمع صوت الخضرة من الخارج: إبعد من طريقي. أحلى باقة لأحلى عارف بيك. وأنا سأعطيه إياها بنفسي.

ابتسم ابتسامة خفيفة، وخضرة تدفع الباب. فيما الحاجب يريد أن يمسكها: اتركها.اتركها.

قالت، وهي تتقدم من طاولته، وبيدها باقة الورد: الله وكيلك من ساعتين قطفتها ووضعتها في الماء بانتظارك.

وفيما هي ترتب باقة الورد على الطاولة همست له: كم تريد؟

تطلع إليها بنظرة ماكرة. فكررت سؤالها: كم تريد؟

* لقاء ماذا؟

لقاء أن تحل عن زيقه.

* وما الفائدة؟ إذا حللت عن زيقه سيظل غيري يلاحقه. يدبر نفسه مع غيرك. هو لا يريد إلا أن تكف بلاءك أنت عنه.

* لا. أنا سأدبر له حلاً نهائياً. سأرحّله من البلد كلها.

هو لا يريد أن يغادر البلد.

* إذاً دعيني أشاهده. سأفاوضه بنفسي.

إن شاء الله.

وخرجت.

— ٥ —

* معهم حق.

معهم حق يا ألتر؟

* طبعاً. معهم حق. خذ حالتي أنا. أليس علي أن أقتلك لكي أتخلص منك؟ أنا مطارد. ولم أعد آمن على نفسي من الآن حتى الصباح. والحلقة تضيق أكثر مما تخيلت. عارف وصل إلى جفون عيني. وتأتيني أنت جريحاً تريد العلاج والاختباء والمساعدة.

وبكى يوسف مرة أخرى: أين أذهب يا ألتر؟ أين؟

نفخ ألتر مهموماً إذ لم يعرف كيف يجيب على هذا السؤال الصعب. هو أيضا لا يعرف أين يذهب. هناك

مخرج وحيد خارج فلسطين كلها. لكنه لم يكن يسمح لنفسه يوماً أن يفكر فيه. الآن ربما صارت النجاة في هذا الطريق وحده، بعد أن سدت السبل وصار، حتى ألتر مسبّع الكارات، لا يستطيع أن يخرج من مخبئه.

* يوسف. لم لا تهرب خارج البلاد؟

كيف؟

* يعني موافق؟

طبعاً موافق. هل أنتظر أن يقتلني العثمانيون أم الألمان أم أبناء ملتي اليهود؟ أنت لا تعرف معنى أن تكون الدنيا كلها معادية لك. والدنيا كلها تشعرك أنك خطر عليها. طالما أنه حتى اليهود يريدون أن يقتلوني لكي لا يحملوا مسؤوليتي، أخرج من البلاد إلى حيث لا يحمل مسؤوليتي أحد.

* إنتظر عودة الغواصة الإنكليزية وارحل معها.

– قد لا تجيء بعد الآن. إذا عرفوا أن الشبكة انكشفت لن يأتوا.

وضع ألتر رأسه بين يديه. وساد صمت ثقيل. بعد قليل رفع رأسه: هل تكرهني يا يوسف؟

لماذا أكرهك؟

* لأنني كرهتك الآن.

ومن ظل لا يكرهني؟

أحب يوسف أن يبكي. لكنه استسلم لحالة من البلادة

المفجوعة.

قال ألتر: أتذكّر الآن عبارة تقول إن على المهمومين أن لا يقترب أي منهم من الآخر، لكي لا يحمل كل منهم همه وهم غيره. إنك تجعلني الآن أحس أنني أحمل همك مع همي. فكرهتك.

دهش يوسف لأنه لم ينزعج من هذا الكلام. اعتبره طبيعياً. ولذلك لم يبد عليه أنه سمع.

ولم يكن ألتر ينتظر حواراً. بل كان يريد أن يتكلم ليسمعه أحد ما: أكثر ما يجب أن يخاف منه الجاسوس هو أن يتصالح الطرفان المتنازعان وهو يعمل لأحدهما عند الآخر. عندها تصير التضحية به جزءاً من الصلح.

رفع يوسف رأسه متسائلاً: من صالح من؟

* لا أحد. ولكن هذا ما كنت أخافه دائماً وأنا أتتبع محاولات جمال باشا التقرب من الإنكليز.

وبدهشة كبيرة قال يوسف: جمال حاول ذلك؟

* ولم ينجح. وحاول أيضاً أن يتقرب من جماعتنا لكي يساعدوه في مشروعه.

وما هو مشروعه؟

* كان مشروعه أن يستقل بسورية. الآن انتهى هو ومشاريعه.

فانتهى الخطر عنك. لماذا تقول إنهم قد اتفقوا عليك؟

* يبدو أنهم اتفقوا عليك أنت.

من؟

* أهلنا الخائفون الذين كنت تعمل لصالحهم، والعثمانيون الذين كنت تعمل ضدهم.

اتفقوا؟

* دون تشاور. اتفقوا على التخلص منك. هل سمعت بديفيد آلروي؟

من هذا؟

* متمرد يهودي ضد المسلمين في أذربيجان في القرن الثاني عشر الميلادي. كتب عنه دزرائيلي. يقوم ديفيد بقتل أمير مسلم دفاعاً عن شقيقته. ثم يبدأ بتحريض اليهود الآخرين للعودة إلى القدس، أو العودة إلى التفكير والحلم بها. يعني كان مثلك. ولكن اليهود خافوا من انتقام المسلمين منهم على الأمير القتيل، وخافوا أن يتألب عليهم المسلمون بسبب كلامه المبكر عن القدس. فقاموا بقتله.

قتلوه؟

* اتفق الجميع على قتله. فقام والد زوجته بذبحه وهو نائم.

ولماذا لم يتفقوا عليك أنت؟

* لأنني ما زلت أحمل الجنسية الأميركية. جاسوس لصالحهم. ولكن من خارجهم. لم أدخل في كوادرهم مثلك. وهم لا يحملون مسؤوليتي.

تنهد يوسف ولم يعلق. فتابع ألتر: وها قد جاءنا الخطر الأكبر الذي يهدد أي جاسوس في الدنيا. وهو أن تنتهي الحاجة إليه. يصبح مثلك مهدداً من الجميع. والجميع يريدون تصفيته.

ولماذا تصر على كلمة الجواسيس؟

* لأننا جواسيس فعلاً.

ولكن الجواسيس يعملون لقاء أجر. ونحن لم نكن نتقاضى أجراً. هل كنت تقبض من أحد؟

ابتسم ألتر بسخرية: بل اسألني: كم كنت أنفق؟ هل تعرف كيف انتحرت سارة؟

أجفل يوسف من هذه القفزة في الكلام. تطلع إلى ألتر فرآه ينتظر إجابته. ولم يحب أن يكذب وهو في هذه الحالة. فحول الكلام مرة أخرى لكي لا يجيب: هل كنت تحب سارة؟

* ومن منا لم يكن يحب سارة؟

– ٦ –

ما هو الطريق الآخر الذي سيسلكه ألتر ولا يتسع لاثنين؟ وما معنى تحذير ألتر من أنه قد يعتقل حتى دون أن يعرفوه؟ ولماذا أصر عليه أن يعود إلى ارتداء الملاءة حتى يخرج من القدس نهائياً؟ومن أين جاء بقصة ديفيد آلروي هذا؟ قصة مؤثرة. مؤثرة عليه هو بالذات. فهو الآن في وضع ديفيد. كم ديفيد في

تاريخك أيها الشعب اليهودي؟ ديفيد الذي يقتل لك جوليات هو نفسه ديفيد الذي تخاف من تجرئه فتقوم بذبحه. ديفيد أم يوسف. ما الفرق؟ طالما أن دمك مهدور.

تمالك نفسك يا يوسف ليشانسكي. البكاء لا يفيد. والجرح الذي في القلب يؤلم أكثر من الجرح الذي في الكتف. لكنه لا يعيق عن الحركة. فتحرك.

إلى أين؟

مسلحو الهاشومير وراءه. والجيش يملأ الدنيا من كل جهة. والقرى اليهودية لا ترحب بالمطاردين من أمثاله. معهم حق. انتهى وقت اللعب. أو أنه منذ البداية لم يكن لعباً. هو لم يكن يحس بخطورة ما يفعل. كان يستمتع بالخطر لأنه كان ينجو منه، أو يثق أنه سينجو منه. حتى حين تسلل مع أفشالوم وتعرض للموت. حتى حين مشى في الصحراء جريحاً. حتى حين تسلل في البحر ليلاً ليعود إلى عتليت. وحتى حين سبح في البحر هارباً. كان يحس أن في الأمر مغامرة ممتعة. هذه المرة فقط بدأ يدرك الأمر. هذه ليست مغامرة ممتعة. الآن كل خطوة بطلقة. وكل طلقة بقتيل.

معهم حق.

اليهود الذين يعملون بصمت معهم حق. ويجب أن لا يزعجهم ولا يلفت إليهم الأنظار. الهاشومير معهم حق.

هم مطاردون ومهجرون ومهددون. ويرون أن قتل مطلوب مثله على أيديهم سيحسَن أوضاعهم مع الأتراك ويبرر وجود سلاحهم. ألتر ليفي معه حق. هو الآخر مطارد. وفي مرحلة كهذه سيتدبر كل إنسان أمره بنفسه. ويقلع شوكه بيده كما يقول العرب. والأتراك معهم حق. فقد آذاهم كثيرا وسرب معلومات خطيرة عنهم. الدنيا كلها معها حق وحيد لا ثاني له. وهذا الحق يتلخص لدى الجميع في أن يموت يوسف.

أين سمع من قبل عبارة: الموت حق؟ لعل المسلمين هم الذين يقولونها. الجميع يقولونها. الموت حق. على الأقل موته هو حق.

لا. ليس هو الموت. سكينة هانئة. لم يعد الآن خائفاً من العرب أو من اليهود أو من الأتراك أو من الإنكليز. لم يعد خائفاً من أحد. خطر له أن هذه البلادة شبيهة ببلادة من يتعاطون الحشيش.

استرخى. الليل الذي لم يعد مخيفاً. النجوم المتلصصة من بين الغيوم كأولاد يتطاولون على أسرار الكبار. الاسترخاء اليائس. الطمأنينة. سعادة مفاجئة غمرته. ثمة أشياء جميلة في الحياة. ولقد عشتها وعرفتها. خطر. قضية. مغامرة. مواجهة حقيقية لمواقف كما ينبغي أن تواجه. بسالة عند الضرورة. ومتعة. نعم. متعة. مع الزوجة. وأيضاً مع سارة. خاصة مع سارة.

ومد يده يتحسس الملاءة النسوية التي خلعها منذ قليل.

سارة.

حضرت سارة إلى البال مضمخة بلذة كل ما هو محرّم وممنوع. مرة وحيدة معها. لماذا حدثت دون تمعن؟ حتى أنه الآن لا يستطيع تذكر تفاصيل جسدها. ويحاول أن يسترجعه الآن. كيف كان نهداها؟ كيف كان خصرها؟ وجهها؟ عيناها؟ فخذاها؟ كيف دخل جسدها؟ وكيف تلقفه ذلك الجسد واحتواه؟ كيف يمكنه الآن أن يسترجع كل شيء؟ أحس أن الجسد الذي كان مع سارة يستيقظ الآن. بغتة هجم الجنس. من حيث لا يدري هجم. كأنها حضرت. كأنها هنا. كأنه معها.

تنهد. ولكن الخيبة التي عاد بها جعلته يدرك أنه الآن هنا. مطارد ومخذول. والليل خطر. وهو قد ترك زوجته وأولاده الذين يتمنى لو كان إلى جانبهم الآن. وأحس أنه قد خانهم.

وأحس بألم في كتفه. تلمس الجرح. الدم ينزف من جديد. هل كان واهماً؟ أم كان يخدع نفسه؟ الليل هو الليل. والخطر مازال هو الخطر. وعلى الوحش المحاصر أن يجد منفذاً.

لم يبق له إلا طريق مصر. الطريق السابق الذي اصطاده فيه البدو مع أفشالوم والدليل. لا طريق غيره. سيكون

هذه المرة أكثر حذراً. لكن مفاجآت الطريق كثيرة. والحرب دائرة بضراوة. آخ على أيام كان يعرف فيها مكان كل قطعة عسكرية وربما يعرف آمرها. الآن لا اتصال له بأحد. والقطعات دائمة الحركة. والدنيا كلها جحيم من القذائف والقتلى والجنود الهاربين.

صحيح أنه كان يعرف إلى أين يتجه. لكن حالة اليأس التي استولت عليه جعلته يسير. ويسير فقط. حتى أنه لم يعد متأكداً من وجهته. لو كان في النهار لتوجه غرباً بسهولة. ولكن أين الغرب في هذا الليل الغائم وسط هذه الصحراء العمياء؟

ولقد نزف كثيراً من الدماء. هل سيُصفَّى دمه؟ ماذا يفعل؟ لم لا يشرب من دم جرحه ليعوض الدم النازف. ولكن كيف يصل إلى جرح الكتف؟ وهل يشرب من الدم المتيبس على كمه؟

ظل يسير متخبطا وهو يردد أسئلته التي لا يريد لها جواباً حتى سمع: قف. فوقف.

واقتادته عربة إلى عربة. وسيارة إلى سجن. وسجن إلى عربة. حتى دخل سجناً في دمشق. وفي كل مكان كان يحكي قصته المريرة كلها. وعذاباته كلها. ولم يكن يرى أنه يقدم اعترافات. بل كان يضع حتى هؤلاء المحققين شهوداً على فجائعه وخيباته. حكى عن بو علي زيون وعن نيلي وعن الهاشومير والبنوك اليهودية، وعن مصر

والأرض الموعودة والحلم اليهودي الكبير.

وحين فتح الباب ودفعه الجندي إلى الزنزانة الرطبة في سجن دمشق سقط قرب نعمان.

فرفع نعمان رأسه وتطلع إليه: تلحقني إلى هنا؟

– ٧ –

وبدأت الطائرات الإنكليزية تحوم حول المواقع. ولكنها لم تعد تلقي بالقذائف. بل تلقي بأوراق تدعو فيها العرب إلى الالتحاق بجيش الأمير فيصل، وتدعو المسلمين لمحاربة الكفرة العثمانيين المتحالفين مع أعداء الله: الألمان.

أوراق تحمل الكلام ذاته الذي ورد في المناشير المصادرة: «بسم الله الرحمن الرحيم.

نداء إلى الجنود العرب من ملك العرب الحسين بن علي.

سمعت بمزيد من الأسف أنكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل الله، وفي سبيل المحافظة على أحكام الدين الإسلامي الشريف من التغيير والتحريف، ولتحرير العرب قاطبة من حكم الأتراك. ونحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل إليكم. لذلك أرسلنا هذا الإشعار ممهوراً بختمنا لنؤكد لكم أننا نحارب لأجل غايتين شريفتين، هما حفظ الدين وحرية العرب عامة. هلموا للانضمام إلينا، نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحرية العرب، حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في

الماضي».
ولم يكن أمام الضباط ما يفعلونه سوى إصدار المزيد من الأوامر المتشددة بمنع قراءة هذه المنشورات. وعلى قلة من يعرفون القراءة بين الجنود فقد ارتفعت عقوبة قراءة المنشور، أو العثور عليه مع الجندي من الجلد، إلى المزيد من الجلد، إلى الإعدام. ونفذ الإعدام بعدد من الجنود.
وصارت الطائرة الإنكليزية تلقي بالأوراق. فيفر الجنود مذعورين من هذه الأوراق أكثر مما كانوا يرتعبون ويهربون من قذائف الطائرات يوم كانت تقصف. حتى وصلوا إلى حالة جعلت الضباط الألمان يغرقون في الضحك رغم مأسويتها.
— جنود يهربون من الورق.
والمشهد الذي أثار الضحك أكثر من غيره هو أن عدداً من الجنود رأوا الأوراق تسقط من الطائرة نحوهم فهربوا منها باتجاه الشرق. وكانت الريح تسير بالاتجاه ذاته. فراحوا يركضون ويلتفتون وراءهم. والأوراق، الكلبة بنت الكلب، تلحق بهم كأنها تتقصدهم. يركضون وهم يصرخون باكين كأنهم يرجون الأوراق أن تتركهم وشأنهم وتكف عن اللحاق بهم. ولم يكن من الممكن إيقافهم. وحين استطاعوا أن يصلوا إلى حيث صاروا بمنجى من هذه الأوراق اللعينة، اكتشفوا أنهم قد

ابتعدوا عن مواقعهم وعن رؤسائهم وأنهم قد تخلوا عن سلاحهم وهم يركضون. ودون مناقشة طويلة رأوا أن متابعة الطريق شرقاً هي الأفضل: ألله هو الذي جلبها. أكملوا الطريق باحثين عن قراهم وأهلهم.

ولم يكن عارف يستطيع أن يحزم أمره ليقرر أين يوجه جهوده. يرى أحيانا أن عليه أن يخفف من انتباهه إلى مسألة الجواسيس ويترك الأمر لمصلحة مكافحة الجاسوسية. وذلك لأن القيادة تحتج بشدة على انعدام الأمن في الحياة العامة. لم يعد أحد يأمن على رغيفه وهو في يده لتزايد أعداد اللصوص وتزايد جرأتهم على السرقة. وحين يلاحظ عارف أن كل ما يُسرق يدخل في مجال الطعام يشرح الأمر لعلي فؤاد باشا بأن الجوع هو السبب. ويصر الباشا: ماذا نفعل؟ الحصار مستمر. والفلاحون لم يعودوا في أراضيهم. ومهما كانت الأحوال لا يجوز للحكومة أن تفقد هيبتها.

وينزل عارف، بعد تشديد الأوامر على عناصره، ليرى الشوارع مليئة بأناس أخرجوا أغراض بيوتهم ليبيعوها بأسعار زهيدة ويأكلوا بثمنها. ولا يحاول أن يعود مجدداً إلى الباشا، لأن الباشا قد أغلق أبواب الحوار حين قال له: إنه حتى الجيش أيضاً لم يعد يجد ما يأكله. بل إن ضيقه قد تحول إلى تشكك. فهو يعرف أن مؤونة الجيش ليست قليلة بهذا القدر. ولكن الأجوبة

على أوامره كلها تأتي بصيغة واحدة: لم يبق لدينا تموين. ما الذي حدث؟ هل تجرأ المدنيون على سرقة المخازن؟

وأطلعه أتلخان، وهو يكاد يبكي، على عدد من صحيفة «القبلة» التي تصدر باسم الشريف حسين. وفيها يتحدث الشريف عن ترحيبه باليهود في جميع بلاد العرب ويدعو إلى ممارسة التسامح الديني الذي عرف عن المسلمين. ويؤكد فيه على «ضرورة الاستفادة من علوم اليهود».

وفي المساء وجد عارف على طاولته دعوة للحضور إلى مطعم في المدينة. وتوقع أنه اجتماع أو مهمة جديدة. لكنه حين دخل المطعم وجد الحفلة صاخبة والصحون تروح وتجيء والمناسف تهيأ. ولم يتذكر ضابطاً كبيراً إلا ورآه في الحفلة. ما المناسبة؟

وقبل أن يحاول العثور على جواب، تقدم منه ميشيل إبراهيم سرسق يعانقه: معرفة من أيام بيروت. ولكن الترحيب ترحيب صاحب الحفلة. لا بد أنه الداعي.

تأبط ميشيل ذراعه: قبل أن تجلس مع الشباب لي معك كلمتان. أنا آتٍ من أجلك. إسمع. أنت تعرف حالة التموين. نزل المزاد عليّ لتأمين طعام الجيش. هذه ضربة ولا كل الضربات.

– ومن أين ستؤمن طعام الجيش؟

* من حوران وجبل الدروز. الحوارنة يخفون الحبوب عن الدولة لأن الدولة كلبة بنت كلب. تريد حبوب الفلاحين بلا ثمن. الفلاحون معذورون. أوضحت ذلك لجمال باشا. إدفعوا لهم ثمناً معقولاً. لم يرد علي. الآن جمال الصغير عرف الطبخة. وأنا الآن متعهد جمع الحبوب من منطقة حوران كلها. فوضني الباشا بدفع ٩١ قرشاً ثمن كيلو الحنطة و ٢١ ثمن كيلو الشعير. سعر معقول. أليس كذلك؟ إسمع. أنا ربَطتها وزبَطتها من كل جنب. اتصلت بفارس بيك الخوري الذي له مونة على المنطقة. والحوارنة يحبونه. سيأتيني جوابه خلال يومين. حسين بك الأحدب هو مندوب الحكومة. يعمل معي. وستتجمع المحاصيل في درعا بإشرافه، لتنقل بعدها بالقطار إلى دمشق. تصوركم تطورت بلادنا. بسبب القطار فقدت الجمال أهميتها. صرنا لا نتعامل إلا بالقطارات. أدع معي أن يديم الله علينا هذا الحال. طرفة عين ونكون قد صرنا مثل أوروبا. المهم، حبيبي، قد أستطيع إنزال ثمن كيلو القمح عشرة قروش. وإضافة إلى ذلك فإن عمولتي هي ٦÷ من السعر الأصلي الذي فرضته الحكومة. حتى الفلاحون، الذين كانوا عاصين على الدولة، حين عرفوا بالأسعار، قرروا أن يبيعوا الحنطة ويأكلوا الشعير والجلبانة والذرة لأن الحنطة حقها مصاري.

وما علاقتي بهذا كله؟

* أقول لك ضربة العمر. غير العمولة وغير فرق الأسعار نستطيع أن نبيع قسماً من الحبوب في السوق السوداء دون إيصالها للدولة. ألا ترى أن الناس كلهم جائعون؟

ميشيل أفندي. أنت تدخلني في تفاصيل لا علاقة لي بها.

* كيف لا علاقة لك بها؟ هل يمكن التجول بين الفلاحين وجمع الحبوب دون شرطة؟ أليس من الممكن أن نتعرض للأخطار؟ للتشليح؟ أليس من الممكن أن يخفي عنا الفلاحون قمحهم على الرغم من رفع الأسعار؟ هنا علاقتك.

ولكن أنا في القدس.

وأنا مفوض أن أختار من أشاء. ذكّرني بك نوري بيك خال الأولاد. هو شريكي بالربع. كان سيأتي معي. وأنت طوال عمرك دوغري وابن حلال وتستحق الخير. قلت لنفسي: تتنفَّع وتُنفِّع. ولكن لا أريد أن يصدر الأمر من الباشا وأنت غير متحمس. أريد لمن يقود الشرطة لهذا المشروع أن يكون متحمساً. وأن يرى مصلحته فيه بوضوح.

أعتذر. عندي شغل في القدس لا أستطيع أن أتركه.

* عارف!

أنا وراء جاسوس. لا أستطيع تركه لجمع القمح. أنا

رئيس شرطة ولست تحصلدار.

* ولك يا أبو إبراهيم هذه الضربة لا تصير كل يوم. وابن حميك نوري بيك يريد منفعتك.

شوف غيري ميشيل أفندي.

* مثل ما تريد. تفضل. تعشَّ مع الشباب.

ممنونك. عندي شغل.

وخرج مندفعاً من المطعم فاصطدم بأحد الخدم الذين ينقلون الطعام. اعتذر منه. ثم اصطدم بالباب إذ حاول الخروج دون أن يفتحه.

– ٨ –

في الصباح وهي تضع باقة الورد أمام عارف قالت له: رضي. ولكن كم تريد؟

قال لها عارف دون أن يرفع رأسه عن الأوراق التي أمامه: لا نختلف.

قالت، وهي تتظاهر بترتيب الورد ومسح الطاولة أمامه: لكنني لم أفهم. لماذا تريد مساعدته؟

قال لها: هذا رجل يساوي ثقله ذهباً. أنا معجب جداً بذكائه. حرام أن يقع بين أيدي هؤلاء الهمج. ولكن بصراحة ليس من أجل إعجابي به فقط. مللت. البلد خربانة. وكل شيء ينهار. أريد أن أنفذ بجلدي. سأخرج من هذه البلاد ومعي قرشان أعيش بهما. أستطيع أن أخرج وأخرجه معي.

* سأراك مساء بعد أذان العشاء عند باب الشام. ولكن يجب أن تكون وحدك.

وعند الباب التفتت: ودون سلاح. لا نريد مشاكل أبو إبراهيم.

بعد أذان العشاء سنرى أين تختبئ يا ألتر.

في المساء ذهب إلى باب الشام. ولكنه لم يجد خضرة حيث توقعها. وقف يتلفت حوله. ثم راح يتمشى ويعود إلى حيث كان. لقد جاء فعلاً دون أن يحمل سلاحاً. يستحق ألتر ليفي مغامرة خطرة من هذا النوع. بعد الجولة الثالثة في المكان خرجت له خضرة من وراء السور ملتفة بملاءة سوداء وهي تتوكأ عصا جعلتها تبدو أكبر من عمرها.

– لماذا تأخرت؟

* أنا هنا قبلك. أردت أن أتأكد أنك لم تجلب أحداً معك.

* لست هينة يا خضرة.

وهمَ أن يمشي فاستوقفته: انتظر.

التفت إليها. فقالت: أعطني مسدسك.

فتح سترته ببراءة. تحسست خصره ومدت يدها بين ساقيه دون حرج، ثم نزلت إلى قدميه وبعدها قالت: اتبعني.

وراحت تسير.

وسار وراءها. راح يتأملها وهي تسير أمامه. فلم يستطع

إلا أن يبتسم وهو يرى جسدها الصغير الملفوف: كيف خطر لهؤلاء الدرك الملاعين أن يسموها خضرة دياب؟

وتدفقت الأبيات التي تلائم موقفه الآن. كأنه سيقول للزيناتي خليفة، لألتر ليفي حين يراه:

لي ثار عندك يا زيناتي خليفة

وقد صار في قومي بكا وتنويح

وتطلب مني يا زيناتي أصالحك

أنا والنبي بين الرجال فصيح

فمن يعتق الحية يضره سمها

ويضحي فؤاده بالسموم طريح

وأنا لك منطاح يا زيناتي خليفة

على سرج خضرة ثم فيك أصيح

خضرة؟!

ونقل نظره إلى تلك الكتلة التافهة المتدحرجة أمامه.

وفوجئ أنها لا تتجه إلى الحواري القديمة، ولا إلى خارج البلد. بل تتوجه إلى وسطها. ثم صار من الواضح أنها تتجه إلى السرايا ذاتها: العمى. معقولة أن يكون مختبئاً في السرايا؟

* إنتظري. سيرونني في السرايا ويعرفونني.

– تعلّم أن تمشي مثلنا. الحيط الحيط.

وحين وصلت أمام دار السكاكيني، تقدمت بثقة وفتحت الباب بمفتاح أخرجته من زنارها.

هنا يختبئ ألتر؟ أمام السرايا؟ قدام عين الحكومة؟ هو نفسه دخل إلى الدار. الدرك يدخلون ويخرجون ويقطفون الورد أو يمازحون الخضرة. وألتر ليفي هنا. أين؟ هي كل يوم تفتح النوافذ لتهوية الغرف وإدخال الشمس إليها. ألهذا أقيمت العراقيل أمام سكنه هنا في هذا البيت؟

كيف سيلتقي بألتر الآن؟ أليس من الممكن أن يكون معه سلاح؟

دخلت وانتظرته قرب الباب. دخل وراءها. فأغلقت الباب وسارت إلى صحن الدار. ثم فتحت باباً يفضي إلى قبو. وأشعلت مصباحا يدوياً. فرأى أنه في غرفة الحطب.

تقدمت بين قطع الحطب حتى وصلت بوابة صغيرة، وقرعتها ثم قالت: يا هودا.

فصدر من الداخل صوت: في أرض...

فأكملت الخضرة: إسرائيل...

وصدر الصوت مجدداً: جاء جبرائيل؟

فأجابت: ومعه غصن السلام.

فُتحت البوابة وخرج ألتر ومسدسه بيده. تطلع كل منهما إلى الآخر. واضطر الاثنان إلى الابتسام. تقدم ألتر وفتش عارف بنفسه. وبعد أن انتهى جلس عارف على قطعة كبيرة من الخشب.

* هنا تختبئ إذاً. أعترف لك أنك قد فاجأتني.
جلس ألتر مقابله على قطعة خشب أخرى، والمسدس بيده: انتهت المفاجآت يا عارف بيك. إلا إذا كنت تخبئ لي أنت مفاجأة.
* لا مفاجأة إلا خروجنا معاً. ولكن كيف كنت تخرج وتدخل؟ الباب مقابل السرايا.
وأستقبل وأعطي الأوامر. للبيت مدخل آخر.
هز عارف رأسه مبدياً إعجابه وهو يتلفت حوله.
كيف ستخرجني؟ سأله ألتر.
* سأعطيك لباس ضابط.
هذه أفعلها بنفسي. بذلة الضابط عندي هنا.
* أعرف أنك فعلتها أكثر من مرة. ولكن هذه المرة ضابط مع هويته ومهمته وحصانه. وعلى المهمة المكان الذي تريده. إلا إذا أحببت أن أنتقل بك بصفتك سجيني.
هذه لا أستطيع أن أغامر بها. لكي أكون سجينك يجب أن يكون السلاح معك.
* إذاً؟
ضابط. ولكن تذهب معي. وتكون يدك اليمنى مكسورة ومجبرة.
* لماذا؟
لكي يكون هناك مبرر أن لا تحمل السلاح. ولذلك نكون

في مهمة مشتركة.

* خارج البلاد؟

لا. إلى المكان الذي أحدده.

* لا أستطيع أن أتغيب كثيراً. إن كانت المسألة ليوم واحد فلا بأس. إلا إذا كنا سنغادر البلد كلها. وإلى الأبد.

ساعات.

* موافق. متى؟

الآن. بعد أن عرفت مكاني يجب أن يكون التنفيذ فورياً.

* كم ستدفع؟

خمسة آلاف دولار.

* والتسليم؟

سيدفعها لك الشخص الذي أصل إليه.

* أستغرب: لماذا لم تحاول أن تصل إليه بنفسك.

— حاولت. ولكن التحركات مكثفة. وهم يقبضون على كل من يرونه في الطريق. حتى الضباط يشكّون بهم ليلاً. إضافة إلى أن وجهي صار معروفاً. معك سيكون الأمر مضموناً.

* كيف أثق أنك ستدفع لي بعد أن نصل؟

كما وثقت وجئتني دون سلاح. إذا كنت جاهزاً نخرج الآن.

* لا نستطيع الخروج فوراً. التحرك ليلاً يثير الشبهات

كما قلت أنت.

كما تشاء. متى نخرج؟

* صباحاً.

وماذا نفعل حتى الصباح؟

* ننتظر هنا معاً.

ولم يكن واضحاً في ذهن عارف ما سيفعله في الخطوة التالية. فقرر ترك الأمور تسير على ما هي عليه، إلى أن تأتيه الفرصة. تلفت حوله، وعينا ألتر ترقبانه بحذر، فرأى كرسياً قديماً مهترئاً وإلى جانبه فأس. قام باتجاه الكرسي، فشد ألتر قبضته على المسدس مترقباً. ولكن عارف ركل الفأس بقدمه، وجلب الكرسي فأسنده إلى قطعة من الخشب. ثم جلس عليه ودفع قدماً في عقب الأخرى ليخلع حذاءه. ثم أخرج علبة التبغ. وبدأ يلف سيجارة: أكيد عندك شيء يشرب.

كحول؟

* لا. شاي.

استرخت أعصاب ألتر. وأشار للخضرة أن تدخل لإعداد الشاي.

ابتسم عارف وهو يغمز لألتر: ماذا فعلت بالحصان الذي سرقته مني؟

كان أنت؟ ظننت ذلك. ماذا أفعل به؟ حين اقتربت من القدس نزلت عنه وتركته.

* مسكين. يكون مات من الجوع.

لا تخف. إما أن يلتقطه من يبيعه أو من يأكله. على أية حال كانت مقايضة على حصاني الذي كان مع العربة. ألم تأخذه؟

* أخذته. شكراً لأنك تركته. رفعت عني مسؤولية فقدان الحصان. يكثر خيرك.

وضحكا، وعارف يمد ساقيه معاً ليصبح وضعه مريحاً أكثر.

وأراد عارف للجو أن يسترخي أكثر، فقال وهو يتمطى: أعجبتني عبارة نقلت عن أللنبي. يقول: إعتن بحصانك في الإسطبل وكأنه يساوي خمسمئة جنيه. واركب عليه في الميدان كأنه لا يساوي قرشاً.

ضحك ألتر: هل يتعامل الإنكليز بالقروش؟

ضحك معه عارف: ربما. حين يجيئون إلينا.

فقال ألتر بشيء من التشفي: لقد أثبت أنه عسكري ممتاز.

ولم يعترض عارف: فعلاً. وإلا كيف هزمنا؟

وجاءت الخضرة بإبريق الشاي وصينية فيها ثلاثة كؤوس. وأشعل عارف اللفافة. توجهت خضرة إلى عارف وسكبت له كأساً فتناوله منها شاكراً. ورشف منه فوراً رشفة سريعة ووضعه على الأرض. ثم توجهت إلى ألتر فغطته عن نظر عارف، الذي قدر أيضاً أنه صار

مغطى عن نظر ألتر. وفيما بدأت تسكب الشاي وجه إليها رفسة عنيفة جعلتها ترتمي بالإبريق على ألتر الذي ارتبك من الحركة وارتماء العجوز عليه وحروق الشاي.
وفي لمحة كان عارف يقف وقد التقط المسدس.
ودفع ألتر بالعجوز عنه. ووقف يتوجع من حروق الشاي. فانتظره عارف.
ظلت العجوز على الأرض ناسية أوجاع حروقها وهي تنظر إلى الرجلين وقد اعتبرت نفسها المسؤولة عن هذه الفاجعة.
قالت: وثقت بشرفك يا عارف بك.
قال لها: إن لم أقبض عليه لا يكون عندي شرف.
جلس ألتر على الأرض دون أن يستطيع إخفاء ألمه من حروق الشاي. ضغط على جبينه بيده وكز على أسنانه، ورفع نظره متوجعاً إلى عارف: كم تريد؟
— ولا مال قارون.
* لا تجحش. الخمسة آلاف جاهزة. تذهب الخضرة وتجلبها الآن. اتركني أخرج من الدار.
— لا تحاول.
* وأعطيك شيكاً بخمسة آلاف أخرى محولة على بنك دويتش بالستاين تقبضها من أي مكان من العالم: دمشق. فلسطين. مصر. ألمانيا.
قلت لك لا تعذب حالك.

* أنا أعرض عليك ثروة.

لا أريدها.

* ماذا تريد؟

أن أقدمك إلى محاكمة عسكرية.

* وبماذا ستحكم علي المحكمة؟

بالشنق.

ورغم آلامه ضحك ألتر: واللّه العظيم أنت عقلك قليل.

ربما. قم معي.

ونهض ألتر...

ولكنه قبل أن يسير نحو الباب تطلع إلى عارف بثقة.

وقال له: يا عارف بك. أريد أن أقول لك كلمة أخيرة.

حتى لو أمسكت بالحبل بيدك. وبيدك وضعته حول عنقي، فلن أشنق.

قال عارف: لو كان الأمر متروكاً لي ما عذبت نفسي بالحبل. كنت قتلتك الآن. أمامي.

مشى ألتر دون كلام ودخل السرايا، وعارف وراءه ممسكاً بالمسدس، والحرس يتطلعون مستغربين. فأمرهم عارف بدخول الدار وتفتيشها.

حين فتح باب الزنزانة قال ألتر: كنت أريد أن أخدمك يا عارف. وكنت سأغنيك لولد ولدك.

– يظهر أنك لم تعرفني جيداً حتى الآن يا ألتر.

* ولكنني أقول لك يا عارف أن الأمور ماشية ولن

تستطيع أن تغير فيها شيئاً. الإنكليز سيكملون احتلال فلسطين كلها. وأنت تكون ضيعت فلسطين وضيعت مستقبلك.

* حين يجيء العناصر الآن ومعهم ما سيجدونه في مخبئك ستخف عنجهيتك.

قال ألتر: وماذا تتوقع أن يجدوا؟ أدلة؟ أنا سأعترف دون أدلة.

* بماذا ستعترف؟

بأنني كنت أخدم الإنكليز من أجل تنفيذ حلمنا الصهيوني بدولة يهودية في فلسطين. أتظن أن سارة آرونسون أكثر مني شجاعة؟

لا يعرف لماذا أحس برعدة مفاجئة حين ذكر اسم سارة:

هل ستنتحر مثلها؟

لا. أنا لا أنتحر. ولكنني عاتب عليها. كان يجب أن تنتظر مثلي لكي تشهد ولادة الدولة.

لم يعد يطيق الاستماع. تركه وخرج، بعد أن أقفل الباب ووضع المفتاح في جيبه.